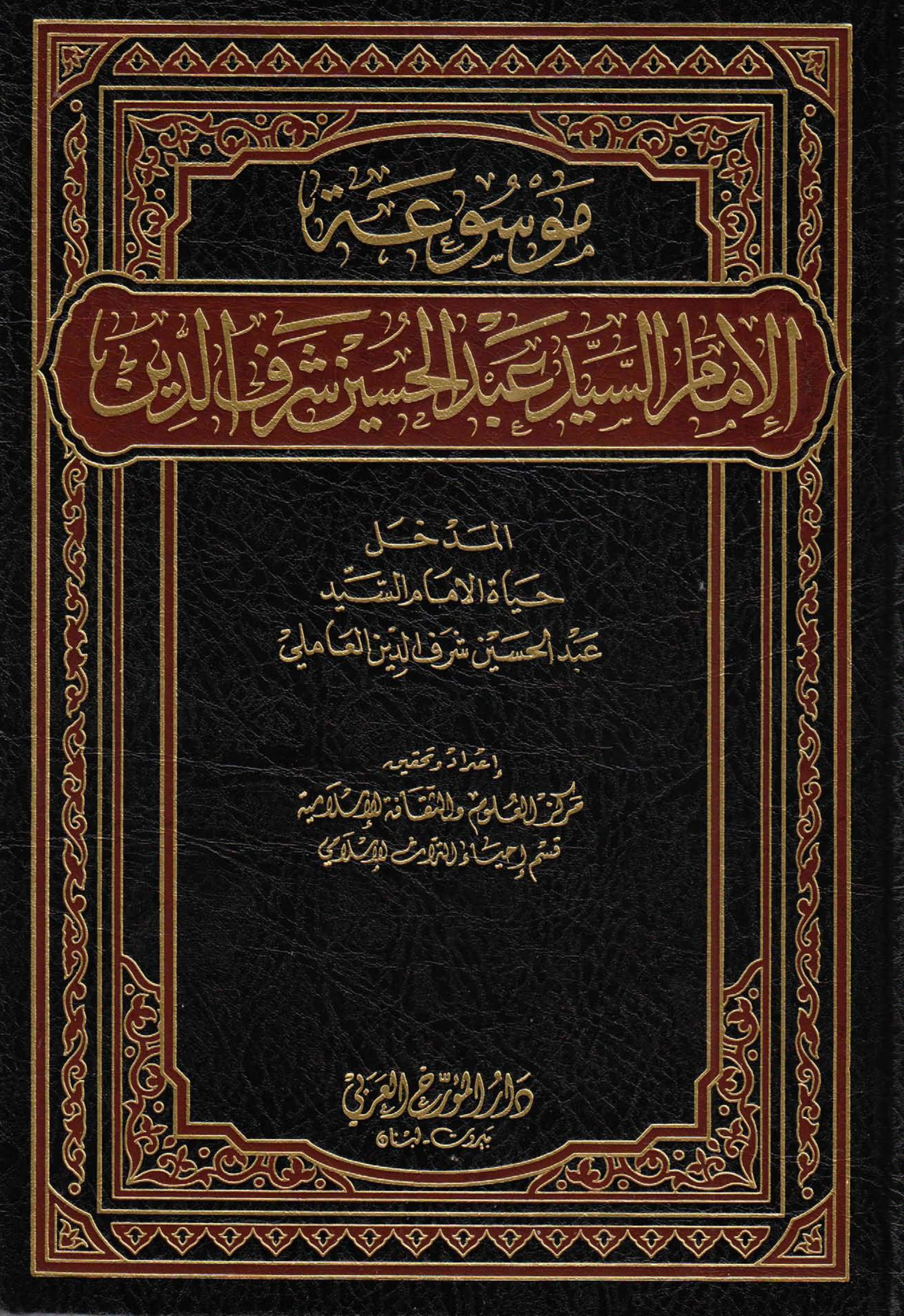

موسوعة
الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين
المدخل
حياة الإمام السيد
عبد الحسين شرف الدين العاملي
إعداد وتحقيق
مركز العلوم والثقافة الإسلامية
قسم إحياء التراث الإسلامي
دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

موسوعة

الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين

المدخل
حياة الإمام السيّد
عبد الحسين شرف الدين العاملي

تأليف
السيّد مُنذر آل الحكيم

دار المؤرّخ العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م
الطبعة الثانية
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٢٤/٢٤ - تلفاكس: ٥٤١٤٣١ هاتف: ٥٤٤٨٠٥
Email: al_mouarekh@hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم


شبكة الفكر
alfeker.net

دليل
موسوعة الإمام شرف الدين

المدخل

حياة الإمام السيّد عبدالحسين شرف الدين العاملي

الجزء الأوّل

١ . المراجعات

الجزء الثاني

٢ . النصّ والاجتهاد

الجزء الثالث

٣ . الفصول المهمّة في تأليف الأُمّة

٤ . أبوهريرة

الجزء الرابع

٥ . كلمة حول الرؤية

٦ . فلسفة الميثاق والولاية

٧ . أجوبة مسائل موسى جار الله

٨ . إلى المجمع العلمي العربي بدمشق

٩ . مسائل فقهيّة

الجزء الخامس

١٠ . الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء عليها السلام

١١ . المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة

الجزء السادس

١٢ . تأليف الأُمّة

١٣ . مودّة أهل البيت عليهم السلام فريضة

١٤ . عصمة أهل البيت عليهم السلام بنصّ الكتاب

١٥ . الصلاة على أهل البيت عليهم السلام فريضة

١٦ . ثبوت الإمامة لعليّ عليه السلام بنصّ الكتاب

١٧ . بيّنة الوحي وشهادتها بأنّ عليّاً عليه السلام وشيعته خير البريّة

١٨ . فريضة ما أدّاها إلّا عليّ عليه السلام

١٩ . عقيلة الوحي زينب بنت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام

٢٠ . صلح الحسن عليه السلام

٢١ . زكاة الأخلاق

٢٢ . بغية الفائز في جواز نقل الجنائز

٢٣ . ثبت الأثبات في سلسلة الرواة

٢٤ . تحفة المحدّثين

٢٥ . الفضائل الملفّقة

٢٦ . مختصر الكلام في مؤلّفي الشيعة من صدر الإسلام

الجزء السابع

٢٧ . بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين

الجزء الثامن

ملحقات بغية الراغبين

الجزء التاسع

الوثائق، الخطب، المراسلات، الإجازات والتقريظات

الجزء العاشر

الفهارس

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين.

وبعد، فقد دأب قسم إحياء التراث الإسلامي على إحياء الكتب التراثيّة القيّمة، وقد بلغت قائمة منشوراته نحو المائة مجلّد، حصل عدّة منها على جوائز الكتاب السنوي وعلى جائزة سنة الولاية، وعلى جائزة الحوزة العلميّة في قم المقدّسة. وهذا دليل بالغ الأهميّة على جودة الجهد التحقيقي في هذا القسم.

وقد نشر هذا القسم ـ فيما نشر ـ موسوعة مؤلّفات الشهيد الثاني ﵀، ولا يخفى على العلماء الأجلّة والقرّاء الكرام فائدة نشر المؤلّفات الكاملة لكلّ عالمٍ من علمائنا، في الاطّلاع على آرائه العلميّة من فقهيّة وأُصوليّة وغيرها، وعلى ما جدّ في زمنه من المسائل التي لم يُبْتَلَ بها الأسلاف، وعلى تطوّر علمَي الأُصول والفقه وغيرهما من العلوم الإسلاميّة في ذلك الحين، وفوائد أُخرى كثيرة يعرفها العاملون في حقل تراثنا الإسلامي.

وقد قرّر قسم إحياء التراث الإسلامي نشر مؤلّفات روّاد الإصلاح المعاصرين بدءاً بالإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين محقّقة منقّحة كاملة تحت عنوان **موسوعة الإمام شرف الدين**، وجدّ مسؤولو القسم في ذلك واجتهدوا على مدى أربع سنوات أو تزيد، موظِّفاً جهود المحقّقين الأفاضل لهذا الهدف الكبير، وجرت اتّصالات مع أُسرة السيّد الإمام شرف الدين في لبنان أثمرت جمع أشتات لم تنشر من قبل في كتاب.

وقد كتب الفاضل السيّد منذر الحكيم ـ حفظه الله ـ عن حياة الإمام السيّد عبدالحسين شرف الدين بحثاً تفصيليّاً، جعل مدخلاً لهذه الموسوعة القيّمة.

وقد اعتنى عنايةً بالغةً بدراسة تلقي الضوء على عصر الإمام شرف الدين ومن ثمّ على حياته وسيرته المباركة.

وقد اختار منها ما يلقي الضوء على حركة الإحياء التي عاصرها وساهم فيها الإمام شرف الدين وأكّد على روّاد الإصلاح الذين سبقوه بقليل أو عاصروا مشروعه فبدأ بالميرزا الشيرازي صاحب فتوى التنباك ثمّ السيّد جمال الدين الأسدآبادي وختم بحثه بالسيّد محمّد سعيد الحبّوبي بطل ثورة العشرين في العراق.

وتعرّض إلى الأحوال الدوليّة في زمانه من تكالب الغربيّين على بلادنا ونهب خيراتنا، إلى سقوط الدولة العثمانيّة وبداية الاستعمار الصريح، حيث احتلّ المستعمر الكافر البلاد واستولى على كلّ ما فيها.

وخلص إلى جهاد السيّد عبد الحسين شرف الدين وكفاحه ضدّ الاستعمار في سوريا ولبنان محلّ إقامته، وما أُوذي به، ثمّ نفيه بعد الحكم عليه غيابيّاً.

وانتهى إلى إصلاحاته من مدارس تربّي النشء على الإسلام، إلى مؤسّساتٍ خيريّة تداوي جراح الفقراء والمعوزين، إلى كتبٍ بقيت بعده مشاعل هداية ونور.

كلّ ذلك بأُسلوبٍ سهلٍ سلس، وتسلسلٍ وتحليل يعتمد على مصادر موثّقة.

فجزاه الله خير الجزاء.

وإذ يقدّم قسم إحياء التراث الإسلامي هذه الموسوعة للعلماء والطلّاب والقرّاء الكرام، يشكر الله تعالى على ما أنعم عليه بإتمام هذا العمل الكبير بالدقّة والإتقان، ويعدهم بالمزيد من هذه الموسوعات إن شاء الله، ولله الحمد والشكر دائماً أبداً، هو مولانا ونعم النصير.

مركز العلوم والثقافة الإسلاميّة
قسم إحياء التراث الإسلامي

من قصار كلمات الإمام شرف الدين

١. لا ينتشر الهدى إلّا من حيث انتشر الضلال.

٢. فرّقتهما السياسة فلتجمعهما السياسة.

٣. حفظ الله الإيمان بحفظ إيران.

٤. على كلّ مسلم عربيّ أن يتعلّم الفارسيّة كما يجب على كلّ مسلم فارسيّ أن يتعلّم العربيّة.

٥. موعدنا فلسطين على أرضها نحيا ونموت.

٦. ولنكن نحن من فلسطين مكان الحسين من قضيّته.

٧. تنمّر الصهاينة يتحدّى رسالة القرآن.

٨. ألا ومن مات دون حفنةٍ من تراب وطنه مات شهيداً.

قالوا عنه

العبقريّ المتحرّر والمفكّر الجريء .

(آية الله محمّد جواد الطباطبائي)

شجرة طيّبة قدّمت نعيم قلبها للناس .

(الشيخ محمّد علايا مفتي لبنان)

كان الفقيد الكبير محاولة ضخمة ومثالاً حيّاً للجهاد والاجتهاد .

(كمال بك جنبلاط)

الإمام شرف الدين منار لا تنطفئ أنواره ومجد لا تمّحي آثاره .

(السيّد محسن جمال الدين)

كان الفكر النيّر الحرّ يوم كانت حرّيّة الرأي سبيلاً إلى الأعواد .

(يوسف سالم النائب الكاثوليكي)

عهد شرف الدين افتتاح عهدٍ جديدٍ من الوحدة الدينيّة .

(دولة الحاج حسين العويني)

كان وحده جيشاً مرابطاً في ثغور الإسلام .

(جمعيّة منتدى النشر)

أُمّة من الأبطال وقد جاءت في بطل من الأُمّة .
زعيم ثورة العشرين ضدّ الانتداب الفرنسي .
كان الوطنيّة يوم كانت آلاماً وتضحيات .

(الشيخ عبد الله العلايلي)

عرفناه حجّةً ساطعةً فآمنّا به واتّبعناه .

(أحمد حسين شهاب)

ثاني اثنين بعد الأفغاني انتهت إليهما زعامة الدعوة للوحدة الإسلاميّة .

(السيّد محمّد حسن الأمين)

المقدّمة

الإمام شرف الدين في سطور

١ ـ ولد الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين العاملي في مستهلّ جمادى الآخرة من سنة ١٢٩٠هـ في مدينة الكاظمين في العراق.

٢ ـ وفي الثامنة من عمره هاجر مع والده السيّد يوسف شرف الدين ليستقرّ في موطنه من جبل عامل «شحور» من أعمال مدينة صور في لبنان.

٣ ـ وخرج من شحور إلى العراق في التاسع من ربيع الأوّل سنة ١٣١٠هـ بعد أن قضى اثنتي عشرة سنة من عمره جادّاً في دراسة المقدّمات عند والده المقدّس.

٤ ـ ثمّ قضى سنة واحدة من عمره المبارك في حاضرة سامرّاء العلميّة مشتغلاً بدراسة السطوح الأُولى من الفقه والأُصول.

٥ ـ وفي سنة ١٣١١هـ استقرّ في حاضرة النجف الأشرف وتلقّى فيها علوم الدين من كبار علمائها خلال إحدى عشرة سنة حتّى بلغ مرتبة الاجتهاد.

٦ ـ وفي التاسع من ربيع الأوّل سنة ١٣٢٢هـ خرج من النجف الأشرف وهو يحمل شهادات الاجتهاد المطلق باتّجاه موطن آبائه؛ ليستقرّ فيها عالماً عاملاً ومصلحاً مجاهداً في سبيل ربّه، ناهضاً بأُمّة جدّه سيّد المرسلين.

٧ ـ بقي في شحور حتّى طلب منه أهل صور ليستقرّ فيها مرجعاً وموئلاً لهم فدخلها منتصف ذي الحجّة سنة ١٣٢٥هـ، فانتظمت به إلفتهم وشؤونهم الثقافيّة

والدينيّة، ومنها انطلق إلى نهضته الإصلاحيّة التي كانت تراوده منذ حين.

فأسّس الحسينيّة المعروفة فيها يوم الغدير سنة ١٣٢٦هـ[1]، ثمّ أسّس قواعد المسجد الجامع سنة ١٣٣٢هـ في وقتٍ كان العالَم قد مُنيَ بأوّل حرب عالميّة شاملة.

وأسّس مسجداً آخر سنة ١٣٤٧هـ كما أسّس المدرسة الجعفريّة في صور سنة ١٣٥٧هـ بعد عناء طويل وجهدٍ متواصل تمخّض عن تأسيس مدرسة الزهراء للبنات، ولم تمنح الوزارة إجازتها حتّى أقفلتها وختمت مقرّها بالشمع الأحمر سنة ١٣٦١هـ.

٨ـ وفي رمضان سنة ١٣٢٨هـ زار العلّامة شرف الدين في جماعة من أعيان جبل عامل المدينة المنوّرة (مدينة النبيّ ﷺ)، كما زار مصر في أواخر سنة ١٣٢٩هـ واتّصل بأعلام مصر، وأسْفرت زيارته هذه عن سِفْره المبارك الذي عرف فيما بعد بـ المراجعات.

٩ـ لقد وقف الإمام شرف الدين وقفة الأسد الشهم إلى جانب العلماء والمؤمنين في محنة الحرب العالميّة الأُولى خلال سنواتها ١٣٣٢ ـ ١٣٣٧هـ فصمد في وجه الأعاصير حتّى وضعت الحرب أوزارها باحتلال بلاد المسلمين من قبل المستعمرين.

وكان الإمام شرف الدين من قادة الرافضين للاحتلال الغاشم ممّا دعا الفرنسيّين للتآمر عليه باغتياله تخلّصاً من هذا الطود الشامخ.

ولكنّ الله تعالى كان قد قدّر له وللأُمّة إنقاذه من هذه المؤامرة البشعة التي نفّذها عملاؤهم في ضحى الثلاثاء في الثاني عشر من ربيع الثاني سنة ١٣٣٧هـ فباءت بالفشل ليشارك في مؤتمر الحُجَير التاريخي سنة ١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م، حيث تمخّض هذا المؤتمر التاريخي عن تفويض العلماء الأفاضل: السيّد محسن الأمين العاملي والسيّد عبد الحسين شرف الدين والسيّد عبد الحسين نور الدين مهمّة البحث عن مصير الجبل مع الملك فيصل في الشام.

---

١. وقد دمّرتها الغارات الصهيونيّة في الاحتلال سنة ١٩٨٢م.

١٠ـوفي هذه البُرهة كان الفرنسيّون قد استقرّوا في صور، وكان لهب الثورة ضدّهم آخذاً بالاشتداد، وانتهز الفرنسيّون لحظة رجوع العلّامة شرف الدين إلى صور ليسدّدوا للثوّار ضربةً قاسية.

وفي مستهلّ شهر رمضان سنة ١٣٣٨هـ اضطرّ السيّد عبد الحسين شرف الدين للانسلال من صور إلى الشام وقد أُعلنت الأحكام العرفيّة في بلده وحكم عليه بالنفي المؤبّد مع مصادرة أملاكه، كما حكموا على غيره من الثوّار بالإعدام، فقضى ثلاثة عشر شهراً وثمانية عشر يوماً من خيرة أيّام عمره في المنفى.

١١ـوبعد احتلال دمشق خرج منها إلى حيفا. كما زار مصر للمرّة الثانية أيّام النهضة سنة ١٣٣٨هـ. ثمّ رجع إلى بيروت في الثامن عشر من شوّال سنة ١٣٣٩هـ بعد أن هدأت الأوضاع وأُعطي الأمان، فاجتمع بالجنرال غورو والمسيو ترابو حاكم لبنان الإداري مصارحاً إيّاهما بما ارتكباه من أخطاء حتّى اضطرّهما إلى الاعتذار وإصدار العفو العام عن المعتقلين والثوّار.

١٢ـوحجّ بيت الله الحرام في سنة ١٣٤٠هـ، وأمّ المصلّين في البيت الحرام للصلوات الخمس في موسم الحجّ. ولم يُعلَن الهلال إلّا بعد ثبوته عنده، وكان للشيعة يومذاك احترام ملحوظ لم يعهد مثله، وقد عمل الشيعة حسب مذهبهم في المواقف كلّها في ذلك العام.

١٣ـوزار العلّامة شرف الدين قبور أئمّة الهدى في العراق وإيران سنة ١٣٥٥ـ١٣٥٦هـ واقترنت زيارته بالاحتفاء به بشكلٍ قلّ نظيره.

١٤ـوفي الثامن من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧هـ وبعد عمرٍ مباركٍ طافح بالخير العميم والإصلاحات الجسيمة التي تركها في الأُمّة الإسلاميّة، كان رحيله من هذا العالَم السفلي إلى ربّه الكريم، رافقه وداعٌ غزير بالدموع الموالية لأهل بيت الرسالة حيث فجعت به القلوب المؤمنة في كلّ أرجاء العالَم الإسلامي، وشُيّع في بيروت والعراق تشييعاً قلّ نظيره ودُفن في الروضة الحيدريّة في النجف الأشرف، وخلّف لنا

تراثاً إسلاميّاً ضخماً ومدرسةً كبيرةً للإصلاح الشامل وللرقيّ بالأجيال الناهضة باتّجاه إعلاء راية الإسلام المحمّدي عاليةً خفّاقة في ربوع الأرض تحقيقاً لوعد الله الصادق: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهَمْ فِى الأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١].

فسلامٌ عليه يوم وُلد. ويوم هاجر في طلب العلم. ويوم جاهد لإصلاح أُمّة جدّه. ويوم وافاه الأجل باتّجاه دار الخلد. ويوم يُبعث حيّاً راضياً مرضيّاً.

وفي ختام هذه السطور التي صوّرت لنا أهمّ محطّات حياته وجهاده العظيم أتقدّم بالشكر الجزيل للسادة الأفاضل آل شرف الدين وفي مقدّمتهم نجله العلّامة السيّد عبدالله شرف الدين وأحفاده: المهندس السيّد محمّد نجل السيّد جعفر والأُستاذ السيّد حسين نجل السيّد محمّدعلي والسيّد محمّدرضا حفيد نجله السيّد محمّدرضا شرف‌الدين حفظهم الله تعالى وجعلهم ذخراً للإسلام والمسلمين.

كما أُقدّم شكري الفائق ـ للأُستاذ جواد عواضة مسؤول قسم العلاقات العامّة في معهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ببيروت، والأُستاذ السيّد محمّد حسين الهاشمي الملحق الثقافي للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، والأُستاذ فؤاد الزين حفيد صاحب مجلّة العرفان الشيخ أحمد عارف الزين رحمه الله تعالى ـ على كلّ ما قدّموه لإثراء هذا الجهد المتواضع من معلومات وملاحظات ووثائق، سائلاً لهم وللإخوة الأفاضل في قسم إحياء التراث الإسلامي ولكلّ من ساهم في إحياء هذا التراث وافر الأجر ومزيد التوفيق إنّه وليّ النعم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

السيّد منذر الحكيم
قم المقدّسة، ٤ جمادى الأُولى ١٤٢٦

---

١. القصص (٢٨): ٥ ـ ٦.

الباب الأوّل

حركة الإصلاح في عصر شرف الدين

الموقع المتميّز للعالم الإسلامي

الفصل الأوّل : مجالات الإصلاح وميادينه

الفصل الثاني : اتّجاهات حركة الإصلاح وتيّاراته

الفصل الثالث : رموز الإصلاح وروّاده الأوائل

الموقع المتميّز للعالم الإسلامي

١ ـ عصر الإمام شرف الدين

ولد الإمام شرف الدين سنة ١٢٩٠هـ، وبرز لريادة الوحدة والإصلاح الاجتماعي قبيل الحرب العالميّة الأُولى، واستمرّ نشاطه المتميّز إلى ما بعد الحرب العالميّة الثانية. وقد سبقته جهود إصلاحيّة وحدويّة وكتب عديدة ذات علاقة بطبيعة العصر وما تميّز به من خصائص سياسيّة وثقافيّة واجتماعيّة واقتصاديّة.

ولا يمكن فهم طبيعة حركة الإصلاح في عصره ومسوّغاتها من دون معرفة خصائص عصره، كما لا يمكن فهم طبيعة حركته ومميّزاتها من دون معرفة ما سبقه وأحاط به من إنجازات إصلاحيّة لروّاد عصره من المصلحين.

ومن هنا يلزم أن نقف أوّلاً عند ملامح عصر الإمام شرف الدين، ثمّ نحاول أن نستجلي ملامح وخصائص حركة الإصلاح في عصره.

إذن، لنا بحثان مهمّان قبل الجولة الممتعة التي سنقضيها في البحث عن نشأة العلّامة شرف الدين، تلك النشأة الروحانيّة ـ الأخلاقيّة والعلميّة ـ التي دامت ثلاثة عقود وسنتين تقريباً، وسنطلّ بعدها على المرحلة التالية من حياته المباركة، وهي مرحلة نشاطه التثقيفي الديني ـ الاجتماعي والسياسي ـ والذي أطلّ من خلاله على عالمه الإسلامي، وبرز فيها إماماً ورائداً للإصلاح الشامل ورمزاً للوحدة الإسلاميّة، فكان شاهداً على قضايا عصره ومميَّزاً في إنجازاته.

ولأجل أن نعرف كيف احتلّ العلّامة شرف الدين هذه الصدارة في القلوب والعقول، وكيف ملأ وجدان الأُمّة، وتخطّى إطار الزمان والمكان الذي عاشه، وتبوّأ فيه الريادة

الفكريّة والعلميّة للأُمّة الإسلاميّة في شرق الأرض وغربها ... ينبغي أن نقف عند ملامح وخصائص ظرفه الذي كان يحيط به وعاش فيه استهداءً بالكلمة القيّمة التي تقول: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس».

ولا يتفاوت في هذا الأمر الظرف الذي كان يحيط به في صور أو يحيط بالجبل، والظرف الذي كان يمرّ به العالم العربي والعالم الإسلامي بل العالم الإنساني الأوسع، بما في ذلك الدول الاستعماريّة التي كانت قد تغلغلت في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، وبدأت تتشاطر هذا العالم في مخطّطاتها الاستعماريّة الرهيبة.

إنّ معرفة ظروف عالمه الصغير الذي بدأ فيه نشاطه ـ وهي قرية شحور ـ ضرورية، كضرورة معرفة الظروف التي كان يعيشها المسلمون في عالمهم الفسيح؛ نظراً للمهام الجسيمة التي كان قد نذر نفسه لتحقيقها انطلاقاً من شحور أو صور.

ومن الجدير أن نقف هنا عند كلمة رائعة لشخصيّة كانت قد عاصرته وعرفته عن كثب، ألا وهو السيّد محمّد حسن الأمين، إذ كتب في مقدّمة كتاب الدكتور هادي فضل الله رائد الفكر الإصلاحي السيّد عبد الحسين شرف الدين ما يلي:

... فبين كلّ الذين كتبوا عن الإمام شرف الدين لم يتوفّر لأحد أن يضيء هذا العدد الكبير من جوانب شخصيّته الفذّة الواسعة ... مضافاً إليها تلك المحاولة القيّمة التي اتّجهت إلى وضع تلك الشخصيّة في إطارها من أحداث التاريخ ... فهي لم تكتفِ بتقديم سيرة ... ولكنّها كانت طموحة لتقديم سيرة الإمام من موقع صلة هذه السيرة في الاتّجاهات العلميّة والفكريّة والسياسيّة التي سبقت وزامنت عصرها.

ومن هنا ينبغي أن ننطلق لدراسة عصر الإمام شرف الدين دراسة شاملة تكشف اللثام عن كلّ العناصر الفاعلة في الساحة الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وفي كلّ الأصعدة بدءاً من «جبل عامل» منطقة تواجد العلّامة شرف الدين وممارسة نشاطه الاجتماعي والسياسي، ثمّ منطقة الشام بما فيها لبنان وسوريا، وهما لا ينفكّان عن العراق مركز المرجعيّة الدينيّة العليا وحاضرة العلم الشيعيّة الأُولى. والعراق وما كان

يجري فيه كان على ترابط وثيق بما يجري في الدولة القاجاريّة والامبراطوريّة العثمانيّة.

وكلّ ما كان يجري في العالم الإسلامي لم ينفصل عمّا كان يخطّطه الغرب المستعمر لتفتيت أرض الإسلام واستلابها في وضح النهار، والأمرّ من ذلك الهجوم العسكري والاختراق الثقافي الذي كان قد بدأه المستعمرون بشتّى جنسيّاتهم منذ عصر الاستشراق، ثمّ النفوذ والتغلغل إلى أعماق العالم الإسلامي تحت بريق عناوين وشعارات علميّة أو إنسانيّة خدّاعة كانت تستهدف الشرق والأُمّة الإسلاميّة بالذات[١].

٢ ـ ضرورة دراسة عصر الإمام شرف الدين

إنّ فهم الظروف العالميّة والإقليميّة والاتّجاهات الفاعلة في الساحة الفكريّة والسياسيّة التي أحاطت بهذه الشخصيّة، يعتبر عنصراً مهمّاً في فهم تكوين الشخصيّة التي نحن بصدد دراستها، كما أنّه عنصر مهمّ في فهم المواقف والأنشطة والاتّجاهات التي تمثّلت في سلوك هذه الشخصيّة، وهي بالتالي مهمّة في فهم مواقع الصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل كما أشار الأُستاذ محمّد حسن الأمين في صدر كلمته التي مرّ نقلها.

وعلى هذا فمن الطبيعي جدّاً ـ بل من الضروري ـ أن ينعى الأمين على بعض الكتّاب وينتقد الدراسات التي تؤرّخ للشخصيّات الفذّة بوصفها لوحة مفصولة عن سياقها من العصر الذي عاشته وما سبقه وما يليه.

ومن هنا نؤيّد ما ارتآه في هذا الصدد، كما نكتفي في هذا المختصر بما كتبه عن مميّزات عصره بقوله:

إنّ كلّ شخصيّة فذّة ـ والإمام شرف الدين واحد من هؤلاء ـ لا يمكن أن تقدّم ذاتها ـ أعني أبعادها الحقيقيّة وعظمتها الكاملة ـ إلّا من خلال (تاريخيّتها) أعني من الإطار

---

١. تجد كلّ هذه البحوث في ما كتبناه بشكل مستقلّ تحت عنوان «عصر الإمام شرف الدين».

الزماني الذي كان مجال تفاعلها وميدان تواصلها مع حركة التاريخ بما هي مؤشّر للمستقبل .

إنّ الرجال الأفذاذ لا يكونون (استثنائيّين) لأنّهم تمرّدوا على شروط الزمان والمكان ، بل قد تكون (استثنائيّتهم) تعبيراً عن تفاعل عميق وغني مع هذه الشروط ، بل غالباً ما تكون كذلك ... ثمّ بعد ذلك يتولّد طابعهم الإنساني الكبير ، فيكون ذلك الطابع وليد أصالة الشخصيّة وعمق علاقاتها بخصوصيّة الزمان الذي تمّت فيه ؛ لتطلّ بعده على ما هو أبعد وأشمل ، أي لتصبح ذات طابع إنساني يتمرّد على حدود الزمان والمكان .

والإمام شرف الدين واحد من هؤلاء الرجال ... عاش داخل عصره ... كان شاهداً على القضايا الكبيرة فيه والقضايا الصغيرة على حدّ سواء ... هو لم يرفض أن يعايش هموم القرية الصغيرة التي عاش فيها ، ولا المدينة الصغيرة التي كانت إطار مهمّاته الدينيّة والإصلاحيّة . وكان الإمام شرف الدين يوم عاد من رحلته العلميّة في النجف الأشرف فقيهاً ومجتهداً وإماماً وخطيباً بارعاً وكاتباً متميّزاً ، وكان إلى ذلك كلّه على جانب عظيم من الخلق والشجاعة والجاذبيّة ... ولكنّ هذه الصفات الرفيعة لم تدفع بصاحبها للبحث عن آفاق أوسع من قريته (شحور) أوّلاً ، ومدينته الصغيرة (صور) بعدها ... وكذلك فإنّ القرية الصغيرة والمجتمع المحدود للمدينة الصغيرة لم يحولا دون أن تأخذ هذه الشخصيّة مكانها اللائق بين أعظم الرجال الذين اعتبرتهم الأُمّة الإسلاميّة أفضل قادتها في هذا القرن... وإذا نحن أنعمنا النظر في الصفات التي خوّلت الإمام شرف الدين أن يتسنّم هذه المكانة العظيمة في وجدان الأُمّة ... لوجدنا أنّ أهمّ هذه الصفات تبدأ من هذا الدأب العجيب في الالتزام بقضايا الناس المحيطين به ... لتنتهي بمن هم أبعد ... حلقة فحلقة حتّى يطال التزامه الأُمّة بكاملها وجوداً ومصيراً ...

هل كان بوسع الإمام شرف الدين أن يكون إماماً في الأُمّة الإسلاميّة بكاملها قبل أن يكون إماماً في قرية شحور وفي مدينة صور ؟ ...

وهل كان بوسعه أن يملأ وجدان الأُمّة بوصفه أحد أعلامها الكبار إلى جانب الشيخ الطوسي والشريف المرتضى والسيّد جمال الدين الأفغاني ، متخطّياً بذلك إطار الزمان

والمكان المحدودين اللذين عاش فيهما قبل أن يملأ زمانه ومكانه الخاصّين المحدودين ؟!

إذا كان الأمر كذلك فلماذا نفضّل دائماً أن نقرأ هؤلاء الرجال وكأنّهم سطر في كتاب أبيض لا سياق لهم، أو كأنّهم نبتة تنهض فجأةً في صحراء قاحلة دون جذور عميقة وتربة ثريّة ترعى هذه الجذور ؟!

ولد الإمام شرف الدين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتحديداً عام ١٨٧٣ م، وهذا يعني أنّ الإمام شرف الدين سوف يعيش فترة حياته التي امتدّت أكثر من ثمانين عاماً في مرحلة تاريخيّة متميّزة ... وأبرز مميّزات هذه المرحلة أنّها ستشهد متغيّرات تاريخيّة هامّة في حياة المسلمين ... ففيها سوف تتراكم عوامل انحلال الدولة العثمانيّة الإسلاميّة، وسيشهد التاريخ سقوطها بعد وقت قصير، وسوف تلي ذلك مرحلة استعماريّة سوف تشهدها بلاد المسلمين وخصوصاً المنطقة العربيّة ... وسوف يرافق كلّ هذه التطوّرات النوعيّة حروب من نوع آخر هي حروب نفسيّة وفكريّة وثقافيّة تهدف إلى تحطيم الإسلام كعقيدة بعد أن تمّ تصفيّة آخر رموز الوحدة السياسيّة للمسلمين المتمثّلة بالخلافة العثمانيّة.

وإذن، المرحلة التاريخيّة مرحلة تراجع وانحسار، ومرحلة مدّ استعماري متغطرس لا يستهدف الأرض والثروات فحسب، ولكنّه يستهدف الكيان والشخصيّة والثقافة والعقيدة وسائر مقوّمات الأُمّة الإسلاميّة.

وفي ضوء هذه الاستهدافات المصيريّة الخطيرة لا بدّ أن يتحدّد الدور التاريخي لأبطال الأُمّة ... ومهمّاتهم في الدفاع عن وجودها وعن قيمها ومفاهيمها من أجل ضمان استمرارها؛ لأنّ الأبطال الحقيقيّين لا يمكن أن يكونوا إلّا استجابة لحاجة عميقة في كيان الأُمّة نفسها، تستشعرها في اللحظات الحرجة من حياتها فتنجبهم في الوقت المناسب، ويجدون أدوارهم الصعبة أمامهم فيضطلعون بها وكأنّها قدر من أقدارهم ... قدر يشبه قدر الولادة وشكل الجسم ولونه ... دون أن يكون لهم يدٌ في اختيار هذا القدر ... وهنا أودّ أن أستدرك قبل أن يتوهّم القارئ أنّني أذهب مذهب القائلين بالجبر في مقابل التفويض أو (حرّيّة الاختيار) فأقول: إنّ هذا النوع من الأقدار على مستوى

حياة الأُمّة هو سنّة من سنن التاريخ ، أي سنن الله في الكون والحياة والتاريخ ... وفي حياة الأُمم ونموّها وموتها بشكلٍ خاصّ ... حتّى إذا كانت الأُمّة تملك القدرة على تقديم هؤلاء الأبطال ـ الرجال في الوقت المناسب ـ تكون الأُمّة ـ حينئذٍ ـ ما تزال قادرة على المقاومة والاستمرار ... فإذا كانت قد غشيها الضعف والانحلال وشارفت بلوغ أجلها فإنّها تكون إذ ذاك أضعف من أن تتمخّض عن ولادة جديدة ويكون قد قضي عليها بالاندثار .

والأُمّة الإسلاميّة ... ـ بالرغم من قوّة الصدمة التي مُنيت بها من خلال انحلال كيانها السياسي باندثار الخلافة العثمانيّة ـ لم تستسلم لهذه الصدمة ، وظلّ كيانها يختلج بإرادة الحياة والاستمرار ... وظلّ تراثها العظيم يشكّل حائلاً دون ذوبانها في تحدّيات الاستعمار الحديث وأساليبه المعقّدة الماكرة في القضاء على قوّتها ومنعتها . وليس أدلّ على ذلك أنّها وبعد أقلّ من ثلاثة أرباع القرن شهدت وتشهد الآن صحوة انبعاثيّة رائدة تطال جميع اجزاء كيانها ، باتّجاه عودةٍ أكثر عمقاً لممارسة دورها الذي رسمه لها الله تعالى في الساحة الإنسانيّة على امتدادها .

ولكن ، هل كانت هذه الصحوة التي نشهدها الآن بدون مقدّمات مهّدت لها وذلّلت العقبات أمامها ... ؟ وبعبارةٍ أُخرى : هل يمكن أن نرى حركة النهوض الإسلامي المعاصر ـ وفي ذروتها إقامة الجمهوريّة الإسلاميّة الأُولى في العصر الحديث في إيران ـ بمعزل عن الجذور القريبة لهذا التحوّل العظيم ... ؟

والجواب : كلّا ... فالتاريخ لا يمكن رؤيته حلقات متناثرة موزّعة ، بل هو سلسلة تنظّم هذه الحلقات التي تفضي كلّ واحدةٍ منها إلى الأُخرى ، سواء كان مسار هذه السلسلة متعرّجاً أو مستقيماً ... هابطاً أو صاعداً ، لا فرق ، فالانتظام والتواصل قائم .

في ضوء هذه الحقيقة ... أين يكمن الدور الذي لعبه الإمام شرف الدين في التمهيد لهذه الصحوة الإسلاميّة بشتّى مظاهرها التحرّريّة والسياسيّة والفكريّة ؟

إنّ هذا السؤال يعيدنا إلى الكلام عن المسرح والدور الذي كان ينتظر بضعة رجال استثنائيّين قبيل انحلال الكيان السياسي للأُمّة وأثناءه وبعده (سقوط الخلافة العثمانيّة) .

كانت الأُمّة ـ إذن ـ تشهد محنة تطال وجودها ووحدتها وعقيدتها أمام غزو استعماري يملك كلّ وسائل القوّة الماديّة، ويملك إلى ذلك وسائل القهر الثقافي ... موظّفاً كلّ ذلك في تحقيق أهدافه التاريخيّة التي بدأتها الحروب الصليبيّة وفشلت في تحقيقها، دون أن يتوقّف المخطّط والسبل والوسائل المتنوّعة عن السعي لتحقيق أغراض الاستعمار وأهدافه في السيطرة على الأُمّة ومقدّراتها.

وكانت تلك الفترة تمثّل أشدّ المراحل صعوبة وأكثرها خطورة، نظراً لكون الأُمّة كانت تواجه بالإضافة إلى فقدان الكيان السياسي أشكالاً متعدّدة من الضعف والانحلال، فيما كان الغرب المستعمر يشهد ذروة التألّق المادّي والسياسي مترافقة مع ذروة تطلّعاته للتوسّع والسيطرة على الشعوب الضعيفة وثرواتها ... ولربّما كانت أبرز مظاهر الخطورة في تلك المرحلة هي الشعور العامّ بالهزيمة والإحباط تجاه تقدّم الغرب المادّي والعسكري وتجاه مفاهيمه وسبله ومناهجه، الأمر الذي شهدت فيه تلك المرحلة اتّجاهاً علمانيّاً قويّاً يدعو للخروج من الهزيمة عن طريق اعتناق مفاهيم الغرب وثقافته وطريقة حياته ... وكان اتّجاهاً يستمدّ قوّته من مجموعة العوامل السلبيّة التي ظهرت من خلال تراجع الفكر الإسلامي والقيادة السياسيّة وجمود العلوم الإسلاميّة، إضافةً إلى الدعم الاستعماري الكبير لتيّار العلمنة ومدّه بالقوّة ووسائل التعزيز المختلفة ونشر المؤسّسات والمعاهد والمناهج ذات الطابع العلماني الهادف إلى إحلال الفكر الغربي وقيمه محلّ الفكر الإسلامي.

وفي الحقّ أنّ هذه الهجمة الفكريّة رغم امتلاكها لكلّ الظروف المؤاتية، لم تكن لتمرّ دون مقاومة ودون مظاهر متنوّعة من الدفاع عن هويّة الأُمّة وفكرها وانتمائها، ابتداءً من وسائل المقاومة السلبيّة التي تجلّت في رفض الحوار والتعاطي مع الفكر الاستعماري الحديث وأدواته الوافدة، مروراً في المواجهات ذات الطابع السياسي والعسكري مع هذا الاستعمار، وانتهاءً ببروز المقاومة الإيجابيّة في تفنيد أفكار الغرب وقيمه عن طريق تجديد الفكر الإسلامي وعلومه الأصيلة.

وإذا كان السيّد جمال الدين الأفغاني أحد أكبر المقارعين للهجمة الغربيّة على الشرق الإسلامي من خلال خوضه المعركة المباشرة مع الفكر السياسي الغربي، فإنّ الإمام

شرف الدين كان من أبرز العلماء المسلمين الذين اضطلعوا في تجديد العلوم الإسلاميّة ونفض الغبار والجمود الذي أصابها، فجاءت كتبه ومؤلّفاته استجابةً لحاجة حضاريّة تتطلّبها الأُمّة في معركتها مع الاستعمار ... وكان الإمام شرف الدين وهو يكتب ويؤلّف يخوض في الوقت ذاته معركته مع المستعمر بأبعادها الشاملة، واضعاً الثقل المعنوي الكبير لشخصيّته في شتّى ساحات الصراع التي استلزمتها المعركة المصيريّة، متحمّلاً في سبيل ذلك كلّ أنواع المخاطر وأشدّها من ملاحقات وتشريد واستهداف التصفية الجسديّة.

إنّ تاريخنا الإسلامي الحديث قد يكون مديناً في نهضته المعاصرة للكثير من العلماء والقادة الأفذاذ الذين قادوا جوانب هامّة من حركة نهوضه وتطوّره، ولكنّ بطلين اثنين من هؤلاء العلماء القادة سيظلّ لهما مكانة تاريخيّة متميّزة وبصمات عميقة في ملامح حركة النهوض الإسلامي هما: السيّد جمال الدين المعروف بالأفغاني، والإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين العاملي، بالرغم من أنّ كلا الرجلين لم يكن المرجع الديني الأوّل في عصره[١].

٣ ـ الموقع المتميّز للعالم الإسلامي

بلغ العالم الإسلامي ذروة قوّته واتّساعه في عهد الدولة العبّاسيّة. ونظرة سريعة إلى خارطة العالم تؤكّد أنّ العالم الإسلامي بمثابة القلب بالنسبة إلى العالم كلّه.

ويمتلك العالم الإسلامي رقعة واسعة في مختلف القارات، كما يمتلك ثروات ضخمة يمكن أن تعطيه الموقع الريادي في العالم كلّه.

غير أنّ القوى الاستعماريّة الأوربيّة والأمريكيّة قد خطّطت لاستلاب ثروات هذا العالم الإسلامي، وإحكام السيطرة عليه وعلى مصادر ثروته بأساليب عسكريّة واقتصاديّة وثقافيّة، من دون أن تلاحظ مصالح المسلمين ومتطلّبات نموّهم

---

١. مقدّمة محمّد حسن الأمين على رائد الفكر الإصلاحي السيّد عبد الحسين شرف الدين: ١٢ ـ ١٦.

وتطويرهم. ولم تترك الدول الأوربية للعالم الإسلامي فرصة النهوض الصناعي رغم توفّر مقوّمات وعناصر هذه النهضة، ولا زالت حتّى اليوم تستنزف ثروات العالم الإسلامي بكلّ ما أُوتيت من حولٍ وقوّة.

وقد ساعد ضعف العالم الإسلامي على تقلّص أطرافه تدريجيّاً، فقد بلغت جموع العرب المسلمين إلى قلب أوربا في أوائل القرن الثامن الميلادي، ودقّت الجيوش التركيّة العثمانيّة أبواب فيينا في (١٦٨٣م)، غير أن أُولى المناطق التي فقدها العالم الإسلامي هي الأندلس كما بدأت تنفصل مناطق أُخرى بالتدريج.

وكان هذا الانفصال نكبة في الأطراف، وقد تلتها النكبة الكبرى بزرع دولة إسرائيل الغاصبة في قلب العالم الإسلامي؛ لأنّ إسرائيل تقوم على أساس ديني يستهدف تقويض الإسلام والدول الإسلاميّة بالصميم.

وممّا يؤسف له أنّ التراجع عن الأرض قد اقترن بتراجع آخر في الفكر الإسلامي، إلى جانب تعميق الفوارق بين المسلمين من قبل الأوربيّين الذين تغلغلوا في أعماق العالم الإسلامي، وراحوا يدرسون ما في العالم الإسلامي تحت شعار الاستشراق الذي كان يمهّد في الحقيقة للأوربيّين ليستعمروا العالم الإسلامي في كلّ مجالاته وأبعاده، مستفيدين من اختلاف القوميّات والمذاهب والجنسيّات وسائر الفوارق المصطنعة، ومنها الحدود الدوليّة التي اصطنعها المستعمرون أنفسهم لتتعمّق الفوارق وتتعقّد العلاقات فيما بين المسلمين أنفسهم وبينهم وبين الأقلّيّات التي تقطن داخل بلادهم. وحينما اضطرّ المستعمرون للخروج من الأراضي الإسلاميّة بفضل حركات التحرير والجهاد الإسلامي، لم يخرجوا منها إلّا بعد أن زرعوا فيها عوامل الفتنة والتفرقة بشكل يمكّنهم من إثارتها واستغلالها في كلّ فرصة شاؤوا.

وهذه الحالة التي خطّط لها المستعمرون كانت تستدعي جهوداً كبيرة في مجال بثّ الوعي لردم الهوّة التي أوجدها المستعمرون بين شعوب العالم الإسلامي، وأصبحت الوحدة السياسيّة للعالم الإسلامي هدفاً استراتيجيّاً كبيراً خلال القرن التاسع

عشر وعلى عهد السيّد جمال الدين الأفغاني والسلطان عبد الحميد الثاني العثماني ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م. لكنّها انهارت تحت الضغوط والضربات التالية:

١ ـ انتشار الفكر القومي والإيديولوجيّات الحديثة في العالم الإسلامي.

٢ ـ انتشار التعليم الغربي في العالم الإسلامي.

٣ ـ نشر الفكر الاستشراقي ونتاجات المستشرقين.

٤ ـ تسلّل الاستعمار في البلاد الإسلاميّة وفرض الانتداب على شعوبها[١].

٥ ـ العمل على إبعاد المسلمين عن مبدأ الوحدة من خلال تبليغ أضرار الدعوة إلى الوحدة! باعتبار أنّ هذه الدعوة سوف تثير مشاكل طائفيّة ودينيّة، أو أنّ الوحدة الحقيقيّة لا يمكن تحقّقها، والوحدة السياسيّة وحدة خياليّة أو شكليّة لا طائل تحتها.

---

١. التاريخ الحديث للشعوب الإسلاميّة: ٢١.

الفصل الأوّل

مجالات الإصلاح وميادينه

يمكن تصنيف مجالات الإصلاح إلى المجال السياسي والاجتماعي والثقافي والديني والاقتصادي.

كما يمكن تصنيفها إلى الإصلاح في الشؤون الداخليّة للمجتمع الإسلامي، والإصلاح للشؤون والعلاقات الخارجيّة لذلك المجتمع، ومن هنا تكون مقاومة الاستبداد الداخلي إصلاحاً داخليّاً، بينما تكون مقاومة الاستعمار الخارجي إصلاحاً للعلاقات والشؤون الدوليّة.

ويمكن تصنيف مدارس الإصلاح على أساس تنوّع الاتّجاهات، أو على أساس شموليّة الإصلاح وعدم شموليّته. فالإصلاح الشامل أو الإصلاح الجذري يقابله الإصلاح في جانب معيّن، أو الإصلاح في البناء العلوي دون أن يمسّ الجذور أي نوعٍ من أنواع الإصلاح.

وقد كانت الاهتمامات لروّاد الإصلاح متنوّعة من حيث قدراتهم وقابليّاتهم واستعداداتهم، إذ كان يتفرّغ كلّ مصلح لمجال من المجالات أو لأكثر من مجال، كما هو الملاحظ في سيرة الإمام شرف الدين ومن سبقه من روّاد الإصلاح كالسيّد جمال الدين الحسيني الأسدآبادي المعروف بالأفغاني.

أو أنّ الاهتمامات قد تتعدّد وجهود المصلح تتّسع لأكثر من ميدان ومجال، غير أنّ أحدها هو الذي يطغى على اهتماماته، كمحاربة الاستعمار التي اشتهر بها السيّد جمال الدين الحسيني، ومحاربة الاستبداد التي اشتهر بها الكواكبي، ومحاربة التعصّب

المذهبي أو الاهتمام بالإصلاح الثقافي والديني كما اشتهر بذلك السيّد محسن الأمين العاملي وفقيهنا الإمام شرف الدين، أو الإصلاح في المناهج الدراسيّة الذي عُرف به الشيخ المجدّد محمّد رضا المظفّر رحمهم الله جميعاً.

والملفت للنظر أنّ حركة الإصلاح في هذا القرن كانت في مجملها حركة شاملة، وإن كان رموزها قد اتّجه كلٌّ منهم إلى مجالٍ واحد أو أكثر من مجال.

ثمّ إنّ المرجعيّة الدينيّة الواعية التي تميّزت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام كانت مرجعيّة شاملة، تستجيب لمتطلّبات المرحلة بكلّ أبعادها، وتشرف على مسيرة الإصلاح التي كان ينبري لها كبار العلماء والمخلصون من أبناء الإسلام الغيارى. ويقومون بسدّ العجز في مجالات النقص التي تظهر لهم بوضوح.

وروّاد الإصلاح الذين يجسّدون آمال الأُمّة وآلامها ينبغي أن تُدرس أحوالهم بشكل مجموعي؛ لنقف على طبيعة المرحلة واتّجاهات حركة الإصلاح فيها.

ونقرأ معاً نصّاً للدكتور محمّد البهي وهو يصوّر لنا فيه جانباً من مجالات الإصلاح تحت عنوان «مقاومة مزدوجة».

قال ما نصّه:

لم يستطع الاستعمار الغربي أن ينفرد بالتوجيه داخل الشعوب الإسلاميّة، رغم ما بذله في سبيل تفرّده بذلك من مال وسلطة ودهاء وسياسة، وتبشير بالفكر الأوربي وبالمسيحيّة، وتيئيس للمسلمين في صور شتّى: في مستقبلهم، وفي علاقتهم بإسلامهم.. بل وجد مقاومة له ومعارضة لذلك الاتّجاه الفكري الذي خلقه أو أوصى به.

أخذت المقاومة للاستعمار الغربي طابعاً سياسيّاً، ولكن قامت على توجيه إسلامي وعلى فِكَر إسلاميّة أصيلة. وتكوّن من هذا التوجيه، وهذه الفكر الإسلاميّة الأصيلة معاً، ما نسمّيه بـ«الاتّجاه الفكري الإسلامي المقاوم للاستعمار الغربي».

وكان لا بدّ لهذا الاتّجاه أن ينقد الاتّجاه الآخر المقابل له، وينقد عناصره الفكريّة: سواء من الوجهة المنطقيّة الإنسانيّة، أم من الوجهة الإسلاميّة.

وفي الوقت الذي يقوم فيه بالنقد كان لزاماً عليه كذلك أن يعرض خطّة عمليّة لمقاومته،

ومقاومة الداعين له والمساعدين على الدعوة إليه.

ولذلك نرى هذا الازدواج في الدعوة إلى مقاومته: نرى نقداً نظريّاً، ومنهجاً عمليّاً... وبعبارة أُخرى نرى: سياسة، وديناً.

أمّا النقد النظري: فيعرض لمثالب العناصر الفكريّة أو المذهبيّة التي تعين الاستعمار في استعماره... فنرى: نقداً لحركة السيّد أحمد خان، ونقداً آخر للقاديانيّة، ونقداً ثالثاً للاستشراق الغربي الذي أُلبس ثوب العلم. ونرى الناقدين لهذه العناصر يضعون منهجاً فكريّاً آخر لتقوية المسلمين في معارضتهم للاستعمار، وفي صلتهم بالإسلام وفهمهم لمبادئه، فهماً يمكّنهم من السير في الحياة القائمة...

● نرى **جمال الدين الأفغاني**: يحمل على السيّد أحمد خان، وينقد اتّجاهه الطبيعي نقداً مرّاً في كتاب سمّاه: الردّ على الدهريّين. وفي الوقت نفسه يدعو المسلمين جميعاً إلى العودة إلى القرآن الكريم، ونبذ الخصومة المذهبيّة، والرجوع إلى حال المسلمين الأُول، قبل انفصال الرتبة العلميّة عن رتبة الخلافة وقتما قنع العبّاسيّون باسم الخلافة، دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقّه في الدين والاجتهاد في أُصوله وفروعه، كما كان الراشدون رضي الله عنهم [1].

● ونرى **محمّد إقبال**: يهاجم القاديانيّة هجوماً عنيفاً من الوجهة الإسلاميّة والوطنيّة، وفي الوقت نفسه يكتب كتابه: تجديد الفكر الديني في الإسلام Reconstruction Of Riligious Thought In Islam ويوضح فيه محاولته لتقرير علم الكلام الإسلامي في صورة حديثة، كما يوضح مزايا التعاليم الإسلاميّة في خلق جماعة حيّة قويّة، ويطلب إلى المسلمين أن يفهموا الإسلام في ضوء الحياة المعاصرة، وأن يسعوا في تكييفها وطبعها بطابع إسلامي بدلاً من وقوفهم عند حدّ مفاهيم عصر الركود للمبادئ الإسلاميّة، تلك المفاهيم التي لم يعد التمسّك بها الآن ذا أثر إيجابي في حياة المسلم الحاضرة.

ونرى **الشيخ محمّد عبده**: يهاجم الاستشراق، ثمّ يضطرّه هذا الهجوم إلى الكتابة عن

---

١. العروة الوثقى: ٧٨.

مزايا الإسلام بالنسبة للمسيحيّة. وفي ذات الوقت يضع منهجه التربوي لفهم إسلام القرآن والسنّة والصحيحيّة، بدلاً من إسلام المتكلّمين، وإسلام أرباب الكتب المتأخّرة التي كانت تعيش في عزلة عن الحياة العامّة. وهذه الحياة العامّة نفسها كان طابعها هو الانقسام إلى شيع، والتعصّب والتقليد الضارّ، والضعف السياسي والاقتصادي... وسينعكس هذا كلّه على كتابات العصر لو عاشت فيه. ويضع محمّد عبده منهجه لإصلاح الأزهر على أمل أن يدرك أهله وروّاده ـ وهم أصحاب الثقافة الإسلاميّة. الثقافة القوميّة الوطنيّة، الثقافة الأصيلة في هذا الشرق الإسلامي ـ رسالة الإسلام في نفسها كمبادئ وتعاليم، وكذا بين المسلمين كجماعة لها شخصيّتها ولها هدفها في الحياة.

نرى الشيخ محمّد عبده يدعو إلى القرآن والرجوع إلى عهد صدر الإسلام في طريق فهمه، والوحدة حوله. وفي الوقت نفسه يفسّر القرآن بما يعيد على أسماع المسلم صلة الإسلام بالحياة، وانتزاع التوجيه فيها من مبادئه، ومن خطّة الرسول ﷺ، وصحابته رضوان الله عليهم [١].

إذن يمكن تصنيف مجالات الإصلاح وميادينه كالآتي:

١ ـ ميدان مقاومة الاستعمار والانتداب الذي كان عنواناً آخر للاستعمار.

٢ ـ ميدان مقاومة الاستبداد الداخلي.

٣ ـ ميدان البناء الثقافي والتربوي العامّ.

٤ ـ ميدان إصلاح المعتقدات وتخليصها من الخرافة والأوهام.

٥ ـ ميدان توثيق العرى الاجتماعيّة برصّ الصفوف وتوحيد الكلمة واجتناب الفرقة.

---

١. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ٧١ ـ ٧٣.

الفصل الثاني

اتّجاهات حركة الإصلاح وتيّاراته

لم تكن النهضة وليدة صدفة، أو عاملٍ أوحد. بل تتضافر عند ولادتها جهود جمّة، وتساهم في إرسائها عوامل مختلفة.

من أهمّ تلك العوامل: الاتّصال بالغرب والاحتكاك بالعقليّة الأوربيّة، والمدارس، والصحافة، والجمعيّات، والمكتبات، والمستشرقين، والحركات السياسيّة، فضلاً عن المطابع التي كان فولني قد ركّز على أثرها الهامّ في الشرق.

ولم تقتصر النهضة في الشرق الإسلامي، على الميدان السياسي، وإنّما شملت عدّة ميادين، وظهرت وتبلورت ضمن اتّجاهات فكريّة عامّة. ولعلّ من أشهر تلك الاتّجاهات، ما تبلور في الحياة السياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة، ونشير إلى هذه الاتّجاهات وتيّاراتها تباعاً كالآتي:

أوّلاً: الاتّجاه السياسي للإصلاح

وقد تبلور في تيّارات ثلاثة:

١ ـ تيّار الوحدة الإسلاميّة

وقد ظهر هذا التيّار كردّ فعل على الغزو الأوربي العسكري والثقافي للعالمين العربي والإسلامي. ومن هنا كان إصرار مفكّري هذا التيّار على مجابهة الغربيّين وردّ غزوهم، عن طريق وحدة المسلمين تحت راية الدين.

كما ركّز أقطاب هذا التيّار ـ وبخاصّة جمال الدين الأفغاني، ومحمّد عبده منهم ـ

على إصلاح الأقطار الإسلاميّة في مختلف المجالات السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة[١].

ويتّصل بهذا التيّار التيّار العثماني الذي ظهر على أنقاض تيّار الوحدة الإسلاميّة، ذلك أنّ مفكّري التيّار العثماني ـ ومنهم مصطفى كامل، ومحمّد فريد، وحافظ إبراهيم، وأحمد شوقي ـ إنّما فعلوا ذلك انسجاماً منهم مع الدعوة للوحدة الإسلاميّة، وتركيا تمثّل آنذاك الدولة الإسلاميّة الكبرى. وقد اتّجه مفكّرو ذلك التيّار ـ مع تباعد أفكارهم ـ نحو التمسّك بالدولة العثمانيّة بأشكال ورؤى مختلفة، تتمايز من حيث الحدّة واللين.

٢ ـ التيّار الوطني

لقد ركّز مفكّرو التيّار الوطني ـ ومنهم مصطفى كامل، وعبد الله النديم، ورفاعة الطهطاوي ـ على أنّ الوطنيّة واجب طبيعي. على ذلك تصبح خدمة الوطن والتضحية في سبيله أمراً حتميّاً. وقد ذهب بعض مفكّري هذا التيّار، إلى حدّ اعتبار الذين يهملون خدمة الوطن والتضحية في سبيله من الخائنين لوطنهم. وعُرف ضمن التيّار الوطني فريقان:

أحدهما يوفّق أصحابه بين الإيمان بالوطن من جهة، وبين الإيمان بالدين من جهة أُخرى، معتبرين أنّ العلاقة بين الإيمانين هي علاقة تلازم، وهذا ما ذهب إليه مصطفى كامل.

أمّا الفريق الثاني فرأى أصحابه أنّ رابطة الدين هي نقيض لرابطة الوطن. وقد فهم هؤلاء الوطنيّة على أنّها القاسم المشترك الوحيد، الذي يلتفّ حوله كافّة المواطنين على اختلاف طوائفهم ونزعاتهم.

ومن ممثّلي هذا الفريق عبد الله النديم الذي كان يدعو كلّ الطوائف في مصر

---

١. الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني: ٣٤٩.

للائتلاف والتعاون بغية تأليف وحدة وطنيّة[١].

٣ ـ تيّار الوحدة العربيّة

وقد ظهر تيّار الوحدة العربيّة[٢] نتيجة لضغوط الأتراك ونواياهم المبيّتة لتتريك العرب من جهة، ولشعور العرب بأنّ بقاءهم تحت السيطرة التركيّة يعني القضاء على الكيان العربي من جهة ثانية. إذاً فالدعوة إلى الوحدة العربيّة برزت كعملٍ سياسي له طابعه وكيانه المميّزان، داخل الدولة العثمانيّة.

فالوحدة العربيّة ليست سوى نتيجة لموقف طبيعي وضروري. وكان العرب بشكلٍ عامّ ـ والشاميّون بشكلٍ خاصّ ـ قد حملوا لواء الوحدة العربيّة كفكرة لا تتعارض في جوهرها ومضمونها مع مفهوم الدين.

وقد أثمرت مواقف المفكّرين في تيّار الوحدة العربيّة عن تأسيس جمعيّات سياسيّة سرّيّة[٣]، هدفت إلى جمع شمل العرب من جهة، ومقاومة الاحتلال التركي من جهة ثانية.

هذا ولم يتوقّف نشاط العرب في عصر النهضة على المجال السياسي فحسب، فقد أولى العديد من مفكّريهم اهتمامه بالبحث عن عوامل تأخّر مجتمعه، محاولاً وضع الحلول الملائمة للحدّ من ذلك التأخّر. ومن هنا برز الاتّجاه الاجتماعي الذي يهدف إلى دراسة أسباب التخلّف في المجتمع، والعمل على إزالتها.

---

١. سلافة النديم ٢: ٧٨. وكان السيّد عبد الحسين شرف الدين أحد المفكّرين الوطنيّين الذين عملوا على تحقيق الوحدة الوطنيّة بين أبناء الوطن اللبناني وذلك في سبيل تحرير الوطن، وتخليصه من الاستعمار. أُنظر رائد الفكر الإصلاحي السيّد عبد الحسين شرف الدين: ٣١.

٢. ومن أتباعه سليم البستاني، ويعقوب صرّوف، وإبراهيم اليازجي.

٣. كجمعيّة بيروت الإصلاحيّة التي كان من أبرز أعضائها يعقوب صرّوف وإبراهيم اليازجي، وجمعيّة حقوق الملّة العربيّة، وجمعيّة النهضة العربيّة، وجمعيّة عصبة الوطن العربي، وجمعيّة الإخاء العربي العثماني، والجمعيّة القحطانيّة. للتوسّع حول تيّار الوحدة العربيّة. أُنظر: محاضرات في نشوء الفكرة القوميّة: ٢٢١ ـ ٢٢٣؛ العرفان، م ٢، ج ٥، ص ٩٠ ـ ٩٣؛ القوميّة العربيّة: ٤٥؛ روّاد النهضة الحديثة: ٢١٤ ـ ٢١٥.

ثانياً: الاتّجاه الاجتماعي

لقد بقي التخلّف من ميزات المجتمعات العربيّة في ظلّ الحكم التركي، ولو حاولنا الكشف عن أسباب تخلّف تلك المجتمعات وتقهقرها، لرددنا ذلك إلى عوامل منها: تباعد الناس داخل المجتمع الواحد، والابتعاد عن جوهر الدين، والتخلّف عن الركب الحضاري، فضلاً عن الجهل واليأس وفساد الأخلاق.

وقد شملت حلول المصلحين الاجتماعيّين العرب لعوامل التخلّف في المجتمع العربي، الدعوة إلى نشر الحرّيّة، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة، كما نادوا بتحرير المرأة وتعليمها وتحسين أوضاعها.

عندما تناول المفكّرون العرب في عصر النهضة مسألة الحرّيّة الفرديّة، كان من الطبيعي أن تتركّز أبحاثهم في هذه المسألة حول عاملي الظلم والاستبداد[١]، أو عامل الاستغلال[٢]، أو عامل الفقر[٣].

أمّا موضوع المرأة فقد أسفرت أبحاث المفكّرين حوله، وحتّى نهاية القرن التاسع عشر، عن دعوة فكريّة صريحة إلى وجوب تعليمها وتهذيبها. ولكن مع بداية القرن العشرين أطلّ قاسم أمين بأفكاره التحرّريّة عن المرأة، فنالت المرأة نتائج إيجابيّة في مجالات الحرّيّة والتعليم والعمل[٤].

إنّ فريقاً من المفكّرين الاجتماعيّين أرجع التخلّف في المجتمع العربي إلى الابتعاد

---

١. كما هو الحال عند عبد الرحمن الكواكبي الذي تطرّق إلى موضوع الاستبداد وإهمال مصالح الناس، فبيّن أنّ الاستبداد، الذي هو نتيجة لسوء توزيع الثروة، يؤدّي إلى مخاطر تؤثّر ليس على الدين فحسب، وإنّما تطال الدولة والفرد. ولا مجال للقضاء على آفة الاستبداد إلّا عندما تسود العدالة فيتساوى الناس جميعاً. طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: ٤٦ـ٤٧، ٥٨ـ٦٦، ٧١ـ٧٢، ٩١، ١١٧ـ١١٨.

٢. كما هو الحال عند رفاعة الطهطاوي. أُنظر مناهج الألباب المصريّة في مناهج الآداب العصريّة: ٩٣.

٣. حيث يدعو أحمد فارس الشدياق الأغنياء للقضاء على الفقر، أُنظر الساق على الساق: ٥٩٢.

٤. تحرير المرأة: ٢، ١٤، ٤٧، ٧٠، ١٠٩، ١٢٩. أُنظر رائد الفكر الإصلاحي السيّد عبد الحسين شرف الدين: ٣٠.

عن أُصول الدين وجوهره. لهذا يمكن القول بأنّ بعض الحركات التي انبثقت من جرّاء ذلك، هي حركات قامت على أساس الدين.

ثالثاً: الاتّجاه الديني

لقد أنتج عصر النهضة مصلحين أيقنوا أنّ إصلاح النظرة الاجتماعيّة إلى الدين أمر ضروري. وكان لا بدّ من تصحيح وتعميق الرؤى النظريّة بالبحث والدراسة ثمّ البحث عن الجانب العملي[1] ليحقّقوا بذلك الإصلاح المنشود.

فعلى الصعيد الفكري انتشرت دعوة التوحيد في عصر النهضة، حاملةً لواء تصحيح مفهوم الإسلام عند أبناء المسلمين، مستمدّة قوّتها من جوهر الدين، الذي لا يرى إلّا إلهاً واحداً بذاته وصفاته وأفعاله، منزّهاً عن مشابهة المخلوقات.

كما احتلّت مسألة النبوّة المقام الثاني بعد مسألة التوحيد. فرسالة النبيّ ودعوته إنسانيّة من جهة، ويتّصل صاحبها بالله من جهة ثانية.

أمّا مسألة الإمامة أو الخلافة فقد اختلف المسلمون في أمرها. فمنهم من لم يعتبرها ركناً من أركان مذهبهم، بينما ذهب المسلمون الشيعة إلى اعتبارها أصلاً من أُصول مذهبهم لا يقوم المذهب بدونه. فهي ـ في نظرهم ـ امتداد لمنصب النبوّة ومتمّم له.

أمّا الاجتهاد فهو عمليّة علميّة، لها صلتها الوثيقة بتنظيم الحياة الإنسانيّة. ولا شكّ في أنّ للاجتهاد أهميّة حضاريّة بالغة؛ إذ أنّه يسهم إسهاماً كبيراً في عمليّة التطوير الاجتماعي. فلولا الاجتهاد لألفى المسلم نفسه إمّا أمام جمود محض، وإمّا أمام تشريعات وضعيّة مستجدّة ملائمة لمقتضيات عصره[2].

---

١. كالعمل على تحقيق الوحدة الإسلاميّة، وتخليص الدين من البدع والأوهام، وإصلاح المدارس الدينيّة.

٢. مع بداية القرن العشرين، برز الإلحاح على فتح باب الاجتهاد والاعتماد على العقل، وبخاصّة عند محمّد عبده؛ وما زالت هذه الظاهرة تتردّد في عصرنا الحالي، كما هي عند سائر مفكّري الشيعة ومجتهديهم، فضلاً عن بعض المفكّرين السنّة كالشيخ عبد الله العلايلي.

ولم تلبث الأفكار والنظريّات الدينيّة التي تحدّثنا عنها أن دخلت مرحلة جديدة، يمكن أن يقال إنّها مرحلة الصياغة العمليّة التي شملت وحدة المسلمين، ونقد رجال الدين[١]، وإصلاح المدارس الدينيّة[٢]، ومحاربة البدع والأوهام[٣].

والخلاصة أنّ المصلحين الدينيّين في عصر النهضة أكّدوا على الرجوع إلى الدين، وشدّدوا على حاجة الفرد إليه أكثر من حاجته إلى العلوم الغربيّة[٤].

وإذا كان جلّ المفكّرين من العرب في عصر النهضة، قد أجمعوا على الترحيب بالعلوم التطبيقيّة، فهم اختلفوا في مواقفهم من النظريّات العلميّة التي صاحبتها، وبخاصّة تلك التي تمسّ معتقداتهم الدينيّة، فمنهم من دافع عن تلك النظريّات، ومنهم من رفضها، ومنهم من لم يرَ تناقضاً بينها وبين الدين فحاول أن يوفّق بينهما.

رابعاً: الاتّجاه الفكري الإسلامي

لقد برز فريقٌ من المفكّرين العرب في عصر النهضة، راح يأخذ ما هو إيجابي من التراث من جهة، ويبتعد عن التأثّر الأعمى بالنظريّات الغربيّة من جهة ثانية، فاستطاع

---

١. لقد حمّل بعض المفكّرين ـ وبخاصّة جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده ومحمّد رشيد رضا ـ رجال الدين كلّ ما أصاب الدين من تقهقر. يقول محمّد عبده في هذا الصدد: «إنّ حالة الفقهاء هذه هي التي ضيّعت الدين». اُنظر الأعمال الكاملة لمحمّد عبده ٣: ١٩٦.

٢. لقد بدأت فكرة إصلاح المدارس الدينيّة عند محمّد عبده. اُنظر الأعمال الكاملة لمحمّد عبده ٣: ١٧٧ ـ ١٩٨.

٣. لقد عمل مفكّرو عصر النهضة على تخليص الأذهان من البدع والأوهام. وسوف نرى أنّ السيّد عبد الحسين شرف الدين عالج هذه النقطة مظهراً سخطه على البدع والأوهام، داعياً إلى تخليص الدين من مساوئهما.

٤. لقد أقبل بعض مفكّري العرب في عصر النهضة، كشبلي الشميّل وفرح أنطون، ولطفي السيّد، نحو العلوم العمليّة؛ لاعتقادهم أنّ هذه العلوم قادرة على اللحاق بالركب الحضاري، على خلاف العلوم الدينيّة التي تعوق بنظرهم النهضة والتطوّر. بذلك اقتربت الخطى من مفهوم العلمنة فكان أن برز الاتّجاه العلماني. والجدير بالذكر هو أنّ مفكّرنا السيّد عبد الحسين شرف الدين قد اعتبر العلمانيّة كفراً. يقول مفكّرنا في هذا الصدد: «أتعلمون ما هي العلمانيّة؟ إنّها تتعارض مع الأديان السماويّة كلّها، وخاصّة مع الدين الإسلامي. إنّها الكفر بعينه». كما يدعو شرف الدين لمحاربة دعاة العلمنة فيقول: «لا أكتفي بالقول إحذروهم. بل أقول لكم: حاربوهم، فمن يحاربهم يخدم الإسلام، ويغنم أجر الدنيا والآخرة». اُنظر الضاحية الجنوبيّة أيّام زمان: ١٧١ ـ ١٧٢.

بذلك أن يقف موقفاً وسطاً بين النظرة التقليديّة والنظرة العلميّة الحديثة. لقد قُدّر لهذا الفريق أن يوائم بين القديم والحديث، كما حاول أن يصهرهما في بوتقة الأصالة الدينيّة عن طريق الانتقاء، فكان أن كشف أصحاب هذا الاتّجاه عن الانسجام التامّ بين الدين من جهة، ومسألة التقدّم المادّي من جهة ثانية.

كما نلاحظ ذلك عند جمال الدين الأفغاني والشيخ محمّد عبده والسيّد عبد الحسين شرف الدين.

تحوّل النهضة إلى لبنان

كان لا بدّ من أن تنعكس الاتّجاهات الفكريّة والمواقف الإصلاحيّة في عصر النهضة على لبنان، فبرز دوره الرائد في ميداني التطوّر الفكري والإصلاحي.

ولو أردنا أن نتلمّس معالم الفكر والإصلاح في لبنان، لألفينا أنفسنا أمام تيّارات إصلاحيّة وفكريّة مماثلة لتلك التي برزت في العالم العربي بوجه عامّ؛ لذا فنحن نعتبر هذه التيّارات ـ على الأرجح ـ امتداداً لسابقاتها؛ لما بينها من تشابه.

ترى ماذا كانت أهمّ الاتّجاهات الفكريّة والإصلاحيّة الخاصّة في لبنان في عصر النهضة، وكيف تسرّبت إلى جبل عامل الذي كان السيّد عبد الحسين شرف الدين أحد مفكّريه؟

ركّز المصلحون في لبنان في عصر النهضة نشاطهم الإصلاحي والفكري، على مسائل أساسيّة لها أبعاد وطنيّة واجتماعيّة وإنسانيّة، فضلاً عن اهتمامهم بالفكر والعلم والتطوّر.

لقد راعهم تفكّك المجتمع العربي، وفقدان المشاعر الوطنيّة عند أبناء الوطن الواحد، فضلاً عن فقدان المشاعر القوميّة عند أبناء الأُمّة الواحدة؛ فبرز التيّار الوطني بأدواره الأربعة، حيث كان على التوالي: عثمانيّاً، شرقيّاً، عربيّاً، ووطنيّاً لبنانيّاً.

ظهرت النزعة العثمانيّة عند بعض المفكّرين اللبنانيّين، إمّا خوفاً من ظلم الأتراك وبطشهم، أو حبّاً باكتساب المراكز.

كما عرف لبنان النزعة الشرقيّة من خلال أمين ناصر الدين، الذي أشاد بانتصار اليابانيّين على الروس.

ثمّ كان لبعض المفكّرين اللبنانيّين الدور الكبير في بثّ الروح القوميّة، والعمل على توحيد الأقطار العربيّة.

ومع إعلان دولة لبنان الكبير، شعر بعض المفكّرين اللبنانيّين بأنّ لهم تراثاً خاصّاً مميّزاً ووطناً محدّداً، فكان أن ظهرت النزعة الوطنيّة اللبنانيّة.

وكان لا بدّ للمفكّرين اللبنانيّين بعد إبراز المشاعر القوميّة والوطنيّة، من التركيز على أُسس تطوير المجتمع، فأمعنوا النظر في المشكلات الاجتماعيّة، ثمّ شرعوا في اتّخاذ المواقف العمليّة لإصلاح الفساد، كما أكّدوا على السعي الحثيث نحو حياة اجتماعيّة كريمة، فكان أن برز التيّار الاجتماعي متمثّلاً بموضوعات اجتماعيّة، نذكر منها: مواضيع الفقر، والحرّيّة، والمساواة، والاستبداد، والمرأة.

لقد اعتبر المفكّرون الاجتماعيّون في لبنان أنّ الفقر أصل كلّ بلاء. فهو «يولّد الجهل والأمراض والرذيلة والخصومات»، فعملوا على القضاء على تلك الآفة الخطيرة، فوجّهوا الدعوة للأغنياء بغية مساعدة الفقراء، فاستطاعوا أن يحدّوا من انتشارها ويخفّفوا من أخطارها.

وتطرّق المفكّرون اللبنانيّون إلى موضوع الحرّيّة، فأكّدوا على أنّها هدف من أهداف الحياة الكريمة. هذا والتأكيد على أهمّيّة الحرّيّة في الحياة يستتبع بشكلٍ بدهي التأكيد على تحقيق المساواة. كما يرتبط موضوع الاستبداد ارتباطاً وثيقاً بموضوع الحرّيّة. من هنا انتقد المفكّرون اللبنانيّون استبداد المستعمر للناس وممارسته لمختلف وسائل القسوة والظلم، وراحوا يعملون على تنمية المشاعر الوطنيّة والروح التضامنيّة في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعيّة[١].

---

١. أُنظر الإلهام: ١٨٢؛ رفيف الأُقحوان: ١٦٦؛ الأعاصير: ٩؛ أديب في السوق: ١٣٤ ـ ١٣٥؛ ديوان الخليل ١: ١٧٥ ـ ١٧٧.

وقد ركّز السيّد عبد الحسين شرف الدين على أهميّة التضامن الوطني في سبيل نيل الحرّيّة الفرديّة والجماعيّة.

وعالج المفكّرون اللبنانيّون موضوع المرأة، فتركّزت أبحاثهم على وجوب تخليصها من قيود العادات السيّئة، وأجمعت دعواتهم على ضرورة تعليمها واحترامها[١].

ولو أردنا أن نقف على أهداف النهضة اللبنانيّة ونبيّن أغراض مفكّريها، لوجدنا أنّ تطوير الإنسان كان محور اهتمام المصلحين وهدفهم في لبنان بشكلٍ عامّ، وفي جبل عامل بشكلٍ خاصّ.

وكان للموضوعات السياسيّة والاجتماعيّة في لبنان صلة وثيقة بالدين. لهذا كان لابدّ من أن ينظر المصلحون اللبنانيّون في الدين ذاته، فبرز التيّار الديني بموضوعاته العديدة النظريّة الكلاميّة والعمليّة الإصلاحيّة، والتي يمكن أن نعتبرها ترجيعاً لموضوعات الاتّجاه الديني التي عرضناها في خلال كلامنا على اتّجاهات النهضة العربيّة.

وقد هبّت رياح هذه التيّارات على جبل عامل، فأسهمت في تشكيل الفكر العاملي؛ ليخرج بميزات خاصّة اكتسبها من واقعه وعبر الزمن.

وبقي جبل عامل متخلّفاً عن الركب الحضاري، ومواكبة النهضة الحديثة، حتّى أواخر القرن التاسع عشر. ولم تبدأ النهضة في ذلك الجبل إلّا بعد افتتاح أوّل مدرسة عصريّة في النبطيّة سنة ١٨٨٢م.

أمّا عن عوامل النهضة العامليّة، فيمكن إرجاعها إلى العوامل العامّة التي ذكرناها، فضلاً عن عوامل الدين، والهجرات العلميّة، وعمل العامليّين الدائم على التحرّر من نير الظلم والاستعمار.

---

١. لبنان والنهضة العربيّة الحديثة: ١٣٠.

تلك الموضوعات الاجتماعيّة التي تحدّثنا عنها بإيجاز كان للسيّد عبد الحسين شرف الدين جولات نظر في أكثرها من جهة، وفي غيرها من جهة ثانية، ولعلّ هذا ما يدلّنا على أنّ السيّد شرف الدين كان على اتّصال بكلّ ما كُتب في أيّامه، بل وبكلّ التيّارات الفكريّة التي أثّرت من قريب أو بعيد في عمليّة التغيير وإحداث التطوّر في لبنان.

لقد عملت هذه العوامل مجتمعةً على نشر تيّارات فكريّة في مجالات الدين والسياسة والاجتماع في جبل عامل. وقد تأثّر المفكّرون العامليّون بما حملته تلك التيّارات من أفكار، فأسرعوا يساهمون في معالجة موضوعاتها بروحٍ كان يغلب عليها الطابع الديني إلى حدٍّ بعيد.

من هنا يمكن القول: إنّ الدين في جبل عامل لعب دوراً فاعلاً في بعث الإنتاج الفكري النظري والإصلاحي العملي على حدّ سواء.

ولم تبقَ جهود المفكّرين في جبل عامل مقتصرة على النتاج الفكري النظري فحسب، وإنّما تعدّته إلى المجال العملي الإصلاحي، حيث برزت مواقفهم في مجالات الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي.

ففي مجال الإصلاح الديني توزّعت نشاطاتهم لتشمل دعوتهم الوحدة الإسلاميّة، ونقد رجال الدين، والقضاء على البدع والأوهام.

أمّا على صعيد الإصلاح السياسي، فقد عمل المفكّرون العامليّون جهدهم على تحرير لبنان وتحقيق استقلاله الوطني. وركّزوا اهتمامهم بشكلٍ خاصّ على الوحدة الوطنيّة لجميع اللبنانيّين، كما التقوا في بحثهم لمسألة القوميّة العربيّة على وجوب تحرير فلسطين، وعلى ضرورة توحيد الأُمّة العربيّة في وطنٍ واحد[١].

تبقى الحالة الاجتماعيّة في جبل عامل، وقد أُفردت لها دراسات وأبحاث وافرة، إذ هبّ المفكّرون العامليّون يصوّرون حالة البؤس في ذلك الجبل، مؤكّدين تطويره والنهوض به من كبوته. ومن الموضوعات الاجتماعيّة التي أبرزها المفكّرون العامليّون نذكر موضوع الفقر وما ينتج عنه من مآسٍ، وقد عمل معظمهم على تخليص الناس من هذه الآفة الخطيرة؛ ونذكر موضوع المرأة، حيث عمل المصلحون في جبل عامل على

---

١. لقد ضمّ تيّار الإصلاح السياسي هذا ـ فضلاً عن السيّد عبد الحسين شرف الدين ـ عدداً من المفكّرين العامليّين نذكر منهم: السيّد محسن الأمين، والشيخ محمّد جواد مغنية، والشيخ أحمد رضا، والشيخ سليمان ظاهر، والشيخ أحمد عارف الزين.

النهوض بها من حياة التخلّف والجهل إلى حياة العلم والمعرفة؛ فكان أن برز موضوع العلم كعامل من عوامل التطوّر الاجتماعي[١].

ومختصر الكلام أنّ مصلحي جبل عامل، ومنهم السيّد عبد الحسين شرف الدين، كانوا قد هدفوا في مجالي السياسة والاجتماع إلى إيجاد مجتمعٍ يحيا فيه الإنسان حياة كريمة.

وأخيراً لا بدّ من الإشارة إلى دراسات الشيخ أحمد رضا[٢]، والشيخ أحمد عارف الزين[٣]، والشيخ سليمان ظاهر[٤] في اللغة والأدب، وإن لم يكن للسيّد عبد الحسين شرف الدين دراسات في مجاليهما[٥].

وجماع القول إنّ البحث في إنتاج أحد رجالات النهضة، أيّهم كان، يجب أن ينطلق من هذه الأُطر التاريخيّة والفكريّة والاجتماعيّة، التي رسمنا خطوطها العريضة. ذلك أنّ سائر مصلحي ومفكّري هذا العصر قد انضووا تحت هذا المذهب أو ذاك، أو حاولوا التوفيق بين تيّار حديث وآخر قديم. فالفكر لا يخطو قفزاً، إنّما يبقى سلسلة جهود وأبحاث متتالية ومترابطة. فشرف الدين يكوّن حلقة في سلسلة، كما أنّ فكره يعدّ امتداداً للفكر السابق وتمهيداً للفكر اللاحق.

هذا ما كتبه كاتب لبناني قد عايش حركة الإصلاح في المجتمع اللبناني[٦].

وقد بحث الدكتور محمّد البهي مسألة الإصلاح الفكري بشكلٍ جذري، ولاسيّما

---

١. سوف نرى أنّ شرف الدين كان قد أولى اهتمامه للموضوعات الاجتماعيّة بشكلٍ عامّ، وبخاصّة لموضوعي العلم والفقر.

٢. أشهر مؤلّفاته: معجم في اللغة، ورسالة الخطّ.

٣. أهمّ مؤلّفاته: تاريخ صيدا، ومختصر تاريخ الشيعة. فضلاً عن مجلّته الإصلاحيّة الشهيرة العرفان.

٤. من أبحاثه: آداب اللغة العربيّة، التي نُشرت في العرفان.

٥. كان شرف الدين ذوّاقاً للشعر والأدب، إلّا أنّه لم يُفرد دراسات خاصّة حولهما كما فعل في مجال الدراسات الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة.

٦. رائد الفكر الإصلاحي السيّد عبد الحسين شرف الدين: ٢٤ ـ ٤٠ بتصرّف.

في الوسط المصري الذي لم يتقوقع داخل مصر بل تعدّاها إلى ما يحيط بها من بلاد الإسلام، وتعرّض بالتفصيل لاتّجاه الفكر الإسلامي منذ بداية القرن العشرين وبعد وفاة جمال الدين الأفغاني، وبعد أن توفّر الشيخ محمّد عبده على ما سمّاه الإصلاح الديني، وبعد أن ظهر مصطفى كامل كزعيم لحركة المقاومة السياسيّة ... فقال:

اتّجه الفكر الإسلامي المقاوم للاستعمار الغربي ـ هنا في رقعة الشرق الأدنى ـ إلى شعبتين:

الشعبة الأُولى اتّجهت إلى التعبئة الروحيّة والإصلاح الديني، عن طريق عرض الإسلام عرضاً واضحاً، والعمل على جعله أساساً في التربية الوطنيّة. وسبيل ذلك: إصلاح الأزهر، وإحياء الكتب القديمة ... وقد مثّلت المدرسة السلفيّة التي قادتها مجلّة المنار هذه الشعبة بعد وفاة الشيخ محمّد عبده.

والشعبة الثانية اتّجهت إلى تعبئة الحماس القومي في الجيل الناشيء، عن طريق: الصحافة، والاجتماعات العامّة، ثمّ عن طريق تأسيس «الجامعة المصريّة»، بسعي من مصطفى كامل نفسه.

ففكرة الجامعة المصريّة وجدت أوّلاً لخدمة القضيّة المصريّة، وهي قضيّة التحرّر من الاستعمار الغربي. وتفكير الجامعة، هو نوع من التفكير يتّجه إلى مقاومة الاستعمار الغربي عن طريق تخريج أحرار في التوجيه غير خاضعين لنظام التعليم الرسمي إذ ذاك، وهو نظام وضعه الاحتلال البريطاني، ولم تزل رواسب هذا النظام باقية في اتّجاه المدرسة المصريّة إلى وقت قريب.

ورؤي إذ ذاك ـ لتحقيق هذه الجامعة ـ أن يبعد بها عن الطابع الرسمي والإشراف الحكومي. وأُنشئت بهذا الطابع سنة ١٩٠٨ م، واستمرّت بعيدة عن الإشراف الحكومي فترة طويلة من الزمن، إلى أن ضمّها علي ماهر في سنة ١٩٢٥ م إلى التعليم الحكومي، على أن يحتفظ باستقلالها.

وفي جوّ الجامعة ...

وفي داخل الاتّجاه السياسي «القومي»، الذي يعدّ متوازياً مع اتّجاه «الإصلاح الديني»، إذ كلاهما يهدف إلى مقاومة الاستعمار الغربي ...

في هذا وذاك، قام ما يعرف بـ«التجديد والمجدّدين»، أو ما يصحّ أن يطلق عليه: «الفكر الإسلامي المغرّب» Westernized ...

إنّه ذلك الفكر في المجتمع الإسلامي الذي يسير في اتّجاه الفكر الغربي، أو بمعنى أدقّ ذلك الفكر الذي يسير إمّا في اتّجاه «الاستشراق» وتوجيه الدراسات الإسلاميّة في الجامعات الغربيّة، أو في الاتّجاه «الطبيعي» العلمي هناك.

يقول المستشرق الإنجليزي جب Gibb في تحديد هذين الاتّجاهين [١]:

إنّ النتائج التي أعقبت نشاط الشيخ عبده اتّجهت بعده إلى اتّجاهين متقابلين:

فمن جانب نشط محيط (مدني) في التفكير: صوّر على أنّه «التجديد» وهو يقوم على الاحتفاظ بالعقيدة الإسلاميّة، ولكنّه متأثّر في قوّة بالأفكار الغربيّة ... والمثل التقدّمي لهذا التجديد يميل إلى «العلمانيّة» التي تهدف إلى فصل «الدين» عن «الدولة»، والاستعاضة بالنظام الغربي «للقانون» عن الشريعة الإسلاميّة!

وقد طبّقت مبادئ «العلمانيّة» في تركيا بعد إلغاء الخلافة العثمانيّة في سنة ١٩٢٤م ... وفيما عدا تركيا من البلاد الإسلاميّة يجد هذا الاتّجاه سنداً قويّاً له، ولكن مع موقف معتدل بعض الاعتدال من المؤسّسات والتقاليد الإسلاميّة! ومهما كانت نظرات المشجّعين للعلمانيّة في البلاد الإسلاميّة إلى القانون والسياسة، فموقفهم التوجيهي يمكن أن يلخّص:

في الرفض العامّ لتعاليم القرون الوسطى (في الإسلام!) كسلطة لا تعقيب عليها.

وفي الاحتفاظ بالحريّة الإنسانيّة في تقدير الأشياء، وفي كون العقل وحده هو الفيصل في ذلك (وليس الإسلام)!!

ومن جانب آخر تكوّن حزب ديني: يسمّي نفسه بـ«السلفيّة»، وهو يتّفق مع الاتّجاه العلماني في رفض سلطة تعاليم القرون الوسطى، ولكن مع قبول القرآن والسنّة، كأساس للفصل في الحقائق الدينيّة.

وهؤلاء السلفيّون، في مقابل المجموعة العظمى من علماء الأزهر يعتبرون مصلحين،

---

١. في كتابه المذهب المحمّدي: ١٣٥.

وفي مقابل المجدّدين أو العلمانيّين يرفضون مذهب (الحرّيّة العقليّة) الذي هـو وليـد الغرب ... وكان زعيم هذا الاتّجاه الإصلاحي السلفي تلميذ الشيخ عبده: محمّد رشيد رضا السوري الذي توفّي سنة ١٩٣٥م ...

فالتجديد إذن ـ في رقعة الشرق الأدني ـ منذ بداية القرن العشرين:

هو محاولة أخذ الطابع الغربي، والأُسلوب الغربي في تفكير الغربيّين سواء في تعبيرهم عن الدين، أو في تحديدهم لمفاهيمه ومفاهيم الحياة التي يعيشونها، أو في تقديرهم للثقافات الشرقيّة الدينيّة والإنسانيّة[١]!

---

١. أُنظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ١٩٧ ـ ٢٠٠.

الفصل الثالث

رموز الإصلاح وروّاده الأوائل

إنّ رموز الإصلاح الذين عاصرهم الإمام شرف الدين، أو كانوا قد سبقوه في مسيرة الإصلاح وقدّموا إنجازات جديرة بالذكر، وكان قد تأثّر بهم وعايش إنجازاتهم يعتبرون روّاد الإصلاح ورموزه الأوائل. وحينما نريد دراسة الأسباب والعوامل التي صنعت شخصيّة الإمام شرف الدين في هذا الحقل تجب علينا معرفة حياتهم وأعمالهم الإصلاحيّة.

ونخصّ منهم بالذكر: المرجع الديني الكبير الإمام المجدّد الشيرازي، والمفكّر المجدّد وباعث حركة الإصلاح في أطراف العالم الإسلامي السيّد جمال الدين الحسيني الأسدآبادي المشتهر بالأفغاني، وتلميذه الشيخ محمّد عبده، ثمّ المرجع الفذّ المعروف بالآخوند الخراساني أُستاذ السيّد عبد الحسين شرف الدين.

حين ورد السيّد عبد الحسين شرف الدين سنة ١٣١٠هـ حوزة سامرّاء، كانت المرجعيّة العليا للطائفة الشيعيّة ورئاسة الحوزة العلميّة في سامرّاء للإمام المجدّد الشيرازي الذي كان قد وردها وأقام فيها منذ سنة ١٢٩١هـ، بعد أن علا صيته وطار نجمه في البلاد، ورجع إليه المؤمنون في التقليد، وحاز الرئاسة العامّة للطائفة الإماميّة، وتوجّهت إليه أنظار العلماء في العراق وإيران وسائر بلاد المسلمين.

وكان ناصر الدين شاه قد وقّع على اتّفاقيّة انحصار بيع التبغ للإنجليز، وكانت هذه الاتّفاقيّة مؤدّية إلى نوع من التبعيّة الاقتصاديّة للإنجليز، واندلعت ثورة شعبيّة بقيادة العلماء، قام المجدّد الشيرازي بدعم هذه الانتفاضة وأفتى بتحريم التدخين، وبذلك اضطرّ الإنجليز إلى إلغاء هذه الاتّفاقيّة، فكانت ضربة قاصمة لمصالحهم. وذلك في سنة

١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م. وقبل أن يصل السيّد عبد الحسين شرف الدين إلى حوزة سامرّاء ـ وحين دخلها ـ كان نجم المجدّد الشيرازي قد سما بعد هذا النصر الذي تحقّق ببركة فتواه.

وحين خطّطوا لإهانة الإمام الشيرازي في سامرّاء، وباءت خططهم بالفشل الذريع بسبب سعة صدره وبُعد نظره، كان السيّد عبد الحسين شرف الدين مشغولاً بطلب العلم في حوزة سامرّاء المباركة والعامرة بعلمائها، وهم تلامذة وأنصار المجدّد الشيرازي قدّس الله أسرارهم.

وكانت نشاطات العالم المصلح وباعث روح النهضة في الشرق الإسلامي السيّد جمال الدين الأسدآبادي تصل أنباؤها إلى الحواضر الإسلاميّة المحيطة بمصر والآستانة، وتنفتح لها القلوب وتدرسها العقول وتنظر إليها بإكبار. وقد توفّي السيّد جمال الدين الأسدآبادي ـ أو اغتيل ـ سنة ١٣١٤هـ في الآستانة.

وكان السيّد عبد الحسين شرف الدين قد انتقل من حوزة سامرّاء إلى النجف الأشرف العامرة بفطاحل العلماء، كالآخوند الخراساني زعيم الحركة الدستوريّة، وشيخ الشريعة الإصفهاني، والسيّد محمّد سعيد الحبّوبي، والشيخ عبد الله المازندراني، وغيرهم من العلماء الواعين، الذين كانوا يغذّونه بلباب الحكمة ويزرعون في نفسه الكبيرة بذور الريادة والإصلاح.

وقد خلَف الشيخ محمّد عبده أُستاذه السيّد جمال الدين الأسدآبادي وسار في درب الإصلاح وشاطره بعض مهامّه الإصلاحيّة، ومن الطبيعي للسيّد عبد الحسين شرف الدين أن يكون قد وقف عليها وهو في جبل عامل في بداية الطريق لاعتلاء أعواد الريادة والإصلاح، أو حين زار مصر سنة ١٣٢٩ و ١٣٣٦ والتقى بعلمائها ومصلحيها.

وسوف نقف على مجمل نشاط كلٍّ من هؤلاء الروّاد الأوائل وإنجازاتهم للتعرّف على مجمل المشاريع التي سبقت الإمام شرف الدين.

١ ـ الإمام المجدّد السيّد محمّد حسن الشيرازي
(١٢٣٠ ـ ١٣١٢هـ)

ولادته ونشأته العلميّة

ولد السيّد محمّد حسن بن السيّد محمود الشيرازي في مدينة شيراز في ١٥جمادى الأُولى ١٢٣٠. ونشأ في أحضان أُسرته التي كانت تتمتّع بزعامة زمنيّة بارزة في شيراز[1].

فقد أباه منذ طفولته فتولّى خاله تربيته. وما إن بلغ الرابعة من عمره حتّى أحضر له خاله معلّماً علّمه في بيته القراءة والكتابة، ولمّا بلغ السادسة من عمره شرع بدراسة العلوم العربيّة ثمّ الفقه والأُصول، حتّى أكمل المقدّمات في أقلّ من سنتين.

وشاء خاله أن يكون من أهل الوعظ والخطابة، فاختار له الميرزا إبراهيم ـ وهو أكبر خطيب في شيراز آنذاك ـ ليكون معلّماً له، وفي أثناء ذلك كان يواصل دروسه الشرعيّة ويكتب ما يبدو له من الشروح والأفكار. وفي أحد الأيّام طلب منه أُستاذه أن يطلعه على تلك الشروح والأفكار، فلمّا أطلعه عليها قال له الأُستاذ وهو الشيخ محمّد تقي: «ليس في شيراز من تنتفع أنت منه فيجب أن تهاجر إلى إصفهان فإنّها دار العلم»[2].

فحزم السيّد الشيرازي أمره وصمّم على الهجرة إلى إصفهان مدفوعاً بشوق ولهفة شديدين إلى تحصيل المزيد من العلوم الشرعيّة، فتوجّه إليها وهو ابن ثماني عشرة سنة، وذلك في ١٧ صفر ١٢٤٨هـ / ١٨٥٩م، فحضر درس الشيخ محمّد تقي صاحب

---

١. أعيان الشيعة ٥: ٣٠٥.

٢. هدية الرازي إلى الإمام المجدّد الشيرازي: ٣٥.

الحاشية على المعالم، لكنّ حضوره لديه لم يدم طويلاً، لأنّ الله سبحانه توفّي هذا الأُستاذ بعد أشهر قليلة. فأخذ السيّد محمّد حسن الشيرازي يحضر درس السيّد حسن الشهير بالمدرّس، والشيخ محمّد إبراهيم الكلباسي. وفي هذه الفترة من حياته مارس التدريس أيضاً حتّى عُدّ من أساتذة إصفهان المعروفين، كما حاز على درجة الاجتهاد قبل بلوغه سنّ العشرين وذلك من قبل أُستاذه السيّد حسن المدرّس[1].

هجرته إلى النجف الأشرف

بقي في إصفهان أحد عشر عاماً قضاها بين الدرس والتدريس حتّى استنفدت هذه المدينة أغراضها العلميّة بالنسبة له، فيمّم وجهه شطر النجف الأشرف، فوصلها في عام ١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م. ويبدو أنّ هجرته إليها لم تكن في البدء لغرض علمي، وأنّه كان عازماً على العودة إلى إيران اكتفاءً بما حاز عليه في إصفهان، لكنّه عندما وصل إلى النجف وحضر درس الشيخ مرتضى الأنصاري أحسّ في نفسه الحاجة إلى تحصيل المزيد من العلوم الشرعيّة، فعزم على البقاء في النجف[2].

وهناك حضر دروس الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر، حيث كان يعيش أيّامه الأخيرة، وقد نصّ على اجتهاده في كتاب كتبه إلى حاكم فارس. وحضر أيضاً دروس الشيخ مشكور الحولاوي، والشيخ حسن نجل الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والسيّد علي التستري. لكنّ عمدة دراسته وحضوره كانت عند الشيخ مرتضى الأنصاري، حيث لازم درسه في الفقه والأُصول حتّى وفاته في عام ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م، أي مدّة تساوي ٢٢ عاماً. وهو أبرز حضّار درسه.

وينقل الشيخ آقا بزرك أنّ السيّد الشيرازي كان قليل الكلام في بحث الشيخ

---

١. نقباء البشر ١: ٤٣٧.
٢. أعيان الشيعة ٥: ٣٠٥.

لا يتكلّم إلّا نادراً، وإذا تكلّم لا يجهر بصوته فينحني الشيخ لسماع كلامه ويشير إلى حضّار درسه بالسكوت، ويقول لهم: إنّ جناب الميرزا يتكلّم، فإذا فرغ من كلامه رفع الشيخ رأسه وتوجّه إلى طلبته وقرّر لهم كلام الميرزا[١]. وهذا غاية ما يتصوّر من احترام وتكريم أُستاذٍ لتلميذه. وإلى جانب ذلك صرّح باجتهاده أكثر من مرّة، وهو المعروف بتشدّده في إعطاء إجازات الاجتهاد لتلاميذه.

وبعد وفاة الشيخ الأنصاري انقطع السيّد محمّد حسن الشيرازي عن التحصيل واستقلّ بالتدريس، وبدأ بإلقاء دروس البحث الخارج، وبعد سنوات طوال من التدريس تخرّج على يديه عدد كبير من العلماء الكبار الذين لعبوا دوراً بارزاً، منهم آية الله السيّد إسماعيل الصدر، وآية الله السيّد حسن الصدر، والمحدّث الشهير الميرزا حسين النوري، والشيخ أقا رضا الهمداني، والشيخ فضل الله النوري، والشيخ محمّد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين، وآية الله الشيخ محمّد كاظم الخراساني، وآية الله السيّد كاظم اليزدي وغيرهم.

وترك آثاراً فقهيّة عديدة، منها رسالته العمليّة، وكتاب في الطهارة، وآخر في فقه المعاملات. كما قام بتدوين تقريرات درسه في الفقه والأُصول عدد من تلامذته البارزين.

كتب الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين في ترجمة المجدّد السيّد الشيرازي، ما يلي:

المعروف بين المسلمين أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقيّض لهذا الدين على رأس كلّ مائة سنة من يجدّده ويحفظه، ولعلّ المدار في هذا ما أخرجه أبو داود في صحيحه بسند صحيح عند القوم رفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يبعث لهذه الأُمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها».

وقد أورد ابن الأثير هذا الحديث في كتاب النبوّة من كتابه جامع الأصول في أحاديث

---

١. هديّة الرازي: ٣٧.

الرسول ثمّ أورد في شرح غريب هذا الباب كلاماً ذكر فيه المجدّدين، فعدّ ممّن جدّد في مذهب الإماميّة على رأس المائة الأُولى محمّد بن عليّ الباقر، وعلى رأس المائة الثانية عليّ بن موسى الرضا، وعلى رأس المائة الثالثة أبا جعفر محمّد بن يعقوب الكليني، وعلى رأس المائة الرابعة الشريف المرتضى الموسوي.

قلت: لعلّ أمر المجدّدين ثابت مطّرد جدير بالتصديق والإذعان. وإذن فمجدّد الدين في رأس القرن الرابع عشر، إنّما هو هذا الزعيم العظيم الذي ثنيت له وسادة الزعامة والإمامة، وكان أهلها، أعلى الله مقامه[1].

مرجعيّته العليا

وبمرور الأيّام أصبحت منزلة السيّد محمّد حسن الشيرازي وتفوّقه على أقرانه أمراً مسلّماً يذعن له الجميع، بفضل ما امتاز به من مكانة خاصّة وبإشادات الشيخ الأنصاري المتكرّرة به؛ ممّا فتح له الأبواب إلى مرجعيّة واسعة ونافذة قلّ نظيرها من قبل ومن بعد. فبعد وفاة الشيخ الأعظم الأنصاري اجتمع وجوه طلّابه واتّفقوا على تقديم آية الله السيّد الشيرازي في المرجعيّة، وصاروا يرشدون الناس إلى تقليده، فأُسندت له الزعامة وأصبح المرجع الديني المطاع لأتباع أهل البيت عليهم السلام في شرق الأرض وغربها.

ويروي الشيخ أغا بزرك عن أحد أُولئك العلماء الذين اختاروه للمرجعيّة أنّهم بعد اختيارهم له، أرسلوا إليه فامتثل طلبهم وحضر بينهم فقالوا له: لا بدّ للناس من مرجع في التقليد والرئاسة الدينيّة وقد اتّفقنا على جنابك. فرفض ذلك واختار بدلاً عن نفسه الشيخ حسن نجل الشيخ جعفر كاشف الغطاء، فردّ الشيخ حسن هذا الترشيح، وتكلّم الآخرون وألزموه بالتصدّي للمرجعيّة، فقبل ذلك ودموعه تجري على خدّيه. ويروي أيضاً عن أحد العلماء البارزين أنّ الميرزا الشيرازي أقسم له بأنّه لم يخطر بباله قبل

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٢٨٢، التعليقة (٢).

ذلك أنّه يصير مرجعاً للناس في الدين ويبتلى بهذا الابتلاء[١].

ويذكر السيّد محسن الأمين أنّ السيّد المجدّد الشيرازي بلغ في المرجعيّة مبلغاً لم يكن لأحد من الأمراء والملوك في عصره، وجبيت إليه الأموال من أقصى الصين وما وراء النهر[٢].

واشتهر بلقب المجدّد الذي أُطلق عليه ولم يُعرف به أحد غيره من العلماء السابقين ولا اللاحقين به، وما ذلك إلّا لاشتهار زعامته الدينيّة وبلوغها مدى لا نظير له.

قضى آية الله المجدّد الشيرازي العقد الأوّل من مرجعيّته في النجف الأشرف، وفي هذه الفترة تكشّفت مكانته الأخلاقيّة والسياسيّة وسمات شخصيّته الرفيعة.

هجرته إلى سامرّاء

وفي عام ١٢٩١هـ توجّه من النجف إلى كربلاء لأداء زيارة النصف من شعبان، ومن هناك توجّه إلى الكاظميّة، وبعدها انتقل إلى سامرّاء حيث وصلها في أواخر شعبان، فأقام فيها مدّة شهر رمضان، وهو يخفي قصد البقاء فيها، وبعد انقضاء شهر رمضان أرسل إليه بعض خواصّه يسألونه عن سبب تأخّره وعدم عودته إلى النجف، فأبدى لهم رغبته في البقاء في سامرّاء، فالتحق به إثر ذلك عيون تلامذته، كالمحدّث النوري، والشيخ فضل الله النوري، والشيخ محمّد تقي الشيرازي، والسيّد محمّد الإصفهاني الفشاركي.

أسباب الهجرة

وقد أثارت هذه الهجرة فضول الباحثين والمؤرّخين، وأخذوا يتساءلون عن السبب الذي دعا السيّد المجدّد إليها. فعلّلها كلّ واحد بما ارتأى، فاختار السيّد الأمين العاملي

١. هديّة الرازي: ٣٧ـ٣٨.

٢. أعيان الشيعة ٥: ٣٠٥.

أنّ الخاصّة أشدّ مؤونةً من العامّة، فأراد السيّد المجدّد الابتعاد عن الخاصّة بهجرته إلى سامرّاء، وهناك أسباب ثانويّة شدّت من عزمه، كالرغبة في إسداء الخدمات المطلوبة بمرقدي الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام، وإعمار المدينة ورفع المشكلات التي كانت تعترض الزائرين. إضافةً إلى التخلّص من معارك «الزكرت والشمرت»[١] التي كانت تجري في النجف وتسبّب إيذاءً للأهلين والعلماء[٢].

وعلّلها الشيخ أغا بزرك الطهراني بالإعراض عن الرئاسة والتخلّص من قيودها وطلب الانزواء.

بينما ذكر في الكتاب الثاني سبباً آخر وهو أنّ الدور الذي قام به في النجف الأشرف عندما عمّها القحط والغلاء جعل الناس يتوقّعون منه كلّ شيء، ويطلبون منه قضاء كلّ حاجة حتّى فكاك أولادهم من الخدمة العسكريّة ببذل البدل النقدي عنها، فضاق به الأمر ورأى أنّ وراء هذه المضايقات بعض الأعيان، وأنّ الخروج من النجف هو السبيل الوحيد للتخلّص منها.

وهذا هو نفس التعليل الذي أورده السيّد حسن الصدر في تكملة أمل الآمل.

فيما علّلها الدكتور علي الوردي بأنّ السيّد المجدّد جاء إلى سامرّاء ليحوّلها إلى بلدة شيعيّة وينقذ الزوّار من المضايقات التي كانت تحصل لهم[٣].

وكلّ هذه الأسباب محتملة، ومن الصعب تأييد أو تفنيد أيٍّ منها، لعدم وجود دليل تاريخي كافٍ في هذا المجال.

ومهما يكن من أمر فقد ازدهرت سامرّاء في عهد السيّد المجدّد الشيرازي علميّاً وعمرانيّاً، وأصبح لها موقع مهمّ في التاريخ المعاصر بفضل هذه الهجرة المباركة، فقد أصبحت الرحلة إلى سامرّاء من قبل طلبة العلوم الدينيّة تساوي أو تفوق الرحلة إلى

---

١. الزكرت والشمرت: قبيلتان نجفيّتان متصارعتان دام الصراع بينهما زهاء قرن من الزمن.

٢. أعيان الشيعة ٥: ٣٠٦.

٣. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ٨٩.

النجف، وراجت بضاعة الأدب هناك بفضل اهتمام السيّد الشيرازي بالأُدباء والشعراء وصلاته لهم، واحتشدت سامرّاء بالزائرين والوافدين. وبنى فيها السيّد المجدّد مدرسة دينيّة كبيرة، وجسراً على نهر دجلة. وحمّاماً للرجال وآخر للنساء، وعدّة دور سكنيّة. وهكذا انتعشت سامرّاء بفضل وجود السيّد المجدّد وجهوده فيها.

بلغ الإمام الشيرازي قمّة مجده، وكادت أن تكون شخصيّته مطلقة في تأثيرها وسطوتها على النفوس، الأمر الذي جعل عدداً من الطائفيّين يتضايقون منه ويسعون للوقيعة به.

وفي أحد الأيّام من عام ١٣١١هـ / ١٨٩٣م رمي الإمام الشيرازي بحجارة من قبل بعض المارّة في الزقاق الذي اجتازه، وكان للحادث مدلولاته الخاصّة؛ لأنّه جاء في وقت كان الإمام الشيرازي قد أهان الدول الأوربيّة وخاصّةً إنجلترا، وكان بعض الطائفيّين يتحرّكون ضدّه، ولذا يعتقد أنّه كان مدبّراً ولم يكن عفويّاً. ولعلّ الشاهد الذي يؤيّد ذلك هو أنّ القنصل البريطاني في بغداد توجّه نحو سامرّاء والتقى بالإمام الشيرازي وأبدى له الاحترام، وعرض على سماحته اهتمام بريطانيا بالأمر واستعدادها لاتّخاذ كلّ الإجراءات التي يطلبها سماحته في هذا الشأن!! فردّ عليه الإمام الشيرازي قائلاً: «إنّ الحادث مجرّد عمل صبياني عفوي وقع من قبل صبيان كانوا يلعبون في الطريق، فلا حاجة لأن تدسّ بريطانيا أنفها في ما لا يعنيها من الأُمور»[1]. فعاد القنصل البريطاني يجرّ أذيال الفشل من هذه السياسة التي طبّقها الإنجليز في الهند فنجحت وتصوّروا أنّها تنجح مع علماء المسلمين أيضاً.

توفّي الإمام الشيرازي في ٢٤ شعبان ١٣١٢هـ / ٢٠ شباط ١٨٩٥م عن عمرٍ جاوز الثمانين. وتركت وفاته أثراً في النفوس قلّ نظيره، فقد حملت جنازته على الأعناق في معظم الطريق بين سامرّاء والنجف الأشرف. وكان موكب التشييع كلّما

---

١. ثورة النجف: ١١٣.

وصل مدينة أو قصبة خرج أهاليها معزّين باكين، يحملون الأعلام السود ويـحملون النعش بدلاً عن أهالي المدينة السابقة. وهكذا حـتّى وصـلوا بـالجنازة إلى النـجف الأشرف التي كانت في عزاء تامّ عليه. فطيف بالنعش حول المرقد العلوي ثـمّ أُودع في القبر. واستمرّت مجالس التأبين سنة كـاملة تـقريباً. ونـعي فـي جـميع المـدن والبلدان الإسلاميّة[١].

من إنجازات المجدّد الشيرازي الإصلاحيّة

تحدّث الدكتور علي الوردي عـن الدور الذي مـثّل الزعـامة الديـنيّة والسـياسيّة في آن واحد، بعد أن تولّى السيّد الشيرازي مـنصب المـرجـعيّة العـليا للشـيعة فـي العالم الإسلامي، إذ جرت في عهده أحداث هامّة كان لهـا أثـرها الاجـتماعي فـي العراق وإيران. وفي ضوء هذه الأحـداث اعـتبر (أعـظم مـجتهد شـيعي فـي العـهد الحميدي العثماني)[٢].

ووصف بأنّ عقله السياسي كان محيّراً للسـياسيّين وأنّ أهـل العـلم والسـلاطين يرجعون إليه في الأُمور السياسيّة[٣].

لقد اتّسمت مرجعيّة السيّد الشيرازي بثلاثة مواقف رئيسيّة بارزة، حملت دلالات دينيّة ـ سياسيّة كبيرة الأهمّيّة، وهي بإيجاز:

أ ـ رفضه لاستقبال الشاه ناصر الدين

في عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م زار الشاه ناصر الدين القاجاري العتبات المقدّسة في العراق، وكان الوالي العثماني في بغداد مدحت باشا. فلمّا قصد الشاه كربلاء، خـرج

---

١. نقباء البشر ١: ٤٤٠، وانظر مقالاً لعبد الكريم آل نجف في مجلّة التوحيد، العدد ٧٥.

٢. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ٧٧.

٣. هديّة الرازي: ٢٦.

لاستقباله علماؤها جميعهم إلى المسيّب فسلّم عليهم، ومضى.

ولمّا ورد النجف الأشرف خرج أيضاً لاستقباله بعض علمائه إلى خان الحماد في منتصف الطريق، وبعضهم إلى خان المصلّى، على ثلاثة فراسخ من النجف، ولمّا دخل النجف زاره العلماء، إلّا المترجم إذ لم يخرج لاستقباله كما لم يذهب لزيارته.

ثمّ أرسل الشاه إلى العلماء مبالغ نقديّة، فقبلت منه، إلّا السيّد الشيرازي فقد رفض قبولها ممّا اضطرّ الشاه أن يرسل وزيره حسن خان إليه معاتباً، وطالباً منه أن يزوره، فأبى السيّد ﵀، وبعد الإلحاح الشديد عليه والوسائط المتعدّدة، قبل السيّد أن يلتقي به في الحضرة الشريفة العلويّة، وتمّ الاجتماع بينهما ولم يطلب السيّد من الشاه شيئاً[١].

هذا الموقف الرائع رفع من مكانة السيّد الشيرازي في أوساط العامّة، وزاد في عدد مقلّديه[٢]، وشكّل كسراً للتقليد الذي كان يتّبعه المجتهدون في استقبال الملوك المسلمين[٣].

أصبحت هذه الطريقة سنّة متّبعة عند كبار العلماء منذ السيّد الشيرازي حتّى السنين المتأخّرة[٤]، فإذا جاء إلى النجف ملك من ملوك المسلمين، أو من هو في منزلته أحجموا عن استقباله وزيارته، وإذا دعت الضرورة إلى الاجتماع التقوا به في الحضرة المقدّسة[٥].

ويرى الأُستاذ الرهيمي: أنّ دلالة هذا الموقف تمثّلت في الحطّ من هيبة الشاه، وإيحاء السيّد الشيرازي له بتأييد المؤسّسة الدينيّة الشيعيّة المعارضة التي بدأت تتأسّس في إيران منذ ١٨٢٦م[٦].

---

١. أعيان الشيعة ٥: ٣٠٥؛ ثورة إيران في جذورها الإسلاميّة الشيعيّة: ٤٧ ـ ٤٨.

٢. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ٨٧ ـ ٨٨.

٣. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ١٢٧.

٤. كما حدث مثل ذلك للإمام شرف الدين إذ رفض الالتقاء بشاه إيران حين زار لبنان.

٥. مع علماء النجف الأشرف: ١١٠.

٦. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ١٢٧.

وذكرت بعض المصادر موقفاً مشابهاً لما سبق. وذلك في العام الذي تشرّف به إلى حجّ بيت الله الحرام ١٢٨٧هـ وكان في ذلك الوقت الشريف عبد الله الحسني شخصيّة مكّة، فأخبر الشريف بوروده فعيّن وقتاً لمواجهته، ولمّا أُخبر بذلك ـ وهو لم يطلب مقابلة أحد ـ ردّ على الرسل بالقولة المشهورة: إذا رأيتم العلماء على أبواب الملوك، فقولوا: بئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيتم الملوك على أبواب العلماء فقولوا: نعم العلماء نعم الملوك، فلمّا وصل الجواب إلى الشريف بادر إلى زيارته[١].

ب ـ معالجته للفتنة الطائفيّة

اهتمّ السيّد الشيرازي عند انتقاله إلى سامرّاء بإماتة الفتن الطائفيّة الرعناء وتوحيد كلمة المسلمين، وكان باعتقاده أنّ الحركة الاقتصاديّة والعمرانيّة في سامرّاء من قبل إخوانهم الشيعة قد تخفّف سعير النعرات الطائفيّة، التي تثيرها طبقة المنتفعين من الفريقين، والذين لا تهمّهم المصلحة العامّة بقدر ما تهمّهم مصالحهم الشخصيّة ومنافعهم الدنيويّة.

ورغم ما عمله السيّد الشيرازي في سامرّاء من مشاريع وخدمات أدّت إلى تعمير المدينة بصورة فائقة، من حيث السكن والأسواق وتشغيل اليد العاملة، إلّا أنّ أصحاب المطامع وعمّال الاستعمار بدأوا في إثارة القلاقل والفتن، والتعدّي على النفوس والأموال[٢]. وكادت تؤدّى للاقتتال بين أهالي سامراء والمناطق المجاورة وذلك عام ١٣١١هـ.

وذكر في منشأها أنّ الوالي حسن باشا العثماني زار السيّد الميرزا الشيرازي فلم يعتنِ به ـ جرياً على عادته في عدم الاهتمام بالمسؤولين الحكوميّين ـ فحقد على

---

١. نقباء البشر ١: ٤٣٨.

٢. أعيان الشيعة ٥: ٣٠٦.

الميرزا، وأوغر بالشيعة في سامراء بعض المتعصّبين من الأهالي والوجوه ممّن ثقل عليهم توطّن الميرزا في بلدهم، وعندئذٍ وقعت الفتنة في سامراء، واتّسعت حتّى وصلت إلى بغداد، وتثاقل الوالي عن سماع شكوى العلماء وطلّاب العلوم في سامراء، بل منع من إعلام السلطان عبد الحميد، ممّا اضطرّ السيّد الشيرازي أن يرسل مَن يمثّله إلى إيران لإعلام السلطان من هناك، وجلب نظر الشاه ناصر الدين إلى الصورة المأساويّة التي حلّت بطلّاب العلوم المهاجرين وسكّان سامرّاء من الشيعة.

وتغاضى الشاه بادئ الأمر عن إثارة الموضوع والنصرة لهم، وأرسل لهم بعض الإسعافات معتقداً أنّ ذلك سيخفّف من وطأة الأمر، ولكنّ ممثّل السيّد الشيرازي أوصل الخبر إلى السلطان، فأقام الدنيا وأقعدها ـ على حدّ قول الرواية ـ حتّى أطفا النائرة وقمع الفساد وعاقب المسؤولين بعقاب صارم[١].

وحاول القنصل الإنكليزي في بغداد أن يستغلّ الموقف لصالح دولته، وليثيرها عجاجة على الحكم العثماني فسافر إلى سامرّاء لتسعير الفتنة، ومقابلة السيّد لعرض خدماته ونصرته له، فما كان من الميرزا الشيرازي أن رفض مقابلته، وردّ عليه: أن لا حاجة لدسّ أنف بريطاني في هذا الأمر الذي لا يعنيها، لأنّه والحكومة العثمانيّة على دين واحد، وقبلة واحدة، وقرآن واحد...[٢].

ويبدو واضحاً أنّ أهميّة هذا الموقف كانت تتجلّى آنذاك بتجاوز الفتنة، وإبداء الحرص على وحدة الجماعة الإسلاميّة، رغم الخلاف المذهبي مع الدولة العثمانيّة، وقطع الطريق على تدخّلات القناصل الأوربيّين، وخاصّة الإنكليز الذين كانوا ينشطون لإقامة أوسع العلاقات مع القيادات الاجتماعيّة والأعيان في المدن والريف[٣].

١. معارف الرجال ٢: ٢٣٥، الهامش ٢.

٢. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ١٢٨، عن الوقائع الحقيقيّة في الثورة العراقيّة: ٤.

٣. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ١٢٨، عن الإصلاح العثماني والمشرق العربي: ٩٠ ـ ٩١.

ج ـ ثورة التنباك

من أهمّ المواقف التي سجّلها التاريخ للإمام الشيرازي، موقفه الجريء في قضيّة التنباك الذي كان بمثابة انتفاضة عارمة ضدّ السلطة المستبدّة والاستعمار البريطاني حينذاك، وأكّدت مواقفه: أنّ «سلطان الدين أقوى من كلّ سلطان»[١].

ومجمل القضيّة أنّ ناصر الدين شاه القاجاري عقد اتّفاقيّة مع شركة إنكليزيّة باحتكار التبغ الإيراني، وأثّر هذا الامتياز للشركة الأجنبيّة على الحركة التجاريّة الداخليّة والسوق المحلّيّة، وأصرّ الشاه على إبرامها وتنفيذها. وتنصّ هذه الاتّفاقيّة على أن تتولّى الشركة زراعة التبغ وبيعه وتصديره لمدّة خمسين عاماً بدءاً من سنة ١٨٩٠م، كما حدث في الهند[٢].

وعلى أثر ذلك اندلعت انتفاضة شعبيّة في عام ١٨٩٠م بقيادة العلماء في إيران، وكان من أبرز المجتهدين الذين قادوا الانتفاضة في طهران آية الله الميرزا محمّد حسن الآشتياني ﷺ، وأدرك علماء إيران أنّ توفير فرصة أكبر لنجاح الانتفاضة الشعبيّة من أجل إلغاء الاتّفاقيّة يتطلّب تأييد المرجع الأعلى للشيعة السيّد الشيرازي، فأبرقوا إليه طالبين منه دعمهم.

كما أرسل السيّد الشيرازي ـ في الوقت نفسه ـ رسائل عديدة إلى الشاه يطالبه فيها بـ«الاستجابة للرعيّة في إلغاء الاتّفاقيّة»[٣]. غير أنّه عندما يئس من إقناعه بإلغائها، أصدر فتواه الشهيرة، والتي كان نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم، استعمال التنباك والتتن حرام بأيّ نحوٍ كان، ومن استعمله كمن حارب الإمام عجّل الله فرجه. محمّد حسن الحسيني الشيرازي[٤].

---

١. أعيان الشيعة ٥: ٣٠٦.

٢. معارف الرجال ٢: ٢٣٥.

٣. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ٩٣.

٤. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ١٢٩.

وهذه الفتوى كانت بمثابة «القنبلة» من حيث تأثيرها على المجتمع الإيراني فقد تمّ استنساخها بمائة ألف نسخة، وزّعت في مختلف أنحاء إيران وتليت من على المنابر في المساجد والحسينيّات[١].

إنّ جميع أهالي إيران تركوا التدخين، وكسروا «النارجيلات» وكلّ آلة تستعمل للتدخين في بلاد إيران، حتّى أنّ نساء قصر الشاه كسرن آلات التدخين في القصر، وعرف الشاه هذه الحقيقة التي لم يتصوّرها لحظةً ما، بأنّ قوّة المرجع الديني أقوى من سلطته.

إنّ ملايين من المتعاطين للتنباك ـ حينذاك ـ في إيران تركوا التدخين امتثالاً لأوامر الإمام الشيرازي، وكانت النتيجة المباشرة للفتوى والانتفاضة إرغام حكومة الشاه على إلغاء الاتّفاقيّة، فإنّ نتائجها الفكريّة والسياسيّة في إيران والعراق كانت بعيدة الأثر، واضطرّ الشاه إلى فسخ الاتّفاقيّة، ودفع خسارة الشركة[٢].

وبالرغم من أنّ قضيّة التنباك قد حصلت في إيران، وأنّ ما أسفر عنها من تفاعلات ونتائج أثّرت بشكل أساسي في المجتمع الإيراني، فقد كان لها صدى قويّاً في العراق، ولا سيّما في المناطق والمدن الشيعيّة، الذي كان من بين أسبابه تشابك العلاقات بين هذه المناطق والمدن وإيران، وانعكاس الأحداث عليها، وكذلك بسبب التدخّل للمرجع الأعلى ـ الذي مقرّه في العراق ـ في القضيّة وتزعّمه للانتفاضة.

وقد تابع العراقيّون ـ وخاصّة في المناطق الشيعيّة ـ تلك الأحداث باهتمام كبير، ولا سيّما داخل الحوزات والحلقات والمدارس العلميّة فإنّها أثارت جدلاً فكريّاً وسياسيّاً عامّاً ...

وهكذا مثّلت الفتوى التي أصدرها الإمام الشيرازي، وتدخّله المباشر في قضيّة التنباك، والانتفاضة المتولّدة عنها، إحدى أهمّ المواقف والنشاطات والسياسيّة للعلماء

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ٥٩.

٢. أعيان الشيعة ٥: ٣٠٧.

المسلمين الشيعة في أواخر القرن التاسع عشر، وشكّلت مظهراً رئيسيّاً من مظاهر الاتّجاه الثقافي الفكري السياسي الإسلامي، الذي مهّد لقيام الحركة الإسلاميّة في العراق أوائل القرن العشرين[١]. بل مهّد لما هو أبعد من ذلك فيما بعد.

وعلى كلّ حال فإنّ وعي الإمام الشيرازي لعمق المأساة واستثماره لموقعه المرجعي في معالجة أزمة الاستبداد ومقارعة عوامل الاستعمار يعزّز لنا الدور الريادي الذي ملكته المرجعيّة الدينيّة في التاريخ الحديث.

وهكذا أثبتت المرجعيّة الدينيّة الشيعيّة بكلّ تواضع وأناة قدرتها الفائقة ونفوذها الديني في أتباعها، واستطاعت أن تتحدّى المستعمرين والطغاة في عُقر دورهم رغم كبريائهم. وقد انبهرت بريطانيا العظمى من هذا الموقع القيادي الديني وأخذت تخطّط لتسقيطه وإفشاله وإنهاء دوره، غير أنّ الله غالب على أمره وهو الذي يحفظ دينه رغم تخطيط الطغاة والظالمين الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره المشركون.

---

١. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ١٣٠ ـ ١٣١.

٢ ـ السيّد جمال الدين الأسد آبادي المشهور بالأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ)

يعتبر السيّد جمال الدين الأسدآبادي الأفغاني[١] رائداً من روّاد حركة الإصلاح في العصر الحديث وباعث الروح النهضويّة، وأوّل من صاغ المشروع الإصلاحي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بجبهتيه: جبهة مواجهة الاستعمار في الخارج، وجبهة مواجهة الاستبداد والقهر في الداخل.

واعتبر أيضاً أوّل من صاغ مفاهيم الوحدة في العصر الحديث.

عاش أكثر من نصف قرن، واضطرّ إلى مغادرة بلاد الأفغان وترك الهند إلى مصر ثمّ إلى الآستانة وتحمّل السجن والنفي وهو غير راضٍ عن نفسه التي كانت تصبو إلى الشهادة.

ولم يترك عملاً جليلاً للنوع الإنساني عامّة وللشرقيّين خاصّة إلّا اقتحمه إلى حدّ الخروج من الاعتدال إلى التهوّر[٢].

---

١. ترجمه السيّد محسن الأمين العاملي في أعيان الشيعة ـ وكان قد عاصره في شطر من حياته ـ بما يلي:
السيّد جمال الدين ـ ويقال محمّد جمال الدين ـ ابن السيّد صفدر الحسيني الهمذاني الأسدآبادي، الشهير بالسيّد جمال الدين الأفغاني.
ولد في شعبان سنة ١٢٥٤ في أسدآباد من توابع همذان وتوفّي في شوّال سنة ١٣١٤ ـ أو سنة ١٣١٥ ـ في استانبول، وصلّي عليه في جامع التشويقيّة ودفن في مقبرة شيخلر مزارلغي ـ أي مقبرة المشايخ ـ التي تختصّ بقبور الأولياء والعلماء على مقربة من الجامع المذكور.
والأسدآبادي نسبة إلى أسد آباد قرية على بعد سبعة فراسخ من مدينة همذان إلى جهة العراق بين همذان وكرمانشاه، فيها نحو ٨٠٠ بيت وعدد سكّانها نحو ٤٠٠٠ نسمة.

٢. جمال الدين الأفغاني: ٢١.

وقد كتب عن نفسه وحياته قائلاً:

فأيّ نفع لمن يذكر أنّي ولدت سنة ١٢٥٤ وعمّرت أكثر من نصف عصر، واضطررت إلى ترك بلادي الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأُكرهت على مبارحة الهند، وأُجبرت على الابتعاد عن مصر، أو إن شئت قل: نفيت منها، ومن الآستانة ومن أكثر عواصم الأرض[١].

دخل جمال الدين الأسدآبادي مصر مرّتين: أُولاهما: كانت سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م ولم يمكث في مصر في تلك المرّة سوى أربعين يوماً، توجّه بعدها إلى الآستانة، والثانية: كانت عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م واستمرّت إقامته هذه المرّة ثماني سنوات، ولم يخرج منها إلّا مُكرهاً سنة ١٨٧٩م؛ حيث نفي بسعاية من الإنجليز إلى الهند، وهناك اعتقل في حيدرآباد ثمّ كلكتّة، ثمّ سمح له بمغادرة الهند بعد قمع الثورة العرابيّة واحتلال الإنجليز عسكريّاً لمصر[٢].

وقد وصف محمّد عبده أثر جمال الدين الأسدآبادي في مصر فقال:

جاء إلى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ هـ رجل غريب، بصير بالدين، عارف بأحوال الأُمم، واسع الاطّلاع، جمّ المعارف، جريء القلب، وهو المعروف بالسيّد جمال الدين الأفغاني ... وهو في جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم الكلام فيما ينير العقل، أو يطهّر العقيدة، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأُمور، أو يستلفت الفكر إلى النظر في الشؤون العامّة ممّا يمسّ مصلحة البلاد وسكّانها. وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتسبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيّام البطالة [العطلة]، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحبّائهم، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول، وخفّ حجاب الغفلة في أطراف متعدّدة من البلاد خصوصاً في القاهرة[٣].

---

١. الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني: ٥٣٣ ـ ٥٣٨.

٢. جمال الدين الأفغاني والاتّجاهات الإسلاميّة في أدبه: ٣٥ و ١٩٧.

٣. أسباب الحوادث العربيّة، نقلاً عن تاريخ الأُستاذ الإمام ١: ٣٥ ـ ٣٨. والنصّ نفسه في الأعمال الكاملة للأُستاذ محمّد عبده ١: ٥٢٩.

يقول الأُستاذ أحمد أمين عن جمال الدين الأسدآبادي:

ولقد طوّف في فارس والهند والحجاز والآستانة وأقام فيها، ولكن لعلّ أخصب زمنه وأنفع أيّامه وأصلح غرسه ما كان في مصر مدّة إقامته بها، من أوّل محرّم سنة ١٢٨٨ هـ إلى سنة ١٢٩٦ هـ ثماني سنين كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى الشرق... لأنّه فيها كان يدفن في الأرض بذوراً تتهيّأ في الخفاء للنماء، وتستعدّ للظهور ثمّ الازدهار، فما أتى بعدها من تعشّق للحريّة وجاهد في سبيلها فهذا أصلها، وإن وجدت بجانبها عوامل أُخرى ساعدت عليها وزادت في نموّها. لقد جرّب السيّد أن يبذر بذوراً في فارس والآستانة فلم تنبت، ثمّ جرّبها في مصر فأنبتت[1].

وقد كانت لجمال الدين الأسدآبادي قدرة تامّة على كسب الأنصار وجمع المريدين من النابهين والأذكياء حوله؛ فمحمود سامي البارودي، وأحمد عرابي، وعبد الله النديم، ومصطفى كامل، ومحمّد عبده، وسعد زغلول، وإبراهيم الهلباوي، وأحمد لطفي السيّد، وقاسم أمين، وإبراهيم اللقاني، وعشرات غيرهم كانوا من تلامذته المباشرين، أو أخذوا عنه بطريق غير مباشر.

أركان المشروع الإصلاحي للسيّد جمال الدين الأسدآبادي

يقوم المشروع الفكري والإصلاحي لجمال الدين الأسدآبادي على أربعة أركان:

أوّلها: الالتزام بمبادئ الإسلام والاقتداء بسلف الأُمّة.

والثاني: تحرير الأُمّة من الاستبداد الداخلي والخارجي.

والثالث: توحيد الأُمّة في جامعة إسلاميّة.

والرابع: الأخذ بأسباب القوّة من العلوم والنظم الغربيّة.

ومن الكلمات التي تصوّر منهج جمال الدين الأسدآبادي قوله:

إنّ الممالك الإسلاميّة هذه إنّما هي من الانحطاط والهوان؛ بحيث لا تستطيع أن تكون

---

١. زعماء الإصلاح في العصر الحديث: ٦٨.

قوّامة على شؤون نفسها بنفسها، في حين أنّ تلك الدول [يقصد الدول الأوربيّة المستعمرة] عينها لا تكفّ عن التذرّع بألوف الذرائع، حتّى بالحرب والحديد والنار، للقضاء على كلّ حركة من حركات الإصلاح والنهضة في البلاد الإسلاميّة، ومن ثمّ يجب على العالم الإسلامي أن يتّحد في حلف دفاعي كبير ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفناء. وللوصول إلى هذه الغاية يجب عليه أن يأخذ بأسباب التقدّم في الغرب، وأن يكتنه أسرار تفوّقه وقدرته[١].

وكانت التعاليم الثوريّة لجمال الدين تدعو إلى التحرّر من المستعمر أو المسيطر الأجنبي، وإلى التخلّص من ظلم الحكم المحلّي معاً، فهو يخطب في الإسكندريّة قائلاً:

أنت أيّها الفلّاح المسكين تشقّ قلب الأرض لتنبت ما تسدّ به الرمق وتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشقّ قلب ظالمك؟ لماذا لا تشقّ قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك؟![٢]

وهو يقول أيضاً:

لن تنبعث شرارة الإصلاح في وسط هذا الظلام الحالك إلّا إذا تعلّم الشعب، وعرف حقوقه ودافع عنها، ومتى عرف الشعب هذه الحقوق وجد نفسه مضطرّاً إلى المطالبة بها والمحافظة عليها إذا نالها[٣].

وحين استقبله الخديوي توفيق وقال له: «إنّ دروسكم وأقوالكم المهيّجة ستؤدّي بالشعب والبلاد إلى التهلكة». ردّ عليه جمال الدين قائلاً:

ليسمح لي سموّ أمير البلاد أن أقول بحرّيّة وإخلاص: إنّ الشعب المصري كسائر شعوب العالم، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، لكنّ هذا لا يمنع من وجود العالم والعاقل أيضاً، فبالمنظار الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر به إلى سموّكم. وإذا قبلتم نصحي وأسرعتم لإشراك الأمّة في حكم البلاد، فتأمرون بإجراء انتخاب نوّاب عن الأمّة تسنّ القوانين، فإنّ ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم.

---

١. العروة الوثقى: ٢١ ـ ٢٢.

٢. مقدّمة الأعمال الكاملة للأُستاذ الإمام محمّد عبده ١: ١٤.

٣. المصدر: ٣٦.

وكان جمال الدين يرى أنّ الحاكم العادل:

إمّا أن يكون موجوداً أو تأتي به الأمّة فتملّكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي. وتؤكّد للحاكم أنّ التاج سيبقى على رأسه ما دام محافظاً أميناً على صون الدستور، أمّا إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمّة، فإمّا أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس [١].

ولم يقف ـ في بذر البذور التحرّريّة ـ عند مقاومة الاستبداد الداخلي والسيطرة الأجنبيّة، بل إنّه بدأ ـ في الوقت نفسه ـ بمقاومة الجمود الفقهي بقوله:

ما معنى أنّ باب الاجتهاد مسدود؟! وبأيّ نصٍّ سُدّ؟! وأيّ إمام قال: لا يصحّ لمن بعدي أن يجتهد ليتفقّه في الدين، ويهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث؟! والاستنتاج والقياس على ما ينطبق على العلوم العصريّة، وحاجات الزمان وأحكامه؟! [٢]

وهو يصف سبيل الخروج من حال التبعيّة والسيطرة الأجنبيّة على الأمّة الإسلاميّة فيقول:

إنّ علاجها الناجح إنّما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، وإرشاد العامّة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق.. إنّ الأُصول الدينيّة الحقّة المبرّأة عن محدثات البدع تنشئ للأُمم قوّة الاتّحاد، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنيّة [٣].

وهكذا أسّس السيّد جمال الدين ـ في الفكر السياسي الإسلامي المصري ـ لفكرتي الإسلام المجاهد ضدّ الطغيان الداخلي والخارجي، والإسلام المتحرّر من قيود التقليد المنطلق في رحاب حرّيّة الفكر وسعة الاجتهاد. وهي البذور التي أنبتت فيما بعد ألواناً مختلفة من النبات والثمر، فضّل الناس بعضها على بعض في الأُكل، وأخذت الأفهام منها ـ على اختلافها ـ على قدر القرائح والعقول، واتّخذت الأحزاب والجماعات والأفراد من نتاجها سكراً ورزقاً حسناً؛ إذ كلّ ميسّر لما خُلق له [٤].

---

١. المصدر: ٤١ ـ ٤٤.

٢. المصدر: ٤٨ ـ ٤٩.

٣. المصدر: ٥٣.

٤. أُنظر بحث الأُستاذ الدكتور محمّد سليم العوّا تحت عنوان «التيّار الإسلامي في الفكر السياسي المصري» في الكتاب الثالث من كتب مجلّة الحياة الطيّبة: ٢٤٨ ـ ٢٥٣.

٣ـ الشيخ محمّد عبده
(١٢٦٦ـ١٣٢٣هـ)

أخذ الشيخ محمّد عبده عن جمال الدين الأفغاني منهج الإصلاح الديني باعتباره السبيل إلى تجديد حياة الشرق والشرقيّين، وقدّم بهذا المنهج بناءً فكريّاً مكتمل القسمات. ولا غرابة في ذلك، فقد كان الأُستاذ الإمام أنبه تلامذة جمال الدين، وأعظمهم نبوغاً، وأعلاهم همّة، وقد أتاحت له صحبته إيّاه في باريس مدّة سنتين تقريباً، ومشاركته في إدارة «العروة الوثقى» (المجلّة والتنظيم السرّي) أن يأخذ عنه ما لم يأخذه سواه.

ومحمّد عبده مشروع إصلاحي متكامل في الثقافة، والتربية، واللغة، والأدب، والفكر الاجتماعي، وتفسير القرآن الكريم، والإفتاء، والاجتهاد الفقهي، والعمل الثوري، والفكر السياسي. وكان ـ في ذلك كلّه وبه ـ «عقلاً من أكبر عقول الشرق والعروبة والإسلام في عصرنا الحديث»[1].

ففي مجال الفكر السياسي قدّم محمّد عبده النظريّة الإصلاحيّة في مقابل النظريّة الثوريّة التي كان يروّج لها جمال الدين الأفغاني. فكان محمّد عبده يرى أنّ التدرّج في الإصلاح هو الطريق الأقوم والأضمن في تحقيق الغاية المقصودة من العمل السياسي، وهي نهضة الشرق وتحرّره.

كان رأي محمّد عبده أنّ التربية المستندة إلى الدين بعد تجديده بواسطة المؤسّسات التربويّة الجديدة آنذاك ـ مثل كلّيّة دار العلوم ـ والمؤسّسات العتيقة ـ مثل الأزهر، والأوقاف، والقضاء الشرعي ـ هي السبيل الوحيدة لبلوغ غاية الشرق في

---

١. مقدّمة الأعمال الكاملة للأُستاذ الإمام محمّد عبده ١: ٥٦.

التحرّر الفكري والتحرير السياسي. وقد ظهر التمايز بين الفكر الثوري للأُستاذ جمال الدين الأفغاني، والفكر الإصلاحي لتلميذه محمّد عبده منذ غياب الأفغاني عن الساحة المصريّة واستقلال محمّد عبده بالعمل فيها، وانفراده بتبوّء موضع الأُستاذيّة من المفكّرين، وأصحاب الرأي، والزعماء، والساسة. وقد تبلورت آراؤه الإصلاحيّة في مقالاته بجريدة الوقائع المصريّة.

ولم يخالف محمّد عبده منهجه الإصلاحي التدريجي حتّى وهو ينادي بإصلاح الأوضاع السياسيّة، ففي الوقت الذي كانت الأرض المصريّة فيه تميد بالإرهاصات التي سبقت الثورة العرابيّة، كان المطلب الأساسي هو تحرّك الضبّاط المصريّين في الجيش لتحقيق آمال الأُمّة في الحكم الدستوري النيابي، وفي التخلّص من النفوذ الأجنبي المسيطر على البلاد.

في هذا الوقت نفسه كان محمّد عبده يدعو إلى التدرّج في الإصلاح بدلاً من القفز إليه بالثورة العسكريّة، وإلى تكوين رأي عامّ يصلح للممارسة الدستوريّة والحياة النيابيّة قبل أن توجد هذه المظاهر في شعب لا يقيم وزناً لها. وكتب في ٤ أبريل ١٨٨١ في الوقائع المصرية سلسلة مقالات بعنوان «خطأ العقلاء»، بيّن فيها أفكاره في الإصلاح السياسي في مواجهة تيّار الدعوة إلى الحركة العسكريّة، فكان ممّا دلّل به على وجوب التدرّج ومراعاة ما أسماه «عوائد الأُمّة المقرّرة في عقول أفرادها» قوله:

إنّنا نستحسن حالة الحكومة الجمهوريّة في أمريكا، واعتدال حكّامها، والحرّيّة التامّة في الانتخابات العموميّة في رؤساء جمهوريّاتها وأعضاء مجالس نوّابها وما شاكل ذلك... وتتشوّق النفوس الحرّة أن تكون على مثل تلك الحالة الجليلة، ولكنّنا لا نستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها لأفغانستان مثلاً، حال كونها على ما نعهد من الخشونة... . فإذا أردنا إبلاغ الأفغان ـ مثلاً ـ إلى درجة أمريكا فلابدّ من قرون تبثّ فيها العلوم، وتهذّب العقول، وتذلّل الشهوات الخصوصيّة، وتوسّع

الأفكار الكلّيّة حتّى ينشأ في البلاد ما يسمّى بالرأي العمومي، فعندئذٍ يحسن لها ما يحسن لأمريكا...[١].

هل نقول: ما أشبه الليلة بالبارحة؟ وهل كان محمّد عبده يقول غير هذه المقالة نفسها لو عاش مثلنا في عصر ما بعد الجهاد الأفغاني ضدّ الاحتلال الروسي؟ وهل هناك أصدق من واقع الحالة الأفغانيّة دليلاً على صحّة منهج محمّد عبده «الإصلاحي»، «التربوي»، «التدريجي»؟

لقد كان موقف الإمام محمّد عبده من الثورة العربيّة، منذ البدء، هو موقف المعارض، فقبل مظاهرة ٩ سبتمبر ١٨٨١م بعشرة أيّام فقط، التقى محمّد عبده بأحمد عرابي وعدد من قادة الثورة العرابيّة في منزل أحد أعيان البلاد (طلبة باشا)، فكان رأيه الذي أعلنه للثوّار:

إنّ أوّل ما يجب البدء به هو التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابيّة على بصيرة مؤيّدة بالعزيمة، وحمل الحكومة على العدل والإصلاح... وطلبُ ذلك ـ المشاركة الشعبيّة في إدارة أُمور الحكم ـ بالقوّة العسكريّة غير مشروع، فلو تمّ للجند ما يسعى إليه ونالت البلاد مجلس شورى، لكان على أساس غير شرعي، فلا يلبث أن ينهدم ويزول[٢].

ولكنّ نجاح الثورة العربيّة في تحقيق مسعاها بالحصول على الدستور وإنشاء المجلس النيابيي جعل محمّد عبده يعدل عن رأيه، فقد قال:

لم تكن الثورة من رأيي، وكنت قانعاً بالحصول على الدستور في ظرف خمس سنوات، فلم أُوافق على عزل رياض (مصطفى رياض باشا رئيس النظّار) في سبتمبر ١٨٨١م. لكن لمّا منح الدستور انضممنا جميعاً إلى الثورة لكي نحمي الدستور.

---

١. الأعمال الكاملة للأُستاذ محمّد عبده ١: ١٠٧. والنصّ من: الإسلام والنصرانيّة بين العلم والمدنيّة، المنشور في الجزء الثالث من الأعمال الكاملة.

٢. تاريخ الأُستاذ الإمام ١: ٩١٣.

وأدّى هذا التطوّر العملي بنجاح الثورة إلى تطوّر فكري مهمّ في آراء محمّد عبده، فقد كتب في برنامج «الحزب الوطني المصري»:

إنّ المصريّين وقد عرفوا الآن معنى الحرّيّة في هذه السنين الأخيرة، فعقدوا خناصرهم على توسيع نطاق التهذيب، وهم يرجون أن يكون ذلك بواسطة مجلس شورى النوّاب الذي انعقد الآن، وحرّيّة المطبوعات بطريقة ملائمة، وبتعميم التعليم ونموّ المعارف بين أبناء الأُمّة. وهذا كلّه لا يحصل إلّا بثبات هذا الحزب وحزم رجاله.

ولم يكن بين نجاح الثورة العرابيّة وانضمام محمّد عبده إليها، وبين إخفاقها والقبض على رؤوسها ـ ومنهم محمّد عبده نفسه ـ سوى عشرة أشهر اكتوبر ١٨٨١م ـ يوليو ١٨٨٢م، عاد محمّد عبده بعدها إلى طريق الإصلاح الذي لا يتجنّب الثورة فقط، بل يهاجم دعاة سلوك سبيلها في كثير من الأحيان.

ولكنّ هذه العودة إلى العمل الإصلاحي التربوي لم تمنعه من المشاركة ـ في أثناء المدّة التي أمضاها في المنفى ـ في تنظيم سياسي سرّي، هو جمعيّة العروة الوثقى، التي كوّنها الأفغاني من باريس، وكان رئيسها، وكان محمّد عبده نائب الرئيس. وقد انبعثت فروع هذه الجمعيّة في أغلب الأقطار الإسلاميّة، وجعلت تعمل على ترويج الأفكار الإصلاحيّة التي كانت تعبّر عنها مجلّة \العروة \الوثقى التي لم تكن إلّا أثراً من آثار الجمعيّة السرّيّة نفسها. وقد كان اهتمام الجمعيّة الأكبر بفكرة الجامعة الإسلاميّة التي كان الأفغاني شديد الحماس لها، ويتجلّى ذلك في القسم الذي كان يقسمه عضو الجمعيّة عند انضمامه إليها، وكان هذا القسم يتضمّن التعهّد «بأن يبذل ما في وسعه لإحياء الأُخوّة الإسلاميّة، وألّا يقدّم إلّا ما قدّمه الدين، ولا يؤخّر إلّا ما أخّره الدين، وأن يوسّع معرفته بالعالم الإسلامي من كلّ نواحيه بقدر ما يستطيع».

ولا يرى الدكتور محمّد عمارة في العمل السياسي الذي مارسه محمّد عبده في هذه المدّة ـ حوالي العامّ ـ مؤشّراً على تغيّر موقفه الفكري، وإنّما يعزو قيامه بذلك إلى ظروف النفي وصلته بجمال الدين الأسدآبادي الذي كان القائد الحقيقي والمحرّك الرئيسي لهذا العمل الثوري.

ولم يكن عمل محمّد عبده تحت راية فكرة الجامعة الإسلاميّة يعني ـ بأيّة صورة ـ أنّه كان يرى أن تقوم في مصر، أو في أيّ بدل من بلدان الإسلام، حكومة دينيّة. فمحمّد عبده يرفض، بشكل قاطع، أن يكون الإسلام نصيراً لقيام سلطة دينيّة في المجتمع بأيّ وجه من الوجوه. فهو يرى أنّه:

ليس في الإسلام سلطة دينيّة سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشرّ، وهي سلطة خوّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خوّلها لأعلاهم يتناول بها أدناهم.

وهو يرى أنّ إحدى المهمّات التي جاء من أجلها الإسلام ونهض بها في المجتمع الذي ظهر فيه هي قلب السلطة الدينيّة:

أصل من أُصول الإسلام قلب السلطة الدينيّة والإتيان عليها من أساسها. هدم الإسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتّى لم يبقَ لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم، ولم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه. على أنّ رسول الله كان مبلّغاً ومذكّراً، لا مهيمناً ولا مسيطراً... وليس لمسلم ـ مهما علا كعبه في الإسلام ـ على آخر ـ مهما انحطّت منزلته فيه ـ إلّا حقّ النصيحة والإرشاد....

والإسلام ـ كما يقول محمّد عبده ـ:

دين شرع، فقد وضع حدوداً، ورسم حقوقاً... فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلّا إذا وجدت قوّة لإقامة الحدود، وتنفيذ حكم القاضي بالحقّ، وصون نظام الجماعة، وتلك القوّة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير، فلا بدّ أن تكون في واحد، وهو السلطان أو الخليفة، والأُمّة هي صاحبة الحقّ في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه....

والموقف نفسه يُضمّنه محمّد عبده المادّة الخامسة من برنامج الحزب الوطني المصري؛ حيث يقول فيها:

إنّ الحزب سياسي لا ديني (بمعنى أنّه ليس حزباً دينيّاً لا بمعنى أنّه ضدّ الدين) فإنّه مؤلّف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب، وجميع النصارى واليهود، وكلّ من يحرث

أرض مصر ويتكلّم لغتها منضمّ إليه ... وهذا مسلّم به عند أخصّ مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أنّ الشريعة المحمّديّة الحقّة تنهى عن البغضاء، وتعتبر الناس في المعاملة سواء... .

ومسألة الإمامة (الخلافة) والفقه المتعلّق بها لا ينبغي أن تكون محلّ بحث و «كلام» في رأي الأُستاذ الإمام، فقد حذف بنفسه هدفاً من أهداف مجلّة المنار التي أنشأها تلميذه محمّد رشيد رضا، وهو «تعريف الأُمّة بحقوق الإمام، والإمام بحقوق الأُمّة»، وكتب معلّقاً عليه:

إنّ المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلّا القرآن، وإنّ الكلام في الإمامة مثار فتنة يُخشى ضرره ولا يُرجى نفعه الآن. وما يمثّله الإسلام من رابطة اعتقاديّة وأدبيّة وروحيّة، بل وجنسيّة، تجمع كلّ المسلمين، لا يمنع من تأسيس الولايات السياسيّة على أُسس قوميّة ووطنيّة في إطار هذا المحيط الإسلامي الكبير.

وقد كان ذلك والخلافة الإسلاميّة العثمانيّة قائمة، فماذا تراه كان يقول بعد سقوطها؟

وكثيراً ما كان يُنقد محمّد عبده بزعم أنّه كان داعية إلى الاستبداد ومحبّذاً للديكتاتوريّة. ويستشهد أصحاب هذا الانتقاد على صحّته بمقالة لمحمّد عبده نشرتها مجلّة الجامعة العثمانيّة في أوّل مايو سنة ١٨٩٩م، أي منذ أكثر من مائة عام، تعليقاً على مقالة نشرت في المجلّة نفسها عن «الإخاء والحرّيّة». كان عنوان مقالة محمّد عبده «إنّما ينهض بالشرق مستبدّ عادل»، وقدّمت لها المجلّة بأنّها «كلام كتبه الشيخ محمّد عبده منذ سنوات». والمقال يدعو إلى الإصلاح السياسي تدريجيّاً في مدى يحدّده بخمس عشرة سنة، تنشأ في نهايتها المجالس النيابيّة. والواقع أنّ كلمة «مستبدّ» في هذا المقال، تعني القادر على التصرّف واتّخاذ القرار؛ أي نقيض معنى العجز وعدم القدرة. ومن معاني المستبدّ لغةً: «من يأخذ في الشيء فلا يتركه إلّا بعد إتمامه».

وبنقيض معنى العجز استعمل الشاعر العربي الكلمة فقال:

ليت هنداً أنجزتنا ما تَعِدْ وشَفَت أنفسنا ممّا تَجِدْ
واستبدّت مرّةً واحدةً إنّما العاجز من لا يَستَبِدّْ

ولم يستعملها محمّد عبده إلّا بهذا المعنى، وبمعنى الإتمام لأمر بُدئ فيه، ولذلك قال في نهاية مقالته نفسها:

هل يعدم الشرق مستبدّاً من أهله، عادلاً في قومه، يتمكّن به العدل أن يصنع في خمس عشرة سنة ما لا يصنعه العقل وحده في خمسة عشر قرناً؟!

وكأنّه بذلك يشير إلى عجز حكّام الشرق الواقعين تحت سلطان المستعمر الأجنبي وجيوشه المدجّجة بالسلاح. فلم يكن محمّد عبده، إذن، داعية إلى الاستبداد والدكتاتوريّة، وإنّما كان داعية إلى الإصلاح السياسي الذي لا يقدر عليه إلّا حكّام بيدهم ـ فعلاً ـ مقاليد الأُمور، يحكمون بالعدل لا بالهوى والغرض، وفق خطّة محكمة ينفّذونها في أمد محدود.

وحديث محمّد عبده عن المستبدّ العادل هو نفسه حديث أُستاذه السيّد جمال الدين عن القوي العادل. وقد كتب جمال الدين الأسدآبادي عن هذا الموضوع فقال:

لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته، إلّا إذا أتاح الله لكلّ منهم رجلاً قويّاً عادلاً يحكمه بأهله على غير طريق التفرّد بالقوّة والسلطان؛ لأنّ بالقوّة المطلقة الاستبداد، ولا عدل إلّا مع القوّة المقيّدة. وحكم مصر بأهلها أعني به الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح.

فالمستبدّ العادل عند محمّد عبده هو القوي العادل عند جمال الدين الأسدآبادي، وهو حاكم دستوري مقيّدة سلطته بسلطة الشعب ومشاركته، وكان محمّد عبده يوقن أنّ هذا لا يتمّ إلّا بالتدرّج الحكيم الذي يؤدّي إلى المطلوب دون طفرة غير مأمونة ودون ثورة مجنونة.

لقد كانت إضافة محمّد عبده إلى الفكر السياسي الإسلامي، بمنهجه الإصلاحي الذي بدأ به حياته واختتمها، إضافة تمثّل اجتهاداً جديداً أساسه توجّهه الأصيل إلى

الإصلاح الديني الذي عرّفه بقوله:

إنّه يعني تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأُمّة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأُولى ... .

أو كما قال في موضع آخر:

لكلّ مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف ، وإنّما يجب عليه ، قبل ذلك ، أن يحصّل من وسائله ما يؤهّله للفهم ... .

وهذا هو الذي صنعه محمّد عبده نفسه ، فاستحقّ المكانة الباقية له حتّى اليوم في سلسلة روّاد الفكر الإسلامي الإصلاحي[١].

---

١. أُنظر مقال الأُستاذ الدكتور محمّد سليم العوّا تحت عنوان «التيّار الإسلامي في الفكر السياسي المصري»، الكتاب الثالث لمجلّة الحياة الطيّبة : ٢٥٣ ـ ٢٦٢.

٤ ـ الشيخ محمّد كاظم الآخوند الخراساني
(١٢٥٥ ـ ١٣٢٩هـ)

ولد في مدينة مشهد المقدّسة سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م في أُسرة دينيّة عرفت بالصلاح، وعرف والده بحبّه للعلم والعلماء، فتوجّه لطلب العلم وهاجر إلى النجف سنة ١٢٧٧هـ مارّاً بسبزوار، فحضر عند الفيلسوف الكبير الملّا هادي السبزواري خمسة أشهر، وأقام مدّة في طهران مواصلاً طلبه للعلم من كبار أساتذة الفلسفة فيها منتظراً تهيّؤ الأسباب للوصول إلى حاضرة العلم الكبرى النجف الأشرف.

وما إن تهيّأ له ذلك حتّى غادر طهران ودخل النجف سنة ١٢٧٩هـ والمرجع الأعلى يومذاك الشيخ مرتضى الأنصاري، فأكبّ على الارتواء من معين علمه سنتين، ثمّ واصل دراسته عند الإمام السيّد محمّد حسن الشيرازي عشر سنوات، واستقلّ بالتدريس في النجف حين انتقل الشيرازي إلى سامراء.

وبرز بعد وفاة المجدّد الشيرازي سنة ١٣١٣هـ على الصعيد العلمي والمرجعي حتّى أصبح ممّن تشدّ إليه الرحال، وذاع صيته في أرجاء العالم الإسلامي.

ويكفي أنّ كتابه كفاية الأصول أصبح مدار التدريس في المراحل النهائيّة من الدراسة الحوزويّة، منذ صدوره وحتّى الآن.

أمّا حلقة درسه فقد امتازت على غيرها بالكمّ والكيف معاً، وتراوحت التقديرات في عدد طلّابه بين ١٥٠٠ و ٣٠٠٠ طالب، فقد ذكر السيّد محسن الأمين أنّ الشيخ الخراساني عمّر درسه بمئات الأفاضل والمجتهدين[١].

ومن الناحية النوعيّة فإنّ تلامذة الشيخ الخراساني قد تزعّموا المرجعيّة الدينيّة

---

١. أعيان الشيعة ٩: ٦.

لعقود متتالية، ومدرسته الفكريّة لا زالت تهيمن على أجواء الدراسة الحوزويّة مقتربةً من إنهاء قرن كامل.

إنّ هذه المكانة الراسخة أتاحت للشيخ الخراساني قدرة فائقة على التحرّك السياسي والاجتماعي، الذي أتاح له بدوره مزيداً من النفوذ بحيث وصلت أفكاره التحرّريّة إلى الهند، وأخذ زعماء حركة التحرير الهنديّة يتلقّونها بالتأييد والتبنّي[1].

معركة الإصلاح السياسي

إنّ ثورة التنباك عام ١٨٩١م تعتبر من الأحداث الكبرى التي أيقظت العالم الإسلامي، وتنبّه المسلمون بفضلها إلى الأخطار التي يسبّبها النفوذ الأجنبي على بلادهم، وتحدّد في وعيهم طريق الخلاص الوحيد المتمثّل بالجهاد وقيادة علماء الدين.

فبعد انتصار هذه الثورة بقيادة المجدّد الشيرازي على ناصر الدين شاه والشركات الإنجليزيّة انتصاراً ساحقاً، التفتت القيادة الإسلاميّة من بعده إلى ضرورة مواصلة طريق التحرّر والإصلاح والدخول في مرحلة جديدة منه تتمثّل بإصلاح النظام السياسي القاجاري الحاكم في إيران، وجعله يستند إلى قاعدة شعبيّة دستوريّة محدّدة بدلاً من الاستبداد السائد فيه، وكان الدافع إلى ذلك أمرين:

١ ـ مكافحة الظلم الحكومي الذي يجد في الاستعمار قاعدة متينة له.

٢ ـ مكافحة النفوذ الأجنبي الذي يجد في الاستبداد قاعدة متينة له أيضاً.

فإذا ما أُقيم نظام دستوري أمكن من خلاله الحدّ من تعدّيات الدولة على حقّ الشعب ومن النفوذ الأجنبي في البلاد، ويمكن تحديد عام ١٨٩٤م على أنّه بداية ظهور هذا الاتّجاه[2].

---

١. شعراء الغري ١٠: ٨٧ من مذكّرات السيّد هبة الدين الشهرستاني.

٢. تاريخ العراق السياسي المعاصر ٢: ٦١.

وكان ناصر الدين شاه يعارض هذه الأفكار بشدّة، وقد صرّح ذات مرّة أنّه يودّ أن يكون محاطاً بحاشية من الأغبياء لا يعرفون عن «بروكسل» هل هي مدينة أم نوع من الخسّ؟[1].

وفي عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م اغتيل ناصر الدين شاه، من قبل أحد أتباع السيّد جمال الدين الأسدآبادي وعيّن ابنه مظفّر الدين شاه خليفةً له.

وبادر علماء النجف في عام ١٩٠٢م إلى إرسال رسالة إليه يناشدونه فيها إصلاح الحالة السياسيّة في البلاد وتأسيس مجلس تمثيلي[2]، الأمر الذي أثار حفيظة رئيس الوزراء «عين الدولة» وجعله يواصل سياسة الشاه السابق وبقسوة أشدّ.

وهنا بدأ الظهور الحاسم لعلماء طهران، ممّا اضطرّ الشاه إلى النزول عند مطاليبهم المتمثّلة بشكل أساسي في عزل عين الدولة وتأسيس دار للعدالة «مجلس تمثيلي» وكان ذلك في جمادى الآخرة عام ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م.

كما أُعلن الدستور في ذي القعدة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م وبعد عشرة أيّام من هذا التاريخ توفّي مظفّر الدين شاه ليخلفه في الحكم ابنه محمّد علي شاه.

وفي شهر رجب من عام ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م وصلت إلى النجف رسالة موقّعة من قبل علماء طهران يطلبون فيها دعم الحركة ومطالبة الشاه بإنشاء مجلس للشورى.

تولّى الشيخ محمّد كاظم الخراساني ـ بتوكيل عشرة من كبار المجتهدين ـ الإجابة عن هذه الرسالة.

فكتب ما نصّه:

إنّ قوانين المجلس المذكور على الشكل الذي ذكرتموه هي قوانين مقدّسة محترمة، وهي فرض على جميع المسلمين أن يقبلوا هذه القوانين وينفّذوها، وعليه نكرّر قولنا

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ١٠٣.

٢. تاريخ العراق السياسي المعاصر ٢: ٦٠.

أنّ الإقدام على مقاومة المجلس العالي بمنزلة الإقدام على مقاومة أحكام الدين الحنيف، فواجب المسلمين أن يقفوا دون أيّ حركة ضدّ المجلس[١].

ومنذ هذا التاريخ صار آية الله الخراساني محوراً للحركة الدستوريّة، وأباً للحرّيّة والأحرار، حسب تعبير السيّد هبة الدين الشهرستاني[٢].

الثورات الثلاث

يعتبر بعض الكتّاب أنّ الحركة الدستوريّة الإيرانيّة انطوت على ثورات ثلاث: كانت الأُولى ضدّ مظفّر الدين شاه.

والثورة الثانية كانت ضدّ رئيس وزرائه عين الدولة.

والثورة الثالثة ضدّ خليفته محمّد علي شاه، وهي أخطر المراحل التي تقهقرت فيها الحركة من الانتصار على تحدّيات الشاه إلى الانحراف والاحتواء الاستعماريّين، فقد اتّخذ الشاه الجديد سياسة ماكرة إزاء الحركة الدستوريّة، وبعد فترة ضئيلة تحوّل إلى العداء السافر، ولأجل الحيلولة دون انفجار الموقف حاول الشيخ آية الله الخراساني في البدء نصيحة الشاه وتنبيهه إلى بعض الأُمور المهمّة التي ينبغي عليه اعتمادها في سياسته الداخليّة والخارجيّة، وذلك عبر رسالة مطوّلة ذات نقاط عشر مثّلت بمجموعها المنهج الصحيح للحاكم المسلم[٣]، إلّا أنّ محمّد علي شاه كان قد تمادى في عدائه للحركة معتمداً في ذلك على الحماية التي توفّرها له المعاهدة الروسيّة ـ البريطانيّة بشأن إيران، والتي جعلت طهران والقسم الشمالي من إيران تابعاً للنفوذ الروسي، وكان الروس يجدون مصلحتهم في الاستبداد وتعطيل الدستور[٤] ممّا حفّز

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ١١٦.

٢. شعراء الغري ١٠: ٨١.

٣. أُنظر نصّ الرسالة في تاريخ العراق السياسي المعاصر ١: ٨٦ ـ ٨٩.

٤. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ١١٣.

قيادة الحركة إلى استنفار القوى وتنظيم الجهود استعداداً للمعركة القادمة، فأعلن في أوائل عام ١٩٠٨م عن تشكيل هيئة العلماء من ٣٣ عضواً يمثّلون غالبيّة المجتهدين في النجف الأشرف، وذلك لإدارة الحركة بشكلٍ منظّم. وفي خضمّ الأحداث أُعلن عن محاولة لاغتيال الشاه، كان الشاه نفسه قد دبّرها ليتّخذ منها ذريعة للانتقام من الحركة الدستوريّة، وبالفعل أعلن الشاه في حزيران ١٩٠٨م الأحكام العرفيّة في البلاد، وأمر الجيش بقصف المجلس بالمدفعيّة.

واُلقي القبض على السيّد محمّد الطباطبائي والسيّد عبد الله البهبهاني، وبعد التعذيب نُفي الأوّل إلى خراسان والثاني إلى كرمنشاه، وإزاء هذه الأحداث الخطيرة أصدر آية الله الخراساني واثنان من المراجع الكبار هما الميرزا حسين خليل والشيخ عبد الله المازندراني فتوى مشتركة أعلنوا فيها للشعب الإيراني المسلم وجوب إسقاط الشاه وحرمة دفع الضرائب إلى حكومته، مؤكّدين أنّ مخالفة ذلك تعتبر خذلاناً ومحاربة للإمام المهدي عليه السلام[1].

وفي تشرين الأوّل عام ١٩٠٨م أصدر الشاه بيانه الخطير الذي أعلن فيه صرف النظر عن المجلس معلّلاً ذلك بأنّ «افتتاح المجلس وتحقير الإسلام شيء واحد»[2] وهنا ثار العلماء وكتب آية الله الخراساني بخطّ يده بياناً تهديديّاً شديد اللهجة ضدّ الشاه، ما كاد يصل إيران حتّى تمّ تكثيره وتوزيعه في المدن المختلفة ممّا جعل نيران الثورة تضطرم فيها، وقد قال الشيخ الخراساني في بيانه الذي يعتبر وثيقة تاريخيّة مهمّة مخاطباً الشاه:

عندما تدّعون مخالفة المشروطة[3] للشرع الشريف إنّما تتجاهلون الحقيقة الدينيّة الأساس التي تقضي بأن تكون العدالة واجبة حتّى في الاُمور الجزئيّة. ونحن نقول بكلّ صراحة: ليس في المشروطة أيّة نقطة تخالف الدين الإسلامي بل إنّها تتّفق مع أحكام

---

١. اُنظر نصّ الفتوى في تاريخ العراق السياسي المعاصر ٢: ٩٠.

٢. ثورة النجف: ٧٠.

٣. المشروطة مصطلح فارسي يقصد به الحركة الدستوريّة.

الدين وأوامر الأنبياء بخصوص العدالة ورفع الظلم عن الناس، فاترك سند الشيطان وانشر بياناً آخر فيه الحرّيّة للناس، وإذا حصل تأخّر منك عمّا نطلب فإنّنا سوف نحضر جميعاً إلى إيران ونعلن الجهاد ضدّك، فلنا في إيران أتباع كثيرون، والمسلمون كثيرون أيضاً، إنّنا أقسمنا على ذلك[١].

وفي مواجهته لهذا الموقف الحرج عمد الشاه إلى فتح المجال أمام القوّات الروسيّة لاحتلال آذربيجان كوسيلة لإرعاب المعارضة، غير أنّ هذا الإجراء أعطى نتائج عكسيّة حيث أصبح سبباً لانضمام العلماء المعارضين للمشروطة كالسيّد آية الله محمّد كاظم اليزدي إلى صفوف المعارضة للدولة، وأوجد رأياً موحّداً ضدّ الشاه والروس معاً.

وهنا أدرك الروس والإنجليز معاً خطورة الموقف فاجتمع السفيران الروسي والإنجليزي مع الشاه وطلبا منه الموافقة على إعلان الدستور وافتتاح مجلس الشورى[٢] فامتثل الشاه لرغبتهما وأعطى وعداً بالرجوع إلى الدستور وافتتاح المجلس، إلّا أنّ الثورة عليه كانت قد بلغت أوجها. ففي منتصف عام ١٩٠٩م دخل الثوّار طهران، وخلعوا الشاه الذي التجأ إلى المفوّضيّة الروسيّة وعيّنوا نجله أحمد شاه خليفةً له.

مبادئ الحركة الدستوريّة الإيرانيّة

انطلقت فكرة الحكم الدستوري الشوروي في أذهان العلماء في طهران والنجف، على أساس مفاهيم الإسلام عن العدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقصاء التدخّل الأجنبي في شؤون المسلمين تحقيقاً لاستقلالهم السياسي.

ورغم أنّ الإنجليز كانوا منهمكين ببثّ فكرة مشابهة في تركيا إلّا أنّهم لم يسمحوا بانتشار الفكرة الدستوريّة في إيران، فقد عارضها ناصر الدين شاه بشدّة، ولكن باستفحال الحركة الدستوريّة وانتصارها الأوّل في عهد مظفّر الدين شاه تنبّه الإنجليز

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ١١٩ ـ ١٢٠.

٢. تاريخ العراق السياسي المعاصر ١: ٩٦.

إلى خطورة الوضع، وضرورة الالتفاف على الحركة وتحويل مسارها من الخطّ الإسلامي إلى الخطّ الغربي، خاصّة وأنّ الحركة أصبحت برعاية المرجعيّة الدينيّة التي سبق لها أن حقّقت انتصاراً باهراً على النفوذ الإنجليزي في إيران، وذلك إبان ثورة التنباك عام ١٨٩١م.

كما تنبّه الروس إلى أنّ الحكم الدستوري من شأنه القضاء على فرص النفوذ في إيران، ممّا جعل الحركة الدستوريّة تواجه مخاطر التدجين في الداخل وظروف المواجهة الشرسة في الخارج معاً. بل إنّ اندساس الإنجليز في الحركة، فصل عنها جناحاً من المرجعيّة الدينيّة بدافع الإحباط وفقدان الثقة بالمستقبل، وليس بسبب الاعتقاد بالاستبداد، فقد تخلّى آية الله السيّد محمّد كاظم اليزدي عنها، وانحاز إليه بعض علماء النجف وإيران وفي مقدّمتهم الشيخ فضل الله النوري الذي كان يوماً ما المحور البارز فيها، فيما واصل بقيّة المراجع وعلى رأسهم آية الله الخراساني تأييد الحركة الدستوريّة، حاملين على عواتقهم مهمّة مواجهة الأخطار والمنزلقات معاً.

لقد سارت الثورة الأُولى في الخطّ المرسوم لها من قبل العلماء، وفي الثورة الثانية بدأ الإنجليز يستغلّون الأحداث، كما في حادثة تحصّن الثوّار بالسفارة البريطانيّة في طهران خوفاً من سلطات الشاه، وذلك في جمادى الأُولى ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م حينما قامت زوجة السفير بتلقين الثوّار مبادئ الديمقرطيّة.

فتبلور الخلاف بين السيّد كاظم اليزدي والشيخ كاظم الخراساني، الذي عمّقه الروس والإنجليز أكثر فأكثر. وهنا تحرّك الشيخ فضل الله النوري ضدّ محاولات التحريف العلماني الاستعماري، واستطاع بعد جهود مكثّفة إضافة مادّة إلى الدستور تقضي أن يقوم خمسة من فقهاء كلّ عصر بالإشراف على لوائح المجلس وقراراته، وأنّ قرارات هؤلاء الفقهاء واجبة التنفيذ، وأنّ هذه المادّة لا تقبل التغيير حتّى ظهور الإمام المهدي عليه السلام[1].

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ١١٢.

أمّا الثورة الثالثة فقد خرجت بالكامل عن الخطّ المرسوم لها، فأُعدم الشيخ النوري واغتيل السيّد عبد الله البهبهاني فيما بعد، وأعلن الشيخ الخراساني والشيخ المازندراني عدم رضاهما عن المجلس والشخصيّات غير الإسلاميّة فيه، وسجّلا عدداً من المؤاخذات على الوضع الجديد.

مع الجهاد في كلّ المواقع

لقد حمل آية الله الشيخ الخراساني همّ إصلاح وتحرير المسلمين كافّة، ولم ينحصر بالإطار القومي أو الإقليمي الذي ينتمي إليه، فقد ساند الحركة الدستوريّة التركيّة وذلك بإرسال رسالة مطوّلة إلى السلطان عبد الحميد الثاني، يدعوه فيها إلى الإصلاح السياسي والاستجابة لمطاليب الحركة الدستوريّة التركيّة[1].

وعندما قامت إيطاليا بالاعتداء على ليبيا أصدر الشيخ الخراساني فتوى بالجهاد المقدّس لتحريرها.

وفي إيران كانت الثورة الثالثة قد أسفرت عن انسحاب الروس من إيران، بعد خلع محمّد علي شاه، غير أنّ الاحتلال الروسي تجدّد ثانية لآذربيجان الإيرانيّة، وذلك في كانون الأوّل ١٩١١م. فبعث الشيخ آية الله الخراساني رسالة تهديد وإنذار إلى القنصل الروسي في بغداد، كما بعث رسالة إلى علماء تبريز يأمرهم فيها بتعلّم فنون القتال كواجب ديني، وأفتى بحرمة بيع وشراء البضائع الروسيّة، واشترك مع باقي العلماء في إصدار عدد من الرسائل والبيانات الموجّهة إلى الخليفة العثماني محمّد الخامس، وإلى الشعب الإيراني ومسلمي الهند والعالم أجمع، يطلب فيها نصرة المسلمين في آذربايجان في مواجهتهم للاحتلال الكافر.

---

١. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ١٥٠.

مع إصلاح نظم التعليم أيضاً

وإلى جانب جبهة الإصلاح السياسي ساهم الإمام الخراساني في جبهة الإصلاح التعليمي، ففي أواخر حياته ﷺ ظهر في النجف الأشرف ـ وعدد من المدن العراقيّة الأُخرى ـ حركة تدعو إلى تأسيس مدارس تعنى بالعلوم الحديثة واللغات الأجنبيّة، وظفرت بتأييد عدد من علماء الدين، كالميرزا حسين خليل وآية الله شيخ الشريعة والإمام الخراساني لهذه الحركة، بحيث أجاز صرف الحقوق الشرعيّة على المدارس التي أسّستها الحركة[١].

التوجّه إلى جبهات القتال

وقرّر الشيخ الخراساني التوجّه إلى جبهات القتال على رأس جيش من المجاهدين وعدد كبير من العلماء لمقاومة المحتلّين في إيران، وكان من المقرّر أن يتوجّه بهذا الجيش إلى إيران في ٢١ ذي الحجّة ١٣٢٩هـ / ١٩١١م إلّا أنّه في المساء أصابته وعكة صحّيّة مفاجئة، وقبل شروق شمس اليوم التالي انتقلت روحه الطاهرة إلى بارئها، في ظروف غامضة جدّاً، ويرى بعض المؤرّخين أنّ «المسزبيل» قد زارت العراق في تلك الفترة مرّتين وحصلت وفاة الشيخ الخراساني بعد أيّام من خروجها من النجف في زيارتها الثانية، ويؤكّد ذلك أنّ الخادم للحجّة الخراساني وأولاده ـ أي أولاد الخادم ـ أصبحوا موضع عناية شديدة في زمن الاحتلال البريطاني للعراق[٢].

وممّا يذكر أنّ الشيخ الخراساني تعرّض قبل ذلك إلى محاولة اغتيال من قبل محمّد علي شاه إبّان الثورة الثالثة حيث أرسل دواءً لمعالجة عين الشيخ، غير أنّ والدة الشاه أرسلت إليه رسالة ـ وكانت من مقلّديه ـ تحذّره فيها من استعمال الدواء[٣].

---

١. ثورة النجف: ٧٨ ـ ٧٩.

٢. المصدر: ١١٥.

٣. تاريخ العراق السياسي المعاصر ١: ٨٣. أُنظر من أعلام الفكر والقيادة والمرجعيّة: ٩٧.

٥ـ السيّد محمّد سعيد الحبّوبي
(١٢٦٦ـ ١٣٣٣هـ)

ولادته ونشأته

ولد السيّد محمّد سعيد الحبّوبي في النجف الأشرف في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٦هـ / شباط ١٨٤٩م في أُسرة أدبيّة عريقة انحدرت من الحجاز قبل ما يقرب من سبعة قرون، واستوطنت النجف الأشرف. وكان والده السيّد محمود بن قاسم الحبّوبي يرتزق من مزارع له قرب مدينة الكوفة، ولم تمنعه مهنته كمزارع من الانخراط في الدراسة الدينيّة، التي ستجعله يولي اهتماماً خاصّاً بتربية ابنه البكر السيّد محمّد سعيد، حيث كان يشرف على تعليمه القراءة والكتابة والخطّ وحفظ القرآن الكريم.

ولم يتجاوز العاشرة من عمره حتّى انصرف لدراسة علوم اللغة العربيّة، على يد خاله الشيخ عبّاس الأعسم، الذي ترك أثراً كبيراً في شخصيّته، لما قام به من دور تعليمي وتربوي كبير إزاءه.

الحبّوبي أديباً

عندما بلغ السيّد محمّد سعيد الخامسة عشرة من عمره، هاجر أبوه وعمّه إلى حائل بقصد التجارة، فبقي عند خاله لمواصلة الدرس. وبعد فترة من الزمن التحق بأبيه مع بعض أفراد أُسرته، وذلك في عام ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م، وهناك بدأ فصل مهمّ وأساسيّ من حياته. فالبادية وما فيها من خصائص جغرافيّة فريدة، ستؤدّي إلى خصوبة أدبيّة في شخصيّته، وسعة خياله الشعري، ونضوج هذه الموهبة لديه. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى سيساعده المجتمع البدوي على اكتساب فنون الفروسيّة والرماية، حيث

هيّأ له أبوه مدرّبين ماهرين يعلّمانه إيّاهما حتّى برع فيهما[١].

وهكذا صُقلت شخصيّة السيّد الحبّوبي على مدى ثلاث سنوات، فما عاد إلى النجف إلّا وهو شاعر مجيد، سرعان ما احتلّ موقع الصدارة في الأوساط الأدبيّة العراقيّة، وبعدها برز بطلاً تحرّريّاً من الرعيل الأوّل.

وعلى الصعيد الأدبي أقام السيّد الحبّوبي بعد عودته إلى النجف علاقات وطيدة مع شعراء عصره، التي كانت النجف الأشرف تضمّ مجموعة نوعيّة كبيرة منهم، كالسيّدين جعفر الحلّي وحيدر الحلّي والسيّد موسى الطالقاني والسيّد إبراهيم الطباطبائي، وشاركهم في الأندية والمجالس الأدبيّة المختلفة، وانكبّ على الدواوين الشعريّة والكتب الأدبيّة، حتّى أصبح في عداد الشعراء المرموقين، المشار إليهم بالبنان.

وأخذت المحافل الأدبيّة تتلقّفه وتردّد قصائده وموشّحاته مدّة تزيد على عقدين من الزمن، بل وعُدّ رائد النهضة الشعريّة الحديثة في العراق[٢].

وعلى عتبة الأربعين من عمره، وهو يتربّع على قمّة الأدب العراقي أو جانب مهمّ منها، وقف السيّد الحبّوبي يخيّر نفسه بين المضيّ في هذا الطريق، أو اعتزاله واختيار الدراسة الدينيّة بديلاً عنه. ولم يمضِ وقت طويل حتّى اختار الطريق الثاني، واعتزل الشعر اعتزالاً تامّاً وبقرار صارم له مدلولاته المهمّة، فكأنّ السيّد الحبّوبي شعر بأنّ الطريقين متعارضان ولا يمكن الجمع بينهما.

وهناك من يروي أنّ السيّد الحبّوبي حضر ذات يومٍ مجلس أحد الفقهاء، واحتدم النقاش فيه حول مسألة فقهيّة بين الحاضرين عامّة، وبين السيّد الحبّوبي والفقيه صاحب المجلس خاصّة. فما كان من ذلك الفقيه إلّا أن بادره قائلاً: أين أنت من هذا؟ إنّما أنت تحسن أن تقول: «يا غزال الكرخ وا وجدي عليك». فتألّم السيّد الحبّوبي

---

١. مقدّمة عبد الغفّار الحبّوبي لديوان السيّد محمّد سعيد الحبّوبي: ٢٦.

٢. الموسوعة العربيّة الميسّرة ١: ٦٨٩.

من قوله، وعدّه طعنة وازدراء، فصمّم في نفسه على ترك الشعر[١].

وقد رفض الباحث عبد الغفّار الحبّوبي أن يكون التوجّه نحو الفقه في حياة السيّد محمّد سعيد الحبّوبي ناشئاً عن هذه الحادثة، التي تعني الانفعال وتلغي التصميم السابق في نظره. وله بعض الحقّ في ذلك، فإنّ دخول السيّد الحبّوبي في نقاش حول تلك المسالة يدلّ على حصيلة فقهيّة سابقة وتصميم سابق على مزاولة الفقه والفتوى، فلا يمكن أن نعتبر التحوّل الذي حصل في حياة السيّد الحبّوبي ناشئاً عن تلك الحادثة، وأنّها الأساس في ذلك كما لا يمكننا أن نعتبر الحادثة مرّت على السيّد الحبّوبي دون أن تترك أثراً في نفسه، ودون أن يرتّب موقفاً عمليّاً في حياته في ضوئها، والأثر العلمي الطبيعي الذي نتصوّره هو اشتداد العزم على الاتّجاه نحو الفقه وترك الشعر.

دراسته الدينيّة

في العقد الخامس من عمره ـ وبعدما انقطع عن الشعر ـ توجّه السيّد محمّد سعيد الحبّوبي نحو الدراسة الدينيّة، عند لفيف من أقطاب الفقه والأُصول والرجال والأخلاق، كالشيخ محمّد حسين الكاظمي، والمرجع الديني محمّد الشرابياني، والشيخ حبيب الله الرشتي، والشيخ رضا الهمداني، والأخلاقي الشهير الشيخ حسين قلي الهمداني، والشيخ محمّد طه نجف، واختصّ بدرس الأُستاذ الأخير حتّى وفاته عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م وكان كلّ منهما معجباً بصاحبه، فالتلميذ معجب بطريقة أُستاذه في التدريس، وطالما أشاد الأُستاذ بنباهة تلميذه وتفوّقه وتفوّه بكلمات وشهادات دلّت على اجتهاده في الفقه وتضلّعه فيه[٢]. وبعد وفاة الشيخ محمّد طه نجف توجّه السيّد الحبّوبي للتدريس واستقطب حوله عدداً من الطلبة الجيّدين، كان في

١. الموسوعة العربيّة الميسّرة ١: ٣٧٥، نقلاً عن جريدة البلد البغداديّة، العدد ٨٩٢، السنة الرابعة.
٢. المصدر: ٨١٩.

مقدّمتهم السيّد محسن الحكيم الذي أصبح المرجع الديني الأعلى في فترة لاحقة.

ومعلوم أنّ حضوره دروس هؤلاء الأعلام يدلّ على أنّه مرّ بمرحلتين دراسيّتين سابقتين هما مرحلة السطوح وقبلها المقدّمات. وهذه هي النقطة الغامضة في حياته. فمن هم الأساتذة الذين درس عندهم في هاتين المرحلتين؟

ولو تتبّعنا حياته الدراسيّة لوجدنا أنّ المدرّس الأوّل في حياته هو خاله الشيخ عبّاس الأعسم، والمدوّن في أكثر من مصدر أنّه درس عند عمّه العلوم العربيّة وكان ذلك قبل هجرته إلى «حائل» ولدى هجرته هناك كان يطالع ـ بدون مدرّس ـ كتباً فقهيّة وفلسفيّة ومنطقيّة، كان والده قد جلبها معه[1] وبعد عودته إلى النجف يذكر المؤرّخ علي الخاقاني ـ دون سواه ـ أنّه لازم الشيخ موسى شرارة العاملي، الذي كان لأنفاسه أثر عظيم في حسن تربيته وتعليمه[2]. وإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الباحث عبد الغفّار الحبّوبي أدرج اسم السيّد مهدي الحكيم ـ والد المرجع الديني السيّد محسن الحكيم ـ في قائمة أساتذة الحبّوبي[3]، وأنّ هذا الأخير لم يكن من الرعيل الأوّل الذين يعوّل عليهم في مرحلة البحث الخارج، وإن كان في عداد الفقهاء والمجتهدين، لذا يغلب على الظنّ أنّ السيّد الحبّوبي اجتاز مرحلة المقدّمات والسطوح في العلوم الشرعيّة على يد هذين العالمين الشيخ موسى شرارة العاملي والسيّد مهدي الحكيم.

هموم النهضة والتحديث

تشير بعض المصادر إلى أنّ السيّد الحبّوبي التقى بالسيّد جمال الدين الأسدآبادي الأفغاني عندما كان مقيماً في النجف الأشرف.

والذي يمكن الركون إليه هو أنّ السيّد الحبّوبي التقى السيّد جمال الدين

---

١. المصدر: ٢٨.

٢. شعراء الغري ٩: ١٥٢.

٣. مقدّمة عبد الغفّار الحبّوبي لديوان السيّد محمّد سعيد الحبّوبي: ٣٨.

الأسدآبادي الأفغاني في الزيارة السرّيّة التي قام بها للعتبات المقدّسة عام ١٨٩١م، حيث يروى أنّ الرجلين اجتمعا في الصحن العلوي الشريف، وطال اجتماعهما من صلاة العشاء حتّى مطلع الفجر[١]. وعليه يمكن اعتبار هذا اللقاء بداية الاتّجاه النهضوي في حياة السيّد الحبّوبي. هذا الاتّجاه الذي سيترجمه السيّد الحبّوبي في الدفاع عن فكرة الوحدة بين السنّة والشيعة، وفي تأييد فكرة تأسيس مدارس حديثة تدرّس المسلمين العلوم الحديثة وإسكات المعارضين لها[٢]، وفي تأييد فتوى الشيخ محمّد كاظم الخراساني بالجهاد لتحرير ليبيا، وذلك بفتوى جديدة أصدرها بعد وفاة الشيخ الخراساني، لتأكيد استمراريّة هذا الجهاد المقدّس[٣].

الحبّوبي قائداً

في اليوم السادس من شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٤م بدأ الإنجليز باحتلال الفاو قاصدين التوجّه إلى باقي أنحاء العراق. فشعر أهالي البصرة بالخطر وبعثوا إلى النجف برقيّة يستغيثون فيها بالعلماء يطلبون منهم النصرة. ولمّا وصلت البرقيّة إلى النجف عقدت الاجتماعات في المساجد والحسينيّات، وأُلقيت الخطب الحماسيّة على الجماهير.

وكان في مقدّمة الخطباء السيّد محمّد سعيد الحبّوبي الذي أعلن الجهاد ليلة ٢٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٤م، وترك النجف متوجّهاً نحو جبهات القتال مارّاً بالسماوة والناصريّة، وكان في طريقه إلى البصرة ينزل في المدن والقرى والعشائر التي يمرّ بها، فيثير فيهم روح الحماس والجهاد ويأخذ معه منهم عدداً من المجاهدين،

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٣: ٢٩٨.

٢. الثورة العراقيّة الكبرى: ٨٤.

٣. الجذور السياسيّة والفكريّة للحركة القوميّة في العراق: ٨٢.

حتّى استطاع أن يجنّد تسعين ألف مجاهد[١]. لذا تأخّر وصوله إلى الشعيبة قرابة الشهرين، حيث وصلها في ٢٢ كانون الثاني / يناير ١٩١٥. وعند وصوله مدينة الناصريّة طلب إليه أعيانها وتجّارها النزول في قصورهم المؤثّثة إلّا أنّه أبى وردّهم قائلاً: «إنّي واحد من هذه الجموع المتطوّعة، لا ميزة لي عليهم وشتّان الحرب والترف»[٢].

وكانت مشاكل سياسيّة وعشائريّة كثيرة تعترض عمليّة التعبئة الجهاديّة التي نذر نفسه لها، كرفض بعض رؤساء العشائر التعاون مع الأتراك، أو وجود خصومات عشائريّة بين هذه العشيرة وتلك، فكان السيّد الحبّوبي يساعد على حلّها وتذليلها ذوداً عن وحدة المجاهدين، وجمعاً لشملهم المتشتّت. وكان بمعيّته نخبة من علماء العراق ورجالاته، كآية الله السيّد محسن الحكيم، والشيخ محمّد رضا الشبيبي، وأخيه الشيخ باقر الشبيبي، والشيخ علي الشرقي، وآية الله السيّد أبي القاسم الكاشاني، وغيرهم.

وكان يتميّز عن أقرانه من العلماء بشدّة الحماس للجهاد. وعندما أراد أن يكتب رسالة إلى أحد الأعيان، يقول الشيخ عليّ الشرقي:

أحضرنا القلم والقرطاس، وجعل يملي عليّ، وإذا بدموعه تلمع نثارها على كريمته كلّما مرّ بكلمة نخوة أو استنهاض، فأكبرت ذلك المنظر الرهيب وخشعت نفسي وأقسمت عليه أن يكفّ ويكفكف؛ لأنّي لا أستطيع أن أُشاهد دمعته، فقال: حسب رغبتك وأنشد:

ملكتُ دموع العين ثمّ رددتُها إلى ناظري فالعين في القلب تدمعُ[٣]

ويذكر أيضاً، أنّ السيّد الحبّوبي أنفق ما كان لديه من المال حتّى نفد:

فذهبت إلى متصرّف الناصريّة ومضينا إلى قائد الحركات، وبعدما فاتحناه قال: إنّي مقدّر للموقف، ولكن صراحة السيّد وصلابته تمنعني من مكاشفته في أمرٍ مالي، هذه

---

١. المصدر: ٨١.

٢. الحقائق الناصعة: ٣٨، نقلاً عن الشيخ علي الشرقي أحد أبرز أعوان السيّد الحبّوبي.

٣. مقدّمة عبد الغفّار الحبّوبي لديوان السيّد محمّد سعيد الحبّوبي: ٤٧.

ألف ليرة ذهبيّة يتفضّل بقبولها الآن وفي كلّ أُسبوع مثلها ليـنفقها عـلى مـن حـوله. ودّعتهما وجئت إلى السيّد فصارحته قائلاً إنّ الحرب طويلة ويجب أن تكـون مكـيناً عليها وإنّ أخاك [1] لا يستطيع المداومة على المدد .. وأنت قائد الجيش فهل تأذن أن نضع تحت يدك مقداراً من الذهب؟ وذكرت له صديقي المتصرّف والقائد. فأنكر عليّ قبول النقد وتشدّد في الامتناع قائلاً: إنّي مكلّف بالتضحية في مالي ونفسي فإذا نفد مـالي بقيت نوبة نفسي، اعتبروني جنديّاً من الجند آكل ممّا يأكلون وأشرب ممّا يشـربون، وجهاد النفس أفضل، لا، لا أقبل درهماً واحداً، وقائد الجيش أعرف بمواقع الصرف، ولا أسمح لكلّ أحد أن يفاتحني في هذا الشأن [2].

وأخيراً وصل السيّد الحبّوبي بموكب المجاهدين إلى الشعيبة، وضرب المجاهدون خيامهم في موضع يسمّى «النخيلة» بانتظار أن يضع القائد العسكري التركي الخـطّة اللازمة للهجوم على الإنجليز. وأخيراً اتّخذ السيّد الحبّوبي موقعه ضمن المعركة فكان قائد الجناح الأيمن.

في الصباح الباكر ١٢ نيسان / أبريل ١٩١٥، بدأ الهجوم على المواقع الإنجليزيّة، ودارت رحى المعركة بين الطرفين بعنف وقوّة، وأبدى المجاهدون بسالة نادرة، ولكنّ فشل الجيش التركي في المحافظة على بعض المواقع المهمّة فتّ في عضد المجاهدين. وأخيراً انهارت معنويات الجيش التركي وقرّر الانسحاب إلى الوراء، فسرى الضـعف إلى معنويّات المجاهدين. وبدأ العدوّ بإشاعة الأخبار الكاذبة بـين صـفوفهم لتـثبيط عزائمهم، حيث يروي آية الله السيّد محسن الحكيم أنّ شائعة انتشرت بين المجاهدين مفادها أنّ القائد التركي سليمان العسكري قتل مع ضبّاطه جميعاً فانتشرت الفوضى بين العشائر، واختلّ النظام لكنّ السيّد الحبّوبي ثبت مع ثلّة من صحبه فلم يهربوا مع

---

١. كانت للسيّد الحبّوبي أملاك خاصّة في النجف وقد رهنها لكي ينفق منها على المجاهدين، وحينما خـرج كـان معه مبلغ كبير من المال فأنفقه كلّه ثمّ سحب حوالة على أخيه.

٢. الحقائق الناصعة: ٣٨.

الهاربين، بعد ذلك تبيّن أنّ الأمر كان مجرّد شائعة وخديعة[١].

وهكذا كانت الهزيمة التي حلّت بالمجاهدين، وكانت فاجعة كبيرة بالنسبة للقائد العسكري التركي الذي انتحر في مساء اليوم نفسه، وللسيّد الحبّوبي ـ أيضاً ـ الذي عاد منهك القوى محتقن العينين، فقصد الناصريّة لغرض استنهاض العشائر للكرّة على الإنجليز ثانية، وهو رجل يدنو عمره من السبعين. وفي هذا الوقت حلّ به داء ما زال يشتدّ عليه حتّى ألزمه الفراش، ثمّ انتقلت روحه الطاهرة إلى بارئها، وتوفّي غصّةً وكمداً في أوائل شعبان ١٣٣٣هـ / منتصف حزيران / «يونيو» ١٩١٥م، وكان في اللحظات الأخيرة يكرّر بسكينة واطمئنان: «أمّا أنا ففي نعيم»[٢].

١. الإمام الحكيم: ٧٦ ـ ٧٧.

٢. من أعلام الفكر والقيادة والمرجعيّة: ٩٨ ـ ١١٢.

٦ ـ الشيخ محمّد تقي الشيرازي
(١٢٥٦ ـ ١٣٣٨هـ)

دور النشأة والظهور

في مدينة شيراز جنوبي إيران ولد الميرزا محمّد تقي نجل الميرزا محب علي الشيرازي، في أحضان عائلة اشتهرت بالعلم والتقوى والأدب. حيث كان والده من أهل الورع والدين كما كان أخوه أحد علماء شيراز. فيما كان عمّه من مشاهير الشعراء[١]، ولم تذكر المصادر المختلفة التي بأيدينا والمعتمدة في هذا الكتاب سنة ولادته إلّا أنّ الدكتور علي الوردي ذكر في كتابه لمحات اجتماعيّة في تاريخ العراق الحديث أنّ سماحته كان في الثمانين من عمره عندما وصل كربلاء سنة ١٩١٨م[٢] وهذا يعني أنّ ولادته كانت في حدود العقد الرابع من القرن الميلادي السابق ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠م ولمّا لم يجد في شيراز بسطة علميّة كافية لملكاته ونزوعه الشديد نحو العلم، هاجر إلى العراق شابّاً، وأقام في كربلاء يدرس على أفاضل شيوخها وعلمائها، كالفاضل محمّد حسين الأردكاني والسيّد علي تقي الطباطبائي، ثمّ هاجر إلى سامراء حيث أقام المجدّد السيّد محمّد حسن الشيرازي، ليغترف من علمه وينهل من أجوائه الروحيّة ووعيه السياسي أيضاً، حتّى صار ثالث ثلاثة في سامراء يوليهم أُستاذهم عنايته الخاصّة، والآخران هما السيّد إسماعيل الصدر والسيّد محمّد الإصفهاني.

وبعد وفاة السيّد المجدّد الشيرازي سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م اتّجهت الأنظار نحو

---

١. أعيان الشيعة ٩: ١٩٢.

٢. لمحات اجتماعيّة في تاريخ العراق الحديث ٥ : ٦٣، القسم الأوّل.

الشيخ محمّد تقي كمرشّح بارز لمرجعيّة المستقبل القريب، وبقي في سامراء بهدف المحافظة على منجزات مرجعيّة أُستاذه الشيرازي، ولم يتركها إلّا عندما دعته الأحداث السياسيّة المهمّة إلى العودة إلى كربلاء فعاد ليبدأ شوط القيادة السياسيّة.

بداية النشاط السياسي

قبل الظهور الحاسم لآية الله الشيخ الشيرازي كمرجع أعلى وقائد سياسي من الطراز الأوّل، كان سماحته قد أسهم إسهاماً إيجابيّاً في جملة من الأحداث الكبيرة التي عاصرها، فقد أيّد الحركة الدستوريّة الإيرانيّة[1]، وشارك في مؤتمر الكاظميّة الذي عقده كبار العلماء هناك من أوائل عام ١٩١٢م للتداول في قضيّة الاحتلال الروسي لبعض المدن الإيرانيّة الشماليّة[2]، كما ساهم في حركة الجهاد التي انطلقت من النجف الأشرف وبقيّة المدن المقدّسة في العراق ضدّ الاحتلال الإنجليزي عام ١٩١٤م. حيث أفتى بالجهاد كسائر العلماء وأرسل نجله الشيخ محمّد رضا للالتحاق بقوّات المجاهدين المتوجّهين نحو جبهة الشعيبة بزعامة المجتهد السيّد محمّد الحيدري[3].

إنّ شعوراً شديداً بالعداء للأجنبي المحتلّ ينتظم هذه النشاطات التي سيتوّجها الشيخ الشيرازي بمواقف جذريّة إزاء الوجود البريطاني في العراق وإيران، وإذا ما درسنا الاتّجاه الثوري في حياته ﷺ فسنجده نتاجاً لثورة التنباك، ودرساً تلقّاه الميرزا الشيرازي الثاني من أُستاذه الميرزا الشيرازي الأوّل يوم كان تلميذاً له في سامراء يتزوّد من زوبعة الوعي السياسي الثوري التي أحدثتها ثورته الشهيرة. فالقائد يربّي قائداً والثورة تنجب أُخرى، ولا نحتاج إلى تأكيد أنّ الاتّجاه الوحدوي في حياة الشيخ محمّد تقي الشيرازي أثر آخر تركه الأُستاذ في سيرة تلميذه كما سنرى.

---

١. ثورة النجف: ٧٠.
٢. تاريخ العراق السياسي المعاصر ٢: ١٢٩.
٣. دور الشيعة في تطوّر العراق السياسي الحديث: ٨٦.

طليعة الزعامة الرشيدة

في منتصف عام ١٣٣٦هـ / ٢٣ شباط ١٩١٨ انتقل آية الله الشيرازي من سامراء عائداً إلى كربلاء.

إنّ مواقف الميرزا الشيرازي السياسيّة في السنتين والنصف الأخيرة من حياته، التي قضاها في كربلاء والتي تمثّل فترة العمل السياسي والجهادي المكثّف في سيرته، كانت تنمّ عن قدرة قياديّة فائقة من شجاعة وحسن تدبير وإلمام تامّ بما يجري في الساحة.

بعد أن تمكّن الإنجليز في العراق من القضاء على المقاومة الإسلاميّة المسلّحة للاحتلال، أخذوا يعدّون العدّة لإقرار الوضع السياسي الجديد، فطرحوا في أواخر عام ١٩١٨ فكرة استفتاء الشعب العراقي حول المصير الذي يختاره، وكان سعيهم الحقيقي يهدف إلى تزوير إرادة الشعب واستحصال وثيقة سياسيّة تبيّن قبول الشعب بالاحتلال، فظهرت حركة تنظيم «المضابط» في المدن العراقيّة وكانت بدايتها في النجف الأشرف. ففي صفر ١٣٣٧هـ / ١٢ كانون الأوّل ١٩١٨م سافر الحاكم المدني الإنجليزي ويلسون إلى النجف وطرح على زعمائها فكرة الاستفتاء، وبعد اجتماعات ومداولات تبلورت فكرة المطالبة بتأسيس حكومة عربيّة مستقلّة يرأسها أمير عربي[١].

وبعد أربعة أيّام من التاريخ السابق عقد اجتماع في كربلاء للغرض نفسه بين معاون حاكم الحلّة وعدد من أعيان المدينة، وبعد أن طرح عليهم المسؤول الإنجليزي قضيّة الاستفتاء، تداول الأعيان الأمر فيما بينهم في اجتماعين آخرين عُقد الأوّل في دار السيّد محمّد صادق الطباطبائي، والثاني في دار الإمام محمّد تقي الشيرازي، الذي حُسم الاختيار فيه بتقديم مضبطة إلى حاكم الحلّة تنصّ على المطالبة بـ«راية عربيّة إسلاميّة» وانتخاب أحد أنجال سيّدنا الشريف ليكون ملكاً علينا مقيّداً بمجلس

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٥: ٧٢، القسم الأوّل.

منتخب من أهالي العراق لتسنين القواعد الموافقة لروحيّات هذه الأُمّة[١].

وفي هذه الأثناء كانت جماهير العشائر والنجف المثقّفة قد أعطت معاً ولاءها للإمام الشيرازي قائداً لمسيرة المصير والتحرير، خصوصاً بعد إعلان آية الله السيّد كاظم اليزدي انسحابه من الساحة السياسيّة، وستتكرّس الزعامة والمرجعيّة العامّة في شخصه بعد وفاة هذا المرجع الديني في نيسان ١٩١٩م.

وأثناء قضيّة الاستفتاء ـ وبالتحديد في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ / ٢٣ كانون الثاني ١٩١٩م ـ أصدر آية الله الشيرازي فتوى تحرّم انتخاب غير المسلم لمنصب الولاية على المسلمين جواباً على سؤال وجّه إليه؛ هذا نصّه: «هل يجوز لنا انتخاب غير المسلمين للإمارة والسلطنة علينا، أم يجب علينا اختيار المسلم، بيّنوا تؤجروا؟».

فكتب في ذيل الاستفتاء الفتوى التالية: «ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب أو يختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين»[٢]. وقد أُيّدت هذه الفتوى من سبعة عشر عالماً من علماء كربلاء.

وفي أوائل شعبان ١٣٣٧هـ / نيسان ١٩١٩م اجتمع جمع من رؤساء عشائر الفرات في كربلاء بعد اتّفاق مسبق، وتوجّهوا إلى منزل الإمام الشيرازي للتداول معه بشأن سبل مقاومة الاحتلال وتحقيق الاستقلال، فقال ﷺ: «إنّ الواجب الديني يقضي عليَّ أن أقوم بهذا العمل إن تمّت موازينه»[٣]. ثمّ قرّر الزعماء الاطّلاع على رأي أهالي العاصمة وبعثوا وفداً إلى بغداد بهذا الشأن.

ويبدو أنّ القيادة الحازمة جعلت الإنجليز يفكّرون بضرورة استرضائها بشكلٍ ما. ففي رمضان ١٣٣٧هـ / حزيران ١٩١٩م جاء الحاكم الإنجليزي في العراق ويلسون إلى كربلاء للتباحث مع آية الله الشيرازي. وفي بداية اللقاء تحدّث ـ وكان يتقن

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث، ٥: ٧٦، القسم الأوّل.

٢. الحقائق الناصعة: ٨١.

٣. المصدر: ١٠١.

الفارسيّة ـ عن منصب كليدار سامراء وضرورة تعيين شخصيّة شيعيّة فيه بدلاً عن المسؤول السنّي الحالي، فأجابه الشيخ الشيرازي لا فرق عندي بين السنّي والشيعي، وإنّ الكليدار الموجود رجل طيّب ولا أُوافق على عزله، فانتقل ويلسون إلى موضوع المعاهدة الإيرانيّة البريطانيّة وما فيها من الفوائد لإيران، فأجابه ﷺ:

نحن في العراق ونتكلّم عن العراق وإنّ حكومة إيران وشعبها أعرف بشؤونهم منّا، فلا يجوز لنا والحالة هذه التدخّل في أُمور لا تعنينا ولا نعرف عنها شيئاً.

ثمّ تطرّق ويلسون إلى ما يجري في جنوب إيران من قتال بين القوّات الإنجليزيّة وبعض القبائل الإيرانيّة طالباً من الإمام الشيرازي الإفتاء بكفّ القتال حقناً للدماء، فأجابه الشيرازي:

لا يسوغ لي الإفتاء بشيء لا علم لي به سيّما وإنّ لتلك القبائل حكومة، فحكومتهم أعرف بذلك المحيط وما تقتضيه[1].

وفي أوائل ذي القعدة ٢ آب ١٩١٩م قامت سلطات الاحتلال باعتقال ستّة من أعيان كربلاء الثوريّين ونفيهم إلى الهند بعد ذلك. فردّ الإمام الشيرازي برسالة احتجاجيّة إلى ويلسون الذي ردّ جواباً سلبيّاً عليها. ولمّا وصلت الرسالة الجوابيّة إلى الشيخ الشيرازي أعلن عزمه على الهجرة إلى إيران، احتجاجاً على رفض مطالب الشعب العراقي، ممّا أحدث ضجّة في الأوساط الشعبيّة، واضطراباً في السلطة الإيرانيّة التي كانت ترى في مجيء الإمام الشيرازي إلى إيران ثورة شعبيّة عنيفة يمكن أن تتفجّر ضدّ المعاهدة مع بريطانيا، فعمل الإنجليز على استرضائه فأفرجوا عن المبعَدين بعد أربعة أشهر، كما أرسلوا مبلغاً من المال إليه فرفضه[2].

وفي خطوة ثوريّة جديدة أصدر الإمام الشيرازي في رجب ١٣٣٨هـ / آذار ١٩٢٠م فتوى حرّم فيها الدخول في وظائف الدولة، فعمّت موجة الاستقالات من الوظائف

---

١. المصدر: ٦٥.

٢. المصدر: ٢٠٦.

الحكوميّة امتثالاً لموقف المرجعيّة، وأصبح البقاء في أجهزة الدولة يعدّ نوعاً من الانخراط في الكفر.

وتقدّم العلماء وزعماء العشائر إلى الإمام الشيرازي بطلب الرخصة باستعمال القوّة لانتزاع الحقوق الإسلاميّة والوطنيّة المهضومة، فأصدر الإمام الشيرازي فتواه التاريخيّة التالية:

مطالبة الحقوق واجبة على العراقيّين، ويجب عليهم في ضمن مطالبهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسّل بالقوّة الدفاعيّة، إذا امتنع الإنجليز من قبول مطالبهم[١].

وتوالت الأحداث واشتدّت العمليّات العسكريّة بين الطرفين، وأخذ الشعب العراقي يحرز تقدّماً ملموساً فيها رغم الأسلحة البدائيّة التي كان يستخدمها بالقياس إلى أسلحة الجيش البريطاني، وفي عصر ٩ ذي القعدة ١٣٣٨هـ / تمّوز ١٩٢٠م أمر قائد الثورة بطرد حاكم كربلاء، وفي صباح اليوم التالي جرت مداولات بين الإمام الشيرازي وكبار معاونيه أسفرت عن تشكيل ثلاثة مجالس لإدارة شؤون المناطق المحرّرة، وهي:

١ ـ المجلس العلمي، ووظيفته الإشراف على أعمال المجلسَين الآخرَين، وعيّن السيّد هبة الدين الشهرستاني رئيساً له. ومن الناحية السياسيّة يمكن اعتباره مجلساً لقيادة الثورة.

٢ ـ المجلس الملّي، ووظيفته الإدارة المحلّيّة والأمن الداخلي.

٣ ـ مجلس جمع الإعانات للمعوزين من الثوّار، ووظيفته تغطية الحاجات الاقتصاديّة لعوائل الثوّار والمجاهدين.

وتعمل هذه المجالس الثلاثة تحت إشراف قائد الثورة.

وهناك مجلس رابع هو المجلس الحربي، ووظيفته قيادة العمليّات العسكريّة،

---

١. المصدر: ١٩٥.

ويتميّز عن سائر المجالس بكونه لا يخضع لإشراف قائد الثورة، ويدخل في عضويته عدد من رؤساء القبائل.

إلى جانب الجهد الثوري عمل قائد الثورة على مواصلة الجهد السياسي، ففي خضمّ الأحداث الثوريّة بعث ويلسون رسالة إلى الإمام الشيرازي استُشمّ منها الرغبة في التفاهم، فجمع قائد الثورة أعضاء المجلس العلمي وطلب منهم المشاورة، فاقترحوا إرسال وفد إلى ويلسون لعرض مطالب الشعب العراقي عليه مجدّداً، فأرسل السيّد هبة الدين الشهرستاني والميرزا أحمد الخراساني إلى القنصل الإيراني في بغداد ليذهب القنصل نيابة عن الوفد إلى ويلسون ويعرض عليه الأمر، فاستجاب القنصل الإيراني للطلب وذهب إلى مقرّ الحاكم العامّ لمقابلته، ولمّا قدّم القنصل الإيراني طلبات وفد قائد الثورة إلى ويلسون غضب وزمجر ورفض العرض، ورجع الوفد إلى كربلاء بهذه النتيجة، وعندما أُبلغ الإمام الشيرازي بها قرّر إرسال شكوى إلى عصبة الأُمم يرفع فيها قضيّة العراق إلى العصبة ويطالبها بتأييد كفاح الشعب العراقي المسلم من أجل الاستقلال. وقد تمّ ذلك في ٢٧ ذي القعدة آب ١٩٢٠م.

ثورة العشرين... رؤية في الأهداف والخلفيّات

يلعب التاريخ والسياسة أدواراً متبادلة في كلٍّ منهما، فكما تؤثّر السياسة في رسم صورة التاريخ، يلعب التاريخ دوره في توجيه السياسة، ومن هنا تنبع أهمّيّة الماضي للحاضر، وتتشكّل ضرورة استخلاص أنقى صورة ممكنة للتاريخ بصورة عامّة والمقاطع الحيويّة منه بصورة خاصّة.

وتمثّل ثورة العشرين في العراق وبإجماع الباحثين المعنيّين بها مقطعاً بالغ الحيويّة بالنسبة لجهات ثلاثة: التكوين السياسي المعاصر للعراق، تطوّر الحركة السياسيّة للمرجعيّة الإسلاميّة، وحركة التحرّر العالميّة.

فمن الجهة الأُولى يجد الباحث السياسي أهميّة الدور التأسيسي الذي لعبته ثورة

العشرين بالنسبة للتكوين السياسي المعاصر للعراق، الأمر الذي حفّز الاتّجاهات السياسيّة في هذا البلد إلى دراستها وتحليلها بالشكل الذي تراه مناسباً.

ومن الجهة الثانية تمثّل هذه الثورة مرحلة متقدّمة في التطوّر السياسي للمرجعيّة الإسلاميّة في تاريخها المعاصر، ممّا يحفّز الخطّ الإسلامي داخل العراق وخارجه على إعطاء هذه الحلقة المشرقة حقّها من الدراسة والتحليل، وبالقدر المناسب لموقعها المهمّ في الوعي السياسي الإسلامي.

ومن الجهة الثالثة جسّدت ثورة العشرين موقعاً طليعيّاً في حركة التحرّر العالميّة من الاستعمار والهيمنة الأجنبيّة، وحيث ساد النصف الأوّل من القرن العشرين الزعيم الشيوعي بقيادة هذه الحركة على المستوى العالمي، وجد الشيوعيّون أنفسهم معنيّين بدراسة هذه الثورة وتفسيرها على أساس المنطق الطبقي.

وهكذا تبلورت اتّجاهات ثلاثة في تفسير الثورة: الاتّجاه القومي، والإسلامي، والماركسي، وفي ذلك مدلول سياسي كبير يفيد الأهمّيّة البالغة التي حظيت وتحظى بها هذه الثورة في المرحلة المعاصرة والتاريخ والسياسة والفكر، وعلى المستويات الثلاثة المحلّي والإقليمي والعالمي معاً.

ويرى الاتّجاه الإسلامي أنّ الثورة كانت إسلاميّة في شكلها ومحتواها، وأنّ الشعور الديني هو العامل المحرّك لها بحكم الطابع العلمائي للقيادة من جهة، وانقياد الجماهير لهذه القيادة على أساس ديني صرف من جهة ثانية، وانعدام المؤشّرات على وجود غلبة لشعور آخر من جهة ثالثة، وهذه الجهات الثلاث توثّقها كلّ يوميّات الثورة وأحداثها وأدبيّاتها ووثائقها، والتي لا يمكننا استعراضها هنا بشكل كامل، ولكن يكفينا منها أنّ بيانات وفتاوى قائد الثورة كانت العامل المحرّك للجماهير والملهب للنفوس.

هذا المقدار من التفسير الإسلامي للثورة أمر مسلّم ولا يمكن الخدش فيه، إلّا أنّ بعض الكتّاب الذين اختاروا هذا التفسير مضوا فيه إلى ما هو أبعد من هذا الحدّ، فأشاروا إلى أنّ الثورة كانت تهدف إلى تشكيل حكومة إسلاميّة، وأنّ الإمام محمّد تقي

الشيرازي قد نصّ على ذلك، وكأنّهم يريدون بذلك إثبات صفة إيديولوجيّة إسلاميّة كاملة للثورة.

والأساس الذي اعتمدوا عليه هو البيان الذي وجّهه قائد الثورة الشيخ محمّد تقي الشيرازي إلى الشعب العراقي في ١٠ رمضان ١٣٣٨هـ / ٢٩ مايس ١٩٢٠م الذي دعا فيه إلى المظاهرات والمطالبة بالحقوق المشروعية «المنتجة لاستقلال العراق إن شاء الله بحكومة إسلاميّة» ولعلّهم أيّدوا ذلك بفكرة نظريّة تقول إنّ الإمام الشيرازي كان مرجعاً دينيّاً ولا يمكن لمثله إلّا أن يسعى لحكومة إسلامية.

ويبدو أنّ هذا الرأي اعتبر من المسلّمات، فلم أجد في الوسط الإسلامي إشارة إلى رأي آخر.

إنّ هذه الثورة أو تلك الحركة كانت تسعى لإقامة حكومة إسلاميّة، والمثال التاريخي الذي يمكننا الاستشهاد به في هذا المجال هو ثورة الدستور الإيرانيّة، فقد كانت قيادتها إسلاميّة تتمثّل بجملة من أبرز مراجع ذلك الوقت، لكنّها لم تطرح الدستور الذي ناضلت من أجله كمشروع لحكومة إسلاميّة وإنّما كأُطروحة للإصلاح السياسي وصورة لحكم يتّسم بالعدالة والقانون والاستقلال، بدلاً عن الديكتاتوريّة والطغيان والتبعيّة.

وأبرز دليل على ذلك إبقاء الدستور على الصيغة الملكيّة الوراثيّة للحكم والدولة، وهي التي تشكّل نفياً صريحاً للنظام الإسلامي ومن المؤكّد تاريخيّاً أنّ قيادة ثورة العشرين كالشيخ محمّد تقي الشيرازي، وخليفته الشيخ فتح الله الإصفهاني والشيخ مهدي الخالصي والسيّد هبة الدين الشهرستاني وغيرهم، يُعدّون من تيّار الحركة الدستوريّة، ولذا وجدنا فكرهم السياسي يتطابق مع الفكر السياسي لهذه الحركة إلى حدّ الشعور بأنّ ثورة العشرين كانت تكراراً للحركة الدستوريّة في جانب الفكر السياسي لها، واستمراراً لمرحلة الدفاع عن الهويّة التي ستتواصل في حياة المرجعيّة الإسلاميّة حتّى عام ١٩٢٤م.

وذلك أنّ الشعار المركزي الذي رفعته ثورة العشرين على لسان قيادتها، والذي تكرّر في أدبيّاتها ووثائقها بشكل مطّرد، كان يتمثّل بالدعوة إلى تأسيس «حكومة عربيّة يرأسها ملك مسلم مقيّد بمجلس تمثيلي».

وكان الظهور الأوّل لهذه الفكرة في أواخر عام ١٩١٨م، وذلك إبان بروز قضيّة الاستفتاء على مصير العراق، ثمّ تحدّدت أكثر فصارت هكذا: «حكومة عربيّة يرأسها ملك مسلم مقيّد بمجلس تمثيلي وهو أحد أنجال الشريف حسين». ثمّ تحدّدت في صيغتها النهائيّة هكذا: «حكومة عربيّة يرأسها ملك مسلم مقيّد بمجلس تمثيلي هو الملك فيصل».

وأوّل وثيقة تاريخيّة نصّت على هذه الفكرة مضبطة أهالي النجف والتي نصّت على المطالبة بتأسيس حكومة عربيّة مستقلّة يرأسها أمير عربي، وهناك نصّ آخر للمضبطة أورده المؤرّخ فريق المزهر آل فرعون، تدليلاً على الفكرة الدستوريّة، وهو المطالبة بـ:

حكومة عربيّة إسلاميّة ملكيّة دستوريّة مقيّدة بقانون أساسي، شرط أن لا يخالف قواعدنا وعاداتنا وشعائرنا الدينيّة منها والوطنيّة، تحت ظلّ ملك عربي، وهو أحد أنجال الشريف حسين[1].

وقد نصّ الإمام الشيرازي بنفسه على هذه الفكرة في رسالته الموجّهة إلى المفوّض الأمريكي في طهران، ورسالته الموجّهة إلى الرئيس الأمريكي ويلسون والتي كتبها بالتضامن مع خليفته الشيخ فتح الله الإصفهاني. وتضمّنتها كذلك مضبطة أهالي كربلاء التي نُظّمت في دار الإمام الشيرازي، وهي الفكرة التي عمل بمضمونها قادة الثورة من بعد الإمام الشيرازي كالشيخ فتح الله الإصفهاني والسيّد أبي الحسن الإصفهاني والشيخ مهدي الخالصي والشيخ حسين النائيني.

---

١. الحقائق الناصعة: ٨٥.

وعندما سأل المؤرّخ العراقي فريق المزهر آل فرعون أربعة عشر زعيماً دينيّاً وقبليّاً ـ منهم السيّد هبة الشهرستاني والشيخ عبد الكريم الجزائري والسيّد محسن أبو طبيخ ـ عن هدف الثورة، نصّ الجميع وبلا استثناء على هذه الفكرة كهدف وحيد للثورة[1]. ومع كلّ هذه النصوص والشواهد التاريخيّة كيف يمكننا القول بأنّ الثورة كانت تستهدف إقامة حكومة إسلاميّة؟ فإنّ الشعار المذكور يستبعد النظام الإسلامي بل يتنافى معه في صيغته الملكيّة، وفي استبعاده للدور العلمائي في الحكم، وفي تحديده لأحد أبناء الشريف حسين كملك على عرش العراق.

إنّ تبنّي الثورة للهويّة الإسلاميّة ـ كهدف فعلي لها ـ لا يعني أنّها لا تسعى لتحقيق الحكومة الإسلاميّة إذا ما سنحت الفرصة لها في صورة من الصور، لأنّ دخولها عالم الإمكان يعني تحوّلها إلى هدف فعلي، ومن هنا لا نجد تعارضاً بين التفسير المختار الثورة، وبين رؤيتنا للمجالس الأربعة التي تمّ تشكيلها إبان الثورة في كربلاء بعد تحريرها من قوّات الاحتلال بإشارة من قائد الثورة، ورؤيتنا لها على أنّها صورة تقترب من مفهوم الحكومة الإسلاميّة المحدودة، جاء بشكل استثنائي لا يعبّر عن الرؤية الاستراتيجيّة للثورة على مستوى العراق ككلّ، وذلك أنّ قرار قائد الثورة بطرد الحاكم العسكري في كربلاء في تمّوز ١٩٢٠م لم يكن يبغي منه إخلاء المدينة لإقامة حكومة إسلاميّة تكون نواة للنظام السياسي المطلوب على مستوى العراق، وإنّما كان إجراءً ثوريّاً جاء في نطاق الصراع مع الإنجليز.

فلمّا تولّد منه فراغ سياسي وإداري على مستوى مدينة كربلاء قرّر قائد الثورة ملء الفراغ بالمجالس الأربعة: المجلس العلمي، والملّي، والحرس، ومجلس جمع الإعانات للثوّار، تقوم بإدارة الثورة والمدن المحرّرة تحت إشراف قائد الثورة.

---

١. المصدر: ٥٥١ـ٥٥٨.

إنّ تأسيس هذه الحكومة الثوريّة الإسلاميّة لا يتنافى مع التفسير المختار للثورة بل يؤكّده. فإنّ الهدف الاستراتيجي والفعلي للثورة هو حماية الهويّة الإسلاميّة، ولكن إذا ما أُتيح لها أن تحقّق في ظرف زماني ومكاني محدود هدفاً أعلى من ذلك فإنّها تستعمل له. الهدف الأوّل عبارة عن مشروع زمني قرّرته قيادة الثورة في ضوء ملابسات الوضع السياسي والسكّاني والتاريخي والديني للعراق ككلّ، والثاني مشروع إيديولوجي قرّرته القيادة في ظلّ ظرف استثنائي، وطبّقته في حدود كربلاء وبعض المدن المحرّرة، نتيجة للفراغ الإداري والسياسي الذي نشأ في هذه المدن بعد تحريرها. ولو كانت الثورة ترى في هذه الحكومة نموذجاً لما يطلب على مستوى العراق ككلّ، لما وجدنا اختلافاً بينها وبين شعار الثورة المركزي المتمثّل بالدعوة إلى «تشكيل حكومة عربيّة يرأسها ملك مسلم مقيّد بمجلس تأسيس» والاختلاف الأساس هو فارق الزعامة العلمائيّة غير الملكيّة في حكومة كربلاء والزعامة الملكيّة في الشعار المذكور.

وممّا يساعد على التفسير المختار أنّ الرأي العامّ العراقي ـ وحسب ما تُبيّن أدبيّات الثورة ووثائقها ـ رشّح بدءاً من أواخر العام ١٩١٨م أحد أنجال الشريف حسين ملكاً لعرش العراق، وهو الذي تمّ تحديده فيما بعد بالملك فيصل، وذلك أنّ شخصيّة الشريف حسين وسلالته التي توارثت الزعامة الدينيّة السياسيّة في مكّة منذ أمد بعيد تطابقت مع النزوع المحلّي الشديد نحو الهويّة، إضافةً إلى الامتيازات الأُخرى التي حظي بها ورفعته في نظر الفرد العراقي آنذاك، فهو الشخصيّة المقبولة لدى الوسط السنّي بوصف الشريف حسين سنّي المذهب، والوسط الشيعي باعتبار أنّه ينحدر من سلالة علويّة ويكنّ احتراماً وتقديساً لأهل البيت عليهم السلام كما أنّه ظهر في بداية الأمر على أنّه الخليفة الجديد للمسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانيّة، أضف إلى ذلك أنّ الشعور الإقليمي لم يكن متبلوراً بوضوح آنذاك وكان الشعور العربي أقوى وأسبق منه، فلم يكن الفرد العراقي يأنف من ملك عربي يتزعّمه من خارج العراق.

الوطنيّة الصادقة والوطنيّة الكاذبة

لقد دافع آية الله الشيرازي عن الكيان العراقي وذاد الأجانب عن ترابه وشعبه ورفع شعار الاستقلال، وضحّى من أجله بنجله الشيخ محمّد رضا الذي أُبعد من العراق إلى الهند إلى إيران وتوفّي هناك، انطلاقاً من شعور إسلامي عارم يعتبر الأرض الإسلاميّة وطناً للجميع رغم انتمائه القومي والإقليمي المختلف، فيما تـوارى أدعـياء الوطـنيّة العراقيّة والقوميّة العربيّة عن الساحة متربّصين الفرص والمغانم حتّى إذا ما أُجـهضت الثورة وسحب المحتلّ جيوشه من ميادين المعركة قدّم هؤلاء أنفسهم بين يديه جيشاً سياسيّاً جاهزاً لإعداد مهامّ التبعيّة والانقياد للاستعمار. وسرعان ما فتك هذا الجيش بقادة الثورة وعلماء الدين المجاهدين. فأيّهما أصدق في عروبته ووطنيّته في مقياس العروبة والوطنيّة ذاتها، علماء الإسلام أم فرسان التبعيّة؟

وقد تنكّرت الدولة العـراقـيّة لمـؤسّسي هـذا الكـيان ومـحرّريه مـن الاحـتلال وغدت تحارب ذكرهم، فيما ينتصب في وسط العاصمة بغداد تمثال كبير لعبد المحسن السعدون العميل الشهير للإنجليز! بطل حادث تسفير العلماء من العراق عام ١٩٢٤م.

رحيله

يرى السيّد هبة الدين الشهرستاني أنّ نكسة الثـورة أثّـرت عـلى صـحّة الإمـام الشيرازي. ويروى أنّ الميرزا دخل صحن الإمام الحسين عليه السلام يوماً للصلاة فشاهد عدداً كبيراً من الجنائز، فراعه ذلك فانهارت بعد ذلك صحّته ولم يدخل الصحن مرّة أُخرى حتّى توفّي بعد أيّام قلائل في ٣ ذي الحجّة ١٣٣٨ / المصادف ١٧ آب ١٩٢٠م[١].

---

١. من أعلام الفكر والقيادة والمرجعيّة: ١١٥ ـ ١٤٠.

٧ـ آية الله الشيخ فتح الله الإصفهاني
(١٢٦٦ـ١٣٣٩هـ)

ولادته ونشأته

في ١٢ ربيع الأوّل من عام ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م وُلد الشيخ فتح الله بن محمّد جواد الإصفهاني في أُسرة دينيّة عُرفت بالتقوى والصلاح إلى حدّ أنّها لُقّبت بـ«النمازيّة» وتعني المصلّين بسبب كثرة مداومة جدّ هذه الأُسرة الحاجّ محمّد عليّ على النوافل والصلوات.

والمعروف أنّ هذه الأُسرة شيرازيّة الأصل، إلّا أنّ والد الشيخ فتح الله هاجر إلى إصفهان وأصبح ينسب إليها بدلاً عن شيراز.

وفي إصفهان بدأ الشيخ فتح الله شوطه العلمي ويومها كانت حاضرة علميّة شهيرة، فتلقّى مبادئ العلوم وما يعرف بمرحلة المقدّمات. ثمّ أخذ يحضر مجالس العلماء البارزين ودروسهم، كالشيخ حيدر الإصفهاني، وعبد الجواد الخراساني، وأحمد السبزواري، والشيخ محمّد صادق التنكابني، والشيخ محمّد باقر الإصفهاني نجل صاحب الحاشية على المعالم. وكان في أثناء ذلك يرتقي سلّم الفضيلة والعلم مرقاة فمرقاة.

وفي هذه الفترة من حياته العلميّة سافر إلى مدينة الإمام الرضا عليه السلام مشهد المقدّسة والتقى أجلّة علمائها وتناظر معهم، فكشفت تلك المناظرات عن مواهبه العلميّة الرفيعة ولفتت الأنظار إليه.

وبعدها عاد إلى إصفهان مكتفياً بما حازه من التحصيل العلمي وإجازة الاجتهاد. فتصدّى للتدريس والبحث وحضر عنده عدد من الفضلاء البارزين الذين أُعجبوا

بأُستاذهم وطريقته في التدريس. وبعد فترة من الزمن حدّثته نفسه بزيارة العتبات المقدّسة والاطّلاع على حلباتها العلميّة، فهاجر إلى العراق في عام ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م، واستطاع بسرعة خاطفة أن يستقطب من حوله عدداً من الأفاضل بما لمسوا فيه من موهبة علميّة رفيعة.

وفي هذه الأثناء كان يواظب على حضور دروس بعض الأعلام، كدرس الشيخ حبيب الله الرشتي[١] والشيخ محمّد حسين الكاظمي.

وفي عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك الحجّ وزيارة قبر الرسول الأعظم ﷺ. ولدى عودته إلى النجف الأشرف، انقطع عن التلمذة وانحصر نشاطه بالتدريس والبحث والتصنيف والفتوى والاهتمام بشؤون المسلمين ولُقّب بـ« شيخ الشريعة ».

مكانته العلميّة

احتلّ آية الله شيخ الشريعة الإصفهاني مكانة علميّة رفيعة بين أقرانه ونظرائه من أقطاب الفضيلة وأعلام الفقه والأُصول، وقد تخرّج على يديه عددٌ من كبار العلماء والمحقّقين، منهم المصنّف الموسوعي الشيخ آغا بزرك الطهراني، والمرجع الديني السيّد عبد الهادي الشيرازي، والسيّد عبد الحسين شرف الدين[٢].

كما أنّه ترك مؤلّفات ورسائل عديدة في الفقه والأُصول والرجال[٣].

وقد مال الناس إلى تقليده بعد وفاة آية الله السيّد كاظم اليزدي في صيف عام ١٩١٩م. وبعد وفاة آية الله الشيخ محمّد تقي الشيرازي في آب ـ أغسطس ١٩٢٠م، أصبح المرجع الديني الأعلى لأتباع أهل البيت في العالم الإسلامي.

---

١. معارف الرجال ٢: ١٥٤.

٢. أُنظر ص ١٦٧، الفصل الأوّل من الباب الثالث، مبحث نشأة العلّامة شرف الدين.

٣. أعيان الشيعة ٨: ٣٩٢.

أدوار ما قبل الظهور

اتّصفت حياة الشيخ فتح الله الإصفهاني بالمشاركة الواسعة في مختلف القضايا الإسلاميّة السياسيّة منها والثقافيّة. وقد ذكرت بعض المصادر أنّه: «كان خطيباً كاتباً، ومن أصدقاء السيّد جمال الدين الأفغاني»[1].

وقرّض كتاب السيّد الشهرستاني المعروف بـ\الهيئة و\الإسلام الصادر في عام ١٩٠٩م بقوله: «إنّ هذا الكتاب صار همزة الوصل بين القديم والجديد». وهذا يعني أنّ نزوعاً نهضويّاً تجديديّاً كان يتملّكه ويقوده إلى ساحات التغيير الاجتماعي والسياسي، ويوجد فيه الحرص على المشاركة في مفردات عصره التي يمكننا إجمالها بالنقاط التالية:

١ ـ الحركة الدستوريّة الإيرانيّة: يذكر الباحث حسن الأسدي أنّ شيخ الشريعة الإصفهاني كان من العلماء المؤيّدين للحركة الدستوريّة الإيرانيّة وقيادة الشيخ محمّد كاظم الخراساني لها[2]. وقد ورد اسمه في قائمة المجتهدين الذين أفتى الشيخ الخراساني بالنيابة عنهم وبتوكيل منهم، حينما قدّم دعاة الحركة الدستوريّة استفتاءً إلى علماء النجف الأشرف يطلبون منهم فيه إعلان الحكم الشرعي في المسألة الدستوريّة[3].

٢ ـ تأسيس المدارس الحديثة: في مطلع القرن العشرين ظهرت مسألة المدارس الحديثة وأخذت تثير من حولها جدلاً واسع النطاق بين مؤيّد ورافض لها. وكان التأييد ينطلق من تأكيد الإسلام على العلم والتعلّم، بينما انطلق الرفض من إنكار الأفكار والمظاهر الغربيّة المتغلغلة في التعليم الحديث. وهو موقف كان يتعزّز سياسيّاً وعاطفيّاً

---

١. الأعلام للزركلي ٥: ١٣٥.

٢. ثورة النجف: ٧٠.

٣. الثورة العراقيّة الكبرى: ١٣٦.

من خلال الهجمة الأوروبيّة الشاملة على البلاد الإسلاميّة، التي حسّست الرأي العامّ الإسلامي آنذاك بأنّ حملة صليبيّة جديدة شُنّت على المسلمين.

وفي هذه المسألة وقف علماء المسلمين في النجف إلى الجانب المؤيّد في نفس الوقت الذي كانوا فيه زعماء الجهاد ضدّ الغرب والتغريب، وأيّدوا فكرة تأسيس المدارس الحديثة التي تُدرّس فيها إحدى اللغات الأجنبيّة. وقد أيّد شيخ الشريعة الإصفهاني هذه الفكرة بقوّة، وكان معه في هذا الاتّجاه الشيخ كاظم الخراساني، والسيّد محمّد سعيد الحبّوبي، والشيخ عبد الله المازندراني وعلى رأس الجميع المرجع الديني ـ آنذاك ـ الميرزا حسين خليل[1].

٣ ـ مع الجهاد في كلّ مكان: وإلى جانب النشاط السياسي والثقافي، شارك شيخ الشريعة الإصفهاني في مختلف قضايا الجهاد التي عاصرها، والتي ظهرت على ساحات ليبيا وشمال إيران والعراق، فقد شارك في الرسالة التي بعثها علماء النجف إلى صحف اسطنبول والتي كانت بياناً يعلن فيه هؤلاء الأعلام إلى العالم الإسلامي لزوم الجهاد من أجل تحرير ليبيا من الاحتلال الإيطالي، وشمال إيران من الاحتلال الروسي، حيث جاء الاحتلالان متزامنين في وقت واحد، هو عام ١٩١١م، وكان العلماء الموقّعون على هذه الرسالة هم الشيخ كاظم الخراساني، والشيخ عبد الله المازندراني، والسيّد إسماعيل الصدر، والشيخ محمّد حسين المازندراني، إضافة إلى شيخ الشريعة الإصفهاني.

وقد نصّ هؤلاء الأعلام في رسالتهم إلى الأُمّة بأنّهم:

مستعدّون بشكل كامل للتضحية بآخر قطرة دم في عروقنا من أجل حفظ الإسلام والوطن الإسلامي[2].

كما أصدر بياناً آخر بالتضامن مع الشيخ كاظم الخراساني والسيّد إسماعيل الصدر

١. الثورة العراقيّة الكبرى: ١٢٥ ـ ١٢٧.

٢. تاريخ العراق السياسي المعاصر ٢: ١٢١.

والشيخ عبد الله المازندراني، كان موجّهاً إلى مسلمي إيران والهند يستحثّونهم فيه على التصدّي للاحتلالين: الإيطالي في ليبيا، والروسي في شمال إيران، ومعتبرين ذلك جهاداً في سبيل الله كالجهاد في بدر وحنين[١].

وفي أواخر عام ١٩١٤م بدأ الإنجليز حملتهم لاحتلال العراق، فدعا السيّد مهدي الحيدري ـ عالم الدين البارز في الكاظميّة ـ علماء النجف إلى الاجتماع لبحث الأوضاع الخطيرة التي تمرّ بها البلاد، فكتب له بعضهم بأنّهم في طريقهم إلى الالتحاق بالسيّد الحبّوبي في الشعيبة. وتوجّه شيخ الشريعة الإصفهاني وعلماء آخرون إلى الكاظميّة، وذلك في ٧ محرّم ١٣٣٣هـ / ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٤م، ولدى وصولهم إلى الكاظميّة جرى لهم استقبال جماهيري حاشد.

ويبدو أنّ السيّد الحيدري قد استعجلته الأحداث، فسار مع موكب من المجاهدين متوجّهاً إلى جبهات القتال قبل وصول الشيخ الإصفهاني إلى الكاظميّة، حيث لبث فيها عدّة أيّام، ثمّ خرج منها قاصداً البصرة في ٢٠ من المحرّم ١٣٣٣هـ / ٩ كانون الأوّل ١٩١٤م حتّى وصل القرنة التي كانت تمثّل القلب في الجبهة الإسلاميّة. واستقرّ معه فيها عدد من العلماء المجاهدين، كالشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء، والسيّد أبي القاسم الكاشاني، والسيّد مهدي الحيدري الذي كان قد سبق الجميع إليها.

وقد بقي الشيخ الإصفهاني على كبر سنّه هناك فترة من الزمن شارك فيها بالأعمال الجهاديّة المختلفة، ومنها اشتراكه مع السيّد مصطفى الكاشاني، ومحمّد حسين المهدي وآخرين، في إبراق برقيّة إلى الشيخ خزعل «أمير المحمّرة آنذاك» يطلب منه فيها الاشتراك في الجهاد ضدّ الاحتلال الإنجليزي بالمال والنفس، ويبيّن له فيها أنّ هذا حكم ديني لا يختصّ بأتباع الدولة العثمانيّة ولا يُستثنى منه أتباع الدولة الإيرانيّة[٢].

---

١. الثورة العراقيّة الكبرى: ١١٨.
٢. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ٢٩٨.

وعاد إلى النجف الأشرف إثر نكسة الشعيبة وعدم تحقيق الجهاد أهدافه العسكريّة، حتّى بلغ الاحتلال الإنجليزي مدينة الكوت وصار يتطلّع للوصول إلى بغداد. وفي العام التالي وفي الفترة نفسها استأنف العلماء ـ بدعم من الحكومة العثمانيّة ـ حركة جهاديّة جديدة. وإذا كانت الحركة السابقة قد أخذت طابعاً إسلاميّاً عامّاً، فالحركة الجديدة ستأخذ هذا الطابع متضمّناً الخصوصيّة الشيعيّة. وذلك نظراً للزخم الخاصّ الذي لمسته الحكومة العثمانيّة من علماء النجف الأشرف.

وهكذا ظهرت فكرة إخراج العَلَم الحيدري تحت قبّة الإمام عليّ عليه السلام وجعله في مقدّمة موكب المجاهدين. وقد جرى تطبيقها فعلاً ضمن مراسيم رسميّة وشعبيّة خاصّة، طغت عليها موجة روحيّة مكثّفة فارتفعت الأصوات وعَمّ البكاء واقشعرّت الأبدان وكأنّ أمراً سماويّاً قد حصل.

وما إن أُخرج العَلَم من القبّة حتّى خرج في صحبته عدد غفير من المجاهدين يتقدّمهم شيخ الشريعة الإصفهاني والسيّد هبة الدين الشهرستاني والسيّد مصطفى الكاشاني، وتوجّهوا به نحو الكوفة، ومنها إلى بغداد ثمّ إلى الكوت، حيث المعركة المحتدمة بين المجاهدين والقوّات العثمانيّة من جهة، والاحتلال الإنجليزي من جهة ثانية.

واستقرّ الشيخ الإصفهاني هناك فترة، له ما للمجاهدين وعليه ما عليهم، وشارك أثناءها بإدارة الجهاد.

قبل زعامة الثورة

عاد آية الله الإصفهاني إلى النجف الأشرف بعدما عمّ الشعور باليأس من تحقيق انتصار حاسم على الإنجليز في ظلّ الظروف القائمة، فالاحتلال يعتمد على قوّات نظاميّة مدرّبة تدريباً جيّداً وأسلحة متقدّمة، فيما يعتمد الجهاد على المجاهدين، وهم قوّات عشائريّة غير نظاميّة وغير مدرّبة، وعلى الجيش العثماني الذي كانت تسوده الروح الانهزاميّة آنذاك.

ولدى عودته إلى النجف بدأ يمارس نشاطاً سياسيّاً باتّجاه تحقيق استقلال العراق. ويبدو من بعض المؤشرات أنّه كان يحلم بثورة عامّة ضدّ الإنجليز، وأنّه كان ينتظر الفرصة المؤاتية لذلك.

وعندما قامت ثورة النجف في أوائل عام ١٩١٨م، والتي لم يشارك الزعماء الدينيّون فيها وأخفقت بسرعة، كان على اتّصال بالقائمين عليها، إلّا أنّه لم يقف إلى جانبها لأنّه كان يعتقد بأنّ الفرصة المؤاتية لم تأت بعد، وقد فسّر فشلها السريع على هذا الأساس[١].

وفي أواخر عام ١٩١٨م أقدم على تأسيس جمعيّة إسلاميّة سياسيّة باسم «الهيئة العلميّة»، وبادر إلى الاتّصال بزعماء العشائر ضمن اتّجاه كان يهدف إلى توفير مستلزمات الثورة وتهيئة مقدّماتها[٢].

وكان في الوقت نفسه يدعم الجمعيّة الإسلاميّة السرّيّة التي أسّسها السيّد أبوالقاسم الكاشاني في الكاظميّة[٣].

وفي هذه الأثناء تبلورت زعامة المعارضة للإنجليز في شخص آية الله الشيخ محمّد تقي الشيرازي، فكان شيخ الشريعة الإصفهاني الزعيم الديني الذي يليه في المرتبة. وقد كتبا ووجّها معاً رسالتين مشتركتين إلى الرئيس الأمريكي ولسن:

كانت الأُولى في أوائل شباط ١٩١٩م، عن طريق السفارة الأمريكيّة في طهران، يطلبان منه فيها تأييد حقوق الشعب العراقي بالاستقلال والحرّيّة.

والثانية بعد أُسبوع من التاريخ المذكور. وقد أُرسلت إلى الرئيس الأمريكي مباشرةً بمناسبة انعقاد مؤتمر باريس، وطلبا منه فيها المطالب ذاتها في الرسالة السابقة[٤].

---

١. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ١٩٨.

٢. المصدر: ١٩٩.

٣. تاريخ العراق السياسي المعاصر ٢: ٢١٠.

٤. تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق: ٣٠٣ ـ ٣٠٥.

وفي العام التالي ـ وتحديداً في ١٠ رمضان ١٣٣٨هـ / ٢٩ أيّار ١٩٢٠م أصدر الشيخ محمّد تقي الشيرازي بياناً إلى الأُمّة، طلب منها فيه الإعلان عن المطالبة بحقوقها المشروعة في الاستقلال والحرّيّة، فبدأ الشعب ينتخب ممثّليه ويخوّلهم المطالبة أمام السلطات المحتلّة بالاستقلال الناجز غير المشروط. وكانت النجف من أوائل المدن التي أقدمت على ذلك. فبعد ثمانية أيام من التاريخ المذكور نظّم أهالي هذه المدينة مضبطة انتخبوا فيها ممثّليهم، ووقّع عليها «٧٨» عالماً ووجيهاً، وكان من بين الموقّعين آية الله شيخ الشريعة الإصفهاني[١].

وعندما تفاقمت الأحداث وبلغ التذمّر مداه الأخير ـ خصوصاً بعد اعتقال عدد من الزعماء ونفيهم إلى جزيرة «برمنجهام» حيث كان في مقدّمتهم الشيخ محمّد رضا نجل الشيخ محمّد تقي الشيرازي في ٢١ حزيران ١٩٢٠م ـ انفجرت الشرارة الأُولى للثورة في ٣٠ حزيران ١٩٢٠م.

وهنا أحسّ الإنجليز بخطورة الوضع، فبادر ويلسن قائم مقام الحاكم الملكي في العراق إلى إرسال برقيّة إلى شيخ الشريعة الإصفهاني، بعد يومين من انطلاق الثورة، يطلب منه فيها تهدئة الأوضاع.

ويبدو أنّ ويلسن قصد بذلك شقّ القيادة الإسلاميّة، فهو لم يخاطب الشيخ محمّد تقي الشيرازي، وتصوّر إمكان جرّ شيخ الشريعة إلى اتّجاه آخر غير الاتّجاه الذي سلكه الشيخ الشيرازي.

فردّ عليه شيخ الشريعة برسالة جوابيّة، بيّن له فيها أنّ إعادة الأُمور إلى حالتها السابقة يتطلّب إعادة المنفيّين واحترام الشعب وتحقيق مطالبه العادلة.

وفي الوقت نفسه بعث برسالة إلى الثوّار ورؤساء القبائل أطلعهم فيها على المراسلات الجارية بينه وبين قوّات الاحتلال، وأنّ الظرف يتطلّب الآن اختيار الطرق

---

١. ماضي النجف وحاضرها ١: ٣٥٩.

السلميّة في التعبير عن المطالب الوطنيّة إلى أن تتبيّن هذه المراسلات.

غير أنّ محاولته هذه لم تؤدّ إلى نتيجة، فقد ردّ قائم مقام الحاكم الملكي في اليوم التالي برسالة جوابيّة إلى شيخ الشريعة اعتذر فيها عن تحقيق مطالبه، ومنها إعادة المنفيّين «لأنّ أغلبهم معروفون بالفساد وسوء الأخلاق». فلمّا قرأ الشيخ الإصفهاني العبارة السابقة ساءته بشدّة فردّ عليه برسالة جديدة قال فيها:

إنّنا لم نشفع أبداً برجال معروفين بسوء الأخلاق والفساد، وإنّما تشفّعنا بالأحرار الأبرياء الذين سجنوا وأُبعدوا ... ثمّ إنّ الميرزا محمّد رضا نجل آية الله الشيرازي بين المنفيّين، فهل تستطيع الحكومة أن تقول إنّه معروف بالفساد.

وختم رسالته بالقول:

وعلى كلّ فإنّ معالجة الحالة الحاضرة بالإصلاح أمر غير مقدور[1].

وهكذا واصلت الثورة طريقها لا تلوي على شيء، وكانت بعض المدن قد تمّ تحريرها، وفي مقدّمتها كربلاء والنجف، وتمّ تشكيل هيئات إداريّة محلّيّة. فكانت الهيئة العلميّة التي شكّلها شيخ الشريعة في النجف الأشرف تلعب دوراً أساسيّاً على الصعيد المحلّي، وكان في عضويّتها خمسة عشر عضواً بارزاً في مقدّمتهم الشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ جواد الجزائري، والسيّد محمّد علي بحر العلوم.

وعندما تقلّد الشيخ الإصفهاني المرجعيّة والقيادة، أصبحت هذه الهيئة المجلس الثوري القيادي على مستوى البلاد ككلّ.

وفي هذه الأثناء بدأت الجماهير تتفهّم الدور المستقبلي للشيخ الإصفهاني وتتوجّه إليه، خاصّة بعد ظهور ضعف المزاج الصحّي والبدني على الشيخ محمّد تقي الشيرازي.

ففي منتصف شهر تمّوز ١٩٢٠م ـ وبينما كان القتال جارياً بين الطرفين ـ جرت مباحثات موضعيّة بين الثوّار وقوّات الاحتلال، واتّفق الطرفان على ضرورة حضور

---

١. ماضي النجف وحاضرها ١: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

مندوبين من علماء النجف، فجاء أحد زعماء الثوّار وهو رابح العطيّة إلى النجف وواصل سيره إلى دار الشيخ الإصفهاني، لإبلاغه بالأمر، فوافق الشيخ عليه واختار الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ جواد الجواهري ليكونا مندوبين عنه في المفاوضات، وقد جرت المفاوضات فعلاً إلّا أنّ الهدنة لم تتمّ.

وكمؤشّر آخر على فرز الجماهير للشيخ الإصفهاني قائداً مستقبليّاً للثورة، نجد بعض رؤساء القبائل يبعثون رسالة إلى سماحته بتاريخ ٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ / أواسط آب ١٩٢٠م، وذلك قبل وفاة الشيخ محمّد تقي الشيرازي بأيّام قلائل، يبيّنون له فيها وقائع المعركة ومجرياتها، وكان ردّه عليهم برسالة جوابيّة ضمنّنها توجيهاته وإرشاداته[١].

دور المرجعيّة والقيادة

في ١٨ آب ١٩٢٠م توفّي آية الله الشيخ محمّد تقي الشيرازي، فتولّى آية الله شيخ الشريعة الإصفهاني المرجعيّة وقيادة الثورة من بعده، ضمن حالة نادرة من حالات تحقّق الإجماع في مثل هذه المواطن.

ويروي المؤرّخ عبد الرزّاق الحسني أنّ اجتماعاً كبيراً عقد في الصحن العلوي الشريف بعد وفاة الشيخ الشيرازي حضره الشيخ الإصفهاني محمولاً لكبر سنّه وأُصعد على المنبر، ووقف إلى جانبه الشيخ جواد الجواهري والسيّد محمّد علي بحر العلوم والسيّد محمّد رضا الصافي، لينقلوا كلامه إلى الجماهير المحتشدة، فألقى الشيخ الإصفهاني خطاباً في الجماهير، وكان ممّا قاله: «إنّ الشيرازي انتقل إلى رحمة الله، ولكنّ فتواه بقتال المشركين باقية، فجاهدوا واجتهدوا في حفظ وطنكم العزيز وأخذ استقلالكم».

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٥: ٢٤٩.

وممّا قاله في خطابه أيضاً أنّه «ولعجزه عن الذهاب إلى ساحة القتال، فقد أناب عنه السيّد أبا الحسن الإصفهاني، ليقوم مقامه فيها».

ويذكر الباحث عبد الله فهد النفيسي أنّ شيخ الشريعة كان يقول باتّباع سياسة أشدّ عنفاً ضدّ الإنجليز، وقد أصدر بلاغاً وُزّع في جميع الألوية الشيعيّة في العراق، وأنّه أرسل رسلاً جدداً أحسن نشاطاً وأشدّ اندفاعاً وتحمّساً لتحرير الناصريّة، ووضع منطقة الفرات الأسفل تحت سيطرة النجف.

ويُذكر أنّ مبعوثه عندما وصل إلى الشطرة هبّ ألوف الناس لاستقباله والترحيب به. وفي تلك الليلة أطلق الأهالي أكثر من مئتي طلقة على العَلَم البريطاني المرفرف فوق بيت الضابط البريطاني توماس، الذي فرّ على متن طائرة كانت بانتظاره، متحدّين بذلك إرادة الزعيم القبلي الموالي للإنجليز، والذي أخذ على عاتقه توفير الحماية اللازمة للضابط المذكور، وهو الشيخ خيّون[1].

وكان شيخ الشريعة يتّصل بالثوّار ويتّصلون به عبر ممثّليه أو بصورة مباشرة، ويتابع آخر مجريات الأحداث الميدانيّة، والدليل على ذلك الرسالة التي بعثها بعض رؤساء القبائل إليه، بعد أسبوع من تولّيه المرجعيّة والقيادة، والتي أطلعوه فيها على بعض الانتصارات المتحقّقة في جبهات القتال[2].

وكما في مسألة المدفع الذي نصبه الثوّار على بعد ميلين من حامية الكوفة بهدف قصفها. وكان الناس يأملون منه أن يحقّق لهم نصراً سريعاً، فلمّا تأخّرت نتيجته، انتشرت الإشاعات حوله، واتُّهم القائمون عليه بالتجسّس. فبعث شيخ الشريعة الإصفهاني الشيخ جواد الجواهري والحاج محسن شلاش لدراسة الأمر وحسم المسألة[3].

---

١. دور الشيعة في تطوّر العراق السياسي الحديث: ١٢١، ١٤٤ ـ ١٤٥.

٢. تاريخ العراق السياسي المعاصر ٢: ٢٢٠.

٣. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٥: ٢٨٤ ـ ٢٨٥، اُنظر نصّ الرسالة.

وبعد شهر ونصف من تولّيه المرجعيّة والقيادة، انتهى عهد حكومة الاحتلال العسكريّة، وشاء الإنجليز إناطة حكم العراق بالسير برسي كوكس، بعنوان المندوب السامي المكلّف بإنشاء حكومة مؤقّتة انتقاليّة، وظيفتها التمهيد لتأسيس الدولة العراقيّة الحديثة.

وهنا ظهر دور الهيئة العلميّة بوصفها الهيئة القياديّة للثورة ـ وكانت بزعامة آية الله شيخ الشريعة الإصفهاني ـ في تعرية المحاولة البريطانيّة الجديدة والتصدّي لها. حيث أخذت تحذّر العراقيّين من السياسة الماكرة التي ينطوي عليها المندوب السامي، وطلبت منهم عدم التسرّع في إعطاء الوعود وقطع العهود، والتأنّي في اتّخاذ المواقف. وأعلن الناطق باسم الهيئة، وهو السيّد أبوالقاسم الكاشاني، أنّ الهيئة ترفض الصلح والهدنة مع الاحتلال[١].

وعندما جرى تنصيب السيّد أبو طبيخ في ٦ تشرين الأوّل ١٩٢٠م بمنصب متصرّف كربلاء من قبل الثوّار، الذين ارتأوا تشكيل حكومة وطنيّة مؤقّتة في كربلاء، بعث الشيخ الإصفهاني مندوباً عنه، وهو الشيخ أحمد الخراساني ليحضر حفل التنصيب الذي كان حاشداً بالجماهير والأعيان[٢].

قضيّة الصلح

إثر وفاة الشيخ محمّد تقي الشيرازي، بعث ويلسن نائب الحاكم الملكي إلى شيخ الشريعة الإصفهاني رسالة يهنّئه فيها بمناسبة تقلّده مقام المرجعيّة الدينيّة. وأعقبها برسالة أُخرى في أواخر آب ١٩٢٠م يرجع فيها المصائب التي حلّت بالعراق إلى آراء الشيخ محمّد تقي الشيرازي، ويبيّن فيها أنّ الحكومة الإنجليزيّة تعتمد دائماً على الرحمة والعدل والتسامح الديني، ويعرض فيها الصلح في سياق شرحه للقوّة

---

١. المصدر: ٣٢٨.

٢. دور الشيعة في تطوّر العراق السياسي الحديث: ١٦٢.

الإنجليزيّة الضاربة عسكريّاً واقتصاديّاً.

وصلت الرسالة إلى الشيخ الإصفهاني، كما وزّعت على أنحاء العراق بواسطة الطائرات، فاستدعى الشيخ حاشيته ومستشاريه للمداولة في الأمر، وعند المناقشة ظهر اتّجاهان:

الأوّل: يعود إلى الموافقة على الصلح نظراً للإمكانات القتاليّة البسيطة المتوافرة لدى الثوّار بالقياس إلى ما يمتلكه الإنجليز.

والثاني: يرفض الصلح ويفضّل إخفاق الثورة بسبب قلّة الإمكانات على الاستجابة لعرض الصلح، رافعاً شعار لا مفاوضة قبل الجلاء.

اشتدّ النقاش بين الفريقين حتّى مالت أخيراً كفّة الفريق الثاني بترجيح الشيخ الإصفهاني إليه، فإنّ غاية ما تنتهي إليه الثورة في ظلّ المعادلة العسكريّة القائمة آنذاك هي الإخفاق.

كما أنّ الموافقة على الصلح في ظلّ الاحتلال يعني الإخفاق أيضاً. فإذا كانت الثورة آيلة إلى الإخفاق في كلا الاحتمالين، فالإخفاق مع العزّ أفضل من الإخفاق مع الذلّ.

ومن الغريب أن يعتبر أحد المؤرّخين هذا الموقف بأنّه خطيئة، إذ كان على شيخ الشريعة «أن يغتنم الفرصة ويعتبر الكتاب طلباً صريحاً لمفاوضة الصلح وينقذ الثورة من هزيمة كانت مؤكّدة»[١]، وكأنّ الصلح في ظلّ الاحتلال سيكون نصراً!!

فيما يرى باحث آخر أنّ جواب شيخ الشريعة السلبي على طلب الحكومة بالمفاوضة، يقوم دليلاً على قلّة الخبرة السياسيّة لدى قيادة الثورة التي أُنيطت بعلماء الدين، رغم قلّة خبرتهم بأُمور السياسة ومراميها البعيدة[٢]، غافلاً عن أنّ

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٥: ٣٠١.

٢. الثورة العراقيّة الكبرى: ١٠٨.

الاختيار بين الصلح في ظلّ الاحتلال، وبين المضيّ في المقاومة رغم قلّة الإمكانات، أمر لا تقرّره الخبرة السياسيّة وإنّما النظرة المبدئيّة التي يتحلّى بها علماء الدين بدرجة مكثّفة.

على أنّ شيخ الشريعة الإصفهاني لم تكن تنقصه الخبرة السياسيّة، وقد رأينا أنّه زاول النشاط السياسي طيلة العقدين الأخيرين من حياته.

وهكذا اختارت الثورة طريق المقاومة مهما كانت النتائج، فكتب شيخ الشريعة الإصفهاني رسالة جوابيّة إلى ويلسن، استنكر فيها نسبة المصائب التي حلّت بالعراق إلى آراء الشيخ الشيرازي، وذكّره بالمواقف السلميّة التي اتّخذتها القيادة الإسلاميّة قبل قيام الثورة، والتي كانت تقابل من قبل الإنجليز بالاستهانة والقسوة.

ثمّ أشار إلى زعم ويلسن أنّ بريطانيا تقوم على الرحمة والعدل والتسامح الديني، مذكّراً إيّاه بقتل الرؤساء ونفيهم، وإحراق القرى والمزارع، ورمي النساء والأطفال بأنواع النيران، وهتك الأعراض، ومصادرة الأموال، وفرض الحصار على المدن بقصد إماتة أهلها جوعاً. وقصف المساجد، ومحاربة الشعائر الدينيّة. وأخيراً أوضح له قائلاً:

أمّا أمر المفاوضة فلم تتّضح لي غايته ولم أثق بحسن نهايته. وعلى كلٍّ فهو أمر دقيق يحتاج إلى جلاء وتأمّل[1].

وفي جبهات القتال، اتّفق رؤساء القبائل على تنظيم مضبطة يرفعونها إلى الدول الكبرى، يبيّنون فيها أنّ مسؤوليّة الأحداث تقع على عاتق الإنجليز، وأنّهم ـ أي الثوّار ـ لا يطلبون سوى الاستقلال والحرّيّة، ويطلبون من تلك الدول مساعدتهم في تحقيق ذلك.

---

١. ماضي النجف وحاضرها ١: ٣٧١، اُنظر نصّ الرسالتين.

وقد وقّع على هذه الرسالة الجوابية «٧٣» رئيساً من رؤساء القبائل. ثمّ أُرسلت إلى شيخ الشريعة الإصفهاني فكتب عليها:

هذه الورقة كتبت بإملاء زعماء العراق ومشايخ عشائره، وهم الموقّعون عليها بأسمائهم في ١ محرّم سنة ١٣٣٩[١].

إنسانيّة الإسلام

وطبقاً لما أمرت به الشريعة الإسلاميّة اهتمّ شيخ الشريعة الإصفهاني اهتماماً بالغاً بالأسرى الإنجليز لدى الثوّار، وعيّن لهم مسؤولاً عن العناية بهم هو الحاجّ محسن شلاش. ووجّه إليه كتاباً شديد اللهجة بيّن فيه:

للأسرى في الشريعة الإسلاميّة مكانة عالية، فالعناية بهم فرض والتوجّه إلى إكرامهم حتم، وإنّي أُوصيك ـ أطال الله حياتك ـ بتعهّدهم على الدوام، وتفقّد أحوال صحّتهم ومعاشهم ما داموا وديعة مقدّسة وأمانة محترمة، فيلزمك البذل لهم والتوفير عليهم، ويجب تصدّيك لتحقيق راحتهم أكثر من الأيّام الماضية، وإنّي قويّ الأمل بأنّك تنشط إلى هذا التكليف لأنّه شرعي مدني إنساني، فواظب على الإنفاق عليهم حتّى يتعيّن إلى نفقاتهم مورد خاصّ، فقد اعتمدتك وأوكلت ذلك إلى عهدتك وألزمتك به ولا عذر لك، ودم مؤيّداً[٢].

وإلى جانب ذلك أصدر فتوى شرعيّة تقضي باحتساب النفقة على الأسرى من الحقوق الشرعيّة التي يلزم المسلمون بدفعها إلى مراجع التقليد[٣].

وهذه المعاملة الحسنة كانت بدرجة من البروز والوضوح، بحيث لم يجد ويلسن نائب الحاكم الملكي في العراق بدّاً من الاعتراف بها فيما كتبه عن الثورة العراقيّة[٤].

---

١. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث ٥: ٣٢٥.

٢. المصدر: ٣١٣ ـ ٣١٤.

٣. موسوعة العتبات المقدّسة، قسم النجف ١: ٢٨٥.

٤. دور الشيعة في تطوّر العراق السياسي الحديث: ١٤١.

وفاته

واصل شيخ الشريعة الإصفهاني دوره في قيادة الثورة، حتّى توفّاه الله في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٣٩هـ / كانون الأوّل ١٩٢٠م وذلك إثر مرض مزمن كان قد أصابه في سفره إلى الجهاد وإبّان الاحتلال الإنجليزي، وكان يقعده في الفراش من حين إلى آخر، وأخيراً اشتدّ عليه وتوفّي به ﷺ[١].

١. أعيان الشيعة ٨: ٣٩٢. أُنظر من أعلام الفكر والقيادة والمرجعيّة: ١٤١ـ١٥٨.

الباب الثاني

من هو شرف الدين؟

الفصل الأوّل : ملامح من سيرة الإمام شرف الدين وفضائله

الفصل الثاني : مراحل حياة الإمام شرف الدين

الفصل الثالث : الإمام شرف الدين والأُصول الكريمة

الفصل الأوّل

ملامح من سيرة الإمام شرف الدين وفضائله

أجمع لبنان والعالم العربي ـ بل العالم الإسلامي ـ إجماعاً منقطع النظير على تقدير المجتهد المجدّد السيّد عبد الحسين شرف الدين، وإنّه ليكبر شخصيّة هذا المجتهد الذي جعل نفسه وقفاً في سبيل المصلحة الإسلاميّة العامّة. هذه الشخصيّة المحبوبة التي ملأت بعظمتها وشهرتها السمع والبصر يوم كانت الحياة زاهرة بوجودها النافع.

وقد تيسّر لهذا الرجل إجماع الطوائف والمذاهب على محبّته واحترامه. وحسبنا أن نستعرض أسماء مؤبّنيه ودارسيه وحاسبي مناقبه ومزاياه، حتّى نؤمن بأنّ في هذا الرجل العظيم صفات ألّفت حوله قارباً من مختلف الطوائف، وجمعت على محبّته النفوس، صفات يندر أن تجتمع في رجل واحد... كلّ واحدة منها تكفي لتخلق رجلاً عظيماً، فكيف هي إذا اجتمعت كلّها في شخصٍ واحد؟[1]

إنّ فقيدنا العظيم بسيرته المثلى التي اضطلع بها طوال حياته المديدة لم يكن إلّا انعكاساً لظلال أُولئك الأئمّة العظماء في جهادهم وجهودهم، فقد أخذ على نفسه ما أخذه أُولئك العظماء على أنفسهم من النهوض بأعباء الدعوة لهذا الدين الحنيف... فكان لقلمه ميدان، ولفمه ميدان، وليده ميدان. وكان في كلّ هذه الميادين فارسها المجلّى وبطلها المغوار[2].

---

١. الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٢٦، من كلمة لدولة الحاجّ حسين العويني.

٢. المصدر: ١٩، الشيخ راضي آل ياسين.

إنّه قمّة من القمم المتتابعة على مرّ التاريخ، تحوي خصائص السهول وتقودها، لأنّها ترفعها وتشمخ بها[١].

وإذا شئنا أن ننصفه ونضعه في إطاره التاريخي استطعنا أن نسلكه في سلسلة الأئمّة والقادة من القمم البشريّة عبر العصور أو نعدّه أحد تلك المجموعة النيّرة التي برزت وتألّقت وتعاقبت على الأيّام حبالاً إنسانيّة حقيقيّة، تتعالى وتشرح متوالية منذ بداية الدعوة حتّى يومنا هذا[٢].

وإذا كان الناس يتوزّعون إلى فئتين متعاكستين في الموقف من الحياة، فئة تنفعل به وتسير كما يفرضه سير الأحداث، وترى أنّ هذه الحياة المشوبة بالظلم والظلمات لا يصلحها مصلح ولا يقوّم اعوجاجها نبيّ ولا صاحب دعوة. وفئة تؤمن بالحقّ وبتحقّقه صريحاً لا مزيجاً، وتدين بتطوّره في لبّه وقشره، في شكله ومحتواه... فإنّ علّامتنا كان بطلاً على هذا الغرار. كان نضاله في سبيل تحقّق الحقّ المحض ومحاربة الواقع الفاسد الذي شاء عكس ذلك. فإنّه قد كان خادماً للحقّ من أجل الحقّ ولذاته، وكان له جهاد واجتهاد. جهاد ينبعث من اجتهاد. اجتهاد من يفكّر ويكتب ويتأمّل ويناقش ثمّ يؤمن فيعمل عن وعي وهدي وصدق. وهو الاجتهاد الأرفع الذي ينعكس في الجهاد الأكبر وبه يتجلّى سموّ القدوة في التوجّه إلى الحقّ وصلابة الرأي.

ثمّ إنّ للسيّد عبد الحسين في الحياة مناحي وميادين لا أراني موفياً عليها، وأنا في هذا السبيل الضيّق القصير، ويوشك أن يكون الأمر يسيراً لو أنّ المترجَم له غير هذا الرجل، ويهون الأمر لو كان من هؤلاء الرجال المحدودة حياتهم وأعمالهم، أمّا رجل كهذا الرجل الرحب العريض فمن الصعب جدّاً أن يتحمّل كاتب عبء الحديث عنه والتوفّر عليه، لأنّه يشعر حين يقف إليه أنّه يقف إلى جبل ينبض بألوان من الحياة، متدفّقة من كلّ نواحيه وجوانبه، فلا يكاد يردّ كلّ لون إلى مصدره إلّا ببحثٍ عليه

---

١. المصدر: ٢٢، كلمة سماحة الشيخ محمّد علايا.

٢. المصدر: ٢٥، كمال بك جنبلاط.

مسؤوليّات من المنطق والعلم، قد ينوء بها عاتق المؤرّخ الأمين.

قال العلّامة الشيخ محمّد جواد مغنية:

إنّ الدين أداة خير وتوجيه، وداعية حبّ وصلاح. إنّ الدين لا يوجد القوّة ولكنّه يوجّه القوّة الموجودة إلى الخير لا إلى الشرّ. فالعلم قوّة والأدب قوّة، والشجاعة قوّة والجرأة قوّة، والجاه قوّة والذكاء قوّة، والدين هو الرائد الأمين الموجّه لهذه القوى.

وقد تجمّعت هذه القوى بكاملها في السيّد الكبير، فوهبها كلّها لله وبفقده خسرت الإنسانيّة هذه الكنوز، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون[١].

وقال أيضاً:

هذه بعض صفاته لا كلّها، وخلاصتها أنّه أعطى الله بعض حقّه من طاعته وعبادته، وأعطى العلم حقّه في نشره وإذاعته، وأعطى الدين حقّه في إعلاء كلمته، وأعطى المجتمع حقّه من جهاده وتضحيته، وأعطى الدولة حقّها من إرشاده ونصيحته، وبهذه الصفات سيبقى السيّد حيّاً يعيش مع المجاهدين[٢].

وكتب عن ملامح شخصيّته دولة الحاج حسين العويني:

أربع صفات كلّ واحدة منها تكفي لتخلق رجلاً عظيماً، فكيف هي إذا اجتمعت كلّها في شخص واحد، هو علّامتنا الأكبر؟

الصفة الأُولى: هي العلم الصحيح، العلم المبني على التنقيب والتحقيق والتدقيق والفهم العميق لروح الشرائع قبل ألفاظها. هذا العلم يمتزج عند علّامتنا بالتواضع، فلا يزهو ولا يشمخ ولا يعتدّ بنفسه، ولكن يعيش في ديمقراطيّة العلماء، وزهد العلماء، ومشاركتهم للجماهير في أفراحهم وأتراحهم.

الصفة الثانية: الجرأة. والثالثة: العزّة... والرابعة: أنّه كان خيّراً رحيماً متسامحاً يدعو إلى الأُلفة والمحبّة بين الناس ولا سيّما بين مختلف الطوائف والمذاهب[٣].

---

١. المصدر: ٤٣.

٢. المصدر: ٤٢.

٣. المصدر: ٢٦ ـ ٢٧، بتصرّف وتلخيص.

ويحسن بنا أن نقف عند جملة من كمالاته ومكارم أخلاقه ومظاهر شخصيّته التي صاغت منه عالماً عاملاً متكاملاً، أو بالأحرى تلك الصفات المُثلى التي جعلته مترامي الأطراف والأبعاد، عميق الغور، لا يكاد ينحصر في بُعد واحد وجانب منفرد، بل لعلّه قد جمع من صفات الأضداد ما لا يكاد يجتمع إلّا في الأوحدي من بني آدم عليه السلام.

كما يحسن بنا أن نتعرّف على هذه الصفات التي اتّصفت بها شخصيّته من خلال مَن عاصره وعايشه وعاين ذلك عن كثب ولمس منه ما لمس من المكرمات وعظيم الصفات.

جهاده

قال السيّد الحجّة العلّامة الكبير محمّد صادق الصدر ـ رئيس مجلس التمييز الجعفري الشرعي في العراق ـ وهو من أقرب أرحامه وبني عمومته الذين عاشروه وعرفوه عن كثب، ولم يبالغوا بالإطراء والمدح والثناء لأحد إلّا وهو أهل لذلك، بل لقد أقرّوا بالعجز عن الإلمام بفضائل صفاته وكمالاته التي لا تنحصر في الجهاد العلمي، بل تعدّته إلى الجهاد العملي بمستوييه الأكبر والأصغر وهو الجهاد الشامل الذي دعا إليه القرآن الكريم حين قال: ﴿وجاهدوا في الله حقّ جهاده﴾[١].

قال قدس سره:

لقد طوى الزمان هذه الصفحة المشرقة، ولكن نشرها الفوّاح لا يزال يذكو في علمها الغزير، وآثارها الباقية، وأعمالها البارّة الصالحة، وخدماتها الجليلة في سبيل الله والدين والوطن.

لقد ناضل وجاهد سيّدنا ما وسعته الظروف طوال حياته، يدعو المسلمين إلى «وحدة» الصفّ، وجمع الكلمة، والبعد عن العصبيّة الذميمة في خطبه البليغة، ومجالسه الحاشدة، ومؤلّفاته القيّمة الخالدة ... .

لقد فكّر رضوان الله عليه في وحدة الكلمة يوم لم يكن يفكّر بها إلّا القليل من أعلام ذلك

---

١. الحجّ (٢٢): ٧٨.

العصر، فعرض يومئذ في فصوله إلى المشاكل التي تقف حجر عثرة في سبيل اتّحاد الأمّة، فأزاح الستار عنها ببيان ساطع، وبرهان قاطع ممّا لم يبقِ للسيّد مجالاً للشكّ والريب فيها[1].

ولم يكتف السيّد في جهاده بالدعوة إلى الوحدة بقلمه وكتاباته بل باشرها بلسانه ويده، وتمثّل مواقفه الجهاديّة طيلة حياته روحه المجاهدة في سبيل الحقّ وفي مختلف الظروف، مراعياً الحكمة والحزم في كلّ موقف، معتقداً بما يقول ويفعل لتحقيق أهداف الرسالة التي من أجلها كان يحيا ويموت.

وممّا قاله العلّامة السيّد محمّد صادق الصدر في هذا الصدد تعقيباً على كلامه السابق:

وبعد سنتين من نشر كتابه الجليل سافر إلى مصر [١٣٢٩ هـ] يبشّر بالدعوة إلى الوحدة الإسلاميّة العامّة بخطاباته البليغة وكلماته المأثورة، وقد أنعشت آماله تلك المباحثات المصريّة، والمراجعات الأزهريّة التي جرت بينه وبين المرحوم علّامة مصر الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر، وقد حلّت تلك الاجتماعات الأخويّة كثيراً من المشاكل والمسائل.

ولهذا الجهاد الإسلامي المستمرّ نرى الطوائف المسلمة قد أجمعت على حبّه وتقديره، والنظر إليه بإعجاب وإكبار.

وها هو اسمه الكريم يتردّد على كلّ لسان بالشكر، وهذه كتبه الخالدة في كلّ بيت يقرأها الناس، ويتسابقون إلى اقتنائها وإهدائها إلى كلّ من يتطلّع للثقافة الإسلاميّة العالية.

وكان الجهاد والاتّحاد لا ينفكّ أحدهما عن الآخر في حياة السيّد العلّامة شرف الدين وفي مشاريعه الخاصّة بمنطقته أو العامّة.

وسوف نقف بالتفصيل على نضاله وجهاده ضدّ الاستبداد التركي العثماني وضدّ الاستعمار الفرنسي، لتحرير العباد والبلاد من جور السلاطين واستثمار المستعمرين

---

١. اُنظر النصّ والاجتهاد: ٢٨، مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.

الصليبيّين، الذين خطّطوا ثمّ دخلوا بكلّ قواهم العسكريّة لاحتلال العـالم الإسـلامي واستلاب خيراته، وتسخير المسلمين لتحقيق مآربهم وتسويق ثقافتهم العلمانيّة التي تنتهي إلى حرمان المسلمين من أبسط حقوقهم، وجرّهم باختيارهم إلى التبعيّة العلميّة والصناعيّة والثقافيّة، وبالتالي السير وراء الغرب الكافر الذي تسيّره الصهيونيّة العالميّة بشعارات خادعة تحمل أوسمة التحرير وحـقوق الإنسـان والتـمدّن والتـطبيع عـلى حضارة الغرب الخاوية.

قال العلّامة الشيخ محمّد جواد مغنية:

ولم يكتفِ بالدعاء والبكاء، كان يرسل صيحاته الوطنيّة المقدّسة بين الحين والحين في وجوه الطغاة والمستعمرين، أرسلها في عهد الأتراك والفرنسيّين، وأُبعد وشُرّد ونهبت داره وأُحرقت، وأرسلها من أجل فلسطين، ومن أجل الجزائر، ومن أجل بـورسعيد، وكانت الملايين تجد أهدافها وأمانيها في تلك الصرخات المدوّية[١].

وقال الأُستاذ زكي بيضون عن جهاده أيضاً:

لم يخل يوماً من محاربة الأهواء والبدع، ليعيد للإسلام السمح معانيه الأصيلة الممتدّة في جذور الحياة. وكانت عدّته في ذلك أخلاقه النبويّة وشجاعته العـلويّة، ومـعرفته بدقائق ما يحدث للنفوس، ويعرض لها من آفات وعلل[٢].

وكتب آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين في تأبينه:

وفي وسع الباحث أن يسأل عنه بلاد لبنان وأبناءها وأرضها وسماءها؛ لتنبّئه عمّا كان له في تلك البلاد من جهود جبّارة وجهاد مستمرّ في سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة الحـقّ وإنكار الباطل، غير هيّاب من سلطة ولا متملّق لدى سلطان. ولعلّ صرخاته الأخيرة التي أطلقها من عقيرته في سبيل الإصلاح لا يزال صداها مـدوّياً فـي آفـاق الشـرق الأوسط حتّى اليوم[٣].

---

١. الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٤١.

٢. المصدر: ٤٦ ـ ٤٧.

٣. المصدر: ٢٠ ـ ٢١.

كرمه

كان السيّد ﷺ مثلاً أعلى في كرم الخلق، وكرم اليد.

فخلقه خلق العلوي الكريم، يحترم الكبير، ويعطف على الصغير، ويحنو على الفقير، ويغضي عن المسيء، ويعفو عن المقصّر.

وأمّا كرم اليد فكان يضرب المثل به طوال حياته الطافحة بجلائل الأعمال.

وقد كانت هذه الصفة البارزة واضحة جليّة يعرفها فيه أهله وأصدقاؤه ومحبّوه منذ شبابه، يوم كان طالب علم في النجف الأشرف عاصمة العلم والدين، وأمثلة ذلك كثيرة نكتفي منها بما يلي:

١. رأى أحد طلّاب العلم في النجف رثّ الملابس بحالة لا تليق بطالب له كرامته ـ وكان في الصحن العلوي المطهّر ـ فخلع ملابسه وقدّمها للطالب ثمّ رجع إلى البيت ملتفّاً بعباءته وكان يومئذٍ في الشهر الأوّل من زواجه.

٢. يدخل السيّد الدار فيجد أهله قد أعدّوا الطعام الجيّد في بعض المناسبات، فيأخذه بكامله إلى جاره مؤثراً له على نفسه.

ويقول المطّلعون إنّ السيّدة والدته كانت تستقبل ذلك منه بالرضى، والدعاء له بالتوفيق.

٣. كانت موارد السيّد في النجف الأشرف ترده من الحجّة أبيه ومن آية الله جدّه السيّد الهادي الصدر؛ لذلك كانت تفيض عن حاجته، فيصرف الباقي على بعض إخوانه من طلّاب العلم.

٤. يحدّث المرحوم الشيخ عمران حديدة النجفي أنّه كان في مكّة المكرّمة في السنة التي حجّ بها السيّد ﷺ فشكى إليه بحاجته إلى «جبّة» فأشار السيّد إلى جبّته وكانت معلّقة، وقال له خذها بما فيها، وكان في جيبها عشر ليرات عثمانيّة.

٥. وحدّث الشيخ عمران أيضاً فقال:

كان للسيّد خيمة كبيرة يقيم فيها مجالس العزاء، وكان كبار الحجّاج من العلماء والطبقة الراقية تقصد مجلسه، فرأى بعض تجّار أهل مسقط بذل السيّد الوافر، فقدّموا له مائة ليرة عثمانيّة فوزّعها السيّد في الحال على المحتاجين والأُمور العامّة، فقدّموا في اليوم التالي مائة ثانية وقالوا للسيّد: إنّها ليست من الحقوق الشرعيّة وإنّما هي هديّة ويلزمون صرفها على أُمور السيّد الخاصّة، فقبلها منهم وصرفت على ما يخصّ المجلس الذي كان منتدى الحجّاج من كلّ مكان[1].

وقال العلّامة الشيخ مرتضى آل ياسين عن مظاهر جوده وكرمه في جبل عامل ما نصّه:

فبيته في ذرى عاملة، مطنب مضروب للقِرى والضيفان، تزدحم فيه الوفود، وتهدى إليه الحشود إثر الحشود، ويصدر عنه المكروب بالرفد المحمود، وهو قائم في تيّار الموجتين المتعاكستين بالورود والصدر هشّاشاً، طلق المحيّا، لا يشغله تشييع الصادر عن استقبال الوارد، ولا يلهيه حقّ القائم عن حقوق القاعد، ولكنّه يجمع الحقوق جميعاً، ويوفّق بينها فيوزّعها عادلةً متناسبة.

ولأريحته الكريمة جوانب أنفع من هذا الجانب، وأبعد أثراً، فهو مفزع يأوي إليه المحتاجون والمكروبون وملجأ يلوذون به في الملمّات، يستدفعون به المكاره، حين تضيق بها صدور الناس وتشتدّ بهم آلامها، فإذا طفت بيته رأيت ألوان الغايات، تدفع بألوان من المحتاجين إليه، المعولين عليه في مختلف أحوالهم، وأوضاعهم الخاصّة والعامّة، ممّا يتّصل بدينهم أو دنياهم، وتراه قائماً بين هؤلاء وهؤلاء، يجودهم بنفحاته العلويّة، ويغدق عليهم من أريحته الهاشميّة، ويبذل لهم من روحه وراحته ما يملأ به نفوسهم مرحاً وسروراً، ثمّ لا يسألهم على ذلك جزاءً ولا شكوراً.

وها هو لا يزال ـ مدّ الله في حياته ـ يملي على تاريخه من أحداثه الجسام، ومآتيه الغرقى في خدمة الله والمؤمنين والوطنيّة الصحيحة، ما تضيق عنه هذه العجالة[2].

---

١. أُنظر مقدّمة النصّ والاجتهاد: ٤٧ ـ ٤٨.

٢. أُنظر مقدّمة المراجعات: ٤٨ ـ ٤٩.

علوّ نفسه

لقد اعترف له بهذه الصفة المُثلى، التي صاغت منه شخصيّة متميّزة ومحبوبة لدى كلّ من يتعرّف إليها ويعاشرها، كثير من معاصريه.

قال الحجّة السيّد محمّد صادق الصدر ﷺ:

كانت حياته كلّها تدلّ دلالة قويّة على علوّ نفسه وعظيم شخصيّته، ويحضرني حادثتين تدلّان بوضوح على تأصّل هذه الصفة الفذّة في نفسه العلويّة العالية.

١. كان السيّد في دمشق على عهد الملك فيصل الأوّل حيث قد شرّد عن وطنه، وحكم عليه بالمؤبّد من قبل الفرنسيّين.

وكان من جملة من شملهم الحكم زعيم جبل عامل الكبير المرحوم كامل بك الأسعد رجل الوطنيّة والإخلاص.

وبالنظر لابتعاده عن بلده فقد رزح تحت أزمة اقتصاديّة شديدة اضطرّته أن يبعث برسوله إلى «بنت جبيل» يستدين من أحد المثرين ثلاثمائة ليرة عثمانيّة ليسدّ بها بعض حاجاته، فأرسل له ثلاثين ليرة واعتذر عن الباقي، فاستشاط الزعيم غضباً وأرجع المبلغ مع الرسول حالاً.

وقد سمع السيّد هذه الحادثة فمضى لزيارة الزعيم الكريم، وقدّم له ثلاثمائة ليرة عثمانيّة فامتنع أشدّ الامتناع؛ لأنّه يرى السيّد في أزمة لا تقلّ عن أزمته، فأخبره السيّد بأنّ لديه ما يكفيه في الوقت الحاضر فتقبّل المبلغ شاكراً.

ولمّا رجع الزعيمان إلى بلادهما وعادت المياه إلى مجاريها زار الزعيمُ الأسعد السيّدَ في داره ومعه المبلغ فقدّمه إلى السيّد شاكراً، فأخبره السيّد باستحالة قبوله لأنّهما نفس واحدة لا تتجزّأ. وقد صرفا المبلغ على نفسيهما المتّحدتين، فرجع الزعيم إلى بلده بعد اليأس من قبول السيّد.

وكرّر الزعيم الأسعد الزيارة مرّة ثانية ومعه وقفيّة تنطق بوقف عقار من أملاكه على ولد السيّد المرحوم العلّامة السيّد محمّد علي شرف الدين أكبر أولاد السيّد، وكان يومئذٍ في مهجره النجف الأشرف، ويظنّ المرحوم الأسعد أنّ الأمر قد أُبرم بصورة محكمة

لا يمكن نقضه ؛ لأنّه وقف والوقف لا يمكن تغييره أو الرجوع عنه ، فابتسم السيّد وقال : إنّ الوقف لا يكون لازماً إلّا بشروط ومن شروطه القبض والإقباض ، ولم يحصل الإقباض منك ولا القبض من ولدي السيّد محمّد علي ، فلا يكون الوقف لازماً . وهكذا رجع الزعيم إلى « عرينه » المرّة الثانية بعد أن لمس الجدّ من السيّد الأكبر .

٢. وأمّا الحادثة الثانية فهي أنّ السيّد قصد الملك فيصل الأوّل في دمشق يوم كان ملكاً عليها على رأس وفد من العلماء ، فلمّا انتهت الزيارة وأراد العودة إلى جبل عامل أرسل الملك للسيّد مع فخامة السيّد الجابري مبلغ خمسة آلاف ليرة عثمانيّة هديّة للسيّد ، فتقبّلها السيّد شاكراً ثمّ أرجعها للجابري لتقدّم باسم السيّد هديّة إلى الجيش العربي في سورية ، ثمّ قال : « تمنّيت أن أكون درهماً لأضع نفسي في صندوق الجيش العربي لأُدافع عن الإسلام والعرب » .

وكان فخامة الأُستاذ الجابري يذكر هذه الحادثة كلّما ذكر السيّد بإعجاب وإكبار ، وينقلها في كلّ مناسبة .

وهاتان الحادثتان تدلّان معاً على كرم يده وعلوّ نفسه في وقت واحد .

وكانت حياته في جميع الأدوار تعطي دروساً للأُمّة في العلم ، والأدب ، والإخلاص ، وكرم اليد والطباع [١] .

علمه واجتهاده

وكتب عن هذا الجانب من شخصيّته آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين ما نصّه :

... أُسّس وقام بناؤه في النجف الأشرف ، فكان إماماً في اللغة ، وعلوم العربيّة وآدابها ، والمنطق ، والتاريخ ، والحديث ، والتفسير ، والرجال ، والرواية ، والأنساب ، والفقه ، والأُصول ، والكلام ، وما يتّصل بهذه العلوم من روافد .

هو بالعلوم الإسلاميّة وما إليها فارس معلَم لا يجارى في حلباتها ، ولا يلحق في مضاميرها .

---

١. أُنظر مقدّمة النصّ والاجتهاد : ٤٩ ـ ٥٠ .

ويمتاز إلى ذلك بأدبه القويّ الحافل وبما يتّصل به من الأسرار النفسيّة والاجتماعيّة والنقد. له في ذلك سليقة ملهمة وملكة قويّة ترافقان حديثه وقلمه، محاضرةً وخطابةً وتأليفاً وكتابةً.

إنّه على الإجمال أفضل صورةٍ للعالِم الإسلامي الضليع الجامع [1].

ويكفيك شاهداً آخر على كلّ ما أشار إليه الشيخ مرتضى آل ياسين ذخائره الخالدة من المراجعات إلى الفصول المهمّة و النصّ والاجتهاد وغيرها بما تضمّنته من علم قويم وأدب رفيع وحجج قويّة ومعارف متنوّعة وثقافة عالية.

كما تشير عناوين نفائسه البائدة ـ التي ستطّلع على أسمائها ـ إلى سعة ثقافته وتنوّع اهتماماته العلميّة وإبداعاته الفكريّة.

قال الشيخ آل ياسين المطّلع على ما كتبه من كتب:

ومؤلّفاته كلّها تمتاز بدقّة الملاحظة، وسعة التتبّع، وشمول الاستقصاء، وصحّة الاستنتاج، وشدّة الصقل، وأمانة النقل، وترابط الأجزاء، في خصالٍ تُتعِب الناقد وتحفِظ [2] الحاقد [3].

وكتب عنه السيّد محمّد صادق الصدر:

وفي سنوات معدودة أصبح السيّد يشار إليه بالبنان في الاجتهاد والدقّة وقوّة الحجّة في المناظرة والمذاكرة، واشتهر في تقرير الدروس الفقهيّة والأُصوليّة من حيث العمق وحضور الذهن وسرعة الاستنباط وحلّ مشكلات المسائل بأقرب طريق موصل إلى الهدف المقصود [4].

وما بلغ سنّه الثانية والثلاثين حتّى أصبح من المجتهدين المرموقين، فأصبح معروفاً في الأوساط العلميّة بصورة قلّما حظي بمثلها عالم قبله في مثل سنّه.

---

١. أُنظر مقدّمة المراجعات: ٦١.

٢. أي تغضبه.

٣. المصدر: ٦١.

٤. أُنظر مقدّمة النصّ والاجتهاد: ٣٢.

وكان اجتهاده المطلق من المسلّمات لدى كافّة الطبقات من كلّ مَن زامله أو تعرّف عليه.

ولم يكن على عهده في النجف الأشرف من أعلام البلاد العامليّة من يماثله في فضله وشهرته وإجماع الناس على تقديره وحبّه.

وقد رجع السيّد إلى عاملة واجتهاده المطلق مسلّم لدى المراجع الكبيرة التي أجازته بالاجتهاد.

وكان ﷺ بالإضافة إلى علمه الغزير شاعراً من الطراز الأوّل، تقرأ فيه الرقّة والجزالة والمتانة مع دقّة المعنى وفصاحة في اللفظ وروعة في الأُسلوب [١].

وقال آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين عن جانب آخر من ثقافته:

على أنّه لم يكتفِ من مدرسته بتلقّي الدروس واكتناز المعارف فقط، بل استفاد من ملابسات الحياة العامّة التي كانت تزدحم على أبواب المراجع من أساتذته، وانتفع من الأحداث المؤتلفة والحوادث المختلفة التي كانت تولّدها ظروف تلك الحياة، فكان يضع لما اختلف منها ولما ائتلف حساباً ويستخرج منه نفعاً ويقدّر له قيمة وينظر إليه نظرة اعتبار؛ ليجمع بين العلم والعمل وبين النظريّات والتطبيق [٢].

وكان لمنابره البليغة ولأساليب إرشاداته البارعة أكبر الأثر في تحقيق إصلاحه المنشود. ولا غرو فإنّ للسيّد مقاماً خطابيّاً يغبطه عليه خطباء العرب، ويعتزّ به الدين والعلم والأدب.

وخطابته ككتابته تستمدّ معانيها وقوّتها وغزارتها من ثقافته كلّها.

ثمّ أعظِم به محدّثاً إذ تشاجن الحديث وتشقّق وانساب على سفينه يمخر العباب [٣].

---

١. أُنظر المصدر السابق: ٣٤. وعلّق السيّد حسين السيّد محمّد علي شرف الدين على هذه الشاعريّة بأنّ السيّد لم يكن شاعراً ولم يحاول نظم الشعر، وكلّ ما كان بعمره بيت من الشعر موجّه لأبيه فلم يرضَ عنه، فلم يعد المحاولة.

٢. أُنظر مقدّمة المراجعات: ٤٥ ـ ٤٦.

٣. المصدر: ٤٧ ـ ٤٨.

غير أنّ الشيخ مرتضى آل ياسين قد صوّر لنا بعد ذلك شخصيّة السيّد شرف الدين العلميّة بتصوير دقيق ورائع حين يقارنه بغيره من العلماء بقوله:

ترتسم على كلّ أُفق من آفاق هذا العالم الإسلامي أسماء معدودة لرجال معدودين، امتازوا بمواهب وعبقريّات رفعتهم إلى الأوج الأعلى من آفاقهم، فإذا أسماؤهم كالنجوم اللامعة تتلألأ في كبد السماء.

أمّا الذين ترتسم أسماؤهم في كلّ أُفق من تلك الآفاق فقليل، وقليل هم. وليسوا إلّا أُولئك الذين علت بهم الطبيعة فكان لهم من نبوغهم النادر ما يجعلهم أفذاذاً في دنيا الإسلام كلّها.

ومن هؤلاء الأفذاذ سيّدنا المؤلّف ـ أطال الله عمره [1] ـ فقد شاءت الإرادة العليا أن تبارك علمه وقلمه فتخرج للناس نتاجاً من أفضل النتاج.

وقد لا أكون مبالغاً حين أستبيح لقلمي أن يسجّل: إنّ السيّد المؤلّف يتقدّم بما أنتج إلى الطليعة من علماء الشيعة الذين كرّسوا حياتهم طوال أعمارهم لخدمة الدين والمذهب. وبهذا استحقّ أن يتصدّر مجلس الخاصّة في العالم الإسلامي اليوم [2].

وهنا تستحقّ هذه الكلمة لآية الله الشيخ مرتضى آل ياسين أن نتأمّلها بالتحليل والتدقيق حين نراه وهو العالم بما يقول، حين يتكلّم عن عالِم يضاهيه في العلم والاجتهاد أن يكتب عنه بشكل يتفرّد به حين يعتبر إنتاجه إنتاجاً إلى الطليعة من العلماء، وليس إنتاجاً إلى عامّة العلماء أو إلى عامّة المتعلّمين فضلاً عن عامّة الناس. وكذلك حين يقارن إنتاجه بإنتاج الطليعة من العلماء طوال حياتهم ويعتبره بعد ذلك متصدّراً لمجلس الخاصّة من العلماء في العالم الإسلامي، الذين أصبحوا أفذاذاً في دنيا الإسلام كلّها.

---

١. كانت هذه المقدّمة قد كتبت في أيّام حياة السيّد شرف الدين.

٢. أُنظر مقدّمة المراجعات: ٥٤.

تبحّره في القرآن الكريم

قال العلّامة محمّد جواد مغنية:

وما عرفت أحداً أقدر منه على استخراج حقائق القرآن الكريم ودقائقه ، كان يخترق الحجب ببصيرته النافذة وينتزع من آياته معاني الإنسانيّة الرفيعة ويركّزها في الأفهام ببيان أبلغ من كلّ بيان [١].

تبحّره في الحديث

قال السيّد محمّد صادق الصدر:

لقد عني العلماء في كافّة العصور بالأحاديث الواردة عن النبيّ العظيم ﷺ فعرفوا الأصيل منها والدخيل عليها ، والرواة الثقات والرواة المجروحين الذين لا يمكن الاعتماد على أحاديثهم ، لا فرق في ذلك بين الشيعة منهم والسنّة ، غير أنّ الشيعة أضافت إلى الأحاديث النبويّة أحاديث العترة الطاهرة ؛ لأنّها من أحاديث جدّهم ، كما أنّهم سلام الله عليهم صورة عنه صلوات الله عليه .

ولم يكن السيّد ﷺ مقتصراً على أحاديث أئمّته ورواتهم ، بل كان علمه ووعيه للأحاديث الواردة عن طريق إخواننا السنّة لا يقلّ عن علمه بأحاديث الخاصّة ، وهذه ظاهرة واضحة يمسّها كلّ من رجع إلى كتبه ومؤلّفاته ، ولا أخصّ مؤلّفاً دون غيره ؛ لأنّ هذه الميزة ترافقه في كلّ ما حرّر وألّف .

ومشايخه في الإجازة من طرق إخواننا كثيرون ، وقد ذكرهم في رسالته القيّمة ثبت الأثبات في سلسلة الرواة فليرجع إليها .

وأعتقد أنّ ما صدر عن قلمه في تأييد مبدئه وفكرة مذهبه ، قد يكون فذّاً لا نظير له في عصرنا الحاضر .

وآخر ما خرج من قلمه ـ وقد تجاوز الثمانين حين التأليف ـ كتابه الجليل

---

١. الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٤١ ـ ٤٢.

النصّ والاجتهاد وأنت حين تقرأه تحكم بأنّه كان حين التأليف في قمّة الفكر وشدّة الأسر في كلّ ما يتعلّق في التعبير والتصوير، والتبحّر في البحث والمناظرة، وعندئذٍ تعلم أنّ فكره وتعبيره وجلده على البحث والتحقيق لم يتعرّف على الضعف وعلى معالم الشيخوخة، وهذا شأن الأعلام العباقرة من سلسلة العترة الطاهرة الذين تشيخ أجسامهم وتبقى أفكارهم تمدّ الحياة بالقوّة والحياة مدى العصور[1].

سعة أُفقه

وكان أُفق تفكير السيّد واسعاً وصدره رحباً يسع كلّ ما من شأنه أن يرفع المجتمع ولا يتعارض مع الدين، وقد عبّر عن رأيه بكلمته الجامعة التي أُثرت عنه «لا ينتشر الهدى إلّا من حيث انتشر الضلال» لذلك فقد صمّم العزم على أن يحارب الضلال بنفسه لينتشر الهدى بين الناس، على أن يسير هو رضوان الله عليه في الطريق ليأمن المسلمون من الحواجز والعراقيل التي تعترضهم، وتقف حجر عثرة في سبيل ثقافتهم الإسلاميّة الصحيحة، فأسّس المدارس لهم ليتعلّموا الثقافة العصريّة التي يتسلّح بها العصر الحاضر على أن تكون مطعّمة بالثقافة الإسلاميّة إضافةً إلى معلوماتهم؛ ليكونوا مسلمين حقّاً كما أراد لهم الإسلام.

وقد رأى تمهيداً لهذا الطريق أن يقوم بما يلي:

أوّلاً: أسّس مدرسة أسماها «المدرسة الجعفريّة» لتهذيب النشء وتثقيفهم، وهي مدرسة ابتدائيّة تحتوي على خمس عشرة غرفة عدا الأبهاء والساحات، رفعت على سطح ستّة مخازن كبيرة كانت قد شيّدت سابقاً لتكون مقدّمة لهذا الغرض النبيل، ولتكون ريعاً لإدارة شؤونها في المستقبل.

ثانياً: أسّس نادياً أسماه «نادي الإمام الصادق عليه السلام» وذلك للاحتفالات الدينيّة

---

١. أُنظر مقدّمة النصّ والاجتهاد: ٤٣.

والمحاضرات الثقافيّة. طوله اثنان وعشرون متراً ونصف المتر، وعرضه خمس عشر متراً ونصف المتر.

ثالثاً: أضاف إلى المدرسة والنادي مسجداً في الدور الأوّل جعله خاصّاً بالمدرسة وطلّابها ليؤدّوا فيه الفرائض اليوميّة.

وبذلك قد ضمن السيّد ﷺ للشباب الطالع ثقافة أوّليّة أساسها الدين والعلم. ولا شكّ أنّ أساس الطفل إذا كان صالحاً كان له الأثر الكبير في تثبيت العقائد، وتركيز الدين في مستقبل الطالب.

وقد رأى ﷺ أن يواكب الطالب في مرحلته الثانية «الإعداديّة» ليكون أساس الطالب متيناً صلباً لا تقوى على تغيير عقيدته المؤثّرات الأُخرى في دراسته الجامعيّة، ولكن ما السبيل إلى ذلك؟ والأمر يحتاج إلى عناية كبيرة من الله عزّ وجلّ وعون من الشعب الذي يجب أن يقوم به، وينهض بأعبائه؛ لأنّ الحكومات المسؤولة على اختلاف أنواعها لا تقوم بمثل هذه المشاريع التربويّة العامّة.

إذن فمن ينهض بذلك؟!

لم يدر في فكر سيّدنا غير أشياعه وأتباعه في «المهاجر» الأفريقيّة الذين كانوا منه كأولاده، وكان منهم كوالد كبير ومرجع ديني أكبر.

فأرسل إليهم ولديه العبقريّين الأُستاذ الجليل السيّد صدر الدين صاحب «النهج» اليوم، وأديب العربيّة الكبير السيّد جعفر نائب صور اليوم، صاحب الخلق الفاضل والعمل المتواصل لخدمة الأُمّة.

وقد كان كلّ من الولدين البارّين مثال الإمام أبيه، فالسيّد صدر الدين كان يخطبهم بعلم أبيه ونطقه وبيانه، والسيّد جعفر كان يقبل عليهم بخلق أبيه وحنانه، وقد امتزج البحران وأخرج (المهجر) اللؤلؤ والمرجان، فكان منها هذا الصرح الممرّد المتمثّل بـ«الكلّيّة الجعفريّة» الخالدة.

وقد أصبحت هذه المدرسة «الكلية الجعفريّة» من أرقى مدارس لبنان من حيث

العلم والثقافة والاهتمام بالخلق الفاضل، وذلك بعناية السيّد جعفر الذي كان يـديرها بالأمس، ويشرف عليها اليوم.

والكلّية الجعفريّة لا تأخذ أجراً من الفقراء وإنّما تأخذه من الأغنياء؛ لتقوم بواجبها تجاه المعوزين في كلّ ما يتعلّق بشؤونهم وكافّة لوازمهم.

والسيّد إنّما أنشأها ليقوم بتربية الجيل الصاعد من الأغنياء والفقراء على السواء.

وكان ﷺ لشدّة عنايته بالمحتاجين قد أسّس «جمعيّة البرّ والإحسان» لتقوم بإكساء الفقراء والأحياء ورعايتهم ودفن وتجهيز الموتى منهم، ولذلك من النادر أن ترى في «صور» السائل والمحروم[1].

وقال العلّامة محمّد جواد مغنية في تأبينه للسيّد الإمام شرف الدين:

أمّا تاريخ الجهاد والنهضة العلميّة، وتاريخ النور والضياء في هذا الجيل فيقترن بـاسم الفقيد الكبير. لم يكن الفقيد فرداً وإنّما هو قوّة اجتماعيّة وثروة دينيّة وجامعة قوميّة، تمتدّ آثارها مدى الأجيال والقرون. لقد أتى بأعمال عجزت عنها الفئات والهـيئات. وذهب صوته وصيته في الآفاق العربيّة والإسلاميّة وتجاوزها إلى ما وراء البحار!

لقد أحيا الفقيد العقول بالعلم، والقلوب بالإيمان. كان يلقي الإقناع بالحقائق في نفوس السامعين وعلى ألسنتهم إلقاءً. حتّى كأنّ إيمانهم طوع يده وإرادته[2].

حلمه وسعة صدره ولين طبعه

وينكشف لنا حلمه وسعة صدره من مناظراته وأُسلوبه الليّن في المحاكـمة والردّ على الخصوم في مراجعاته، وغيرها من كتبه مثل أجوبة مسائل موسى جـار الله وإلى المجمع العلمي العربي بدمشق ... .

ويشهد لنا معاصروه بسعة صدره وعظمة حلمه ولين طبعه، وخير من كـتب فـي

---

١. أُنظر مقدّمة النصّ والاجتهاد: ٥٦ـ٥٨.

٢. الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٤١.

هذا الصدد آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين ﷺ، فقد جاء في مقدّمته على المراجعات ما يلي:

هو طويل الأناة، ثقيل الحصاة، واسع الصدر، ليّن الطبع، قويّ القلب، مُهاب، له روعة في النفس وتأثير يدفعانك لاحترامه وحبّه وإن جهلته[1].

وقال عنه العلّامة الشيخ محمّد جواد مغنية في هذا الصدد:

ومن صفاته أنّه المتسامح الهيّن الليّن ما بقي الحقّ معزّزاً مكرّماً، حتّى إذا امتدّت إليه يد غاصب أو كاسب أخذته الحميّة الدينيّة وثار وأثار[2].

والحلم والصبر متلازمان، وصبره على المصائب العظام التي ألمّت به خير دليل على عظمة حلمه وسعة صدره.

وممّا قاله العلّامة الشيخ محمّد جواد مغنية أيضاً في رثائه:

ومن صفاته أنّه عارك الحياة وعاركته، فما من أحد أزلّته الخطوب وذاق من مرارتها أكثر ممّا ذاق، فكانت حياته تنتقل من نائبة إلى نائبة أشدّ وأقوى. خاض في خضمّ الحياة، ورافق الأحداث وأثّر فيها وأثّرت فيه. كافح وناضل، وتحمّل من إيذائها ألواناً وأشكالاً من الآلام والمصائب، فتلقّاها صابراً محتسباً مبتغياً عند الله من الرحمة والرضوان[3].

تواضعه

لقد كان العلّامة شرف الدين مضرب المثل في التواضع للحقّ وللناس وللعلماء والأتقياء.

قال الأُستاذ زكي بيضون معبّراً عن هذه الصفة المُثلى:

ومن عجيب ما في السيّد من خلق الإسلام: تطامنه العظيم لهؤلاء الذين جرّدتهم ظروف

---

١. أُنظر مقدّمة المراجعات: ٦١ـ٦٢.

٢. الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٤١.

٣. المصدر: ٤٢.

الحياة من النفوذ والثروة إلى الحدّ الذي يذهل له المتواضعون. وإنّك لتجده وقد أقبل على أحدهم إذا آنس منه معرفة وفهماً يفسح له من صدره، ويناظره في محادثته فعل النّدّ للندّ.

وعلى نقيض ذلك، ماكنت تراه من تعاليه وترفّعه إذاكان في حضرته كبير من المتنفّذين، فإنّه ليقوم منه مقام السيّد من المسود، في غير هوادة أو رفق إلّا أن يكون جليسه في جنّة من أخلاقه [١].

وقال العلّامة محمّد جواد مغنية مؤكّداً هذه النقطة:

أنّ من صفاته تفقّده الفقراء وزيارة المساكين في بيوتهم، مع استنكافه عن زيارة الملوك والحاكمين على الرغم من الإغراء والإلحاح [٢].

ويعتقد العلّامة السيّد محمّد تقي الحكيم أنّ مدرسة النجف الأشرف قد أكسبت خيرة طلّابها ـ ولا سيّما السيّد عبد الحسين شرف الدين، ضمن حياتها العلميّة الطويلة وحياته التي قضاها في النجف ـ صفة الموضوعيّة والتواضع والبعد عن مستلزمات الجدل الذميمة كالتحاقد والتباغض والاعتداد بالرأي وإن وضح لدى صاحبه جانب الخطأ فيه [٣].

وقال السيّد محمّد تقي الحكيم عن تواضعه في مؤلّفاته ولا سيّما في مر\جعاته:

وأروع ما يبدو فيها ـ بالإضافة إلى قيمتها العلميّة ـ معطياتها في أدب البحث والمناظرة بما حفلت به من تواضع لا يتوفّر عادة في غير كبار العلماء، ممّن سلمت نفوسهم من بواعث الشعور بالنقص والالتجاء إلى التعويض من طريق الترفّع والتكبّر والممالأة على حساب الحقّ الذي يدّعون نصرته فيما يكتبون [٤].

وفي كلمة الأُستاذ عبد الله الخنيزي نجد تصريحاً طريفاً عمّا كتب وعمّا كان يفعل

---

١. المصدر: ٤٧.

٢. المصدر: ٤٢.

٣. أُنظر مقدّمته على النصّ والاجتهاد: ١٨.

٤. المصدر: ٢٣.

في تعامله مع الآخرين: قال:

قرأت الفقيد في ما كتب ونافح عن معتقده ومبدئه، فأُعجبت به وأكبرته ورأيت فيه مثالاً للأخلاق الفضلى الكاملة. وقدّر لي في صيف عام ١٩٥٦م أن أتشرّف بزيارته في داره بصور، وإذا بتلك الأخلاق تنسجم لديّ وتعرض أمامي بصورة مكبّرة، فما كدت ألثم أنامله الكريمة وإذا به يطبع عليّ قبلة تحمل كلّ ما في الأُبوّة من عطف وحنان، ولم يرضَ حتّى أجلسني إلى جانبه، وازداد ذلك عندما قرأت عليه صفحات من كتاب سيّدي الوالد ﵀ فأبدى إعجابه وتقديره له وثناءه عليّ وعلى قراءتي، ممّا أخجلني وجعلني في غمرة من الخجل وودّعته فأتحفني بمثل ما استقبلني به من عطف وحنان[1].

نعم، لم يجعل الإمام شرف الدين حنانه وقفاً على أبنائه وأقربائه، وإنّما عمّمه إلى أوسع مدىً يمكن أن يمتدّ إليه حنانه.

مهابته وقوّة قلبه وشجاعته

لقد كان الإمام شرف الدين يتحلّى بالجرأة إلى جانب تواضعه، تلك الجرأة التي رفعته عن مستوى الطامعين الخادعين، لأنّه كان يمثّل رجل الدين الجريء الذي لا يخشى في الحقّ لومة لائم، يقول للحاكم العاتي: أخطأت، ويقول للحاكم العادل: أنصفت. لا يبيع دينه بدنياه، ولا يساوم على دنياه ولا دينه، يقف في وجه المستعمرين وأذنابهم غير هيّاب منهم.

ومن هنا كان عزيزاً هابه الظالمون حينما رأوه يقدم في الروع والهول ولا يرتدّ على أعقابه. لقد كان كفاحه في سبيل الحقّ والدفاع عن المبدأ دفاعاً لا تلين له قناة، ولم يغرّه المال أو الجاه بحالٍ من الأحوال. ولم يثنه الاضطهاد من مواصلة درب الجهاد.

---

١. الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٨٧.

فما أكبره فوق صغار المستكبرين في الأرض، وما أكبره في عظمته، وما أكبره في دينه ودنياه.

قال عنه السيّد محمّد نجيب فضل الله:

ثـــائر كـــالشواظ يـــقذف نـــاراً   شـــامخ كـــالزمان فـــي ســـلطانِهْ
يـــوم عـــبّت مـــن الدمـاء فـرنسا   وارتـــمى المسلمون فـي أحـضانِهْ
ويـــد الغـــرب فـــي الجزيرة نـارٌ   وفـــم البـــحر مـــارج من دخـانِهْ
لم يـــلن صـــعدةً وزمـــجر لـيـثاً   وانـــتخى فـــي يـــراعـــه وسـنانِهْ
وعـــلى البـــغي شـنّ حـرباً عـواناً   بـــيديه وقـــلبه ولســـانِهْ
إنّـــها جـــرأة أجـــلّ مـــن التـــا   ج وأسمى من السرير أو صولجانِهْ[1]

وقال العلّامة محمّد جواد مغنية:

ومن صفاته ذاك المرأى الرهيب والوقار العجيب، تلك الهيبة التي يتضاءل أمامها الكبراء والعظماء، فما رآه متكبّر متعاظم إلّا تجرّد من جبروته وطأطأ رأسه خجلاً من نفسه، فالذئب حَمل بين يديه، والأسد نعامة إذا نظر إليه ... .

إنّ فقد السيّد والفراغ الذي أحدثه ليس فراغاً في الأُصول والفقه، ولا في الاجتهاد والفتوى فقط، إنّه فراغ في بنيان الدين وأركانه، في عدّته لا في عدده، فراغ في قوّة التنفيذ لا في التشريع[2].

وقال الأُستاذ زكي بيضون:

لقد أجمع الذين عرفوه وأُتيح لهم أن يجتمعوا إليه أنّ هيبته تعقد الألسنة حتّى لا يملك جليسه من تهاويه وتخاذل نفسه قدرة الإقدام على الكلام[3].

وقال آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين:

... تأتيه حين تأتيه مالكاً لأمرك، مسيطراً على نفسك، فإذا استقرّ بك المقام عنده

---

١. المصدر: ٤٠.

٢. المصدر: ٤٢ـ٤٣.

٣. المصدر: ٤٧.

لم تتمالك دون أن تضع قيادك بين يديه ، فإذا هو يتملّك زمام أمرك ويدخل إلى قرارة نفسك فيسيطر عليك بطبيعة قوّته وأدبه وعلمه ، وأنت لا تخشى مغبّة العاقبة من هذه السيطرة ، فإنّها سيطرة مضمونة الخير ، مأمونة الشرّ ، بعيدة عن الكيد والمكروه ، بعد الصحّة عن الفساد [١].

العزم الصادق والنشاط المتدفّق

يتجلّى نشاط العلّامة شرف الدين في كثرة آثاره وتنوّعها رغم إحاطة مشاكل الحياة به وبأُمّته ، كما يتجلّى في استمرار كتاباته وإنتاجاته العلميّة رغم كهولة سنّه ، ويتجلّى في قدرته على الجمع بين هموم المجتمع ومهمّات الكتابة والتأليف .

قال العلّامة محمّد جواد مغنية :

ومن صفاته العزم الصادق والنشاط المتدفّق ، قضى عمره الشريف موزّعاً بين الإرشاد والتأليف وفصل الخصومات وقضاء الحاجات ، لا تثنيه عن واجبه متاعب الحياة ولا تقف دون رسالته الحواجز والسدود [٢].

وقال ولده السيّد صدر الدين شرف الدين :

ولم تكن شيخوخته المحمّلة بالأثقال الجسام إلّا شابّة العقل فتيّة الهمّة ، لا تضعفها السنّ عن الغوص والتحليق ، ولا تلهيها مسؤوليّاته العامّة المعقّدة عن سيلان الفكر كما لو تخصّص له وانفرد به [٣].

وقال آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين في هذا الصدد :

وقد يلوح ممّا قدّمنا أنّ المشاكل الاجتماعيّة المتراكمة من حوله تصرفه عن النظر في حياته العلميّة وتزحزحه عن عمله الفنّي . والواقع أنّ رجلاً يُمنى بما مني به سيّدنا ينصرف عادةً عمّا خلق له من علم وتأليف ، فإنّ ما يحيط به من المشكلات يضيق بالنظر

---

١. أُنظر المراجعات : ٤٢ ، المقدّمة .

٢. الموسوعة ج ٨ ، ملحقات بغية الراغبين : ٤١ .

٣. أُنظر النصّ والاجتهاد : ٦٣ ، المقدّمة .

في أمر المكتبة والكتابة، لولا بركة وقته وسعة نفسه وقدرة ذهنه.

فهو ـ على حين أنّه يوفي حقّ تلك المشكلات الشاغلة ـ يوفي حقّ علمه، فيبلغ من المكتبة نصيبه الذي تحتاجه حياته العلمية. وهو منذ ترك النجف الأشرف على اتّصال مستمرّ بالبحث والمطالعة والكتابة والمناظرة، يخلو كلّ يوم في فتراته إلى مكتبته، يستريح إلى ما فيها من موضوعات، وينسى ما وراءها من حياة مرهقة لاغية.

وليس أدلّ على هذا من إنتاجه هذا الإنتاج الغزير الثريّ النبيل، وإنّ مؤلّفاته لتشهد بأنّه من الحياة العلميّة كمن ينصرف إليها ولا يشتغل بغيرها.

وأوّل ما يدلّ على ذلك كيفيّة مؤلّفاته لا كمّيّتها، فهي وإن كانت كثيرة حتّى بالقياس إلى رجل يتفرّغ إليها، فإنّها من الأصالة والعمق والاستيعاب حيث لا تدلّ على أنّ مؤلّفها رجل يمتحنه الناس بتلك المشاغل، ويبتلونه بما عندهم من مشاكل، فهي بما فيها من قوّة ومتانة وغور ونحت وتفكير أدلّ على اتّصاله الدائم بحياته العلميّة من جهة، وأدلّ على فضله وخصوبة سليقته من جهةٍ أُخرى[1].

إنصافه وصفاء نفسه ونقاء ضميره

لقد شهد بإنصاف السيّد المؤالف والمخالف ممّن عاشره وممّن قرأ كتبه وحواراته. إنّ كلّ من قرأ كتابه المراجعات شهد له بهذه الصفة المهمّة التي تقف حاجزاً دون تجاوز الحقّ وتعدّي طوره.

فهذا الأُستاذ فكري أبو النصر يشهد له بأنّ المراجعات عبارة عن «دراسة موضوعيّة علميّة ومنصفة»[2]. «وهو حوار موضوعي أمين، يتيح التعرّف على الحقيقة، بعيداً عن التحيّز أو التأثّر بالعاطفة المذهبيّة أيّاً كانت»[3].

---

١. أُنظر المراجعات: ٥٤ ـ ٥٥، المقدّمة.

٢. المصدر: ١٧، المقدّمة.

٣. المصدر: ١٩.

وكتب الأُستاذ حامد حفني داود في هذا الصدد:

وبعد فهذا سفر عظيم كتبه علمان من أعلام الإسلام في صورة حوار علمي أصيل، اتّصف بالنزاهة والموضوعيّة والبعد عن سفاسف القول وهجره، واتّصف بالإخلاص الجمّ من الوصول إلى الحقيقة مبرّأة من كلّ غرضٍ سواها[١].

رأينا في هذين المتناظرين شيئاً جديداً لا نكاد نألفه إلّا في المنهج الإسلامي في فنّ المناظرة والجدل، ذلك المنهج هو إصرار كلّ من الباحثين على الوصول إلى الحقيقة أنّى وجدها. فلم يكن أحدهما يبغي من المناظرة الكيد لصاحبه أو النيل من علمه حتّى مجرّد التفوّق عليه بقدر ما يطمع من الوصول إلى الحقيقة ولو كانت متمثّلة في حجّة صاحبه[٢].

إنّ أحد مظاهر الإنصاف هو الاحتجاج بالمصادر الموثوقة عند أهلها، وعدم تحميلهم ما لا يطيقون من المعارف والمصادر العلميّة التي تكفي لإتمام الحجّة على كلّ من يقف عليها ويطّلع على مضامينها، لأنّه لا بدّ له من التثبّت ممّا فيها والتحقيق عمّا جاء فيها، ولا يكفيه أنّها غير معروفة عنده وغير مرضيّة لدى فريق من الناس.

إنّ الإنصاف هو أحد العوامل المهمّة التي أنتجت اهتداء قرّاء كتبه إلى الصراط المستقيم وإلى الحقّ المبين خلال نصف قرن بل أكثر حيث صدرت الطبعة الأُولى من المراجعات سنة ١٣٥٥هـ، ونحن الآن نعيش في سنة ١٤٢٤ فهي سبعة عقود زاخرة بالعطاء والثمر الصالح الذي تبدّى على يدي العلّامة شرف الدين وقلمه المبارك المبدع.

قال العلّامة آية الله مرتضى آل ياسين:

والإنصاف في نفسه موضع يسوّي بين القريب والبعيد، والحقّ رائده فلا يمنعه حبّه لأحبّائه من إقامتهم على العدل، ولا يمنعه إنصافه ـ وهو يحكم ـ من الاحتفاظ بالحبّ

---

١. المصدر: ٦.

٢. المصدر: ٧.

في زوايا نفسه لمن يحبّ. ومن هنا كان العدوّ والصديق عنده سيّان في الحكم على ما يأتيان من حسن أو قبح في آثارهما واقعاً[١].

حصافة رأيه وحزمه

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[٣]، من الفتن كما جاء في النصوص المفسّرة للآية الكريمة[٤].

ولنقرأ معاً ما قاله آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين في هذا الصدد:

كان قدوة في الورع وصفاء النفس ونقاء الضمير وقول الحقّ. وإلى جانب هذا كلّه له رأي حصيف ونظر بعيد، يسبر أغوار الناس ويصل إلى حقائق الأُمور وأعماقها. فلا يخدع من حال ولا يغش في ظاهر ولا يفتل عن صواب ولا يغرّ في رياء[٥].

الاهتمام بأقدار الناس وتشجيعهم على الخير

إنّ تقدير الناس ومعرفة أقدارهم والاهتمام بهم وإشعارهم بتقديرهم نقطة جوهريّة في توفيق العلماء والمصلحين حين تعاملهم مع الناس وسعيهم لتعبئتهم باتّجاه مصالح دينهم ودنياهم.

وكم رأينا عالماً مغترّاً بعلمه قد سقط من أعين الناس وابتعد عنهم وحُرِم من عواطفهم ونُبل مشاعرهم؛ لمجرّد عدم اعتداده بنفسه أو احتقاره لهم. وفي الحقيقة لم يبلغ مثل هذا حقيقة العلم بالناس وبكيفيّة تربيتهم ومداراتهم واكتشاف طاقاتهم وقدراتهم الكامنة في حنايا وجودهم.

---

١. اُنظر المراجعات: ٦٢، المقدّمة.

٢. البقرة (٢): ٢٨٢.

٣. الطلاق (٦٥): ٢.

٤. اُنظر تفسير هذه الآية في الميزان ومجمع البيان.

٥. اُنظر المراجعات: ٦٤، المقدّمة.

والقائد الفذّ هو الذي يتسنّى له قيادة الجماهير نحو الأهداف المُثلى التي تصلح بها أحوالهم وتنتظم شؤونهم وتنمو بها قدراتهم وطاقاتهم.

والسيّد الإمام شرف الدين من هذا الرعيل الذي خبر الناس واستطاع أن يتعامل معهم المعاملة المُثلى.

قال آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين في هذا الصدد عن العلّامة شرف الدين:

كان يُعنى بأقدار الناس ويوفيهم فوق ما يستحقّون، ويشجّعهم على إيتاء الخير، ويرهف الناشئة للإتقان والتجويد، فيبالغ لهم في الاستحسان ويكيل لهم من الكلم الطيّب والنوال الكريم ما يدفعهم إلى ما يرمي إليه من تقدّمهم [١].

ويشهد لنا الحجّة السيّد محمّد صادق الصدر على قوة هذه الخصلة الكريمة في وجود العلّامة شرف الدين، وانتهاجه منهجاً تربويّاً اجتماعيّاً فريداً في تربيته الناس، ودفعهم للاستباق في تحصيل الخيرات، وتنميتهم على حبّ الإحسان والإتقان بما شاهده عن كثب من سيرة هذا السيّد الكريم، قال ﵀:

وقد رأيت ورأى إخوان لي ـ تشرّفت قبل عامين بصحبتهم إلى زيارته بمصيفه «ياثر» ـ نماذج من توجيهه الصالح لأتباعه، يبثّ روح التسابق والتنافس على عمل الخير فيهم، وتشجيعهم على ذلك واستغلال الفرص لتأكيد هذه الروح.

وبينما كان يحدّثنا عن بعض مشاريعه الإصلاحيّة وكنّا نصغي إليه وكلّنا آذان ـ كما يقولون ـ إذ سمعنا ضجّة استحسان عالية ارتفعت من مكان غير بعيد، وكان أن قطع سماحته كلامه وقال: إنّ هذا الاستحسان كان لفلان فيما أخال، فقد وفّق إلى قطع أو رفع أكبر الأحجار، ثمّ قال: إنّ هؤلاء العَمَلَة من أهل هذا البلد توجّهوا لتشييد جامع لهم، وقد وجّهت بهم إلى التسابق في العمل، وكان وسام أسبقهم ما سمعتموه من تشجيع، ثمّ قال: إذا جاء هؤلاء فباركوا لهم عملهم، وأشيدوا بفضل السابق منهم، فإنّ لكلمتكم تأثيرها في نفوسهم، لأنّكم من النجف الأشرف عاصمتهم الدينيّة، وبلد سيّد الأوصياء. وجاؤوا فقلنا كلمتنا في الموضوع بعد أن قدّمنا لهم بكلام أخجلنا سماعه من

---

١. أنظر المراجعات: ٦٢، المقدّمة.

سماحته في ذلك المحفل، وكانت لفتة في بثّ روح التنافس فيهم وتأكيدها بالتشجيع من أجمل اللفتات[1].

الأديب البارع والخطيب المفوّه

لقد شهد كلّ من قرأ للسيّد الإمام شرف الدين ولو كان قد قرأ واحداً من آثاره بأدبه البارع وبلاغته وفصاحة بيانه ورفعة أُسلوبه، حتّى وصفه آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين بأنّه فارس من فرسان البيان[2]، كما وصفه في مقدّمته على المراجعات من خلال مراجعاته:

> بقوّة العارضة في الأدب، وبُعد النظر في البحث، وسلامة الذوق في الفنّ، وحسن التيسير في إيضاح المشاكل وتحليل المسائل[3]. أطلق له لساناً من البيان الساحر، أغنانا عن الأخذ بالأعناق إلى مواضع جماله، فكلّ بحث فيه لسانٌ مبينٌ عن سرّه يناديك حين تغفل عنه ... .

ثمّ يقول:

> ولا تحسب أنّ للكتب حياة خاصّة مستقلّة، فليست حياة الكتب غير حياة المؤلّفين والكتّاب نفسها.

ثمّ يستطرد قائلاً عنه: «عالم يضمّ إلى علمه فنّاً من الأدب منقطع النظير».

ويستعرض خصائص مدرسته البيانيّة فيقول عنه:

> ولمّا استوفى حظّه العلمي من الثقافة الإسلاميّة العالية، وكان هو قد صاغ لنفسه ذوقاً عالياً، ساعدته على إنشائه ملكاته القويّة وسليقته المطبوعة على حُسن الأداء وتخيّر الألفاظ وقوّة البيان وذرابة اللسان وسعة الذهن[4].

---

١. أُنظر النصّ والاجتهاد: ٢٠ ـ ٢١، المقدّمه.

٢. أُنظر مقدّمته على المراجعات: ٤٢.

٣. المصدر: ٤٣.

٤. المصدر: ٤٥.

كان كلّ ما كتب أنيق رقيق، رفيع عميق، يجمع بين سموّ الفكر وترف اللفظ .. فإذا قرأت فصلاً علميّاً خالصاً خِلت ـ لقوّة أُسلوبه ونصاعته ـ أنّك تقرأ فصلاً أدبيّاً يروعك جماله المستجمع لكلّ العناصر الأدبيّة[١].

ويعرّج العلّامة آل ياسين على أسباب قريبة وبعيدة أدّت إلى هذا الشموخ في الأدب ورفعته، حين استعرض سائر الصفات المعنويّة التي أعطته صفاءً ونقاءً خاصّاً وبعد نظر للأُمور بقوله:

ولعلّ لهذه الخلال الكريمة أثراً في صفاء مواهبه وقوّة تأثيره وصدق كفاياته، فهو من أفصح الناطقين بالضاد حين يتحدّث، وأبلّهم ريقاً حين يخطب. ومن أنفذ الناس للنفس حين يعظ، وأحكمهم بالقضاء وأعدلهم بالحكم وأبينهم بالحجّة وأفقههم بالحياة[٢].

وقال الأديب البارع ولده صدر الدين شرف الدين:

كانت الكلمة عند أبي حاسّة سادسة، لا يرضيه منها إلّا أن تجمع إلى شروط الصحّة مقاييس الجمال وفضيلة الوضوح[٣].

وقال الحجّة السيّد محمّد تقي الحكيم ﷺ عن رفعة أدب السيّد شرف الدين في كتابه النصّ والاجتهاد:

وأمّا أُسلوب الكتاب فهو أُسلوب سماحته في جملة مؤلّفاته: إشراق وأصالة ويُسر مع إعطاء الحادثة ما تستحقّها من إيجاز وإطناب[٤].

وأكبر الحجّة العلّامة الشيخ محمّد حسين المظفّر كتابه المراجعات معبّراً عنه بالعلم الغزير وبالأُسلوب الساحر والقلم الهادئ النافذ إلى الصميم[٥].

وأمّا المرحوم محمّد محمّد المدني ـ أحد كبار علماء الأزهر ـ فقد وصفه بعمق

١. المصدر: ٥٥ـ٥٦.
٢. المصدر: ٦٢.
٣. أُنظر مقدّمة النصّ والاجتهاد: ٦٣.
٤. المصدر: ١٧.
٥. أُنظر تقريظه في مقدّمة المراجعات: ٣٤.

الفكر وقوّة العارضة ووضوح الأُسلوب وسيولة القلم[١].

وقال عنه الدكتور محمّد يوسف موسى:

... وأخذت في قراءة الكتاب فإذا هو يبين عن علم وتحقيق وبحث عميق فوق أنّه في طبقة عالية من البلاغة والجزالة في الأُسلوب[٢].

وقال عنه آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين في كتابه التأبيني عنه:

وحسبك شاهداً على بطولته في ميدان القلم آثاره الخالدة التي تركها غرّة في جبين الدهر، لا تفتأ تشعّ بالخير والجمال والنور، وتحمل مشعل الهداية ساطعاً وهّاجاً في غمرة من الظلمات الحالكات فتضيء به السبيل لمن ضلّ السبيل ... حتّى لقد اهتدى على ضوئها مئون ومئون من الناس ممّن كانوا لا يهتدون إلى الحقّ سبيلاً ...

وعلى هذا فقس ميدان لسانه وفمه، فقد كان ﷺ من أروع الخطباء في دنيا الخطابة وأشدّهم نفوذاً في قلوب سامعيه، وكم من موقف وقف خطيباً فأعجب وأغرب حتّى قيل فيه: إنّه من أخطب خطباء العرب ... ولعلّ للوراثة أثرها في تكوينه الخطابي المنبثق من تكوين أبيه سيّد الفصحاء وإمام البلغاء أمير المؤمنين عليه السلام.

... وهو الذي ـ بهذه اللغة البليغة التي تمكّن منها في أحاديثه وخطاباته ـ استطاع أن يعمل الأعاجيب في خدمة مبدئه وعقيدته، فكان يغزو بها العقيدة الفاسدة وهي راسخة في مقرّها رسوخ الوتد في مغرزه، فيستلّها من موطنها استلالاً ويستأصلها من جذورها استئصالاً وليس لديه من سلاح إلّا تلك الحجج البالغة التي تتدفّق من لسانه تدفّق الينبوع من عينه الثرّة، وتندفع اندفاع السيل من أعالي القمم؟[٣]

ونقرأ معاً ما كتبه آية الله آل ياسين في مقدّمته على المراجعات في هذا الصدد:

وكان لمنابره البليغة، ولأساليب إرشاداته البارعة، أكبر الأثر في تحقيق إصلاحه المنشود، ولا غرو فإنّ للسيّد المؤلّف مقاماً خطابياً يغبطه عليه خطباء العرب، ويعتزّ به الدين والعلم والأدب.

---

١. المصدر: ٣٥.

٢. المصدر: ٣٦.

٣. أُنظر الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ١٩ ـ ٢٠.

وخطابته ككتابته تستمدّ معانيها وقوّتها وغزارتها من ثقافته كلّها، وترتضع في الموضوع الخاصّ أثداء شتّى من معلوماته الواسعة، فإذا قرأته أو سمعته رأيت مصادر ثقافته كلّها منهلة متفتّحة الأفواه كشرايين الثدي وعروقه، ترفده من كلّ موضوع وعاه في حياته ما ينسجم وموضوعه الذي هو بسبيله، وعلى ذوقه الممتاز أن يضع أطراف ما يتدفّق إليه في هيكل الموضوع الذي بين يديه، ويركّزه في مكانه، حتّى إذا انتهى أنهى إذن بحثاً نافعاً كلّه غذاء ومتاع.

وأعظِم به ـ إلى جانب هذه البلاغة ـ متخيّراً لآلئ معانيه وأزياء أفكاره، يقدّرها تقديراً، ويرصفها رصفاً، ويبعث فيها حياة تنبضها بما يريد لها من دلالة في مفهوم أو من منطوق، بأوصافه وإضافاته، وبكلّ تآليفه المنسوقة المنسجمة.

ثمّ أعظِم به محدّثاً إذا تشاجن الحديث وتشقّق وانساب على سفينة يمخر العباب، فهناك النكتة البارعة، والطرفة اللامعة، والنادرة الحلوة، والخبر النافع [1].

وبعد هذا كلّه فهذا خبر أدبه وبلاغته وفصاحته، وليس الخبر كالمعاينة. وما عليك إلّا أن تقف على رسائله وخطبه وبياناته السياسيّة والتربويّة التي صدرت من بنانه، فضلاً عن الكتب الذي حبّرتها يراعه، وأتحف بها العالم الإسلامي ـ بل العالم الإنساني ـ لتقف عن كثب على صدق كلّ ما قاله مترجموه عنه، بل لتعيش لحظات السموّ والطيران في الاتّجاه الذي يرفعك إليه هذا الأدب الرفيع والمنطق البليغ.

مرجعيّته الدينيّة

لقد أخذ الناس صورة حيّة عن شخصيّة السيّد العلميّة، فطار صيته وجرى اسمه على كلّ لسان.

وراجعه الناس في خصوماتهم، وكان يتوقّف عن إصدار الأحكام الشرعيّة مقتصراً على فضّ النزاع بصورة الصلح، ملاحظة لمقام والده السيّد يوسف الذي كان يحتاط

---

١. أنظر مقدّمته على المراجعات: ٤٧ ـ ٤٨.

في إصدار الأحكام بالرغم أنّه كان من كبار المجتهدين على حدّ تعبير آية الله الحجّة السيّد محمّد صادق الصدر[1].

وقد شهد له بالاجتهاد المطلق السيّد علي الأمين أيضاً، وهو الوحيد من علماء العامليّين الذين ظفروا بإجازة الاجتهاد المطلق من السيّد حسن الصدر والميرزا حسن الشيرازي، بحيث أصبح زعيماً علميّاً وشعبيّاً على الإطلاق في بلاد عاملة بعد رجوعه من العراق.

وقال السيّد علي الأمين في شهادته هذه إنّه لا يعرف نظيراً له في علماء العامليّين اليوم. وبهذا أرجع السيّد الأمين الناس إلى السيّد شرف الدين في مسائلهم الدينيّة. وأصبح السيّد يوسف أيضاً يرجع المترافعين إلى ولده كلّما احتاج الأمر إلى ذلك.

وقد كان لجهاد السيّد شرف الدين العلمي والعملي والدفاع عن الوطن الإسلامي أثره الكبير في تحقّق زعامته المطلقة في بلاده.

كما كان لـ*المراجعات* و*الفصول المهمّة* آثار وأصداء كبيرة بين العلماء والمحقّقين في مختلف البلاد الإسلاميّة وعلى اختلاف مذاهبها، ممّا أعطى لمرجعيّته صدىً إسلاميّاً قد تجاوز لبنان وسوريا والعراق ومصر وإيران.

وكتب الشيخ مرتضى آل ياسين عن زعامته وأسباب تحقّقها:

من هذا وذاك علقت به النفوس، واجتمع عليه الرأي، فقاد للخير، وابتغى المصلحة. وتكاملت له زعامة عامّة، يحلّ منها في شغاف الأفئدة والقلوب، ولم تكن هذه الزعامة مرتجلة مفاجئة، بل كانت عروقها واشجة الأُصول، عميقة الجذور، تتّصل بالأعلام من آبائه، والغرّ من أعمامه وأخواله، ثمّ صرفت هذا الميراث الضخم يده البانية، فأعلت أركانه، ومدّت شطآنه وخلجانه[2].

وقال السيّد محمّد صادق الصدر عن زعامته في جبل عامل:

وبعد رجوع السيّد إلى عاملة من جهاده الوطني أصبح الزعيم المطلق للناس في كلّ ما

---

١. أُنظر النصّ والاجتهاد: ٣٦، المقدّمة.

٢. أُنظر المراجعات: ٤٨، المقدّمة.

يتعلّق بأُمور الدين والدنيا ، وكان بحقّ مصداقاً لقول الشاعر :

أتــته الزعـامة مـنقادة　　　　إليه تـجرجـر أذيـالها
فـلم تك تـصلح إلّا له　　　　ولم يك يصلح إلّا لها[1]

وقد تعاظمت زعامة الإمام شرف الدين وتعدّت جبل عامل، وذاع صيته في جميع الحوزات العلميّة حتّى رشّح للمرجعيّة العامّة للطائفة الإماميّة. وممّا يشهد على ذلك ما نقله السيّد محمّد صادق الصدر بالحرف الواحد:

لقد سافر المرجع الديني الأكبر المرحوم آية الله السيّد أبو الحسن الإصفهاني إلى لبنان قبيل وفاته طلباً للراحة والاستجمام ، وقد حلّ في مدينة «بعلبك» ، فتسابق أعلام لبنان لزيارته وكان في مقدّمتهم السيّد ﷺ ، فسرّ به غاية السرور ، وقد وجد السيّد أبوالحسن فرصة مؤاتية لمفاتحة السيّد بموضوع حاجة النجف إلى وجود السيّد فيها ، وأبدى استعداده التامّ للقيام بشؤونه وشؤون من يتعلّق بخدمته بما يناسب مقامه ومنزلته ، فشكر السيّد هذه العاطفة الكريمة معتذراً بأسباب مقبولة تحول دون تركه البلاد العامليّة. ويروي المختصّون بمجلس المرجع الديني الأكبر أنّه كان في الأُسبوع الأخير يردّد قوله : «إنّ النجف بحاجة إلى السيّد شرف الدين» .

ونفهم من الطلب السابق ومن ترديد اسمه فيما بعد وهو في آخر أيّامه، وفي الشوط الأخير من حياته، أنّ في السيّد ﷺ كلّ ما يجب أن يتّصف به المرجع الديني من قوّة العلم والإحاطة بالدليل والاطّلاع الواسع على الرجال والحديث، والفقه الإسلامي بكلّ مسائله ومشاكله، ممّا لا يتيسّر الاطّلاع عليه إلّا للقليل من الأعلام، ولا سيّما أنّ فيه من قوّة البيان وطلاقة اللسان وقوّة التحرير ما يقتضيه العصر الحاضر في المرجع الديني الأوّل.

وليس غريباً أن يصادف سيّدنا التقدير كلّه من السيّد أبو الحسن رضوان الله عليه ، فإنّ الفضل لا يعرفه إلّا ذووه ، ومن أولى من الإمام السيّد أبو الحسن بالفضل والاقتداء به[2] .

---

١. أُنظر النصّ والاجتهاد : ٤٣، المقدّمة .

٢. المصدر : ٦١، المقدّمة .

الفصل الثاني

مراحل حياته

إذا قسّمنا حياة الإمام شرف الدين إلى مرحلتين متميّزتين: مرحلة النشأة، ومرحلة ريادة الإصلاح، كانت مرحلة النشأة العلميّة والتربويّة ذات أدوار ثلاثة، ومرحلة ريادة الإصلاح ذات أدوار أربعة.

فتكون حياته البالغة ٨٧ سنة ذات مقاطع سبعة، لكلّ مقطع منها ملامحه وخصائصه، وهي تشترك جميعاً في أنّها حياة جدّ واجتهاد وتغيير وإصلاح، كما يطبعها طابع السعي للوحدة ورصّ الصفوف لله سبحانه والكدح في الله والغضب لله والرضى له تعالى دون سواه.

المرحلة الأُولى: مرحلة النشأة

تبدأ بولادته سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م في الكاظميّة، وتنتهي بهجرته من النجف الأشرف سنة ١٣٢٢هـ.

والمقطع الأوّل من هذه المرحلة هو السنوات الثمان الأُولى ـ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٨هـ ـ منذ الولادة وحتّى الهجرة إلى جبل عامل.

والمقطع الثاني منها هو السنوات الاثنا عشر التي قضاها مع والده في «شحور» من سنة ١٢٩٨هـ إلى سنة ١٣١٠هـ.

والمقطع الثالث منها هو السنوات الاثنا عشر التي قضاها في حواضر العلم الإسلاميّة في أرض الرافدين: الكاظميّة، وسامرّاء، والنجف، أي من سنة ١٣١٠هـ إلى سنة ١٣٢٢هـ.

وهذه السنون ـ الاثنتان والثلاثون ـ هي سني نشأته العلميّة والأخلاقيّة، وسني تكوّن شخصيّته وتكاملها التي صنعت منه علّامة فاضلاً ومجتهداً متميّزاً في مدرسة أهل البيت عليهم السلام وبالتالي صاغت منه إماماً وقائداً ومجاهداً أمام جحافل الاستعمار المدجّجة بالسلاح الحديدي والثقافي.

المرحلة الثانية: مرحلة ريادة الإصلاح

وبعد هذا المقطع الثالث من حياته تبدأ هجرته إلى منطقة الجبل ـ موطن آبائه الكرام ـ وتبدأ بهذه الهجرة المرحلة الثانية من حياته، مرحلة الجهاد والنضال ضدّ الإقطاع والاستبداد ثمّ النضال ضدّ الاستعمار والانتداب، وبالتالي الجهاد الوحدوي من أجل رصّ الصفوف وتثقيف أبناء المسلمين وتسليحهم بسلاح العلم والمعرفة والأدب؛ ليقفوا بوجه المعتدي من كلّ وجهٍ وصَوْب.

إنّ هذه المرحلة من حياته هي كفاح دائم وسعي دؤوب ضدّ الظلم والطغيان بكلّ صوره وأشكاله.

وبالإمكان تسمية **المقطع الرابع** بدور الإصلاح السلمي، وقد استوعب عقداً واحداً أي عشر سنوات وذلك من سنة ١٣٢٢هـ إلى سنة ١٣٣٢هـ.

والمقطع الخامس نسمّيه بدور المحنة والنهضة، وقد استوعب ثماني سنوات، وذلك من سنة ١٣٣٢هـ إلى سنة ١٣٣٩هـ.

والمقطع السادس نسمّيه بدور النهضة الثقافيّة وريادة الإصلاح، ويبلغ ستّ عشرة سنة وذلك من سنة ١٣٤٠هـ إلى سنة ١٣٥٦هـ وهو المقطع الذي تضمّن كلّ سفراته التي أعقبت رجوعه من المنفى ورفع الحظر عنه، فسافر فيها إلى كلٍّ من الحجاز والعراق وإيران.

والمقطع السابع هو دور الحصاد والاستقرار في لبنان، وقد استوعب عقدين من عمره أي من سنة ١٣٥٧هـ إلى سنة ١٣٧٧هـ حيث ارتحل إلى ربّه عن عمر ناهز تسعة عقود مباركة إلّا ثلث عقد، أي ٨٧ عاماً.

الفصل الثالث

الإمام شرف الدين والأُصول الكريمة

سلالة عليّ وفاطمة عليهما السلام

الحمد لله الذي جعلنا من سلالة عليّ أمير المؤمنين، وفاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين، فكنّا بذلك من زرع إبراهيم خليل الله، وفرع محمّد خير خلق الله، وأغصان شجرتهما المباركة، ذات الأمثال العليا في محكمات الكتاب والسنّة [1].

بهذه الكلمات افتتح السيّد المقدّس كتابه الرائع بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين ليدلّ الباحث على الأُصول الكريمة والنبع الطاهر من الشجرة الباسقة لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وآله الأطهار، تلك الشجرة التي تدلّت أغصانها وفروعها في ربوع الأرض، لتقف أمام الأهواء العاتية التي تريد للحقّ أن يضمحلّ وللباطل أن يستطيل؛ لأنّ الحقّ إذا استقرّ واستقام قضى على الأهواء والبدع فضلاً عن أهل الأهواء والبدع، وأينعت ثمار العدل على وجه البسيطة، وتحقّقت نبوءة الأنبياء والرسل التي أراد الله لها أن تتحقّق وفق السنن الكونيّة العامّة التي تضمن للإنسانية أن تتكامل باستمرار، وتتجلّى إرادة الحقّ في كلّ زمان ومكان، وتتلألأ آياته في ضمير الغيب وعالم الشهود.

وصلّى الله على أكرم الخلق حسباً، وأشرفهم نسباً وأعلاهم قدراً، وأرفعهم في الملأ الأعلى ذكراً، الذي بشّرت الأنبياء بظهوره، وخلقت الأنوار كلّها من نوره، محمّد بن

---

١. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٣.

عبد الله القائل: «كلّ بني أُنثى ينتمون إلى عصبة أبيهم، إلّا ولد فاطمة فأنا وليّهم وأنا عصبتهم وأنا أبوهم»[1].

وبهذا يتّصل هذا النبع الطاهر برسول الله ﷺ، وأكرم الخلق على الله، وأرفعهم ذكراً عنده، فإنّه أصل الأنوار الكائنة التي تجلّت فيها إرادة النور الحقّ، نور السماوات والأرض.

إنّه انتماء مشرق ومشرّف، انتماء في النسب والمكرمات والفضائل، انتماء يضمن لرسالة السماء أن تظهر على ما سواها، ويرسم للحقّ مساره في فجاج الأرض وربوعها، ليشعّ نور الهدى والرحمة الشاملة على كلّ كائن مرحوم.

آل شرف الدين

إنّهم النبع الفيّاض بالعلم والأدب والجهاد، ولقد أفصح عن هذه المكرمات العلّامة شرف الدين بقوله: «آل شرف الدين نبعة عتق، ومنحتُ صدق، ومعدن كرم، وأُسرة شرف. لهم المجد المؤثّل والحسب الموروث»[2].

لقد كان آل شرف الدين على مدى التاريخ بيت علم ودين وجهاد وأدب، حيث يجد المتتبّع لآباء وأجداد السيّد عبد الحسين وأعمامه عدداً كبيراً من العلماء والأُدباء في كلّ جيل، وبشكل مستمرّ وقليل النظير. لقد أحرزوا قصب السبق في مضامير الفضل، وخدموا الدين الإسلامي والمذهب الإمامي خدمةً مُثلى بالعلم والجهاد والأدب.

إنّ الملقّب المعروف بشرف الدين، الذي تنتمي إليه هذه الأُسرة الكريمة، هو السيّد الشريف الفقيه العالم العامل الأديب المكنّى بأبي محمّد والمسمّى بإبراهيم، المولود في جبع سنة ١٠٣٠هـ والمتوفّى في شحور سنة ١٠٨٠هـ.

وهو ابن الشريف زين العابدين العالم الفاضل الكامل، المولود في «جبع» سنة

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦.

٢. المصدر: ١٣.

٩٠٦هـ[1] والمتوفّى في ١١ ذي الحجّة في «منى» سنة ١٠٧٣هـ، والمدفون في المعلّى خلف ضريح أبيه شمالي مقام السيّدة أُمّ المؤمنين خديجة الكبرى عليها السلام.

وأبوه الشريف علي نور الدين ـ ٩٧٠ ـ ١٠٦٨هـ ـ أخو صاحب المدارك لأبيه وأخو صاحب المعالم لأُمّه، استوطن مكّة المعظّمة وتوفّي فيها ودفن في المعلّى.

وهو ابن نور الدين علي ٩٣١ ـ ٩٩٩ هـ. وأبوه الشهيد الشريف الحسين عزّالدين [٩٠٦ ـ ٩٦٣ هـ].

وقد ذكر السيّد عبد الحسين شرف الدين آباء هذا الشهيد أعني (عزّ الدين الحسين) كما يلي:

محمّد بن الحسين بن عليّ بن محمّد بن تاج الدين المعروف بأبي الحسن بن محمّد (ولقبه شمس الدين) بن عبد الله (ويلقّب جلال الدين) بن أحمد بن حمزة بن سعدالله بن حمزة بن أبي السعادات محمّد بن أبي محمّد، نقيب نقباء الطالبيّين في بغداد بن أبي الحارث محمّد بن أبي الحسن عليّ المعروف بابن الديلميّة بن أبي طاهر عبد الله بن أبي الحسن محمّد المحدّث بن أبي الطيّب طاهر بن الحسين القطعي بن موسى أبي سبحة بن إبراهيم المرتضى بن الإمام الكاظم بن الإمام الصادق بن الإمام الباقر بن الإمام زين العابدين بن الإمام أبي عبد الله الحسين سيّدالشهداء بن [الإمام] أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين عليّ بن أبي طالب عليه السلام[2].

آل شرف الدين وآل الصدر

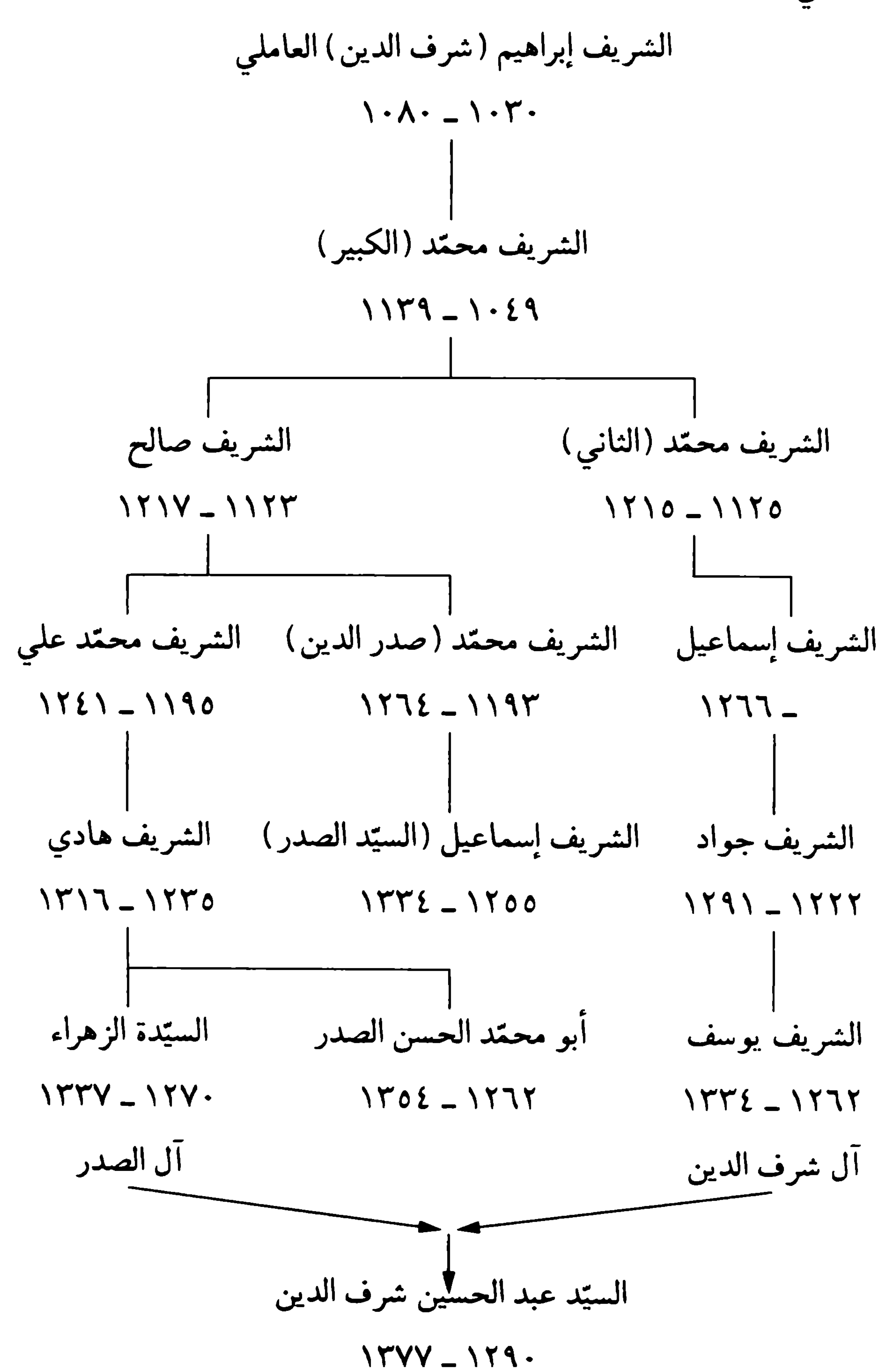
إنّ الشريف العلّامة السيّد محمّد الموسوم بـ«الكبير» (١٠٤٩ ـ ١١٣٩هـ) ابن العلّامة الشريف إبراهيم الملقّب بشرف الدين الموسوي العاملي، وهو الذي يلتقي عنده آل شرف الدين وآل صدر الدين، فإنّ السيّد يوسف والد العلّامة السيّد عبدالحسين

---

١. لعلّ الصحيح هو (١٠٠٦).

٢. الموسوعة ج ٧. بغية الراغبين: ١٧ ـ ١٩.

شرف الدين والسيّدة الزهراء والدته تتوسّط بينهما وبين السيّد محمّد الكبير أجيال ثلاثة كالآتي:



إذن آل شرف الدين وآل الصدر فرعان من أصل واحد وغصنان من دوحة واحدة، وقد ظهر فيهما منذ السنين المتطاولة أساطين الدين وأكابر الفقهاء وأئمّة العلم، ولا تزال آثارهم ومآثرهم الجليلة غرّة ناصعة على جبين الدهر، ووسام شرف يتوارثه الخلف عن السلف. وقد فتح «الإمام السيّد عبد الحسين» لأسرته صفحة جديدة، وأضاف إلى مجدها بمفرده ما تقصر عن حيازة مثله الجماعة، فهو تاريخ حافل ومآثره تباهي به الأواخر والأوائل [1].

الوالد الكريم

هو السيّد يوسف شرف الدين [2] ١٢٦٢ أو ١٢٦٣ ـ ١٣٣٤هـ. ولد في شحور وتعلّم فيها القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والنحو والصرف.

ثمّ ارتحل إلى جبع سنة ١٢٧٥هـ حيث كانت نجعة علم وشرعة فضل على عهد الشيخ عبد الله نعمة. ونبغ في العلوم العربية فيها حتّى هاجر منها إلى العراق سنة ١٢٨٥هـ فقرأ على ابن عمّه الشريف أبي الحسن الهادي في الكاظمية أصول معالم الدين فـقوانين الأصول ثمّ فرائد الأصول للشيخ المرتضى الأنصاري كما أخذ عنه شرح اللمعة. ثمّ حضر في خارج الأصول على ابن عمّه الشريف الهادي والسيّد إسماعيل الصدر والشيخ محمّد كاظم الخراساني والميرزا حبيب الله الرشتي. وفي خارج الفقه على الشيخ محمّد حسن آل ياسين والشيخ محمّد حسين الكاظمي حتّى أحرز من نفسه ملكة الاستنباط والاستغناء عن سبيلي التقليد والاحتياط.

وعاد إلى جبل عامل بأمر من والده سنة ١٢٩٧هـ، واستقرّ في «شحور» داعياً أهلها للتفقّه في الدين.

وانثال طلبة العلم عليه حين رأوه باذلاً وسعه في تربيتهم، مهتمّاً بشؤونهم حتّى حين كانوا يطلبون العلم وهم في حوزة النجف الأشرف.

---

١. نقباء البشر ٣: ١٠٨٠.

٢. ترجمه ولده في بغية الراغبين بالتفصيل فراجع الموسوعة ج ٧: ٤٠٦ ـ ٤٣٨.

ثمّ ترك «شحور» إلى بنت جبيل بعد فتنة حدثت فيها وتعذّر عليه الإصلاح بين أهلها، فتوازر مع الشيخ موسى شرارة على إعلاء كلمة الله والنصح لعباده في بنت جبيل واستمرّ معه فيها حتّى وفاة الشيخ موسى سنة ١٣٠٣هـ فرجع السيّد يوسف إلى شحور وقد تمّ إطفاء نار الفتنة فيها.

وتفرّغ إلى التدريس في «طورة» لموقعها الجغرافي حيث تتوسّط الساحل. فخفّ إليه جمّ من أهل الفضل فأصبحت «طورة» يومئذٍ كوكب علم ونبراس فضل، حتّى سنة ١٣٠٨هـ حيث توجّه معظم طلبته إلى النجف بعد إكمالهم لفرائد الأُصول عنده.

اختار الله له دار لقائه في الرابع والعشرين من ذي الحجّة سنة ١٣٣٤هـ، بعد أن كان قد أعدّ للموت عدّته وعهد إلى ولده السيّد عبد الحسين بما أهمّه مستبشراً بلقاء ربّه واللحوق بسلفه مخلّفاً من الشرفاء سبعة أشبل:

١. عبد الحسين المولود في ١٢٩٠هـ.
٢. السيّد شريف المولود في ١٢٩٨هـ.
٣. السيّد جواد المولود في ١٣٠٢هـ.
٤. السيّد محمّد المولود في ١٣١٢هـ.
٥. السيّد محمود المولود في ١٣١٧هـ.
٦. السيّد موسى المولود في ١٣١٨هـ.
٧. السيّد شرف الدين المولود في ١٣٢٧هـ.

الأُمّ الفاضلة

هي السيّدة الزهراء[١] (١٢٧٩ ـ ١٣٣٧هـ) كريمة السيّد هادي بن السيّد محمّدعلي بن السيّد صالح بن السيّد محمّد الكبير الذي يجتمع عنده نسب والدَي السيّد عبد الحسين شرف الدين.

---

١. ترجمها أيضاً ولدها في بغية الراغبين بالتفصيل فراجع الموسوعة ج ٧: ٤٣٩ ـ ٤٤٧.

كانت امرأةً صوّامة قوّامة ترتّل القرآن الحكيم مبتهلة إلى الله بفنون الدعوات، لا يجري لسانها بغير الحقّ ولو على نفسها، متأنّقة في خدمة زوجها وتربية أولادها، ناشطة لإكرام الضيوف هشّة بشّة وكانت في عزّة نفسها وشهامة طبعها قد أسقطت حقوقها الزوجيّة منذ تزوّج السيّد يوسف عليها. فانحازت لولدها السيّد عبدالحسين وكان محبوراً بخدمتها في هجرته العلميّة مدّة إقامته في العراق وبعد رجوعه إلى عاملة واستقراره في شحور ثمّ في صور حتّى اختار الله لها دار كرامته في الرابع عشر من ربيع الثاني سنة ١٣٣٧هـ. وكانت قد نهت ابنها السيّد عبد الحسين عن نقلها إلى المشاهد المقدّسة قائلة له: «يا بني، المؤمن مع من أحبّ أينما كان». وشيّعت تشييعاً رائعاً قليل النظير.

الباب الثالث

تاريخ الإمام شرف الدين

مرحلة النشأة

الفصل الأوّل : نشأة الإمام شرف الدين

الفصل الثاني : إجازات اجتهاده

الفصل الثالث : الهجرة إلى جبل عامل

الفصل الأوّل

نشأة الإمام شرف الدين

مولده المبارك

ولد السيّد عبد الحسين شرف الدين في مستهلّ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٠ في المشهد المقدّس الكاظمي أثناء رحلة والده السيّد يوسف شرف الدين لطلب العلم إلى العراق.

ولد من أبوين كريمين تربطهما أواصر القربى ويوحّد نسبهما كرم العِرق. فأبوه الشريف يوسف بن الشريف جواد بن الشريف إسماعيل بن السيّد محمّد بن السيّد محمّد «الكبير» بن السيّد إبراهيم، الملقّب بشرف الدين العاملي.

وأُمّه البرّة، الزهراء بنت السيّد هادي بن السيّد محمّد علي بن السيّد صالح بن السيّد محمّد «الكبير» بن السيّد إبراهيم شرف الدين.

لقد درج السيّد عبد الحسين في هذا البيت الرفيع الذي مُهِّدت له أسباب الزعامة الدينيّة والعلميّة، ورفع دعائمَه أعلامٌ لهم في دنيا الإسلام ذكرٌ محمود وفضلٌ مشهود.

ثمّ أخذ يرتع في رياض العلم والأخلاق التي ازدان بها هذا البيت الرفيع.

وفي الثامنة من عمره ـ في سنة ١٢٩٨ هـ ـ رجع مع والديه إلى قرية شحور ـ من أعمال وقرى مدينة صور ـ محبوراً برعايتهما وتربيتهما الفضلى له على غُرر الدين القويم.

النشأة العلميّة

١ ـ تلقّى سيّدنا المترجم له أوّل ما تلقّاه من أُصول الدين الإسلامي وفروعه من والديه الكريمين، فقد ربّياه معاً على: «إقامة الصلاة بشروط صحّتها حتّى جرى ذلك

منه مجرى الروح في الجسد» على حدّ تعبيره هو ﷺ[١].

إنّ أوّل أُستاذين حرصا على تنشئة السيّد عبد الحسين قد تركا أكبر الأثر في حياته العلمية والعمليّة، الفرديّة والاجتماعيّة، بحيث لم يغفل هو عن أهميّة هذه التنشئة المفعمة بالإخلاص والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وبُعد الغور وإحكام التدبير والنصح وتحرّي الرشد لولدهما حتّى أنّهما لم يدّخرا وسعاً في دلالته على الله تعالى وكتابه الكريم ورسوله العظيم وأوليائه الكرام.

٢ ـ لقد قرأ القرآن الكريم ـ أوّل ما قرأ ـ على معلّم من الصالحين في النجف الأشرف، حين كان والده قد هاجر إليها لطلب العلم.

وفي قرية شحور جوّد قراءته للقرآن الكريم ـ حين رحل إليها وهو في الثامنة من عمره ـ على عمّه المبرور السيّد محمود شرف الدين الذي كان من الحفّاظ والقرّاء البررة الأتقياء.

٣ ـ كما درس علوم العربيّة عند والده المقدّس فأخذ عنه الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والأدب العربي والمنطق بكلّ ضبط وإتقان.

٤ ـ وبدأ دراسته للفقه معوّلاً على رسالة نجاة العباد التي كانت مع الحواشي والتعليقات المدوّنة عليها يومئذٍ مرجعاً للمقلّدين. ثمّ أردفها بكتابي فقه الإماميّة وشرائع الإسلام.

لقد كان والده حريصاً على أن يستوعب تلميذه كلّ دروسه، فكان يأمره بكتابة كلّ درس ثمّ عرضه عليه، فلم يَفُته كتابة شيء ممّا قرأه عليه من الدروس إلّا قليلاً.

الهجرة إلى العراق

لقد تجاوز السيّد عبد الحسين شرف الدين سنيّ المراهقة وهو مشتغل بطلب العلم لدى والده في قرية شحور، وكان في أوج النشاط العلمي حين أقبل على مرحلة

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٤٩٣.

الشباب، وكانت الحوزة العلمية في العراق حينذاك قبلة العلماء وكعبة آمالهم التي لا تكاد ترتقي إليها أيّة حاضرة علميّة شيعيّة، فقد تخرّج منها والده وكثير من علماء جبل عامل والشام وإيران وغيرها من بلاد الإسلام.

من هنا كانت أُمنية سيّدنا المترجم له وهو لمّا يبلغ العشرين من عمره أن يرحل ـ لإكمال دراسته الدينيّة ـ إلى العراق.

وحين رأى والده أنّ بوارق النجح قد لمعت منه عَزَم على إرساله إلى محلّ أُمنيته، ولكن بعد أن أهّله بكريمة صنوه الأكبر السيّد محمّد شرف الدين (١٢٧٩ هـ)، فرحل برفقة أخيه السيّد الشريف[1] إلى العراق في التاسع من ربيع الأوّل سنة ١٣١٠هـ بعد أن أوصاهما بالالتزام بتقوى الله عزّ وجلّ والإخلاص له تبارك وتعالى في العلم والعمل.

وعلى هذا افترق الأب عن ولديه وعزيزيه، وحلّ السيّد عبد الحسين مع أخيه السيّد شريف وأُمّه وزوجته في الكاظميّة بعد رحلة طالت اثنين وخمسين يوماً عبر بيروت فالاسكندرونة فحلب فدير الزور فالكاظميّة، وكان دخولهم إليها قبيل فجر اليوم الثاني من جمادى الأُولى سنة ١٣١٠هـ.

واستقرّ السيّد بفناء جدّه المقدّس آية الله البالغة السيّد محمّد هادي الصدر موسعاً له أكناف رحمته، إلى جانب حنان جدّته الجليلة التي كانت تحنو عليه حنان الوالدات على الفطيم.

---

١. المولود سنة ١٢٩٨هـ في قرية شحور وكان قد درس القرآن والخطّ والأجروميّة والبناء وشرح القطر عند أخيه السيّد عبد الحسين حتّى أصبح فيما بعد ـ على حدّ تعبيره ـ من جهابذة أُولي النظر والراسخين في العلم ممّن يرجع إلى رأيه في الأحكام الشرعيّة ويستصبح بهديه في المعضلات الدينيّة، وكان يكره الشهرة والظهور ولم يتصدّ للرئاسة مع استسلامها إليه تأدّباً مع سيّده الوالد المقدّس أعلى الله مقامه، ولمّا لحق والده بربّه نهض المقدّس أخوه الشريف بأعبائها حتّى لحق بأبيه سنة ١٣٣٥هـ. أُنظر الموسوعة ج ٧. بغية الراغبين: ٤٥٠.

الاتّجاه إلى سامرّاء

قال المترجم له ﷺ:

لبثنا فيها ـ أي سامرّاء ـ سنة وشهرين، أواخر أيام آية الله وسفير خلفائه الإمام الحجّة الحسيني الشيرازي أعلى الله مقامه، وكان العلم فيها ضارباً بجرانه، وسوقه ممّا لا نظير له لكثرة من كان ثمّة من أعلام العلماء. ولم نزل هناك حتّى كانت الفتنة بين السامرّيين ـ أهل البلد ـ والمؤمنين من المجاورين فرحلنا إلى النجف الأشرف[1].

ومدينة سامراء التي تضمّ مرقدي الإمامين الهمامين: عليّ بن محمّد الهادي وابنه الحسن العسكري عليهما السلام، هي «سرّ من رأى» التي بناها المعتصم العباسي سنة ٢٢١هـ ونقل إليها عاصمته وسكنها بعسكره الذين كانت بغداد تضيق بهم ذرعاً آنذاك، وكانت عاصمة للعباسيين خلال ستّة عقود تقريباً.

ولم تزل في تدهور وتناقص حتّى توطّنها المجدّد الميرزا الشيرازي سنة ١٢٩١هـ. وبدأت الرحلة إليها من الآفاق، فكثرت فيها الشيعة وبنيت فيها مدرسة عظمى لطلبة العلوم الدينية. وبعد وفاته سنة ١٣١٢هـ أخذ عدد الشيعة يتناقص فيها وعادت إلى شبه حالها الأوّل، وبقي فيها عدد قليل جدّاً من الشيعة قد لا يزيد على عشرين عائلة شيعية إلى جانب الأغلبية السنّية التي كانت ولا زالت تقطنها.

نعم، أصبحت سامراء حاضرة علمية شيعية ومركزاً ثقافياً لهم حين استوطنها المجدّد الميرزا الشيرازي والتحق به خيرة تلامذته، مثل: الميرزا حسين النوري «١٢٥٤ ـ ١٣٢٠هـ» صاحب مستدرك الوسائل، والشهيد الشيخ فضل الله النوري «؟ ـ ١٣٢٧»، والسيّد حسن الصدر «١٢٧٢ ـ ١٣٥٤هـ» مؤلّف تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام، والسيّد إسماعيل الصدر «١٢٥٥ ـ ١٢٣٤هـ»، والسيّد محمّد كاظم

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٤٥٠.

اليزدي «؟ ـ ١٣٣٧هـ» مؤلّف العروة الوثقى، والسيّد محمّد الفشاركي «؟ ـ ١٣١٦ أو ١٣١٨هـ»، والشيخ محمّد كاظم الآخوند الخراساني «١٢٥٥ ـ ١٣٢٩هـ» مؤلّف كفاية الأصول، والشيخ آقا رضا الهمداني «؟ ـ ١٣٢٢هـ» مؤلّف مصباح الفقيه، والميرزا محمّد تقي الشيرازي «؟ ـ ١٣٣٨هـ» قائد ثورة العشرين ضدّ الانتداب البريطاني للعراق.

وذكر السيّد محسن الأمين العاملي واحداً وستّين شخصيّة علميّة عرفت بتتلمذها على المجدّد الشيرازي، بينما ذكر الشيخ آقا بزرك الطهراني (٣٧٢) شخصاً ممّن تتلمذ عليه في النجف أو سامرّاء[١]. وعلّل ذلك بقوله:

وحين علم الناس عزمه على البقاء انتقل الصفوة من تلامذته إليه حتّى صارت سامراء مثل الجزيرة الخضراء في الروحانيّة، وأعلى الله فيها ذكره وأعزّ نصره، وصارت سامراء دار العلم وبيضة الإسلام، والمرجع العام لأهل الدين والدنيا، وانتشر ذكرها[٢].

ولقد ثنيت الوسادة لهذا الإمام العظيم، وسادة الزعامة والإمامة وأُلقيت إليه مقاليد الأُمور، وناط أهل الحلّ والعقد ثقتهم بقدسيّ ذاته ورسوخ علمه وباهر حلمه وحكمته وأجمعوا على تعظيمه وتقديمه وحصروا التقليد به، فكان للأمّة أباً رحيماً تأنس بناحيته وتُفضي إليه بدخائلها، وكان للدين الإسلامي والمذهب الإمامي قيّماً حكيماً[٣].

خصائص الميرزا الشيرازي

١ ـ إنّ مسؤوليّة الزعامة الدينية التي تحمّلها السيّد المجدّد الشيرازي لم تقتصر على الاهتمام بشؤون طلاب العلوم الدينية وتأسيس حوزاتهم وتهيئة ما تقتضيه استمراريّتها، بل كان يتعدّى اهتمامه إلى عامّة الناس.

١. أُنظر هديّة الرازي إلى المجدّد الشيرازي: ٣٩؛ أعيان الشيعة ٥: ٣٠٧.
٢. هديّة الرازي إلى المجدّد الشيرازي: ٤٦.
٣. أُنظر مقدّمة تكملة أمل الآمل: ٢٠ ـ ٢١.

من هذا المنطلق نرى أنّ السيّد الشيرازي عندما ألمّت بأهالي النجف أزمة الغلاء سنة ١٢٨٨هـ حيث نتج عن ذلك عوز كبير فيها، أشبه القحط، وكان يهدّد سلامة الناس، فما كان من السيّد الشيرازي إلّا أن قام بما يخفّف الضغط عن الناس جميعاً بتهيئة المواد الغذائية حتّى العام المقبل الذي كان فيه عائد الزراعة العراقية متوفّراً بما رفع عنهم أزمة الشحّة والقحط[١].

٢ ـ اهتمامه بالواردين عليه، فبالرغم من أنّه كان مهيباً ووقوراً ـ بحيث ينقل عن الشيخ فضل الله النوري، أنّه قال: إنّي أستعدّ في منزلي لملاقاة السيّد الآقا الأُستاذ، وأُهيّئ نفسي لذلك، وأُعيّن ما أُريد أن أُطلعه عليه من أُموري، وما أُريد أن أكتمه عنه، فأدخل عليه، فإذا خرجت التفتّ أنّ كلّ ما كنت أُريد كتمانه عنه قد أخبرته به، وأخذه منّي، وأنا غير ملتفت، كلّ ذلك لهيبته وفطانته[٢] ـ فإنّه كان متواضعاً مع زوّاره والوافدين عليه، وخاصّته، مرحّباً بهم، ومكرماً لهم كلٌّ حسب رتبته ومكانته، ولم يكن في ذلك تصنّعاً منه، إنّما هي سجيّته، وطبعه، حتّى تحدّث المتحدّثون بأنّ: سيرته في مدّة رئاسته لم تكن أحسن من أخلاقه، وحسن ملاقاته، وعذوبة مذاقه، وحلاوة لسانه.

يعطي من لاقاه حقّ ملاقاته حسبما يليق به ولا يفارقه إلّا وهو في كامل السرور والرضا منه، كلٌّ على حسبه، كائناً من كان.

كان يُضرب بحسن أخلاقه المثل، ولا أشرح صدراً، منه تتكاثر عليه الزوّار والواردون، وفيهم الغثّ والسمين، والخائن والأمين، والصالح والطالح، والإنسان وخبيث اللسان، والمؤمن والمنافق، وكلّ يتكلّم على شاكلته، فلا والله لا يسمع منه كلمة سوء لغير مستحقّها، ولا غبر في وجه أحد قطّ، ولا جازى مسيئاً إلّا بالإحسان، ولا خاطبه إلّا بأحسن لسان، مع التبسّم في وجهه والاعتذار منه.

---

١. هديّة الرازي: ٤٠؛ أعيان الشيعة ٥: ٣٠٥.

٢. هديّة الرازي: ٥٣.

وممّا نقل عن سعة صدره وكظم غيظه: أنّ أحد زوّاره من النجف وفد عليه في سامراء ولم ينحله ما كان يأمله، فكتب إليه كتاباً فيه من الكلام الغليظ الشيء الكثير، وختم كتابه بقول القائل:

لعبت هاشم بالملك فلا　　　خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل[١]

ولمّا قرأ السيّد الكتاب أمر له بمبلغ من المال إضافة لما وصل إليه من قبل[٢].

ولا شكّ أنّ هذه الحادثة تدلّ على روحيّة خاصّة كان يتمتّع بها المجدّد الشيرازي، والذي كان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾[٣].

٣ ـ نظرته الشموليّة للأُمّة، فقد اعتبر التعرّف على وضع المسلمين واحداً من اهتماماته الأوّليّة، ومن تلكم القضايا التي أولاها الأهميّة وتعامل معها بحسن تصرّف، إذ كان يوزّع ما كان يرده من الحقوق الشرعيّة على مستحقّيها في البلد الذي اجتمع فيه المال، إذ:

كان له في كلّ البلاد وكلاء تجّار يكتب إليهم فهرس أسماء فقراء تلك البلدة ويعيّن ما يدفع لهم... ولا يترك بلداً فيه الفقراء والمعوزون من المسلمين إلّا ووصلهم بإحسانه[٤].

وكانت للسيّد الشيرازي عناية بالمجاورين في المشاهد الشريفة، وكان يعول سرّاً جماعات من أهل البيوتات، ومن التجّار أخنى عليهم الدهر فكان ينفق عليهم بدون أن يعلم بذلك أحد، فلمّا توفّي فقدوا ذلك، وضاقت بهم الحال[٥].

---

١. البيت ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان. تمثّل فيه وبأبيات لابن الزبعرى حين وضع بين يديه رأس الإمام الحسين عليه السلام عند وصول السبايا إلى الشام بعد مأساة يوم الطف في العاشر من محرّم عام ٦١ هـ.
راجع أعيان الشيعة ١: ٦١٦.

٢. معارف الرجال ٢: ٢٣٤.

٣. آل عمران (٣): ١٣٤.

٤. هديّة الرازي: ٥٨؛ أعيان الشيعة ٥: ٣٠٥؛ معارف الرجال ٢: ٢٣٤.

٥. أنظر أعيان الشيعة ٥: ٣٠٥.

أمّا بالنسبة لأهل العلم فكان ـ رضوان الله عليه ـ حريصاً على ألّا يدعهم بحاجة، فيرسل لهم مبالغ ليقوموا بتوزيعها على خاصّتهم ومعارفهم لعلمه بأنّ عالم البلد ينتظر منه المحتاجون المساعدة وكي لا يبقى أهل العلم في حرج كان يصلهم بالمساعدات المالية ما أمكن.

٤ ـ بالرغم ممّا عرف عنه من حصافة الرأي وبعد النظر في الأُمور العامّة التي تخصّ البلاد ـ سياسيّة كانت أو اجتماعية ـ فإنّه كان يجمع أهل الرأي والمشورة من وجوه تلاميذه وغيرهم ويعرض عليهم القضيّة، ثمّ بعد أن يجمع آراءهم ويناقشها يبتّ فيما يقتضي ذلك الأمر، قال الشيخ محمّد حرز الدين:

وكان زمام أُموره الداخليّة والخارجيّة بيده عدا الوقائع العرفيّة العامّة، والسياسيّة فإنّه كان يعقد لها مجلساً يحضره وجوه تلامذته الأعلام، وأهل التدبّر[1].

النشاط العلمي لشرف الدين في حوزة سامراء

عرفنا أنّ الميرزا السيّد محمّد حسن الشيرازي المجدّد قد هاجر إلى سامراء سنة ١٢٩١هـ، وكان قد التفّ حوله خيرة تلامذته والفضلاء ممّن يسترشد به ويهوى البحث معه والانصياع إلى مرجعيّته وزعامته.

وكان الإمام أبو محمّد الحسن الصدر (١٢٧٢ ـ ١٣٥٤هـ) خال السيّد عبد الحسين شرف الدين، وابن عمّه الإمام السيّد إسماعيل الصدر (١٢٥٥ ـ ١٣٣٤هـ) ممّن التحق بركب السيّد المجدّد الشيرازي وأشاد بحضوره عنده و بتدريسه حاضرة سامرّاء العلميّة.

وقد استشار السيّد المترجم له خاله وابن عمّه، فآثرا له ولأخيه الهجرة إلى سامراء طلباً للعلم بدل الهجرة إلى النجف الأشرف، وحين أمضى جدّه الشريف الهادي (١٢٣٥ ـ ١٣١٦هـ) هذا الاقتراح هاجر هو وأخوه إلى سامرّاء في كنف الخال وابن

---

١. أُنظر معارف الرجال ٢: ٢٣٤.

العمّ، وأقاما فيها سنة واحدة وشهرين، وكانت هذه المدّة أجزل أيّامه فائدةً وأتمّها عائدة وأرجاها منفعةً لهما، من حيث تفرّغهما لطلب العلم تحت رعاية العَلَمين العيلمين السيّدين الشريفين إسماعيل والحسن الصدر ﭭ.

وأمّا الكتب التي درسها السيّد عبد الحسين شرف الدين في سامراء والأساتذة الذين تتلمذ عليهم في دراسة تلك الكتب الدراسيّة فهي كالآتي:

١ ـ شرح اللمعة الدمشقيّة في الفقه.

٢ ـ مباحث الألفاظ من فصول الأصول، بدل معالم الأصول و قوانينه. حيث رأى خاله وابن عمّه أنّه يستوعب الفصول ويستغني بها عنهما[1].

وكان أُستاذه في شرح اللمعة الدمشقيّة «الروضة البهيّة» فضيلة الشيخ باقر حيدر الإمام في العلوم العربيّة، وقد كان ـ كما وصفه السيّد المترجم له ـ على غاية من الاعتدال في مفاد الأدلّة ومجاري الأُصول، معدوداً من المبرّزين.

وباعتبار رفعة مستوى السيّد المترجم له من حيث الاستيعاب، إذ كان يطوي في اليوم الواحد ما لا يُطوى في الأُسبوع، وكأنّه لم يره بمحتاج إلى أُستاذ.

وأمّا درس الفصول فقد قرأه على فضيلة الشيخ حسن الكربلائي ـ من أقران الإمام الميرزا حسين النائيني ـ وقد كان من أعلام الفقه وأطواد الأُصول وأبطال البحث والتنقيب.

وكان يتعمّق في درس الأُصول مع السيّد عبد الحسين. ويعلّمه كيفيّة استجلاء الغوامض، ويرهف عزمه لمناظرة العلماء والأفاضل، ويشحذ رأيه لدفع الحجج المزيّفة وقرعها بالحقّ. ويحمله على الإمعان والاستقصاء في البحث مع أترابه ومع من هو أفضل منه أو من هو دونه.

وكان السيّد عبد الحسين مع زميله في درس الفصول ـ وهو السيّد مهدي بن السيّد محمّد بحر العلوم ـ يراجعان قوانين الأصول أيضاً في كلّ درس من دروس الفصول.

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٤٩٨.

٣ ـ كما درسا في هذه الفترة «المطوّل» «شرح التلخيص» للتفتازاني.

وكان السيّد عبد الحسين في نفس الوقت يُدرّس أخاه الشريف النحو والصرف في شرح ألفيّة ابن مالك بعد أن كان قد درّسه في عاملة (في شحور) شرح القطر لابن هشام و شرح التصريف للتفتازاني.

التربية الأخلاقيّة الخاصّة

وفي صبيحة كلّ جمعة من كلّ أُسبوع كان السيّد عبد الحسين يغدو بخدمة سيّده وخاله ـ أعلى الله مقامه ـ إلى مجلس المولى والقدوة الشيخ ملّا فتح علي السلطان آبادي، حيث كان يحضر مجلسه العامر بالحكمة والوعظ والإرشاد أعلام الدين في سامراء وهم: السيّد إسماعيل الصدر، والشيخ ميرزا حسين النوري، والشيخ محمّدتقي الشيرازي، والسيّد محمّد الإصفهاني، والشيخ حسن علي الطهراني، والسيّد إبراهيم الخراساني، والشيخ حسن الكربلائي، والميرزا حسين النائيني.

وقد كان هذا الشيخ ممّن ترمقه أبصار الصدّيقين وتمدّ إليه أعناق المقدّسين رقيباً على نفسه، زاهداً في الدنيا راغباً في ما عند الله ضعيفاً في بدنه قويّاً في ذات الله، إذا أفاض في الحكمة تفجّرت ينابيعها على لسانه فملك أعنّة القلوب وردّ شوارد الأهواء وقوّم زيغ النفوس[1].

فتنة سامرّاء وهجرة شرف الدين منها

حين تألّب شذّاذ عشائر سامرّاء على المرجع الأعلى للأُمّة الإسلاميّة شيخ الإسلام وآية الله العظمى السيّد الشريف الميرزا حسن الحسيني الشيرازي، متسوّرين على حرمه المنيع أوباشاً طغاماً معترضين سبيله، تأجّجت نيران فتنة فقماء حتّى أوجبت خروج السيّد المترجم له وأخيه من سامراء.

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٤٩٩.

وكانت هذه الفتنة قد أقامت وأقعدت العراق وإيران والعالم الإسلامي، ثمّ تطوّرت وتجاوب صداها وجلجل في العالم الإسلامي غضباً جامحاً بحيث أثار نَهَم الطامعين في العراق من دول الاستعمار. حتّى أسرع سفير بريطانيا إلى سامراء يطرق أبواب المرجع الإمام الشيرازي بكلّ خشوع، حاملاً إليه رسالة التطوّع لأوامره من دولته العظمى بريطانيا.

وقد كان السيّد الإمام الشيرازي بعيد الغور ثاقب الفكر، سديد الرأي، فوقف على كنه رسالة السفير البريطاني، فردّها ردّ الأبيّ الحميّ، وأنكر أن يكون قد وقع شيء من أهل سامراء ممّا ينافي الكرامة، وإنّما كان جموح الولد المدلّل على والده العطوف.

وما كان قد أطمع بريطانيا كان هو الذي قد أقلق السلطان العثماني عبد الحميد أيضاً إذ أصدر أوامره لعامله ببغداد حسن باشا لينزل عند الإمام الشيرازي ويوكل أمر تأمين سامراء وتأديب الأشقياء إلى السفير الإيراني صدر السلطنة، مع صلاحيات واسعة لإنزال كلّ عقوبة بهم.

وأمّا الإمام الشيرازي فهو بسياسته الحكيمة وأُبوّته الرحيمة، قد أطلق سراح المعتقلين وأرجع المنفيّين إلّا نفراً يسيراً من جراثيم الفتنة، مُرجئاً العفو عنهم حتّى فيئهم إلى الرشد وإحراز صدق التوبة منهم.

وكان خروج السيّد عبد الحسين شرف الدين من سامراء عند استفحال هذه الفتنة، باتّجاه الاستقرار في النجف الأشرف مروراً بالكاظميّة متشرّفاً بأعتاب الإمامين الكاظمين الجوادين عليهما السلام للتزوّد من عطف جدّه السيّد الهادي الصدر والتفيّؤ بظلال حنانه الوارف.

وقد كان السيّد عبد الحسين يحظى بخدمة جدّه حينذاك في حلقةٍ من أولاده وأحفاده وأسباطه، ويستقي من بحره ما يشاء من علم ودين وأدب وأخلاق وطهارة[1].

---

١. اُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٠٣.

الهجرة إلى جامعة النجف الأشرف

لقد كانت الهجرة من سامراء سبباً لتوجّه السيّد عبد الحسين إلى مدينة باب علم النبيّ وإناخة حاجاته بفناء الوصي. وكان نشاطه العلمي فيها كما يلي:

١ ـ لقد سبقه في الهجرة إليها أُستاذه الشيخ باقر حيدر، ممّا جعله يستمرّ عنده في درس الفقه أي في المكاسب للشيخ الأنصاري أعلى الله مقامه.

٢ ـ بينما عكف في الأُصول على درس السيّد محمّد صادق الإصفهاني المتوفّى سنة ١٣٤٨هـ إذ بدأ عنده بدراسة فرائد الأُصول.

وقد كان منهج أُستاذه في الفقه منهجاً تربويّاً بحقّ، يعلّمه على التعمّق والغوص إلى بحور الفقه؛ ليكتشف بنفسه الحقائق ويكشف النقاب عن الغوامض.

كما كان يستفزّه إلى إعمال النظر في ما تختلف فيه الأنظار من المسائل، ثمّ يدفعه إلى مناقشة أُستاذه ومعارضة حجّته، مع أناة وصبر وحلم، رغم سرعة السير في التدريس بحيث انتهى منه السيّد بسرعة إلّا يسيراً من أبوابه.

٣ ـ وفي الفقه أيضاً درس السيّد عبد الحسين عند الفقيه العلّامة الشيخ عليّ بن الشيخ باقر ابن صاحب الجواهر (المتوفّى سنة ١٣٤٠هـ)، وكان قد درس عنده من قبل أبواب العبادات من كتاب الرياض.

فـالمكاسب إذن قد درسها السيّد عبدالحسين عند أُستاذين قديرين وعلمين عيلمين.

وأمّا منهج أُستاذه في فرائد الأُصول فلم يقلّ شأناً عن درسه الآخر في الفقه؛ لأنّ أُستاذه كان ممّن جمع أشتات العلوم والفنون وكان من المعروفين بتدريس الفرائد، معتدل الطريقة حسن الأُسلوب، ملمّاً بآراء ونظريات المتقدّمين والمتأخّرين ممّن سبق الشيخ الأنصاري ومن تأخّر عنه.

٤ ـ وهكذا أنهى السيّد عبد الحسين دراسته في الفقه وأُصوله في مرحلة السطوح، وانتقل إلى مرحلة البحث الخارج عن الكتب الدراسيّة، وحضر حضور تفهّم وتبحّر عند

فحل من فحول العلم والمعرفة في درس الأُصول، ألا وهو الشيخ محمّد كاظم الخراساني المعروف بتبحّره وغوره في العلوم العقليّة والنقليّة معاً.

وكان آية الله الخراساني «المتوفّى سنة ١٣٢٩هـ» شارعاً حينذاك في تأليف كتابه الأُصولي كفاية الأصول، وكان منهجه أن يدوّن ما يريد تدريسه ثمّ يُلقيه على طلبته الذين كان يربو عددهم على الثلاثمائة كلّهم من أهل الفضل والتحقيق.

وكان السيّد عبد الحسين يرافق أُستاذه السيّد محمّد صادق الإصفهاني في درس الآخوند الخراساني، إذ كان السيّد محمّد صادق الإصفهاني من المبرّزين في درس صاحب الكفاية نظير السيّد أبي الحسن الإصفهاني إذ ذاك وربما كان مقدّماً عليه.

وكان السيّد عبد الحسين شرف الدين ملازماً لدرس أُستاذه الخراساني في الأُصول ملازمة الظلّ لذي الظلّ حتّى هاجر من النجف إلى عاملة.

وكان يرجع فيما يشكل لديه إلى أُستاذه السيّد محمّد صادق الإصفهاني بالإضافة إلى مراجعاته لأُستاذه الخراساني أيضاً.

وقد كان السيّد عبد الحسين أيضاً يمارس التدريس إلى جنب طلبه للعلم من نمير هؤلاء العلماء.

٥ و ٦ ـ وأمّا دراسته الفقهيّة في مرحلة البحث الخارج، فقد عكف فيها على عَلَمين قديرين ينحدر عنهما السيل ولا يرقى إليهما الطير: أحدهما المرجع المعروف الشيخ محمّد طه نجف «المتوفّى سنة ١٣٢٢هـ». وثانيهما الآقا رضا الهمداني «المتوفّى سنة ١٣٢٢هـ» صاحب الحاشية المعروفة على المكاسب والكتب القيّمة في الطهارة والصلاة والخمس والتي عرفت بـمصباح الفقيه.

لقد حضر عنده السيّد عبد الحسين في الوقت الذي كان الهمداني منشغلاً بتأليفه لـمصباح الفقيه، وقد وصفه السيّد بأعدل المؤلّفات وأفضلها دقّة، كما وصفه بحسن الأُسلوب. وكانت رويّته وطريقته أن يكتب كلّ ما يريد إلقاءه على تلامذته.

وأمّا الشيخ محمّد طه نجف فقد كان في فقه أهل البيت عليهم السلام موسوعة جامعة، بل

الفقه بجميع أبوابه في يده، حتّى كان يمتاز عن غيره، بذلك.

٧ ـ وكانت حوزة الإيرواني أيضاً جامعة لخاصّة الفحول في علمي الفقه والأُصول من أمثال الشيخ باقر حيدر والشيخ علي باقر ومن هو في طبقتهما، حيث كان البحث بمستوى لا ينتفع به إلّا المتوسّط من طلّاب البحث الخارج ومن فوقه من المنتهين.

ولم يقتصر السيّد على الأخذ من نمير علم أُستاذه الإيرواني، وإنّما كانت علاقته تمتدّ به إلى آفاق أُخرى من التربية الروحيّة إذ كان جاراً له ولمسجده الذي يقيم فيه الفرائض الخمس حيث كان يحضر صلاته المقدّسون من العلماء العاملين وعامّة المقدّسين من المؤمنين.

وكان ممّا يزيد هذه العلاقة حناناً وعمقاً ما كان بين الشيخ الإيرواني وبين والد السيّد عبد الحسين شرف الدين من علاقة سابقة، إذ الإيرواني هذا كان أُستاذاً لوالده السيّد يوسف أيضاً، وكان والده (السيّد يوسف) من خرّيجي حوزته.

وكان أيضاً ممّا يزيد هذه العلاقة قوّةً وتلاحماً حضور الشيخ علي باقر عند الإيرواني، فإنّه كان حلقة وصل أُخرى بين السيّد شرف الدين وأُستاذه الإيرواني الذي كان يرتوي من بحر معارفه ليل نهار، والشيخ علي باقر بما كان يطرحه من بحوث ومناقشات يحضرها السيّد أيضاً كان يزيده اختصاصاً بأُستاذه ويربّيه على الدقّة والاعتدال اللذين عرف بهما الشيخ باقر هذا طاب ثراه.

٨ ـ وفي الفقه أيضاً حضر السيّد عبد الحسين عند الشيخ فتح الله المكنّى بشريعةمدار والمعروف بشيخ الشريعة الإصفهاني، فقد كان من أعلام الفقه والأُصول، فسيح الخطوة في المعقول والمنقول، غزير المادّة في ما يؤثر عن أهل البيت عليهم‌السلام، واسع الرواية، طويل الباع في أخبار الماضين، عذب المنطق بفمه وقلمه، لطيف الكنايات، حسن الخطّ، حاضر الذهن سريع الخاطر، على جانب من الورع والعبادة[1].

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

كانت حوزته تربو على المئتين، وكان يؤثر السيّد عبد الحسين شرف الدين غالباً ويخلو به في بعض الأوقات، حتّى اختصّه ببعض المسائل المشكلة وكلّفه باستنباط حكمها، فامتثل السيّد أمره وأنجزه بأحسن وجه ممّا أعجب به الشيخ الإصفهاني ﷺ.

٩ ـ وفي الأيّام الأخيرة من تواجد السيّد عبد الحسين شرف الدين في النجف الأشرف وقف على أعتاب الشيخ عبد الله المازندراني «المتوفّى سنة ١٣٤٠هـ» أحد شيوخ الإسلام في تلك الأيّام، وكان بحراً لا يسبر غوره، له حوزة تربو على المئتين من أهل الفضل والتحقيق. وكان السيّد يحضر درسه حضور تفهّم ومناقشة ومناضرة. وكان في حينها مشغولاً بشرح التبصرة، وكان يعرض ما عنده على أُستاذه المازندراني في حلقة خاصّة من أفاضل حوزته في وقت كان قد خصّصه له كلّ يوم، وكان يسأله عن دقائقه ويبحث معه لتمحيص حقائقه، حتّى كان يسرّه ويمدح تلميذه هذا قائلاً له: ما كَذَّبَتْني والله فيك الظنون.

١٠ ـ وأمّا في الحديث والسنن وأسانيد الرواية وعلم الدراية، فقد رجع سيّدنا المترجم له إلى الشيخ المقدّس حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل ـ أعلى الله مقامه ـ وذلك في مستهلّ شهر رمضان من سنة ١٣١٩هـ.

لقد كان ـ أعلى الله مقامه ـ قبلة الروّاد في هذا الفنّ، ذا ملكة قدسيّة راسخة، تبوّأ فيها منازل الفقهاء المسلمين. عرف السيّد منه الإخلاص لوجه الله عزّ وجلّ في كلّ ما يصدر عنه من قول أو فعل، فأخذ ذلك بمجامع قلبه وملك حبّه عنانه حتّى أخذ يتّبع أُستاذه اتّباع الفصيل أثر أُمّه.

وكان الأُستاذ يبسط له أعطافه ويوسع له أكنافه، ولم يألُ في تربيته جهداً ولم يدّخر عنه وسعاً، حتّى أجازه إجازة مفصّلة، وقد توفّي ﷺ في النجف الأشرف ليلة الأربعاء السابع عشر من جمادى الأُولى سنة ١٣٢٠هـ[1].

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥١٠.

المنهج الذي نشأ عليه شرف الدين

نظراً لأهمّيّة المنهج الدراسي في التنشئة العلميّة والأخلاقيّة ونظراً لاهتمام الإمام شرف الدين واهتمام أساتذته بالمنهج من الضروري أن نقف عند هذه الظاهرة في حياته المباركة ضمن النقاط التالية:

١ ـ المنهج الذي ربّاه عليه والده السيّد يوسف

وقد وصف العلّامة السيّد عبد الحسين شرف الدين هذا المنهج الفذّ بقوله:

١. كان يأمرني بكتابة دروسي وعرضها عليه.

٢. حين قرأت كتب النحو كان يفرض عليّ قراءة العبارة على العربيّة ثمّ إعرابها ثمّ تفسيرها قبل الدرس كلّ يوم.

٣. وكنت أحفظ كلّ يوم بيتين من ديوان الحماسة أو غيره من شعر العرب، فأتلوهما وأُنشدهما بين يديه بعد مراجعة القاموس في حلّ الغريب من مفرداتهما، ولم يجعل لي مندوحةً من ذلك أبداً.

٤. وألزمني بحفظ ألفيّة ابن مالك.

٥. وكان في شهر رمضان يلزمني بمتابعته في قراءة القرآن ـ وكان من القرّاء ـ بخشوع الأبصار وسكون الجوارح خشيةً وفرقاً.

٦. ما رأيت مثله أُستاذاً يغدو على التدريس بسعة ذرعه، ويروح على البحث مع تلميذه بشهامة طبعه، يعيره إذا تكلّم أُذناً صاغية، ويتلقّاه ـ وإن أخطأ ـ بوجه متهلّل وصدر منشرح. فكنّا في كلّ ما نسمعه منه ونرفعه إليه على جمام من أنفسنا ونشاطٍ من عزائمنا.

٧. وكان يرهف طباعنا بتشجيعه، ويجلو عنّا صدأ الفتور بما يذلّله من العقاب ويروّضه من الصعاب.

٨. ويخوض بنا عباب العلوم ويغرينا بالغوص على أسرارها، وينضي بنا ركائب الطلب في جمع أشتاتها.

٩. ويحملنا في ذلك على كلّ صعب وذلول، فيضطرّنا إلى تمحيص حقائقها والتنقيب عن دقائقها.

١٠. وكان في سلخ كلّ شهر يبلو ما عندنا فيختبر كنهه ويسبر غوره، فإذا وجد نقصاً أكمله أو ضعفاً تداركه، يرهف بهذا طباعنا ويستأنف به نشاطنا [١].

وأضاف إلى ذلك نقطة مهمّة في توفيقه وفراغ باله لطلب العلم قائلاً عمّا قام به والده في رحلته مع أخيه:

أرصَدَ لها ما يضمن لنا الراحة في التفرّغ للعلم حتّى نعود إليه بما ناطه بنا من الثقة وعلّقه علينا من الأمل، وهذا ما اضطرّني إلى إرهاف العزم وإنفاذ الهمّة وبسط العنان في إيقاظ الجنان.

وقد تأثّر السيّد المترجم له بهذا المنهج الفريد، فقد ذكر ﷺ منهجه الذي كان قد اختاره في التدريس في معرض حديثه عن تدريسه شرح القطر قطر الندى وبل الصدى لأخيه الأصغر السيّد الشريف شرف الدين، قال:

وكنت أُلزمه كلّ يوم بتركيب العبارة بعد قراءتها وضبطها على العربيّة ـ مادّةً وهيئةً ـ فلمّا توسّط القطر ألزمته مضافاً إلى ذلك بتفسير العبارة أمام الدرس في كلّ يوم وتقرير الدرس بعده عن ظهر الغيب، وأخذ عنّي مع القطر شرح التصريف للتفتازاني بطريقة مستقيمة متقنة، فما أكمل الكتابين إلّا وهو ماهر في قواعد النحو والصرف [٢].

ثمّ قال عن آثار هذا المنهج بالنسبة لأخيه الشريف:

وانطبعت قواعد العلمين على لوح حافظته، وانتعشت في صفحة ذهنه، وكانت تدور على لسانه، ورغب فيه طلّاب العربيّة فعكفوا عليه يأخذون عنه دروسها [٣].

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٤٩٤ـ٤٩٦.

٢. المصدر: ٤٥٠.

٣. المصدر: ٤٥٠.

٢ ـ أمّا الشيخ باقر حيدر

فقد قال عن منهجه:

انطلق يطوي بي في اليوم الواحد من شرح اللمعة ما لا يطوى في الأُسبوع، على ما كان ملتزماً به من إعمال الرويّة الثاقبة والنظر الدقيق. إذ لم يرني والحمد لله بمحتاج في اللمعة إلى أُستاذ.

٣ ـ وأمّا الشيخ حسن الكربلائي

فقد أوضح منهجه الدراسي بقوله:

١. تعمّق في درسي يتقصّى في التحقيق والتدقيق.

٢. فيعلّمني كيف تمحّص الحقائق وكيف تستجلى الغوامض.

٣. وكان يغريني بمناقشته، ويحدوني على نقض ما يبرمه وإبرام ما ينقضه.

٤. ويرهف عزمي لمناظرة العلماء والأفاضل.

٥. ويحملني على الإمعان والاستقصاء في البحث مع أترابي ومع من هو أفضل منّي ومع من هو دوني[1].

٤ ـ الموادّ والكتب الدراسيّة التي اجتازها الإمام شرف الدين، وأساتذته في كلّ فنّ

١. القرآن الكريم، قراءةً، في النجف عند معلّم من الصالحين لم يذكر اسمه.

٢. القرآن الكريم، تجويداً، في شحور، عند عمّه السيّد محمود شرف الدين «حافظ مقرئ».

٣. الصرف، في شحور، عند والده السيّد يوسف شرف الدين.

٤. النحو، ألفيّة ابن مالك وغيرها، في شحور، عند والده السيّد يوسف شرف الدين.

٥. المعاني والبيان والبديع، في شحور، عند والده السيّد يوسف شرف الدين.

٦. الأدب العربي ديوان الحماسة وغيره، في شحور، عند والده السيّد يوسف شرف الدين.

---

١. المصدر: ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

٧. المنطق، في شحور، عند والده السيّد يوسف شرف الدين.

٨. نجاة العباد «رسالة علميّة فقهيّة»، في شحور، عند والده السيّد يوسف شرف الدين.

٩. فقه الإماميّة، في شحور، عند والده السيّد يوسف شرف الدين.

١٠. شرائع الإسلام، في شحور، عند والده السيّد يوسف شرف الدين.

١١. شرح اللمعة «في الفقه»، في سامرّاء، عند الشيخ باقر حيدر.

١٢. الفصول الغروية «في الأُصول»، في سامرّاء، عند الشيخ حسن الكربلائي.

١٣. الأخلاق، في سامرّاء، عند القدوة الشيخ ملّا فتح الله السلطان آبادي.

١٤. المكاسب، في النجف، عند الشيخ باقر حيدر.

١٥. المكاسب أيضاً، في النجف، عند الشيخ علي باقر.

١٦. الرياض «العبادات»، في النجف، عند الشيخ علي باقر.

١٧. فرائد الأصول، في النجف، عند السيّد محمّد صادق الإصفهاني.

١٨. خارج الأُصول، في النجف، عند الإمام الشيخ محمّد كاظم الخراساني.

١٩. خارج الفقه، في النجف، عند آية الله الشيخ محمّد طه نجف.

٢٠. خارج الفقه، في النجف، عند آية الله الشيخ آقا رضا الهمداني.

٢١. خارج الفقه، في النجف، عند آية الله شيخ الشريعة الإصفهاني.

٢٢. خارج الفقه وأُصوله، في الكاظميّة والحائر الحسيني، عند آية الله شيخ الشريعة الإصفهاني وعند السيّد أبي الحسن الهادي الصدر، والسيّد أبي محمّد الحسن الصدر، والسيّد إسماعيل الصدر.

جولة في تراجم أساتذة الإمام شرف الدين

لقد ترجم الإمام شرف الدين لأساتذته ونقل لنا تصوّراته وانطباعاته عنهم. ومن هنا نقف عند هذه الظاهرة في حياته المباركة.

١ ـ والده السيّد يوسف شرف الدين «١٣٣٤هـ»

قال ﴿قدس سره﴾ :

ما رأيت كوالدي أباً رحيماً يُعنى بأمر ولده، ويهتمّ بشؤونه، فلا ينى في شيء من مبلغات نجحه أبداً.

وما رأيت مثله أُستاذاً يغدو على التدريس بسعة ذرعه، ويروح على البحث مع تلميذه بشهامة طبعه ...

كان ذا زماع في الأُمور، ماضي العزيمة فيها، إذا قال فعل.

حين لمعت منّي بوارق النجح أجمع على إرسالي إلى جامعات الدين في العراق.

ومقدّمة لتلك الرحلة أهّلني بكريمة صنوه الأكبر عمّي المبرور السيّد محمّد.

إنّ لوالدي في رحلتي إلى معالم العلم والدين نعمة تجدّد قديم نعمائه.

أرصد لها ما يضمن لنا الراحة في التفرّغ للعلم، حتّى نعود بما ناطه بنا من الثقة وعلّقه علينا من الأمل.

وكان قد شرط علينا قبل زمّ الركائب وأمرنا عند الوداع بتقوى الله والإخلاص له تبارك وتعالى في العلم والعمل.

٢ ـ الشيخ باقر حيدر «١٣٣٣هـ»

شيخه المقدّس، كان من ذوي البسطة في الفقه والأُصول إماماً في العلوم العربيّة، كان معدوداً في المبرّزين.

وكان على غاية من الاعتدال في مفاد الأدلّة ومجاري الأُصول.

وكان ملتزماً بإعمال الرويّة الثاقبة والنظر الدقيق والغور البعيد.

٣ ـ الشيخ حسن الكربلائي «١٣٢٠هـ»

كان من أعلام الفقه وأطواد الأُصول وأبطال البحث والتنقيب، ربيط الجأش فيهما، مشبع القلب في الجدال والمناظرة، صادق البأس في معترك الآراء قد ملك فصل الخطاب ومفصّل الصواب.

٤ ـ الشيخ ملّا فتح عليّ السلطان آبادي «١٣١٨هـ»

كان من أعلام الدين. وممّن ترمقه أبصار الصدّيقين وتمتدّ إليه أعناق المقدّسين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه. وكان أعلى الله مقامه ممّن ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً** ﴾[١] و﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض** ﴾[٢].

رقيباً على نفسه في كلّ حركة وسكون، يحاسبها على كلّ منهما، زاهداً في الدنيا راغباً في ما عند الله، ضعيفاً في بدنه، قويّاً في ذات الله، كأنّ أمير المؤمنين عليه‌السلام إنّما عناه إذ وصف بعض إخوانه فقال: يعظّمه في عيني صغر الدنيا في عينيه.

فإذا فاض في الحكمة تفجّرت ينابيعها على لسانه، فملك أعنّة القلوب وردّ شوارد الأهواء، وقاد حرون الشهوات، وقوّم زيغ النفوس، فخفقت الأفئدة خيفة، وخشعت الجوارح خشية.

٥ ـ الشيخ عبد الله المازندراني «١٣٣٠هـ»

فقد كتب عنه ما نصّه:

شيخنا المقدّس، كان أحد الأعلام من شيوخ الإسلام في تلك الأيّام، بحراً لا يُسبر غوره ولا ينال دركه، وكانت حوزته تربو على المائتين من أهل الفضل.

٦ ـ الشيخ حسين النوري «١٣٢٠هـ» صاحب مستدرك الوسائل

وكتب عنه ما نصّه:

كان أعلى الله مقامه وجهة الأعلام من حملة السنن النبويّة وحفظة الآثار المقدّسة قبلة روّادها وقدوة الباحثين عن مفادها، غير مدافع ولا معارض.

وكان في الإيمان بالله عزّ وجلّ والثقة به والتوكّل عليه والتسليم إليه والرضا بقضائه وقدره، والنصح له ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين ولعامّتهم، والورع عن محارمه

---

١. السجدة (٣٢): ١٦.

٢. آل عمران (٣): ١٩١.

والاجتهاد في عبادته تعالى غاية لا ترام وشأوٍ لا يدرك.

وكان بحيث لا تدرك آثاره في مكارم الأخلاق ومحامد الصفات وعزّة النفس وتأنّقها والترفّع بها، مع التواضع للمؤمنين والعطف على اليتامى والأيامى والفقراء والمساكين.

لا يجارى في شرفه ولا يبارى في علوّ قدره.

وكان من علمي الفقه والأُصول في ذروة سامية، ذا ملكة قدسيّة راسخة تبوّأ فيها منازل الفقهاء المسلمين.

عرفت منه الإخلاص لوجه الله عزّ وجلّ في كلّ ما يصدر عنه من قول وفعل، فأخذ بمجامع قلبي وملك حبّه عناني.

٧ ـ الشيخ محمّد طه نجف «١٣٢٣هـ»

علم الفقه الذي ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير.

كان ممّن تشدّ إليه الرحال وتضرب إليه أكباد الإبل، وممّن عندهم مفصل الصواب وفصل الخطاب.

وكان في فقه أهل البيت موسوعة جامعة وعيلماً محيطاً، تدور الأحكام الشرعيّة الفرعيّة بأدلّتها التفصيليّة على لسانه، فالفقه بجميع أبوابه بيده، ولعلّه يمتاز بهذه الخصيصة عن غيره.

وكان مرجع العرب في العراق وسائر الآفاق. على غاية من الزهد والورع والفضيلة بكلّ معانيها من فقهاء الأُمّة وممثّلي هدي الأئمّة عليهم السلام.

٨ ـ الشيخ فتح الله شيخ الشريعة الإصفهاني «١٣٣٩هـ»

كان أعلى الله مقامه من أعلام الفقه والأُصول، فسيح الخطوة في المعقول والمنقول، غزير المادّة فيما يؤثر عن أهل بيت العصمة، واسع الرواية في ذلك، طويل الباع في أخبار الماضين وحوادث السنين، عذب المنطق، أنيق اللهجة، حسن الترسّل، متصرّفاً في ضروب الكلام، بكلٍّ من فمه وقلمه، لطيف الكنايات وبديع الاستعارات، حلو المجاز، حسن الخطّ، سريع الخاطر، حاضر الذهن، بديهي الجواب، على جانب من

الورع والعبادة ركناً من أشدّ أركان المؤمنين، ومنهلاً من أصفى مناهل العلم والدين.

كانت له حوزة تربو على المئتين من كلّ مرهف للعلم طبعه، باذلٍ فيه وسعه.

٩ ـ الآقا رضا الهمداني «١٣٢٢هـ»

قال عنه وعن الشيخ محمّد طه نجف: «عَلَمي الفقه اللذين ينحدر عنهما السيل ولا يرقى إليهما الطير».

وعن الآقا رضا قال:

كانت حوزته كلّها من خاصّة الفحول في علمي الفقه والأُصول.

كان درسه من أنفع الدروس للمتوسّطين وللمنتهين من الفقهاء والأُصوليّين.

كان يقيم الفرائض الخمس في جماعة المقدّسين من العلماء العاملين والأبرار من عامّة المؤمنين المقدّسين.

١٠ ـ الشيخ عليّ باقر حفيد صاحب الجواهر «١٣٤٠هـ»

ووصفه بكلمة موجزة ولكنّها دقيقة وعميقة بقوله: «بحّاثة، قليل النظير في فضلاء العرب، دقّة واعتدال سليقة».

١١ ـ السيّد محمّد صادق الإصفهاني «١٣٤٨هـ»

كان ممّن جمع أشتات العلوم والفنون، أُصولها وفروعها، وقام في تدريسها على ساق.

كان من المعروفين في سبر غورها، يعني فرائد الأُصول.

كان معتدل الطريقة، حسن الأُسلوب إلى الغاية، تدور على لسانه مطالب المحقّقين من أعلام المتقدّمين والمتأخّرين، لا سيّما الشيخ مرتضى الأنصاري ومن جاء بعده من أُولي الأنظار الثاقبة. وله بين دلائهم دلو، ملأه إلى عقد الكرب.

وكان السيّد محمّد صادق من المبرّزين في حوزة أُستاذه الشيخ محمّد كاظم الخراساني.

كان نظير حجّة الإسلام السيّد أبو الحسن الإصفهاني وربما كان مقدّماً عليه.

تركته في النجف الأشرف في مدرسة القوام وله حوزة تقدّمه وتؤهّله للزعامة العظمى، ثمّ بلغني ذهابه إلى إصفهان وانقطعت عنّا أخباره.

١٢ ـ الآخوند محمّد كاظم الخراساني «١٣٢٩هـ»

قال عنه:

فإنّي لم أجد أدقّ منه نظراً، ولا أعدل فهماً، ولا أحضر ذهناً، ولا ألحن منه بحجّة، يثبت رأيه بالبيّنات القاطعة والحجج الملزمة، مستظهراً بدليل العقل والنقل. حوزته يومئذٍ تربو على الثلاثمائة من أهل الفضل والتحقيق. فإنّ كلّ عالم من الإماميّة في هذا العصر إنّما عنه أخذ ومن حوزته تخرّج.

وقد سار بأبطال العلم في عصره سيراً سجاحاً لا يُكلم خشاشه ولا يتتعتع راكبه، فأوردهم مناهل من العلوم العقليّة والنقليّة، رويّة فضفاضة ...، فيصدرهم بطاناً، وينصح لهم سرّاً وإعلاناً.

وأمره في العلوم العقليّة والنقليّة والأعمال الصالحة غنيّ عن البيان.

١٣ ـ السيّد محمّد هادي الصدر «١٣١٦هـ»

قال عنه: «آية الله البالغة ونعمته السابغة، جدّي المقدّس السيّد محمّد هادي»[1].

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين.

الفصل الثاني

إجازات اجتهاد العلّامة شرف الدين

لقد شهد الأعلام من المراجع في الفتيا باجتهاده بعد اشتغال دائب بطلب العلم، واستفراغ وسع مستمرّ خلال اثنتي عشرة سنة قضاها في العراق، لم يتّصل فيها بغير أهل العلم، مستغرقاً أوقاته بين دراسة وتدريس ومناظرة وتأليف، حتّى وصل إلى ملتمسه وهو الاجتهاد المطلق الذي يحرّم عليه التقليد، ويجيز للآخرين الرجوع إليه والتحاكم عنده والأخذ بفتياه.

١ ـ وقد عبّر عن ذلك شيخه المقدّس كبير فقهاء الطائفة في عصره الشيخ محمّد طه نجف «م ١٣٢٣هـ» كما جاء في إجازته له، قال:

... ولدنا البرّ الثقة العدل الورع الهمام المقدام، الفقيه الأُصولي المحقّق المدقّق البحّاثة، القوي في حجّته، الصدوق في لهجته، المعتدل في أُسلوبه وطريقته ... السيّد عبد الحسين شرف الدين العاملي ... فإنّه من أعلام الهدى .. بلوته فوجدته ذا ملكة قدسيّة في استنباط الأحكام الشرعيّة الفرعيّة عن أدلّتها التفصيليّة ... فعلى المؤمنين أن يرجعوا إليه في الفتوى وفصل القضاء ... وليكونوا عند أمره ونهيه ...[1].

٢ ـ وأمّا شيخه المقدّس وأُستاذه الأوحد في درس الأُصول محمّد كاظم الخراساني «م ١٣٢٩هـ» فقد شهد له بالاجتهاد المطلق أيضاً في إجازته المؤرّخة ٩/ع ١/ ١٣٢١هـ، قال:

... وإنّ سيادة السيّد السند والثقة الفقيه المنزّه من كلّ شين، السيّد عبد الحسين

---

١. أنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٢١.

شرف الدين الموسوي، شدّ الله أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه، مجتهد مطلق، وعدل موثّق، قد أصبح من أهل الذكر الذين ترجع إليه العباد، وترقّى من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد، فخفقت ألوية النيابة عليه، وألقت بأزمّتها إليه، وحرم عليه التقليد ووجب عليه العمل برأيه السديد، فليمتثل المؤمنون أمره ونهيه وليرجعوا إليه فإنّه حجّة عليهم، ماضية فيهم حكومته، ونافذ قضاؤه ويحرم الردّ عليه ...[١].

٣ ـ وقد جاء في إجازة ثاني مشايخه في الفقه الشيخ الحجّة الآقا رضا الهمداني «م ١٣٢٢هـ» ما نصّه:

... وإنّ من هذه الطبقة العليا ولدنا الأبرّ التقي النقي الثقة العدل الأمين على شؤون الدنيا والدين السيّد عبد الحسين شرف الدين ... فقد اشتهر في فضله .. فهو ذو ملكة راسخة قدسيّة في استنباط الأحكام الشرعيّة الفرعيّة عن أدلّتها التفصيليّة، يباح بها للعوام أن يرجعوا إليه في تلك الأحكام، ويجب عليهم تنفيذ حكمه في المرافعات وفصل الخصام، فإنّه من العلماء المحقّقين والفقهاء المجتهدين ...[٢].

٤ ـ وأمّا الفقيه الثبت الشيخ عبد الله المازندراني «م ١٣٣٠هـ» فقد نصّ في إجازته له بأنّه

... مجتهد مطلق في الأحكام الشرعيّة، جامع لشرائط الإفتاء والقضاء من الاجتهاد والعدالة وغيرها، يجب عليه أن يعمل بما يراه ويحرم عليه أن يرجع في أحكام الدين إلى مجتهد سواه، ويجوز للعوام أن يقلّدوه في المسألة التي لا يعلم أنّه مخالف فيها لما هو أعلم منه، ولهم أن يترافعوا إليه ...[٣].

٥ ـ وجاءت إجازة شيخه المقدّس الشيخ فتح الله الشيرازي المعروف بشيخ الشريعة الإصفهاني المؤرّخة برابع محرّم الحرام سنة «١٣٢١هـ» لتفصح عن حقائق قد أجملتها سائر الإجازات السالفة:

... صاحب الذهن الوقّاد والطبع النقّاد، والقريحة القويمة والسليقة المستقيمة، السالك

---

١. المصدر: ٥٢٣.

٢ و٣. المصدر: ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

أوضح المسالك في استنباط الفروع من المدارك .. فلم يقنع من السماع إلّا إلى التحقيق ، ومن النظر إلّا إلى التحديق .. حتّى فاق الأمثال والأقران .. بصيراً بمعضلات المسائل الفقهيّة ، ومشكلات المطالب الأصليّة والفرعيّة .. فحقّ لي أن أقول : إنّه ترقّى من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد ...[1] .

٦ ـ وكتب الإمام السيّد إسماعيل الصدر إلى أهالي صور ـ بعد أن استوطنها العلّامة شرف الدين ـ رسالة أشاد فيها بذكره وأمرهم بالرجوع إليه ، مصرّحاً بأنّه :

الفقيه المعتمد وقدوة العلماء وأُسوة الفقهاء المبرّزين .. فإنّه لا يأمرهم إلّا بمعروف ولا ينهاهم إلّا عن منكر .. فإنّه الحجّة عليهم .. فإنّه من زيتونة نبويّة لا شرقيّة ولا غربيّة ، مرجع عام ومفزع في فتاوى الأحكام ...[2] .

وبهذا يكون العلّامة شرف الدين قد بلغ بغيته الكبرى من الهجرة إلى النجف الأشرف على مشرّفها آلاف التحيّة والسلام ، حيث بلغ رتبة الاجتهاد المطلق التي تؤهّله للمرجعيّة العامّة لدى الطائفة الإماميّة .

مشايخ إجازته

للإمام شرف الدين نوعان من المشايخ :

النوع الأوّل : مشايخه الذين روى عنهم بطريق الإجازة العامّة ، وهم كثيرون أورد ذكرهم تفصيلاً في رسالته المسمّاة بـ*ثبت الأثبات في سلسلة الرواة* .

النوع الثاني : مشايخه الذين تتلمذ عليهم فأخذ عنهم بطريق السماع والقراءة وهم :

١ ـ الشيخ محمّد طه نجف «م ١٣٢٣ هـ» .

٢ ـ الشيخ محمّد كاظم الخراساني « ١٢٥٥ ـ ١٣٢٩ هـ» .

٣ ـ الشيخ آقا رضا الهمداني «م ١٣٢٢ هـ» .

---

١. المصدر : ٥٢٥ .

٢. المصدر : ٥٢٧ .

٤ ـ الشيخ عبد الله المازندراني «م ١٣٣٠هـ».

٥ ـ الشيخ فتح الله الشيرازي المعروف بشيخ الشريعة الإصفهاني «م ١٣٣٩هـ».

٦ ـ السيّد إسماعيل الصدر « ١٢٥٥ ـ ١٣٣٤هـ».

٧ ـ الشيخ حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل «١٢٥٤ ـ ١٣٢٠هـ».

٨ ـ جدّه الشريف أبو الحسن الهادي « ١٢٣٥ ـ ١٣١٦هـ».

٩ ـ خاله الشريف أبو محمّد الحسن الصدر « ١٢٧٢ ـ ١٣٥٤هـ».

إجازة رواية من شيخ الشريعة الإصفهاني

... ... فإنّ شرف العلم وكثرة فضله وجلالة حملته وسدنته وأهله ممّا أغنت ضرورة العقول السليمة عن الاستشهاد عليه بالآيات المحكمة الكريمة وصرائح النصوص الصريحة القويمة، وقد أيّد الله هذا الدين المتين بالعلماء، وجعلهم ورثة الأنبياء، وفضّل نومهم على عمل الصلحاء، ولا شرف إلّا وهو نظامه، ولا كرم إلّا وهو ملاكه وقوامه، وهو الصديق إذا خان كلّ صديق، والشقيق إذا لم يوثق بكلّ ناصح شفيق، وهو المونس في الوحشة، والمصاحب في الغربة والوحدة، والمحدّث في الخلوة، يستغفر لأهله حيتان البحر وهوامه، وسباع البرّ وأنعامه.

وإنّ من هذه الروضة المرضيّة المخضرّة الأطراف، والدوحة البهيّة الزاهرة الأكناف، غصن شجرة السيادة، ونور حديقة السعادة، صاحب الذهن الوقّاد، والطبع النقّاد، والقريحة القويمة، والسليقة المستقيمة، السالك أوضح المسالك في استنباط الفروع من المدارك، العالم العامل البهيّ التقيّ النقيّ المبرّأ من كلّ شين، السيّد عبدالحسين العاملي ـ أيّده الله بلطفه الخفيّ والجليّ ـ ابن علم الأعلام وملاذ الأنام، ومرجع الخواصّ والعوام ثقة الإسلام سيّدنا السيّد يوسف ـ صانه الله تعالى عمّا يوجب التأسّف والتلهّف ـ فإنّه هاجر عن وطنه، ونفر عن مسكنه، وبعُدَ عن الأتراب والأقران وشطت به الديار والسكّان، فحضر على ثلّة من العلماء الأعيان، وعلى هذا الضعيف مدّة من الزمان، فلم يقنع من السماع إلّا إلى التحقيق، ومن النظر إلّا إلى التحديق، وجدّ واجتهد في طلب المعالي، ووصل يقظة الأيّام بإحياء الليالي، وناظر ونوظر، وراجع وروجع حتّى فاق الأمثال والأقران، فصار مشاراً إليه بالبنان، بصيراً بمعضلات المسائل الفقهيّة، ومشكلات المطالب الأصليّة والفرعيّة، وتكلّم معي مراراً بما كشف عن كون نظيره نزيراً، واختبرته ببعض مقفلات المسائل فوجدته بطرق فتحها وحلّها خبيراً، فحقّ لي

أن أقول: إنّه قد ترقّى من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد، وصار من أهل الذكر الذين يرجع إليهم العباد فيما يتعلّق بالمعاش والمعاد. فليحمد الله تعالى على ما آتاه من النعم الجليلة والآلاء الجميلة.

ثمّ إنّه ـ سلّمه الله ـ استجاز منّي رواية كتب الأصحاب والعلماء الأطياب على ما هو عادة السلف الصالحين رحمة الله عليهم أجمعين.

فأجزته أن يروي عنّي جميع ما سمعه منّي، وجميع ما يصحّ لي روايته عن مشايخي عن مشايخهم إلى أن ينتهي إلى الأئمّة المعصومين، وكلّ ما صحّ طريقي إليه من الكتب المؤلّفة في جميع الفنون والعلوم.

ومشايخ قراءتي وإن كانوا كثيرين إلّا أنّي أكتفي بذكر بعض شيوخ إجازتي دون قراءتي، من غير استقصاء لهم جميعاً؛ لضيق الحال والمجال.

فمنهم: السيّد السند والعلّامة المعتمد، المحقّق المدقّق، الذي بلغ من العلوم الأصليّة والفرعيّة قاصيتها، وملك من الفنون العقليّة والنقليّة ناصيتها، العابد الزاهد البارع المؤيّد، السيّد مهدي القزويني أصلاً، الحلّي انتساباً، الغروي مولداً وموطناً ومدفناً. عن عمّه العلم العلّامة، صاحب المقامات الظاهرة والكرامات الباهرة، عن خاله المعظّم، البحر الخضمّ والطود الأشمّ، الذي كان آية من الآيات الإلهيّة ومعجزة من المعجزات النبويّة، السيّد مهدي المشتهر ببحر العلوم. عن جماعة كثيرين من رؤساء المذهب والدين أقتصر عن ذكر بعضهم:

أوّلهم ـ وهو أجلّهم وأعلمهم ـ: مروّج الملّة والدين وأُستاد كلّ العلماء المتأخّرين، الوحيد المجدّد الآقا محمّد باقر الإصبهاني الشهير بالبهبهاني، عن أبيه الجليل المولى أكمل الإصبهاني، عن العلّامة الشيرواني، والمحقّق جمال الدين الخوانساري، والشيخ جعفر القاضي، والمولى محمّد شفيع الاسترآبادي، والعلّامة المجلسي صاحب بحار الأنوار كلّهم، عن العلّامة التقي المجلسي، عن شيخنا البهائي، عن أبيه الفقيه النبيه الشيخ حسين، عن خاتمة المحقّقين شيخنا الشهيد الثاني ـ قدّس الله روحه ـ بطرقه

المعروفة المذكورة في إجازته الكبيرة المنبّه على بعضها في فاتحة المعالم والأربعين وخاتمة البحار والوسائل.

ثانيهم: العلّامة المحقّق الفاضل المحدّث الكامل الشيخ يوسف صاحب الحدائق الناضرة بجميع طرقه المذكورة في اللؤلؤة.

ثالثهم: السيّد السند البارع السيّد حسين الخوانساري، عن العالم الفاضل الآقا محمّد صادق، عن والده العلّامة المولى محمّد بن عبدالفتّاح التنكابني المشتهر بسراب، عن الفقيه النبيه العلّامة السبزواري صاحب الذخيرة والكفاية، عن السيّد السند السيّد حسين بن السيّد حيدر الكركي العاملي، عن شيخنا البهائي.

رابعهم: العلّامة الجليل صاحب الكرامات الباهرة السيّد حسين القزويني صاحب كتاب معارج الأحكام ومستقصى الاجتهاد وغيرهما، عن أبيه العلّامة السيّد إبراهيم القزويني، عن العلّامة المجلسي، وجمال الدين الخوانساري، إلى غير ذلك من طرقه المعروفة المذكورة في محالّها.

ثمّ إنّ شيخنا السيّد ﷺ يروي أيضاً عن أُستاده العلّامة الفقيه الشيخ حسن صاحب أنوار الفقاهة، عن أبيه العلّامة أفقه أهل عصره الشيخ جعفر كاشف الغطاء، عن الوحيد المجدّد البهبهاني ﷺ.

ومن مشايخ إجازة هذا الضعيف: العلّامة الفقيه النبيه الخبير البصير... النحرير الزاهد العابد، مزيّن المحاريب والمساجد، المحقّق المدقّق، صاحب هداية الأنام في شرح شرائع الإسلام في سبع وعشرين مجلّداً، الشيخ محمّد حسين الكاظمي المولد الغروي الخاتمة، عن جماعة:

أحدهم: المحقّق الثالث والعلّامة الثاني، مؤسّس أساس قواعد التفريع والتحقيق على أحسن تأسيس، مالك أزمّة العلوم بالإملاء والتصنيف والتدريس، الإمام العلّامة الرئيس الشيخ مرتضى الأنصاري الدزفولي ﷺ، عن شيخه العلّامة الأوحد الحاج المولى أحمد النراقي، عن مشايخه الأجلّاء أبيه العلّامة المتبحّر المولى مهدي النراقي، والعلّامة

الطباطبائي بحر العلوم، والعلّامة الحائري صاحب الرياض، والفقيه الأعظم كاشف الغطاء، والفقيه النبيه... سيد محمّد مهدي الشهرستاني جميعاً، عن الوحيد المجدّد البهبهاني.

وثانيهم: علّامة العلماء الأعلام وشيخ فقهاء الإسلام الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر ـ قدّس الله روحه ـ عن شيخيه الفقيهين النبيهين كاشف الغطاء ونور الله في البلاد السيّد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة، عن الوحيد المجدّد ﷺ؛ وعن السيّد جواد العاملي المذكور، عن المحقّق القمّي ﷺ صاحب القوانين والغنائم والمناهج، عن الوحيد البهبهاني ﷺ بطريقه الماضي؛ وعن الفقيه المحدّث الشيخ مهدي الفتوني عن المولى أبي الحسن الشريف صاحب ضياء العالمين، عن شيخه العلّامة المجلسي ﷺ.

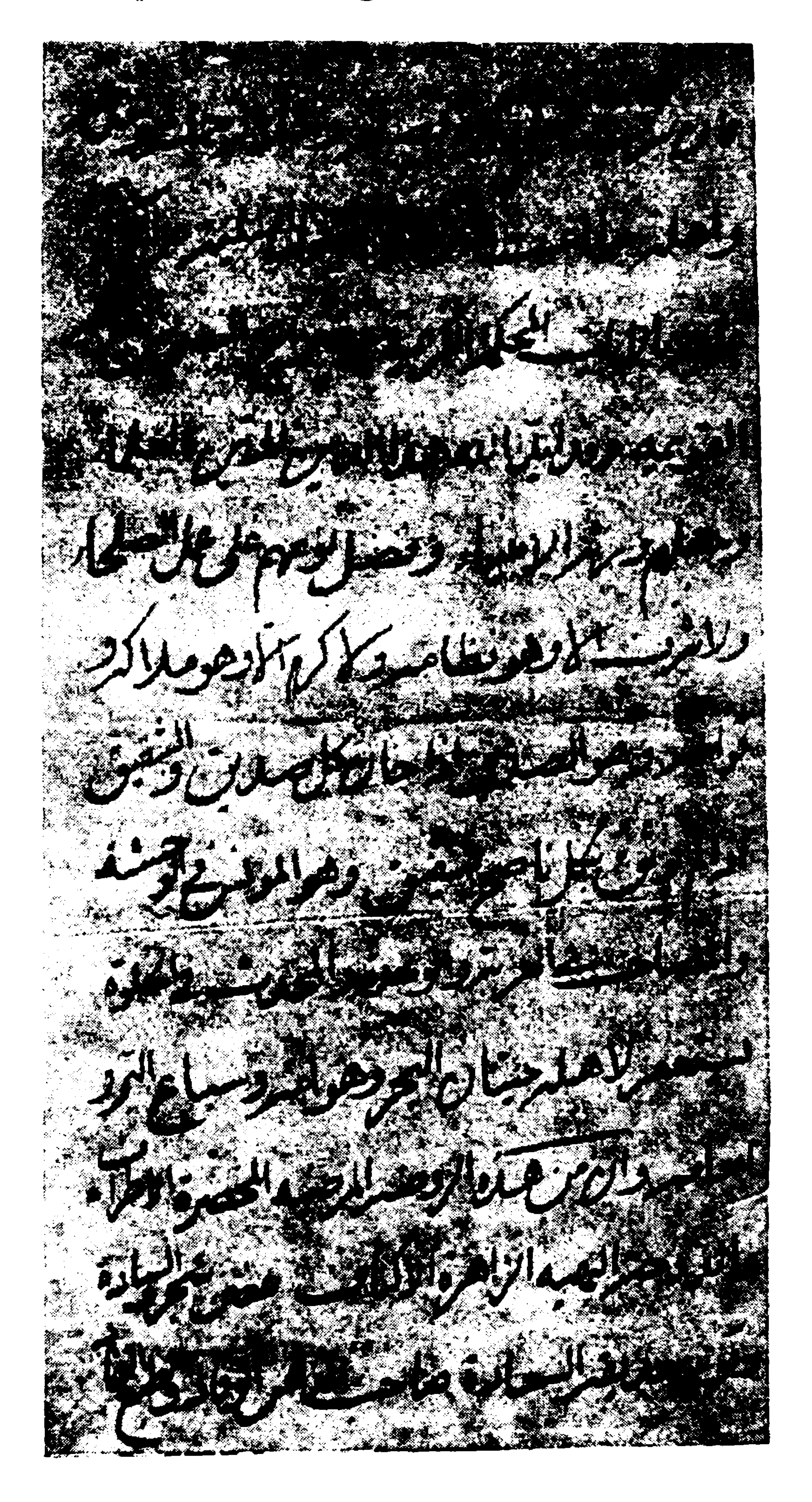
وثالثهم: العلّامة الفقيه المتبحّر الشيخ جواد ابن الشيخ تقي بن الملّا كتاب شارح اللمعة، عن شيخه السيّد جواد العاملي بطريقيه المذكورين وغيرهما.

ولنا طرق كثيرة أُخر لا يسع تفصيلها هذا المختصر. وفيما ذكرناه بلاغ وكفاية للاتّصال بأغلب المصنّفين والمصنّفات ـ لو لم يكن إلى الجميع ـ من الخاصّة والعامّة. فليروِ جناب السيّد الأيد ـ سلّمه الله ـ عنّي بهذه الطرق وغيرها ما صحّت لي روايته، سيّما الكتب الأربعة للمحمّدين الأبي جعفرين الثلاثة، التي كان عليها المدار في الأعصار والأمصار، أعني الكافي والفقيه والتهذيب والاستبصار، والجوامع الثلاثة المتأخّرة التي هي في الاشتهار كالشمس في رابعة النهار، أعني الوافي والوسائل وبحار الأنوار.

وأُوصي جنابه بما أوصاني مشايخي، من سلوك سبيل الاحتياط، الذي لا يزلّ سالكه عن الصراط، وأن يصرف بقيّة عمره الشريف في ترويج الدين الحنيف، وإشاعة أحكام الشرع المنيف، وإغاثة الملهوف والضعيف، وقضاء الحاجات. وأن لا ينساني عن صالح الدعوات في مظانّ الإجابات في حياتي وبعد الممات.

كتبه الآثم الجاني فتح الله الشيرازي أصلاً، الإصبهاني انتساباً، الغروي موطناً ومدفناً إن شاء الله تعالى، في رابع شهر محرّم الحرام من شهور السنة الحادية والعشرين بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة الشريفة، على هاجرها ألف سلام وتحيّة.

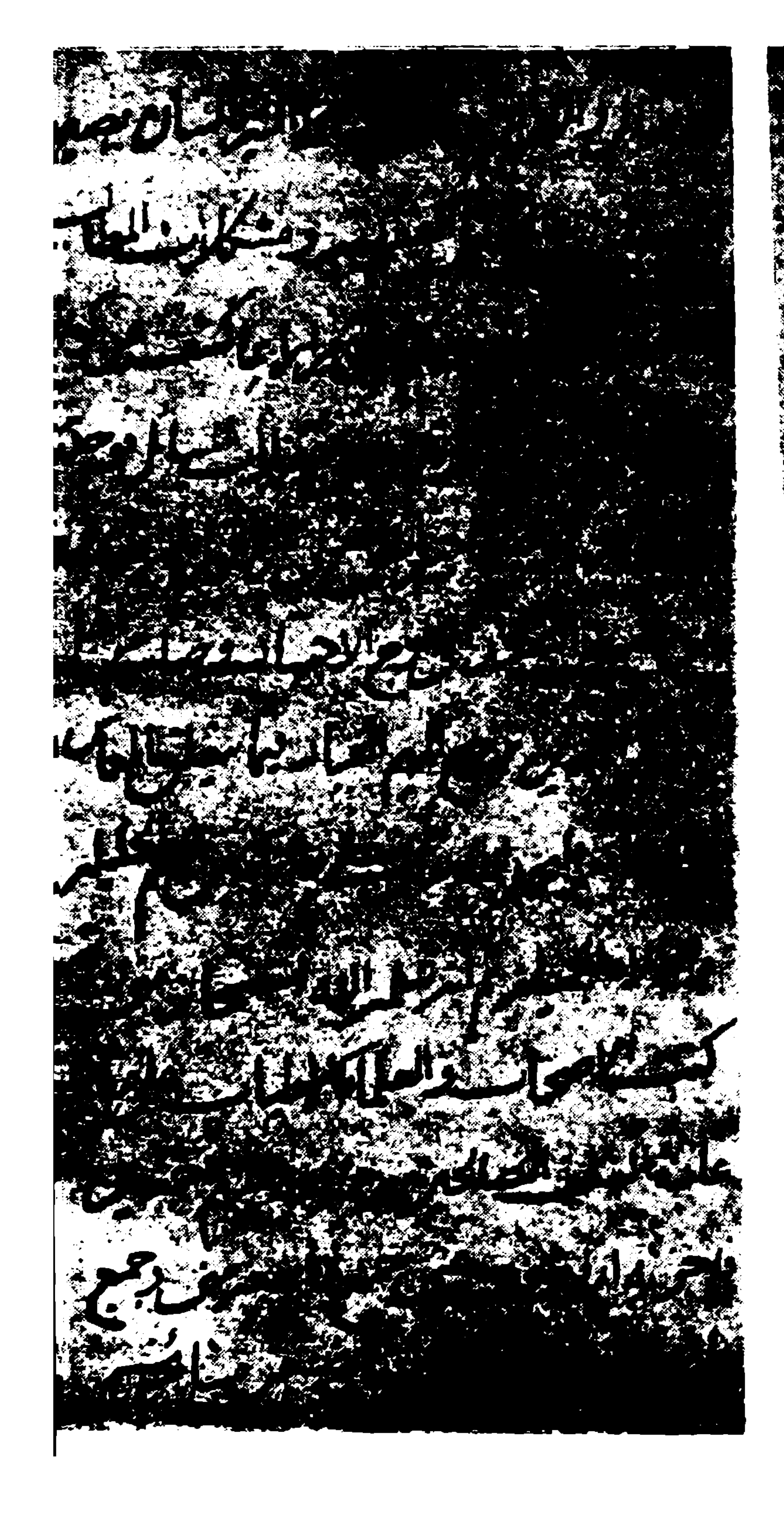
صورة إجازة رواية من شيخ الشريعة الإصفهاني



صورة إجازة رواية من شيخ الشريعة الإصفهاني



اجتهد في طلب

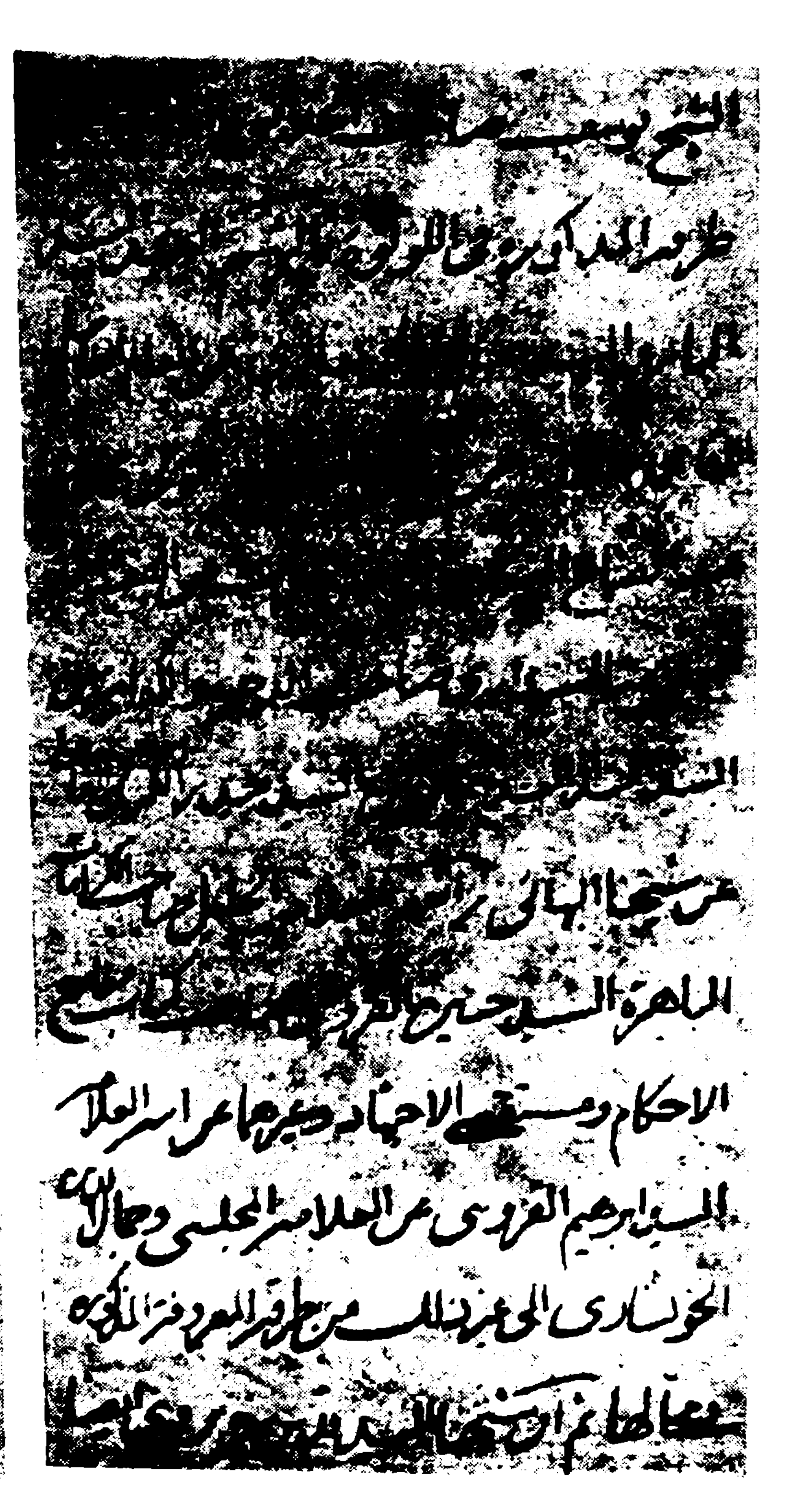


صورة إجازة رواية من شيخ الشريعة الإصفهاني

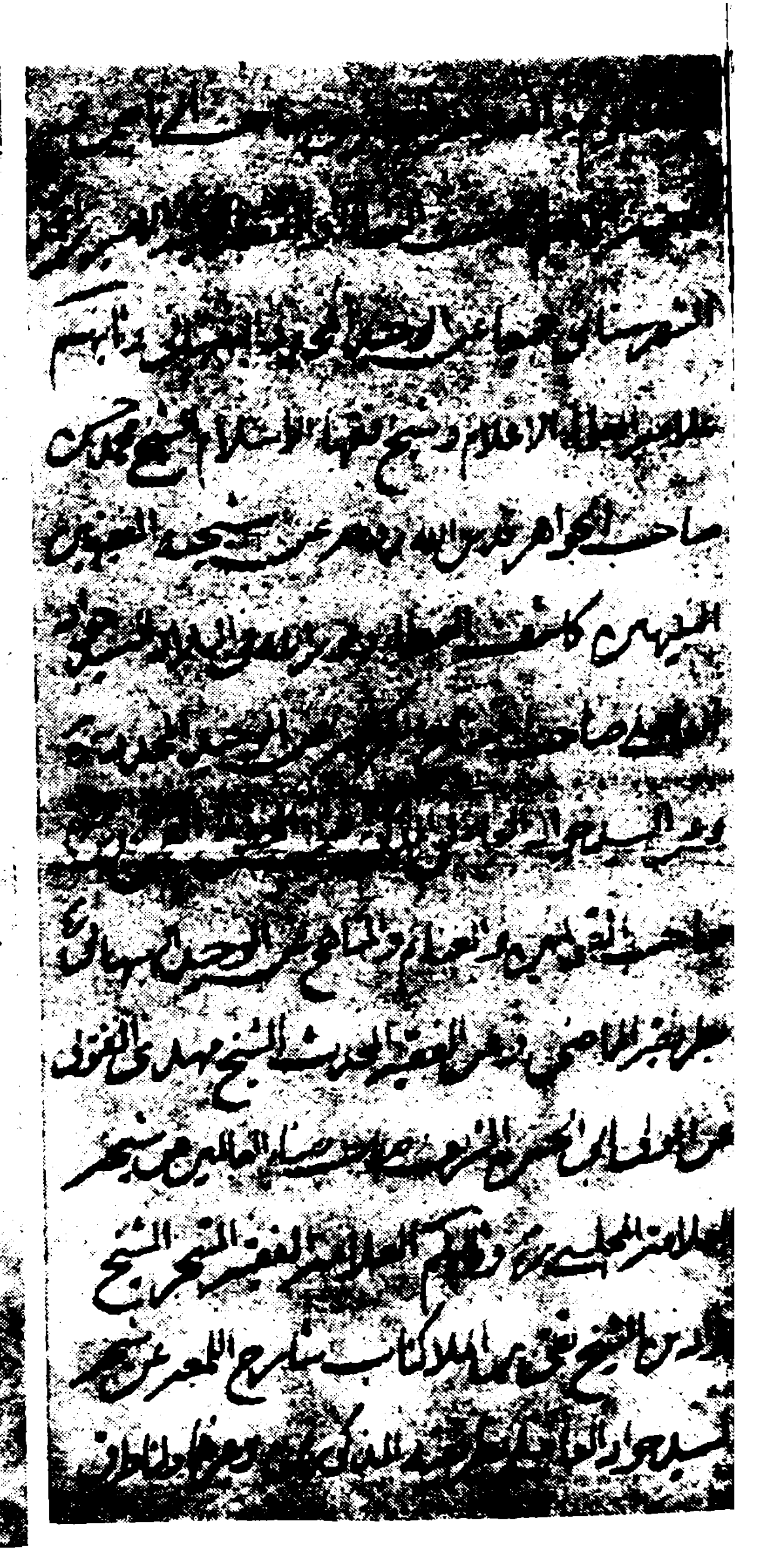
في [illegible] الأئمة المعصومين [illegible] صحيح [illegible]
[illegible] العترة جميع [illegible] والعلوم [illegible]
[illegible] وأكثرها الآن فأكتفي بذكر بعض شيوخ
[illegible] المعقول والمنقول من غير استقصاء لهم تيمناً وتبيين
الحال والمآل فمنهم السيد السند والعلامة المعتمد
المحقق المدقق الذي بلغ من العلوم الأصلية والفرعية
أقصاها [illegible] من الفنون العقلية والنقلية
أقصاها [illegible] الزاهد البارع المؤيد السيد [illegible]
[illegible] الحلي [illegible] الغروي مولداً
ومدفناً عن عمه المعظم العلامة صاحب المقامات العالية
والكرامات الباهرة عن خاله المعظم البحر الخضم
[illegible] الذي كان آية من الآيات الإلهية
ومعجزة من المعجزات النبوية السيد مهدي المشتهر

ببحر العلوم عن جماعة كثيرين من رؤساء المذهب [illegible]
اقتصر على ذكر بعضهم أولهم وهو أجلهم وأعلمهم مروج الملة والدين
واستاد كل العلماء الماهرين الوحيد المجدد الآقا محمد باقر
الأصفهاني الشهير بالبهبهاني عن أبيه الجليل المولى أكمل
الأصفهاني عن العلامة الشيرواني والمحقق جمال الدين
الخوانساري والشيخ جعفر القاضي والمولى محمد شفيع
الاسترابادي والعلامة المجلسي صاحب بحار الأنوار
كلهم عن العلامة التقي المجلسي عن شيخنا البهائي
عن أبيه الفقيه النبيه الشيخ حسين عن خاتمة
المحققين شيخنا الشهيد الثاني قدس الله روحه
بطرقهم المعروفة المذكورة في إجازاتهم الكبيرة المثبتة
[illegible] المعالم والأربعين وخاتمة البحار
[illegible] الفاضل المحدث الكامل

صورة إجازة رواية من شيخ الشريعة الإصفهاني



صورة إجازة رواية من شيخ الشريعة الإصفهاني


[illegible]
[illegible]
الشهرستاني [illegible]
علامة العلماء الاعلام وشيخ فقهاء الاسلام الشيخ محمد حسن
صاحب الجواهر قدس الله سرهم عن شيخه الفقيه
النبيه كاشف الغطاء [illegible]
[illegible]
[illegible]
صاحب [illegible]
[illegible] الشيخ مهدي الفتوني
عن العلامة [illegible] صاحب [illegible] عن شيخه
العلامة المجلسي [illegible] العلامة [illegible] الشيخ
[illegible] الشيخ [illegible] كتاب شرح اللمعة عن شيخه
السيد جواد العاملي [illegible]

كثيرة اخر لا يسع تفصيلها هذا المختصر وفيما ذكرناه بلاغ وكفاية
للاتصال على المصنفين والمصنفات لو لم يكن الى جميع من [illegible]
والعلم فليرو جناب السيد الايد سلمه الله عني بهذه الطرق وغيرها
ما صحت لي روايته سيما الكتب الاربعة للمحمدين الاوائل [illegible]
الثلثة التي كان عليها المدار في الاعصار والامصار اعني
الكافي والفقيه والتهذيب والاستبصار والجوامع الثلثة
المتاخرة التي هي في الاشتهار كالشمس رابعة النهار اعني الوافي
والوسائل والبحار الانوار واوصيه جنابه بما اوصاني به مشايخي
من سلوك سبيل الاحتياط الذي لا يزل سالكه عن الصراط وان
يصرف بقية عمره الشريف في ترويج الدين الحنيف و
اشاعة احكام الشرع المنيف واغاثة الملهوف والضعيف في
قضاء الحاجات وان لا ينساني من صالح الدعوات في
مظان الاجابات في حياتي وبعد المماة كتبه الاثم الجاني
فتح الله [illegible] الاصبهاني [illegible] المعروف [illegible]
[illegible] في رابع شهر محرم الحرام من [illegible]
[illegible] على هاجرها الف الصلاة والسلام [illegible]

صورة إجازة الرواية من عبد الله المازندراني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين وآله الطيبين الطاهرين اما بعد فان جناب السيد السند والكهف المعتمد عماد الملة والدين ثقة الاسلام والمسلمين السيد سيد عبد الحسين نجل السيد الأجل السيد يوسف شرف الدين العاملي مجتهد مطلق في الأحكام الشرعية جامع لشرائط الافتاء والقضاء من الاجتهاد والعدالة وغيرها يجب عليه ان يعمل بما يراه ويحرم عليه ان يرجع في احكام الدين الى مجتهد سواه ويجوز للعوام ان يقلدوه في المسئلة التي لا يعلم انه يخالف فيها لمن هو اعلم منه ولهم ان يرجعوا اليه فانه نافذ الحكم ممضي القضاء والراد عليه راد على الله تعالى وفقنا الله واياه لخدمة الدين وسلوك جادة العلماء العاملين انه ارحم الراحمين

حرره الاحقر عبد الله المازندراني

صورة إجازة الرواية من الآخوند الخراساني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع منار العلماء فجعلهم ورثة الأنبياء وحباهم بمنصب الأوصياء
وفضّل مدادهم على دماء الشهداء واستخدم لهم ملائكته وجعلهم خزنة دينه
وحفظته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله
بلّغ الرسالة صادعاً بالنذارة داعياً إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة
صلى الله عليه وآله مصابيح الظلم وقادة الأمم وأبواب الإيمان وأمناء الرحمن
أما بعد فإن الله سبحانه كرّم بني آدم وفضّلهم على كافة العالم ومنّ عليهم
بالتكليف وأسعدهم بخطابه الشريف وبعث فيهم النبيين مبشرين ومنذرين
وأتحفنا بأفضل أنبيائه والوسيلة لأهل أرضه وسمائه فشرع لنا الدين القويم وبيّن لنا
الصراط المستقيم ثم اختاره الله إليه بعد أن نصب للأمة علماً تعتمد عليه وقائماً
مقامه ونص عليه مراراً بالخلافة والإمامة وفرض طاعته وأبان عصمته وجعل له في العالمين
منزلته فالحمد لله على إكمال الدين بذلك وإتمام النعمة بما هنالك ثم لم تزل الإمامة من بعده في
المعصومين الذين نص عليهم رسول الله (ص) من ولده حتى انتهت إلى خاتم الأوصياء
ومن بوجوده ثبتت الأرض والسماء فاختار له الغيبة لحكم تعرفها قلوب المؤمنين
وتطمئن بها سرائر المتقين فالحمد لله إذ لم نك من أهل الريب وكنا ممن يؤمن
بالغيب وقد أوجب علينا أن نرجع أيام غيبته في الأحكام إلى رأي العلماء الأعلام فهم
سفراؤه وحججه وأمناؤه وإن سيادة السيد السند والثقة الفقيه المجتهد المنزه عن كل
شين السيد السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي شد الله أركانه وأعطاه يوم لقائه أمانيه
مجتهد مطلق وعدل موثق قد أصبح من أهل الذكر الذين ترجع إليهم العباد وترقى من حضيض
التقليد إلى معارج الاجتهاد فخفقت ألوية النيابة عليه وألقت بأزمتها إليه وحرم عليه التقليد
ووجب عليه العمل برأيه السديد فليمتثل المؤمنون أمره ونهيه وليرجعوا إليه في أمورهم
وليرجعوا إليه فيما ترافعوا فيه فإنه حجة عليهم فيما يمضيه فيهم حكومته وإذا قضى
ويحرم الرد عليه فإن الراد عليه راد على الله وهو على حد الشرك بالله وأملي منه أن يسلك
جادة الاحتياط فإنها سبيل النجاة والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل حرره الأحقر الخادم ...

المجازون منه

قال ﴿﴾ :

وأمّا من أخذ عنّي على سبيل الإجازة، فثلّة من سدنة الدين وأثباته وحملة العلم وثقاته، لا تحيط بهم ذاكرتي، وإنّما أتبرّك بذكر من تحضرني أسماؤهم الكريمة، وهم الأعلام الهداة :

١ و ٢ . السيّد صدر الدين الصدر وولده السيّد رضا الصدر .

٣ و ٤ . والسيّد حيدر الصدر وولده السيّد إسماعيل الصدر .

٥ . السيّد الشريف أخو السيّد عبد الحسين .

٦ و ٧ . السيّد عليّ الصدر وولده السيّد مهدي الصدر .

٨ و ٩ . الشيخ مرتضى آل ياسين وصنوه الشيخ راضي آل ياسين .

١٠ . الشيخ عبد الكريم ابن الشيخ موسى شرارة .

١١ . الشيخ محمّد تقي ابن الشيخ عبد الحسين صادق .

١٢ و ١٣ . السيّد محمّد هادي الميلاني «١٣١٣ ـ ١٣٩٥هـ» وولده السيّد نور الدين الميلاني .

١٤ . الشيخ الميرزا محمّد الطهراني نزيل سامرّاء « ١٢٨١ ـ ١٣٧١ هـ » .

١٥ و ١٦ . السيّد أحمد الشبيري الزنجاني « ١٣٠٨ ـ ١٣٩٣ هـ » وولده السيّد موسى الزنجاني الشبيري .

١٧ . الشيخ محمّد عليّ الأوردبادي .

١٨ . الميرزا عليّ الزنجاني « ١٣٠٧ ـ ١٣٩٠ هـ » .

١٩ . الشيخ محمّد حسين المظفّر .

٢٠ . الشيخ نور الدين الرشتي شريعتمدار « ١٣١٨ ـ ١٣٨٦ هـ » .

٢١ . السيّد محمّد سعيد بن السيّد ناصر حسين بن السيّد حامد حسين الهندي صاحب العبقات « ١٣٣٣ ـ ١٣٨٧ هـ » .

٢٢ . السيّد محسن النوّاب الهندي .

٢٣ . السيّد عليّ آل السيّد محمّد باقر الهندي .

٢٤ . السيّد محمّد حسين الرضوي اللكنهوئي .

٢٥ . الشيخ سعادت حسين الهندي .

٢٦ . الشيخ عبد الله السبيتي .

٢٧ . السيّد نور الدين ابن السيّد شريف شرف الدين « ١٣٢٧ ـ ١٣٩٦ هـ » .

٢٨ . السيّد محمّد صادق بحر العلوم .

٢٩ . الشيخ محمّد رضا الطبسي .

٣٠ . السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي « ١٣١٥ ـ ١٤١١ هـ » .

٣١ . السيّد علي تقي اللكنهوئي .

٣٢ . الشيخ عبّاس قلي الچرندابي الواعظ التبريزي .

٣٣ . السيّد محمّد عليّ القاضي الطباطبائي .

٣٤ . الشيخ محيي الدين ابن الشيخ عبد الله المامقاني .

٣٥ . السيّد محمّد عليّ الروضاتي .

٣٦ . الشيخ حسين آل الواعظ الخراساني .

٣٧ . السيّد مصطفى الخوانساري .

٣٨ . السيّد عبّاس الميلاني .

٣٩ . السيّد أبو الحسن الشهير بمولانا التبريزي .

٤٠ . الشيخ جعفر الإشراقي التبريزي .

ومن أهل السنّة :

٤١ ـ ٤٣ . أبو الفيض أحمد بن محمّد بن محمّد الصدّيق الغماري الحسني الإدريسي .
وأخواه أبو المجد عبد الله وأبو اليسر عبد العزيز .

٤٤ . ومحمّد سعيد دحدوح .

ومن العلويّين :

٤٥ . الشيخ سليمان أحمد .

٤٦ . الشيخ عبد اللطيف إبراهيم مرهج [١].

---

١ . راجع الموسوعة ج ٧ ، بغية الراغبين : ٥١٨ ـ ٥٢٠ ، مشايخي والآخذون عنّي .

الفصل الثالث

رجوع شرف الدين إلى جبل عامل

بعد أن حصل السيّد عبد الحسين شرف الدين على إجازات الاجتهاد الراقية، حين بلوغه مرتبة الاجتهاد المطلق خلال السنوات الثلاثة «١٣٢٠ ـ ١٣٢٢هـ» استعدّ للرجوع إلى موطن آبائه، الجبل الأشمّ جبل عامل الذي كان بحاجة ماسّة إلى أمثاله من العلماء العاملين، وفي ظروف سياسيّة واجتماعيّة وثقافية عصيبة.

وامتثل السيّد أمر والده المقدّس والمطاع عنده، وترك حاضرة العلم الكبرى حوزة النجف الأشرف التي دخلها تنفيذاً لأمر الله الصريح في كتابه الكريم: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

وامتثالاً لأمر أبيه ـ الذي كان يرى امتثاله لازماً وأمره مطاعاً، بالرغم من صعوبة ترك تلك المشاهد الشريفة وأندية العلم المثلى ـ عزم على ترك النجف الأشرف، وذلك في التاسع من ربيع الأوّل سنة ١٣٢٢هـ محبوّاً بخدمة والدته ومحبوراً بأخيه. وعمره إذ ذاك اثنتان وثلاثون سنة تقريباً، فهو في عنفوان شبابه وغاية نشاطه.

وقد احتفى به المؤمنون والعلماء وعلى رأسهم أبوه وعمّاه الكريمان السيّد إسماعيل والسيّد حسين، وهكذا العلّامة السيّد محسن الأمين العاملي، والعلّامة الشيخ محمود مغنية في دمشق، ثمّ تواترت عليه زرافات المستقبلين من أهل شحور ومنطقة الجبل،

---

١. التوبة (٩): ١٢٢.

فوصلها معهم عن طريق بانياس فعديسة فشحور، حيث وردها في مستهلّ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٢هـ.

ومن هذا التاريخ بدأ النشاط الاجتماعي والعطاء العلمي للعلّامة شرف الدين، حيث تهيّأ له الظرف ليكون فاعلاً ومؤثّراً في الساحة الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة، ولتتكوّن المرحلة الثانية من مراحل حياته وهي مرحلة العطاء المستمرّ والجهاد الشامل، وهي ذات مقاطع أربعة.

وتعتبر مرحلة العطاء المبارك هذه أطول مراحل حياته المباركة إذ تبدأ من سنة «١٣٢٢هـ» وتنتهي في سنة «١٣٧٧هـ» فهي خمسة عقود ونصف عقد ـ أي خمسة وخمسون سنة ـ زاخرة بالخير والبركة في كلّ جوانب الحياة.

الباب الرابع

الإمام شرف الدين في جبل عامل

تمهيد

ظهر العلّامة شرف الدين على مسرح الأحداث الاجتماعيّة والسياسيّة بعد رجوعه إلى جبل عامل سنة ١٣٢٢هـ، وبعد استقراره في شحور من سنة ١٣٢٢ حتّى سنة ١٣٢٥هـ، ثمّ في صور سنة ١٣٢٥هـ، حيث برزت قابليّاته في إدارة شؤون المجتمع الثقافيّة والدينيّة بالتدريج، وبرز بروزاً رشّحه للزعامة الاجتماعيّة والسياسيّة بمستوى عالٍ حتّى أصبح إماماً يُشار إليه بالبنان.

ومن يتتبّع مجريات الأحداث التي ترتبط بنشاطه الاجتماعي والسياسي في لبنان، يمكنه أن يصنّف البحث عن هذه المرحلة من حياته إلى ثلاثة بل إلى أربعة عهود.

فالتصنيف الثلاثي هو:

١ ـ عهد ما قبل الاحتلال.

٢ ـ عهد الاحتلال.

٣ ـ عهد ما بعد الاحتلال.

والتصنيف الأكثر دقّة، ولعلّه الأولى لنا من حيث إنّا نريد أن نتتبّع حضوره الفاعل في الساحة الاجتماعيّة والسياسيّة في مختلف العهود التي يختصّ كلّ منها بخصائص مميّزة، هو التصنيف الرباعي كما يلي:

١ ـ من سنة ١٣٢٢ إلى ١٣٣٢هـ «ما قبل الحرب العالميّة الأُولى، وهي فترة ما قبل الاحتلال».

٢ ـ من سنة ١٣٣٢ إلى ١٣٣٩هـ «فترة الحرب العالميّة الأُولى وما بعدها، وهي فترة الاحتلال تقريباً، وهو عهد النهضة والنفي خارج الجبل».

٣ ـ من سنة ١٣٤٠ إلى ١٣٥٦هـ «فترة التجوال خارج الجبل، وهي فترة الهدوء النسبي».

٤ ـ من سنة ١٣٥٧ إلى سنة ١٣٧٧هـ «فترة التفرّغ إلى النشاط العلمي والاجتماعي والديني حتّى الرحيل».

وقد رزقه الله ولده الأكبر السيّد محمّد علي قبل الاستقرار في لبنان، ثمّ ثلاثة من أبنائه هم السادة محمّد جواد ومحمّد رضا وصدر الدين في العقد الأوّل من استقراره، والخامس في العقد الثاني وهو السيّد جعفر، ثمّ السيّدين يوسف وعبد الله في العقد الثالث من استقراره في صور.

كما نلاحظ تنوّع نشاطه حسب اقتضاء وخصائص كلّ فترة، غير أنّ الخطّ العامّ هو دفاعه المستميت والصلب عن المبدأ والعقيدة، ويبقى هو المميّز الأهمّ في حياته رغم تنوّع نشاطه ورغم حراجة الظروف وعدم استتباب الأمن في بعض هذه العهود.

لقد ألّف في عقده الأوّل كتابه الخالد والمهمّ إلى يومنا هذا والذي سمّاه بـالفصول المهمّة في تأليف الأمّة في سنة ١٣٢٧هـ، وهو أهمّ كتاب له في الدعوة إلى الوحدة وتأليف الأُمّة، كما ألّف المراجعات الأُولى بعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٣٣٠هـ، وأعقبهما بتأليف المجالس الفاخرة في سنة ١٣٣٢هـ.

وفي الفترة الثانية أو العقد الثاني من حياته في الجبل أعاد تدوين المراجعات بعد أن أُحرقت مع سائر ما أُحرق من كتبه العلميّة المهمّة، التي كان قد ألّفها في عهد دراسته العليا في حوزة النجف الأشرف العلميّة.

وقد أرّخ تدوين المراجعات للمرّة الثانية في سنة ١٣٣٨هـ، أي في أواخر الفترة الثانية، وهي عهد النضال والنهضة التي أخذت منه مأخذها من حيث النفي والطرد والتشريد وتبلبل الخاطر وما إليها من معوّقات كانت تحول بطبيعتها دون العمل العلمي الجادّ.

وفي الفترة الثالثة نشهده يؤلّف كتابه الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء عليها السلام في سنة ١٣٤٦هـ، وأجوبة مسائل موسى جار الله في سنة ١٣٥٥هـ، وهي فترة استجمامه

وفترة أسفاره التي كانت إلى موسم الحجّ «حجّ بيت الله الحرام» وإلى العراق وثمّ إلى إيران.

وفي الفترة الرابعة وهي فترة استقراره بعد رجوعه من أسفاره المتتابعة خارج الجبل، والتي استغرقت هذه الفترة من الاستقرار عقدين من عمره الشريف، خرج من يراعه المبارك كتاب فلسفة الميثاق ألّفه سنة ١٣٦٠هـ، وكتابه القيّم أبو هريرة الذي أتمّ تأليفه سنة ١٣٦٢هـ، وهو أوّل وأهمّ كتاب يخترق حصون التاريخ وكتب الحديث؛ ليكشف النقاب عن شخصيّة قُدّر لها أن تلعب دوراً كبيراً في التاريخ الثقافي للمسلمين، وتتحمّل مسؤوليّة مسخ الهويّة الإسلاميّة لثقافتنا الدينيّة من خلال الحضور الفاعل في ساحة الحديث، والإكثار من التحديث بشكل مريب وملفت للنظر، ممّا أدّى إلى أن يقف الإمام شرف الدين على معالم هذه الظاهرة التي تجسّدت في هذه الشخصيّة التاريخيّة؛ ليكشف كيفيّة تحقّق هذا الحضور الفاعل في الساحة الثقافيّة وعلى مدى عدّة قرون بل وحتّى عصرنا هذا لشخصيّة لم تصاحب النبيّ ﷺ سوى فترة قصيرة!

وتلاه في التأليف كتابه الآخر الذي سمّاه إلى المجمع العلمي العربي بدمشق في سنة ١٣٦٩هـ، مع اكتمال البحث عن المسائل الفقهيّة الخلافيّة سنة ١٣٧٠هـ، ثمّ كتابه كلمة حول الرؤية في سنة ١٣٧١هـ.

وقد توّج تآليفه هذه بمجهوده الضخم والمهمّ في نهاية المطاف من عمره الشريف وهو كتاب قيّم سمّاه بـالنصّ والاجتهاد الذي ألّفه ـ أو بالأحرى قد أتمّ تأليفه ـ سنة ١٣٧٥هـ، أي بعد عمرٍ ناهز ثمانية عقود ونصف عقد وقبيل رحيله بعامين فقط، وقد شهد بنفسه آثاره التي كانت تخرج إلى عالم النور، كما لمس بركاته في مجال توعية الأُمّة وتوحيد صفوفها توحيداً مبنيّاً على جذور علميّة رصينة، متجاوزاً المظاهر والشعارات، وغائراً إلى أعماق التاريخ، حيث قام بجهود مشكورة وتحمّل عناءً كبيراً في البحث والتنقيب عن أسباب الخلاف الحقيقيّة التي وزّعت الأُمّة إلى طوائف وفِرق شتّى.

الفصل الأوّل

فترة ما قبل الحرب والاحتلال

(١٣٢٢ ـ ١٣٣٢هـ)

تبدأ هذه الفترة من حياة العلّامة السيّد عبد الحسين شرف الدين منذ دخوله إلى جبل عامل في سنة ١٣٢٢هـ، وتستمرّ حتّى نشوب الحرب العالميّة الأُولى سنة ١٣٣٢هـ، فهي تناهز العقد الواحد من عمره المبارك، وتنقسم إلى شطرين متميّزين:

الشطر الأوّل: حياته الاجتماعيّة ونشاطه الديني في شحور.

الشطر الثاني: حياته الاجتماعيّة ونشاطه الديني والثقافي في صور.

من شحور إلى شحور

هاجر السيّد عبد الحسين شرف الدين من بلدة والده «شحور» في التاسع من ربيع الأوّل سنة ١٣١٠هـ ـ وهو في العشرين من عمره ـ باتّجاه حاضرة العلم وعاصمة المذهب ومركز المرجعيّة الدينيّة ومنتدى العلماء والفقهاء في مدرسة أهل البيت عليهم السلام فيدخل المشهد الكاظمي مسقط رأسه ومسكن جدّه السيّد محمّد هادي الصدر (١٢٣٥ ـ ١٣١٦هـ) بعد اثنين وخمسين يوماً من التنقّل عبر بيروت والاسكندرونة فحلب فدير الزور فالكاظميّة، فيحلّ فيها في اليوم الثاني من جمادى الأُولى من سنة ١٣١٠هـ.

ومن الكاظميّة هاجر إلى سامرّاء الآهلة بأعلام الهدى، وهي يومئذٍ عاصمة الشيعة التي تحتضن المرجع الأعلى في عصره آية الله العظمى الميرزا محمّد حسن الشيرازي

أُستاذ العلماء والفقهاء بما فيهم الإمامان خاله السيّد محمّد حسن الصدر « ١٢٧٢ ـ ١٣٥٤هـ » والسيّد إسماعيل الصدر ـ ابن عمّ خاله ـ « ١٢٥٥ ـ ١٣٣٤هـ »، ولم يطل مكثه فيها سوى سنة واحدة كان فيها أجزل النفع وأتمّ العائدة.

ويخرج من سامراء بعد استفحال الفتنة التي هبّت رياحها عنيفةً عاتية قاصداً النجف الأشرف، ويخرج من النجف الأشرف في التاسع من ربيع الأوّل سنة ١٣٢٢هـ أيضاً ـ أي بعد هجرة دامت اثنتي عشرة سنة كاملة ـ وكتب معلّقاً على الخروج والهجرة في خصوص هذا اليوم بقوله:

حيث رأينا اليُمن والتوفيق وحسن العاقبة بتلك الحركة ـ والحمد لله ـ آثرنا أن يكون الابتداء في حركتنا هذه يوم التاسع من ربيع الأوّل رجاء أن يسعدنا التوفيق ثانياً كما أسعدنا أوّلاً، والأُمور بيد الله وحده وهو حسبنا [1].

وبعد الاستقبال الحارّ الذي وجده من علماء دمشق بما فيهم معاصره العلّامة السيّد محسن الأمين العاملي والعلّامة الشيخ محمود مغنية، ونزوله في رحاب ندى السيّد الأمين وتواتر زرافات المستقبلين من أهل شحور، عاد أهل شحور ومعهم علّامتهم الجليل وابن سيّدهم وكبيرهم آية الله السيّد يوسف شرف الدين، وهم يلتقون بالمستقبلين زمراً زمراً فدخلوا «بانياس» عبر استقبال جليل كان يضمّ جموعاً غفيرة، كان قد حشدها ابن العرقاوي رئيس البلد، ثمّ دخلوا «عديسة» واستقبله أعلامها السادة علي محمود الأمين ونجيب فضل الله وحيدر مرتضى وصنوه جواد والشيخ حسين مغنية وغيرهم، وكان في خدمتهم زعيم عاملة السياسي كامل بك الأسعد ووجوه العشائر وأعيان البلاد حتّى نزلوا في رحاب الكامل. ثمّ تابعوا المسير إلى شحور والناس قد خرجوا باستقبالهم مشاةً وركباناً.

ودخل السيّد عبد الحسين بلدة والده وآبائه «شحور» فوجدها مكتظّة بمن أقعدتهم الشيخوخة أو الضعف، ولم يرَ فيهم إلّا ذا مسرّة وحبرة لما كانوا يرونه من

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٤٠، التعليقة (١).

وصول قرّة أعينهم سالماً إليهم.

وقرّر علماء الجبل ذلك اليوم أن يصلّوا المغرب والعشاء بصلاة السيّد العلّامة عبد الحسين شرف الدين الوارد عليهم دعماً له وتأييداً وإعداداً لإبقائه في المنطقة والاستنارة بعلمه وفضله، فهو العالم الذي يثق به الناس، وعليهم أن يقدّموه لإمامتهم ويسلّموه زمام أُمورهم.

لقد كانت الليلة الأُولى التي قضاها العلّامة مع أعلام الجبل ليلة متميّزة جمعت بين الترحيب والاختبار العلمي لفضيلته، فتجاذبوا أطراف الكلام في المسائل العلميّة التي تكشف عن طول باعه العلمي وفضله في الأُصول والفروع، حتّى احتدم النزاع العلمي بينه وبينهم في تلك الليلة وغدوتها احتداماً كشف لهم النقاب عمّا حملته هذه الشخصيّة من علوم غزيرة ومعارف جمّة خلال هجرة علميّة دامت أكثر من عقدٍ، كانت قد قضتها بين حاضرة سامرّاء العلميّة والكاظميّة عند آل الصدر، والحوزة العلميّة الكبرى النجف الأشرف على مشرّفها آلاف التحيّة والثناء.

قال ﴿﴾:

ثمّ توالت الوفود ـ وفود الزيارة والتهنئة ـ من أنحاء البلاد العامليّة مدّة ليست بالقصيرة، كان العلماء والفضلاء والأُدباء والشعراء لا يبارحون الحشد. وكم قرطوا الآذان بفرائدهم، وشنّفوا الأسماع بالدرر من خطبهم وقصائدهم [1].

ومن جملة من أنشأ قصيدة رائعة في تلك الأيّام الأُولى مهنّئاً ومجلّلاً بالسيّد العلّامة ابن عمّه السيّد الشريف هاشم بن السيّد محمّد هاشم الموسوي، فقد جاء في لاميّته الطويلة:

فدع عنك وصف ذوات الجمال ... وتذكارَ ظلِّ الصبا المنتقل
وقم واقتبل دهر أُنسٍ أتاك ... بما عنه كفّر ماضي الزلل

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٤٤.

وقــــل منشداً بـــــارتجالٍ فــــقد غــدا الأُنس فــي قــطرنا مـرتجل

....

وهـــــذي البـــلاد غـــدا أُفـقها وبـــدر عـــلاه بــــه مكــتمل
وقـــرّت عـــيون المـعالي بــه ومـــائل ركـــنِ الرشــاد اعــتدل

....

بـــه الديـــن أصـبح مسـتبشراً يـــجرّ بـــرود الطـروب الجــذل
وألقت إليــــــه مـــــقاليدها شـــريعة أحــمد خـير الرســل
فـــعزّت بـــه جـــانباً مـــثلما بـــها عـــزّ جـــانبه أن يُــذلّ
فأهـــلاً بـــه اليــوم مـن قــادمٍ بـــه نـــقعت زفـــرات الغُــلل

....

وعــمّ الهــنا عــاملاً مـنذ حـلّ بـــها والعـــنا فــيه عــنها ارتــحل

....

بـــه الفـضل يـزهو لنـا زاهـراً ونـــور الهــداية فـيه اكـتمل

....

له الله مـــن قـــادمٍ أثـلج الصـد ور هــــــناً وأقـــرّ المــقل

....

فـــقل لأكـــفّ الهـنا صـافحي أكـــفّاً تـــزاحـم فـيها القُــبَل

....

زعـــيم الهـدى والنـدى يـوسف ومـــهوى ركـاب الرجــا والأمــل

....

إليك التـــهاني تــهادى وفـــي فـــنائك ذا وفـــدُها قـد نـزل[١]

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٤٥ ـ ٥٤٧.

العلّامة شرف الدين في شحور «١٣٢٢ ـ ١٣٢٥ﻫ»

بقي العلّامة شرف الدين في شحور من مستهلّ جمادى الثانية سنة ١٣٢٢ﻫ إلى منتصف ذي الحجّة سنة ١٣٢٥ﻫ، حيث تركها إلى صور ملقياً عصاه فيها متوكّلاً على الله سبحانه.

وبدأ نشاطه الاجتماعي في قريته شحور تحت رعاية والده الكريم الذي أراده ليتصدّى الأُمور الحسبيّة وسائر الشؤون العامّة، والولد البارّ لا يريد أن يترك خدمته ولا يريد أن يتقدّم بين يديه في هذا المجال الذي يرى الناس في والده مرجعاً عامّاً لهم.

وبقي السيّد ـ كما يبدو ـ ممتنعاً من التصدّي للأُمور الحسبيّة وهو في خدمة والده العلّامة عالم القرية وسيّدها.

ومن هنا كان بقاؤه في شحور يعدّ تعطيلاً لطاقاته وقدراته التي كان يتمتّع بها، وكان قد دعاه والده إلى الرجوع إلى منطقة الجبل التي كانت بحاجة إلى أمثال هذه الطاقات العظيمة التي اختبأت بين جوانحه.

ولعلّ هذه القضيّة مع ما كان عليه السيّد عبد الحسين من تواضع واستحياء وانحناء أمام والده، هي التي دعت السيّد يوسف ليفكّر في انشغال ولده العلّامة في منطقة هي أحوج ما تكون إليه. ولذلك نزل سريعاً عند رغبة أهل صور الذين جاؤوا إليه يطلبون منه حضور السيّد عبد الحسين بين ظهرانيهم[١] للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة شعائر الدين وتطبيق أحكامه، ولهذا نجدهم قد رجعوا بعد هذه الدعوة بنجح الحاجة شاكرين حامدين.

---

١. لقد ذكر أمامه أنّ مجالس عاشوراء تجري سرّاً في أقبية، فاشترط على أهل صور أن تقام علناً ولو اقتضى الصدام مع السلطة العثمانيّة وأخذ منهم عهداً على النصرة. كما علّق بذلك السيّد حسين السيّد محمّد علي شرف الدين على هذه النقطة.

العلّامة شرف الدين في صور «١٣٢٥ ـ ١٣٣٢هـ»

١ ـ صور مركز ومنطلق النشاط الديني والاجتماعي

وصف السيّد جعفر شرف الدين مدينة صور بقوله:

صور هذه البلدة التاريخيّة العريقة تبعث من جديد بعد أن أخنى عليها الدهر وراحت في سبات عميق على أثر زلزال جعل عاليها سافلها، ولم تستيقظ إلّا بعد سنة ١٧٥٠م إذ أعاد بناءها حاكمها الشيخ عبّاس بن محمّد الوائلي، وأسكن فيها عائلات من جبل عامل وصيدا والشوف. ولعلّ المصريّين الذين رافقوا محمّد علي إلى لبنان واستوطنوا إقليم الخروب نزح جماعة منهم إلى صور، وسكنوا الحيّ الذي لا يزال حتّى الآن يسمّى حيّ المصاروة.

وظاهرة بارزة في صور لها دلالتها، وهي أنّ لكلّ حيّ فيها لهجة خاصّة به وسمة تشير إلى مكان سكناه.

صور هذه المدينة العريقة انتقل إليها السيّد عبد الحسين شرف الدين سنة ١٩٠٧م فشدّ أوصالها بعد أن كانت مفكّكة، ورفع صوتها بعد أن كان خفيضاً، وأنشأ فيها مؤسّسات ثقافيّة واجتماعيّة ودينيّة بعد أن كانت صفراً منها. وجعلها عاصمة للفتيا والقضاء، ومنتدى للعلم والأدب، وموئلاً تهفو إليه قلوب المستضعفين والمعذّبين في الأرض. ومركزاً تقام فيه المواسم الإسلاميّة والاجتماعيّة والتراثيّة: تخفق فيها الرايات وتتزاحم المناكب وتتابع الوفود من أفغانستان وباكستان وإيران والعراق، فضلاً عن الوفود اللبنانيّة جنوبيّة وشماليّة، بقاعيّة وساحليّة، بل كانت ملتقى للعلماء والأُدباء والشعراء يجدون فيها محاوراً ومقدّراً[1].

ورد العلّامة مدينة صور في منتصف ذي الحجّة ١٣٢٥هـ بدعوة من المؤمنين من أهاليها، والوضع الاجتماعي فيها ليس على ما يُرام، فالتفرقة التي تسيطر على أبنائها المؤمنين بخطّ أهل البيت عليهم السلام من جهة، وعدم وجود عالِمٍ ولا مركزٍ يضمّهم ويوحّد

---

١. السيرة الذاتيّة للسيّد جعفر شرف الدين: ٥٢.

صفوفهم من جهة أُخرى، فأصبحوا نهزة الطامع وقبسة العجلان...

والموقع الجغرافي لمدينة صور الذي كانت تتمتّع به لتصبح مركز إشعاع وانطلاق ونهضة، إلى جانب عبقريّة العلّامة شرف الدين في فهم الوضع الاجتماعي والديني والسياسي، وقدراته وقابليّاته التي كانت تزخر بها شخصيّته العلميّة والدينيّة كانت كلّها تشكّل محفّزات ودواعي ليبدأ نشاطاً متميّزاً في مدينة صور إلى جانب نشاط أبيه الديني والاجتماعي في شحور.

والسيّد عبد الحسين شرف الدين كان يفهم جيّداً أنّ التفرقة هي الداء الأوّل لتدهور المجتمعات، وأنّ الذين هم من وراء التفرقة هم المستفيدون مادّيّاً منها، وهم الإقطاعيّون الذين ما كانت تروقهم وحدة الأُمّة؛ لأنّ وحدة الأُمّة هي التي تحول بينهم وبين الوصول إلى كلّ ما يشتهون ويهوون.

وقد وصف العلّامة شرف الدين مدينة صور هذه من حيث أهمّيّة موقعها الجغرافي ودورها السياسي في الجبل بكلمة موجزة: «صور عنوان الإماميّة في البلاد العامليّة»[1].

وأمّا من حيث التركيبة الاجتماعيّة فقد كانت في صور أكثريّة مؤمنة لكنّها متفرّقة، وأقلّيّة متّحدة من غيرهم، لا سيّما النصارى وهم بالرغم من اختلاف مذاهبهم كانوا يتنافسون في إشادة معابدهم إذ كانت ترنّ نواقيسها وكانت عامرة بروّادها.

والمؤمنون على كثرتهم كانوا في خمول ذكر وتشتّتٍ مريع من جهة، ومن جهة أُخرى لم يكن في صور سوى مسجد واحد من آثار الوائليّين ـ الذين كانوا زعماء الشيعة في جبل عامل ـ حيث كانوا قد أنشأوا هذا المسجد وأنشأوا له أوقافاً تقوم بمهمّاته، غير أنّ الدولة العثمانيّة كانت قد ضمّت هذا المسجد بأوقافه إلى إدارة الأوقاف، وتعمّدت في تعيين إمام وخطيب ومؤذّن وخادم من غير الشيعة لهذا المسجد

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٥١.

الذي كان يتولّاه الشيعة الذين أسّسوه.

وكان الشيعة يصلّون فيه ولكنّهم كانوا يؤذَون ويُطرَدون؛ لأنّهم كانوا مسلوبي الحرّيّة آنذاك[١]، وفي هذه البلاد العامليّة الشيعيّة بالذات.

وفي هذا الوضع المأساوي بدأ العلّامة السيّد عبد الحسين شرف الدين مشروعه الإصلاحي الكبير.

٢ ـ تخطيط العلّامة شرف الدين لمشروعه الاجتماعي الإصلاحي

وحين خطّط العلّامة لإنقاذ هذه المدينة ممّا هي به من داء، وهي جديرة بأن تصبح مركزاً دينيّاً للإشعاع والإنارة لكلّ جبل عامل، واجهه المتنفّذون الذين كانوا يرون في مخطّطه التنموي ومشروعه الإصلاحي خطراً يهدّد مصالحهم ويهدّد نفوذهم، حين يكتسح الدين الساحة البشريّة من قدرة فائقة على جذب النفوس إلى الله تعالى وتوحيدها في خطّ عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً.

لقد بدأ العلّامة شرف الدين نشاطه الإصلاحي من منطلقات دينيّة إنسانيّة، يركّز في مشروعه الإصلاحي على إيجاد مركز يجتمع فيه المؤمنون ليتداولوا شؤونهم ويوحّدوا من خلاله صفوفهم.

وهذا المركز هو أوّل حسينيّة كان ينشئها العلّامة شرف الدين بعد إعداد ثقافي وروحي لعدد من المؤمنين وإعلانهم الاستعداد للدعم المادّي لمشروعه.

نعم، بدأ العلّامة مشروعه الإصلاحي بتثقيف بعض المؤمنين وجعلهم يحسّون بالداء العضال والمصيبة التي تحيط بهم، وهم غارقون فيها وغافلون عنها ومتعايشون معها من حيث لا يشعرون، كما قال الشاعر:

من يهن يسهل الهوان عليهِ   ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ

---

١. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٥١، التعليقة (١).

فكانت الخطوة الأُولى في الإصلاح: إثارة هذا الشعور بـالنقص وإثـارة الشـعور بالمضض الذي كان قد حلّ بهم وأنسوا به فغفلوا عنه، فإذا بـه يسـتصرخـهم بـرفق ويشكو إليهم همومه وأحزانه تجاههم وتجاه أوضاعهم بقوله:

لا جامعة لنا، ولا مجمع، ولا جماعة، ولا جمعيّة، ولا جمعة، ولا عيد، ولا أذان، ولا عنوان، ولا مدرسة ... [1].

وهذه هي الآفاق التي كان يحلّق فيها العلّامة شرف الدين منذ دخوله هذه المدينة.

ثمّ يضيف قائلاً في تصويره الدقيق لعمق المأساة:

يدخل الأجنبي صور وهي عنوان الإماميّة في البلاد العامليّة فلا يحسّ مـنهم بأحـد، ولا يسمع لهم ركزاً، يراهم ـ وهم الأكثريّة ـ في معزلٍ عن المسـجد الحـافل بـغيرهم من المسـلمين، ويـجدهم نـائين عـن مـنارته الآهـلة بـغيرهم تكـبيراً لله وتـوحيداً له ... حتّى كأنّهم ـ والعـياذ بـالله ـ ليسـوا مـن هـذه الأُمّـة، ولا هـم مـن مشـاعرها في شيء ... [2].

إنّ هـذه المـقارنة لتكشـف لنـا عـن عـمق المـصاب الذي كـان قـد ألمّ بأتـباع أهل البيت عليهم‌السلام وهم الأكثريّة عدداً، ولكنّهم الأقلّيّة ذكراً وحضوراً وفاعليّة في بلادهم ومركز نفوذهم.

إنّ هذه المأساة لم يكن ليتحمّلها قلب وعقل شرف الدين.

ومن هنا فقد بدأ معالجتها بمبادرته إلى تأسيس الحسينيّة، التي ستصبح فيما بعد منطلقاً للتثقيف والتوعية في طول البلاد وعرضها، فهي أوّل مركز للإصلاح الاجتماعي الذي بدأ من الداخل، من عقول ونفوس هؤلاء المؤمنين، لا سيّما الثلّة الواعية التـي كانت تحفّ بالعلّامة شرف الدين، وتقدّم للطائفة ما بوسعها من إمكانات وأموال لدعم مشروعه الإصلاحي المبارك.

وقد كان للسيّد عبد الحسين شرف الدين منهج فريد في ترغيب المؤمنين إلى عمل

---

١ و ٢. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٥١.

الخير وحثّهم على التنافس فيه، وذلك المنهج هو: ذكره بخير لأهل الخير في مجالس المؤمنين العامرة بهم، والإشادة بأعمالهم الخيّرة ونشاطاتهم المباركة مهما كانت صغيرة ومحدودة.

وهو في كلّ ذلك يقدّر ظروف الناس المعيشيّة أيضاً، ويراعي مصالحهم الشخصيّة والحياتيّة، حتّى أنّه حين أراد شراء دار الحاج سليمان الرز للحسينيّة لم يكن ليرضى له بإهداء هذه الدار للحسينيّة؛ لأنّه كان يراه محتاجاً إلى أموالها، فأخذها منه تقويةً لنوازعه الخيّرة ولكنّه عوّضه الثمن؛ لئلّا يتضرّر هذا المؤمن بما كان قد أهداه للحسينيّة من أمواله التي كان هو بأمسّ الحاجة إليها، وهو مع ذلك كان يذكر للآخرين معروف هذا الحاجّ بكلّ إكبار وإجلال.

لقد كان صمود السيّد شرف الدين في هذا الظرف العصيب، وعدم يأسه من الإصلاح رغم معاكسة الظروف، هو العامل الآخر الذي كان يُنجح أعماله ومشاريعه الإصلاحيّة رغم كلّ ما كان يراه من تثبيطٍ من المتنفّذين، ورغم كلّ صدود وعرقلة وفتور منهم وممّن كان يتأثّر بهم.

وكان السيّد يستثمر هذا الصدّ منهم لصقل أذهان المؤمنين ولتشحيذ هممهم وإثارة عزائمهم باتّجاه أعمال الخير والإصلاح.

وقد أنتج ذلك الصقل بسرعة حيث تبرّع أحدهم بداره لتكون منتدىً ومجمعاً للمؤمنين، وكان ذلك بعد مرور سنة واحدة من تواجد السيّد شرف الدين في مدينة صور، إذ كان دخوله إليها في النصف من ذي الحجّة سنة ١٣٢٥هـ، وكان افتتاحهم للحسينيّة في يوم الغدير الثامن عشر من ذي الحجّة سنة ١٣٢٦هـ.

وقد استمرّ استثماره لهذه الحسينيّة المباركة وإعمارها بأعمال الخير حتّى افتتاح المسجد الجامع الذي أسّسه فيما بعد في صور في سنة ١٣٤٧هـ، أي بعد إحدى وعشرين سنة تقريباً، وهي مدّة طويلة ومناسبة لتربية عدّة أجيالٍ من المؤمنين.

لقد أصبحت هذه الحسينيّة مركزاً لكلّ نشاطات السيّد الدينيّة والتثقيفيّة والاجتماعيّة، فهي:

١. مدرسة.

٢. منتدى.

٣. محكمة.

٤. كما هي الملتقى الذي كان يلتقي فيه المؤمنون ويجتمعون من مختلف نواحي «جبل عامل» في المواسم الدينيّة لأداء المراسم في عاشوراء والمولد النبوي والغدير العلوي.

٥. فضلاً عن أداء الفرائض والعبادات اليوميّة التي كانت تشعّ بالنور الإلهي عليهم وعلى من حواليهم من المؤمنين.

لقد كانت هذه الحسينيّة مباركة حيث وقفت ليعود ثوابها إلى روح سيّد الأحرار وأبي الشهداء وخامس أصحاب الكساء الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام. فنسبت إليه صلوات الله عليه وآله وسمّيت بالحسينيّة، وكانت «مثابة الوفّاد ونجعة الروّاد إحدى وعشرين سنة» كما نصّ على ذلك السيّد شرف الدين نفسه[١].

وهذا يكشف عن عمرانها بالخير، وبركاتها المستمرّة للإخلاص الذي أشادها، وكما قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[٢].

٣ـ حصيلة النشاط الاجتماعي في صور خلال سبع سنوات

بدأ السيّد العلّامة الألمعي نشاطه الاجتماعي وهو على وعي تامّ بأهمّيّة المنطقة التي كان يقطنها، وعلى وعي تامّ بطبيعة المشاكل التي كان يعاني منها المؤمنون،

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٥٣.

٢. التوبة (٩): ١٠٨.

والأسباب التي كانت من وراء هذه المشاكل، وبالتالي الحلول الناجعة لرفعها والتسامي بالمؤمنين إلى حيث يريد لهم ربّهم ربّ العالمين.

ويتلخّص ما اقتطفه من ثمار نشاطه الديني والاجتماعي فيما يلي:

١. إيجاد الأُلفة بين المؤمنين.

٢. توحيد كلمتهم ورصّ صفوفهم.

٣. تنامي الوعي الديني والسياسي لديهم.

٤. تأهيلهم وتشجيعهم لتأسيس جامع، وجمعيّة، ومدرسة، تُسعِفُ أحوالهم وأحوال أبنائهم في المستقبل القريب والبعيد.

وقد كانت سيرته الحسنة سبباً في تنافسهم على دعوته في بيوتهم وجعلها مراكز ناشطة للدعوة، والانطلاق بالمؤمنين نحو تحقيق مشروعه الإصلاحي والتربوي والاجتماعي، حيث كان يدرّسهم في هذه المجالس والأوقات التي يجتمعون فيها: عقائد الإسلام وأحكامه، كما كان يربّيهم بأخلاقه ومواعظه المؤثّرة التي كانت تنير الدرب للسائرين.

٥. ولعلّ توجّه العامليّين من شتّى المناطق كلّ جمعة إلى صور بعد تواجد العلّامة شرف الدين فيها، يكشف عن المركزيّة الجديدة التي أوجدها السيّد لمدينة صور في الجنوب اللبناني، وهو إنجاز كبير في حدّ نفسه، وقد تحقّق بفضل التخطيط والجهود المخلصة والصبر والسعي الدائب والنشاط المستمرّ الذي كان يبذله هذا السيّد الشريف.

٦. وتأتي خطوات السيّد شرف الدين للتخلّص من أسباب الشغب والتفرقة إنجازاً سادساً للسيّد لا يمكن التغافل عنه؛ لأنّه بهذا الإنجاز كان قد وطّد الطريق إلى تحقيق سائر مشاريعه الكبرى في مدينة صور بشكلٍ خاصّ.

٧. إنّ الذي يقرأ تاريخ لبنان وتاريخ العلّامة شرف الدين والحقبة التاريخيّة التي مرّ بها الجنوب اللبناني، ويرى لبنان اليوم، ليلمس بوضوح: أنّ تنوّع النشاط الثقافي الاجتماعي والديني للإمام شرف الدين وحيويّته واستمراره طيلة نصف قرن على

الأقلّ في جبل عامل، لم يقتصر على الجبل بل لكلّ لبنان الإسلام، وهو نشاط ذو صدى متميّز حتّى يومنا هذا. وإنّ ما نراه في لبنان الإسلام في هذا اليوم لهو حصيلة هذا الجهد المبارك وما ماثله من جهود بنّاءة كانت في نفس هذا الخطّ التحديثي الأصيل. إنّه حصيلة الإخلاص والكدح المتواصل والجدّ الشامل، وحصيلة الإخلاص الذي كان قد قدّمه العلّامة شرف الدين ومن حذا حذوه في الظروف القاسية، فأصبح بحراً مائجاً يروي الجنوب بكامله، بل صار نوراً مشرقاً وصوتاً هادراً وتحدّياً صارخاً يحصّن الجنوب والشمال ضدّ الطغاة والصهاينة العتاة.

٤ ـ المسجد الأوّل الذي أشاده في مدينة صور سنة ١٣٢٧هـ

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾[١].

فالمسجد مركز إسلامي يحمل شعار الإسلام ويمثّل توحيد الله في الفرائض التي تؤدّى فيه، وله أحكامه الفقهيّة الخاصّة وله شأن يختصّ به، وله فضل وثواب قد «يعدل مائة من ثواب الحسينيّة»[٢] حسب تعبير السيّد عبد الحسين شرف الدين.

فالحسينيّة التي أسّسها قد أنعشت أحوال المؤمنين إلى حدٍّ ما، وبلغ السيّد ببركة الحسينيّة شيئاً من بغيته الإصلاحيّة، غير أنّ عدم وجود مسجد خاصّ يتناسب مع حجم نشاطه وتنوّع همومه كان يؤرّقه ليل نهار، لأنّ الحسينيّة لم تكن لتعوّض عن المسجد فضلاً وأهمّيّة، وكما قال هو ﷺ: «لم تنعشنا من خمول، ولم تربأ بنجمنا عن أُفول»[٣] هذا أوّلاً. وعلّل ذلك ثانياً بقوله: «وما كنت لأجتزئ بها»[٤]. وعلّل ذلك ثالثاً بقوله:

لولا أنّي كنت مع أُولئك المتزعّمين كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحّم، وقد مُنينا منهم بخبطٍ وشماس وتلوّن واعتراض، فصبرت على طول المدّة

---

١. الجنّ (٧٢): ١٨.

٢ ـ ٤. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٥٣.

وشدّة المحنة، أتربّص سانحة الفرصة وأتتبّع رائد النجح[١].

وكانت هذه الأسباب قد جعلته يترصّد الفرص ويترقّب الوقت المناسب للخروج من هذا المأزق، وهذه المأساة التي كان قد مني بها من قبل المتنفّذين والمتزعّمين في صور.

وحين سخط الوالي العثماني عليهم فاشتغلوا بأنفسهم لدفع سخطه عليهم، وحين انصرفوا إلى بيروت انتهز العلّامة شرف الدين فرصة غيابهم عن صور لإشادة المسجد الجامع الذي كانوا يقفون دون إنشائه وتأسيسه، فاختار قطعة واسعة من خراب صور تربو على ثلاثة عشر دونماً من الأرض التي كانت في قبضة الملوك العثمانيّين، وأبرق للسلطان العثماني محمّد رشاد ـ وهو السلطان الخامس والثلاثون من سلاطين آل عثمان، وكان قد بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٧هـ ـ وقد أجاب السلطان ملتمَس السيّد شرف الدين بوقف هذه القطعة من الأرض في سبيل البرّ للطائفة.

وقد بدأ السيّد مسرعاً بتأسيس المسجد الجامع في وسط الأرض على غرار جامع الجزّار في عكّا. وبعد إشادة قواعد هذا المسجد مُني العالم بقارعة الحرب العالميّة الأُولى سنة ١٣٣٢هـ الموافقة لسنة ١٩١٤م.

وبهذا يتوقّف السيّد عن الاستمرار في إعمار المسجد الجامع؛ لأنّ ويلات هذه الحرب كانت قد شغلت الجميع عن كلّ شيء.

وحين انتهت الحرب العالميّة الأُولى في سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م ورجع الناس إلى رشدهم، واستقرّت الأُمور على حالها المعتاد من قبل، بدأ السيّد بإكمال بناء المسجد الجامع.

ولكنّ المتزعّمين ـ الذين أُشيد المسجد الجامع رغم أُنوفهم ورغم مخالفتهم في تلك

---

١. المصدر، وفي النصّ اقتباس بديع من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، من خطبته المعروفة بالشقشقيّة التي ذكر فيها سيرة الخلفاء قبله.

الفرصة الذهبيّة التي غابوا فيها عن صور ـ كانوا للسيّد بالمرصاد، واستمرّوا بإغراء الحكومة الفرنسيّة المحتلّة التي خلفت السلطة العثمانيّة في التسلّط على لبنان وعلى منطقة صور بالذات، فصادروا المسجد الجامع متشبّثين بأنّ أرض المسجد هي من جملة ما ورثته هذه الحكومة من العثمانيّين. فكفّ السيّد يده عن هذا المسجد مؤقّتاً، منتظراً الفرصة المناسبة لاسترداده[١].

ولم يثنِ هذا المانع السيّد عن عزمه على إشادة المسجد الذي يحتاجه المؤمنون في مدينة صور بالرغم من عبث المتنفّذين، ومن هنا انطلق إلى التخطيط لإشادة مسجد آخر وقد فرغ من بنائه سنة ١٣٤٧هـ.

وسوف نقف على تفاصيل هذا المشروع الثاني عند البحث عن تاريخ حياة السيّد شرف الدين خلال فترة ما بعد الاحتلال.

التشرّف إلى مدينة الرسول ﷺ سنة ١٣٢٨هـ

في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٢٨هـ تشرّف السيّد عبد الحسين شرف الدين بأعتاب الحرم النبوي الشريف وأهل بيته الميامين في دار الهجرة ومحلّ النصرة، وصام معظم الشهر المبارك وهو في خدمة والدته الكريمة مع جمع من أعيان العامليّين. ولم يوفّق في هذه السنة للحجّ، ولا للاعتكاف في المسجد النبوي، حيث احتفّ به أهل المدينة، وزاره الأميران الشريفان شحاذ وناصر في جماعة من مؤمني العوالي ولم يدّخرا وسعاً في العناية الفائقة بالسيّد شرف الدين.

وقد كان اهتمامه بالإخوة المؤمنين النخاولة كبيراً حيث نزل في دورهم وكان يرى نفسه أسعد الناس بإيصال النفع إليهم، وكان المؤمنون أيضاً فرحين بخدمة السيّد ومن معه والاستضاءة ببركة وجودهم فيما بينهم.

وقد خصّ السيّد شرف الدين السيّد عمران الحسني الحبّوبي النجفي بالذكر لشهامته

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٥٤.

وكرمه واهتمامه بتهيئة أسباب الراحة لهم.

وقد كان لهذه الزيارة الأثر البالغ على السيّد‌ﷺ بالرغم من أنّه لم يحظ بزيارة بيت الله الحرام، ولم يوفّق للاعتكاف بالمسجد النبوي، ولكنّ زيارة الرسول ﷺ وأهل البيت المدفونين في البقيع وصيام الشهر الكريم في جوار الرسول الأعظم ﷺ كان قد ترك أثراً إيجابيّاً كبيراً عند السيّد بحيث خصّص بحثاً في كتابه بغية الراغبين لذكر هذه الزيارة بتفاصيلها[1].

زيارة العلّامة شرف الدين للأزهر الشريف سنة ١٣٢٩ﻫ

مصر عند السيّد عبد الحسين شرف الدين

١. يرى السيّد الإمام شرف الدين أنّ مصر كانت وما تزال ـ في عصر شرف الدين ـ من منارات العلم في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي.

٢. ولهذا يؤمّها روّاد المعرفة وأرباب الثقافة في مختلف الأقطار العربيّة والإسلاميّة.

٣. ومصر باعتبار الأزهر الشريف تكافئ النجف الأشرف عنده وتجاريها في خدماتها الثقافيّة والإسلاميّة والعلوم العربيّة.

٤. وللتوسّع في المعرفة قد أمّها كثير من أعلام الإماميّة على مدى التاريخ.

ظرف الزيارة

إنّ هذا الموقع العلمي المتميّز لمصر بل للأزهر الشريف هو الذي دعا السيّد شرف الدين ليفكّر في زيارة مصر بعدما اغترفه من علوم أهل البيت عليهم السلام في حاضرة العلم العريقة «النجف الأشرف» خلال العقد الثالث من حياته المباركة. وهو الآن في نهاية عقده الرابع وبداية عقده الخامس، وبعد أن احتضنت مصر قبله اثنين من روّاد الإصلاح: السيّد جمال الدين «١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م» والشيخ محمّد عبده «١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م»،

---

١. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٤٠.

ولم يمضِ سوى سبع سنوات على رحيل الإمام محمّد عبده ومشيخة الأزهر تتمثّل في الشيخ سليم البشري المالكي، يدخل العلّامة السيّد عبد الحسين شرف الدين مصر بباخرة ألقت بثقليها «شرف الدين وخاله السيّد محمّد حسين» أواخر سنة ١٣٢٩هـ في ميناء بور سعيد، ودخلا القاهرة وبدآ جولتهما العلميّة التي كان العلّامة شرف الدين يستهدف فيها ما يلي:

أهداف الزيارة

١. التغلغل في الحياة العلميّة للأزهر الشريف، والوقوف على دخائل المجتمعات الأدبيّة فيه، والتعرّف على أسباب التفكير وطرق الدراسة ووفرة المحصول.

٢. التحدّث إلى العلماء والسماع منهم، والاتّصال الفكري بين مدرستي النجف والأزهر.

٣. تبادل الزيارات والتعارف بين خرّيجي مدرستي النجف والأزهر.

٤. المناظرة في أهمّ المسائل العلميّة التي كانت مداراً للبحث ومحكّاً للفضيلة.

أهمّ أحداث الزيارة

وقد صرّح السيّد شرف الدين بأنّه بدأ جولته العلميّة في القاهرة بالحضور في دورة الشيخ سليم البشري التي كان يلقي فيها درساً في مسند الإمام الشافعي بأُسلوب فريد، حيث كان يتناول السند بالدراسة ثمّ يقف عند النصّ وملابساته ويتعرّض في موارد الخلاف إلى الأقوال والأدلّة، ثمّ يرجّح أحد الوجوه مع ذكره لوجه الترجيح.

ويقوم السيّد بمداخلة في أثناء الدرس، وهو لا يعلم بالأُسلوب المتّبع في الدراسة الأزهريّة، فينساق ويسترسل على ما كان متعارفاً في الدراسات العليا النجفيّة حيث يفسح الأُستاذ المجال لطلبته للمناقشة والمداخلة في بحثه بكلّ حرّيّة وجرأة وصراحة. على عكس الأُسلوب المتعارف في الدراسة الأزهريّة حيث تتمّ المناقشة بعد أن يتمّ الأُستاذ تدريسه للمادّة المقرّر تدريسها.

وقد تسبّبت هذه المداخلة في توثيق العلاقة بين العلّامة شرف الدين والشيخ سليم

البشري، وانتهت إلى الاحترام المتبادل والاتّصال المستمرّ الذي انتهى إلى الكتاب المبارك الذي عُرف فيما بعد بـ\المراجعات.

لقد كان لهذه الزيارة الأُولى أكثر الأثر في حياة السيّد عبد الحسين شرف الدين، بعد الذي اكتنزه من علوم أهل البيت في مدرسة النجف الأشرف خلال العقد الثالث من حياته المباركة.

نتائج الزيارة

لقد كتب عن آثار هذه الزيارة بقلمه ما يلي:

[١]. وكان لهذه الزيارة أثر محمود في نفسي وفي حياتي ... ولو لم يَكن من آثار هذه الزيارة إلّا هذا الكتاب [يعني به \المراجعات] لكانت جديرة بأن تكون خالدة الأثر في حياتي على الأقلّ.

[٢]. ومهما يكن من أمر فقد نعمنا بمصر في خدمة هذا الشيخ [يريد به الشيخ سليم البشري] واتّصلنا بغيره من أعلام مصر المبرزين، إذ زارونا وزرناهم ... وقد نجمت هذه الاجتماعات الكريمة عن فوائد جمّة أقلّها الاتّصال الفكري بين مدرستي النجف والأزهر، والتعارف بين خرّيجي هذه وخرّيجي تلك على مدى ما في كلّ منهما من أسباب التفكير وطرق الدراسة ووفرة المحصول. ودع عنك ما لهذا الاتّصال من النتائج الحسنة التي تعود على الوحدة الإسلاميّة بأعمّ الفوائد وأجداها[1].

والوحدة الإسلاميّة هي أحد الأهداف الكبيرة والأُمنيات العظمى التي كان يتمنّاها ويسعى لتحقيقها الإمام شرف الدين في حياته، وقد كان يرى أنّ هذه الزيارات العلمائيّة والمجالس العلميّة ذات أثر بالغ في تحقيق الوعي اللازم لتوفّر كلّ عوامل الوحدة الإسلاميّة المنشودة. وقد أكّد هذه الحقيقة بقوله:

ولو أنّ الزيارات تستمرّ متبادلة بين البلدين لكان لها أحسن الأثر في رفع كثير من غشاوات البعد، واتّصلت إذن حلقات الأُمّة متفاهمة متحابّة تتساقى كؤوس الصفاء

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٤١ ـ ٦٤٢.

والولاء. ولعلّ الوعي الاجتماعي الجديد يقرّب خطوات هذه الاجتماعات بشكل من الأشكال الرسميّة لندنو بها من الواقع الحبيب[1].

وقد أثبت الواقع التاريخي في عصر شرف الدين وما بعده تحقّق الآثار الكبرى التي قصدها واستهدفها في زيارته، ولا سيّما تقارب النفوس والقلوب بين علماء المسلمين رغم اختلافهم المذهبي، والوحدة التي تحقّقت على صعيد المذاهب حين تأسّست دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وما تركه كتاب المراجعات الشريف من الآثار المحمودة على علماء الطائفتين من حيث فتح باب الحوار الجادّ والهادئ والموضوعي بين علماء المسلمين.

وإذا عُدنا إلى سائر آثار هذه الزيارة التي انطبعت في نفس السيّد شرف الدين لرأينا ما يلي، قال تَنِيُّ:

[٣]. وعلى كلّ فقد غادرت مصر وأنا أحنّ إليها، وأتزيّد من اللبث فيها.

[٤]. ولم أُغادرها قبل أن يتحفني أعلامها الثلاثة ـ البشري وبخيت والسملوطي ـ بإجازات مفصّلة عامّة عن مشائخهم أجمع بطرقهم كلّها المتّصلة بجميع أرباب الكتب والمصنّفات من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم في جميع العلوم عقليّة ونقليّة... .

وممّن نعمنا بخدمته في مصر وتبادلنا معه الزيارات وكانت بيننا وبينه محاضرات ومناظرات... الشيخ محمّد عبد الحيّ... الكتّاني الإدريسي الفاسي وقد أجازني إجازة عامّة... .

[٥]. واطّردت المراسلة بعد العودة إلى البلاد بيني وبين شيخنا البشري زمناً، ثمّ طغت عليها الشواغل وكوارث الحرب العالميّة الأُولى... .

[٦]. وقد حملني الحنين إلى مصر على زيارتها مرّةً أُخرى... سنة ١٣٣٨ هـ[2].

وقد نقد السيّد زيارته هذه رغم كلّ ما فيها من إيجابيّات بأنّها كانت زيارة فرديّة منقطعة الأوّل والآخر، وهذا يجعلها ذات فوائد وقتيّة لا تحقّق الأهداف الكبرى المذكورة.

---

١ و ٢. المصدر: ٦٤٣.

وعلى أيّ حال فقد رجع من مصر إلى صور في جمادى الأُولى سنة ١٣٣٠هـ الموافق لشهر أيّار سنة ١٩١٢م.

النشاط التأليفي للعلّامة شرف الدين في هذا الدور (١٣٢٢ ـ ١٣٣٢هـ)

١. الفصول المهمّة ١٣٢٧ (ط ١ = ١٣٣٠هـ، ط ٢ = ١٣٥٧هـ، ط ٣ = ١٣٧٥هـ).

٢. المراجعات الأُولى (١٣٢٩ ـ ١٣٣٠هـ) تحريرها ثانية ١٣٣٨هـ (المناظرات الأزهريّة).

٣. المجالس الفاخرة (١٣٣٠ ـ ١٣٣٢هـ).

٤. زكاة الأخلاق (١٣٢٧ ـ ١٣٢٨هـ).

٥. مختصر الكلام في مؤلّفي الشيعة من صدر الإسلام (١٣٣٧ ـ ١٣٣٨هـ).

٦. بغية الفائز في جواز نقل الجنائز.

٧. فريضة ما أدّاها إلّا عليّ.

وفي هذا العقد من الحضور الاجتماعي الفاعل والنشيط للسيّد عبدالحسين شرف‌الدين في الجبل نجده قد ألّف مجموعة من الكتب، وكتب مجموعة من المقالات البالغة الأهميّة.

إنّ تأليفاته في هذه المرحلة من حياته كانت تنبع من شعوره بالحاجة الماسّة إلى لمّ الشمل ورأب الصدع الذي كانت الساحة الإسلاميّة بشكل عامّ والعالم العربي الإسلامي بشكلٍ خاصّ، بأمسّ الحاجة إليه.

فالمجتمع الإسلامي كانت تنتابه حالة مزرية من التمزّق والانشقاق والتعصّب والانحياز المذهبي الذي كان قد نهى عنه القرآن الكريم وحذّر المسلمين من الوقوع فيه، ودعاهم إلى رصّ صفوفهم وتكاتفهم أمام أعدائهم، وإرساء قواعد التفاهم فيما بينهم، وفتح باب الحوار العلمي الهادئ الذي ينتهي بالعقلاء وأُولي الألباب إلى اختيار أحسن الأقوال وأقربها إلى الحقّ والصواب، مبتعدين عن التناحر

والتباغض الذي لا يستفيد منه أحد سوى الأعداء.

إنّ الملاحظ على مجموع تأليفاته في هذه الفترة من حياته أنّها متنوّعة في الموضوعات ومتنوّعة في المنهج، وهي تشير إلى تنوّع اهتماماته الاجتماعيّة والإصلاحيّة.

فقد صدرت له في العرفان مجموعة من المقالات الأخلاقيّة والتاريخيّة مثل زكاة الأخلاق و مؤلّفو الشيعة في صدر الإسلام إلى جانب الفصول المهمّة التي نشرت بعض بحوثه في العرفان أيضاً، وهي مؤشّر واضح إلى أنّه كان يمارس الإصلاح على أكثر من صعيد.

وهكذا المراجعات و المجالس الفاخرة فإنّهما يعبّران عن جهدين كبيرين في مجالين مهمّين.

فـ المجالس الفاخرة تمثّل حركته الإصلاحيّة داخل الكيان الشيعي والثقافة الشعبيّة التي أصبحت عرضة للتحريف بمرور الزمن، وأُخذت بالأُمّة إلى منزلق لا يرتضيه أهل البيت عليهم السلام ولا تؤيّده نصوص الكتاب والسنّة.

و المراجعات دعوة علميّة نزيهة واتّجاه أُصولي منفتح على الآخر يحاول الإصلاح الجذري ورفع أسباب الاختلاف والتمزّق بين مختلف طوائف المسلمين، فإنّ الدعوة إلى الوحدة ونبذ الفرقة دعوة مباركة ومهمّة، ولكنّها قد تسدل الستار على أسباب الخلاف المتجذّرة في ثقافة الأجيال السابقة، والتي تنعكس بلا ريب في فكر وسلوك الأجيال اللاحقة.

و المراجعات خطوة جبّارة على طريق الإصلاح الجذري، وهي خطوة مباركة جاءت بعد الخطوة الأُولى المتمثّلة في الفصول المهمّة، التي كانت تهدف إلى تأليف صنوف الأُمّة من خلال الالتزام بما أوجبه الشرع من رصّ الصفوف والالتزام بوحدة الكلمة ونبذ التفرّق المؤدّي إلى الفشل لا محالة.

ولكلّ تأليف آثاره العظيمة في حياة الأُمّة والواقع الاجتماعي الذي كان يعيشه

السيّد شرف الدين، ولا زلنا حتّى اليوم نرى بركات هذين التأليفين بأُمّ أعيننا، وهما تأليفان حيويّان وخطابان عصريّان، يتمتّعان بلغة تمتاز بالحداثة والبلاغة حتّى يومنا هذا رغم مرور ما يقرب من قرنٍ على كلٍّ منهما.

أمّا الفصول المهمّة في تأليف الأمّة فقد فرغ السيّد من تأليفه في مدينة صور من منطقة جبل عامل سنة ١٣٢٧هـ.

ويبدو أنّ هذا الكتاب كان يتألّف من عشرة فصول. وقد أضاف إليه السيّد بعد الطبعة الأُولى فصلين آخرين، وأضاف إلى سائر الفصول فوائد جمّة ومهمّة ولا سيّما في الفصل الثامن «فصل المتأوّلين» فضلاً عن التعليقة النافعة على جملة من مطالبه، كما نجد ذلك في بداية الفصول المهمّة حيث قال:

توسّعنا بـالفصول المهمّة في هذه الطبعة، إكمالاً لفوائدها، وإتماماً لمقاصدها، فظهرت اليوم بغير مظهرها أمس حتّى كأنّها غير الأُولى، فننبّه المطّلعين على تلك إلى أنّها لا تغنيهم عن هذه[1].

لقد فتح السيّد عبد الحسين شرف الدين الباب الموصد أمام التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، ومارس عمليّة تأليف الأُمّة بكلّ قطّاعاتها، فكان رائداً من روّاد هذه الحركة الإصلاحيّة، فاتحاً باب البحث والحوار العلمي النزيه على مصراعيه في هذه الحقبة الحرجة من حياة الأُمّة الإسلاميّة، التي تكالبت عليها أطماع المستعمرين في شرق العالم الإسلامي وغربه ومن شماله إلى جنوبه، بشكلٍ جنوني لم نرَ له مثيلاً في العالم كلّه آنذاك.

ويعدّ كتابه الفصول المهمّة نموذجاً حيّاً لمنحاه الإصلاحي ومنهجه التوحيدي الصادق؛ لقدرته الفائقة على قلع جذور الفتنة والتشتّت الذي كان قد أصاب الأُمّة الإسلاميّة وأصبح مرضاً وبيلاً فيها.

إنّ عام ١٣٢٧هـ هو العام الذي خلع فيه السلطان عبد الحميد من الخلافة،

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٣، الفصول المهمّة: ٢، تنبيه.

وكان السيّد شرف الدين قد بدأ بإنشاء أوّل مسجد للشيعة في مدينة صور بعد خلع السلطان عبد الحميد، كما أنّه العام الذي ولد له فيه ابنه الثالث السيّد محمّد رضا.

كما أنّه العام الذي ولدت فيه مجلّة العرفان بجهود مؤسّسها الشيخ أحمد عارف الزين ودعم النابهين من العلماء له، وقد سهر على حفظ خطّها الرسالي منذ تأسيسها بكلّ جدٍّ وإخلاص وانفتاح والتزام بالمبادئ الإسلاميّة، فكانت المجلّة الوحيدة في لبنان الناطقة باسم العرب والمسلمين، ولا سيّما أتباع أهل البيت عليهم السلام وأبناء جبل عامل بشكل خاصّ.

وهذه الفترة التي تأسّست فيها العرفان تعتبر مرحلة مهمّة من تاريخ المشرق العربي ولا سيّما البلاد السوريّة، إذ كان قد سيطر على المسلمين العثمانيّون الأتراك، ثمّ خلفهم الحلفاء النصارى بعد انتهاء الحرب العالميّة الأُولى فكانت فترة احتلال وانتداب ومخاض عسير للعالم الإسلامي.

وكانت للعلّامة شرف الدين مساهمة فاعلة وكبيرة في هذه المجلّة الناطقة باسم أهل البيت، والتي كان لانتشارها صدى كبير في العالم الإسلامي آنذاك.

وعلى هذا فالنشاط التأليفي للعلّامة شرف الدين خلال عام ١٣٢٧هـ كان نشاطاً متنوّعاً بين مجالات الأخلاق والتاريخ وتوحيد صفوف الأُمّة بالقول والقلم والعمل.

وأمّا قصّة تأليف المراجعات الأُولى فقد ذكرها في القسم الخاصّ ببيان مؤلّفاته في كتابه بغية الراغبين، وإليك نصّها:

كتاب المراجعات أو المناظرات الأزهريّة والمباحثات المصريّة، مجلّد واحد، يثبت رأي الإماميّة في الإمامة والخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألّفناه في مصر إذ أتيناها سنة ١٣٢٩، فجمعنا الحظّ السعيد بإمامها الوحيد الشيخ سليم البشري المالكي شيخ الجامع الأزهر في ذلك العهد، حضرت درسه وأخذت عنه علماً جمّاً، وكان عيلم علم، وعلَم حلم، وكنت أختلف إلى منزله أخلو به في البحث عمّا لا يسعنا البحث عنه إلّا في الخلوات، وكان جلّ بحثنا هذا في الإمامة، التي ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة

دينيّة مثل ما سُلّ عليها، وقد فرضنا على أنفسنا أن نمعن النظر في البحث عن أدلّتها، متجرّدين من كلّ عاطفة سوى انتجاع الحقيقة، والوصول إليه من طريقها المجمع على صحّته.

وعلى هذا جرت مناظراتنا ومراجعاتنا، وكانت خطّيّة تبادلنا بها المراسلة إبراماً ونقضاً، فجئته بالحجج الساطعة لا تترك خليجة، ولا تدع وليجة، فقابلها بالذود عن حياضها، لا يألوا في ذلك جهداً، ولا يدّخر وسعاً، لكنّ الله عزّ وجلّ بهدايته وتوفيقه يسّر لي وله الحمد درء كلّ شبهة، ودحض كلّ إشكال حتّى ظهر الصبح لذي عينين، وكنت أردت يومئذٍ طبع تلك المراجعات، وهي ١١٢ مراجعة.

لكنّ الأقدار الغالبة أرجأت ذلك، فلمّا نكبنا في حوادث سنة ١٣٣٨ ـ كما سنفصّله في محلّه ـ انتهبت مع سائر مؤلّفاتي[١] يوم صيح نهباً في دورنا.

وما أن فرّج الله تعالى عنّا بفضله وكرمه حتّى استأنفت مضامينها بجميع مباحثاتها التي دارت بيننا، فإذا هي بحذافيرها مدوّنة بين دفّتي الكتاب مع زيادات لا تخلّ بما كان بيننا من المحاكمات على ما أوضحناه في مقدّمة الكتاب. والحمد لله باعث من في القبور على بعث هذا السفر النافع ونشره[٢].

وأمّا المجالس الفاخرة فهي كما قلنا تعبّر عن همّ رسالي تصحيحي قام به الإمام شرف الدين في عنفوان شبابه، كما أنّها تعبّر عن نقلة نوعيّة في كيفيّة الانتفاع بالمجالس الحسينيّة، وهي في نفس الوقت تعبير عملي يدفع الشبهات التي طالما كانت توجّه إلى شيعة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال الرسالي الذي جسّده سيّدالشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام وأهل البيت المعصومين جميعاً في سلوكهم وتاريخ حياتهم، لغرض حماية الرسالة من الانحرافات التي سبّبها الحكّام المنحرفون والطغاة المتجبّرون.

---

١. فعظمت المصيبة. وجلّت بها المصيبة إذ لم يكن شيء منها مطبوعاً وإنّما كانت مخرجة إلى التبييض بذلك الخطّ الجميل، والله حسبنا ونعم الوكيل.

٢. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٣٢ ـ ٥٣٣، مؤلّفاته، الرقم ١٩.

وإليك نصّ ما قاله العلّامة السيّد عبد الحسين شرف الدين في هذا الصدد:

المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة، أفردنا الأوّل منها للسيرة النبويّة فكانت بمجرّدها من الأدلّة على نبوّته ﷺ.

توسّعنا في بيان حكمته في هديه بما لا مزيد عليه، فإذا آيات الحكمة وبيّنات النبوّة تتجلّى في كلٍّ من أنظمته وقوانينه، وسائر شؤونه في سياسته وأخلاقه، وأقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، ونطقه وصمته، ويقظته ونومه، وأكله وشربه، وتنعُّله ومشيه وجلوسه، وحربه وسلمه وهدنته، وصحّته ومرضه، وعبادته لله عزّ وجلّ، ومعاملته للناس من أوليائه وأعدائه على اختلاف طبقاتهم وتباين شؤونهم، وضع كلّاً من أُموره موضعه على ما تقتضيه الحكمة، فصّلنا ذلك في سيرته من مبدأ أمره إلى منتهى عمره، وبه عرفنا الكنه من قوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

المجلّد الثاني في هدي كلٍّ من أمير المؤمنين، وسيّدة نساء العالمين، وولدهما الحسن السبط المجتبى إمام الأُمّة، وسيّد شباب أهل الجنّة.

المجلّد الثالث خاصّ بسيّد الشهداء، وخامس أصحاب الكساء[2].

والرابع في هدي التسعة المعصومين، نسجنا في المجلّدات الثلاثة المختصّة بالأوصياء على منوال المجلّد الأوّل المختصّ بسيّد الأنبياء، فتوسّعنا فيها بما توسّعنا فيه من بيان الحكمة الدالّة بمجرّدها على العصمة، فلا غرو إن كانت سيرتهم بمجرّدها دالّة على إمامتهم عليهم السلام. وقد طبعت مقدّمة هذا الكتاب[3] فكانت رسالة لها السبق في رجحان مآتم العترة الطاهرة شرعاً وعقلاً[4].

---

١. القلم (٦٨): ٤.

٢. بسطنا فيه جميل بلائه وجليل عنائه في النصح لله تعالى ولعباده، ومثّلنا اندفاعه عليه السلام في سبيل الحقّ إلى تلك التضحية العظيمة بكلّ معاني العظمة التي ما سبقه إليها سابق، ولن يلحق فيها لاحق، وشرحنا أسرار شهادته والأغراض التي كان يرمي إليها في نهضته، وفصّلنا أسرار مآتمه الشريفة وآثارها في الإسلام.

٣. كنّا شرعنا في طبعه سنة ١٣٣٢هـ الموافقة لسنة ١٩١٤م فما فرغنا من طبع مقدّمته حتّى نشبت الحرب العالميّة فاشتغل الناس يومئذٍ بفجائعها عن كلّ شيء، ثمّ نكبنا بعدها فكان كتاب المجالس وسائر مؤلّفاتنا وكتبنا ممّا انتهبت في تلك النكبة.

٤. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٢٩ ـ ٥٣٠، مؤلّفاته، الرقم ٩.

وأمّا بغية الفائز في جواز نقل الجنائز فهي رسالة للردّ على من شنّع علينا بنقل الجنائز إلى المشاهد المشرّفة، وقد نشرتها مجلّة العرفان في أواخر السنة الثالثة وأوائل المجلّد الرابع، أي ما بين سنتي ١٣٢٩ و١٣٣٠هـ.

وأمّا التأليف السابع فهو عبارة عن مجموعة من الأجوبة لمسائل وجّهت إليه خلال عامي ١٣٢٩ و١٣٣٠هـ.

والبحث الثامن هو مقال منشور في المجلّد الخامس من مجلّة العرفان المؤرّخة بغرّة جمادى الأُولى سنة ١٣٣٢هـ.

هذه صورة موجزة وسريعة عن ما كتبه وألّفه العلّامة شرف الدين ووصل إلينا خلال هذا العقد من عمره الشريف، والله العالم بالصواب.

رائد الوحدة الإسلاميّة

إنّ قضيّة الوحدة الإسلاميّة وتأليف الأُمّة في فكر السيّد عبد الحسين شرف الدين هي قضيّة حيّة وجوهريّة وهي محور تفكيره ونشاطه وكتاباته واهتماماته منذ أوّل كتبه الفصول المهمّة، ولم يبتعد عنها لا في المراجعات ولا في النصّ والاجتهاد وكانت الروح في حركته السياسيّة والاجتماعيّة في المراحل الثلاثة من حياته وحياة الأُمّة في عصره:

١. مرحلة نهاية الدولة العثمانيّة.

٢. مرحلة الاستعمار الغربي للأراضي الإسلاميّة.

٣. مرحلة التجزئة التي عبّر عنها بعهد الاستقلال.

إنّ ريادة السيّد عبد الحسين شرف الدين في مجال الوحدة الإسلاميّة كانت في أخطر مرحلة من تاريخ العالم العربي والإسلامي في العصر الحديث، وهي مرحلة انهيار الدولة العثمانيّة، ذلك الانهيار الذي أوقع العالم الإسلامي تحت سيطرة الغازي الأوربي المنتصر والمستعمر المستهتر بكلّ القيم الأخلاقيّة والدينيّة، والغاصب لكلّ

الحقوق الإنسانيّة والإسلاميّة بمصادرته كلّ المصالح الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة لأبناء المجتمع الإسلامي.

وتعود هذه الريادة لوعيه العميق للواقع الذي كان يعيشه أوّلاً، وتعامله مع ذلك الواقع المتهرّئ برؤية مستقبليّة منفتحة ومتحرّرة ثانياً.

وهاتان الخصلتان جعلتا منه قائداً يمتاز بعمق الرؤية المتحرّرة من أسر الظروف والمعادلات المرحليّة، والمتألّقة إلى أُفق المستقبل المشرق الذي كانت ترسمه له عقيدته وشريعته.

ويعود انهيار الحكم العثماني إلى أسباب أهمّها: التناقضات القوميّة والعرقيّة داخل الأُمّة الإسلاميّة وخاصّةً الأُمّة العربيّة من جهة، والأتراك من جهة أُخرى، فإنّ الدولة العثمانيّة التي كانت تحمل عنوان الإسلام كانت قد تحوّلت من خلافة إسلاميّة إلى حكومة تركيّة؛ لأنّها لم تفكّر كيف تحتضن المسلمين جميعاً بقدر ما كانت تفكّر كيف تقوم بتتريك العالم الإسلامي في اللغة، وتتريك السيطرة السياسيّة أيضاً؛ ولذلك كان الناس يعيشون المعاناة في ظلّ هذه الدولة تماماً كما يعيشون المعاناة من أيّ محتلّ، وكان الناس مخلصون لإسلاميّتهم رغم افتقادهم الإسلاميّة في حركيّة هذا الحكم.

من هنا كانت مسألة الناس جميعاً أن يتحرّروا من كلّ هذا القهر. ومن هنا دخل الاستعمار إلى حياة هذه الشعوب، وهو يحمل معه أنواعاً من مساحيق التجميل تحت شعارات الحرّيّة والمساواة والعلم والتقدّم والحضارة.

ويأتي تعميق الروح الطائفيّة عنصراً من عناصر التفرقة بين المسلمين وتحويله إلى حالة عداء واستقطاب على مدى اتّساع العالم العربي والإسلامي.

وقد استغلّ المستعمر الكافر التناقضات القوميّة والمذهبيّة جميعاً، لإحكام السيطرة على المسلمين لا سيّما في مرحلة الانتداب التي أعقبت الحرب العالميّة الأُولى (١٩١٤م / ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٨م / ١٣٣٦هـ).

وقد باشر السيّد شرف الدين نشاطه لتعميق أواصر الوحدة الإسلاميّة قبل بداية

الحرب العالميّة الأُولى وقبل انهيار الدولة العثمانيّة بسنين عديدة، فقد تمّ تأليفه للفصول المهمّة في سنة ١٣٢٧هـ ولم يكن هذا التأليف وليد ساعته ويومه، وإنّما هو حصيلة اهتمام كبير ونشاط واسع تجلّت معالمه من خلال هذا الكتاب القيّم، بل هو حصيلة هموم كان يعيشها سيّدنا المترجم له منذ شرخ الشباب.

لقد كانت همومه الوحدويّة على شتّى الأصعدة، بدءاً بالمنطقة التي كان يقطنها والإقليم الذي يعيش على أرضه وانتهاءً بالعالم الإسلامي وفي كلّ الحقول الممكنة ـ دينيّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً ـ وهذا ما سوف نلاحظه بوضوح في مسيرته وفي كلّ مراحل تاريخ حياته إن شاء الله تعالى.

وإذا عرفنا أنّ هناك إلحاحاً شديداً على أن لا يكتشف المسلمون فكرهم وتاريخهم، وأن لا يكتشف السنّي الفكر الشيعي الأصيل الذي ينطلق من خلال القواعد والمبادئ الإسلاميّة الأصيلة، وأن لا يكتشف الشيعة فكر السنّة الأصيل الذي ينطلق من نفس القواعد، ويبقى الشيعي يتحدّث عن غصب الخلافة والسنّي يبقى متحدّثاً عن سبّ الصحابة؛ ليهيّئ كلّ منهم للأعداء ما يحبّون من أسباب الإثارة الطائفيّة.. عرفنا قيمة الجهد الذي بذله العلّامة شرف الدين في حواره الإسلامي ـ الإسلامي مع مشيخة الأزهر الشريف، والذي تجلّى في المراجعات ثمّ أكمله بالنصّ والاجتهاد فيما بعد. إنّه الانفتاح على حقيقة ما لدى الفريقين من أفكار ورؤى وأُصول ومبادئ يتجلّى الإسلام الأصيل من خلاله شفّافاً لا تشوبه شوائب التحريف على مرّ العصور.

وهكذا حظي سيّدنا المترجم بالموقع الريادي المتميّز في مجال الوحدة الإسلاميّة في عصرنا الراهن بما لم يحظَ به حتّى مثل السيّد جمال الدين والشيخ محمّد عبده بالرغم ممّا لهما من دور يستحقّ الذكر والإشادة به في هذا المجال.

الفصل الثاني

فترة الحرب العالميّة الأُولى والاحتلال

سنوات المحنة (١٣٣٢ ـ ١٣٣٩هـ)

مصالح الدول العظمى الأوربيّة في مستهلّ القرن العشرين

للدول العظمى الأوربيّة مصالح مستمرّة تسيّر سياستها الخارجيّة مهما كانت الحكومة القابضة على زمام السلطة ونوع النظام السياسي السائد فيها.

وهذه المصالح ترتبط بشروط جغرافيّة وبشريّة (ديموغرافيّة) ونفسيّة، كما أنّها مرتبطة بحاجات النظام الاقتصادي السائد.

لقد كان نهوض ألمانيا في الحقل الاقتصادي والديموغرافي في العشر سنوات التي سبقت الحرب العالميّة ١٩١٤م نهوضاً عظيماً، وكان تقدّم تجارتها الخارجيّة أسرع من تقدّم التجارة الخارجيّة الإنكليزيّة، ويضاف إلى جانب كلّ هذا النهوض الاقتصادي والتجاري ومشكلة البحث عن الأسواق الخارجيّة التي كانت أساسيّة للحياة الاقتصاديّة الألمانيّة، روح الغطرسة القوميّة وروح السيطرة والنفوذ والحكم عند الألمانيّين، حيث كانت الإمبراطوريّة الألمانيّة حين ذاك أقوى دولة في القارّة.

وقد أخذ الألمانيّون يطالبون بنصيبهم من النفوذ الذي تمارسه أوربا في القارّات الأُخرى بحيث تتناسب حصّة ألمانيا مع أهمّيّتها.

وكان للقوى المسلّحة الدور الأساسي في تحقيق هذه الطموحات الاستعماريّة في آسيا وأمريكا اللاتينيّة وأفريقيا الوسطى، فالجيش الألماني أقوى جيش في القارّة ـ بل في العالم ـ من حيث التنظيم والعتاد والشعبيّة في ألمانيا نفسها. وكانت عقليّة

السكّان عاملاً مساعداً في هذا المجال.

أمّا وسائل ألمانيا الدبلوماسيّة فقد كانت أقلّ متانة من وسائلها العسكريّة والبحريّة.

وأمّا إيطاليا فلم تساعدها ظروفها الجغرافيّة والاقتصاديّة والسياسيّة للتوسّع، بل كانت تبحث عن تقارب مع فرنسا، وتحذر دوماً من الوقوع في سياسة تعارض بريطانيا العظمى.

والنمسا وإن كانت دولة كبرى إلّا أنّها لم تكن دولة ذات تماسك قومي، وكانت دولة زراعيّة لم تكن لها شواغل سياسيّة خارجيّة، ولم تسلك سياسة التوسّع الاستعماري.

وأمّا روسيا فقد كانت دولة منعزلة تبحث عن حلف مع فرنسا، وقد تحقّق لها ذاك في ما بين ١٨٩١ ـ ١٨٩٣م غير أنّه كان موجّهاً ضدّ ألمانيا وحدها ولم يكن ضدّ بريطانيا العظمى، وهو لا يتضمّن تعهّداً واضحاً فيما يتعلّق بالسياسة البلقانيّة بالنسبة لمضيقي البوسفور والدرنيل اللذين أُغلقا في وجه السفن الحربيّة منذ ١٨٤١م.

وأمّا فرنسا فسكّانها متجانسون ليس فيهم أقلّيّات قوميّة، ولها ثلاث جهات بحريّة وجبهة برّيّة محميّة بجبال الألب في قسمها الجنوبي وغير محميّة في قسمها الشمالي. وكانت بلداً متّزناً اقتصاديّاً وذات صناعات تتطلّب البحث عن منافذ خارجيّة لها. فلها إذن شواغل استعماريّة توسّعيّة خارج أوربا حتّى أنّ توسّعها الاستعماري منذ ١٨٨٠م قد حقّق لها تقدّماً عظيماً جعل منها امبراطوريّة استعماريّة جديدة، بحيث جعلها تحذر دائماً من أن تتعارض سياستها الاستعماريّة مع مصالح إنكلترا. وقد أبرمت حلفاً مع روسيا ضدّ ألمانيا، ورأت من الضروري عام ١٩٠٤م أن يتمّ هذا الحلف بتفاهم مع بريطانيا العظمى.

وأمّا إنكلترا فوضعها كان يجعلها تلعب دور الحَكَم دائماً، وكانت دائماً تخشى هيمنة دولة من الدول على القارّة بحيث تهدّد سلامتها، ولهذا كانت ترغب في أوربا أن تقوم بسياسة توازن دون سياسة للتوسّع. وأمّا سياستها الاستعماريّة خارج القارّة فقد كانت سياسة توسّعيّة تعترف بها علناً، وهي ترجع إلى أسباب اقتصاديّة واستراتيجيّة ونفسيّة.

وكانت تعتمد على أُسطولها الحربي مؤمّنةً بذلك مواصلات الامبراطوريّة وسلامة الجزر البريطانيّة وتحول دون نزول محتمل الوقوع. وكانت سياستها معتمدة على مبدأ أنّ أُسطولها يجب أن يعادل على الأقلّ أُسطولي أقوى دولتين بعدها، مع زيادة ١٠ ٪. وهو هامش الأمن الذي ترتأيه إذ لا غنى لها عنه. وقد احتفظت بهذا الدور في العالم بعد ١٨٧٠م وخلال أكثر من نصف قرن دون أن تقوم بجهد عسكري خلافاً لسائر الدول العظمى.

إنّ هذه المصالح الأساسيّة للدول الكبرى الأوربيّة تفهمنا ظروف الخلاف التي وجدت في بداية القرن العشرين. وأهمّها: التنافس النمساوي الروسي في القضيّة البلقانيّة، والتنافس البحري الإنكليزي ـ الألماني، والتنافس الفرنسي ـ الألماني. كما كان دور القضايا الاقتصاديّة هامّاً في هذه المنافسات الدوليّة، بحيث إنّ التنافس التجاري أثار حفيظة الإنكليز وساعد على إفساد العلاقات بين إنكلترا وألمانيا. وكانت الأطماع الاستعماريّة لتشكيل مناطق النفوذ تعمل على تغذية هذه الخلافات السياسيّة فيما بينها[1].

ثمّ إنّ أزمة أغادير عام ١٩١١م والأزمة البلقانيّة ١٩١٢ ـ ١٩١٣م أدّتا إلى توتّر شديد في العلاقات الدوليّة وبذلك تسابقت الدول إلى التسلّح الذي أدّى إلى نشوب الحرب الأوربيّة «العالميّة الأُولى» عام ١٩١٤م.

غير أنّ هذا النزاع المسلّح يبدو وكأنّه نتيجة طبيعيّة لسياسة التوسّع الرأسماليّة التي تظهر في الأزمات المشار إليها بوضوح. فإذا أُضيف إليها نموّ العاطفة القوميّة عند هذه الشعوب المتنافسة حصلنا على أسباب قطعيّة لنشوب مثل هذه الحرب العالميّة[2].

---

١. أُنظر تاريخ القرن العشرين ٧: ٢٧.

٢. لقد نشبت نار الحرب الأوربيّة في تمّوز ١٩١٤ ثمّ ما لبثت أن أصبحت حرباً عالميّة بعد قتل الأرشيدوق فرديناند وارث عرش النمسا هونغاريا في زيارة لمدينة سراييفو بواسطة شباب من البوسنة إذ وصلتهم الأسلحة من ترسانات صربية. وأصبح الحادث نقطة انطلاق لأزمة نمت على مراحل ثلاث.

وبعد أن مضت على بداية الحرب العالميّة سنتين ونصف وكانت قد كـلّفت الدول المتحاربة آلاماً معنويّة ومادّيّة وإخفاقات كثيرة، هاج الرأي العامّ ضدّ استمرار الحرب وبدأت تظهر ردود الفعل في كلّ البلدان المتحاربة، غير أنّ الحكومات وطّدت العزم على الاستمرار في الحرب حتّى النصر. وكانت فرنسا قد أبرمت مع بريطانيا العظمى وروسيا اتّفاقات سرّيّة أوضحت فيها أهدافها من الحرب. واتّفق ابتداءً من آذار ١٩١٥م أن تأخذ روسيا بعد النصر: القسطنطينيّة والمضايق «البسفور والدردنيل». وفي آذار ١٩١٦م وضعت فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا خطّة لتقسيم تركيا الآسيويّة. وفي شباط ١٩١٧م أبرم اتّفاق سرّي فرنسي روسي بعد فرنسا بمساعدة روسيا في استرداد الإلزاس واللورين وضمّ أراضي السار وتأليف دولة مستقلّة على الضفّة اليسرى لنهر الراين.

كما وجّهت ألمانيا إلى الولايات المتّحدة مذكّرة سرّيّة في كانون الثاني ١٩١٧م تضمّنت طلب ضمانات بضمّ أراضٍ جديدة لألمانيا.

وبدخول الولايات المتّحدة الحرب في بداية عام ١٩١٧م وتحقّق الثورة الروسيّة خلال آذار حتّى تشرين الثاني سنة ١٩١٧م تغيّر توازن القوى ورجحت كفّة الميزان لصالح دول الوفاق من جهة، ولكنّ الثورة الروسيّة قد بدّلت هذا التوازن فجأةً لصالح ألمانيا إذ شلّت الجيش الروسي وسبّبت انقسام روسيا. وبهدنة ١٥ كانون الأوّل ١٩١٧ تمهّدت مقدّمات صلح بريستاليتوفسك المنفرد[1].

وقد قام الألمانيّون بين آذار وتمّوز ١٩١٨م بأربع عمليّات حربيّة كبرى متعاقبة لكنّهم أخفقوا في ١٥ تمّوز ١٩١٨م، وحينها بدأت الجيوش الأمريكيّة تنزل بعددها العظيم مشاركةً في القتال حتّى شعرت القيادة الألمانيّة بأن لا أمل لها بالنصر. وسلّمت ألمانيا وحلفاؤها نفسها لجبهة الوفاق ضمن مراحل: الأُولى تسليم بلغاريا وتركيا، ثمّ

---

١. تاريخ القرن العشرين: ٦٨ ـ ٨٨.

النمسا ـ هنغاريا، ثمّ ألمانيا التي قرّرت أن تسلّم نفسها في تشرين الثاني ١٩١٨م.

وهكذا وضعت نتائج هذه الحرب العالميّة العالمَ في وضع جديد، وحصلت في قوى الدول الأوربيّة تغيّرات هامّة خلال ١٩١٩ ـ ١٩٢٠م ممّا جعل كلّ دولة من الدول المنتصرة تفكّر بحماية مصالحها الخاصّة بشكل جادٍّ يبلغ حدّ التنافس الشديد.

وأمّا في خارج أوربا فقد أُعيد توزيع الأراضي الاستعماريّة بشكل سياسة جديدة عرفت باسم سياسة الانتداب، وجرت تبدّلات أرضيّة في الشرق الأدنى، وانحلّت الامبراطوريّة العثمانيّة. ولم يبقَ للأتراك إلّا مدينة القسطنطينيّة مع ضاحيتها والقسم الأعظم من شبه جزيرة الأناضول أي آسيا الصغرى، فاستقلّت أرمينيا، ووضعت أزمير تحت إدارة اليونان بشكل مؤقّت ووضعت سورية الشماليّة تحت الانتداب الفرنسي، وأصبحت سورية الجنوبيّة والعراق وشرقي الأردن منطقة نفوذ إنكليزي، وحصلت إيطاليا على منطقة نفوذ جنوب الأناضول، وحصلت اليونان على جزر بحر إيجة[1].

شرف الدين في فترة الحرب العالميّة الأُولى
(١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م ـ ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م)

١ ـ سوريا ولبنان وفلسطين خلال فترة الحرب

لقد وصف الإمام شرف الدين محنة الشعب السوري واللبناني والفلسطيني بشكل دقيق في مذكّراته بقوله:

وقع العالم بأسره ـ من هذه الحرب ـ في كَبَدْ[2] واختصّت سوريا ولبنان وفلسطين بويلات جمال باشا ـ قائد الجيش الرابع الشاهاني ـ إذ استشعر منها ميلاً إلى الحرّيّة

---

١. المصدر: ١١٩ ـ ١٢٠.

٢. أي مشقّة.

والاستقلال، فعمّه في انتقامه متجاوزاً في ذلك كلّ حدّ.

وقد أمعن في تجنيد الرجال وسوقهم إلى ميدان القتال، حتّى لم يبقَ إلّا المرأة والصبي والشيخ الهمّ والضرير والزَّمِنُ ومن هو في حكمهم.

وقام في ذلك على ساق، يسوق الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم بعصاً واحدة، فكانت الروعة شديدة والهول هائلاً.

وركب رأسه في جباية الأموال باسم الضرائب والإعانات والتبرّعات سلباً ونهباً بأفظع صور النهب والسلب.

ونصب المشانق، وصوّب البنادق لإعدام من يفرّ من التجنيد.

فكان ـ الأونباشي [١] ـ من الدرك يملك قتل من يشاء ممّن يزعم فرارهم، لا يسأل عن ذلك أبداً.

ورمى البلاد بالمجاعة المدقعة [٢] إذ قطع الميرة عنها، فقلّت الأقوات وغلت الأسعار غلاءً عظيماً، فكان الفقراء يطوون [٣] اليوم تلو اليوم، فتراهم خاوين مرسبين [٤] حتّى ماتوا جوعاً، وكانت الموتى مطروحة في البيوت وفي الشوارع العامّة وفي البراري لا يؤبه بها.

وأرصد المجلس العرفي في عاليه، وما أدراك ما فعل ذلك المجلس؟! ونبرأ إلى الله تعالى ممّا ارتكب.

وعلّق بمشانقه في دمشق وبيروت أربعين زعيماً من زعماء الأحرار في البلدين، وجاء بكلّ سوءة شنعاء، ومعرّة دهماء، ملء الأرض والسماء. (فأرسل الله عليهم الجراد [٥] والقُمّل آياتٍ مفصّلاتٍ)، تكاد تشبه ما أرسله الله تعالى منهما على فرعون. فجرد الجراد زرع البلاد وأشجارها، ولحس أرضها، فلم يبقَ رطباً ولا يابساً، ولابس القمل جيشه فانساب فيه ينقل إليه الحمّى النمشيّة، ثمّ انتشرت هذه الحمّى وسرى داؤها في

---

١. الأونباشي يرأس عشرة أشخاص من العسكر.

٢. أي الملصقة بالأرض ذلاً وفقراً، ومنه قولهم: إذا جُعتُنَّ دَقَعتُنَّ.

٣. أي لا يأكلون ولا يشربون.

٤. الخاوي الذي تتابع عليه الجوع. والمرسب: الذي ذهبت عيناه في رأسه من الجوع.

٥. سنة ١٣٣٣هـ وهي سنة ١٩١٥م.

عرض البلاد وطولها ـ والبلاء إذا نزل عمّ ـ فكانت تلك الحمّى جارفة [١] وتلاها الوباء فكان أدهى وأمرّ [٢] وأذاق الله الناس ـ بذنوبهم ـ لباس الخوف والجوع، فربّ عرض مصون كان يومئذٍ يبذل بأكلة، وربّ مكتبة حافلة بنفائس الكتب بيعت بمدٍّ من طعام، وكم أرض واسعة شُريت بتافهٍ من الدقيق [٣].

٢ ـ إنجازات الإمام شرف الدين في محنة الحرب العالميّة الأُولى

قال ﴿﴾ في مذكّراته:

وحسبي ما أولاني بلطفه وكرمه من إيقاظي وإنهاضي إلى تدارك أمر العلماء في محنتهم يومئذٍ، وعلاج ما يتسنّى علاجه من بلايا الجمهور حولي. وقد صبّ الغاشمون عليهم سوط عذاب، فاستحرّ بهم القتل صبراً، والموت جوعاً، والاضطهاد حبساً وتنكيلاً [٤].

رفع المحنة عن علماء وأئمّة مساجد الشيعة

قال ﴿﴾ فيما يرتبط بإنجازه الأوّل:

ولمّا صدر الأمر بسوق الرجال إلى ميادين القتال هبّت السلطة الغاشمة إلى تنفيذه بكلّ ما لديها من شدّة وغلظة واعتساف، فساقت الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم بعصاً واحدة ـ كما سمعت ـ ولم تكن أنظمة السوق تعفي من التجنيد سوى أئمّة المساجد والقوّامين على الطقوس [٥] الدينيّة في كنائس أهل الكتاب.

لكن لسوء الحظّ لم تكن لأئمّة المساجد الشيعيّة أسماء في دوائر الحكومة ولا في غيرها، إذ لم تكن إمامتهم بتوظيف من الحكومة أو من طائفتهم، وإنّما هي بمجرّد

١. فجعنا بها بوفاة المقدّس أخي السيّد الشريف بعد أن ابتليت بها فعافاني الله وكفى بالأجل حارساً. «منه ﴿﴾».

٢. وقد قضى على كثير ممّن يختصّ بنا ويعزّ علينا ومنهم السيّد عبد الله وصنوه السيّد محمّد أبناء عمّي السيّد إسماعيل. «منه ﴿﴾».

٣. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٧٣ ـ ٥٧٥.

٤. المصدر: ٥٧٥.

٥. الطقوس كلمة نصرانيّة دخيلة يريدون بها الطريقة وقد غلبت على الطريقة الدينيّة.

أهليّتهم وعدالتهم المحرزة في نفوس شعبهم، بخلاف أئمّة المساجد من أهل المذاهب الأربعة الإسلاميّة، فإنّهم كانوا من قبل موظّفين من الحكومة برواتب معيّنة لهم في سجلّاتها الرسميّة يتقاضونها كلّ شهر كسائر الموظّفين، وكذلك القوّامون على كنائس أهل الكتاب من أحبار اليهود وأساقفة النصارى كانوا موظّفين من رؤساء كهنتهم برواتب مسجّلة لهم يتقاضونها من أوقافهم.

فالسلطة العسكريّة كانت على يقين من إعفاء هؤلاء وأُولئك جميعاً، ولذلك أعطتهم وثائق الإعفاء عملاً بقانونها العسكري في ذلك العهد، فأمنوا واطمأنّوا مرتاحين.

أمّا أئمّة مساجد الشيعة ـ وهم علماء البلاد وأبرارها ـ فلم تعترف سلطات السوق بإمامتهم، إذ لم يكن ثمّة ما يثبتها رسميّاً، وبذلك أجمعت على سوقهم مع سواد الناس بكلّ شدّة، وأمعنت في طغيانها تتعقّبهم لا تدّخر في ذلك وسعاً. فذُعروا وتواروا مدلّهين، وهال الطائفة أمرهم وسقط في يدها، على أنّها كانت في غمّاء لا ترى لها مُطَّلَعاً [1].

والخطوات التي قام بها لرفع هذه المحنة هي كما يلي:

الخطوة الأُولى: قال ﷺ:

وفي إبّان هذه الحيرة ألقى الله سبحانه في روعنا أن نطرق الأبواب العالية نلفتها إلى حرماننا وحرمان مساجدنا وأئمّتنا من هذا الحقّ القانوني، صاخبين إليها من اختصاصنا نحن الشيعة بهذا الحرمان، محتجّين عليها بذلك.

الخطوة الثانية: ثمّ قال:

تواتر على العاصمة ـ القسطنطينيّة ـ بذلك برقيّاتنا لكلٍّ من السدّة السلطانيّة ورئاسة الوزارة ووزير الحربيّة أنور باشا، وانثالت العرائض بهذا على القائد جمال باشا فمن دونه ممّن لهم حقّ النظر في ظلامتنا، نستصرخهم ونستفزّهم ونحتجّ عليهم.

ولعلّي فزت ـ والحمد لله على التوفيق ـ بنصيبي من العزيمة على النهضة حين لم يكن للناس حولي أُمنيّة ولا أمل إلّا بالله عزّ وجلّ. ولعلّي أخذت ـ والفضل لله وحده ـ بحظّي من القيام بمهمّاتها من أكثر جهاتها.

---

١. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٧٥ ـ ٥٧٦.

الخطوة الثالثة: الاستمرار في النهضة والصمود أمام مشكلاتها بأساليبه الحكيمة.

قال ﷺ:

صمدت لها ـ بعون الله سبحانه ولم يكن لها من دون الله كاشفة ـ بكلّ يقظةٍ ونشاط أستفزّ الشعب إلى حقّه القانوني، وأستفزّه إلى الحكمة والأُسلوب الحسن في المطالبة به، ولا أدّخر وسعاً من قول، ولا جهداً في عمل، فإذا الشعب العاملي قائم على ساق يحتجّ على الحكومة بحرمانه وامتهانه دون إخوانه ودون جيرانه، لا يستوطئ في ذلك راحة، ولا يعرف دعة، وما زال مثابراً على ذلك حتّى كشف الله عنه هذه الغمّة ببرقيّة من وزارة الحربيّة توجب الاجتزاء في إعفاء أئمّة مساجد الشيعة من التجنيد بمجرّد قرار إداري في تصديق إمامتهم، وإن كان متأخّراً عن إعلان الحرب.. فثابت بهذا إلى العلماء نفوسهم، واطمأنّ الناس إلى كرامتهم فالحمد لله على ذلك[1].

رفع محنة المؤمنين

قال ﷺ في وصف هذه المحنة وفيما يرتبط بإنجازه الثاني وهو رفع محنتهم:

وكان المؤمنون حولي قد فوجئوا بأنواع من البلايا لا يرون إلى التخلّص منها سبيلاً، إذ كان الحكم فيها خاضعاً لشهوات الاستبداد الفردي.

ولعلّ ضعف الشيخوخة الذي منيت به الدولة العثمانيّة في ذلك العهد كان من أسباب ذلك العنف والاستبداد، وقد استطار الشرّ وأخذت حلقاته بخناق من حولي من عباد الله وإمائه، فإذا الحياة منكرة، والعيش وبيل، فرأيتني غير معذور إلّا ببذل الوسع في الإعذار، وما كان لذي عاطفة إنسانيّة أن يمرّ على جثث الهلكى من جوعى تلك المحنة ثمّ يطمئنّ قبل أن يجاهد في سبيلها، فلعلّه يفتدي الرمق المتلاشي من أُولئك الفقراء ببعض ما لهم من الحقّ في ذمم الأغنياء، ولعلّه يمسك الأنفاس الزاهقة بشيء ممّا للضعفاء قِبَل الأقوياء[2].

---

١. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٧٥ ـ ٥٧٦.

٢. المصدر: ٥٧٨.

وأمّا موقفه من هذه المحنة والخطوات الحكيمة التي قام بها فهي كما يلي:

الخطوة الأُولى: استنجاد الكرام الموسرين.

قال ﷺ في وصف هذه الخطوة:

فطفقت يومئذٍ أستنجد الكرام الموسرين، وأستجدي ضمائرهم لأُولئك الهلكى بمرأى منهم ومسمع، أتلو عليهم من محكمات الذكر الحكيم، وصحاح السنّة الرحيمة، ما تأخذهم به أريحيّة السخاء، وتملكهم به الخفّة للمعروف.

رفعتُ صوتي بذلك أستخرج به من أعماق الناس معانيهم الإنسانيّة، ولعلّي أبليت في ذلك بلاءً حسناً، فيسّر الله لي بفضله وكرمه ما كنت ألتمسه لأُولئك الجوعى العراة[١].

الخطوة الثانية: جمع الأخماس والزكوات وأثلاث الموتى وتوزيعها ضمن منهج بديع.

قال ﷺ:

وبرزت الأخماس تقفوها الزكوات وتتلوها أثلاث الموتى إلى رصيد معلوم يوزّع على الجوعى بنسبٍ متكافئة.

وقد جعلت لكلّ مخرج من هذه الحقوق أن يشرف بنفسه أو بنائبٍ عنه على توزيعه في ذي قرباه، مع مندوب اعتمدته في تقدير نسب التوزيع العادلة من معرفة أهل الخبرة المحكّمين في تقدير هذه الحاجات[٢].

وكتب عن نتائج هذا الإنجاز ما يلي:

وبهذا أنعش الله نفوساً، وبرّد أكباداً، ونفّس كرباً، وبدأت الحياة تدبّ في كثير من المحتضرين.

ومن الحقّ أن نشكر أُولئك المحسنين في تلك اللأواء، وهم نفر مؤمن حقّاً، انتفع بروح الموعظة نفعاً مثّل الإيمان بأجلى مظاهره.

وربما كان للموت الزؤام المنتشر في تلك الأيّام أثر في إخراج تلك الحقوق، ذلك أنّ الموسرين خافوا أن تكون أسماؤهم في سجلّ المخترمين، فتداركوا أنفسهم بوفاء

---

١ و٢. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

ذممهم المشغولة بحقوق أُولئك الصرعى جوعاً وعرياً، وقد كان لذلك تأثيره في وصيّاتهم بالأثلاث أن تصرف إلى أهل المخمصة من أرحامهم وجيرانهم بإشرافٍ منّا[1].

إنقاذ الأبرياء من الإعدام والسجن

قال ﷺ فيما يرتبط بإنجازه الثالث هذا:

وكان لي بتوفيق الله تعالى خدمات أُخر رفع الله بها عن بعض الأبرياء ما كان يلمّ به من كوارث ذلك العهد، وأنقذ الله بفضله من أشداق الموت نفراً وأخذ بأيدي آخرين فأخرجهم من ظلمات السجون[2].

منهم المرحوم الشيخ عبد الله مروّة من حاريص، وفيّاض حسن طالب من كفرى، وعلي ماضي من الرماديّة، وغيرهم ممّن نصبت المشانق لإعدامهم من قبل رئيس مصلحة التجنيد في صور زكي جماعة ورجل آخر اسمه محمّد شاويش من أدرنة في تركيا فأنقذهم الله تعالى بعد جهدٍ وعناء.

وممّن أنقذهم من السجن نيّف وثلاثون شخصاً كانوا معتقلين في بيت الدين[3].

شرف الدين بعد الحرب العالميّة الأُولى وفي فترة الاحتلال (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م ـ ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)

عرفنا أنّ جبهة الوفاق حين انتصرت سنة ١٩١٨م قامت بتقسيم أراضي الامبراطوريّة العثمانيّة حسب الاتّفاقيّات السرّيّة التي كانت قد أبرمتها فيما بينها خلال فترة الحرب. ومعنى هذا أنّ الأطماع التوسّعيّة كانت هدفاً أساسيّاً من أهداف إشعال نار الحرب، ولم تكن ـ كما يقال ـ مستدرجة إلى هذه الحرب من حيث لا تشعر أو

---

١ و ٢. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

٣. المصدر: ٥٨٠، الهامش (٢).

لا تريد. فكأنّ هناك إجماعاً دوليّاً من قبل هؤلاء المستعمرين لتحصيل مناطق للسيطرة والنفوذ جديدة، وأسواق لتسويق المنتجات الثقافيّة والسياسيّة فضلاً عن غيرها من أنواع المنتجات الغربيّة.

وهذا ما حصل بالفعل حيث تزامن انتهاء الحرب باحتلال أراضي المسلمين وتقسيمها تقسيماً عجيباً، حتّى سمّي الاستعمار بالانتداب، وسمّي إحكام القبضة على هذه الدول فيما بعد بالاستقلال، بعد وصاية دامت عدّة عقود بالنسبة لكلّ واحدة من هذه البلاد.

قال الإمام شرف الدين ﷺ:

في أعقاب تلك الحرب والجيوش تلقي أوزارها، انتهت فلسطين إلى الاحتلال الإنكليزي، وانتهت دمشق إلى الإمارة الهاشميّة برئاسة فاتحها الأمير فيصل.

وكان نصيبنا من التقسيم يومئذٍ نصيباً لم تجرِ فيه الرياح كما كنّا نشتهي، وكما كنّا نقدّر... ولكن ابتدأنا نشاطنا على كلّ حال وفق آمالنا التي كنّا نعلّقها على ما بعد الحرب[1].

ويبدو أنّ إرادة التخلّص من الاستعمار التركي ـ إن صحّ التعبير ـ وسياسة التتريك التي تركت آثاراً سلبيّة على العرب القاطنين في البلاد العربيّة: كان خير عامل باتّجاه قبول الانتداب أو عدم مناوئته ما دام طريقاً للوصول إلى حكومات مستقلّة تتبلور فيها إرادة الشعوب الخاضعة تحت نير الامبراطوريّة العثمانيّة التي أطلقت على نفسها اسم الخلافة الإسلاميّة.

حكومة صور المؤقّتة ودور شرف الدين فيها

قال ﷺ:

وبدأ العمل في هذه البلاد بإنشاء حكومات مؤقّتة تحفظ الأمن باسم الملك حسين، فكان الحاكم في بيروت شكري الأيّوبي، وفي صيدا رياض الصلح، وأنشأنا في صور

---

١. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨١.

يومئذٍ حكومة على هذا الغرار تحتفظ بالزمام؛ لتلقيه بعدئذٍ إلى الأمير فيصل حين تتوّج مساعيه بالنجاح.

ولكنّ الإنكليز أبطلت هذا التدبير الذي رجوناه لمستقبلٍ عربيٍّ مستقلّ إذ اجتاحت في مرورها ما بنيناه من هذا الكيان الناشئ، ولم تعترف بشيء من هذا الجهد المؤمّل.

وبذلك شطب على الخطوة الأُولى، ومهّد لفرنسا أن تسيطر وتحتلّ باتّفاق مع «عصبة الأُمم» التي كانت توجّه السياسة العالميّة يومئذٍ.

ولكن ما كان لنا ولسائر المخلصين للدين والقوميّة والوطنيّة أن نستكين للقوّة مستخذين [1].

إنّ عصبة الأُمم هي وليدة الحرب العالميّة، وهي الواجهة الدوليّة لتنفيذ الإرادة الاستعماريّة للدول المنتصرة لاحتلال العالم أجمع، تحت عناوين أخّاذة وشعارات تختفي تحتها الروح الصليبيّة الاستعماريّة التي لا تنفكّ عن هذه الدول الاستعماريّة ذات المطامع الاقتصاديّة والسياسيّة والبرامج الثقافيّة الخطيرة.

وقد تنبّه النابهون والغيارى من أبناء هذه الشعوب المحتلّة إلى خطر الانتداب والاحتلال، فبدأوا بمقاومته بكلّ ما أُوتوا من حولٍ وقوّة.

موقف شرف الدين من الاحتلال الفرنسي للجبل

إنّ الإخلاص للدين والوطن كان يتنافى مع قبول الانتداب، ولهذا كان استقبال أبناء الجبل الغيارى للاحتلال الفرنسي استقبالاً صاخباً محتجّاً مواجهاً بالرفض والمصارحة والميل عن فرنسا وسياستها ميلاً لا هوادة فيه ولا لين.

ومن هنا أُوكلت إلى الإمام شرف الدين مهمّة قيادة هذه المواجهة من قبل السياسيّين والعلماء الذين يهمّهم مستقبل هذه البلاد.

---

١. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨١ ـ ٥٨٢.

قال ﵀:

وأُوكل إلينا أن نمثّل الأُمّة العامليّة في جماعة ممّن يلابسون السياسة ويعملون في حقولها، واجتمعت إلينا أختام العلماء والوجوه والمختارين من مختلف البلاد العامليّة، ثقةً منهم بكلّ ما نقوله باسمهم، واعترافاً بصحّة ما نعمله في سبيل مصلحتهم [١].

فالخطوة الأُولى هي توحيد القيادة والالتفاف حولها.

وكانت الخطوة الثانية الجهاد السلمي والتصريح برفض الاحتلال والانتداب تعبيراً عن آراء الشعب وأمانيّه. من خلال مواقف عديدة وقتاليّة وصريحة بكلّ الوسائل المتاحة حينذاك.

قال ﵀:

وطيّرنا يومئذٍ برقيّات وأرسلنا عرائض عبّرت عن آمال البلاد وأمانيّها في جلاء فرنسا عنّا واعتزالها الحكم فينا.

وكان الأمير فيصل يومئذٍ في جنيف وباريس يسعى سعيه الجميل، ويتّصل بذوي الأمر في شأن الحكومة العربيّة المستقلّة التي كنّا نظاهره على إنشائها.

ولم نقتصر من السعي على العرائض والبرقيّات في جهادنا السلمي يومئذٍ، بل كانت لنا أصوات عريضة أذاعتها عنّا صحف بيروت أوّلاً، ثمّ تولّت إذاعتها صحف دمشق بعد أن كمّها الاستعمار الفرنسي في بيروت.

ثمّ كان لنا مواجهات مع المسيطرين من الفرنسيّين كبيكو وغورو وشبرنتيه ودلبستر ونيجر [٢].

شرف الدين يرفض المساومة

قال ﵀:

وقد حضر بعض هؤلاء إلى صور وفاوضنا ـ دون خجل ـ في أن تكون لنا الإرادة

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨٢.

٢. المصدر: ٥٨٢ ـ ٥٨٣.

المطلقة في التعيينات وأُسس الحكم المحلّي وما إلى ذلك، ولكنّا رفضنا هذه المساومة ورددناها[١].

الاحتجاج الجماهيري ضدّ المحتلّين

قال ﴿قدس سره﴾:

وقد شهد الكثير من هؤلاء [المسيطرين] وغيرهم في صور وشحور احتشادات الجماهير الهابطة من الجبل بأعلامها الخافقة الوطنيّة وهتافاتها الصاخبة فكان لذلك وقعه في نفوسهم، وعلموا أنّ الشكيمة التي يحاولونها شكيمة شديدة لا تروض[٢].

استفتاء اللجنة الأميركيّة للشعب السوري واللبناني

كانت أميركا قد دخلت الحرب بصفتها الدولة المحايدة التي تريد إقرار الصلح وحقوق الإنسان التي أهدرها المستعمرون والمتسلّطون في رقاب الشعوب المستضعفة.

ومن هنا كانت اللجنة الأميركيّة تحمل عنوان الحكم المحايد، فأخذت تستطلع آراء الشعب السوري واللبناني بعد أن طافت في أنحاء البلاد اختبرت الميول نحو الحكم في البلاد، وزارت صور لهذا الغرض وكانت الأُمّة العامليّة أجمعت على أن يكون الممثّل لها يومئذٍ العلّامة شرف الدين والعلّامة الشيخ حسين مغنية ﴿قدس سرهما﴾.

قال الإمام شرف الدين:

فلمّا جاءت اللجنة كنّا معاً في جلسة الاستفتاء، وكان الشيخ أسبق منّي إلى الحديث بكلمة فوّضني فيها بالمحادثة، وأكّد للّجنة أنّ ما أراه هو رأيه ورأي الجماعة أُولي الشأن من ورائنا[٣].

وبهذا اتّضح للجميع الموقع المتميّز الذي يحتلّه الإمام شرف الدين في جبل عامل، وأنّ رأيه وحنكته مرضية للجميع، وأنّ رأيهم يتمثّل في رأيه، فهو موضع ثقتهم ومعتمدهم في هذه الحركة المصيريّة للبلاد.

---

١ و٢. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨٢ ـ ٥٨٣.

٣. المصدر: ٥٨٣.

قال ﷺ:

ثمّ تولّيت أنا إدارة الحديث في حوار طويل كان بمحضر الشيخ، أفضيت خلاله بتصوير رغبات الأُمّة وأمانيّها من الوحدة السوريّة المستقلّة بحكومتها الدستوريّة اللامركزيّة، وأن يكون على رأسها الأمير فيصل ملكاً.

ورفضت أن يكون لأيّة دولة أجنبيّة يد في حكم أو دخل في انتداب، ولا سيّما الحكم الفرنسي.

وطلبتُ مساعدة أميركا لكونها دولة غنيّة قويّة بعيدة عن مطامع الاستعمار، وبذلك ازداد الطين بلّة بيننا وبين الفرنسيّين [١].

وقد سلّم الإمام شرف الدين وثيقة مكتوبة مختومة منه ومن الشيخ حسين مغنية إلى اللجنة الأميركيّة الموفدة من عصبة الأمم. وإليك نصّ المذكّرة التي أدلى بها الإمام شرف الدين وسلّمها لكِنك كراين «لجنة الاستفتاء الأميركيّة» في ٥ شوّال ١٣٣٧هـ على إثر الاجتماع الذي عقده هو والمغفور له الشيخ حسين مغنية مع اللجنة في مدينة صور:

سلام عليكم شعباً صدع رئيسه بمبادئ الحرّيّة، وتحيّةً لكم تقرنون العمل بالقول.

أمّا بعد: فإنّني أُوكّد البحث الذي أدرته وأخي حجّة الإسلام الشيخ حسين مغنية معكم لدينا في صور، وأُسجّل في هذه الوثيقة خلاصة الرأي الذي أدلينا به عشية الاجتماع، منعاً لكلّ لبس لدى المترجم، ودفعاً لأيّ تقوّل من الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه، وإليكم ذلك في هذه البنود:

أوّلاً: لا نرضى بغير استقلال سوريا التامّ الناجز بحدودها الطبيعيّة التي تضمّ قسميها الجنوبي «فلسطين» والشمالي «لبنان» وكلّ ما يعرف ببرّ الشام، دون حماية أو وصاية.

ثانياً: تكون الدولة ملكيّة ذات عدالة ومساواة يستوي فيها جميع الناس كافّة في الحقوق والواجبات.

ثالثاً: الأمير فيصل بن الحسين هو مرشّح العرب الطبيعي لملك سورية. لما له من جهاد

---

١. المصدر: ٥٨٤.

في سبيل القضيّة العربيّة، ومن عبقريّة سياسيّة وخلقيّة تؤهّلانه لتسنّم هذا العرش.

رابعاً: لا حقّ إطلاقاً لما تدّعيه فرنسا في أيّة بقعة من سورية، ولا نقبل أيّ مساعدة منها.

خامساً: إذا كان لا بدّ لسورية من مساعدة، فإنّ الرئيس «ولسون» قد فتح باباً معقولاً لطلب المساعدة من أميركا، وذلك بإعلانه أنّ القصد من دخول الحرب إنّما كان للقضاء على فكرة الفتح والاستعمار.

هذا وإنّ المبادئ التي أعلنها رئيس بلادكم، تحملنا على الثقة في أنّ مطالبنا المشروعة هذه ستكون هي المعتمدة لتقرير مصيرنا، لأنّها من ضمن المبادئ التي نصّت عليها مبادئها الكريمة.

وتفضّلوا بقبول الاحترام[1].

محاولة تفتيت الجبهة الوطنيّة باغتيال الإمام شرف الدين

إنّ عمليّة تفتيت جبهة المعارضة الوطنيّة التي وحّدت صفوفها وأعطت زمام أمرها إلى الإمام شرف الدين، كانت من أُولى الخطوات التي قام بها الفرنسيّون لفرض إرادتهم على الشعب اللبناني والأُمّة العامليّة التي استعصت عليهم ورفضت الانقياد لانتدابهم، لا سيّما بعد أن شعرت بالمكر والخداع الذي كان عليه الحلفاء مع العرب، ممّا جعلهم يتأهّبون للثورة ضدّ الفرنسيّين بادئ ذي بدء.

ومن هنا خطّط الفرنسيّون لضرب هذه الثورة المتوقّعة واللائحة في الأُفق أعلامها، فاستخدموا نفراً من ذوي الأطماع والمتنفّذين لاختراق الصفوف المتّحدة حول الإمام شرف الدين.

وهم بالإضافة إلى التجسّس من خلال حضورهم مجالس العامليّين، كانوا يختلقون الفرية ويحرّفون الكلم ويشوّهون النيّة ويوقظون الفتنة في صفوف العامليّين.

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٩، الوثائق، الخطب، المراسلات....

ويبدو أنّ أوّل إجراء اتّخذه الفرنسيّون هو التخطيط لاغتيال القيادة الموحّدة الذكيّة والحكيمة التي التفّت حولها الأُمّة العامليّة.

قال ﷺ:

وكان من ذلك أن عزم الفرنسيّون وعزمت ذيولهم أن يتخلّصوا منّي عن طريق الاغتيال؛ لتنهار هذه الجبهة إذا خلوتُ من الميدان[١].

الاغتيال الأوّل للإمام شرف الدين «١٣٣٧هـ»

في ضحى يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الآخِر سنة ١٣٣٧هـ الموافق ١٤ كانون الثاني سنة ١٩١٩م، والدار خالية من الرجال، أقبل فتى من رجال «الأمن العامّ» الذين أملى لهم الفرنسيّون أن يشتطّوا على المسلمين والأحرار من أهل الدين، وأقبل معه رجلان من الجند الفرنسي وكانوا جميعاً مسلّحين، فاقتحموا الباب ثمّ أحكموا إرتاجها، ودنا الفتى العربي ابن الحلّاج[٢] شاهراً مسدّسه وهو يطلب من السيّد شرف الدين أن يعطيه التفويض الذي كان السيّد قد أخذه من وجوه البلاد ووثائق تخوّل الملك فيصل أن يتكلّم باسم العامليّين في عصبة الأُمم.

وحين دنا ابن الحلّاج وأصبح على خطوة من السيّد ـ وهو شاهر مسدّسه عليه ـ ركله الإمام شرف الدين برجله ركلة ألقته على ظهره فسقط المسدّس من يده وأتبع هذه الركلة بضربات عنيفة بالحذاء على رأسه ووجهه، وعلت صيحة النساء في الدار فامتلأت الطريق خلف الباب بالناس، وإذا الرهبة تستولي على ابن الحلّاج وصاحبيه فانهزموا مخفقين وكادت الأيدي والأرجل أن تقضي عليهم.

إنّها شجاعة فائقة وسرعة عمل وذكاء وحنكة وهيبة من السيّد الذي كان وحيداً أمام ثلاثة مسلّحين.

---

١. الموسوعة ج ٧. بغية الراغبين: ٥٨٤.

٢. اسمه جبران وهو من أهالي صور.

وسرى نبأ هذا الاغتيال المباغت في البلاد، وتحرّكت الجماهير باتّجاه دار السيّد واجتمعوا إليه، واتّصل النبأ في خارج البلاد فتوافدت الرايات تخفق فوق الألوف الكثيرة من وفود الساحل والجبل في مظاهرات وطنيّة تاريخيّة رائعة. قال ﷺ في هذا الصدد:

وقامت قيامة البلد عن بكرة أبيها، وقيام البلاد العامليّة بأسرها مضربة عن أعمالها احتجاجاً على تلك السلطة الجائرة باعتدائها الفظيع على بحبوحة دينها، صاخبة لهتك حرماتها، فنصر الله المؤمنين يومئذٍ بهذا نصراً عزيزاً ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾[١].

وجاء حاكم صور الفرنسي دلبستر متنصّلاً ممّا حدث، ودار السيّد تغصّ بالجماهير، وبعد انصرافه مدحوراً أشرف السيّد على الجماهير وشكر مساعيهم وحميّتهم ثمّ صرفهم إلى أماكنهم مدّخراً تجمّعهم إلى أن يحين الوقت الذي يحتاجهم فيه للنفير ضدّ المستعمرين[٢].

وهكذا أشعل الفرنسيّون فتيل الثورة ضدّهم من حيث لا يشعرون.

وقال السيّد الإمام شرف الدين في معرض حديثه عن الهجوم الوحشي على داره وما تركه هذا الهجوم على والدته المقدّسة:

وكانت المقدّسة قد انزعجت وارتاعت بوقوع هذه الحادثة، وقضت نحبها بعدها بيومين، فشاع في البلاد أنّها قضت بروعة الهجوم على ولدها. وحين نُعيت إلى الناس هرعوا رجالاً ونساءً ينسلون من كلّ حدب في جبل عامل، فكان لها تشييع رائع قليل النظير، وكانت الجلالة والأُبّهة والسكينة والرضوان تتمثّل فيه بأجلى المظاهر[٣].

نعم بعد يومين من حادثة الاغتيال الأليمة التحقت والدته الكريمة بدار كرامة الله في

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٤٤٢. والآية في سورة الأحزاب (٣٣): ٢٥.

٢. انظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨٥.

٣. المصدر: ٤٤٢.

يوم الخميس ١٤ / ربيع الآخر / ١٣٣٧ عند طلوع الشمس. وفي اليوم نفسه كتب رسالة وجّهها إلى خاله السيّد حسن الصدر ينعى فيها والدته الزهراء[١].

وإليك نصّ الرسالة:

وليّ نعمتي، ومالك أزمّتي.

أنعى إليكم وقد تقطّعت حسرات، وتصعّدت زفرات.

أنعى إليكم وقد قرعت ساعتي الأحزان، وقامت عندي قيامة الأشجان.

أنعى وقد أخذني حزن تنقضّ منه الجوانح، وتتقوّض على وهجه الجوارح.

أنعى إليكم الطيّبة الطاهرة، كريمة الطيّبين الطاهرين.

أنعى عقيلتكم الزهراء، وخفرتكم ناموس النساء.

فوا أسفاه، ووا لهفاه، ووا حرباه، ووا اُمّاه.

يا كسرة العقائل في مآتم المعصومين المظلومين.

من يقوم مقامكِ في نتركِ ونظامك، في سكوتكِ وكلامكِ، وقعودك وقيامكِ؟

يا وحشة الأسحار، من يتبتّل في ظلمتها؟

ومن لناشئة الليل وسنّتها؟

ومن للعشيّ والأبكار؟

من للدعاء والأذكار؟

من للصيام وللقيام؟

ومن للمحرّم الحرام؟

أما ورزيّتك في غربتك، ومصيبتك في بعدك عن أئمّتك، وأجرك على جميل صبرك، ونزوعك عند النزاع إلى أخيك، ولاعج شوقك عند علاج شوقك إلى أهليك، وحنوّك على أولادي، ولوعتك الحرّى في فؤادي، لأفترش بعدك الهموم، وأُسامرنّ النجوم، أو يختار الله لي دار كرامتك.

فعليك يا رؤوفتاه سلام الله أبداً منّي ومن أخيك، بقيّة الأنام الهادي أبيك، ومن اُخيّاتك

---

١. الموسوعة ج ٩.

العلويّات العاليات الغاليات الطيّبات الطاهرات، وقد نفد صبرهنّ، ونضب معين عزائهنّ ...[١].

الأمير فيصل يهنّئ الإمام شرف الدين

وقد وجّه الأمير فيصل كتاباً للإمام شرف الدين هنّأه فيه بنجاته من حادثة الاغتيال هذه، فأجابه ﵀ في ٢٧ جمادى الأُولى سنة ١٣٣٧هـ بكتاب جاء فيه:

أعزّ الله «فيصل» العرب، ومتّع الأُمّة بشريف وجوده.

سلام عليكم أهل البيت، ورحمة الله وبركاته.

وبعد فقد فزت بمختصركم الكريم، ووردَتْ عليَّ بوروده أكناف الدعة، وورفت منه ظلال الطمأنينة، فشكراً لكم تمثّلون به وفاء بني هاشم، وحفيظة أبناء عليّ وفاطم.

ولا غرابة إن كان لابن الحلّاج معنا ما كان، فما هو إلّا أداة غدر، ووسيلة فتنة، وقى الله البلاد شرّها.

ولا غرو إن كان لنا معه ومع من كان وراءه ما كان وما يكون، فالهاشمي لا تعصب سلماته، ولا تقرع جنباته. والعرب بعد نهضتكم لا يصبرون على هوان، ولا يقيمون على خسف، فكيف يلين الهاشمي لحادث؟ ويلبس فيكم ملابس الخوف؟

حاشا حفاظ بني الحسين.

والسلام عليكم ما هفت قلوب المخلصين إليكم ورحمة الله[٢].

موقف الإمام شرف الدين من مؤتمر الصلح

وممّا يجدر ذكره بعد هذا الحادث: أنّ الأمير فيصل كان قد ورد بيروت عائداً من مؤتمر الصلح الذي عقد في لندن، وذلك في الخامس والعشرين من شعبان

---

١. المصدر.

٢. المصدر.

عام ١٣٣٧هـ الموافق ٣٠ نيسان ١٩١٩م. وقد خطب الإمام شرف الدين في بيروت مرحّباً بالأمير فيصل. وإليك نصّ خطابه:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على جدّك خاتم النبيّين، وأبيك سيّد الوصيّين، وعلى الأئمّة من بنيه وآله، الناسجين على منواله، وعليكم أهل البيت ورحمة الله.

أمّا بعد، فإنّي أُهنّيك يا ابن رسول الله ﷺ بلسان أُمّتك العربيّة، أُمّة الأحساب والحفائظ والحميّة، أمّة قتل في سبيل حرّيّتها أبطالها جهاداً وصبراً، وكفى بذلك فخراً وأجراً.

باسم الكافّة من شيعتك، المنتظرين لدولتك، المتأهّبين لاستئناف الجهاد بقيادتك ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

أُهنّيك باسم مواليك من إخواني العامليّين الذين طوّقوا بالبيعة أعناقهم، وقصروا على السمع والطاعة أنفسهم.

أُهنّيك ونفسي وجمهور أُمّتي برجوعك المظفّر ورجوع حقّكم إليكم، فإنّ هذا الأمر فيكم ومنكم وإليكم، وأنتم أهله ومبتداه ومأواه ومنتهاه.

أيّها الأمير الخطير: إنّي وإن كنت من كنانة نبلك، وفرسان الهاشميّين من أهلك، الذين إذا رميت بهم أصبت، وإذا غزوت بهم فتحت، لا أتمثّل بقول القائل منّا أهل البيت:

ما بيننا يوم الفخار تفاوت   أبداً كلانا في «السيادة» معرقُ

ولكنّني أتمثّل بقوله:

إلّا «الإمارة» زيّنتك فإنّني   أنا عاطلٌ منها وأنت مطوّقُ
فهي التي لك بالوغى معقودة   وعلى سواك لواؤها لا يخفقُ

وأنّى يشقّ غبارك، وتلحق آثارك، وتحصى أخبارك؟

فيوماً تقود الجحافل برباطة جأشك، خائضاً غمراتها بذات نفسك، مقتحماً سعيرها

---

١. الأحزاب (٣٣): ٢٣.

بقوّة بأسك، ويوماً تجوب المحافل بجهرك وهمسك، مِكرّاً بصارم حدسك، مِفرّاً بدارع ترسك.

ويوماً تقود إلى الوغى أُسود العرب من فهر، وحماة الحدود من سرايا شيبة الحمد، وأحلاس الخيل من مانعي الديار والذمار من ربيعة ومضر، فلا تنكفئ حتّى تطأ جناحها بأخمصك، وتخمد لهبها بدماء الغاصبين، مكدوداً في ذات الله، منقذاً البلاد والعباد من أيدي الغزاة المعتدين.

ويوماً تقوم في مؤتمر السباع المفترسة، وقد أنشبوا لتمزيق هذه الأُمّة أظفارهم، وفغروا لابتلاع أشلائها أشداقهم، ولكنّك أيقظت لهم رأيك، وأسهرت قلبك، وأتيت إلى ما عملوا من عمل فجعلته هباءً منثوراً، إذ نقضت بعون الله ما أبرموا، وأبرمت بتوفيقه ما نقضوا، فوضعت أُمّتك بذلك على محجّة الكمال، وأشرفت بها على بلوغ الاستقلال.

ولئن أنقذ الله هذه الأُمّة بكم آخراً، فلقد أنقذ العالمين بكم أوّلاً، سلام الله عليكم أهل بيت النبوّة، وموضع الرسالة، وأولياء النعم، وقادة الأمم، وعلى ذرّيّتكم في كلّ جيل، وشيعتكم من كلّ قبيل، وعلى المجاهدين في الأوّلين والآخرين [١].

ولم يرُق للفرنسيّين هذا التلاحم وهذا الموقف الذي أبداه العلماء تجاه الأمير فيصل؛ لأنّه يتعارض مع مخطّطاتهم التي جاؤوا من أجلها لاحتلال الشرق الأوسط ولا سيّما لبنان التي تعدّ العمود الفقري والعصب الأساسي للمنطقة. ومن هنا بدأوا تحرّكهم باتّجاه تحقيق الأجواء المناسبة لإحكام مواقعهم الاستعماريّة في البلاد.

المخطّط الفرنسي لتثبيت المواقع في لبنان

يبدو أنّ الفرنسيّين بعد أن أخفقوا في قتل السيّد الإمام شرف الدين الذي كان يتزعّم الجماهير ويقود مسيرتهم ضدّ الانتداب الفرنسي، خطّطوا لإيجاد الفرقة في

---

١. المصدر.

صفوف الجماهير المتّحدة ضدّهم.

بل تعدّى الأمر إلى استثارة العصبيّة الدينيّة عند المسلمين ليقاوموا الانتداب بالسلاح، وتنتهي الجولة بإعلان عدم كفاية الشعب وقادته للاستقلال والتحرّر والانعتاق من نير الانتداب والاستعمار.

ومن هنا قام الفرنسيّون بتجهيز المسيحيّين بالسلاح بدعوى تمكينهم من حماية حوزتهم أمام المسلمين.

وفي الوقت نفسهم أشاعوا أنّ أولياء الفرنسيّين يتجاوزون الحدود الإسلاميّة المقدّسة، وربما تناولوا بعض الأعراض المصونة للمسلمين.

وإثر هذه الإشاعة فارت العصبيّة الدينيّة واستيقظت النخوة العربيّة، فاضطرب حبل الأمن وانتشرت الفوضى في البلاد. وبذلك مهّدوا لما كانوا ينشدونه من بيان عدم كفاية الشعب لإدارة نفسه والانعتاق من نير الانتداب الفرنسي.

وحين بذل الفرنسيّون السلاح للمسيحيّين وتغافلوا عن الثوّار ضدّهم تغافلاً اضطرّ المصلحين لأن يطالبوا الحكومة بإيقاف الثوّار عند حدّهم.

وهنا بذلت الحكومة الفرنسيّة السلاح للمسلمين أيضاً بحجّة أنّها تترك لهم تأديب العصاة ومطاردتهم.

ولكنّ الحقيقة ـ حسب ما يراه الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين ـ أنّ الحكومة أرادت أن يثور النصارى أيضاً؛ ليتّسع الفتق ويثبت ما قصدت إليه من التدليل على عدم كفاية المسلمين للاستقلال.

وكان النفعيّون من أذناب الفرنسيّين يثيرون حماسة الفتيان العرب ويطمعونهم ليتلاقى طرفا الحيلة الاستعماريّة ويبرم أمر التدبير.

وقد لعب الإقطاعيّون المذبذبون دورين متناقضين في هذا العصيان، فمن جهة أغروا الثوّار وجرّوهم إلى الاستمرار في العصيان، ومن جهة أُخرى كانوا يسعون بالمخلصين ويشون ضدّهم عند الفرنسيّين. وهكذا أشعلوا نار الفتنة، واستغلّوا بساطة

البسطاء من الثوّار، ومضوا يؤذون المواطنين نهباً وقتلاً وتجريحاً[١].

موقف الإمام شرف الدين من المخطّط الفرنسي

إنّ الوثائق الموجودة عن الإمام شرف الدين تشير إلى أنّه كان يعي جيّداً خيوط الفتنة وطبيعة المخطّط الفرنسي لتثبيت مواقع أقدامهم.

ولهذا كان موقفه نصح الثائرين بالتزام السكينة وإيثار الهدوء لتفويت الفرصة على المستعمرين، وتهيئة جوّ الأمن والسلم لاستمرار الاحتجاج السلمي وإمكان المطالبة بالحقوق المهدورة من المسلمين.

وقد أحكم الفرنسيّون مخطّطهم ومضوا يشعلون فتيل الشغب والثورة ضدّهم ليصطادوا في الماء العكر.

ومن هنا كانت الفتنة ـ بتخطيطهم ـ قد استجمعت عناصرها وهبّت ريحها تنذر بالخطر وتنفخ بوادرها في أطراف البلاد، فكان ما كان من نزوات شوّشت الأمن وأشعلت الأفكار بأخبار الغزوات والوقائع التي كانت تقع من ناسٍ موقع البشرى والإيناس وتقع من آخرين موقع الهمّ والبؤس.

وهكذا انزلق البسطاء من الناس مع التيّار الذي كان يريد إشعال نار الفتنة لتثبيت مواقع الغزاة الفرنسيّين في طول البلاد وعرضها.

وكان الإمام شرف الدين بمعزل عن هذه الفتنة منصرفاً إلى جهاده السلمي الذي كان يراه ضروريّاً لنجاح قضيّتهم.

وفي هذه الفترة العصيبة حين غلت مراجل الغيظ واضطربت الأحوال، جاءت رسل الرؤساء من عشائر الفضل في المنطقة الشرقيّة، تحمل لكامل بك الأسعد رسائل الثورة وتدعوه إلى خوض المعركة، ويخيّرونه بين الانضمام إليهم بجبل عامل ليكون حرباً

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨٦.

ضدّ الفرنسيّين، أو يعتزل فيكون غرضاً لحربهم قبل فرنسا، ولم يكن الأسعد متهيّئاً فاستمهل الرسل وحمّلهم رسالة أوضح فيها عدم انفراده بالرأي دون العلماء من أُولي الشأن والزعماء الذين لهم أتباعهم، فلا بدّ من أجل يضربه لميعاد يجتمع فيه العلماء والزعماء لبحث هذه القضيّة المصيريّة والتأمّل في وجوهها ونتائجها [1].

وبهذا تهيّأت الأسباب الطبيعيّة لعقد مؤتمر الحجير التاريخي الذي تجلّت فيه حنكة الإمام شرف الدين وقابليّاته القياديّة وموقعه الاجتماعي والسياسي في جبل عامل.

وتمّ انعقاد هذا المؤتمر في ٥ شعبان ١٣٢٨هـ / ٢٤ نيسان ١٩٢٠م ومنه يتّضح لنا أنّ الفترة ما بين الاغتيال الأوّل للإمام شرف الدين في ١٢ ربيع الثاني ١٣٢٧هـ وانعقاد هذا المؤتمر التاريخي تبلغ خمسة عشر شهراً تقريباً، يحكم فيها الفرنسيّون خططهم، ويقوم الإمام شرف الدين بحلّها وتبديدها بالمواجهة السلميّة؛ لئلّا يحصلوا على ذريعة للهجوم المسلّح والبقاء في البلاد طويلاً.

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨٧.

مؤتمر الحجير التاريخي ٥ شعبان ١٣٣٨هـ/ ٢٤ نيسان ١٩٢٠م

تسلسل الأحداث وأسباب المؤتمر

١. «الحجير» هو واد على رأس نهر الحجير يتوسّط البلاد العامليّة، وهو على بعد خمسة عشر ميلاً من النبطيّة لجهة الجنوب، ويعتبر كملتقى لأقضية صور وبنت جبيل والنبطيّة ومرجعيون أوّلاً، وهو مكان واسع ثانياً، كما أنّه بعيد عن أعين السلطة ثالثاً، وهو حصين بجباله وبمكانه الطبيعي رابعاً. ولوجود الماء والكلأ خامساً.

٢. والفرنسيّون كانوا يأتمرون هم وعملاؤهم ضدّ الإمام شرف الدين ويكيدون له. في الوقت الذي كان الإمام شرف الدين يحتكم إلى الشعب، ويطرح مصير البلاد على أهلها، في رفض الانتداب الفرنسي وإلحاق جبل عامل بسوريا تحت قيادة الملك فيصل الأوّل، الذي كان يحمل لواء الرفض مع الإمام شرف الدين.

٣. كان من الضروري في هذا الاحتكام إلى الشعب أن يكون مرآةً تعكس إجماع البلاد العامليّة وتأييدها لموقف السيّد ومن آزره من العلماء والزعماء مثل كامل بك الأسعد.

٤. وهذا ما تحقّق بعد المؤتمر أيضاً إذ زحفت وفود الشعب زرافاتٍ ووحداناً وأعياناً إلى مقرّ السيّد في صور، ووقّعت عريضة المطالب التي أعلنها في مؤتمر وادي الحجير الذي أصبح مؤتمراً تاريخيّاً في ناحية جبل عامل. وقد ذكروا أنّه لم تبق قرية أو مزرعة أو عالم أو زعيم إلّا ووقّع هذه العريضة.

٥. نجاح المؤتمر

كان اجتماع العامليّين في المؤتمر اجتماعاً فريداً قطع على الفرنسيّين أطماعهم في التوغّل داخل الشعب المسلم وشيعة جبل عامل، وجعلهم يكيدون لقيادته وللقضاء عليها لعلّهم يفلحون في تحقيق مآربهم. ولهذا قاموا بعمليّة تشويه كبيرة للمؤتمر،

وأشاعوا كذباً وبهتاناً أنّ السيّد عبد الحسين شرف الدين قد أفتى بمحاربة النصارى في مؤتمر وادي الحجير، ثمّ خطّطوا لقتله أو اعتقاله بعد أن كانوا قد خطّطوا لقتله وهو في داره، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد أنقذه من هذا الاغتيال الثاني كما أنقذه من الاغتيال الأوّل. ولهذا عقّبوا ذلك بنهب مكتبته وحرق داره ثمّ حكموا عليه وعلى الثوّار بالإعدام.

وما هذه الخطوات التي قام بها الفرنسيّون وعملاؤهم إلّا شاهد صدق على نجاح المؤتمر ودوره الكبير في القضاء على مكائد الفرنسيّين المحتلّين.

٧. لقد كان استقبال العامليّين بما فيهم العلماء للإمام شرف الدين في وادي الحجير استقبالاً مميّزاً وفريداً من نوعه، بحيث رشّحه ليكون في قمّة القيادة العلمائيّة للبلاد بتأييد قاطع وواسع ومنقطع النظير.

٨. لقد طرح السيّد الإمام شرف الدين قضيّة الشعب اللبناني الجبل عاملي بإسهاب ووضوح، وحثّ المؤتمرين على ضبط النفس وهدوء الأعصاب أمام التحدّيات وأنواع الاستفزاز والتعدّي من قبل الفرنسيّين المحتلّين وعملائهم.

وراح يؤكّد للمؤتمرين ضرورة حماية أرواح النصارى وأموالهم كحماية روحه وماله؛ ليفوّت الفرصة على المحتلّين الذي كانوا يعلّلون انتدابهم بالمحافظة على المسيحيّين.

٩. ذكر السيّد نفسه أنّ طلب كامل بك الأسعد من علماء وزعماء جبل عامل لتقرير مصيرهم في مؤتمر شعبي عام يُستفتى فيه أبناء جبل عامل عن مصيرهم الذي تجرّأ الفرنسيّون الغزاة لمصادرته تحت شعار الانتداب، كان طلباً مهمّاً ذا بال وهو الذي استدعى عقد مؤتمر الحجير التاريخي، وأشار إلى خطورته رغم ضرورته. فالجبهة الوطنيّة تستدعي وتدعو إلى جهاد فرنسا المحتلّة مدجّجة بالسلاح الذي لا قبل لهم به، وإلى جانب هذين الأمرين فاضطراب أمر البلاد كانت تدعو الزعماء للاجتماع وتداول تقرير المصير، بحيث يطمئنّ المتردّدون ويتمّ القضاء على نزاع عناصر الشغب والبلبلة في البلاد.

١٠. الإمام شرف الدين ومؤتمر الحجير

ووصف السيّد ما حدث في هذا المؤتمر التاريخي وصفاً دقيقاً جاء فيه:

وفي اليوم الموعود ـ ويوم السبت الخامس من شعبان سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ٢٠ نيسان سنة ١٩٢٠ م ـ كان وادي الحجير يستقبل ضيوفه الأكثريّة من صفوة الجبل وأُسوده ووجهائه وأعيانه، وكان يضيق بالرايات ويضجّ بالهتافات ويدوّي بالمفرقعات والصهيل. وكأنّ عاملة نشرت فيه ببعث جديد[١].

بل ذكروا أنّ كلّ من كان له دابّة من أطراف البلاد أو كان يستطيع السير مسافة طويلة كان قد قصد منطقة الحجير هذه ليشهد هذا الاجتماع[٢] ويدلي بتأييده ورأيه مع عامّة المؤتمرين. فكان يوماً تاريخيّاً فريداً من نوعه لم يشهد جبل عامل مثله.

وقال الإمام شرف الدين واصفاً استقبال الجماهير له:

وأقبلنا والجمع كامل مستتبّ، فما أشرفنا على الجمع حتّى جلجل الوادي وجرجر صداه وانطلقت الحناجر والأكفّ والبنادق تمدّ الصدى بموجات إثر موجات تتجلجل في عنق الجبل ثمّ تنطلق في الفضاء.

وبهذا كان لطبيعة المنطقة الجبليّة وخصائصها الطبيعيّة دور إيجابي في انفجار وانطلاق حناجر المؤتمرين، وعظمة صدى أصواتهم التي كانت تؤيّد بجدّ زعامة المؤتمر.

ثمّ قال ﴿﴾:

وانحزنا بعد تحيّة الجماهير إلى صفّ العلماء والزعماء نداولهم الرأي ونبادلهم المشورة، فتمخّض الاجتماع عن تفويضي والأخوين العلّامتين السيّد محسن الأمين والسيّد عبدالحسين نور الدين بالبحث في مصير الجبل مع جلالة الملك فيصل في الشام، وكتبت في هذا وثيقة ممضاة من العلماء والزعماء والوجوه وممثّلي القرى جميعاً.

ثمّ وقفتُ في ذلك الجمع المشهود وتكلّمتُ في الأزمة ووسائل تفريجها، ووقفتُ وقفة

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨٨.
٢. الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٢٢٩.

خاصّة عند هذه الفوضى التي تهدّد الأمن، وأثبتُّ أنّ الفوضى لن تكون إلّا من العراقيل التي تخذل قضيّتنا، وتدلّ على عدم كفايتنا لما نطلبه.

ثمّ أقسمتُ اليمين وأخذتها على العلماء والزعماء والوجوه أن تتضامن على حفظ الأمن وإقرار الهدوء والحرص على سلامة النصارى بوجهٍ خاصّ[1].

١١. خطاب الإمام شرف الدين في مؤتمر الحجير

وأمّا نصّ الخطاب الذي أدلى به الإمام شرف الدين في ذلك المؤتمر التاريخي فهو كما يلي:

الله أحمد في السرّاء والضرّاء، استتماماً لنعمته وحمداً لفضله، وإيّاه أشكر في الشدّة والرخاء، استسلاماً لعزّته وشكراً لطوله.

أحمده وأشكره كما هو أهله، وأسأله تسهيل ما يصعب حمله، وتعليم ما لا يطاق جهله، وأستعين به على القيام بما يحسن في الدنيا ذكره، ويخلد في الآخرة أجره.

وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً خير نبيّ أرسله، وعلى العالمين اصطفاه وفضّله، صلّى الله عليه وعلى آله الذين حملوا عنه ما عن الله حَمَلَه، وعقلوا منه ما عن الله عَقَلَه، ولذا قرنهم بمحكم الكتاب، وجعلهم قدوة لأُولي الألباب، بهم نقتدي وإن عزّت القدوة، وطريقهم نسلك وإن تكأدت العقبات، صلوات الله عليهم، ما هفت قلوبنا إليهم، أئمّة هدىً ومصابيح دجىً، ينيرون بصائرنا كلّما ارجحنّت الخطوب، ويفتحون أبصارنا كلّما ادلهمّت الدروب، ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[2].

إخواني أعلام الأمّة: إنّنا اليوم في هذا المفترق الخطير، أشدّ حاجة من أيّ وقت إلى الاعتصام بحبلهم والسير على نهجهم.

فإمّا عزّة لا تفصم، أو ذلّة لا ترحم.

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨٩ ـ ٥٩٠.

٢. النور (٢٤): ٣٥.

إمّا حياة حرّة، أو هوان تهدر في حمأته إنسانيّة الإنسان.

إمّا استقلال دون وصاية، أو استعباد نكون معه «كالأيتام، على مأدبة اللئام».

أيّها الفرسان المناجيد: إنّ لهذا المؤتمر ما بعده وسيطبق نبأه الآفاق السوريّة، ويتجاوب صداه في الأقطار العربيّة، ويتجاوزها إلى عصبة الأمم، وقد امتدّت به إليكم الأعناق، وشخصت الأبصار، فانظروا ما أنتم اليوم فاعلون.

ألا وإنّ جبل عامل بعد هذا المؤتمر بين أمرين: عزّ لا تنفصم عروته، ولا تقرع مرّته، أو ذلّ تهاوت معه كواكب السعد، وتقوّضت فيه سرادق المجد.

فإن نبذتم الأهواء الشخصيّة، وآثرتم شرف القضيّة، فلنكوننّ في حرز لا يفصم، وتكون بلادكم في حمىً لا يقحم.

أمّا إذا غلبكم الهوى، فلتكوننّ مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان، أمام قوّة العدوّ وشدّة الفتن وتظاهر الزمان.

يا فتيان الحميّة المغاوير:

الدين النصيحة!...

ألا أدلّكم على أمرٍ إن فعلتموه انتصرتم: فوّتوا على الدخيل الغاصب برباطة الجأش فرصته، وأخمدوا بالصبر الجميل فتنته، فإنّه والله ما استعدى فريقاً على فريق إلّا ليثير الفتنة الطائفيّة، ويشعل الحرب الأهليّة، حتّى إذا صدق زعمه وتحقّق حلمه استقرّ في البلاد تعلّة حماية الأقلّيّات.

ألا وإنّ النصارى إخوانكم في الله وفي الوطن وفي المصير، فأحبّوا لهم ما تحبّونه لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخمدون الفتنة، وتطبّقون تعاليم دينكم وسنّة نبيّكم ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[١].

بهذا السلوك يا أبنائي الأعزّاء دون غيره تردّون كيد الفرنسيّين إلى نحورهم، وتعيدون

---

١. المائدة (٥): ٨٢.

جحافلهم إلى جحورهم، وتنعمون بالحرّيّة لا يتطاول بعدها إليكم متطاول.

إخواني وأبنائي: إنّ هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية، ويأبى إلّا الاستقلال التامّ الناجز، المعتمر تاج «فيصل» العرب، عاهلاً مؤثّلاً، وقائداً محجّلاً، يقيم حكومة شرعيّة، تجعل من الوطن جبهة منيعة «ينحدر عنها السيل، ولا يرقى إليها الطير».

وهذا زعيم «عامل» وبدره «الكامل» قد أرهف للجهاد معكم عزمه، وحشد لبلوغ الغاية عدّته، فاركبوا معه كلّ صعب وذلول، صادقي العزائم متساهمي الوفاء، وما التوفيق إلّا بالله، يؤتي النصر من يشاء، عليه توكّلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير [1].

١٢. وقد أحضر السيّد الإمام شرف الدين بعد خطابه هذا رؤوس الثوّار كصادق حمزة وأدهم خنجر ومحمود الأحمد، ونصح لهم وأمرهم بأن يكفّوا عمّا هم فيه. بل إنّه قد هدّدهم بالعقوبة والمصادرة إن لم يكفّوا عمّا هم فيه [2].

وهذا الموقف من الإمام شرف الدين يكشف عن بعد نظره رغم إيمانه الكامل بضرورة جلاء المحتلّين عن أراضي المسلمين، فإنّ الثورة المسلّحة في تلك الظروف كانت تخدم المخطّط الفرنسي بدل أن تخدم الأهداف والنوايا الشعبيّة لأهل البلاد.

وقد أحكم الخطّة حين أخذ اليمين على العلماء والزعماء على التضامن على حفظ الأمن وكفّ الثوّار عمّا هم فيه ريثما تتحقّق أهداف المؤتمر.

وقد رجع السيّد من المؤتمر ليتأهّب للسفر إلى دمشق مع الوفد الذي تقرّر ذهابه إلى دمشق. وقد تمخّض المؤتمر عن القرارات التالية:

١. تأييد مقرّرات المؤتمر السوري في رفض تقسيم سوريا والانتداب الفرنسي، وإعلان الدولة العربيّة في سوريا، وتتويج فيصل ملكاً عليها.

٢. انضمام جبل عامل للدولة العربيّة «الوحدة السوريّة» ومبايعة الملك فيصل على تطهير البلاد من الاحتلال الفرنسي.

---

١. الموسوعة ج ٩.

٢. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٩٠.

٣. المحافظة على النصارى وحقوقهم وحلف اليمين على ذلك.

٤. تفويض حجّة الإسلام المجاهد السيّد عبد الحسين شرف الدين والعلّامة الجليل السيّد عبد الحسين نور الدين وزعيم جبل عامل كامل بك الأسعد، بتمثيل البلاد لدى الملك فيصل ومفاوضته في موضوع تنفيذ هذا المقرّر.

وقد انعكس هذا المؤتمر بقراراته الإيجابيّة والمهمّة والتاريخيّة[١].

دور الإمام شرف الدين في مؤتمر وادي الحجير

لقد اتّضح ممّا مرّ أنّ الدور الأوّل في هذا المؤتمر قد كان للإمام شرف الدين ﷺ والذي كان عمره آنذاك لا يتجاوز الثامنة والأربعين.

وذلك لأسباب لا تخفى على الباحث اللبيب. وقد كان خطابه وقراراته تلتئم مع حراجة الظرف أوّلاً، وأوضح خططه ثانياً، وجعل أُمّته على بصيرة منها ومن أهدافه الإسلاميّة والوطنيّة التي كانت تجسّد عقيدة الشعب وآماله وآلامه.

وبهذا حاز قصب السبق وهو ذو الموقع الاجتماعي والديني المتميّز، وخطابه البليغ المعبّر عن حنكةٍ راقية وحزمٍ شديد وبعد نظر وحرص وافر على مصالح الجمهور ومعتقده الديني الذي يمثّل ثقافة ومستوى وعيه الديني والسياسي.

ويثير ترشيحه من قبل الزعماء ليتقدّم باسم الوفد ـ ويخاطب الملك فيصل الأوّل ـ إلى هذا الدور، وهكذا ثقة الأمير فيصل به فقد كانت ثقة عالية تكشف من خلالها أنّه كان صاحب الدور الأوّل حتّى بالنسبة لمصير سوريا[٢] التي قرّر العامليّون بقيادة الإمام

---

١. الموسوعة ج ٩.

٢. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٩١ و ٥٩٧. للوقوف على تداول الوفد القضيّة السوريّة إلى جانب قضيّة جبل عامل مع الأمير فيصل إذ كان الخطر يهدّد سوريا أيضاً وتشهد لذلك الأحداث التي تلت وانتهت إلى احتلال دمشق وخروج فيصل إلى فلسطين، وقال ﷺ أيضاً: وهكذا قدّر لهذا الجبل أن يخفق، وكان إخفاقه سبباً في إخفاق القضيّة السوريّة؛ لأنّه كان المرحلة التجريبيّة التي جرّأت فرنسا بعدئذٍ على سورية.

شرف الدين الانضمام إليها وتكوين دولة إسلاميّة واحدة مقتدرة شعباً وحكومةً وعقيدةً، بدل تمزيق المنطقة الذي كان يخطّط له المستعمرون الإنجليز والفرنسيّون.

ومن هنا نجد أنّ مصلحة المستعمرين وأذنابهم وعملائهم كانت في تحجيم دور الإمام شرف الدين أوّلاً، والسعي لتحريف قرارات المؤتمر ثانياً، وإشاعة هذا التحريف المهين ثالثاً؛ للتعتيم الإعلامي على ما تمخّض عنه المؤتمر العظيم وعلى ريادة الإمام شرف الدين للعامليّين عامّة.

وإنّنا نلمس هذا الدور المتميّز للسيّد ﷺ أيضاً من خلال نصوص من عاصر هذا المؤتمر وحضره، كالأُستاذ محمّد علي الحوماني الذي جاء في العدد ٢٠ من مجلّة العروبة «السنة الأُولى» إذ عبّر عمّا رآه في رسالة مفتوحة وجّهها إلى السيّد عبد الحسين شرف الدين بقوله:

ولقد شهدته بنفسي ورأيت كلّ عالم وزعيم ورده. دون إحساس الحضور بوروده، لكثرة ما ازدحم فيها من الخلق، حتّى إذا أوشكت ركابك أن تحلّ به، حسبنا أنّ الأرض قد تزلزلت والسماء أطبقت علينا، ولمّا تكشّف هذا الرهج المعقود فوق الوادي، برزت من تحته كالبدر ينشق عنه الغمام ليلة تمّه، وإذا بالقسطل المعقود فوقك، تثيره سنابك الخيل المحدقة بك، وإذا بالرعود القاصفة، ممّا تبعثه البنادق والحراب المشرعة حولك. لم يبقَ في الوادي فرد واحد لم يهرج إلى استقبالك، ويتشوّف ركبك، ولمّا جلست في خيمة العلماء حفّوا بك، وتهافت الحفل المحشود عليك. كلّهم يحدق بك، ويستمع إليك، وأنت مندفع تخطب كالسيل، تبعث في نفوسهم الحميّة، وأنت دائب فيهم تحرّضهم على الجهاد في سبيل الحقّ.

وكتب الأُستاذ أحمد اسماعيل ما نصّه:

وكذلك يتحدّث المعمّرون وآخرهم والدي الشيخ علي إسماعيل ﷺ عن أحداث سنة ١٩٢٠م ويقفون عند «مؤتمر وادي الحجير» طويلاً، لأنّ جميع من كان لديه دابّة يمتطيها، وجميع من يستطيع السير مسافة طويلة، كلّ هؤلاء حضروا ذلك المؤتمر، وحدّثوا عن مجريات وقائعه، وكانوا فخورين بانتسابهم إلى بلدة شحور التي ينتسب

إليها الإمام شرف الدين، وهو أبرز وأهمّ من حضر المؤتمر، لأنّ الاستقبال العفوي الذي جرى له هناك لم يجرِ لغيره من كبار العلماء والزعماء والثوّار، ولم يرتفع فيه صوت غير صوته بحيث إنّ مقرّرات المؤتمر، أُخذت من نفس خطابه في ذلك المؤتمر [١].

مؤتمر وادي الحجير في ذاكرة الكتّاب ومحاولات التحجيم

كتب الأُستاذ أحمد إسماعيل عن المصادر التاريخيّة التي سجّلت وقائع هذا المؤتمر قائلاً:

وقد سجّل وقائعه العديد من الكتّاب والمؤرّخين والشعراء في سياق أحداث جبل عامل. وحركته الثوريّة ضدّ الانتداب الفرنسي. ونكتفي باستعراض المؤرّخين الذين شاهدوا وسمعوا وقائع المؤتمر. ثمّ وصفوا ما شاهدوه وسجّلوا ما سمعوه، فأصبحوا بذلك المصادر الأُولى لأحداث سنة ١٩٢٠م بما فيها أبرزها «مؤتمر وادي الحجير».

وهناك مصادر أُخرى تكاد تنقرض؛ لأنّها تعود إلى المعمّرين ممّن حضروا المؤتمر، ثمّ حدّثوا بما شاهدوا وما سمعوا.

أمّا من عايش تلك الأحداث، وكان من فعّاليتها، وسجّلها في كتاب أو صحيفة فهم سماحة السيّد عبد الحسين شرف الدين، فضيلة الشيخ سليمان ظاهر، فضيلة الشيخ أحمد رضا، فضيلة الأُستاذ الشيخ محمّد علي الحوماني، فضيلة الأُستاذ محمّد جابر العاملي من آل صفا، فضيلة السيّد علي شرف الدين أمين سرّ الإمام شرف الدين ومرافقه مدى الحياة، وكاتب جميع ما ألّفه من كتب، وما أملاه من رسائل ومذكّرات، ومسجّل جميع ما ارتجله من خطب هامّة في جبل عامل وبيروت ودمشق والقاهرة، فضلاً عن عشرين شاعراً أرّخوا لهذه الأحداث شعراً، وجميع قصائدهم لا تزال محفوظة لدى آل شرف الدين، وهي معدّة للطبع في كتاب بتاريخ هذه الأُسرة الشريفة.

وأمّا من شهدوا الأحداث ولم يسجّلوها، ولكنّهم حدّثوا بأحداثها، فهم قسمان: قسم

---

١. الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٢٢٩.

من العملاء والانتهازيّين، وكفاهم خزياً أنّهم أصبحوا ركاماً في مزبلة التاريخ. وقسم من المخلصين الفضلاء، نذكر منهم فريقاً ممّن كانوا مصادر لبعض الدراسات الجامعيّة في مقابلات معهم جرت بين ١٩٢٠ ـ ١٩٥٠ م حتّى ١٩٦٠ م، وقسم من المعمّرين بين سنة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ م ولا يزالون على قيد الحياة، أطال الله أعمارهم، ورحم من سبقهم إلى رحمة الله.

ومن قدامى المصادر الشفهيّة المذكورة أصحاب الفضيلة:

السيّد عبد الحسين محمود الأمين، الشيخ علي مهدي شمس الدين، الشيخ علي فاضل، الشيخ أحمد مروّة، الشيخ حسن سويد، السيّد علي هادي مكّي، الشيخ أحمد فنيش، الشيخ أحمد حدرج رحمهم الله وأحسن إليهم.

أمّا المصادر التي لا يزال أصحابها على قيد الحياة فنعرف من سمعنا منهم، وهم صاحبا الفضيلة: السيّد محمّد باقر الأمين، والسيّد عبد الحسن الأمين، والمرحوم الشيخ فهد يحيى.

وبالعودة إلى من أرّخوا تلك الأحداث في كتب أو مجلّات أو مجاميع، نجد أنّ الإمام شرف الدين تحدّث عن هذه المواضيع ضمن كتابه صفحات من حياتي نشرت قسماً منه مجلّة العرفان، ومجلّة الألواح. ومجلّة المعهد. وأنّ الشيخ سليمان ظاهر كتب يوميّات الأحداث في مفكّرات تلك السنين. وأنّ الشيخ أحمد رضا كتبها في كتاب نشره في مجلّة العرفان متسلسلاً بعنوان مذكّرات للتاريخ وأنّ الأُستاذ الحوماني سجّلها في مجلّته العروبة. وأنّ الأُستاذ محمّد جابر سجّلها في سياق مواضيع كتابه تاريخ جبل عامل وأنّ السيّد علي شرف الدين سجّلها في مجاميع أسماها رسائل ومسائل و الشذرات و صدى التهاني في بلوغ الأماني وقد ضمّت هذه الأخيرة القصائد الموجّهة لسماحة الإمام شرف الدين في مثل هذه المناسبات.

ومن اطّلع على هذه المطبوعات أو المخطوطات العائدة لهذه الأحداث، أو كتب عنها معتمداً على هذه الآثار كمصادر لبحثه، لوجد أنّ وصف وقائع أحداث سنة ١٩٢٠ م في جبل عامل، بما فيها مؤتمر وادي الحجير، لدى سماحة السيّد شرف الدين، والشيخ سليمان ظاهر، والأُستاذ الحوماني، والسيّد علي شرف الدين، كلّها متطابقة ومتوافقة

ومفصّلة، بينما نرى مذكّرات الشيخ أحمد رضا تتجنّى على السيّد عبد الحسين شرف الدين ودوره وخطابه في مؤتمر وادي الحجير، وذلك من خلال ردّ السيّد جعفر شرف الدين عليها. ونرى أنّ كتاب تاريخ جبل عامل يحجّم دور هذا الإمام القائد المجاهد [1].

يقول العلّامة المجاهد السيّد حسن نصر الله مبيّناً سبب التعتيم أو التحجيم لدور العلماء المجاهدين ما نصّه:

... وكان رمز مقاومة الفرنسيّين الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين، ولكن ـ كما هي العادة في العمل السياسي ـ برز من تريد فرنسا أن يبرزوا على أساس أنّهم أبطال المقاومة [2].

إنّ نقل حوادث المؤتمر مشوّهة أو محرّفة من شأنها إثارة عواطف المسيحيّين واستعداؤهم وتشجيع العملاء والخونة «الانتهازيّين المنافقين» على استغلال ذلك بالدسّ الأمر الذي أدّى إلى مآسٍ وقعت فيما بعد.

إنّ نجاح المؤتمر كان عاملاً أساسيّاً في إشاعة الفرنسيّين وعملائهم كذباً فتوى للسيّد شرف الدين بمحاربة النصارى، إكمالاً لمخطّطهم الذي كانوا قد أحكموه لإزالة السيّد من طريقهم؛ لأنّه كان سدّاً منيعاً أمام مخطّطاتهم. كان المؤتمر ضربة قاصمة للمستعمر الفرنسي وخطوة كبيرة في طريق الوحدة وقطع الطريق على الفتنة، حينما احتضن المسلمون المسيحيّين وطالبوا بتحقيق الأمن والعدالة والمساواة للجميع.

وقد أعقبوا ذلك ـ وبعد ذهاب الوفد إلى دمشق وإبلاغ الأمير فيصل قرارات المؤتمر ـ بتطويق شحور عسكريّاً لاعتقال السيّد ثمّ الحكم عليه بالإعدام والنفي فيما بعد. وهذا خير شاهد على الأهداف الشرّيرة التي كانت من وراء تشويه حقائق المؤتمر وتحجيم دور السيّد عبد الحسين شرف الدين في ذلك بكلّ وسيلة ممكنة [3].

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٢٣١ ـ ٢٣٣، عن مجلّة العرفان، المجلّد ٧٥، العددان ١ و ٢.

٢. المصدر: ٢٣٣ ـ ٢٣٤، عن جريدة العهد البيروتيّة، العدد ٢٥، الجمعة ٢٣ شوّال ١٤٠٥هـ.

٣. المصدر: ٢٣٤.

الإمام شرف الدين في دمشق «شعبان المعظّم ١٣٣٨هـ»

يبدو أنّ الثورة ضدّ الفرنسيّين المحتلّين كانت هي الخيار الوحيد الذي اتّفق عليه الغيارى من أبناء البلاد العربيّة الإسلاميّة، غير أنّ الثوّار كانوا على رأيين:

الأوّل: المبادرة إلى الثورة المسلّحة مهما كانت نتائجها وآثارها.

الثاني: اتّخاذ الأساليب السياسيّة المعتمدة على المفاهمة قبل المبادرة إلى العنف. وكان هذا رأي الأمير فيصل.

بينما كان آخرون يرون العنف هو الطريق الوحيد للتخلّص من هؤلاء المستعمرين.

وقد كان رأي الإمام شرف الدين مع رأي فيصل، وهو يقدّم نفسه للتضحية حين لا تكون هناك مندوحة. وعلى هذا كان يجتمع برؤساء القبائل والأُمراء ليقنعهم بتوحيد الموقف والتريّث إلى أن تتمّ الحجّة وتتّضح ضرورة الوثبة أمام الدولة الغازية بجيوشها ومعاملها وعتادها.

وقد رأينا رأي الإمام شرف الدين في مؤتمر وادي الحجير، وها هو اليوم متّجه إلى دمشق مع الوفد الذي عيّنه المؤتمر بالقنيطرة وواسط، فيستقبلهم أميرها محمود الفاعور في جمع من رؤساء العشائر وأعلام النهضة العربيّة في داره، التي كانت مركزاً لاجتماع أعلام النهضة وكان هو واسطة عقدهم المنظوم.

وقد استطاع الإمام شرف الدين أن يكفكف من غلوائهم ويدعوهم إلى التريّث حتّى ييأسوا من المفاهمة، ثمّ يبادروا إلى العنف والثورة المسلّحة ضدّ الغازين المستعمرين.

وبين الخامس من شعبان الذي عقد فيه مؤتمر الحجير والسابع عشر منه الذي وصل فيه الوفد إلى دمشق، كانت هذه الخطوات التقريبيّة التي أثمرت، إذ علّق الثوّار المتحمّسون وثبتهم على مصير مقابلة الإمام شرف الدين مع الملك فيصل في دمشق.

وكان اللقاء الرسمي للوفد بالملك فيصل في دمشق في يوم السبت التاسع عشر من

شهر شعبان المعظّم. وقد كانت الكلمة التي قدّمها الوفد هي كلمة الإمام شرف الدين البليغة. قال ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم، وله الحمد كفاء آلائه وزنة فضله ونعمائه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه، وعلى آل بيته وصفوة أوليائه، والابتهال إليه سبحانه أن يحقّق سؤلنا، ويتوّج أمرنا في دولة كريمة، يعزّ بها الإسلام وأهله، ويذلّ بها النفاق وأهله ويجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعته، والأدلّاء على محبّته، ويحمّلنا من الحقّ ما عَرَّفنا به، ويبلّغنا منه ما قصرنا عنه، ويرزقنا كرامة الدنيا والآخرة، بفتحٍ يعجّله، وسلطان حقٍّ يظهره.

أمّا بعد: فإنّي أتقدّم بتحيّة جبل عامل، وولائه للمليك المفدّى، ثمالة السلف، وبقيّة الخلف، وذؤابة الشرف، من عمرو العلى هاشم، إلى محمّد وعليّ والزهراء فاطم، من آل الرسول، ومخرسي العشر العقول.

مــن آل أحــمد رحـمة الأُ   لى ومـــــغرسه الأصـــيلِ
مـن مـعشرٍ ضـربوا الخِـبَا   في مـفرق المـجد الأثـيلِ
كبني عليّ والحسين وجعـ   فــــرٍ وبــــني عـــقيلِ
والســـابقين بـــمجدهم   في كـلّ جـيلٍ بـعد جـيلِ
شـرف تـحدّر مـن وصـيّ   أو أخــي وحـــي رسـولِ

أجل: إليك يا ابن رسول الله أرفع تحيّة شيعتك المتمسّكين بالعروة الوثقى من ولايتك، العاقدين نيّة القربة على مبايعتك بيعةً قائمة مستمرّة حتّى بلوغ الهدف.

ذمّتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم.

والهدف يقوم على دعامتين اثنتين:

تطهير أرضنا الطيّبة من رجس الاحتلال، وجمع شتاتها تحت لواء وحدة وحرّيّة واستقلال.

ولن تقوم لسوريّة دولة، ولن تكون أرضها واحدة، ما دام الفرنجة يكبّلون جناحي الشام بساحله وفلسطينه.

وقد أجمع الرأي العامّ عندنا على المناداة بذلك والجهاد في سبيل تحقيقه، وواجه به لجنة الاستفتاء الأميركيّة.

ولا عبرة بمن شذّ عن ذلك من كلّ مستأجر شرك الشيطان في جنانه، ونطق على لسانه.

وقد كانت مقرّرات مؤتمر وادي الحجير، الحدّ الفاصل بين الحقّ والباطل، إذ طبّق جهير صوته الأرجاء، وانعكس صداه في جميع الأنحاء، يردّد نداء سواده الأعظم وعلمائه وزعمائه بالجهاد والاستشهاد في سبيل ذلك، والوثيقة التي رفعناها لجلالتكم أمس الأوّل تفصّل ما يجمل.

وإنّنا إذ نبايعك يا ابن رسول الله على القيام بهذا الأمر، فلأنّك الخلف من أهل البيت في جيل هذه الأُمّة.

وقد صحّ عن جدّك ﷺ قوله: «في كلّ جيلٍ من أُمّتي خلفٌ من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالّين وانتحال المبطلين»[1].

وجيل الأُمّة العربيّة اليوم يقف على المفترق يتربّص لاهتبال الفرصة، بعد أن صبر على الكظّة، يُساط بالحرمان، ويتمرّغ في الهوان، عرضة للنابلين، ولقمةً للآكلين، وفريسة للطامعين، شمله شتيت وعضده فتيت.

وقد أذّنت به يا صاحب الجلالة، فاستيقظ على النفير، وتوثّبت للجهاد في سبيل التغيير، وجبل عامل منه يهتف معه:

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحمُ فلا مشت بي في طرق العلى قدمُ
لا بدّ أن أتداوى بالقنا فلقد صبرتُ حتّى فؤادي كلّه ألَمُ
عندي من العزم سرٌّ لا أبوح به حتّى تبوح به الهنديّة الخذمُ
لا صبر أو تضع الهيجاء ما حملت بطلقةٍ معها ماء المخاض دمُ

على ذلك نتوجّه إليك، على بعث الأُمّة، على الجهاد في سبيل حرّيّتها واستقلالها، ولله نداءً أطلقته، وشعاراً رفعته: «الاستقلال يؤخذ ولا يُعطى».

فاحمل له حمل أبيك، قائداً ملهماً، وفارساً معلّماً حتّى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ﴾ بانتزاع أشلاء سورية من المنتدبين الغاصبين، جمعتها في كيان واحد، يزيّن مفرقه تاجك، ويحمي حدوده رتاجك، ويسود نظامه دستورك ومنهاجك، وينادي المنادي:

---

١. الصواعق المحرقة: ١٥٠، مع تفاوت.

أن عاد الحقّ إلى نصابه، والإمام إلى محرابه، ورجع المضيّع إلى أهله، وانتقل إلى منتقله.

بأبي أنتم وأُمّي أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومهبط الوحي، بكم نهتدي في الظلماء، ونتسنّم ذروة العلياء.

سلام الله على أوّلكم وعلى أخركم ورحمة الله وبركاته.

ولم يقتصر نشاط الإمام شرف الدين في دمشق على إبلاغ قرارات المؤتمر للملك فيصل، وإنّما استمرّ تواجد الإمام في دمشق بين جلسات تختصّ بقضايا الساعة السياسيّة، وبين جلسات علميّة كانت تعقد له فيجتمع فيها مع كبار علماء دمشق مثل العلّامة الشيخ عبد الواسع الواسعي اليمني الصنعاني الزيدي.

قال الإمام شرف الدين عن لقائه معه في رسالته المعروفة بـثبت الأثبات: «اجتمعت به أيّاماً في دمشق الشام واستفدت منه فوائد جمّة في شعبان سنة ١٣٣٨»[١].

وهو أحد شيوخ الإجازة الذين ذكرهم الإمام شرف الدين في رسالته هذه.

وممّن التقى به في هذه الفترة الذهبيّة القصيرة: الشيخ بدر الدين الدمشقي شيخ الإسلام بدمشق وأعلم علمائها في ذلك العصر ـ على حدّ تعبير الإمام شرف الدين نفسه ـ قال: «لقيته في شعبان سنة ١٣٣٨هـ بدمشق وحضرت درسه ليالي شهر رمضان»[٢].

وسوف نرى أنّ ليالي شهر رمضان هي الليالي التي قضاها الإمام شرف الدين في المنفى، حيث عاد إلى شحور في مستهلّ شهر رمضان ولكنّه قد فوجئ بتطويقها لاعتقاله، وقد أنجاه الله من أيدي المعتدين المستعمرين للمرّة الثانية، فكرّ راجعاً إلى دمشق بعد أيّام من هذا الحدث المؤلم. فكان شهر رمضان عامراً بالحضور في مجلس دروس شيخ الإسلام بدمشق.

---

١. راجع الموسوعة ج ٦، ثبت الأثبات: ٨.

٢. المصدر: ٩.

وقال الإمام شرف الدين عن هذه الفترة الذهبيّة التي قضاها في دمشق في هذه الأيّام:

إنّ دمشق يومئذٍ عقدت لنا حفلات جامعة أهلّتْ فيها المنابر بالخطباء والشعراء من أعلام الفكر والبيان، وأُتيح في زيارتنا لدمشق موسم من مواسم الأدب والسياسة المذكورة في تاريخ هذا العهد. وكان لنا في تلك المنتديات والمؤسّسات الكريمة مواقف لا تُنسى[1].

وقد طوى الإمام شرف الدين صفحات ذكرياته في دمشق لأسباب لا نعلمها بالتفصيل غير أنّه قال عنها:

لنا في دمشق ذكريات زُهَر، لو كان غيري رجلها لنشرتُ صحفَها، وفصّلتُ مواقفها في تاريخ مذهّب مجنّح، ولكنّي أعرض عن التفاصيل وأطويها في جمل تنسجم وهذا التناسق المتواضع[2].

فإنّه ﷺ حيث يكتب عن نفسه فهو لا يكتب إلّا متواضعاً في كتابته؛ لأنّه لا يستطيع أن يكتب عن نفسه كلّ شيء.

غير أنّ ما كتبه عن هذه الأيّام من لقاءاته بالأمير فيصل تستلفت الانتباه، وهي كما يلي:

١ ـ تهنئة فيصل على أنّه الملك الجديد للمنطقة حسب ما قرّره مؤتمر وادي الحجير.

٢ ـ الاشتراك في الجلسات الخاصّة بمصير الجبل ومصير سوريا بشكل عامّ.

٣ ـ التنسيق للثورة وإعداد العدّة اللازمة من عتاد وجند وأطبّاء.

وأمّا دور السيّد الإمام في هذه الندوات أو الجلسات الخاصّة بالشؤون الإقليميّة، فهو إنضاج الأفكار والخطط الثوريّة بالإضافة إلى دراسة الاقتراحات المطروحة ومستلزماتها بشكل تفصيلي.

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٩٢.

٢. المصدر: ٥٩١ ـ ٥٩٢.

وقد حصل الإمام شرف الدين على الموافقة التامّة من قبل الملك فيصل في إعداد كلّ ما يحتاجه العامليّون في وثبتهم ضدّ الاحتلال الفرنسي، واتّفقا على أن تكون مستلزمات الثورة المسلّحة ومتطلّباتها جاهزة.

وفي اليوم الذي كان الوفد العاملي يجتمع بالملك فيصل في دمشق «وهو السبت ١٩ شعبان سنة ١٣٣٨» قام الفرنسيّون بحركة استفزازيّة في «عين إبل» انجلت عن مئة قتيل ونيّف من أهلها، وذلك ليُظهر الفرنسيّون العامليّين أمام الدول بمظهر يُبدي لها أنّهم غير قادرين على إدارة أنفسهم بشكل مستقلّ، فلا بدّ لهم من الوصاية والانتداب.

وكان هذا الاستفزاز لضرب الخطّة السلميّة التى كان قد أعلنها مؤتمر وادي الحجير حفاظاً على الأمن والسلم وتأمين سلامة النصارى وسائر الأقلّيّات في الجنوب، وهي خطّة الأمير فيصل أيضاً؛ ولهذا فهم كانوا يبيّتون لضرب فيصل الثائر أيضاً.

وبهذا الاستفزاز فوّتوا الفرصة على العامليّين الذين كانوا يبتغون الاستقلال والتحرّر من نير الفرنسيّين.

محنة جبل عامل «غرّة رمضان ١٣٣٨»

لقد كان الإمام شرف الدين يتوقّع الخطر المحدق بصور قبل أن يذهب إلى دمشق ـ لأنّ صور كانت مقرّاً للحكم الفرنسي حينذاك ـ ولذلك أشار إلى أهله بترك صور والانتقال إلى شحّور، لأنّها أبعد عن متناول يد الفرنسيّين.

وقد أثبتت الأحداث صحّة توقّعه، فإنّ الفرنسيّين كانوا يتربّصون به الدوائر وينتظرون رجوعه من دمشق ليوجّهوا الضربة الموجعة له وللثوار العامليّين. وكان ذلك في مستهلّ رمضان ١٣٣٨.

لقد كانت الجيوش الفرنسيّة معدّة بالأسلحة الثقيلة في أطراف الجبل، وعلى أُهبة كاملة لاختراق الجبل، بعد أن أوعزوا لها بالإمعان في القسوة والإرهاب

والإهانة والإخافة للقرى الآمنة وانتهاك المعايش الزهيدة التي تتقوّت بها بمقدار ضرورات الحياة.

وقد أسرع الملك فيصل بالوفاء بوعده بعد اطّلاعه على ما كان يدبّر له الفرنسيّون، فجهّز إلى الجبل قوافل العتاد والأطبّاء، ولكنّ كامل الأسعد أرجعهم تعويلاً على الحلول السلميّة آخذاً بالأناة والتساهل.

قال الإمام شرف الدين في وصفه الدقيق لحملة الجيوش الفرنسيّة الجرّارة على شحور ما نصّه:

ومهما يكن فقد كان نصيبنا من هذه الجيوش حملة جرّارة قدّرت بألف فارس مجهّزين بالمدافع الثقيلة والدبّابات والمدرّعات، زحفت بقيادة الكولونيل «دنجير» إلى شحور، وما كاد الفجر يتضوّأ بأضوائه النديّة حتّى كانت المدافع الثقيلة منصوبة على جبلي «الطور وسلطان» المشرفين على القرية، وهبط الجيش يتدفّق بين كروم التين ويلتف حول القرية في رهبة أوحشت سكينة الفجر المستيقظ لذكر الله تعالى في مستهلّ شهر رمضان المبارك سنة ١٣٣٨ هـ[١]، وكنت أهوّم بعد صلاة الفجر بنعاس بعد تعب السفر وتعب السهر، وكانت وصيفتنا الصالحة «السعيدة» تتهيّأ لصلاتها، فأشرفت على مدخل القرية ـ وهي تتبيّن الصبح ـ فراعها أن ترى أنّ آذان الخيل تنتشر بين أشجار التين في مثل هذا البكور فأجفلت مذعورة، ورجعت توقظني من نومي.

نهضت مسرعاً إلى أرديتي وانسللت أتخطّى الأزقّة والمضايق، ثمّ خرجت من بين العسكر وهم لي منكرون، وتركتهم يتظنّنون، وانسحبت أهبط الوادي إلى غار على شاطئ الليطاني، كان لجأ إليه جدّنا السيّد صالح في محنة الجزّار.

أمّا الجند فطفق يسأل عنّي واستوقف الصغار من أفراخي مع عمّهم السيّد محمّد وخالهم السيّد حسن يستنطقهم والسيف مصلت فوق رؤوسهم. ولكنّهم أجمعوا على أنّي في دمشق.

ولمّا استيأسوا من العثور عليّ تفرّقوا في القرية يأكلون ويشربون ويحطّمون. ولم

١. يوافق ٥ حزيران سنة ١٩٢٠.

يغادروا شحوراً قبل أن يحرقوا الدار ويأسروا السيّد أحمد من أشراف بني زهرة ويسوقوه مع عدّة من وجوه البلد إلى السجن والتنكيل.

وكان قد انسلّ من شحور ومن القرى المجاورة نفر من فتياننا عرفوا مكاني على الشاطئ فالتحقوا بي وأمضيت في الغار ليلة استعدت فيها بعض الراحة والنشاط، ثمّ أخذت طريقي إلى الشام، والتحق بي من التحق ممّن حكم عليهم بالنفي أو الإعدام.

وهذه هي المحاولة الثانية لاغتيال الإمام شرف الدين والتي أنجاه الله منها بقدرته الفائقة، وأراد أن يدّخره ليقوم بتحقيق سائر المهامّ والأهداف الرساليّة التي تنتظره في المستقبل القريب والبعيد للبنان والجبل، بل للشرق الأوسط وللعالم الإسلامي أجمع.

إنّ مؤتمر الحجير وإن كان مؤتمراً لتقرير مصير الجبل، ولكنّه كان يحمل بين طيّاته أسراراً وأهدافاً هي أبعد ممّا كان يستهدفه المؤتمرون لمنطقتهم.

وها نحن اليوم نرى آثاره الكبرى في جنوب لبنان وفلسطين والعالم العربي والإسلامي، والمقاومة الإسلاميّة التي تتّصل جذورها بشكلٍ عميق ووثيق بالحجير وزعامته التي أنجاها الله لتحقّق آمال المسلمين وأهداف الرسالة الإسلاميّة في أصعب الظروف، وتصبح الرهان الكبير لإنقاذ العالم الإسلامي ممّا حلّ به من مؤامرات تستهدف استئصاله وتدميره.

وقد اقترن هذا الاغتيال الثاني للإمام شرف الدين في شحور باحتلال داره في صور ونهبها، ونهب مكتبته القيّمة ونفائس مخطوطاته التي لا تكاد توجد عند غيره، وقد اعتبرها مصيبة عظيمة ورزيّة جليلة تستحقّ الصبر والرجوع إلى الله لتحمّل عبء المصاب، ويبدو أنّه قد اطّلع على ذلك وهو في القاهرة.

وقد أُعلنت الأحكام العرفيّة وحكم عليه بالنفي المؤبّد مع مصادرة ما كان يملك، بعد أن أحرقوا داره في شحور أيضاً، كما حكم على سائر زعماء البلاد بالنفي ومصادرة الأموال، وعلى فتيان الثورة بالإعدام. «ثمّ فرضت على الجبل غرامة فادحة لا تتحمّلها ثروة البلاد».

لقد كان إخفاق جبل عامل سبباً في إخفاق القضيّة السوريّة حسب اعتقاد الإمام شرف الدين؛ لأنّ قضيّة الجبل وتجربته كان مرحلة تجريبيّة جرّأت فرنسا بعدئذٍ على سورية كما سنرى لاحقاً.

الإمام شرف الدين في المنفى «رمضان ١٣٣٨ ـ شوّال ١٣٣٩»

في دمشق

في مستهلّ شهر رمضان من سنة ١٣٣٨هـ الموافق ٥ حزيران سنة ١٩٢٠م كانت حملة جيوش الفرنسيّين على شحور؛ لاغتيال الإمام شرف الدين والقضاء على زعيم المقاومة والثورة الوطنيّة ضدّ الاحتلال الفرنسي. وقد أمضى في الغار الكائن على نهر الليطاني ليلة للاستجمام واستعادة النشاط بعد تعب السفر وتعب السهر، ثمّ اتّجه في اليوم الثاني من شهر رمضان إلى الشام.

لقد قضى الإمام شرف الدين باقي شهر رمضان وأكثر شوّال في دمشق حيث خرج منها قبيل احتلال دمشق يوم ٢٦ تمّوز سنة ١٩٢٠م حين خرج منها الملك فيصل إلى فلسطين. وكلّ هذه الفترة لا تتجاوز الخمسين يوماً، وإن كان قد عبّر عنها بقوله:

> وكنّا في دمشق موضع الحفاوة والنفوذ والاحترام، وفي القمّة من العزّ ومنعة الجـانب، وعاملة تنوء تحت ضربةٍ بكر [١].

ولعلّ سرعة تطوّر الأحداث هو الذي جعله يصرّح أنّه قد قضى في دمشق شهوراً[٢] بينما التاريخ الدقيق الذي قضاه في دمشق لا يتجاوز الشهرين إلّا إذا قلنا بأنّه يرى أنّ الجمع اثنين فما زاد.

وفى هذين الشهرين تنوّع نشاط الإمام شرف الدين بين ارتـياد الوزراء والعـلماء والرؤساء مجلسه، وبين حضوره هو درس شيخ الإسلام بدمشق، وهو حينذاك بدر

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٩٦.

٢. المصدر: ٥٩٨.

الدين الدمشقي الذي حصل منه على إجازة الرواية كما ذكر ذلك في الرسالة المعروفة بـثبت الأثبات.

وكان للإمام شرف الدين إسهام كبير في مشاورات القضيّة العربيّة العامّة، ومحادثات المناهضة العربيّة السوريّة، إذ كان يشعر بأنّه في وطنه الكبير وهو يحمل مشعل الجهاد رغم الإحباط الذي حدث له في جبل عامل بشكل خاصّ.

وقد اجتمع في دمشق من عوائله ما ملأ ثلاث دور كبيرة، وقد خرج بهم إلى حيفا عن طريق درعا حين تدفّقت جيوش فرنسا وهي تحتلّ دمشق في ٢٦ تمّوز سنة ١٩٢٠م.

في حيفا «ذو القعدة ١٣٣٨»

لبث السيّد الإمام شرف الدين في حيفا عدّة أيّام، وقد انصرف عن السفر إلى الحجاز وعزم على السفر إلى مصر مع ابنه السيّد محمّد جواد بسبب وعكة لحقت ابنه هذا، وقبل دخوله مصر كان قد وزّع أهله بين جبل عامل ودمشق يدخلونها متنكّرين، في الوقت الذي كان السيّد متوجّهاً فيه إلى مصر للمرّة الثانية بعد عقد من الزمن تقريباً.

الزيارة المصريّة الثانية «ذو القعدة وذو الحجّة ١٣٣٨»

لم يذكر السيّد الإمام شرف الدين عدد الأيّام التي قضاها في حيفا، واكتفى بقوله: «لبثنا في حيفا أيّاماً».

ثمّ دخل مصر متنكّراً، غير أنّه لم يخف أمره في مصر؛ لأنّه كان قد زارها من قبل وتعرّف عليه جمع من علمائها.

لبث الإمام شرف الدين هذه المرّة في مصر قرابة الشهرين وهو يجتمع بذوي الفضل من أعلام الفكر والسياسة، ويحضر الحفلات والندوات العلميّة التي عقدت له، فهو في هذه المرّة إمام من أئمّة جبل عامل الذين اعتلت بهم نهضتهم؛ ليرتقوا منابر الفكر والسياسة ويرسموا للأجيال طريق المستقبل المضيء.

وقد كانت أميركا تلعب دور الوسيط والقاضي المؤتمن بين المستعمرين المحتلّين وبين الشعوب، فكانت الأنظار متوجّهة إليها لعلّ الله من خلالها يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده. ومن هنا كان الإمام شرف الدين يرى ضرورة السعي للذهاب إلى واشنطن، لكنّه لم يذكر لنا الظروف والأسباب التي أقعدته عن الإبحار إليها.

نعم، أشار إلى أنّ أسباباً سياسيّة وأُخرى شخصيّة هي التي قعدت به عن الإبحار إليها.

وفي الأيّام الأخيرة من تواجده في مصر شاع خبر إحراق المحتلّين لداره ومكتبته بنفائسها الفريدة، فخطب في القاهرة في الخامس عشر من أيلول سنة ١٩٢٠م الموافق لأواسط ذي الحجّة سنة ١٣٣٨هـ، وإليك نصّ خطابه الذي ألقاه في وفود زائريه في القاهرة:

بسم الله الرحمن الرحيم الذي خصّنا بالبلاء، وأقامنا مثالاً للصبر والعزاء، فكنّا ـ أهل البيت ـ أُسوة لمن تأسّى، وعزاء لمن تعزّى، وصلوات الله وسلامه على خاتم أنبيائه، ورحمته وبركاته على آله وأوصيائه ما كان أصبرهم على الخطوب، وأقواهم على المحن، لم تَرُعهم النوائب القارعة، ولم تنل منهم الملمّات الفاقرة.

فكيف أُراع وأنا منهم، جبلت من فاضل طينتهم، صخرة في واد، وطوداً من الأطواد.

أُولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

ودع عنك تحريق بيتي ومؤلّفاتي، وصيحة النهب في حجراتي، واحتلال دارتي، وترويع جاري، والزغب من صغاري.

مدارس آياتٍ خلت من تلاوةٍ ... ومنزل وحيٍ مقفر العرصاتِ
ألا فاسألوا الدار التي خفّ أهلها ... متى عهدها بالصوم والصلواتِ
وأين الأُولى شطّت بهم غربة النوى ... أفانينَ في الآفاق مفترقاتِ
أرى فَيْأهم في غيرهم مُتَقَسّماً ... وأيديهم من فيئهم صفراتِ

رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على قضائه ويوفينا أُجور الصابرين.

نعم هذا شأن من يرسم لأُمّته خطط الحرّيّة ويتوقّل في قومه معارج الشرف، سنّة الله في

الذين يقدّمون أنفسهم قرباناً لعقائدهم وفداءً لأوطانهم.

وحسب المنحرفين الرعاديد، من كلّ خافر ذمام بلاده، ضالع في التآمر على تراث أجداده، وميراث أولاده، ومن كلّ مشّاء بنميم، محرّف للكلم عن مواضعه، إن حقّت عليهم اللعنة في الدارين، والخزي في النشأتين.

أمّا الغزاة الطغاة، من كلّ محتلٍّ أثيم، وغاصبٍ زنيم، فسيعلمون أيّ منقلبٍ ينقلبون، وأنّ الأرض لا يرثها إلّا عباد الله الصالحون.

هو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير [١].

تسعة أشهر في فلسطين «محرّم ـ شوّال ١٣٣٩»

وبعد قرابة أربعة أشهر من التشريد والتنقّل من بلد إلى بلد، والحوادث تترى، والمشرّدون هم أكثر الثوّار، والأحكام العرفيّة مفروضة على الجبل، وفتيان الثورة قد حكم عليها بالإعدام أو النفي، سوى من أنفذ عليهم الحكم الغاشم ممّن ظفرت بهم القوّات الفرنسيّة الغازية.. ومصر بعيدة عن الإشراف على جبل عامل. ولا يكون لبقائه فيها ثمرة تعود على الجبل أو الإسهام في حلّ مشكلاته بعد الانتداب وفرض السيطرة التامّة عليه وعلى منطقة سورية.. قرّر السيّد الإمام العودة إلى الجبل الذي أُبعد عنه وحكم عليه بالنفي منه.

ولتحقيق شيءٍ من الإشراف على ما يجري في الجبل يعود الإمام إلى أقرب نقطة يمكن أن يقطنها ليكون على علم بما يجري في الجبل، فيختار قرية «علما» لموقعها القريب من الحدود اللبنانيّة أوّلاً، ولأنّها محاطة بمجموعة من القرى اللبنانيّة التي شُرّد أبناؤها في الحركة العامليّة ثانياً.

وقد نشط الإمام شرف الدين وهو في «علما» لإنقاذ الجبل ممّا حلّ به من كوارث الاستعمار الفرنسي، إذ كان على اتّصال دائم بجبل عامل وبأعلام فلسطين وبالإخوان

---

١. الموسوعة ج ٩.

المشرّدين الذين كانوا يعملون جميعاً لإنقاذ الجبل. وقد كُلّلت جهوده بالإفراج عن كامل بك وبقيّة الوجوه العامليّة.

وقرّر الإمام شرف الدين في هذه الظروف العصيبة التي منعته من الحضور في الجبل أن يغادر فلسطين إلى العراق، وأُشيع خبر مغادرته إلى العراق، وبلغ الخبر إلى الجنرال غورو، إذ اعتبر ذلك إعراضاً من السيّد عن دخول الجبل وهو يشكّل نقطة ضعف تُنسب إلى عهده أوّلاً، وهو لا يأمن من نشاط السيّد في العراق ضدّ الفرنسيّين ثانياً.

ولهذا أسرع الجنرال غورو بإرسال مندوب خاصّ يحمل إليه رسالة بالأمان طالباً منه دخول بلاده على ما أحبّ.

ولعلّ هذا العزم من السيّد وإشاعته كان تخطيطاً حاذقاً قام به السيّد لكسر الطوق الذي كان الفرنسيّون قد فرضوه على هذا الإمام المقدام.

وقد طالت مدّة مكث السيّد في «علما» في فلسطين حوالي تسعة أشهر، إذ عاد منها إلى بيروت في الثامن عشر من شوّال سنة ١٣٣٩هـ بعد تشريد ونفي دام ثلاثة عشر شهراً وثمانية عشر يوماً.

عودة الإمام شرف الدين إلى جبل عامل

بعد الإفراج عن كامل بك وبقيّة وجوه الثورة، وبعد إيصال رسالة الأمان إلى السيّد الإمام من قبل المندوب السامي الجنرال غورو، وطلبهم العودة إلى وطنه كما يحبّ، عزم السيّد الإمام شرف الدين على الرجوع إلى جبل عامل ولكن دخلها من طريق بيروت.

وقد استطاع الإمام شرف الدين أن يحاجج المندوب السامي والمسيو ترابو حاكم لبنان الإداري العامّ، حيث أكبرا فيه صلابة العود وقوّة الشكيمة، وقد تركّزت مباحثات السيّد الإمام معهما على ما يلي:

١ ـ مشروعيّة الثورة ضدّ المستعمرين المحتلّين.

٢ ـ الأخطاء التي ارتكبها المحتلّون مثل تشريد المخلصين من أحرار البلد.

٣ ـ طلب العفو العامّ عن كلّ المعتقلين.

وقد أسفرت المباحثات عن النتائج الإيجابيّة التالية:

١ ـ الاعتذار إلى الإمام شرف الدين باعتباره ممثّلاً لأبناء البلد ممّا جرى على يد المحتلّين.

٢ ـ صدور الأوامر بإخراج كلّ المسجونين.

٣ ـ الوعد بإصدار العفو عن صادق الحمزة وإخوانه الثائرين.

غير أنّهما لم يفيا بما وعدا السيّد من العفو عن صادق الحمزة وإخوانه.

الاحتفاء بالإمام شرف الدين

ومن بيروت سار الإمام شرف الدين إلى صيدا، حيث اجتمع فيها أعيان البلاد ووجوههم وهم يحملون بين جوانحهم مظاهر الحبّ والودّ لإمامهم معلنين تقديرهم لجهاده الدؤوب.

ولم يَخف على السيّد حضور المنافقين وأصحاب الوشايات الذين جرّوا الويلات ـ بوشاياتهم ـ على البلاد، وقد كان السيّد يراهم أكثر الناس تصفيقاً وأعلاهم هتافاً كما هي عادة كلّ خائن كذّاب.

ومن صيدا انطلق الإمام إلى صور حيث كانت غمائم الوفود تملأ الأرض وتسدّ الطريق حاملةً رايات ملوّنة تنتشر في الأُفق كأجنحة النسور.

إنّه تصوير دقيق للحشر العظيم الذي غصّت به مدينة صور العامليّة.

لقد كانت صور موسماً للأدب الملتزم، ولحفلات التقدير للجهاد والمجاهدين، وعلى رأسهم سيّدهم وإمامهم السيّد عبد الحسين شرف الدين الذي شرّف بمواقفه مواقف الثوّار، واستطاع أن يتجاوز بهم الأزمة ليزرع بذور العزّ والمقاومة في أعماق القلوب والنفوس العاملة في كلّ ربع من ربوع الجبل.

وقد استمرّ هذا الموسم الأدبي مدّة طويلة نسبيّاً تناهز الشهرين. وقد اجتمعت فيها

قصائد ومقطوعات أدبيّة عبّرت عن أحاسيس أصحابها، كما عبّرت عن الشعور العامّ الذي كانت تعيشه في تلك الأيّام لبنان ومنطقة الجبل بشكلٍ خاصّ تجاه قائدها وتجاه ثورتها العارمة، وقد تضمّنت هذه القصائد وثائق تستحقّ العرض والدراسة[1].

وإليك نموذجاً من قصيدة عصماء جادت بها قريحة الأديب العاملي الشيخ محمّد حسين شمس الدين وقد تليت في صيدا:

سمعاً فعامِلُ خَطْبُهُ جَلَلُ ... يكفيك عن تفصيله الجُمَلُ
جاسَت خلال ربوعِهِ فِتَنٌ ... خرقاء فيها يُضرَبُ المَثَلُ
صُبَّت عليه مصائباً فعلى ... أمثالها لا تَبْرُكُ الإبِلُ

....

ونجا أبو الأشبال معتصماً ... بالله وهو عليه متّكلُ
علم الإلهُ بأنّ نهضَتَه ... للدين وهو لدينه البطلُ

....

لكن أبى إلّا الإبا وكذا ... من قبلِه آباؤه الأُوَلُ
أبتِ الحميّةُ أن تقرّ على ... ضيمٍ ودونك في العُلىٰ زحَلُ
ما ضرّ تشريد به شَرَفٌ ... لبناء مجدٍ ما بهِ خَلَلُ
وتنقّلت بك في العُلىٰ هِمَمٌ ... وكذلك الأقمار تنتقِلُ
فكأنّما الدنيا بأجمعها ... رَجُلٌ وشخصُكَ ذلك الرجُلُ
وطلعتَ من بعد الغياب على ... آفاق عاملَ وهي تبتهِلُ
عَوْدٌ أعاد لها الحياةُ كما ... يُحيي الربيعَ العارش الهَطِلُ

....

ما أنت إلّا السيفُ جرّده ... للخطبِ عزمُك حيثُ لا رَجُلُ

---

١. نقلها الإمام شرف الدين في بغية الراغبين. راجع الموسوعة ج ٧: ٦٠٤.

....

يــا أيّــها العــلم الرفــيعُ عُــلىً بك لا بــغَيْرك يُــصلَحُ الخَــلَلُ
أنت الإمــــام وأنتَ طــــاعتُهُ فــرضٌ فَــمُر فــالكُلّ مــمتثِلُ

وتبلغ أبيات هذه القصيدة اللاميّة ٧٦ بيتاً.

وله قصائد أُخرى ذكرها الإمام شرف الدين[١] وفاءً لعواطفه ومكافأةً لتقديره وإخلاصه، وقد تُليت قصيدته الأُخرى في الاحتفال المنعقد بصور، كما تُليت له قصيدة ثالثة في الاحتفال المنعقد في شحور، وقصيدة رابعة تُليت في عيد الأضحى سنة ١٣٣٩هـ بعد عودة الإمام شرف الدين إلى صور بخمسين يوماً. فيكون وروده إليها في العشرين من شوّال المكرّم سنة ١٣٣٩هـ.

تألّق نجم الإمام شرف الدين

وقد تألّق نجم الإمام شرف الدين بعد هذه الأحداث، نتيجة لمواقفه الحكيمة وإمامته للحركة التحريريّة التي أنشأها وسهر عليها في طول البلاد وعرضها.

ومن هنا يجدر بنا أن نشير إليه ـ بعد هذه المرحلة من مراحل حياته الاجتماعيّة الرساليّة ـ بالإمامة لمنطقة الجبل بل للبنان بشكلٍ عام، بالرغم من وجود كبار العلماء في تلك الحقبة الزمنيّة العصيبة التي يمكن أن نطلق عليها عنوان «سنوات المحنة» والتي تناهز ثماني سنوات من الدهر اشتملت على سنوات الحرب العالميّة الأُولى، والتي طالت مدّة أربع سنوات كان فيها ما كان من أنواع المصائب والآلام ثمّ أعقبتها سنوات الاحتلال والانتداب.

ومن هذه القوّة والشكيمة التي تميّز بها الإمام شرف الدين، والتي انتهلها من معين تراث آبائه الطاهرين أهل بيت الرسالة المنتجبين، سوف نلاحظ استمراره في الجهاد

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٠٥ ـ ٦٣٩.

والمقاومة رغم حضور المستعمر الكافر في بلاده حتّى تتهيّأ الظروف العالميّة والإقليميّة بما فيها استمرار الجهاد والمقاومة وفرض المسلمين أنفسهم على المستعمرين الدخلاء.

النشاط التأليفي للإمام شرف الدين

وأمّا النشاط العلمي التأليفي للسيّد الإمام شرف الدين في هذه الحقبة فقد ذكر أنّه قد أعاد كتابة «المراجعات» أو «المباحثات الأزهرية» التي فقدت أو سرقت أو أُحرقت حين نهبت مكتبته وأُحرقت داره بعد أن غادر صور وشحور صابراً محتسباً، وبلغه هذا النبأ المؤلم وهو في القاهرة أواخر سنة ١٣٣٨هـ.

فهل أعاد كتابتها وهو يعيش محنة شعبه ووطنه في القاهرة؟ أم كتبها وهو يرابط في جوار بلده؟ أم أعاد كتابتها بعد عودته إلى صور ظافراً مرتاح الضمير لما كان يشعر به من قيامه بالواجب المفروض عليه تجاه شعبه وبلاده؟

نعم هذه الفترة هي الظرف الذي يؤرّخ فيه لإعادة كتابة المراجعات من جديد.

الفصل الثالث

فترة ما بعد الاحتلال والنهضة

(شوّال ١٣٣٩ ـ جمادى الآخرة ١٣٧٧)

يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى شطرين متميّزين في حياة الإمام شرف الدين: الشطر الأوّل منهما يمكن تسميته بسنوات السفر والتجوال من ربيع الأوّل ١٣٤٠هـ إلى صفر ١٣٥٦هـ، ويبلغ نحواً من ١٦ سنة. والشطر الثاني منهما شطر الاستقرار وبناء المشاريع الثقافيّة والعمرانيّة في الجبل، ويبلغ نحواً من ٢١ سنة، بدءاً برجوعه من زيارة العتبات المقدّسة في العراق وإيران وحتّى رحيله في جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧هـ.

الإمام شرف الدين في عامه الأوّل بعد العودة

إنّ صمود إمام النهضة ضدّ المستعمرين، وتحمّل الصعاب من مقاومة ونفي وتشريد، قد أدّى إلى نزول المستعمرين عند رغبة إمام الثوّار وكفّهم الأذى عن أصحاب المقاومة.

وبهذا دخل قُطر لبنان ومنطقة الجبل في وضع جديد، حيث فهم المحتلّون أنّ لغة السلاح والسنان ليست هي لغة الحوار والتفاهم مع أصحاب البلاد الشرعيّين.

إنّ تفهيم السيّد للمندوب السامي وحاكم لبنان الإداري بأخطائهم واعتذارهم له عمّا اقترفوه، يشير إلى أنّهم كانوا قد أدركوا أخطاءهم وما تحمّلوه من ثمن باهض إزاء محاولات إبادة الثوّار وأصحاب المقاومة، الذين كانوا يريدون تحرير بلادهم من براثن

الاستعمار العسكري والاقتصادي والسياسي والثقافي.

ومن هنا يمكن أن نفهم أنّ المعادلات التي بدأت تتحكّم في المنطقة أصبحت معادلات جديدة تختلف عمّا كانت عليه المنطقة في بداية الاحتلال أوّلاً، والإقرار بشرعيّة المقاومة وعدم شرعيّة الاحتلال يجعل التعامل من نوع جديد ينتهي إلى نوعٍ من التسالم والتنازل عند رغبة أصحاب البلاد.

وهكذا يصبح رفض الاحتلال والاتّجاه إلى الحلول السلميّة لحلّ الأزمة هو الخطّ العامّ الذي سارت عليه البلاد.

ومن هنا نلاحظ نوعاً من الاستقرار النسبي خلال هذه الفترة التي أعقبت النفي والتشريد للثوّار، والتي انتهت بالعفو العامّ عنهم في نهاية المطاف.

وانتهت سنة ١٣٣٩ هجريّة باحتفالات العودة التي دامت شهرين منذ رجوع الإمام شرف الدين إلى مدينة صور.

ودخلت سنة ١٣٤٠ هجريّة وكان للإمام شرف الدين خطاب تاريخيّ في بيروت وفي الجامع العمري الكبير، بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في ١٢ ربيع الأوّل الموافق لـ ١٢ تشرين الثاني ١٩٢١م.

وقد دعا فيه إلى وحدة الكلمة ولمّ الشمل في الوقت الذي ضرب المسلمون فيها بمقاومتهم المثل الأعلى للثورة ضدّ الظلم والطغيان، وأصبحت نهضتهم حديث الساعة في الوطن العربي والإسلامي، ونموذجاً تأتمّ بهديه الشعوب والعقول والقلوب.

وإليك نصّ خطابه في هذا اليوم المبارك:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله على هدايته لدينه، والتوفيق لما دعا إليه من سبيله، وصلّى الله على سيّد الخلق، والصادع بالحقّ، البشير النذير، السراج المنير، الطهر الطاهر، والعلم الزاخر، الرسول المؤيّد، أبي القاسم محمّد ﷺ، وعلى أئمّة الهدى، ومصابيح الدجى، والعروة الوثقى، وعلى من تبعهم بإحسان ورحمة الله.

وبعد: فإنّه لا حياة لهذه الأُمّة إلّا بإجماع آرائها، وتوحيد أهدافها، بجميع مذاهبها، وشتّى مشاربها، على إعلاء كلمتها بإعلان وحدتها في بنيان مرصوص يشدّ بعضه أزر

بعض، وجسم واحد إذا شكا منه عضو أنّت له سائر الأعضاء، حتّى ليكون المسلم في المشرق، هو نفسه في المغرب، عينه ومرآته، دليله ومشكاته، «لا يخونه ولا يخدعه، ولا يظلمه ولا يسلمه».

بذلك يكون المسلمون أمّة واحدة، وبه تكون كذلك ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعتصم بحبل الله جميعاً، ولا تتفرّق كالذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، واختلفوا من بعد ما جاءتهم البيّنات، وتنازعوا ففشلوا وذهب ريحهم.

فهم ليسوا من رسول الله في شيء، وليس رسول الله منهم في شيء، وكيف يكون منهم وقد تركوا حبل الله؟

وحبل الله: دينه القويم، وصراطه المستقيم، وفرقانه العظيم.

فالحذر الحذر .. أيّها المسلمون من هذا الخطر، وأيّ خطرٍ أدهى من أن تبقى الفرقة فرقاً، والوحدة مزقاً، والأُلفة أشتاتاً، والنفوس أمواتاً.

قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة».

قالوا: لمن يا رسول الله؟

فقال: «لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين ولعامّتهم»[2]، فوالذي نفسي بيده لا يؤمن امرؤ حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، ويكره له ما يكرهه لها».

وإنّ من النصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمّة المسلمين وعامّتهم: إفشاء السلام، وإحلال الوئام.

والإسلام جعل التحيّة المباركة بين الناس، سلام عليكم، وعليكم السلام.

«ووالله لا تدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتّى تحابّوا، ألا أدلّكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

ومن النصح: توحيد المسلمين، و﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[3].

---

١. آل عمران (٣): ١١٠.

٢. صحيح مسلم ١: ٧٤، ح ٩٥.

٣. الأنبياء (٢١): ٩٢.

فلا تقولوا بعد اليوم: هذا شيعي، وهذا سنّي، بل قولوا: هذا مسلم، فالشيعة والسنّة فرّقتهما السياسة، وتجمعهما السياسة، أمّا الإسلام فلم يفرّق ولم يمزّق، الإسلام جمعهما بـ« أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله »، بـ« إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة »، بـ« صوم الشهر وحجّ البيت »، بـ« الإيمان باليوم الآخر »، بـ« إحياء ما أحياه الكتاب والسنّة »، بـ« إماتة ما أماتاه »، بـ« تحقيق ما حقّقاه »، بـ« إبطال ما أبطلاه ».

ولا فرق بينهما إلّا كالفرق بين مذهب ومذهب من المذاهب الأربعة، ولكلّ من هذه المذاهب مفاهيم مستقاة من كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، ومن تأوّل فأخطأ فله أجر واحد، ومن تأوّل فأصاب فله أجران.

ذلك هو الإسلام السمح في محجّته البيضاء، وشريعته السهلة السمحاء، فليكن المسلمون مسلمين كما أراد الإسلام، سيراً على محجّته، والتزاماً بكتابه وسنّته.

أيّها المؤمنون: إنّكم مدعوّون بحكم الإسلام وحكم القرآن إلى وحدة لا تنفصم عروتها، وأُلفة لا يستباح ذمارها، وإنّكم مؤهّلون فيها بحكم الإسلام، ونصّ القرآن لتوطيد السلام وتأكيد الوئام بينكم وبين طوائف هذا البلد الذي اتّخذتموه سكناً، ورضيتم به وطناً، وليكن القرآن سفير صدق بينكم وبينهم يعلن قول الله سبحانه: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1] إنّه مرسوم من ربّ الأرباب، ومالك الرقاب، يأخذ بأعناقكم إلى مودّتهم، لأنّهم أقرب الناس مودّةً لكم.

فإلى الوئام والسلام، تتوقّلون بهما معارج الشرف، وتطأون أعراف المجد، وتجعلون بلادكم وقد أربت على الأكفاء، وتميّزت عن النظراء تستار بسيرتها الشعوب، وتأتمّ بهديها العقول والقلوب.

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾[2].

---

١. المائدة (٥): ٨٢.

٢. انظر الموسوعة ج ٩، والآية في سورة آل عمران (٣): ١٩٣.

الحجّ التاريخي للإمام شرف الدين سنة ١٣٤٠هـ

لقد كان الإمام شرف الدين قد عقد العزم على حجّ بيت الله الحرام أكثر من مرّة، ولكنّ المقادير كانت قد حالت بينه وبين ما كان قد عزم عليه.

وقد قدّر الله له أن يحجّ إلى بيته الحرام في وقت كان قد تألّق نجمه وطار صيته في البلاد كإمام كبير من أئمّة المسلمين، ومناهض عنيد للاستعمار، غيور على الإسلام والمسلمين. وبذلك قد مكّن له هذا الموقع الريادي أن يحتلّ موقعاً قياديّاً تاريخيّاً في موسم الحجّ في ذلك العامّ بشكل خاصّ.

فكان موضع حفاوة الملك وأولياء الأُمور من جهة، وموضع تقدير المسلمين والعلماء من جهة ثانية. وبذلك كان الموقف الرسمي للحجّ تبعاً لرأيه، والمسجد الحرام رهن إشارته في صلاته ونسكه.

ومن الحريّ أن نقف متأمّلين عندما كتبه بقلمه، وصوّره لنا من زوايا هذا الحدث التاريخي المهمّ في حياته وحياة أتباع أهل البيت عليهم السلام.

قال قدس سره:

كنّا إذا تشرّفنا بالمدينة الطيّبة سنة ١٣٢٨هـ نظنّ أن نوفّق في سنتها للحجّ، لكنّ الأحداث المختبئة في ضمير الغيب أخّرت ذلك إلى سنة ١٣٤٠هـ وفيها سهّل الله لنا أسبابه والحمد لله على ذلك.

في الباخرة

وحين أزمعنا وافتنا الباخرة «باركشير» إلى مرفأ صور، جاء بها مستأجرها راشد بك عسيران، وقد أعدّ لنا المحلّ الأوّل منها ذهاباً وإياباً مجّاناً، فكنت فيه معي ابن عمّي السيّد عليّ. وقد أقلع بها ربّانها يوم السبت الثاني عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤٠هـ ثامن تمّوز سنة ١٩٢٢م، وفيها من حجّاج العامليّين عدّة تربو على الثلاثمائة، وآخرون من غيرهم. وقد أحرمنا بالنذر بعد السويس وجدّدنا نيّة الإحرام عند محاذاة

الجمعة، وجدّدناها في كلّ من جدّة وحدّة احتياطاً.

وكنّا في تلك الباخرة كما نكون ونحن حاضرون نقيم الفرائض الخمس جماعة على ظهرها، فإذا فرغنا من ذلك فرغنا للحجّاج نتفقّدهم، فأجول بين أماكنهم المختلفة من الباخرة بإسعافات صحّيّة لمن يحتاج إليها ممّن أخذهم دوار البحر، أو أضرّهم اختلاط الأنفاس، وتكأدهم ضيق المكان. وكنّا نرفع من هؤلاء إلى السطح من يحتاج منهم إلى الهواء الطلق حتّى امتلأت باحة الدرجة الأُولى أمام غرفتنا، وضاق بهم الربّان ذرعاً، غير أنّه لم يكن في وسعه المعارضة. وكنّا نلقي على الحجّاج دروساً في مناسك الحجّ وما إليها من حكم وأسرار.

في جدّة

كنّا كذلك حتّى انتهينا إلى جدّة، وما إن نزلنا منها منزلنا الرحب حتّى زارنا رئيس حكومتها «القائمقام» الشيخ عبد الله زينل في ثلّة من الأجلّاء فيهم رئيس البلديّة وناظر الجمرك فرحّبوا بنا، واختلف إلينا كلّ من الشريف طه ومحمّد ناصيف وكيل الإمارة في جدّة والأديب قسطنطين يني اللبناني، يلتمسون أنّ نكلفّهم بخدمة فقابلنا التماسهم بالشكر.

وفي اليوم الثاني عاد إلينا القائمقام زائراً ومرحباً ومهنّئاً باسم الملك، وقد حمل إلينا عنه من العواطف ما كنّا نحرزه بشيخ الأبطح وسيّد الهاشميّين في هذا العصر.

ثمّ جاءنا أحد قوّاد الجيوش موفداً من الملك ليكون في ركابنا إلى أُمّ القرى، فكان معنا في جدّة إلى حدّة ومنها إلى مكّة أعزّها الله تعالى، وأنزلنا بستاناً للملك في حدّة ملتفّ الأشجار وقانا بوارف ظلاله وسمين أفيائه وتسلسل مائه المنساب في جداوله ما كنّا نحذره من ذلك الجوّ القائظ العنيف بسمومه. ونزل الحجّاج يومئذٍ في البحرة ـ أو البحيرة ـ وهي رملة واسعة غربي حدّة فيها أكواخ قشّ جعلت محطّة بين جدّة ومكّة، يمكث الحجّاج فيها سحابة النهار تصهرهم الشمس على غير ماء إلّا الآجن، وقد مات فيها من شدّة الحرّ والعطش نساء ورجال كثيرون، وكان العنت فيها عامّاً، فالحمد لله الذي عافانا ممّا ابتلى به غيرنا ولو شاء لفعل.

في مكّة «معقل النبوّة الناهد»

أقبلنا على مهبط الوحي فأقبلت علينا منه معالم التاريخ تتواكب في ذلك الأُفق الكريم، وتنبعث فيه أرواح السماء التي كانت تتنزّل على سيّد البشر في تلك الشعاب الرفيعة من مهد الرسالة الغرّاء، ومصدر النبوّة الناهد بها محمّد ﷺ إلى الدنيا في زحف كزحف النور على تجاليد الظلام وقطعه الدوامس.

ذكريات مكّة

ما أكرم تلك الذكريات المتألّقة في مدارج سيّد النبيّين من ثرى مكّة، وكلّ شيء في مكّة عليه من سيّد النبيّين وخاتم المرسلين آثار تفتح للذهن وجوهاً للتفكير، وترسم صوراً للإدكار، تشرئبّ من هالاتها النورانيّة رؤوس، وتتلألأ ثغور تأخذ بالأبصار والأعنّة، وتنقل النفوس من دنيانا الهيّنة هذه إلى دنيوات الفتح والجلال والقدس.

يوم كانت مكّة تتدفّق برباها وشعابها في أطراف الجزيرة، ثمّ تتّسع وتمتدّ فإذا هي نطاق يتجاوز هذه الرقعة من الصحراء إلى عالم رحب أرحب من الفكر بعيد أمد من متناول الطموح، وإذا هذا النطاق يخرج من معناها الجغرافي المحدود إلى معناها العُلوي الذي لا يحدّ، ولا تجد الدنيا البعيدة مهرباً منها وهي تمتدّ سريعة خفيفة لتعقد طرفيها المنطلقين وراء الآهل المسكون من هذه الكرة.

هذه مكّة تنشئ الشرائع والحضارات، وتظفر بالنقطة الوسطى من عالم التمدّن فتمتدّ منها طرق، وتبتدئ منها الخطوط إلى حيث تشاء من أجزاء هذا العالم وعواصمه، وتكون نقطة المبدأ في مقاييس القرب والبعد بعد أن كانت تتنكّب الطريق عن المناهل والحضارات نائية في تلك الشعاب القاحلة الظامئة، لا يمرّ بها القياس العالمي ولا هي منه في شيء.

هذه مكّة يتموّج في جوّها صوت الرسالة، فتسبح هي منه في لجّة طهرت طبيعتها من أوضارها الطارئة، وجلَت جوهرها المدّخر من صداه المركوم، ثمّ تسبح معها يثرب، ثمّ يتجرّد الحجاز فينضو عنه ثيابه الخلقة المرذولة بين يدي هذه اللجّة الهاجمة، ثمّ

تتلاصق المدن والأقطار، فلا تظلّ مدينة مشت حول أسوارها خيول الإسلام إلّا عادت جزءاً من أجزاء مكّة، تخوض معها في هذه اللجّة المشعشعة المباركة، رعى الله مكّة وحماها.

لقد استأثر بي تاريخها ساعات هنيئة، فحملني على أجنحته، ومضى يخفق بي في أجواء وددت أنّي لم أعد منها إلى هذا الجوّ، وتمنّيت أن أظلّ على تلك الأجنحة أطوف بها في مهابط الوحي على مهل، وأسعى في طلول الأمجاد على آثار محمّد وعلي والميامين من آل النبيّ وأصحابه، وأحيا منهم حياة روح لا تفاجئها هذه المنغّصات من أحداث الزمن التي عادت بمكّة إلى عهد تقلّص في نطاقها.

وها أنا أنزل عن أجنحة التاريخ في خشوع يشترك بإنشائه في نفسي جلال الذكرى وقدس المكان، فأهبط في دار من شعب عامر، لا تبعد بنا عن أطياف المجادة، ولا تتوارى عن كبرياء التاريخ.

ولا بدّ لنا ونحن من أبناء الحياة الحاضرة أن نتجرّد من التاريخ لنعود تاريخاً، حين تستقبل منّا الأجيال القادمة ما استقبلناه من الأجيال الماضية.

وها نحن في مرحلة تتوثّب إلى أن يكون لها شأن نستوحيه من شأن مكّة.

وللعرب في كلّ مكان ـ ولا سيّما في مكّة ـ نزوع إن اختلفت تفاصيله، فإنّ مجمله متّفق على الوثوب إلى التاريخ من حاضرهم الهيّن.

مظاهر احترام الشريف حسين للإمام شرف الدين

وكان احترامه لنا ذا مظاهر مختلفة بعضها شخصي وبعضها نوعي.

فمن الشخصي أنّه: أمر بوضع «بروتوكول» لاستقبالنا منذ دخلنا الحجاز حتّى خرجنا منها، فكان الاستقبال لنا من القائمقام والقائد في جدّة مستهلّ هذا المنهج الملكي الكريم.

ثمّ تشرّفنا بمكّة المعظّمة فزارنا باسم جلالته وزير الخارجيّة وقاضي القضاة في جماعة من الحاشية الملكيّة.

ثمّ اطّردت زيارة وزير الخارجيّة الشيخ فؤاد الخطيب بأمر جلالته في كلّ غدوّ ورواح،

عناية منه بنا ما دمنا نتفيّأ ظلال ملكه، الذي كنّا وكان المخلصون من أحرار العرب نتمنّى ويتمنّون أن يمتدّ فيشمل الجزيرة كلّها.

ثمّ كان من الخطّة التي أمر بوضعها أن يلازمنا رئيس الشرطة فيكون في حاجاتنا عند اللزوم، كما أنّ الخطّة شملت سدنة البيت وخدّام الحرم، فكنّا حين نقبل يجتمع منهم نفر بين أيدينا يمهّدون الطريق ويفرّقون الزحام ليسهّلوا علينا الطواف والقيام بأعمالنا العباديّة من واجبات ومستحبّات.

ووراء هذا المنهج الرتيب وجّه إلينا دعوات عديدة، وكانت لنا مع جلالته اجتماعات خاصّة في بيته، وأُخرى عامّة، حمدنا له فيها خُلقه الرفيع، وحفاوته البالغة.

غسل البيت الحرام مع الشريف حسين

وكان من عادته أن يغسل البيت الحرام بنفسه في الموسم من كلّ سنة، وقد آثر في موسمنا أن نشاركه في هذا الشرف الرفيع ففعلنا ذلك.

ودلّني على كلٍّ من الملتزم ومحلّ ولادة أمير المؤمنين، وصلّى في كلّ منهما ركعتين، وصلّينا في كلٍّ منهما ركعتين مبتهلين ثمّة إلى الله تعالى بما تيسّر من الدعاء، والحمد لله على التوفيق.

واحتفل بنا في مأدبة أقامها على شرفنا في الثكنة العسكريّة، ودعا إليها وجوه الحجّاج من سائر الأقطار الإسلاميّة، وكان قد دعانا قبل ذلك مرّتين إلى مأدبة خاصّة بنا في بيته.

الاستعراض العسكري

وأمر أن يعرض الجيش عرضاً عامّاً تكريماً لنا، فعرض في صحراء جرول أمام الثكنة العسكريّة، وكنت إلى جنب جلالته خلال الاستعراض أتشوّف إلى المعدّات والأسلحة وراء ذلك الجيش الجرّار الذي لم تجرِ الأقدار حسبما أراد وأراد له ملكه المنقذ.

ألا فليجز الله وجوه السوء من ذوي الخيانة والخداع، وليجز الله سياسة لا يسرّها الصدق والإخلاص والصلابة في الحقّ.

وعلى كلّ حال فهذه خلاصة سريعة للحفاوة الشخصيّة التي لقيناها من جلالة الحسين بن عليّ في حجّنا.

الاحترام المتميّز للشيعة

وأمّا المظهر النوعي في حفاوته فيعرف وصفه من كان في الموسم تلك السنة من سائر الحجّاج، وقد كان الشيعة كلّهم ذوي احترام ملحوظ على نحوٍ لم يعهد قبل تلك السنة ولا بعدها، وكان من هذا الاحترام أنّه لم يعلن ثبوت الهلال حتّى ثبت لدينا بشهادة التواتر من أصحابنا.

إمامة المسلمين في المسجد الحرام

كنّا نصلّي الفرائض الخمس جماعة في المسجد الحرام وفي مسجد الخيف وفي مسجد جدّة، في جماعة لم يعهد ثمّة نظيرها للشيعة في تاريخهم.

وكنّا نعمل في مواقفنا كلّها عمرةً وحجّاً حسبما يقتضيه مذهب أهل البيت في غير حرج ولا ضيق.

وكان منزلنا في شعب عامر، وبيتنا المطنب المضروب على عرفات ومنى، مأوى لهذه الجموع الغفيرة يختلفون إليه ويريحون به، يأخذون منه ما هو محلّ ابتلائهم من الأحكام الشرعيّة، ويستمعون إلى قراءة التعزية وأحاديث الوعظ والإرشاد كأنّهم في حواضرهم من عاملة والعراق وإيران وأفغان والهند وزنجبار.

وإنّي لأحمد الله تعالى على ما هيّأ لنا في تلك المواقف المحمودة التي سجّلت للأُمّة مظهراً من مظاهرها الكريمة في حديث تحفظه الجماهير الغفيرة من حجّاج ذلك العام وتتناقله حتّى الآن.

مناظرات الإمام شرف الدين في الموسم

ولنا من الذكريات العلميّة في ذلك الموسم ثلاث مناظرات جديرة بالتسجيل على التفصيل لولا ضيق المجال.

أُولاها في الثكنة العسكريّة ليلة الدعوة العامّة الآنفة الذكر، كانت بعد الصلاة وتناول العشاء، وقد انتظم سامرٌ حافل بالخاصّة فذهبنا ندير الأحاديث ونتناول الكلام حتّى

انتهى المطاف إلى إسلام أبي طالب ﷺ، فكنّا في هذا الموضوع في معسكرين: كنت أنا في أحدهما، وكان مفتي برصة والشيخ عبد القادر المظفّر المقدسي ـ رئيس الوفد الفلسطيني يومئذٍ ـ في ثانيهما. وكانت لي أدلّة على إسلام «شيخ الأبطح» و«بيضة البلد» واضحة مجدولة، ما أنسى أنّ الملك حسين كان يتهلّل لها أُنساً وطرباً.

وثانيتها في مسجد الخيف من منى كانت بيني وبين أحد شيوخ النواصب إذ أنكر عليّ الإمامة وأنا شيعي في مسجد الخيف، فأجبته أوّلاً في هوادة ولين إيثاراً للحكمة وعملاً بآداب المناظرة النزيهة، لكنّه اضطرّني بجهله وشراسته إلى ردّه منكمشاً على نفسه مذموماً مدحوراً.

وثالثتها في مسجد جدّة ونحن عائدون إذ صلّى بصلاتي في المسجد الجامع أحد الفضلاء المصريّين فأخذ عليّ أُموراً في الصلاة لا يعرفها، كالتكبير عند التحليل من الصلاة، وكالقنوت في غير صلاة الصبح، وكوقوع القنوت قبل الركوع لا بعده، وكالصلاة على محمّد وآل محمّد بعد الذكر في كلّ ركوع وسجود، فأجبته عن مداركها المأثورة في صحاحهم. فكان أدنى إلى الذوق العلمي وأقرب إلى الحقّ من سابقه في مسجد الخيف.

وإن دلّت هذه المفاجآت على شيء فإنّما تدلّ على جهلهم بتفاصيل مذهبنا في ما يخالفوننا به من هذا الفرع.

تقصير يعين على الجهل

وإذا كنّا على عذرنا في عدم النشاط والنشر في زمن من الأزمان، فإنّنا اليوم مقصّرون في الخلود إلى الراحة، وهو تقصير يعين القوم على الجهل، ويساعدهم على استمرار هذا الشقّة التي لا يليق استمرارها بين الإخوان.

في العودة من مكّة

ودّعنا مكّة المعظّمة قبيل المغرب من يوم السابع عشر من ذي الحجّة، والقلب يهفو إليها، منوطاً بشعائرها ومشاعرها، ولوعاً بمليكها، مكبراً لأياديه نابضاً بشكرها.

فكان منزلنا في مرحلتنا الأُولى بستان جلالته في حدّة ـ حيث أقمنا سحابة ذلك

النهار ـ وظلاله الوارفة، ومياهه العذبة، تقينا شرّ آب اللهّاب، وتعيننا على أعمال ذلك اليوم ـ يوم الغدير ـ صلاةً وأدعيةً وزيارةً والحمد لله على التوفيق.

تابعنا السير في المساء فأصبحنا في منزلنا من جدّة، ومكثنا ثمّة إلى يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي الحجّة، وفيه أبحرنا قافلين فكنّا على حالنا في الذهاب من إقامة الفرائض الخمس جماعة وتفقّد إخواننا في الباخرة وما إلى ذلك من إسعافهم، حتّى رست بنا الباخرة في مرفأ الطور يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجّة، فوافانا الطبيب النطاسي سليم زيدان في ثلّة من أطبّاء الصحّة يحتفون بنا ويهنّئونا بالسلامة، ثمّ جاءت القوارب البخاريّة فنقلت الحجّاج إلى محلّ الحجر الصحّي من البرّ، لكنّني آثرت البقاء في الباخرة مدّة الحجر ومعي ابن عمّي ومن يختصّ بي، فكان الطبيب سليم زيدان يختلف إلينا في كلّ يوم بعلاجاته وهداياه التي كانت تلطّف علينا الجوّ القائض، ولم يألُ جهداً فيما هو أهله من الأخلاق واللطف.

إلى بيروت

ويوم السبت ثاني المحرّم الحرام سنة ١٣٤١ هـ كان منتهى الحجر، فمخرت بنا الباخرة تطوي الخضمّ في سيرها تجاه بيروت حتّى رست في مرفئها صباح الثلاثاء خامس المحرّم، وقضت المراسيم الصحّيّة أن ندخل الحجر الصحّي ـ الكرنتينا ـ ثلاثة أيّام، لكنّا لم نفقد في الحجر شيئاً نحتاجه من أسباب الراحة، كما أنّا لم ندخل إلى المبخرة التي كانت محتومة على كلّ هابط من البحر إلى البرّ.

مراسم المحرّم الحرام في أيّام الحجر

ولم يضق الحجر الحرج عن أن يتّسع لمراسم المحرّم الحرام التي أقمناها فيه كما نقيمها في صور احتفالاً بكلّ شعائرها.

وقد رأينا بفضل الله تعالى في الحجر وفي طريقنا إلى صور من كرم هذه الأُمّة ما عوّدتنا عليه في كلّ مناسبة من مناسباتنا الكثيرة.

وكان استقبال، ثمّ كانت حفلات غرّ جمّة المشاعر والأحاسيس.

حفلات الاستقبال

ولنترك حديث ذلك إلى ما جاء منه في كتاب كتبه لنا الأُستاذ الحوماني نشره في عدد ٢٢ من عروبته فقال في الصفحة ١١٧ وهو صاحب علينا:

وشهدت بنفسي يوم حجّك الأكبر إذ عدت منه، وتهافتت الطائفة على مرفأ الحجّاج ـ الكرنتينا ـ تستقبلك بوجوهها الباسمة، وكان السعيد الأكبر من يفوز منك بنظرة، وأسعد منه من يلثم أناملك من وراء الحديد، وأسعد من هذا وذاك من بلغ بواسطةٍ الدخول إليك وإدخال الفراش لك، وكان أسعد من أُولئك جميعاً من فاز بدعوتك إلى منزله يوم تخرج من الحجر. كان ذلك على إثر شيوع خبرك في الحجاز واحتفاء السلطان حسين بك احتفاءً لم يجره للملوك، وقد كان معك آنئذٍ العلّامة الأمين، وكثير من العلماء غيره، ولكنّهم لم يشعر بهم أحد من حكومة الحجاز [1].

الإمام شرف الدين في محرّم الحرام سنة ١٣٤١

تعتبر مراسم عاشوراء منطلقاً أساسيّاً من منطلقات الإسلام المحمّدي الذي قرّره الرسول الأعظم ﷺ حين قال للمسلمين جميعاً: «حسين منّي وأنا من حسين» [2] وبهذا أصبحت ثورة الإمام الحسين السبط رمزاً للعزّ والإباء والإصرار على الحقّ ومقاومة الباطل بكلّ صوره وأشكاله.

ومن ثورة الحسين استلهم الإمام شرف الدين وأبناء الجبل دروس المقاومة والصمود.

وخلال السنوات العشرين التي قضاها الإمام شرف الدين في صور والجبل مع سيّده الحسين في كلّ عاشوراء، والدروس الكبرى التي قدّمها أبناؤه الغيارى، أصبحت مراسم عاشوراء ذات مغزى جديد للجيل الصاعد. وبذلك لم يسع الإمام شرف الدين

---

١. راجع الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٤٤ ـ ٦٥٢.

٢. سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ٥: ٦٥٨، ح ٣٧٧٥؛ سنن ابن ماجة ١: ٥١، ح ١٤٤.

إلّا أن يحتفل بهذه الذكرى الأليمة، ذكرى الإباء والشهامة والمروءة والصبر على الأذى في ذات الله وتوطيد النفس على ملاقاة الحتوف لإحياء أثر الدين مهما كانت الظروف والأزمات.

ومن هنا نجد هذا الإمام المقدام لا يفوّت هذه الفرصة الثمينة وهو في الحَجر الصحّي، حيث يجد نفسه قادراً على إقامة شعائر الموسم التاريخي.

وللمجالس الفاخرة التي كان قد رتّبها الإمام شرف الدين من قبلُ موقعها المناسب ومجالها المبارك، ليقوم بإصلاح ثقافي ملموس داخل المجموعة المؤمنة بأهل البيت عليهم السلام والتي أخذت عواطفها تقودها وراء عظمة المصاب، وإذا بالإمام شرف الدين يريد لهذه المآتم أن تبقى حيّة خالدة لا تخرج عن قيمومة العقل وحقائق التاريخ، ولا تسفّ بها عواصف العواطف ولا تشذّ عن الصراط المستقيم.

ويقول نجله المرحوم السيّد جعفر شرف الدين عن هذه النقطة بالذات في سيرة والده الإمام شرف الدين:

> إنّه رضوان الله عليه كان يقوم في كثير من الأحيان مقام المقرئ الحسيني، معتمداً على استخراج العبرة من هذه الثورة النوعيّة، لا على استدرار العَبرة حزناً وأسفاً. فالحسين لا يُبكى عليه بل يُقتدى به[1].

إنّ كتاب «المقدّمة الزاهرة» الذي ألّفه الإمام شرف الدين قبيل الحرب العالميّة الأُولى أو في إبّانها، يكشف لنا عن الهاجس الذي كان يعيشه هذا الإمام المصلح تجاه أكبر ثورة صنعها سيّد الشهداء أبو الأحرار وسيّد أهل الإباء الإمام الحسين عليه السلام وما كان يطرأ عليها بمرور الزمن من محاولات الغلوّ أو التحريف، أو محاولات التسفيه والتكفير التي يقوم بها شرذمة ممّن لا يعي رسالة الدين، ولا يفهم شعائره التي تغذّي الروح والعقل والمنطق والعاطفة سواء بسواء.

إنّ «المقدّمة الزاهرة» تعبير عن محاولة إصلاحيّة أساسيّة داخل المذهب، وهي ردٌّ

---

١. أُنظر السيّد جعفر شرف الدين؛ سيرة مجتمع في سيرة رجل: ٦١.

على التحدّيات التي كان يقوم بها شذّاذ الفرق المتطرّفة باسم التوحيد وباسم الإسلام.

وتأتي المجالس الفاخرة كنماذج تطبيقيّة للمنهج الإصلاحي الذي رامه الإمام شرف الدين في مجال تهذيب المجالس الحسينيّة ممّا علق بها، ممّا لا يتناغم مع أُصول المذهب وحقائق الدين الحنيف، نتيجة إحجام العلماء الأبرار عن الدخول في هذا الميدان الاجتماعي التوجيهي والعاطفي، فضلاً عن أهمّيّة استغلاله للإصلاح السياسي والتربوي في كلّ عصر ومصر.

وقد تصدّى الإمام شرف الدين ـ هو والواعون من العلماء الذين عاصروه كالسيّد محسن الأمين العاملي ـ لعمليّة التهذيب والإصلاح الرائدة في هذا المجال، فكتب الإمام شرف الدين المجالس الفاخرة، وكتب الإمام السيّد محسن الأمين العاملي المجالس السنيّة، غير أنّ مجالس السيّد شرف الدين قد بقي منها شيء يسير ممّا حفظ وبقي في ذاكرة الخطباء الذين ربّاهم الإمام شرف الدين على منهجه الإصلاحي، ولعلّ ما كتبه السيّد بنفسه قد سُرق أو أُحرق في جملة ما أُحرق من كتبه في حوادث احتلال صور بواسطة الفرنسيّين، حين ثار عليه بشَعبه ولم يشأ مجاراة المحتلّين المعتدين.

وأمّا مجالس الإمام السيّد محسن الأمين العاملي فقد طبعت في حياته، وبقيت مجالس حيّة يتداولها الخطباء وينتهلون من نميرها، وهي تعبّر عن خطّ إصلاحي واحد قام بِه هذان الإمامان الجليلان، بالرغم ممّا أُشيع عنهما من مواقف متباينة تجاه الشعائر الحسينيّة، ممّا يشير ذلك إلى أنّ أصابع التحريف في المجال الإعلامي كانت تلعب دوراً مهمّاً في إيجاد الخلاف والتفرقة بين علماء وأبناء الطائفة الواحدة، وفي الظروف العصيبة التي كان المستعمرون المعتدون يكيدون للإسلام والمسلمين كلّ كيد، ويخطّطون من أجل إحكام القبضة على بلاد المسلمين واستعمار المسلمين واستغلالهم لتحقيق مآربهم وأهدافهم التوسّعيّة الخبيثة.

ولعلّ الإمام شرف الدين، بعد الاستقرار النسبي في صور، وبعد أن خمد لهيب

الثورة العارمة بعد الانتداب بشكلٍ نسبي، وبعد ذاك التشريد والنفي العام للثوّار، وبدء عهد جديد من المقاومة ضدّ المستعمر الكافر. رأى أن يبدأ مرحلة جديدة من الإصلاح والإعداد لجيل بل لأجيال تقوم بمهمّتها الرساليّة لتطهير بلاده من مخالب الاستعمار التي نشبت فيها.

وتعتبر سنة ١٣٤١هـ سنة مباركة للسيّد الإمام شرف الدين، حيث حباه الله بسادس أبنائه وهو السيّد يوسف شرف الدين تسميةً له باسم والده المغفور له، بعد أن كان قد رزقه الله خامس ولده ألا وهو السيّد جعفر شرف الدين إبّان حوادث الثورة العامليّة ضدّ الفرنسيّين في سنة ١٣٣٨هـ.

وها هو الإمام شرف الدين في السنة الواحدة والخمسين من عمره المبارك وقد كرّمه ربّه بستّة أشبال من آل رسول الله ﷺ.

الباب الخامس

الإمام شرف الدين والنهضة الثقافيّة

الفصل الأوّل

شرف الدين بين الواقع المأساوي والتطلّع الرسالي

لقد حلّ المستعمر الكافر ـ بقوّة الحديد والسلاح المتطوّر ـ في بلاد المسلمين واقتسمها، وأخذ يصادر خيراتها ويتحكّم في رقاب أهلها، فارضاً عليهم هيمنته السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة، وجثا على صدورهم وخنق أنفاسهم، وبدأ بتنفيذ مخطّطه الثقافي الصليبي الماكر تحت شعار التثقيف والتعليم المتطوّر، والتطلّع إلى الحرّيّة والتقدّم التكنولوجي، وهو يضمر العداء البغيض ويستهدف الاستحالة الثقافيّة ومسخ الهويّة الإسلاميّة وتمييع الشخصيّة المسلمة، التي وقفت صامدة أمام جبروته وسطوته، ولقّنته درساً لن يُنسى في الصبر والتضحية والاستقامة وتحمّل المحنة.

وهكذا لمس الإمام شرف الدين بكلّ وجوده أنّ هذه الحرب الصليبيّة في واقعها ملحمة ثقافيّة، وأنّ المخطّط الماروني لا يستطيع أن يحقّق آماله وأهدافه إلّا بعد إحكام عمليّة المسخ الثقافي للهويّة الإسلاميّة للأجيال اللاحقة من أبناء المسلمين.

ومن هنا جدّ واجتهد ورابط في هذا الثغر الثقافي بشكل خاصّ، وراح يخطّط لإنشاء مدارس حديثة تتولّى مهمّة تربية النشء الجديد، وتحصّنه ضدّ السموم القاتلة التي بدأ يبثّها المستعمر الصليبي من خلال المدارس الحكوميّة الحديثة تحت شعارات العلم والتقدّم تلك الشعارات البرّاقة الخدّاعة.

وذهبت كلمته الحكيمة مثلاً يضرب في أرجاء العالم الإسلامي: «لا ينتشر الهدى إلّا من حيث انتشر الضلال».

وعكف على تأسيس الكلّيّة الجعفريّة وتوسعتها، وأخذ بزمام الأجيال الصاعدة

ليربّي الكوادر الكفوءة في هذا الميدان الثقافي للنضال، فإنّ التعليم كان هو السلاح الأساسي للمستعمر، كما كان هو المفتاح الوحيد للتخلّص من الاستعمار على المدى البعيد.

وهكذا كان، إذ كانت الكلّيّة الجعفريّة بفروعها تأسيساً حضاريّاً قويّاً شامخاً رغم كثرة الموانع وضعف الإمكانات والإمدادات.

وكانت «العرفان» منتدى للتطلّعات الموجّهة والأقلام الناشئة والمجاهدة والمخلصة لدينها ولوطنها؛ لبثّ الوعي والثقافة الرساليّة أمام المدّ الثقافي الجارف.

وبالرغم من عدم تكافؤ الفرص والإمكانات والقوى، كانت «العرفان» ميداناً مهمّاً للصراع، وحقلاً للمباراة والمناورات الثقافيّة بين المعسكرين الغربي والإسلامي، ومنتدى لاجتماع الأقلام المتطلّعة إلى الغد المشرق، وملتقى للأفكار الإسلاميّة الواعية، ومجمعاً للهموم الرساليّة الهادفة.

وقد ساهم الإمام شرف الدين بكلّ حوله وقوّته لدعمها ولتنشيطها، كما استخدمها منبراً لإيصال صوته إلى العالم العربي والإسلامي، وبذلك تجاوز حدود لبنان والبحر المتوسّط إلى شمال غرب القارّة السوداء والشرق الإسلامي البعيد. فكان شرف الدين شرفاً للدين حقّاً، وكانت مقالاته وبحوثه منتجعاً للعلماء والمثقّفين وريّاً للعطاشى الذين أظمأتهم هواجر الوضع الاستعماري الخانق، وأقلقهم المسخ الثقافي الجارف.

وهكذا بدأ النشاط الثوري الصامت، وهدأ الهدير حين تحوّل إلى طاقة ثقافيّة تخترق العقول وتأخذ بالألباب؛ لتصنع النفوس المؤمنة وتربّي القلوب المفعمة بالإيمان والإخلاص، وتزكّي الأفكار المسلّحة بالوعي والثقافة الحديثة والمتمكّنة من ثقافة المستعمر والمشرفة على خططه ومؤامراته.

وبعد تطواف طويل وجهاد ثقافي كبير، وجولات متتالية من الصراع الرسالي، وأجيال متتابعة من خرّيجي هذه المدارس الإسلاميّة ـ الذين أصبحوا نجوماً لامعة في سماء هذا البلد المسلم. ورغم كلّ أنواع الحصار والضغط السافر والمستتر... ـ وإذا

بالسحر ينقلب على الساحر، وتسقط الأقنعة عن الوجه الكريه للمستعمر الغادر، وتصبح لبنان المسلمة منطلقاً لحزب الله، بيد ضاربة على أيدي العملاء وأسيادهم من الصهاينة وحلفائهم من الموارنة ومن لفّ لفّهم وحذا حذوهم، لمصادرة أراضي المسلمين وسرقة تراثهم واستعمار عقولهم وأفكارهم وسلب ثرواتهم وطاقاتهم، بعد أن تفجّرت الثورة الإسلاميّة الكبرى في شرق لبنان المسلمة بقيادة الإمام روح الله الموسوي الخميني ﷺ، إذ كان خطّ الخميني هو خطّ أهل البيت الرسالي الذي حمل لواءه ومشعله الإمام شرف الدين ومن تبعه من أعلام الأُمّة في لبنان والعراق، وهم يرون أنّ جبهة الكفر واحدة، وأنّ المواجهة الحقيقيّة هي مع الإسلام المجاهد والروح المتطلّعة إلى الغد المشرق، الذي زرع بذوره السيّد جمال الدين الحسيني المشتهر بالأفغاني، وسقى نبته كلّ من وعى حقيقة الظرف وأدرك عمق المأساة التي أنزلها المستعمر الصليبي بالمسلمين.

الفصل الثاني
المؤسّسات الثقافيّة والمشاريع التربويّة للإمام شرف الدين

كان المسجد في صدر الإسلام أوّل مركز عبادي تثقيفي تربوي وأصبحت الحسينيّة ـ فيما بعد ـ تشاطر المسجد في هذه المهامّ باعتبار اختصاص المسجد بأحكام وآداب ينبغي مراعاتها احتراماً لبيت الله المسمّى بـ«المسجد» إذ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ للهِ﴾[1].

ونظراً لهذه الأحكام اللازمة المراعاة من جهة، وضرورة وجود مركز ومجمع يستوعب الناس في مختلف ظروفهم وأحوالهم، ويسمح فيه بالدخول للممنوعين من دخول المسجد ليشاطروا أبناء مجتمعهم في اجتماعاتهم كمجالس العزاء والفاتحة وإقامة مجالس الفرح وغيرها، ممّا لا يمكن أو لا يناسب الاحتفال به في المساجد، أصبح إنشاء مثل هذه الأماكن التي عُرفت بالحسينيّات أو غيرها من الأسماء أمراً لا مناص له في المجتمعات الشرقيّة الإسلاميّة التابعة لأهل بيت الرسالة في ولائها، إذ يتواصل فيها أبناء هذه المجتمعات فيما بينهم.

وانطلاقاً من هذه الضرورات بدأ العلّامة شرف الدين نشاطه التثقيفي والتربوي لأبناء جبل عامل بما أشاده من مسجد وحسينيّة؛ ليجتمع فيها المسلمون في المواسم

---

١. الجنّ (٧٢): ١٨.

والمراسم وتقام فيها الصلوات والاحتفالات.

ولكنّه كان يرى ويلمس النشاط التبشيري والتعليمي الذي يقوم به أعداء الإسلام في بلاد الإسلام من خلال فتح معاهد علميّة تتولّى تربية وصياغة العقليّة المسلمة صياغة منحرفة.

فماذا يعمل؟ وكيف يواجه هذا الانحراف السافر؟ وكيف يعالجه؟

قال ﷺ:

كنّا نرى إخواننا المؤمنين في صور يزجّون بكرائمهم إلى أحضان مدارس البروتستانت، يحوطهنّ المبشّرون والمبشّرات بالحضانة المسمومة والثقافة الموبوءة، ويفرض عليهنّ عبادة غير الله تعالى في كلّ يوم مرّتين، فيتخرّجن خوارج على مقدّسات مبادئنا. وأقلّ ما نصاب بهنّ خلع جلباب الحياء، وإماطة قناع الخفارة، وإلقاء شعار الحشمة، وإبراز صفحة الوقاحة، ونضب ماء الوجه، وما وراء هذه الصفات[1].

وقال أيضاً:

دهمنا الغرب بخيله ورجله، وأناخ بكلكله، وضرب بجرانه، فاستحوذ علينا دخولاً في مدارسه، وإصغاءً إلى وساوسه، فاندفعنا نزجّ بأفلاذ أكبادنا إلى أحضانه ... حتّى إذا خرج الجيل الأوّل من شبّان الجيل المأمول، علمنا أنّ الخسارة أكبر من الربح والإثم أكبر من المنفعة ... قد خسرنا فيهم الروح الشريفة، والمبدأ الحقّ، والأخلاق السامية، والإخلاص الواجب، وجهّزنا منهم سلاحاً يصيب نحورنا .. فكنّا في تعليمهم هذه المعارف المسمومة كالباحث عن حتفه بظلفه .. وتلك مصيبة ما مني الإسلام والشرق بمثلها[2].

فهو قبل إنشائه للكليّة الجعفريّة كان يشعر بضرورة إنشاء مثل هذه المؤسّسة التعليميّة، فضلاً عن ما كان يراه من تكالب المستعمرين لسرقة أبناءنا من أحضاننا ومن أحضان الإسلام، وغسل أدمغتهم وتفريغ عقولهم من رشدها، وملئها بالثقافة المسمومة.

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٦٩، التعليقة (٢).

٢. المصدر: ٥٦٠.

البذور الأُولى لمؤسّسات الإمام شرف الدين الثقافيّة

قال ﴿﴾ :

كنت من بعيد أُفكّر في إنشاء معهد علمي يضمن تربية أبنائنا تربية مستقلّة بأخلاقها الإسلاميّة وأهدافها الإماميّة ومثلها العليا من المعارف ما تفرضه المعاهد العصريّة، وتمتاز بالروح المقدّسة المحمّديّة والحفيظة العربيّة الهاشميّة المستقلّة، وتلك هي القوّة المعنويّة المرجوّة للفتح المبين والبعث الجديد[1].

وهكذا اجتمع لدى العلّامة باعثان للاهتمام بإنشاء معاهد علميّة تجمع بين الحداثة والأصالة، وتفوّت على الأعداء خططهم الخبيثة في مسك زمام أُمور المسلمين من خلال تربية أبنائهم تربية استعماريّة، حين تصنع منهم شخصيّات منبهرة بثقافة الغرب وحضارته.

ويبدو أنّ هذا القلق كان يراوده قبل نشوب الحرب العالميّة الأُولى، وجاءت أحداث الحرب وإفرازاتها من الانتداب والثورة ضدّ المستعمرين لتشلّ من عزم هذا المصلح ولتفوّت عليه الفرص، ولكنّ صلابته وإخلاصه رغم قساوة الظروف لم تفتّ في عزمه ولم توهن جَلَده، بل جعلته يسعى ويجتهد لبناء كيان وصرح علمي جديد إيماناً منه بأنّ الهدى لا ينتشر إلّا من حيث انتشر الضلال. هذه الكلمة القيّمة التي ذهبت مثلاً يضرب، وتنسب إلى الإمام شرف الدين ـ دون غيره ـ في كلّ نادٍ ومحفل.

قال ﴿﴾ :

كنّا نشهد المتخرّجين من تلك المعاهد المسمومة فنضيق ذرعاً ... وفي مصارعة هذا التيّار أوحى إلينا الواجب الديني أن نقوم بتأسيس المدرسة الجعفريّة على الشرط الذي كنّا نفكّر فيه من بعيد[2].

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٥٧.

٢. المصدر: ٥٦١.

تأسيس الكلّيّة الجعفريّة

وقد أنتجت جهود هذا الإمام المصلح حين صمد أمام كلّ الصعاب ليشيد صرح المدرسة الجعفريّة التي آتت ثمارها بعد لأي، فقد بدأت بنشاطها في سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م قبيل الحرب العالميّة الثانية، واستمرّت ناشطة حتّى لحقتها مدارس أُخرى للبنين والبنات محتذية خطاها ومقتفية منهجها.

دور الكلّيّة الجعفريّة في جبل عامل

لقد كتب عن دور الكلّيّة الجعفريّة مديرها الناشط وأمينها المجاهد السيّد جعفر نجل الإمام شرف الدين، فيما صرّح به من تقرير تفصيلي بعد سنين متطاولة تزيد على الستّين، وتكشف بوضوح عن دور هذه المؤسّسة المباركة وما تلاها من مدارس ومعاهد أورقت وأثمرت في جنوب لبنان ببركة هذا الغرس الطاهر.

قال رحمه الله :

إنّ الكلّيّة الجعفريّة في صور تلعب منذ نيّف وستّين سنة دوراً رئيسيّاً في توجيه الثقافة الوطنيّة بكفاءة عالية، وقد سجّلت في تاريخها الثقافي صفحات ناصعة أشرقت على جبل عامل مهندسين وأطبّاء وصيادلة ومحامين وأساتذة جامعيّين، ويكاد أن يكون جميع من يعمل في هذه الميادين في قضائي صور وبنت جبيل من خرّيجي الجعفريّة [١].

وسجّلت في تاريخها الوطني الدور الرئيسي في جبل عامل، وأقف عند الخمسينات التي حفلت بالصراع بين الصفّ الوطني وبين مشاريع الاستعمار التي قذفت بها الولايات المتّحدة إلى الساحة العربيّة، فخاضها الصفّ الوطني على الساحة اللبنانيّة بكلّ وعي وشجاعة حتّى انفجرت سنة ١٩٥٨م، وكان دور الجعفريّة قويّاً

---

١. أُنظر السيّد جعفر شرف الدين: ٤٥ ـ ٥٠.

فاعلاً لم يستطع تعطيله القمع والسجن.

وأستطيع أن أذكر أنّ شرارة الغضب التي عمّت لبنان بعد مقتل الصحفي المناضل نسيب المتني قد انطلقت من صور، ذلك أنّ طلّاب الجعفريّة أقاموا مهرجاناً للوحدة المصريّة السوريّة في بلدة «عيتيت» كان أبرز خطبائه حسين شرف الدين، وقد لفّقت السلطة زوراً وبهتاناً تهمة مسّ العلم الوطني، واعتقلت كامل بيطار وإسماعيل شام ومصطفى بيضون وفاروق حمادة، وساقتهم إلى المحكمة وأشهدت بعض عملائها كذباً وافتراءً، وأصدرت المحكمة حكماً بسجنهم ثلاث سنوات، فانطلقت أوّل مظاهرة من قاعة المحكمة في صور.

وتتابعت التظاهرات فسقط في إحداها ثلاثة شهداء هم: معن حلاوي ومحمّد قاسم وإبراهيم سلامة.

واعتقل في إحداها عشرات المناضلين أبرزهم: حسين شرف الدين وياسر نعمة. واعتقل في إحداها محمّد جمعة وعبد الرؤوف صفيّ الدين وسليم شغري وجمال قدادو، وجرح في إحداها حسين شرف الدين وحسن محيي الدين وعبدالواحد المغربي.

واستشهد في الخندق أبو إبراهيم زيدان وإبراهيم بيضون ومحمّد حمزة.

واعتقل قائد المقاومة الشعبيّة في منطقة صور المجاهد إبراهيم الرملاوي، وسيق السيّد جعفر شرف الدين إلى التحقيق.

وكانت السلطة قد اشتطّت في التصدّي للكلّيّة الجعفريّة حتّى أنّ بعض وزرائها ـ وكان نائب صور ـ اقترح إقفالها إلّا أنّ السلطة أخذت برأي وزير آخر اقترح انداب مفتّش تربوي تتصرّف الحكومة إزاءها على ضوء تقريره.

وبالفعل، فقد كلّف المفتّش الأُستاذ حاتم حيدر بهذه المهمّة فقام بها محقّقاً ومدقّقاً مع الإدارة والأساتذة والطلّاب وذويهم، ورفع تقريراً إلى الحكومة يخيّب آمال من تربّص بالجعفريّة الدوائر، بل يقترح مساعدة الجعفريّة على القيام بأعبائها الثقيلة.

وقد شنّ العملاء حملة مسعورة على الجعفريّة تتّهمها بإلهاء تلاميذها بأُمور لا تمتّ

إلى التربية والتعليم بصلة، وقد حمل بيان الجعفريّة سنة ١٩٥٩م جواباً على هذا الاتّهام الغبيّ الرخيص، وأُورد منه ما يلي:

الكليّة الجعفريّة نور من الله، ونور الله لا يطفأ؛ لذلك نقول للمتقوّلين والمتأوّلين: أليست الجعفريّة مصدر إشعاع ومركز هداية؟ أليست معقل الوطنيّة في المنطقة؟

وإذا كنتم تحسبون هذه المعطيات شغباً ولهواً، إذا كنتم تفهمون الجيل ترفاً وأناقة وشهادة فحسب، فإنّكم تريدون جيلاً تافهاً جباناً رعديداً.

الجعفريّة تضفي على طلّابها صفة الشخصيّة بكلّ ما فيها من قوّة وصلابة وخشونة في ذات الله والوطن والإنسان والمصير المشترك في دربنا الصعب الطويل، فخذوا من أعدائكم صفات الرجولة والفكر المنظّم إلى جنب العلم والمعرفة، فإنّهم بذلك انتصروا وإنّنا كنّا الخاسرين [1].

الجعفريّة وخطّ الجهاد

وإذا كانت أحداث ١٩٥٢ ـ ١٩٥٨م قد وضعت الجعفريّة على خطّ النار، فإنّها ليشرّفها أن مشت على النار مع الأحرار من مناضلي صور والجنوب، مشت على الخطّ الوطني الصحيح الذي مشى عليه شرفاء لبنان من أجل إعادة الأصالة اللبنانيّة في القوّة والمحبّة والتسامح.

هذا هو الخطّ الذي وضعها عليه مؤسّسها حين وضع لبنتها الأولى، يقول في بيان ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠م:

بلغ المسلمون والعرب على ضوء رسالتهم أبعد أشواط الحضارة، فملكوا أزمّة الدنيا العلميّة وعمروها حتّى مجاهل الأرض بملكهم السياسي العتيد، حتّى إذا هدأت تلك الفورة المرغية المزبدة وانكدرت سماء المسلمين والعرب، وغيّروا ما بأنفسهم غيّر الله بهم، فعاث الغاشمون بكتبهم ومكتباتهم المؤثّلة بأنفس الأسرار، وراحت الأُمم المغيرة تتصرّف بمقدّراتهم ومقدّساتهم. ودهمنا الغرب بخيله ورجله، فاستحوذ علينا دخولاً

---

١. السيّد جعفر شرف الدين: ٤٨ ـ ٤٩.

في مدارسه وإصغاءً إلى وساوسه، فاندفعنا نزجّ بأفلاذ أكبادنا إلى أحضانه... حتّى إذا خرج الفوج الأوّل علمنا أنّ الخسارة أكبر من الربح، خسرنا فيهم الروح والإخلاص، وجهّزنا منهم سلاحاً يصيب نحورنا، فالجهل أقلّ ضرراً من هذه المعارف الموبوءة المسمومة.

وفي الحقّ لقد خدعت أُمّتنا العزيزة حيث أرادت استرجاع مجدها بتعليم ناشئتها فدفعتهم إلى أحضان تلك المدارس، فأضاعت مجدها على وجهٍ آخر هو أتقن وأبرع، إذ تخرّجوا جنوداً علينا وعلى مقدّسات مبادئنا.

كنّا نشهد ذلك فينزل بنا همّ مقض. وفي مصارعة هذا التيّار أوحى إلينا الواجب أن ننشر الهدى من حيث انتشر الضلال، فنقوم بتربية أبنائنا تربية مستقلّة بأهدافها وأخلاقها ومثلها، تحمل من العلم ما تحمله المدارس العصريّة وتمتاز بالحفيظة العربيّة والروح الإسلاميّة، تلك هي القوّة المرجوّة للفتح المبين والبعث الجديد، وعلى هذا الأساس قامت الجعفريّة[1]. انتهى.

وإذا ذكرنا الجعفريّة فإنّنا نذكر «بناية المهاجر» للكليّة الجعفريّة التي شمخت صرحاً ممرّداً في صور بخالص تبرّعات المهاجرين اللبنانيّين بعامّة والعامليّين بخاصّة، قامت على أكتاف أُولئك الميامين في أفريقيا الغربيّة كما قامت كلّ مؤسّسه عامليّة عليها، وكما سمقت كلّ دارة في جبل عامل وارتفعت كلّ بناية جنوبيّة في بيروت، وازدهرت كلّ أرض في الجنوب وعمر كلّ بيت فيه.

هذا هو المغترب العاملي في أفريقيا الغربيّة، يتعب ليرتاح جنوبه ويشقى ليسعد ذووه، وقد خلد أبي ذلك على لوحة رخاميّة مثبتة في داخل مدخلها الشرقي وقد نقش عليها هذا الوسام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وفّقني الله سبحانه لبناء هذا الصرح سنة ١٣٦٩ للهجرة، وقد أسميته «بناية المهاجر» اعترافاً منّي بفضل أبنائي في أفريقيا الغربيّة. ثمّ وقفته معهداً علميّاً لناشئتنا الحبيبة في كلّ خلف من هذه الأُمّة».

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٥٩ ـ ٥٦٠ والسيّد جعفر شرف الدين: ٥٠.

«وإنّني أُسجّل بكلّ اعتزاز ما كتبه أبي على لوحة رخاميّة ثانية نقش عليها هذا الوسام ـ «بسم الله الرحمن الرحيم، وفّقني الله تعالى إلى إنشاء هذه المدرسة سنة ١٣٥٧ للهجرة وقد انبرى للنهوض بأعبائها ولدي «جعفر» فصرف إليها عزائمه ناصحاً وآثرها على نفسه مخلصاً حتّى سما بها والحمد لله إلى مصاف المعاهد الراقية فقرّت عيني وعين الأُمّة بنهضتها. وفّقه الله لما يوجب له الأجر وحسن الذكر مدى الدهر».

وكنت سافرت في سبيلها ثلاث مرّات إلى أفريقيا الغربيّة، السفرة الأُولى كانت مع أخي المغفور له السيّد صدر الدين موفدين من أبينا وذلك سنة ١٩٥٠، والثانية مع الأُستاذ علي سلامة أحد خرّيجي الجعفريّة سنة ١٩٥٤ والثالثة كنت منفرداً فيها سنة ١٩٥٦ وكانت حصيلة هذه الرحلات «بناية المهاجر» ولا أنسى في هذا الصدد مروءة السيّد محمود صفا الذي حرّك أريحيّة رجال الأعمال الجنوبيّين في بيروت فقدّموا للجعفريّة ما أعان على خاتمة بنائها. ولا أنسى أنّني في رحلاتي الثلاث كنت أرى في عمق الأحراج الأفريقيّة اللاذعة لدى العامليّين المكتوين بنار الغربة والوحدة: العرفان والراديو والبرّاد[1].

جهاد الجعفريّة الصامت

قال الإمام شرف الدين عن هذه المكرمة ما نصّه:

إنّ من الوفاء لهذه المؤسّسة العزيزة «المدرسة الجعفريّة» أن ننشر من جهادها الصامت صفحة تدلّ على معناها الذي أقامها على عنت الدهر في سنيّها المعصوصبة، وأمضاها على تهكّم الأيّام، وركزها على تقلقل الناس من حولها، بين جاحدين ومتقلّبين ومحاربين.

ونحن إنّما نريد بهذا الوفاء أن نحكي الواقع من شؤونها الحقّة، ونقرّها من هذا الواقع في مقرّها الحقّ، ليعلم ناس أنّ الإيمان وحده ـ وهو سلاحها العتيد ـ عدّة المؤمنين، فلا معوّل إلّا عليه، ولا نجاح إلّا به.

---

١. السيّد جعفر شرف الدين: ٥٠ ـ ٥١.

وكلّ سلاح بعد الإيمان سلاح مفلول، وحجّة عوراء، لا يبلّغان مأمناً، ولا يصمدان لوثبة .. ولينفخ الماديون في أبواقهم ـ بعدئذٍ ـ ما نفخوا، فهم من مغزى المدرسة الجعفريّة في سبيل يناقضها، يذهبون منه إلى شرافاتها الشامخة معانيّ من صفير الرياح الدارجة، وترسو هي في معاني الخلود الباقية، تمرّ بها الأعاصير والعواصف، ثمّ تتلاشى مرّة بعد أُخرى وهي هي الثابتة ثبوت الحقائق لا تتبدّل.

تجتاز أشواطها والحياة ممتحنة بأشدّ المكاره وأعوص عقد التاريخ، فتنتهي إلى كمالها الرائع ولكأنّها تصدر.

كلّ صعبٍ من هذه الصعاب جند مجنّد لشدّ أزرها.

فلو أنّ جهد المال والناصر، وجهد الزمان والمكان تظافرت على صنع نهايتها المصنوعة لما جاءت بأحسن منها، ولا أتمّ غاية؛ لأنّها لم تدّخر لنجاحها جهداً من تلك الجهود، وإنّما اعتمدت على جهد الصدق والإخلاص لله وحده؛ لتنشئ جيلها المرموق من الصدق والإخلاص لله وحده.

فإذا أنشأته على شرطها ـ وقد حشدت فيه موادّ الإنشاء ـ فإنّها يومئذٍ غنيّة بفتحها عن كلّ جهد من هذه الجهود الماديّة التي يلحظها الناس، ويقيسون بها مبادئ الأعمال ومعانيها ومدى آثارها، وكأنّ المدرسة الجعفريّة حين عارضها المتزعّمون ـ وهي في المهد ـ أرادت أن تكون الدليل على بطلان هذه المقاييس، وأن تنشئ ـ فيما تنشئ ـ مقياساً أدلّ على الفضل وأولى بالاتباع. وهذا هو المقياس المنتزع من الإيمان بالله، والإخلاص لوجهه تعالى، مع قوّة النفس وصالح العمل.

كذلك شاء الله أن تكون فكانت واجهة لا يضرّها ما يحدق بها ـ في صحرائها ـ من الأجادب والسباخ ولا يعديها.

بل كانت واحةً فيها من كلّ حسن معنى، ومن كلّ عطرٍ شذى، ومن كلّ قوّة مظهر. لم تكتفِ بسلامتها من محيطها الوبيء، حتّى خلعت عليه مطارف الحياة والصحّة.

فجرت في المناقع سلسالاً دافقاً، وفي الأجادب نماءً وارقاً، وفي السباخ خصباً خصباً.

يقول للعين: امتلئي وانعمي. وللنفس تزوّدي واغنمي. وللروح تسامي وتسنّمي.

ولو لم تكن هكذا لم تكن شيئاً؛ لأنّ معنى وجودها أن تكون كذلك. تساوى ـ إذن ـ وجودها وعدمها.

لكنّها ـ والحمد لله ـ وازنت بين وجودها وبين مهمّتها التي هي معنى كونها الصحيح فكانت منسجمة متوائمة، وكان أبناؤها في دوراتها المختلفة يبرزون في ميادين الامتحانات العامّة، ويسجّلون لمدرستهم أعلى نسب النجاح على نحوٍ يلفت إليهم النظر، ويثير فضول الممتحنين وأشباههم فيسألونهم عن مدرستهم المجلّية السبّاقة.

ولا نحيل ذلك على غيب، فمن شاء فليرجع إلى السجلات الرسميّة في مظانّها من وزارة المعارف؛ ليضع عينه ويده على حسّ مشهود ولا يدفع، فيرى ويلمس أنّها كانت في كلّ خطاها تطّرد في النجاح بكلّ من تقدّمهم للامتحان على نحو منقطع النظير.

غرست هذه المدرسة في نفوس طلابها المبادئ اللازمة للمسلم الإمامي العربي الذي بنى حياته العامّة على حياته الفرديّة الخاصّة، ويكون من أفراده الصلحاء مجتمعاً صالحاً، فإذا هم في قابليّة لفهم الحياة على أقوم قواعدها: تربية ذوق، وتهذيب سليقة، وترهيف حسّ. وجلوّ نظر. وسلامة عقيدة. بطرق قويمة ينتهون منها إلى اختيار حسن، وتفكير مستقيم، وشعور حيّ، وعين يقظى، وإيمانٍ بالله ورسوله واليوم الآخر متين.

طلاب المدرسة الجعفريّة معدّون لأن يكونوا بتوفيق الله تعالى رجالاً على هذا الشرط، وفيهم الآن من ذلك بذور نسأل الله تعالى أن تنمو وتُستَثمر.

ويومئذٍ يتوسّطون إن شاء الله تعالى في جيلٍ له رأيه. وله شخصيّته واستقلاله بنظره.

تلك هي الفكرة المختمرة التي أسّست المدرسة الجعفريّة. ورفعت سمكها، وجهّزتها بأكمل الوسائل الحديثة: فنّيّة وعمرانيّة وصحّيّة؛ ليتأتّى لنا غرضنا كما نريده صحيحاً لا مغمز فيه بعون الله تعالى[1].

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٦٤ ـ ٥٦٧.

موقع الجعفريّة الجغرافي وهندستها

قال ﷺ:

على قارعة طريق الداخل إلى صور والخارج منها تجثم المدرسة الجعفريّة في أجمل المواقع المرتفعة، جثوم المعقل المنيع في بناءٍ منيع محكم كبناء الحصون قوّة، وجمالٍ كجمال القصور نضارة.

تقوم هناك رفيعة الهام، شامخة العرنين، بعيدة النظر، واسعة الأجواء، تتمتّع بهذا الانطلاق الساحر في منظر سابح فوق الخضمّ من جنوبها وشمالها، سارح بين قمم الجبال العامليّة وبطون أوديتها، وفوق أديم السهول الساحليّة.

هناك تقوم مدرسة الإمام «جعفر الصادق ﷺ» على أحدث طرز من الهندسة، مؤلّفة ـ في الوقت الحاضر ـ من إحدى عشرة غرفة صحّيّة واسعة، وفسحة بينها تزيدها فراهة ونضارة.. ولا بدّ لنا من إنشاء غرف أُخر بمعونة الله تعالى تسع المزدحمين على أبوابها. وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن[١].

مسجد الكلّيّة الجعفريّة

قال ﷺ:

أنشأنا في الجناح الشرقي من المخازن الستّة مسجداً للمدرسة على قارعة الطريق للداخل إلى صور والخارج منها. واسع الفناء، غزير الماء، محكم البناء، تامّ الأدوات والمرافق، ينادي التلامذة والأساتذة والمادّة وأهل الحارة: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على خير العمل. وجعلنا سطحه مُعدّاً لبناء سبع غرف للمدرسة في جناحها الشرقي ترضي رغبتنا في راحة الطلاب، وتقدّم المشروع إلى أوج الكمال المدرسي بمعونة الله تعالى. ونحن نأمل بتوفيق الله عزّ وجلّ أن تظلّ سائرة على سنن النجاح المطّرد إلى جامعة لأنواع الثقافة العالية من العلوم الإسلاميّة وغيرها على نحو تشدّ إليه الرحال؛ لذلك نحرص أن تكون أرحب المدارس صدراً. ولا يزال عندنا متّسع من

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٦٧.

الأرض للبناء والعمران جنوبي هذه المؤسّسة وقفاً للطائفة المسلمة الإماميّة تحت توليتنا، استخلصناها بعد تلك المحاكمات الطويلة الوبيلة التي أشرنا فيما سبق إليها. والحمد لله الذي نصر عبده وأنجز وعده. ولا يزال عندنا متّسع من الطموح إلى التشييد والتعمير سعياً وراء غايتنا المثلى في خدمة يتامى آل محمّد ﷺ وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب [١].

نادي الكلّيّة الجعفريّة

قال ﷺ:

أنشأنا في الطبقة العليا من المؤسّسة غربي المدرسة صرحاً فخماً في طول اثنين وعشرين متراً ونصف المتر، وعرض خمسة عشر متراً ونصف المتر، ذا نوافذ على البرّ والبحر على أحدث طرز عددها إحدى وعشرون نافذة، أسميناه نادي الإمام جعفر الصادق ﷺ.

فكان مثابة لأهل عاملة عند اجتماعهم أيّام المواسم الدينيّة لأداء المراسم الشرعيّة، وأيّام أفراحهم وأتراحهم، وعند إقامة حفلاتهم لمهمّاتهم وسائر شؤونهم، ولا سيّما يوم عاشوراء، ويوم مولد سيّد الأنبياء، ويوم الغدير حيث تحتشد الجماهير، وقد عاد على الطائفة بنفع جزيل، ورجع كثير، والحمد لله [٢].

رسالة الجعفريّة

قال المرحوم السيّد جعفر شرف الدين:

وبرّاً بالجعفريّة وبأبي أنشأت مجلّة المعهد رديفاً لها وسفيراً، فكانت قلمها الصادق ولسانها الناطق. ولمّا توقّفت المعهد لم نتوقّف، فقد كنّا نصدر بياناً سنويّاً ومجلّة موسميّة هي «رسالة الجعفريّة» ولا تزال تصدر حتّى الآن، وهكذا تكون الجعفريّة أوّل مدرسة ثانوية متكاملة في تاريخ جبل عامل. ومجلّة المعهد أوّل مجلّة في تاريخ صور [٣].

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٦٨.

٢. المصدر: ٥٦٩.

٣. أنظر السيّد جعفر شرف الدين: ٥١.

وقال الإمام شرف الدين ﷺ عن مشاريعه ومؤسّساته التي أنشأها خلال أربعة عقود من عمره المبارك:

وحسبك المدرسة والنادي الجعفريّان، ومسجدهما المعمور، ومعاهد ومعابد أُخر، وصدقات جارية، ووجوه من البرّ والإصلاح مختلفة [1].

وأمّا عن الصعاب التي انتصر عليها فكثيرة انتهت إلى محاكمات استمرّت أكثر من سنتين، للحيلولة دون أن تنبت هذه النواة المباركة.

قال ﷺ:

وكانت محاكمات استمرّت أكثر من سنتين، وبعدها جاء الحقّ وزهق الباطل، والحمد لله الذي أظفرنا عزّ سلطانه على كلّ مانع، وكسر بين أيدينا كلّ حاجز، وروّض لنا الصعاب، وذلّل العقاب، فوضعنا النواة، ونبتت على بركة الله باسقة نضرة، ولئن نبت النبات الطيّب في الربيع، فإنّ الله تعالى أنبت نواتنا ـ العبّاقة المضواعة ـ آية في الخريف، فإذا هي تتأرّج بالأزهار النفّاحة العطرة في أوّل تشرين الأوّل سنة ١٩٣٨م. وفتحنا أبوابها معهداً علميّاً أسميناه «المدرسة الجعفريّة»، رمزاً إلى العلم، ووسام شرف خالد، فجاءت كما نحبّ ممّا كنّا نأمل من خدمة العلم، وترسيخ المبادئ الإسلاميّة الإماميّة، والحمد لله وليّ التوفيق.

تتبرّع هذه المدرسة بالتربية والتعليم مجّاناً لكلّ من خضع لقانونها من فقيرٍ أو غنيّ، وقد تساعد الفقير بلوازمه المدرسيّة قربةً إلى الله تعالى ﴿وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ للأبْرار﴾ [2] يهيمن عليها مدير قدير معه ثلّة من الأساتذة المهرة، يسلكون في تربية الناشئة أسهل الطرق الحديثة، فإذا التلامذة ـ وهم على الدوام يربون على الثلاث مئة ـ يرتشفون معسول المعارف والأخلاق، ناهلين من نمير الدين والآداب، وهذا ما كنت من أمدٍ بعيد أتوخّاه!... [3].

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٥٦.
٢. آل عمران (٣): ١٩٨.
٣. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٦٤.

مدرسة الزهراء عليها السلام رمز الحداثة والإيمان

في الظرف الذي كان العلماء يمنعون أبناءهم من دخول المدارس الحديثة باعتبارها مراكز علميّة مسمومة، ينبري الإمام شرف الدين لتأسيس معهد علمي يحتضن أبناء المسلمين وشبيبتهم؛ ليكون جهاداً إيجابيّاً يفوّت الفرصة على الأعداء.

وفي الوقت الذي كان تعليم البنات أمراً غير متعارف أو غير مشروع، ينبري الإمام شرف الدين لتأسيس مدرسة الزهراء؛ ليغزو خطط المستعمرين التي ركّزت على إفساد بنات المسلمين.

قال قدس سره:

في الظرف العصيب أسدينا إلى البلاد «مدرسة الزهراء» مؤسّسة على هدىً من الله عزّ وجلّ، خوفاً على اُمّتنا أن تتيه بناتها في صحراء العمه والضلال، وتطغى عليهنّ موجة الجهل المرير، فيغرقن في تلك اللجّة ولا منقذ ولا متأثّر.

ودع عنك عصراً يقحمهنّ في مزالق الهاوية بخدعه وأمانيه، وهنّ ـ عافاهنّ الله ـ على شفا جرفٍ منها، يتكيّفن بالتربية المعسولة المسمومة كيف شاءت.

أردنا ـ بمعونة الله تعالى ـ أن نغزو تلك العقبات بعزم ثابت يؤيّد الله تعالى بندائنا هذا المدوّي عند افتتاح مدرسة الزهراء؛ لنورد بناتنا المورد الهنيء الذي أوردناه بنينا، لنخرج الفتاة معدّة لتربية مستقبل وبناء جيل، كما يخرج الفتى من المدرسة الجعفريّة أهلاً لمثل ذلك.

وهنيئاً لهذه الغاية الشريفة كؤوساً مرتعة تكرع من نميرها فتاتنا جرعات تعود عليها بالنفع المأمول»[1].

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وحين عزّ على «الزهراء» وبناتها المكان، وتكأدها الجور، فأخرجهنّ من معهدهنّ

---

١. المصدر: ٥٦٩ ـ ٥٧٠.

وضاقت عنهنّ النفوس، فسحنا لهنّ دارنا وآثرناهنّ على أهلينا وبنينا، فنزحنا عنها ونحن أهنأ ما كنّا تطوّعاً للغاية المثلى. ولم يدُر الحول إلّا كانت تلك المدرسة مثالاً لظرف البلاد القاهر، وصورة من حظّها العاثر. ويكتب عليها أن تطرق باب المعارف مجهّزة بالأسباب فلا تعطى الجواب، فتضطرّ أن تدخل غير مأذونة في سلك المدارس.

وحاق بها جوّ عاتم، ثمّ نودي بإقفالها وخنقها في مهدها، ولكن ربّك كتب لها الحياة، فاقتحمت العقبات وسارت حثيثاً تزخر بأسمى معاني الحياة، لا تعبأ بمحاربيها الأشدّاء، ولا بما يُفرش تحت أقدامها من المزالق، كأنّها مؤسّسة قديمة تعتمد على جهاد أمّة ومسعى بلاد.

لماذا انطفأ هذا المشعل؟

وأخيراً فآن لهذه المعجزة أن تتلاشى! نعم!.. انطفأت مدرسة الزهراء بعد أن فازت في الشوط الأوّل، انطفأت تنعى على الحكومة حرمانها، وعلى الشعب خذلانها. انطفأت وشيّعت باحتفال رائع لكن من أفئدة القوّامين عليها ومن أسماعهم وأبصارهم، والناس من حولها وحولهم في سباب عميق.

خنقت مدرسة الزهراء، ولكنّ ذلك لم يكن بتأثير الأزمة العالميّة الحاضرة التي تأخذ برقاب الضعفاء وأنفاس المساكين، وإنّما كان بجهل محيط وجحود بيئة لمعروف رجل يريد لهم الخير ويحملهم عليه ما استطاع [١].

المشروع المختنق

قال ﵀:

خنق المشروع بقوّة الوزارة اللبنانيّة الصلحيّة الجائرة، وكان أُولئك المتزعّمون المعارضون ـ وهم من صنائعها ـ قد اتّفقوا من قبل معها على إقفال المؤسّسة في وجوه بنات الزهراء وإشغالها بأبناء مدرستهم الرسميّة بعوض يدفع من الحكومة لهم قدره ألفا

---

١. اُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٧٠ ـ ٥٧١.

ليرة لبنانيّة في كلّ سنة، على أنّهم لا ولاية لهم على المؤسّسة في شرع أو قانون، وإنّما هو الاستبداد القبيح منهم ومن حكومتهم، وقد أنذرنا محتجّين بأشدّ لهجة قلم فلم تغنِ النذر.

ونادينا بأعلى صرخة ـ ولكن لا حياة لمن تنادي ـ.

وتلك من سوآت الحكومة الشنعاء، ومعرّاتها الدهماء، لا ترحضها عنها السنون، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون[1].

الجمعيّة الخيريّة الجعفريّة

مؤسّسة خيريّة أنشأها الإمام شرف الدين سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٦م قبيل رحيله بسنة ونيّف تقريباً؛ لتقوم بأعباء الثانويّة الجعفريّة ومدارسها وأوقافها.

وكان قد أنشأ قبلها ـ حسب تصريح نجله السيّد جعفر شرف الدين ـ جمعيّة نشر العلم، وكان أمين سرّها السيّد محمّد صفيّ الدين.

واستمرّت الجمعيّة الخيريّة الجعفريّة باحتضان الجعفريّة وأوقافها بكفاءه وإخلاص حتّى سنة ١٩٦٦م، حيث لقي بعض أركانها وجه ربّه ونالت من البعض الشيخوخة، فأعاد الأُستاذ السيّد جعفر شرف الدين إنشاءها من مجموعة ناشطة يبلغ عددهم اثنا عشر شخصاً أكثرهم من خرّيجي الجعفريّة نفسها[2].

وهكذا بدأت البذرة المباركة تثمر وتؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها، حيث تلتها جمعيّات خيريّة ومؤسّسات ومدارس ومنشآت ثقافيّة ببركة هذا العمل الخالص لوجه الله تعالى. وإليك صورة مجملة عن هذه المشاريع والجمعيّات والمدارس التي تلت الجعفريّة في النشوء والارتقاء.

---

١. المصدر: ٥٧١ ـ ٥٧٢.

٢. أُنظر السيّد جعفر شرف الدين، سيرة رجل في سيرة مجتمع: ٦٧ ـ ٦٨.

المشاريع الخيريّة الأُخرى

١ ـ جمعيّة البرّ والإحسان

إنّ الكلّيّة الجعفريّة تعتبر مشروعاً تأسيسيّاً ولبنة أساسيّة لجملة مشاريع خيريّة وتثقيفيّة تتابعت بعد إشادة هذا الصرح، وقد اعتمد الإمام شرف الدين على نجله السيّد جعفر لرعاية هذه المؤسّسة الأُمّ، وحرص عليها ليل نهار، وسعى لتطويرها من خلال المواقع التي حازها والطاقات التي ولّدتها الكلّيّة الجعفريّة وما أحرزه من دعم واسع من أهل الخير والمعرفة، فأسّس جمعيّة البرّ والإحسان سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م في صور مع نخبة من المؤمنين.

وجاء في بيان الجمعيّة الصادر سنة ١٩٥٢م عن منجزاتها في سنواتها الأربع الأُولى ما يلي:

وما عملها سوى نقل المساعدات من يد محسن إلى يد مستحقّ، فهي إذن الصلة بين الناس، هذا موسر وهذا معسر. وحين تمتدّ اليد الموسرة إلى اليد المعسرة تتفتّح أبواب السماء.

قامت الجمعيّة بأعمال كانت حديثاً وتمنّيات، ولكنّها بمثابرتها جعلتها حقيقة قائمة في دينة صور تقف أمامها فتراها:

١ ـ «سوراً» يمتدّ سبعمائة متر ويعلو مترين راسخاً في الأرض متراً واحداً، وتدخل حين تدخل من أبواب متعدّدة واسعة في بناء جميل. إنّه سور جبّانة المدينة.

٢ ـ قاعة بطول عشرين متراً وعرض تسعة أمتار. إنّها النادي الحسيني.

٣ ـ قاعة ثانية بطول ثمانية أمتار وعرض ستّة أمتار. إنّها قاعة للصلاة على الجنائز وتقبّل التعازي.

٤ ـ مدارس في القرى النائية:

في مطلع سنة ١٩٥٩ م أنشأت باسم جمعيّة البرّ والإحسان أربع عشرة مدرسة ابتدائية مجّانيّة بموجب المرسوم رقم ١٢٩٣ بتاريخ أيار ١٩٥٩ م وفيه ما يلي:

أُعطيت الإجازة المنصوص عليها في المرسوم رقم ٤٣٦ تاريخ ٢٣ / ٣ / ١٩٥٠ م

لجمعيّة البرّ والإحسان في صور بإدارة السيّد جعفر شرف الدين وهي:

١ ـ الإعداديّة الجعفريّة في الشعيتية.

٢ ـ الإعداديّة الجعفريّة في السماعيّة.

٣ ـ الإعداديّة الجعفريّة في الرماديّة.

٤ ـ الإعداديّة الجعفريّة في جبال البطم.

٥ ـ الإعداديّة الجعفريّة في عيتيت.

٦ ـ الإعداديّة الجعفريّة في برج الشمالي.

٧ ـ الإعداديّة الجعفريّة في العباسيّة.

٨ ـ الإعداديّة الجعفريّة في طورا.

٩ ـ الإعداديّة الجعفريّة في باريش.

١٠ ـ الإعداديّة الجعفريّة في دبعال.

١١ ـ الإعداديّة الجعفريّة في مزرعة مشرف.

١٢ ـ الإعداديّة الجعفريّة في القنطرة.

١٣ ـ الإعداديّة الجعفريّة في تولين.

١٤ ـ الإعداديّة الجعفريّة في المجادل.

هذه القرى النائية التي لم تصل إليها السيّارة إلّا بعد سنة ١٩٦٠م كانت محرومة من كلّ ما تتمتّع به البلدان الأُخرى هي التي أنشأنا بها هذه المدارس، فكانت متنفّساً لها وبيوت علم لناشئها.

وسنة ١٩٦٣م تركت قيادة هذه الجمعيّة لسماحة السيّد موسى الصدر، فأنشأ من بعد باسمها «مؤسّسة جبل عامل المهنيّة»[١].

٢ ـ جمعيّة رابطة إنعاش القرى

وأسّس السيّد جعفر شرف الدين ـ نجل الإمام شرف الدين، والأمين على الكلّيّة الجعفريّة ـ في الضاحية الجنوبيّة من بيروت سنة ١٩٦٣م هذه الجمعيّة نقل إليها

١. أُنظر السيّد جعفر شرف الدين: ٦٣ ـ ٦٥.

إجازات المدارس من عهدة جمعيّة البرّ والإحسان.

قال ﷺ:

وكنت حين دخلت مجلس النوّاب قمت بدراسة الوضع التعليمي في دائرة صور، فتبيّن لي أنّ فيها ما يزيد على أربعة عشر ألف فتى بين السادسة والحادية عشرة في دائرة صور عدا صور وجويا، وأنّ لكلّ هذه الآلاف واحداً وثلاثين معلّماً فقط ـ عدا صور وجويا ـ وتقدّمت بهذه الدراسة لوزراء التربيّة من سنة ١٩٦٠ حتّى سنة ١٩٦٦م.

وكانت النتيجة والحمد لله أن أصبح في كلّ قرية ومزرعة مدرسة رسميّة، وفي بعض المدارس عدد يوازي العدد الذي كان في كلّ دائرة صور، ففي جويا وقانا ومعركة والعبّاسيّة في كلّ من هذه البلدان عشرات من المعلّمين. وقد نقلت بعد ذلك إجازات المدارس الأربعة عشرة إلى حزام البؤس حول بيروت «الضاحية الجنوبيّة».

وكانت الطرقات الفرعيّة قد وصلت إلى القرى التي كانت هذه المدارس قائمة فيها وإلى كلّ القرى المحرومة من الطرقات، وبعد ذلك زال حرمان الكهرباء والماء عنها كلّها أيضاً.

اثنتان وعشرون مدرسة

ولجمعيّة رابطة إنعاش القرى اليوم اثنتان وعشرون مدرسة موزّعة كما يلي:

١ ـ الإعداديّة الجعفريّة في عيترون.

٢ ـ إعداديّة الزهراء في ساحل الصرفند.

٣ ـ إعداديّة النهضة التربويّة في الصرفند.

٤ ـ إعداديّة الإخاء اللبناني في جبشيت.

٥ ـ إعداديّة الجنوب في القليلة.

٦ ـ مدرسة الريف في صريفا.

٧ ـ الإعداديّة النموذجيّة في أنصار.

٨ ـ الإعداديّة الجعفريّة في برعشيت.

٩ ـ الإعداديّة الجعفريّة في قصر نبا ـ البقاع.

١٠ ـ الإعداديّة اللبنانيّة الحديثة في تعلبايا ـ البقاع.
١١ ـ الإعداديّة الوطنيّة في سرعين التحتا ـ البقاع.
١٢ ـ إعداديّة الغدير في رياق ـ البقاع.
١٣ ـ مدرسة ابن خلدون ـ الشيّاح.
١٤ ـ مدرسة الطليعة ـ الشيّاح.
١٥ ـ الإعداديّة الحديثة ـ الشيّاح.
١٦ ـ التربية الاجتماعيّة ـ الشيّاح.
١٧ ـ العلميّة الجديدة ـ الشيّاح.
١٨ ـ التربية اللبنانيّة ـ برج البراجنة.
١٩ ـ الإعداديّة العلميّة الحديثة ـ برج البراجنة.
٢٠ ـ الإعداديّة الجعفريّة ـ برج البراجنة.
٢١ ـ ابتدائيّة الإخاء اللبناني ـ حارة حريك.
٢٢ ـ الإعداديّة الجعفريّة ـ بعلشميه[١].

الإمام شرف الدين ومجلّة العرفان

الأُستاذ فؤاد الزين هو حفيد مؤسّس العرفان الشيخ أحمد عارف الزين، ومسؤولها الحالي بعد وفاة عمّه، وهو خير من كتب عن سيرة هذه الصحيفة العامليّة الأُولى وعن دورها التثقيفي والتربوي في لبنان، وقد كان للإمام شرف الدين دورٌ كبير في ردفها بالفكر والعطاء والتشجيع المستمرّ[٢]. فهي واحدة من المشاريع المهمّة التي ساهمت في رفد حركة الإمام شرف الدين التثقيفيّة، قال ما نصّه:

الحديث عن مجلّة ثقافيّة عربيّة مثل العرفان حديث يطول ويطول. فكيف نوجز في

١. أُنظر: السيّد جعفر شرف الدين: ٦٥ ـ ٦٧.
٢. لاحظ المجلّد الخاصّ بما جمع من مقالات الإمام شرف الدين المنشورة في العرفان وغيرها ضمن موسوعة الإمام شرف الدين.

صفحات معدودة مسيرة ثلاثة أرباع قرن حافلة بالنضال والكفاح والجهاد المتواصلين في سبيل خدمة الوطن والأُمّة؟ وكيف نلخّص جهود وتضحيات ٩٢ عاماً في سبيل نشر العلم والمعرفة وإيقاظ العقول وتنوير القلوب وبثّ الوعي وتهذيب النفوس؟ وكيف نختصر المنطلقات الفكريّة والآراء المبدئيّة والعوامل الاجتماعيّة والنشاطات الثقافيّة والأجواء الدينيّة التي أثّرت بـالعرفان طيلة عشرات السنوات، أو التي تؤثّر بها حاليّاً في ظلّ الأوضاع السائدة المعقّدة التي تطبع الوطن ببصماتها المميّزة ولمساتها المرهفة المتعبة؟

حديثنا عن العرفان حديث ذو شجون، وبحثنا مهما عمق وطال يظلّ ناقصاً ويبخس حقّ هذه المجلّة الرائدة التي لم يعطها الباحثون والكتّاب حقّها حتّى الآن.

وإليك لمحة تاريخيّة عنها:

١ ـ البدايات ـ تأسيسها وظروف نشأتها

تأسّست مجلّة العرفان في شهر محرّم سنة ١٣٢٧ هجريّة الموافق لشهر شباط سنة ١٩٠٩ م، في مدينة صيدا في جبل عامل. وقد أُنشئت في العهد الحميدي أيّام السلطنة العثمانيّة «في زمن مضطرب بالأحداث السياسيّة وفي بيئة سائد فيها الجهل، عزيز بها القرّاء، نزر بها الكتّاب، قليل فيها البذل على العلم وهو فيها في تراجع»[1].

٢ ـ مؤسّسها: آراؤه وأفكاره

مؤسّس العرفان وصاحبها هو الشيخ أحمد عارف الزين، وهو علّامة مجاهد ومصلح اجتماعي وأديب وشاعر وصحافي ومفكّر، نذر نفسه في سبيل يقظة العرب والأُمّة الإسلاميّة «وكان يعمل للشرق عامّة وللإسلام والعروبة خاصّة مجدّاً في إحياء الإسلام على وجهه الحقيقي»[2]. كان ينادي بالوحدة العربيّة والوحدة الإسلاميّة، وكان يدعو إلى المساواة بين الأديان السماويّة وإلى التقريب بين المذاهب الإسلاميّة. وكان للشيخ العارف آراؤه النيّرة في الإصلاح الاجتماعي وفي الأخلاق وفي التعليم والتربية

١. كلمة جبل عامل، مقال للشيخ سليمان ظاهر، العرفان، المجلّد ٣٩، العدد ١، الصفحة ٣٥.

٢. الفقيد العظيم، مقال للشيخ عبد الكريم الزنجاني، العرفان، المجلّد ٦٩، العدد ٨ و٩ و١٠، الصفحة ٥.

والثقافة الوطنيّة وفي المرأة وفي الصحافة وواجباتها.

وكان يعبّر عن تلك الآراء وتلك الأفكار في العرفان خاصّة، وفي نضاله وجهاده ومشاركته في الجمعيّات السياسيّة والاجتماعيّة عامّة.

٣ ـ النهج والشعار

أمّا نهج العرفان فهو نهج الحقّ والتزام المبادئ السامية والتزام المثل العليا والقيم الإنسانيّة، وخطّتها ونهجها توحيد الكلمة وكلمة التوحيد والدعوة إلى العلم والأخلاق.

فيقول الشيخ أحمد عارف الزين في فاتحة السنة الثانية «ولمّا كانت غايتنا التي نرمي إليها وخطّتنا التي نسير عليها، نشر العلم والأدب وتقويم الأخلاق وتطهير النفوس من الأرجاس والخوض في غمرات المباحث الاجتماعيّة والعمرانيّة ...»[١].

أمّا شعار المجلّة، فقد اعتمدت في سنواتها الأُولى الحديث الشريف «تعلّم العلم من المهد إلى اللحد»[٢] شعاراً، والآية الكريمة ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[٣]. ثمّ في سنين لاحقة اتّخذت لها الحديث الشريف «حبّ الوطن من الإيمان»[٤] شعاراً يتوّج غلافها. وفي مرحلة لاحقة نظم الشيخ أحمد عارف بيتين من الشعر اتّخذتهما المجلّة شعاراً لها:

هبّوا إلى العلم والتهذيب جهدكمُ ... فإنّما أعلم الأقوام أسعدُها
واسترشدوا بضيا العرفان واقتبسوا ... ما ضلّت الناس و العرفان مرشدُها

٤ ـ المضامين والمواضيع

كانت العرفان تضمّ مواضيعاً متنوّعة بتنوّع مجالات الحياة، فكانت غنيّة جدّاً ومنوّعة جدّاً، وتشتمل على مباحث دينيّة وفكريّة وثقافيّة وعلميّة وأدبيّة واجتماعيّة ولغويّة وكلّ أنواع المعارف والعلوم. وكانت شموليّتها الواسعة تحيط بكلّ المواضيع إجمالاً،

---

١. العرفان، المجلّد الثاني، العدد الأوّل، الصفحة ٢.
٢. الحديث المعروف نصّه: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».
٣. الزمر (٣٩): ٩.
٤. سفينة البحار ٤: ٧٠٨، «وطن».

وتحتوي على عدد كبير من الأبواب الثابتة والمقالات والأبحاث المركّزة تحت عناوين مختلفة: تاريخ وجغرافيا وفلسفة وفكر ونقد وشعر وطبّ وعلوم وعلم نفس وعلم اجتماع وأخبار وآراء وأبواب ثابتة مثل «المراسلة والمناظرة» و«التقريظ والانتقاد» و«مختارات الصحف» و«معرض المشاهير» و«حديث القوارير» و«سير العلم» و«قصص»، وغيرها الكثير من كلّ ما يخطر بالبال من موضوعات وعناوين. وكان هذا التنوّع الفريد هادفاً ملتزماً بخطّ المجلّة ومبادئها.

باختصار، كانت العرفان مجلّة موسوعيّة معرفيّة بكلّ ما تعنيه هذه الكلمات من معنى، ولعلّ ذلك يعود إلى شخصيّة صاحبها وتنوّع ثقافته وغناها وانفتاحه على العلوم والمعارف الحديثة والتزامه بالأصالة والتراث.

٥ ـ أهمّ الكتّاب وأبرز الأقلام

كتّاب العرفان هم من أهمّ العلماء المجتهدين، ومن أبرز الكتّاب العرب وأعلامهم في ذلك العصر وروّاد النهضة العربيّة الحديثة، فلقد شارك في العرفان كتّاب من كلّ قطر ومن كلّ بلد وينتمون بأغلبيّتهم إلى البلدان التالية: لبنان وسوريا والعراق والأردن ومصر وبلاد المهجر «أفريقيا والأرجنتين..» وباقي البلدان العربيّة والإسلاميّة. وكذلك اختلفت بانتماءات الكتّاب الدينيّة والمذهبيّة والإثنيّة. ولعلّ مشاركة هذه الأقلام مجتمعة في العرفان يعكس صورة عن واقعها، ويشير إلى دلالتين مهمّتين في علاقتها بمحيطها العربي وواقعه.

أوّلاً: هذا يدلّ على مدى رواجها وأهمّيّتها ودخولها إلى مختلف الجماعات الدينيّة وإلى أكثر البلدان العربيّة والإسلاميّة. ومشاركة الكتّاب تعكس اهتمام مختلف الطوائف ومختلف الأوطان فيها، واعتبارهم لها كمجلّتهم وكسجلّ لفكرهم ولثقافتهم.

ثانياً: هذه المشاركة الواسعة إنّما تدلّ على وحدة ثقافيّة متينة في العالم العربي آنذاك. أدّت إلى التقاء هذه النخبة الواسعة على نهج المجلّة وأهدافها ومبادئها. ويعود ذلك على الأرجح إلى أجواء الثورة العربيّة آنذاك، والتفاف العرب واهتمامهم بالقضايا

الكبيرة كالوحدة العربيّة ومحاربة المستعمر ونيل الاستقلال، ممّا جعل الحاجة ماسّة إلى تهيئة فكريّة وثورة ثقافيّة وحماس وطني وقومي يعبّر عن نفسه في المجلّات الثقافيّة وبالأخصّ في العرفان.

٦ ـ البيئة وتأثيرها

لقد نشأت العرفان وترعرعت في بيئة جبل عامل ومدينة صيدا. فلقد كان أهمّ كتّابها من روّاد الحركة الثقافيّة العامليّة ومن كبار أدباء صيدا. وهؤلاء الكتّاب تأثّروا بعدّة عوامل اجتماعيّة وثقافيّة ودينيّة، فنتج عن هذا التأثّر أفكار وآراء ومعتقدات انعكست تلقائيّاً على مضامين المجلّة وموضوعاتها. ألّف العامليّون عدّة جمعيّات علميّة وأدبيّة:

الجمعيّات العامليّة

جمعيّة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة التي بدأت نشاطها في النبطيّة عام ١٨٩٩.

و**الجمعيّة الخيريّة العامليّة** التي تأسّست عام ١٩٢١م.

و**جمعيّة النهضة العامليّة** التي تأسّست في النبطيّة عام ١٩٢٧م.

و**جمعيّة العلماء العامليّين** التي تأسّست عام ١٩٢٨م.

وقد ساهمت هذه الجمعيّات في إرساء جوّ من الوعي والثقافة والمعرفة في جبل عامل.

المدارس

كما أسّس عدد من المدارس الحديثة في صيدا:

مدرسة صيدا الإنجيليّة عام ١٨٦٤.

مدارس جمعيّة المقاصد الإسلاميّة عام ١٨٧٧.

المدرسة الوطنيّة عام ١٨٧٨.

مدرسة الفنون الإنجيليّة الوطنيّة للبنين عام ١٨٨٠.

وغيرها من المدارس التي لعبت دورها في تربية الناشئة وتخريج الأجيال المتعلّمة.

المدارس الدينيّة

وقد تأسّست عدّة مدارس دينيّة في جبل عامل ساهمت في نهضته وتخريج دفعة من العلماء الأعلام، الذين يعود إليهم الفضل في بثّ الوعي والمعرفة في جبل لبنان، والذين

كانوا من أبرز كتّاب العرفان.

أشهر تلك المدارس الدينيّة في جبل عامل:

مدرسة جبع.

مدرسة الكوثريّة.

مدرسة حنويّة.

مدرسة بنت جبيل.

المدرسة الحميديّة في النبطيّة، وقد تخرّج منها الشيخان سليمان ظاهر وأحمد رضا، اللذان ألّفا مع الشيخ أحمد عارف الزين الثالوث العاملي. وقد تخرّج منها أيضاً المؤرّخ العاملي محمّد جابر آل صفا، وهؤلاء العلماء النوابغ كانوا من أركان العرفان الأساسيّين.

المكتبات

ومن العوامل الثقافيّة التي لعبت دوراً هامّاً في التأثير على أحوال جبل عامل، المكتبات الكبيرة الخاصّة المنتشرة فيه وأشهرها:

مكتبة الشيخ عبد الله نعمة في جبع.

مكتبة السيّد علي الأمين في شقرا.

مكتبة آل السبيتي في كفرا.

مكتبة الشيخ أحمد رضا في النبطيّة.

مكتبة السيّد محسن الأمين في شقرا ودمشق.

الصحافة

ومن المؤثّرات الهامّة على البيئة العامليّة والصيداويّة هي الصحافة العربيّة، وخاصّة مجلّات المقتطف والهلال والمنار، وخاصّة مجلّة المنار التي أثّرت على الشيخ أحمد عارف الزين الذي كان يطالعها باستمرار.

الملتقى الثقافي الثرّ

أمّا المؤثّر الأهمّ ومحور مجلّة العرفان فهو بيت صاحبها الشيخ أحمد عارف الزين،

الذي كان ملتقى مئات المفكّرين والأُدباء والشعراء والعلماء الذين كانوا يتسامرون ويتناقشون ويتساجلون ويقيمون المناظرات الأدبيّة والسهرات الغنيّة.

من هنا أهميّة هذا البيت الذي «كان الوجه الحقيقي للعرفان أو مطبخها الفكري في لغة الصحافة، فقد ظلّ طوال أكثر من نصف قرن ملتقى النخبة من مثقّفي الجبل العاملي، وندوة دائمة الانعقاد أو تكاد، لا يقتصر حضورها على الوجوه التقليديّة المألوفة، وإنّما اعتاد التردّد عليها كبار الأُدباء والشعراء من البلدان العربيّة ...»[١].

كان البيت ندوة فكريّة ومنتدىً أدبيّاً ولقاءً ثقافيّاً، خلق المناخ الفكري الجماعي الذي أعطى نتاجاً دسماً وغنيّاً، عبارة عن مجلّة العرفان.

٧ـ دورها وأهمّيّتها

أدّت العرفان دوراً رائداً، وقامت بمهمّة تاريخيّة، وتحمّلت أعباءً جساماً في سبيل نهضة فكريّة وثورة ثقافيّة عربيّة، فقد لعبت دوراً تنويريّاً أساسيّاً في يقظة العرب والمسلمين، ودوراً تثقيفيّاً توجيهيّاً في نهضة العامليّين.

وكانت العرفان مدرسة سيّارة تخرّج العديد من الأقلام الفتيّة الشابّة، وتبرز الكثير من المواهب الدفينة.

كانت العرفان خزانة الفكر العاملي والعربي والإسلامي، فلقد أحيت التراث المنسي وحفظته من الضياع والفقدان. «وفي الوقت الذي كانت فيه إسلاميّة، كانت أيضاً مجلّة وطنيّة لبنانيّة يلتقي بها القلم المسيحي والفكر المسيحي والتطلّع المسيحي مع القلم والفكر والتطلّع الإسلامي»[٢].

وللعرفان أيضاً، «فضل عظيم في تقوية الروابط الأدبيّة بين الأقطار العربيّة، وإذكاء الروح القوميّة والدفاع السياسي عن حقوق العرب»[٣].

---

١. خزانة الفكر العاملي، مقال للدكتور إبراهيم بيضون، العرفان، المجلّد ٧٠، العدد ٣، الصفحة ٩٨.

٢. دور الكلمة والفكر، مقال للشيخ محمّد مهدي شمس الدين، العرفان، المجلّد ٧٠، العدد ١، الصفحة ٩٩.

٣. سوق عكاظ العلماء والأُدباء، مقال للدكتور شريف عسيران، العرفان، المجلّد ٦٩، العدد ٨ و ٩ و ١٠، الصفحة ٥.

أمّا عن أهمّيّتها فنكتفي للدلالة عليها ببعض الشهادات فيها، التي هي غيض من فيض.

يقول العلّامة السيّد محسن الأمين: «فكم تخرّج على العرفان من شاعر مجيد وكاتب سديد وعالم رشيد، وكم كشفت عن كنوز خبيئة من الأدب الرفيع، ما كانت لولاها لتظهر وما كان أصحابها ليُعرفوا»[1].

ويقول فيها المرجع الكبير العلّامة الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء: «إنّ الأُمّة التي لا تكرّم العارف وتقدّره وتعظّمه وتناصر عرفانه، لهي أُمّة لا تستحقّ الحياة بل الأولى بها أن تكون تحت بطن الأرض وفي أحافيرها من أن تكون فوق ظهرها»[2].

ويقول الدكتور حسين مروّة: «قبل أن حفظت الحرف حفظت عن أُمّي ـ يطيب ذكراها ـ اسم العرفان ... كانت أُمّي تسمّي كلّ كتاب عرفاناً وكلّ جملة كتبت عرفانات»، ويضيف الدكتور مروّة: «كانت التسمية تلك على لسان أُمّي تعبيراً عن حقيقة واقعة .. هي: أنّ العرفان كانت أُولى خيوط النور من فجر النهضة العربيّة الحديثة يمتدّ إلى «مجاهل» حياتنا هناك في جبل عامل[3].

لقد كانت العرفان مجلّة موسوعيّة معرفيّة وحدويّة توحيديّة نهضويّة.

الإمام شرف الدين ومجلّة المعهد

لقد رأينا موقع الإمام شرف الدين في مجلّة العرفان فهو يعدّ من أحد الناشطين في هذا السبيل، فللصحافة والإعلام أثره البليغ في تكوين المحتوى الثقافي وتنشيط الحركة الثقافيّة، وتأتي مجلّة المعهد في نفس الطريق الذي سارت عليه مجلّة العرفان.

وهذه المجلّة قد أصدرها السيّد جعفر شرف الدين سنة ١٩٤٥م واستمرّت أربع

---

١. تكريم العرفان وصاحبها، مقال للسيّد محسن الأمين، العرفان، المجلّد ٦٩، العدد ٨ و ٩ و ١٠، الصفحة ٣.

٢. تكريم العارف ومناصرة عرفانه، مقال للشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء، العرفان، المجلّد ٦٩، العدد ٨ و ٩ و ١٠، الصفحة ٣.

٣. أحمد عارف الزين، ذلك الوجه الوطني ...، مقال للدكتور حسين مروّة، العرفان، المجلّد ٦٩، العدد ٨ و ٩ و ١٠، الصفحة ١٧٤.

سنوات رسالة فكر وأدب ونضال، وشارك في تحريرها كبار وناشئون من لبنان والوطن العربي، وقد قسّم المشاركين فيها إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأوّل: المشاركون خلال مدّة صدورها في مختلف سنواتها وأعدادها وهم تسعة وعشرون عالماً وكاتباً وشاعراً، وهم:

السيّد علي إبراهيم ـ أحمد أبو سعد ـ سليمان أبو زيد ـ معروف أبو خليل ـ يوسف أبو خليل ـ محمّد زكي بيضون ـ الدكتور محسن جمال الدين ـ أنور الجندي ـ إنعام الجندي ـ أحمد حجازي (ابن البادية) ـ السيّدة زهر الحرّ ـ حسين محمّد خشن ـ رشاد دارغوث ـ إلياس خليل زخريا ـ كامل سليمان ـ أحمد سويد ـ تحسين شرارة ـ عبد اللطيف شرارة ـ السيّد عبد الحسين شرف الدين ـ السيّد محمّد رضا شرف الدين ـ السيّد نور الدين شرف الدين ـ السيّد صدر الدين شرف الدين ـ جعفر شرف الدين ـ نجيب صعب ـ بهيج عثمان ـ الشيخ عبد الله العلايلي ـ أديب مروّة ـ الشيخ محمّد جواد مغنية ـ أحمد مغنية.

الصنف الثاني: المشاركون ببضعة مقالات أو قصائد بلغوا ستّة وعشرين وهم:

كمال عبد الأحد البيضاوي ـ الدكتور شكر الله حدّاد ـ أديب الحرّ ـ الحوماني (صاحب العروبة) ـ محمّد دكروب ـ الدكتور نزار رضا ـ أحمد حسن الزيّات صاحب (الرسالة) ـ أنطوان زيدان ـ الشيخ علي الزين ـ حسن الزين ـ ياسين سويد ـ رفعت شرارة ـ محمّد علي صادق ـ السيّد أحمد الصافي النجفي ـ السيّد محمّد صادق الصدر ـ النقيب رياض طه ـ كامل العبد الله ـ مارون عبّود ـ كامل مصباح فرحات ـ نبيه أمين فارس ـ الدكتور عمر فرّوخ ـ رمضان لاوند ـ عبد الله المشنوق ـ أُمّ نزار الملائكة ـ الدكتور محمّد يحيى الهاشمي.

الصنف الثالث: المشاركون بأكثر من مقال أو قصيدة بلغوا ستّة وسبعين وهم:

السيّد عبّاس أبو الحسن ـ كمال أبو مصلح ـ أحمد سليمان الأحمد ـ نسيب الاختيار ـ محمّد أحمد خلف الله ـ السيّد شرف الأخوي ـ البر أديب صاحب (الأديب) ـ عبد الحسين الأزري ـ صلاح الأسير ـ أحمد أمين ـ السيّد أحمد حسن

الأمين ـ السيّد عبد الرؤوف الأمين (فتى الجبل) ـ السيّد عبد الله الأمين ـ السيّد هاشم حسن الأمين ـ الدكتور عزّ الدين آل ياسين ـ الإمام الشيخ مرتضى آل ياسين ـ واصف البارودي ـ حسن باشو ـ شعبان بركات ـ منير بعلبكي ـ الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ـ محمّد جميل بيهم ـ جبرائيل جبّور ـ أميل الحايك ـ السيّد محمود الحبّوبي ـ نسيم الحلو ـ وديع ديب ـ الشيخ عبد الغني الراجحي ـ الشيخ أحمد رضا ـ السيّد يوسف محمّد رضا ـ السيّد عبد الحسن زلزلة ـ عيسى ميخائيل سابا ـ عبد الأمير السبيتي ـ كاظم السماوي ـ بولس سلامة ـ السيّدة وداد سكاكيني ـ الشيخ محمّد سويد ـ محمّد شرارة ـ مرتضى شرارة ـ موسى الزين شرارة ـ حسين شرف الدين ـ خليل شرف الدين ـ عبد الرحمن الشرقاوي ـ الشيخ محمّد جواد شرّي ـ الدكتور يحيى الشهابي ـ عفيف شيخاني ـ تيسير شيخ الأرض ـ عبد الرضا صادق ـ الدكتور نمر الصباح ـ محمّد صبرا ـ الدكتورة إنعام الصغير ـ ميخائيل صوايا ـ بدوي طبانة ـ عبد الله سليمان ظاهر ـ الدكتور أحمد عزّ الدين ـ أحمد عويدات ـ الدكتور شريف عسيران ـ محمّد قره علي ـ محمّد عيتاني ـ أحمد غريبة ـ إبراهيم فران ـ مصطفى فرّوخ ـ الشيخ محمّد تقي القمّي ـ موريس كامل ـ محمّد كزما ـ الأب أنطوان مالك ـ عبد السلام المجذوب ـ الشيخ محمّد محمّد المدني ـ كامل مروّة ـ الدكتور حسين مروّة ـ عبد الكريم مروّة ـ محمّد مكّي ـ السيّدة نازك الملائكة ـ المجاهد علي ناصر الدين ـ أمين نخلة ـ شفيق النقّاش[١].

١. أُنظر قراءة موجزة لمسيرة الصحيفة العامليّة الأُولى «العرفان».

الفصل الثالث

حركة الإصلاح المعاصرة وموقع الإمام شرف الدين

إنّ متابعة حركة الإصلاح في العالم الإسلامي؛ لأجل معرفة المواقع التي يحتلّها روّاد الإصلاح فيها، وتقويم إنجازاتهم التي كرّسوا حياتهم ووجودهم من أجل تحقيقها، تحتاج إلى التعرّف على جملة أُمور لا يتسنّى لنا فهم مسيرة الإصلاح بشكلٍ دقيق دون فهمها والإحاطة بها.

فظروف الإصلاح، والخلفيّات، إلى جانب الأبعاد والمجالات، والمعالم، وكيفيّة مناهج الإصلاح، والعقبات التي كانت تقف في مسيرة الإصلاح أمام البرنامج الإصلاحي أو البرامج الإصلاحيّة، كلّها مؤثّرة في حصاد النتائج ومعرفتها، فهي ذات علاقة بتقييم النتائج والحصاد لحركة الإصلاح المستمرّة.

وحين نرى أنّ الخلفيّات الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة والدينيّة تشكّل أسباباً حقيقيّة، أو تكشف عن أسباب عميقة في داخل الأُمّة المسلمة والعالم الإسلامي من جهة، وما يرتبط بالعالم الإسلامي من حيث علاقاته مع شعوب أُخرى أو حضارات ذات تعاطٍ مع حضارة العالم الإسلامي وأبناء العالم الإسلامي من جهة أُخرى، فإنّه سوف يلزمنا أن نتابع المسيرة الإصلاحيّة بشكلٍ دقيق وشامل وعميق؛ لنقف على طبيعة الظرف الذي عاشه العلّامة الإمام شرف الدين، ونقف على متطلّبات ظرفه من خلال فهمنا لشخصيّته ومكوّنات شخصيّته الثقافيّة والدينيّة التي هي المنطلق لحركته الإصلاحيّة التي مارسها وقادها في عالم أوسع من إقليمه، واحتلّ بذلك موقعاً متميّزاً جعله من روّاد الإصلاح في هذا العصر.

إنّ معرفة ظروف الإصلاح ومتطلّبات هذه الظروف في عصر الإمام شرف الدين هي الهدف الأوّل لنا في هذه الدراسة، ولهذا كان لا بدّ أن نرجع إلى الخلفيّات بمقدار الضرورة لنقف على أهمّ خطوط الإصلاح ومعالمه ومناهجه في عصره، بعد تحديدنا لعصر الإمام شرف الدين بالحقبة التي ولد فيها أي سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م والتي تنتهي برحيله أي سنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م، وهي بالتحديد ثمانية عقود وسبعة أعوام، فهي تناهز القرن تقريباً. ولهذا كان لزاماً علينا أن نتابع أحداث هذه الحقبة الزمنيّة منذ سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م وهي السنين الأخيرة من مرجعيّة الشيخ الأعظم الأنصاري الذي توفّي في سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م، وما رافقها من حركات إصلاحيّة اقتضتها أو أولدتها تلك الظروف التي ألمّت بالعالم الإسلامي بشكلٍ عامّ، والمنطقة التي عاش فيها ونشط فيها الإمام شرف الدين.

إنّ جبل عامل وسوريا والعراق ومصر وفلسطين كانت مسرح الأحداث التي أحاطت بالإمام شرف الدين بشكلٍ مباشر، فأثّر فيها وتأثّر بها واكتوى بنيرانها، والتقى بالمصلحين فيها وتعاطى معهم الفكر والثقافة، وتبادل معهم البحث حول المناهج والأساليب.

ومن هنا فإنّه وإن كان قد استقرّ في جبل عامل ولم يخرج منها إلّا في ثلاث مقاطع خلال أربعة عقود بعد رجوعه إلى جبل عامل من مقرّ نشأته ودراسته في العراق، لكنّه لم تتأقلم همومه ورؤاه، ولم يقتصر في حركته الإصلاحيّة على شواطئ البحر الأبيض المتوسّط، بل كان يرى هذا الساحل بوّابة لدخول الغرب المسيحي المستعمر إلى كلّ العالم الإسلامي، واختراقه للأجواء الثقافيّة والفكريّة والدينيّة.

فهو إن كان قد آثر الاستقرار في هذا الإقليم على الاستقرار في النجف الأشرف ـ موطن المرجعيّات الدينيّة والعلميّة ـ فإنّما يكون قد رابط في الثغر الأهمّ والأكبر من ثغور العالم الإسلامي التي كانت ولا تزال مصدر قلق على العالم الإسلامي ومرجعيّاته الدينيّة، حيث أدلت أوربا بكلّ ثقلها السياسي والثقافي والتبشيري في هذه المنطقة

ذات الموقع الاستراتيجي الحسّاس.

وقد أفلحت أوربا في اقتحامها لقلاع الفكر والثقافة والسياسة وقامت بعمليّة مسخ شامل، لولا التصدّي لها من قبل علماء كبار مثل السيّد عبد الحسين شرف الدين والسيّد محسن الأمين ومن حذا حذوهما في الصمود والمقاومة بكلّ ما لديهم من قوّة وطاقات محدودة أمام هذا الوجود العاتي بتخطيطه وأساليبه ومعدّاته وإغراءاته.

إنّ المخطّط التبشيري الذي أجملنا تاريخه وجذوره وأبعاده ومدياته في كتابنا الآخر[1]، لا يكاد يفهمه إلّا من يعايشه ويسايره في خنادق المقاومة التي كانت تتعاقب عليها الأجيال من المسلمين الواعين والعلماء المرابطين في جبل عامل وما ضاهاها من مناطق جبل لبنان وسوريا التي احتوت نصارى الشرق وبذلك استفادت منها نصارى الغرب لتحقيق أهدافها.

ومن هنا كانت مهمّة الإمام شرف الدين تتوزّع في ميادين متعدّدة من المقاومة العنيدة والذكيّة لئلّا يفرّط بالمسلمين وبالهويّة الإسلاميّة من جهة، ولئلّا تتمّ مقاومته ـ للتيّار العاتي والماسخ هذا ـ على حساب الوحدة الإسلاميّة التي تؤلّف بين كلّ طوائف المسلمين، وتجعل منهم سدّاً منيعاً أمام مخطّطات التفرقة والتشتيت التي كان يمارسها الغرب بكلّ حيلة ووسيلة؛ لتتسنّى له السيطرة على أعظم نقطة وأهمّ منطلق في العالم الإسلامي لخدمة أهداف الغرب التوسّعيّة بشكلٍ عام.

وإذا أردنا أن نؤرّخ للعقود التسعة التي قضاها الإمام شرف الدين منذ ولادته سنة ١٢٩٠هـ وإلى رحيله سنة ١٣٧٧هـ، فإنّما نؤرّخ لأربعة مراحل من مراحل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي التي ظهرت في أقنعة وأشكال مختلفة، وهي: مرحلة التغلغل، ومرحلة النفوذ، ومرحلة الاحتلال، ومرحلة الانتداب.

إنّ العقود الثلاثة الأُولى من حياة الإمام شرف الدين هي بقايا مرحلة التغلغل

١. عصر الإمام شرف الدين، بقلم كاتب هذه السطور.

والنفوذ، وقد عاصر فيها شخصيّات لامعة في ميادين الإصلاح، مثل: الإمام المجدّد الشيرازي الذي عاصره في سامراء، ونمى تحت ظلال مرجعيّته وهو في النجف الأشرف، وهكذا السيّد جمال الدين الأسدآبادي الذي طار صيته في العالم الإسلامي، وعايش حركته ورؤاه ومشاريعه. وهكذا المرجع الكبير وأُستاذه الفقيه الأُصولي الفيلسوف الآخوند الخراساني في النجف الأشرف، أحد قوّاد الحركة الدستوريّة وأحد أعمدة مقاومة الاستعمار. ويليه السيّد محمّد سعيد الحبّوبي رجل النهضة والتحديث.

ثمّ يأتي سائر روّاد الإصلاح الذين عاصرهم الإمام شرف الدين وهو في جبل عامل، فإنّما هم معاصروه في الطبقة، ويتقدّمون عليه بأعوام قليلة أو يتأخّرون عنه، كالميرزا محمّد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين في العراق، والشيخ محمّد مهدي الخالصي، والشيخ محمّد جواد البلاغي، والشيخ النائيني، وشهيد الحركة الدستوريّة السيّد المدرّس، والسيّد محسن الأمين، والسيّد هبة الدين الشهرستاني، والشيخ محمّد رضا المظفّر، وأضرابهم ممّن حملوا لواء الإصلاح في مختلف ميادين السياسة والعقيدة والفكر والثقافة.

وقد جمع الإمام شرف الدين ـ وهو في بوّابة العالم الإسلامي ـ بين عدّة اتّجاهات في الإصلاح، واضطرّ للخوض في عدّة ميادين وخنادق كان يخطّط المستعمر الكافر للدخول من خلالها إلى عالمنا الإسلامي.

ففي ميدان السياسة قد قاوم الاستبداد العثماني والاستعمار الأوربي في كلّ مراحله الأربعة.

وفي ميدان الثقافة فقد حارب الجهل والأُميّة، وسعى من أجل التنمية الفكريّة والعلميّة، وهو يرى الدعم الفرنسي والأمريكي للمسيحيّين بشكلٍ سافر، وذلك لمسخ الهويّة الثقافيّة للمسلمين وتنصيرهم وإبعادهم عن مصادر ثقافتهم بشتّى الوسائل الحديثة.

وفي ميدان العقيدة كان يرى تأجيجهم لنار الحقد وزرع وتنمية بذور الشقاق

والخلاف والنزاع الطائفي والعنصري، وإيراد الشبهات التي تحاول هزّ البُنى الفكريّة والعقيديّة من أساسها، إلى جانب سياسة الإفقار والتدمير الاقتصادي لبلاد المسلمين وهم يملكون كلّ عناصر النموّ والازدهار.

لقد كانت همومه متعدّدة ومتشعّبة بتشعّب الميادين التي اخترقها المستعمر الغادر، وأعانته عليها فصائل مسيحيّة وعناصر أُخرى منبهرة بالتقدّم العلمي والتقني الغربي.

ومن هنا تنوّعت نشاطاته وإصلاحاته، وإن كان الذي تألّق فيه وعلا نجمه وحاز فيه قصب السبق عن أقرانه ومن سبقه ومن لحقه ممّن سار في هذا الدرب، هو تبلور مجموعة من كتبه التي عرف واشتهر بها مثل: الفصول المهمّة والمراجعات والنصّ والاجتهاد وأبي هريرة والتي تعدّ في حقولها ذات تأسيس بديع تميّز به الإمام شرف الدين عمّن سواه، ممّا يشير إلى عبقريّته في هذه الميادين بالرغم من تنوّع همومه وكثرة اشتغالاته، وهو يعاني من عدوّ لدود جاثم على الصدور وآخذ بالأعناق، طيلة مرحلتي الاحتلال والانتداب حيث استمرّتا نصف قرن، بلا هوادة ولا ارتخاء.

إنّ الإمام شرف الدين بالرغم من علوّ نجمه في مقارعة الاستعمار في كلا مرحلتيه: مرحلة الاحتلال ومرحلة الانتداب، استطاع أن يقطع أشواطاً مهمّة في مواجهة المسخ الثقافي والديني والعقائدي، وهو في أوج المحنة السياسيّة والاقتصاديّة التي كان يُنزلها الاستعمار بالعالم الإسلامي بشكل عامّ وبمسلمي لبنان بشكلٍ خاصّ بلا هوادة ولا إنصاف.

ومن هنا قال كلمته المشهورة التي ذهبت مثلاً يضرب ويعرف به: «لا ينتشر الهدى إلّا من حيث انتشر الضلال»، لقد رأى الضلال كيف ينتشر ويسيطر على ربوع أرض الإسلام، وقد عاصر كلّ المخطّطات الخبيثة التي سهر عليها المستعمرون ليل نهار، وعايش كلّ الأساليب الهدّامة التي لم تغب عن كلّ شيطان. ومن هنا بدأ يحارب الانبهار العلمي والتقدّم التقني والتخلّف العلمي والفكري بإنشاء مدارس حديثة ومؤسّسات ثقافيّة وتربويّة تحتوي أبناء المسلمين؛ لتقوم بتربيتهم وتعزيز بنيتهم

العلميّة والثقافيّة والدينيّة وتوسّع من آفاقهم الفكريّة ورؤاهم السياسيّة، ليكونوا بمستوى حاجات العصر ومتطلّباته وبمستوى المسؤوليّة، فلم يتماد في طلب العلم ولم ينشغل في ما انشغل فيه أقرانه في حاضرة العلم والتقوى «النجف الأشرف»، بل راح يعمل دائباً لحفظ كيان الأُمّة بتوحيد صفوفها وزرع الأمل الكبير في انتصارها على أعدائها، وتعزيز بنيتها العقائديّة والعلميّة لتصبح شجرة باسقة تقاوم كلّ ريح عاتية وتقف أمام كلّ سيل جارف.

إنّ ما حصده الإمام شرف الدين من ثمارٍ مهمّة بنشاط دؤوب في هذه البوّابة الكبرى لنفوذ الغرب الكافر إلى أعماق العالم الإسلامي، وإن لم يكن بمستوى ما أنجزه الغرب في بلوغه لاهدافه، ولكنّه كان عملاً جبّاراً من حيث قدرته على تقديم البديل، ومن حيث قدرته على الاحتواء للأجيال الصاعدة والحيلولة بين المسلمين وبين صيرورتهم أذناباً للغرب المستعمر، حيث إنّ سنيّ الاستقلال وإن لم تكن تعبيراً حقيقيّاً عن الاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي، ولكنّها كانت طريقاً إلى الاستقلال المنشود ولو كان بعد عقود.

وهكذا آتت مشاريع الإمام شرف الدين الثقافيّة والتربويّة أُكلها وهي لا زالت تقدّمها كلّ حين بإذن ربّها، رغم استمرار المخطّطات الغربيّة الاستعماريّة ورغم عتوّها وتجبّرها، لكنّ حزب الله هم المفلحون، كما قال الله تعالى، وبشّر به رسوله الأمين، وشاهدناه في أيّامنا هذه منذ سنين[1].

---

١. فقد نشط حزب الله في لبنان واستطاعت المقاومة أن تطرد الصهاينة وأسيادهم من لبنان وجنوب لبنان، ولا زالت قلوب حزب الله مفعمة بالهدى والإيمان بالنصر الشامل الذي ننتظره على يدي المهدي المنتظر عليه السلام.

الباب السادس

قضايا العالم والبحر المتوسّط

ما بين الحربين العالميّتين

الفصل الأوّل

القضايا الدولية

(١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م إلى ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م)

دور البحر المتوسّط في الحياة الدوليّة

يلعب البحر المتوسّط دوراً نشيطاً جدّاً في الحياة الدوليّة، فهو منطقة اتّصال ومبادلات وتلاقٍ بين حضارات القارّات الثلاث، أوربا وآسيا وأفريقيا، وملتقى طرق بين هذه القارات، وفي الوقت ذاته طريق عبور دوليّة. وقد أخذ هذه الأهميّة الكبرى منذ القديم، وخاصّة منذ افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩م، وأصبح طريقاً بين أوربا والمحيط الهندي والشرق الأقصى.

إنّ القضيّة التي توضع للبحر المتوسّط من الناحية الدوليّة، هي معرفة ما إذا كانت طرق هذا البحر تبقى «حرّة» أو تكون موضوعة تحت «رقابة» دولة أو عدّة دول، يمكنها عند مقتضى الحال أن تمنع استعماله عن الدول الأُخرى.

في قضايا البحر المتوسّط نجد ناحيتين:

١ ـ علاقات الدول الأوربيّة مع السكّان الأصليّين الذين يشغلون المحيط الجنوبي الشرقي لحوض البحر المتوسّط.

٢ ـ علاقات الدول الأوربيّة فيما بينها، هذه العلاقات التي تضع قضيّة توازن القوى في البحر المتوسّط موضع البحث.

المصوّر الجغرافي للمنطقة بعد الحرب العالميّة الأُولى

نجد على محيطه الشمالي أربع دول أوربيّة تتّصل مباشرة بهذا البحر وهي: أسبانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان.

وقد زالت في حوضه الشرقي الامبراطوريّة العثمانيّة عقب الحرب العالميّة الأُولى، ووجدت مكانها تركيا الجديدة.

والمنطقة الموضوعة تحت الانتداب: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وفلسطين وشرقي الأردن تحت الانتداب الإنكليزي.

وعلى المحيط الجنوبي لحوض البحر المتوسّط توجد أراضٍ خضعت جميعاً في العام ١٩١٩م للدول الأوربيّة، وهي.

١ ـ مصر التي احتلّها إنكلترا منذ عام ١٨٨٢م، وأصبحت من جهة حقوقيّة منذ سنة ١٩١٤م، تحت الحماية الإنكليزية. وقد استفادت إنكلترا من قطع علاقاتها مع الامبراطوريّة العثمانيّة، وأعلنت حمايتها على مصر.

٢ ـ ليبيا، منطقة برقة وطرابلس الغرب، التي فتحتها إيطاليا وانتزعتها من الامبراطوريّة العثمانيّة أثناء حرب ١٩١١ ـ ١٩١٢م. ولقد لاقى الإيطاليّون خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨م مشقّة عظيمة في سبيل الحفاظ على منطقة طرابلس إثر العصيان الشديد الذي قام به الطرابلسيّون، حتّى أنّ الإيطاليّين في آخر الحرب لم يشغلوا إلّا بعض نقاط في الساحل.

٣ ـ أفريقيا الشماليّة الفرنسيّة التي تضمّ تونس والجزائر ومراكش ما عدا المنطقة الأسبانيّة في القسم الشمالي من مراكش.

الدول الأوربيّة المهمّة

إنّ أسبانيا واليونان، تلعبان دوراً ضعيفاً في السياسة الدوليّة.

وأمّا فرنسا وإيطاليا فيمكنهما أن تلعبا دوراً هامّاً في هذا البحر.

ثمّ إنّ روسيا وإنكلترا تريدان أن تلعبا دورهما في المتوسّط.

حاولت روسيا قبل ١٩١٤م أن تبدّل وضع المضايق «البوسفور والدردنيل» التي حرم عبورها على كلّ أُسطول حربي، ولم تتخلّ عن هذا الهدف.

وبريطانيا العظمى كان لها دور أساسي لأنّها تقبض على «أبواب» المتوسّط: فهي تقبض على مضيق جبل طارق وقناة السويس، وتملك مالطة الموقع الستراتيجي العظيم على مضيق صقلية.

تقييم الوضع بشكلٍ عامّ

كان في البحر المتوسّط الشرقي تفوّقٌ غير منازع لإنكلترا، فهي تضع يدها على مصر وفلسطين وقبرص. وإلى جانبها توجد فرنسا في سورية ولبنان. وإيطاليا التي تحتلّ جزر دوديكانيز Dodecanese وجزيرة رودس. وفي البحر المتوسّط الغربي تتمتّع فرنسا بوضع ممتاز بممتلكاتها في أفريقيا الشماليّة. وإلى جانبها إنكلترا في مضيق جبل طارق، وأسبانيا في الباليثار و«الحصون Presides» المراكشيّة. ولا شكّ في أنّ بريطانيا العظمى بوجه الإجمال تسيطر على البحر المتوسّط لأنّ تفوّقها عظيم في الناحية البحريّة.

وفي الفترة ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣م حدث حادثان جديدان هدّدا الحالة الراهنة في هذا البحر.

هذان الحادثان هما: الحركات العربيّة والمطاليب الإيطاليّة.

حركات التحرير

كانت هذه الحركات ذات شكل سياسي، وقد نمت في البلاد العربيّة في الشرق الأدنى وأفريقيا الشماليّة، ووقفت حيال الدول الأوربيّة الفاتحة تريد التحرّر

والاستقلال. وقد أخذت في بعض الأحيان طابعاً يرمي إلى الوحدة العربيّة، وتجلّت هذه النزعة خاصّة في سوريا وفلسطين أكثر منها في أفريقيا الشماليّة.

حركة مراكش

إنّ أوّل حركة جديرة بالذكر هي **حركة مراكش** حيث وقعت أسبانيا ثمّ فرنسا في نزاع مع قبائل الريف التي ثارت عليهما، وكان يقود هذه الحركة الزعيم عبدالكريم الخطّابي.

إنّ عبد الكريم قام في نيسان ١٩٢٥م بهجوم واسع على المواقع العسكريّة الفرنسيّة في وادي ورغا الأعلى، أملاً منه في إثارة القبائل المراكشيّة في المنطقة الفرنسيّة وقيامها بالعصيان.

وقد تطلّبت ثورة عبد الكريم هذه جهوداً عظيمة من فرنسا وأسبانيا.

ولمّا لم يتحقّق أمله اضطرّ إلى التسليم في ٢٧ نيسان ١٩٢٦م أمام هجوم القوّات الفرنسيّة والأسبانيّة.

والقضيّة الثانية هي قضيّة مصر

وقد استطاع سعد زغلول باشا لأوّل مرّة أن يوحّد كلمة المسلمين والأقباط ضدّ الإنكليز، وفي ١٣ تشرين الثاني ١٩١٨م طالب المفوّض السامي في مصر بإلغاء الحماية الإنكليزيّة والاعتراف باستقلال مصر. وقد نصّت المذكّرة التي قدّمها الوطنيّون المصريّون إلى مؤتمر السلام على أنّ الاحتلال الإنكليزي لمصر كان «غير شرعي» ولم يكن إلّا أمراً واقعاً؛ وأنّ الدول لم تنتدب إنكلترا للقيام بهذا الاحتلال، كما وأنّ الامبراطوريّة العثمانيّة منذ ١٨٨٢م لم تقبل بوجود الإنكليز في مصر. وتصرّح هذه المذكّرة أيضاً أنّ استقلال مصر يتّفق ومصلحة جميع الدول؛ لأنّ «حياد» قناة السويس لا يمكن أن يكون آمناً حقّاً إلّا إذا كانت مصر مستقلّة.

وعلى أثر اعتقال سعد زغلول باشا قامت الثورة في مصر في مختلف أنحاء البلاد،

وقطعت السكك الحديديّة وقتل بعض الجنود الإنكليز.

غير أنّ السلطات الإنكليزيّة التي كان بيدها الجيش والشرطة بقيت سيّدة الموقف.

فأخذت الحركة شكل المقاومة السلبيّة، وقامت عدّة إضرابات: إضراب المحامين، إضراب مؤسّسات التعليم، إضراب الموظّفين، إضراب مستخدمي السكك الحديديّة إلخ... وقد رأت الحكومة الإنكليزيّة أنّ هذه الحركة الوطنيّة تمثّل قوّة لا يستهان بها فجنحت إلى التنازل.

وصرّحت الحكومة الإنكليزيّة في ٢٨ شباط ١٩٢٢م أنّ مصر أصبحت «دولة ذات سيادة ومستقلّة» وأخذ الخديوي لقب الملك.

غير أنّ إنكلترا صرّحت بأنّ عليها وحدها الاهتمام بأربع قضايا وهي: أمن المواصلات الامبراطوريّة وتقصد بها قناة السويس؛ الدفاع عن مصر؛ حماية المصالح الأجنبيّة في مصر؛ قضيّة السودان المصري.

وبسبب البند المتعلّق بالسودان احتفظت إنكلترا بيدها العليا على مصر.

ولكنّ زغلول باشا وأصدقاءه لم يقبلوا بهذه «النقاط الأربع الخاصّة».

وعندما تألّف المجلس التشريعي لمصر «المستقلّة» في بداية ١٩٢٤م حصل أنصار زغلول على ١٠٩ مقاعد مقابل ٢١ مقعداً للأحزاب المعتدلة، وأصبح زغلول باشا رئيساً لمجلس الوزراء، وحاول أن يتفاوض مع الحكومة الإنكليزيّة ليجعلها تتخلّى عن «النقاط الأربع الخاصّة» ولكنّه أخفق في هذه المحاولة.

وفي كلّ مرّة جرت محاولة انتخابات كانت الأكثريّة بجانب أنصار زغلول. وظلّت الحالة على هذا النحو قلقة بالنسبة للإنكليز.

وكان لهذه الأزمة المصريّة صداها في تونس حيث كان العنصر الفكري فيها على اتّصال دائم مع العناصر الفكريّة في مصر.

ففي آخر حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨م تألّف حزب تونسي وطني، وقامت في تونس حركة وطنيّة عرفت باسم «حركة التحرير» ولم تطالب باستقلال تونس؛ لأنّ الوضع

الحقوقي لإنكلترا في مصر والوضع الحقوقي لفرنسا في تونس يختلفان عن بعض.

وفي ١٣ تمّوز ١٩٢٢م اكتفت الحكومة الفرنسيّة بأن حقّقت في تونس إصلاحات جزئيّة، هي تشكيل مجلس تونسي أعلى ينقسم إلى قسمين: القسم الفرنسي والقسم التونسي، ولكن لم يكن له الحقّ في اتّخاذ قرارات في القضايا الدستوريّة أو السياسيّة.

قضيّة فلسطين وسوريا

وأخيراً تجلّت الحركة العربيّة أيضاً في فلسطين وسورية، ولكنّ طابع كلّ حركة يختلف في البلد عن الآخر.

لقد صرّحت الحكومة الإنكليزيّة حسب «وعد بلفور» في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧م أن تحدث بعد الحرب «وطناً قوميّاً يهوديّاً» في فلسطين، وكان هذا الوعد متّفقاً مع أماني الحركة الصهيونيّة. وفي ٢٢ تمّوز ١٩٢٣م جدّدت الحكومة الإنكليزيّة وعدها بعد أن أوكل إليها الانتداب على فلسطين. ونتيجة لذلك توالت الهجرة الصهيونيّة، فبين ١٩٢١ و ١٩٢٦م هاجر إلى فلسطين ٨٠٠٠٠ صهيوني أتوا من أوربا الوسطى وأوربا الشرقيّة. وكان عدد المهاجرين ٥٥٠٠٠ في العام ١٩١٤م، لذا كان المجموع في العام ١٩١٤م، يقدّر بما يقارب ١٥٠٠٠٠، ويقدّر مجموع سكّان فلسطين آنذاك بـ ٧٧٠٠٠٠ نسمة، ويجب أن نضيف إليهم أيضاً بعض قبائل البدو الرحّل. وكان نسبة العنصر اليهودي بـ ٢٠ ٪ تقريباً.

أثارت هجرة الصهيونيّين إلى فلسطين جوّاً من الاحتجاجات العنيفة في الأوساط العربيّة، وقد خاف العرب على أنفسهم من هؤلاء الصهاينة الذين يحاولون استعمار فلسطين والقضاء على حياتهم. ولم يحتجّ العرب على هجرة اليهود فحسب بل قاموا يحتجّون أيضاً على الانتداب البريطاني؛ لأنّ هذا الانتداب شجّع الهجرة الصهيونيّة. وقد أدّى الاحتجاج إلى قلاقل واضطرابات قامت في القدس ١٩٢٠م ويافا ١٩٢١م ولكنّها لم تأخذ شكلاً خطيراً. ثمّ قام العرب بالمقاومة «السلبيّة» ولم يقبلوا الاشتراك بتأليف «المجلس التشريعي» الذي أراد الإنكليز إحداثه؛ لأنّ الأكثريّة

في هذا المجلس ستكون بجانب الموظّفين الإنكليز. وطالب العرب بأن يكون لهم الحقّ في إشغال عدد من المقاعد يتناسب مع تفوّقهم العددي، فأجابت الحكومة الإنكليزيّة بأنّها وعدت بإحداث وطن قومي لليهود في فلسطين، ولذا فهي لا تستطيع في هذه الشروط أن تعطي الأكثريّة للعرب الذين يعارضون الهجرة الصهيونيّة. ثمّ تعقّدت الحالة وغدت مصدراً لانفجار القضيّة الفلسطينيّة التي لم تنتهِ بعد.

أمّا سورية فقد وضعت تحت الانتداب الفرنسي، ولأوّل وهلة وجدت فرنسا أمام حالة حرجة، ففي الوقت الذي أرادت أن تضع يدها على سورية، وجدت نفسها أمام دولة عربيّة كاملة ـ وهي دولة الملك فيصل ـ وكان عليها أن تفتح البلاد وتدخل العاصمة دمشق.

انتهى الفتح ولكنّ الوضع بقي صعباً؛ لأنّ العرب في سورية لم يستكينوا وطالبوا باستقلالهم، عملاً بالمبدأ الذي طالبت به الشعوب الأوربيّة وهو «حقّ الشعوب في تقرير مصيرها». ورأت فرنسا ـ حلّاً للوضع ـ أن تقسم البلاد السوريّة إلى أربع دول:

دولة سورية بما فيها دمشق وحلب.

دولة لبنان الكبير.

دولة العلويّين.

دولة جبل الدورز.

وفي هذه الدولة الأخيرة انفجرت الثورة السوريّة عام ١٩٢٥م بسبب سوء الإدارة الفرنسيّة.

كانت الثورة رصينة وعمّت الجبل الدرزي وامتدّت إلى دمشق، وقد ركبت القيادة الفرنسيّة متن الطيش فضربت العاصمة بالقنابل في ١٩ و ٢٠ تشرين الأوّل ١٩٢٥م واستمرّت الثورة خلال ١٨ شهراً وأخذت شكل العصابات.

وهكذا نرى أنّ الدول الأوربيّة في جميع البلاد الواقعة في جنوبي البحر المتوسّط

وشرقيّه وجدت نفسها أمام حركات وطنيّة خطيرة كثيراً أو قليلاً، واستعملت السلاح عدّة مرّات لإخمادها خلال ١٩٢٤ و ١٩٢٦م.

إنّ عدم الانسجام والتماسك بين هذه الحركات يُعزى إلى الأزمة التي وقع فيها العرب بعد انحلال الامبراطوريّة العثمانيّة وقيام تركيا الجديدة، وإلى الضغط الاستعماري الأوربي الذي فرّق شمل العرب فأضعفهم وجعل أهل كلّ بلد يناضلون بقواهم الخاصّة، فضلاً عن أنّ هذه القوى كان ينقصها الانسجام، وأنّ بعضهم كان يحارب الآخر كما هي الحال بين ابن سعود والملك حسين.

كلّ ذلك ساعد الدول الأوربيّة على أن تكون سيّدة الموقف، ولكنّ هذا لم يمنع من أنّها بقيت تخشى قيام حركات جديدة وتخشى الواحدة الأُخرى وتتربّص لها وتراقب مشاكلها لتوقع بها[1].

---

١. تاريخ القرن العشرين: ٢٥٣ ـ ٢٦٤.

الفصل الثاني

مواقف وأحداث في سوريا ولبنان

(١٣٤٣ ـ ١٣٥٥هـ)

١ ـ قمع الثورة السوريّة وآثاره

لقد ثارت سوريا كما ثارت سائر بلاد المسلمين ضدّ الاحتلال والاستعمار الذي كانت قد خطّطت له دول الاستكبار الأوربي بعد انتهاء الحرب العالميّة الأُولى، غير أنّ هذه الدول الصناعيّة التي كانت قد أعدّت العدّة لتُنشِب مخالبها في كلّ شبر من الوطن الإسلامي؛ لتكون قادرة على تسويق منتجاتها الصناعيّة، واستحصال الموادّ الأوليّة بأسعار زهيدة جدّاً، والتحكّم والسيطرة على أهمّ المواقع الاستراتيجيّة في العالم العربي والإسلامي.. حاولت بكلّ ما لديها من خطط للخداع والتزوير والتمويه لفرض نفسها ولو بالقوّة على أرض الإسلام وشعوبه، وبذلك استخدمت كلّ وسائل القمع ضدّ الثوّار الغيارى من المسلمين الذين لم تنطلِ عليهم الخطط الماكرة والخدّاعة، حيث استمرّوا في النضال واستمرّ المستعمرون في العنف واستخدام القوّة.

وكان من ذلك ما كان من قمع الثورة السوريّة الكبرى سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م. وقد كان لهذا القمع أثره السلبي على النضال الذي كان قد بدأه أبناء جبل عامل ضدّ الفرنسيّين والإحباط الذي حصل حينذاك، ممّا اضطرّ الغيارى من المسلمين لإعادة النظر في أساليب المواجهة، وتحمّل ضغوط هذه المحنة التي توجّت فيما بعد بالاستقلال الذي عبّر عن اضطرار المستعمرين للخروج من أراضي المسلمين، وإن كان هذا الاستقلال يعبّر عن مرحلة من الانحسار الاستعماري في الوقت الذي كان

المستعمرون قد غيّروا من أساليبهم في استمرار الهيمنة والاستعمار، لما كانوا قد حصلوا عليه بعد الحرب العالميّة الأُولى من غنائم على الأرض وتحت الأرض وتركيع للأحرار بقوّة الحديد والنار.

٢ ـ اهتمام شرف الدين بتربية أبنائه

وهذه الحوادث السياسيّة التي تسيطر على العقول وتأخذ بالألباب، لم تكن لتصرف الإمام شرف الدين عن سائر مهامّه الرساليّة والتربويّة تجاه أفلاذ كبده وأولاده، الذين كان قد بعثهم إلى العراق للدراسة وإحكام البنية العلميّة لهم، ليصبحوا رجال الغد المشرق الذي كان يتطلّع إليه الإمام شرف الدين.

ونلمس هذا الاهتمام الكبير منه في محتوى الرسائل التي صدرت منه إلى أولاده خلال سنة ١٣٤٣هـ.

فقد جاء في الرسالة الأُولى المؤرّخة بـ١٣ / ج ١ / ١٣٤٣هـ والموجّهة لولده الأكبر السيّد محمّد علي شرف الدين:

لقد رهقني من فراقكم أمر صعب، وقاسيت فيه نصباً، وشربت كأسه دهاقاً، ومع ذلك أجد به برد كبدي، وقرّة عيني، تقديماً لمصلحتكم، وإيثاراً لمستقبلكم، فإن بلغنا بكم الغاية المقصودة، وظفرنا فيكم بضالّتنا المنشودة، فهذا هو الفوز العظيم في الدنيا والآخرة.

وقد أطفأ ضرامي، وآنس وحشتي، قول جدّكم ﷺ: «تعلّموا العلم، فإنّ تعلّمه خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، يرفع الله به أقواماً، ليجعلهم في الخير قادة وأئمّة»[1].

وكفى بهذا سلوة عن فراقكم، ولو أنّ كلاماً يأخذ بالأعناق إلى طلب العلم لكان هذا.

أي بنيّ: أوغلوا في البحث والتنقيب، واستفرغوا الوسع في التحقيق والتدقيق،

---

١. انظر أمالي الصدوق ١: ٤٩٢، المجلس التسعون، ح ١.

واستنبطوا دخائل العلم تستجلوا مخبآته، وتهتدوا إلى أسراره، ولا تقبضكم الهيبة عن المناظرة والسؤال والاستقصاء.

أي بنيّ: اختر المجالس على عينك، فإذا رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم، فإنّك إن تك عالماً ينفعك علمك، وإن تك جاهلاً يعلّموك، ولعلّ الله يطّلع عليهم برحمة فتصيبك معهم.

وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإن تك عالماً لا ينفعك علمهم، وإن تك جاهلاً يزيدوك غيّاً، ولعلّ الله يطّلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم.

واصبر نفسك لمن هو فوقك في العلم، ولمن هو دونك، فإنّما يلحق بالعلماء من هو دونهم!

وهكذا يرسم لهم طريق الدراسة والبحث ومنهج المعاشرة وطلب العلم، ويستمرّ في ملاحقتهم بالمواعظ والإرشادات حتّى تتحقّق آماله فيهم، ونلمس ذلك في رسالة أُخرى له إلى أولاده في النجف الأشرف في ١٣ جمادى الأُولى سنة ١٣٤٣هـ، الموافق ٩ كانون الأوّل سنة ١٩٢٤م، فقد جاء فيها:

أي بنيّ: أنتم عدّتي وعددي، ونواكم أشجاني، فشوهة لزمن ينقضي ببعدكم، وبوهة لوطن لا يزدهي بكم، فاعرفوا عنائي في سبيلكم، وأدّوا حقّه بتقوى الله عزّ وجلّ، والمبادرة إلى القيام بفرائضه بنشاط وعزم وارتياح من نفوسكم.

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَلَوَاتِ والصَلوٰةِ الوُسْطى وَقُومُوا لِلهِ قانِتِينَ ﴾[1] وأخلصوا نواياكم لله سبحانه، فإنّه لا عمل بلا نيّة ونيّة المرء خير من عمله.

ألا أُبشّركم أيّها الشبول، والنشء من أفراخ حيدر والبتول، بما أعدّه الله للمخلصين على لسان خاتم رسله ﷺ: «أيّما ناشئ نشأ في طلب العلم والعبادة حتّى يكبر وهو على ذلك، كتب الله له أجر سبعين صديقاً»[2].

أي بنيّ: أنعموا النظر في كلّ ما أكتب إليكم، وكونوا إخوة بررة متناصحين، رحماء

---

١. البقرة (٢): ٢٣٨.

٢. بحار الأنوار ١: ١٨٥، ح ١٠٣.

بينكم، وعليكم بصدق اللسان ومعاشرة الناس بالمعروف.

صلوا من قطعكم، فإنّه لا يحقّ لامرئ أن يهجر امرأً ثلاثة أيام، وما اختلف اثنان فسبق أحدهما إلى الآخر إلى الصلح، إلّا كان أولاهما بالفضل، فإن عاد فعودوا إلى ما يرضيه، وأعطوه العُتبى حتّى يرضى.

ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تبدرن منكم بادرة سوء أبداً، وإن ظلمتم واهتضمتم[1].

وجاء في رسالته الثالثة المؤرّخة بـ ٣٠ / ١١ / ١٣٤٣هـ ما نصّه:

أي بنيّ: إذا حضرتم لتلقي الدرس عن أساتذتكم أو إلقائه على تلامذتكم، أو البحث والتنقيب عن غوامض المسائل مع قرنائكم، أو مع من هو دونكم، أو أعلى منكم، فلا تكونوا كالمستغني بما عنده، المعجَب بنفسه، والتزموا في ذلك أحد ثلاثة:

الأوّل: أن تصغوا إلى من يتكلّم في العلم بمجامع قلوبكم؛ لتفقهوا ما يقول.

الثاني: أن تسألوا سؤال المفيد أو المستفيد، أو الناشد ضالّته.

الثالث: أن تراجعوا مراجعة العلماء، فإن لم يكن عندكم غير الدعوى دليلاً فأمسكوا عن الكلام.

وإذا أُلقي عليكم سؤال، أو وقفتم على مسألة فلا تقابلوا ذلك بالمغالبة أو المغاضبة، ولا تسرعوا إلى الردّ أو القبول بغير دليل مقبول.

وإذا هجمت عليكم مشكلة، أو هجمتم على معضلة، فجدّوا لحلّها جدّ الأحرار، ولا يهولنّكم مرّها فتبلسوا، ولا تستصغروا فيها نفوسكم فتيأسوا، ولا تستخفّوا بها فيفوتكم شرف استجلائها، بل اصمدوا لها بحثاً عن مكنونها، أو تنقيباً عن مخزونها، حتّى تسبروا غورها، وتقفوا على كنهها[2].

وفي سنة ١٣٤٤هـ بعث برسالة إلى ولده السيّد صدر الدين جاء فيها:

بلغني بلوغك الحلم، فبورك لنا ولك في ذلك، وهي نعمة يجب أن تقدّرها حقّ قدرها،

---

١. الموسوعة ج ٩.

٢. المصدر.

وتقوم بأعباء شكرها إذ أسعدك الله بالتكليف، وشرّفك بخطابه المنيف، فإن ائتمرت بأوامره وانزجرت بزواجره كنت السعيد في الدنيا والآخرة، وإن كنت ممّن يخالفه عن أوامره فاحذر من الفتنة والعذاب الأليم.

أي بنيّ: أنت الآن في نجوة من المعاصي، ومنتزحٍ عن الذنوب، فاربأ بنفسك عنها، واحتفظ بما تحرزه اليوم من كرامتك على الله تعالى.

صحيفتك اليوم نقيّة يا بني، فلا تدنّسها بالمنديات ولا تشوّهها بالموبقات، وأنت اليوم طهر، وثوبك طاهر، فلا ترتطم به في حمأة الخطايا، ولا تتمعّك في مراغة الذنوب.

واعلم يا بني بأنّك ظهرت اليوم بمظهر جديد، إذ لم يكن عليك بالأمس رقيب ولا عتيد، ولا كنت مسؤولاً عن شيء، واليوم قد وكّل الله بك ملكين، أجراهما منك مجرى الروح من البدن ﴿إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشمال قَعِيدٌ * ما يلفظ من قولٍ إلّا لديه رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1] ﴿وإنّ عليكم لحافظينَ * كراماً كاتبينَ﴾[2].

فالله الله في نفسك، تداركها قبل أن تتدنّس، فإن كانت قد سوّلت أمراً، أو هجمت بك على شين، فهذا شهر رمضان، فلا تضيّع فيه التوبة من قريب[3].

كما نلاحظ من خلال رسالته التي أرسلها لولده صدر الدين في ٢٥ محرّم الحرام من هذه السنة مدى اهتمامه بتفاصيل أحوال أبنائه الذين أرسلهم للدراسة والحرص على توجيههم الوجهة الصحيحة في الحياة.

وإليك نصّ هذه الرسالة:

يا ولدي يا صدر الدين: أمرتني جدّتك المقدّسة بغفران كبوتك، فأنت براء من ذلك خلاء، ولك في التدخين وعدمه ما تشاء، فاشكر إحسانها، أعلى الله مقامها، واعلم بأنّك وجهة آمال أبيك، وحديث أحلام الكافّة من أهليك.

فأرهف للدراسة عزائمك، وأيقظ جنانك، واخفض لأُستاذك جناحك، وانظر في ما

---

١. ق (٥٠): ١٧ و ١٨.

٢. الانفطار (٨٢): ١٠ و ١١.

٣. الموسوعة ج ٩.

يلقيه عليك ببصيرتك قبل بصرك، واسمعه بعينيك قبل أُذنك، وكن ممّن لا يعاب عليه في قول أو فعل، واضرب على تقوى الله أطنابك واعقد عليه جرابك، وانصلت في امتثال أوامره ونواهيه، وكن في ذلك أمضى من الشهاب المنقضّ.

وأعيذك من شراسة الطبع، ودناءة الوضع.

وعليك بالرفق والصدق، وكن من ﴿ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه ﴾[١].

والحسّ التربوي المرهف والتوجيه الأبوي القوي طاغٍ على هذه الرسائل ويمكن الاستهداء به لكلّ الطلبة والمتعلّمين.

وفي سنة ١٣٤٥ هـ كان قد رزقه الله آخر أولاده والذي سمّاه بالسيّد عبد الله، فكان قرّة عين له وتخفيفاً لألم الفراق تجاه أولاده وبنيه الذين حبّذ لهم البقاء وطلب العلم في حاضرة العلم والتقوى النجف الأشرف.

٣ ـ انتفاضة صيدا

وفي سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٤٨م كانت انتفاضة مدينة صيدا، وفيها اعتقل الشيخ المجاهد أحمد عارف الزين صاحب مجلّة العرفان. وكان الإمام شرف الدين صهراً له حيث كان قد اقترن بأُخت الشيخ المجاهد، الذي كان له سهم كبير في انتفاضة جبل عامل طيلة فترة الانتداب، ولم تكن هذه الانتفاضة منفصلة عن سلسلة الانتفاضات التي بدأها العامليّون للتحرّر من نير الانتداب الغاشم والحكم الكافر.

٤ ـ الكلمة الغرّاء

وفي مستهلّ رجب سنة ١٣٤٦ هـ كان السيّد عبد الحسين شرف الدين قد انتهى من تأليف كتابه الذي سمّاه بـالكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء عليها السلام، وله عليه تعليقة مهمّة قد أنهاها في نفس التاريخ المذكور، وأنهى التعليقة بنداء وجّهه إلى كلّ المطّلعين على

---

١. الموسوعة ج ٩، والآية في سورة الزمر (٣٩): ١٨.

ضالّته المنشودة في العثور على نفائسه المفقودة، وهي تسعة عشر كتاباً قد نُهبت وسُرقت يوم نكب في سنة ١٣٣٨هـ، أي قبل ثمان سنوات في أيّام الاحتلال والانتداب الفرنسي على لبنان.

٥ ـ جبل عامل عند الإمام شرف الدين

وفي سنة ١٣٤٧هـ حين أُسندت رئاسة الوزارة إلى حبيب باشا السعد، وجّه السيّد إليه كتاباً في ٣ جمادى الأُولى الموافق ١٩ تشرين الثاني ١٩٢٨م، دعاه فيه إلى الخدمة العامّة وأشار فيه إلى الحرمان الذي تعيشه منطقة جبل عامل بشكلٍ خاصّ.

وإليك نصّ هذا الكتاب:

ما أشوقني إليك، أتنسّم بك عرف الصفاء، وعهد الوفاء! وما أسعد لبنان بإسناد مقاليد الحكم إلى شخصك، وأنت شخصه الناهض، وقلبه النابض، بل إنّك لست رئيس وزارته المسمّى، ولكن رأسها المفكّر، وعقلها المسيّر!

وما أوفر حظّ الخاصّة والعامّة بتسنّمك مركز القيادة، فإنّك من أُولئك الصفوة والقدوة، ومن هؤلاء الأمل والرجاء!

ومن تقرّأ المستقبل لمح على صفحتك فيه أريكة ممهّدة، تحفّ بها سرر منضّدة، تتسامق إليها الرؤوس وتتطامن النفوس، يشدّك إليها ماضٍ بالتجارب حافل، وحاضر بالكفاءة ماثل، فاحكم صلة بينهما بالعلم والعمل، ليصدق وعدك مع بارقات الأمل.

ولبنان تربة خصبة، يزدهر فيها الزرع، ويدرّ في ربوعها الضرع، فتعهّد هذه الأرض الطيّبة، تؤت أُكلها بإذن ربّها.

أمّا الجنوب و «عاملة» فقسمه الأوفى، إنّ مرابعه يباب، وماءه محض سراب، لم تمتدّ إليه يد ببناء، ولم تُلح له قطّ بارقة رجاء.

ولعلّ يدك الكريمة تسرع إليه بما أبطئ عنه، وتعود عليه بما حرم منه.

هذه تمنّياتي لك، وآمالي فيك، والسلام عليك[1].

---

١. الموسوعة ج ٩.

وهذه الرسالة تكشف عن مدى اهتمامه ﷺ بعمران البلد، وسعيه لرفع الحرمان المتعمّد من قبل السلطات الحاكمة في حقّ الجنوب اللبناني، وهي منطقة جبل عامل المهمّة.

٦ ـ إكمال بناء ثاني المسجدين

وفي هذه السنة أيضاً فرغ الإمام شرف الدين من بناء المسجد الثاني في مدينة صور، وهذا يكشف عن اتّساع نفوذ الإمام شرف الدين واختراقه للأجواء الاجتماعيّة العامّة وتصاعد ثقة الناس به.

٧ ـ تألّق النشاط الاجتماعي للإمام شرف الدين

ويبدو أنّ نشاط الإمام شرف الدين كان يأخذ بالاتّساع والنموّ، ومحاولات البغي عليه وأيضاً محاولات التسقيط له كانت مستمرّة من قبل الأعداء، الذين ما كان ليروق لهم تألّق مثل هذه الشخصيّة النموذجيّة الواعية والمجاهدة والحكيمة في تصرّفاتها وسلوكها تجاه رعونة الأعداء.

وفي الرسالة التي بعث بها إلى بعض أرحامه في العراق ـ ولعلّه السيّد حسن الصدر أو من يليه من آل ياسين بتاريخ ٢٥ شوّال ١٣٥١هـ ـ خير شاهد على الموقع الذي كان قد اكتسبه خلال هذه السنين، ومحاولات التسقيط التي كانت تمارس بحقّه، ويدفعها ربّ العزّة عنه رغم أُنوف الكائدين.

فقد تحدّث في هذه الرسالة عن خدماته ومنشآته لبيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وعن بيته الذي هو شرعة الوارد ومحلّ تكريم الوافدين عليه... وختم الرسالة بقوله:

ولساني وقلمي في نصرة الحقّ وإزهاق الباطل سيفان لا يتكهّمان.

أعوذ بالله من الفخر، وإنّما هي نعم الله عليّ، أُحدّث بها لأكون من الشاكرين، ولأنتصرنّ بها على هؤلاء الباغين.

وأنا بحول الله وقوّته لا أخشى أن يغلبني أحد على أمري، لكن تجرّأهم في محاولاتهم أوجد وهناً في نظر الأغيار لا يناسب أمثالنا.

ولم نرَ ممّن انتصر لله تعالى سوى السواد الأعظم، وكفى ممّن ينتصر الله بهم لدينه، ولولاهم ما عبد الله[1].

٨ ـ رحيل الإمام البلاغي

وفي سنة ١٣٥٢هـ كانت وفاة واحد من روّاد الجهاد والإصلاح، وأحد زملاء الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين في حاضرة النجف الأشرف العلميّة، ألا وهو الشيخ محمّد جواد البلاغي الذي شاطر الإمام شرف الدين في مهمّة الدفاع عن العقيدة في أحلك الظروف الثقافيّة والسياسيّة التي واجهها العالم الإسلامي بشكل عامّ والعراق وسوريا ولبنان بشكلٍ خاصّ.

٩ ـ نصح وإرشاد رئيس الجمهوريّة

وقد تسنّم حبيب باشا السعد في هذه السنة رئاسة الجمهوريّة في لبنان، فوجّه له الإمام شرف الدين كتاباً لفت نظره فيه إلى ضرورة أداء حقّ الله عليه بعد ثقة الشعب به، وذلك في ١٨ رمضان سنة ١٣٥٢هـ الموافق ٤ / ٢ / ١٩٣٤م.

وإليك نصّ الكتاب:

ما أسعد لبنان إذ ألقى إليك مقاليده، فأصبحت منه مكان الرأس من الجسد، كما كنت له مكان العينين من الوجه.

وحين ثنى لك الوسادة، فإنّما وصل بذلك ماضيك المعرق بحاضرك المونق، وتطلّع إلى مستقبلك المشرق.

أمّا أنا فقد صدقت فراستي فيك، وما كنت لتكذبني الظنون، وتحقّق حلمي بك، وما كانت أحلامي أضغاثاً.

---

١. الموسوعة ج ٩.

أمّا أنت فلم تكن رئاستك هي الغاية، وإنّما كانت علامتها وآيتها، وكفاك فخراً أن تكون للهدف علامة، وللغاية آية.

وهذه يا صاحب الفخامة ثقة مطلقة لا يمحض مثلها إلّا لمثلك، وعبء ثقيل لا ينهض بمثله إلّا مثلك.

فاشكر نعمة الله بتتويج ثقة الشعب بالسهر عليه، والعمل في سبيله، تأسو آلامه التي فزع بها إليك، وتحقّق آماله التي وضعها بين يديك.

ولا شكّ في أنّ من كان آية هذه الغاية، لا يسعى في تحقيقها على قدمين، ولكن يطير إليها بجناحين. وإذا كان هذا، فقد عكست مفاهيم السياسة، ووضعت أُسلوبك شعاراً لكلّ رئيس ورئاسة.

والسلام عليك تؤدّي الرسالة، وتحفظ الأمانة[1].

١٠ ـ انتفاضة بنت جبيل سنة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م

وبعد سنتين أي في سنة ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م كانت انتفاضة بنت جبيل، وكانت المواجهة في فلسطين، كما نلاحظ تأسيس حزب الكتائب الماروني في لبنان.

أمّا عن الانتفاضة فقد كتب السيّد جعفر شرف الدين ما نصّه:

ومن الذكريات العامليّة التي عشتها في مطلع شبابي انتفاضة بنت جبيل وصيدا وصور والنبطيّة، بل انتفاضة جبل عامل على مدى فترة الانتداب.

لقد كانت سنة ١٩٣٦م محطّة وطنيّة في جبل عامل على أثر إعلان الثورة في فلسطين، وفرض الفرنسيّين شركة حصر التبغ، وتزويرهم الانتخابات الفرعيّة في النبطيّة. هذه الأحداث حرّكت أحلام العامليّين والوطنيّين بالوحدة مع سورية، وعمّدوا توجّههم بالبطولة والشهادة والسجن.

ففي تلك السنة شغر مقعد أحد نوّاب النبطيّة فرشّح المستشار الفرنسي القوي بتشكوف من يرتضيه لتمثيل النبطيّة في مجلس النوّاب غير مبالٍ برأي الناخبين، وقد واجهه

---

١. الموسوعة ج ٩.

جبل عامل في إجماع منقطع النظير برفض مرشّحه وفرض مرشّح الشعب. ورفع الشعر الشعبي شعار المرحلة فتلقّفته الجماهير العامليّة حداءً ونداء:

بشكـوف خبّر دولتك مـبعوثنا عبد اللطيفْ
بـاريس مربط خيلنا ورصاصنا يلحق جـنيفْ

واستمرّ الرفض لتسلّط الانتداب وعملائه حتّى بلغ حدّ المناداة بالوحدة مع سوريا، فاعتقل الشيخ أحمد عارف الزين وعادل عسيران ومعروف سعد في صيدا، واعتقل سليم أبو جمرا في صور، وألفرد أبو سمرا في مرجعيون. وخرجت صيدا وصور والنبطيّة وبنت جبيل إلى الشوارع، وأقاموا المهرجانات في المساجد، ولم يستقرّوا حتّى أُفرج عن المعتقلين.

وانتفضت بنت جبيل وعيناتا ترفض البندرول وتساند مزارعي التبغ، فواجهتهم حراب المستشار ليبلوا بلاءً حسناً في صدّها، ويمعن المستشار في غيّه فيعتقل الحاجّ علي بيضون وعلي بزّي وموسى الزين شرارة وأنيس الإيراني. وتتطوّر المواجهة فيستشهد مصطفى العشّي من بنت جبيل، ومحمّد جمال وعقيل دعبول من عيناتا، وتقتحم الجماهير دار الحكومة، ويحطّم المناضل حسن بسّام باب سجنها.

ولشتلة التبغ ولقمة العيش شهداء قدّموا دماءهم لهما، ولا يزال دم الشهيدين محمّد حبيب الطيراني ومحمّد علي المقدّم يصرخ منذ سنة ١٩٥١م في ساحة النبطيّة، فيتجاوب معه دم الشهيدين حسن الحايك ونعيم درويش في النبطيّة أيضاً منذ سنة ١٩٧٢م، ولا تزال منتجات معمل غندور مضرّجة بعرق ودماء عمّال من جبل عامل في بيروت.

وسنة ١٩٣٦م كانت المواجهة في فلسطين، فحمل الحاج أمين الحسيني قسراً على مغادرة معقله في القدس عبر البحر، وحاول أن يعرّج على صور للاجتماع بالسيّد شرف الدين فحالت سلطة الانتداب بينه وبين ذلك، فخرجت صور بمظاهرة صاخبة تأييداً لفلسطين والحاج أمين، وأقامت مهرجاناً مشهوداً، ثمّ أمّ وفد صور «ذوق مكايل» حيث حطّ المطاف بمفتي فلسطين[1].

---

١. السيّد جعفر شرف الدين: ٢٧ ـ ٢٩.

تأسيس حزب الكتائب الماروني ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م

وأمّا عن تأسيس حزب الكتائب ففي تشرين الثاني سنة ١٩٣٦م أسّس الموارنة «منظّمة الكتائب اللبنانيّة» على غرار المنظّمات شبه العسكريّة الدارجة آنئذٍ في إيطاليا وأسبانيا، وكان على رأسها بيّار الجميّل الماروني المتأثّر بالنازيّين: قبّعات استعماريّة، زيّ موحّد، قمصان وربطات عنق قاتمة اللون، وتحيّة باليد الممدودة.

وكان آل الجميّل يقيمون ـ منذ أن كانوا في مصر ـ علاقات متينة مع الصهاينة. وبعد مجيئهم إلى لبنان أصبحت تربطهم صلة عميقة الجذور مع القلّة اليهوديّة في لبنان، وكانت الكتائب حماتهم شبه الرسميّين، كما برهنوا على ذلك خلال جميع الحروب التي وقعت بين المسلمين والصهاينة.

لقد ظهر التعاطف بين هذا الحزب وبين سلطات الانتداب التي أخذت تسعى لتعزيز موقع الحزب الجديد بين الأوساط المسيحيّة المقرّبة إليها، بهدف تأسيس قوّة سياسيّة ذات ثقل لمواجهة التيّار الإسلامي المعادي لسلطات الانتداب، وامتدّ التعاون من الصعيد السياسي إلى الصعيد العسكري أيضاً[1].

١١ ـ أجوبة مسائل موسى جار الله

وفي أواخر سنة ١٣٥٣هـ كانت قد وردت على الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين مسائل موسى جار الله التي كتبها تفريقاً لوحدة المسلمين، حيث وجد فيها من نبش الدفائن وإثارة الضغائن ما يشقّ عصا المسلمين ويمزّقهم تمزيقاً، وذلك في دورٍ عصيب وظروف حرجة لا تسع النقض والإبرام، فضلاً عن المحاربة التي ليس بعدها مصاحبة.

---

١. أُنظر المشروع الماروني: ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

فقد رأينا ما كانت تقوم به سلطات الانتداب وعملاءهم لمواجهة التيّار الإسلامي المتوحّد، وكانت التفرقة هي السلاح الوحيد القادر على إضعاف المسلمين.

قال ﷺ: «كان الواجب ترك هذه الغارات، ولا سيّما بعد أن تركتنا فرائس الحشرات».

وقد أجابه الإمام شرف الدين بأجوبة عامّة بما يتناسب مع حراجة الظرف، غير أنّه كان يلحّ في الجواب التفصيلي عليها حتّى طرق كلّ باب وأرسل مسائله إلى كثير من العلماء، فطلب الأجلّاء من أفاضل العلماء من الإمام شرف الدين التصدّي لردّه وإيقافه عند حدّه.

وجاءت أجوبة الإمام شرف الدين بشكل لا يجرح القلوب ولم يقابله بالمثل بل قابله بالأدب والصفح، وانتهى من الإجابة على مسائله العشرين في مدينة صور آخر ربيع الأوّل سنة ١٣٥٤هـ.

وممّن أجابه وردّ عليه بالتفصيل الإمام السيّد محسن الأمين العاملي أيضاً في كتاب تبلغ صفحاته ٤٦٠ صفحة، سمّاه بـالشيعة بين الحقائق والأوهام وهو خمسة أضعاف ما أجاب به الإمام شرف الدين أسئلة هذا التركستاني وإثاراته التي كان يتجسّس من خلال إثارتها ويبحث فيها عن ما يوغر به الصدور[١].

---

١. أُنظر الشيعة بين الحقائق والأوهام: ٩ ـ ١٠.

الفصل الثالث

الحالة الدوليّة في آخر العام ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م

اتّصفت الحالة الدوليّة في أواخر العامّ ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م بأمرين أساسيّين:

١ ـ إخفاق الأمن الجماعي

إنّ الجهود التي بذلت لإقامة نظام جديد للعلاقات الدوليّة ـ حيث تُقصي فيه الدول فكرة المبادرة إلى القوّة، وتوطّد التعاون لتأمين أمنها المتقابل ـ قد ذهبت عبثاً، ويتجلّى ذلك في: إخفاق عصبة الأمم وإخفاق ميثاق «العزف عن الحرب».

إخفاق عصبة الأمم

لقد بدأت عصبة الأمم بحلّ بعض قضايا الخلاف الصغيرة الأهميّة، وبدت قادرة على تحقيق التضامن بين الدول، وأصبحت جنيف وجه العاصمة السياسيّة لأوربا بل للعالم، لكنّها أخفقت تماماً في السنوات العشر التالية. وتعود الأسباب إلى أمرين مهمّين:

الأوّل: ضعف ميثاقها، حيث كانت تعتبر رابطة دول ذات سيادة، ولم تكن اتّحاد دول، فكان من الصعب تحقّق إجماع من كلّ هذه الدول على قضيّة معيّنة. كما أنّ هذه الدول لم تكن مستعدّة لقبول المفهوم الاتّحادي.

والثاني: نزعتها الخاصّة، إذ كانت تحاول الحفاظ على مصالح فرنسا وبريطانيا بدل اهتمامها بحفظ حقوق سائر الدول، كما لوحظ ذلك في قضيّتي نزع السلاح وإعادة النظر في معاهدات السلام.

كان هذا الإخفاق جليّاً في العام ١٩٣٦م لأنّ عصبة الأُمم لم تكن قادرة على معارضة عدوان اليابان على الصين عام ١٩٣٢م، كما لم تكن قادرة على دفع عدوان إيطاليا على الحبشة.

وهذا الإخفاق المزدوج كان له أهميّة عظمى في التطوّر العامّ للحوادث التي أدّت إلى الحرب العالميّة الثانية، وكان واضحاً منذ عام ١٩٣٦م أن «تَسخَر» دولة عظمى بعصبة الأُمم وتعمل كما يحلو لها، وكان الرأي العامّ يعرف ذلك حقّاً.

٢ ـ تفاقم المنافسة بين الدول الكبرى

في العامّ ١٩٣٦م كانت الدول الكبرى تميل إلى تشكيل «كتل» يعارض بعضها بعضاً. وأمام هذا التهديد وقعت الدول الثانويّة في حالة فوضى والتباس، فحاولت جهد المستطاع أن تنسحب من هذا الوضع الحرج.

إنّ الحادث الرئيسي الذي نشاهده في العام ١٩٣٦م هو تشكّل «الكتلة الألمانيّة ـ اليابانيّة ـ الإيطاليّة».

موقف فرنسا وإنكلترا

صرّحت الحكومة الإنكليزيّة في تشرين الأوّل ١٩٣٦م بأنّ بريطانيا العظمى تريد «أن تلعب دورها في المحافظة على السلام» وأنّها تريد أن «تقاوم العنف». وفي ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٦م أعلنت الحكومة الإنكليزيّة في مجلس العموم سياسة التسلّح على أن يكون تنفيذها تدريجيّاً خلال خمس سنوات.

إنّ إنكلترا تأخذ على عاتقها تعهّداً عامّاً بأن تدعم فرنسا إذا ما هوجمت، كما أنّ فرنسا تضع كلّ قواها الحربيّة للدفاع عن بريطانيا.

موقف الحكومة السوفيّاتيّة

كانت الحكومة السوفيّاتيّة قلقة منذ وصول هتلر إلى السلطة.

وفي العام ١٩٣٦م أصبحت الهجمات التي توجّهها الحكومة الألمانيّة ضدّ الاتّحاد

السوفيّاتي قويّة بصورة خاصّة، وقد بلغت نقطة الذروة في مؤتمر الحزب القومي ـ الاشتراكي في نورامبرغ في أيلول ١٩٣٦م، وكانت جميع الخطب التي اُلقيت في هذا المؤتمر ـ من خطاب هتلر إلى خطاب ريبانتروب إلخ.. ـ ترمي إلى هدف واحد وهو البرهنة على أنّ البولشفيّة عدوّ لدود والدعوة إلى «مكافحة البولشفيّة».

وهذا يوضح الاتّجاه الجديد الذي سلكته السياسة الروسيّة، حيث بدأت تهتمّ بنشاط في القضايا الأوربيّة، إذ قبلت في ١٨ أيلول ١٩٣٤م الدخول في عصبة الأُمم وأصبحت عضواً دائماً في المجلس، وقرّرت النضال ضدّ العناصر «المناصرة للحرب»، وبأنّ المخرج الوحيد من الوضع الذي توجد فيه أوربا هو التنظيم الجماعي للدفاع عن جميع البلاد المسالمة.

لقد وجد اتّفاق فرنسي ـ إنكليزي مذاع علناً ولكنّه لم يكن مسجّلاً بنصّ مكتوب. ووجد اتّفاق فرنسي ـ روسي، ولكن لم يكن هنالك اتّفاق روسي ـ إنكليزي.

في ذلك الحين كان مبدأ العزلة ظافراً في الولايات المتّحدة.

والدليل على ذلك هو قانون الحياد الذي صوّت عليه في ٣١ آب ١٩٣٥م، بمناسبة حرب الحبشة. وكان يهدف إلى تعريف موقف الولايات المتّحدة من الوجهة الاقتصاديّة إذا نشبت الحرب في العالم.

وقد تضمّن صكّ الحياد ما يلي:

١ ـ منع بيع العتاد الحربي للمتحاربين منعاً باتّاً.

٢ ـ منع بيع البضائع للمتحاربين منعاً اختياريّاً إلّا إذا دفع المشتري ثمن هذه البضائع نقداً ونقلها بعد أن يأتي ويبحث عنها في الموانئ الأميركيّة.

لقد كانت لصكّ الحياد أهميّة عظيمة، وذلك لأنّ فرنسا وإنكلترا، في حالة افتراض وقوع حرب عامّة في أوربا، تكونان بحاجة عجلى إلى أن تتجهّزا بالبضائع والأسلحة والمؤن من الولايات المتّحدة.

ولذا فإنّ الولايات المتّحدة ستقبع في العزلة في حالة خلاف أوربي.

ولا يغرب عن البال أنّ هذا الحادث كان عظيماً؛ لأنّ الولايات المتّحدة لو أعربت في العام ١٩٣٦م عن إرادتها في مساعدة الدول التي ستقع ضحيّة العدوان، لكان من البديهي أن يتردّد هتلر في إثارة الحرب.

انحطاط السياسة الفرنسيّة في الأحلاف والوفاقات

لقد أبرمت فرنسا بعد عام ١٩١٩م سلسلة من الاتّفاقات مع دول أوربا الشرقيّة والوسطى: عقدت معاهدة مع بولونيا، ومعاهدة مع رومانيا، ومعاهدة مع تشيكوسلوفاكيا، واتّفاقاً عسكريّاً مع بلجيكا، ولكن كلّ هذا كان في العام ١٩٣٦م في حالة انهيار.

لقد تصدّعت سياسة الأحلاف التي أبرمتها فرنسا ولم يبقَ إلّا تشيكوسلوفاكيا أمينة على عهودها لفرنسا.

فقد كانت الدول الثانويّة تقول: إنّ فرنسا تركت ألمانيا تحتلّ رينانيا، وإذا كانت هذه القضيّة تهمّها قبل كلّ شيء نستطيع إذن أن نأمل بأن نقوم بردّ فعل عندما تكون مصالحنا الخاصّة مهدّدة وليست مصالحها.

وحدثت تبدّلات أُخرى في الوضع الدبلوماسي في شرقي البحر المتوسّط، حيث كان الجهد الأكبر لبريطانيا منصرفاً للعمل على مصالحة تركيا ومصر.

وحصلت تركيا بفضل بريطانيا العظمى على عقد مؤتمر دولي جديد نتيجته أنّ تركيا تستطيع ـ في حالة حرب ـ أن تخوّل الأسطول الروسي عبور البوسفور والدردنيل.

وقد اتّخذت بريطانيا هذا الاحتياط؛ لأنّها فكّرت ـ في ذلك الحين ـ بأنّها قد تحتاج يوماً ما إلى الأُسطول الروسي في البحر المتوسّط ضدّ إيطاليا.

ثمّ إنّ المصريّين كانوا قلقين على أثر حرب الحبشة، وذلك لأنّ الإيطاليّين إذا وضعوا يدهم على بحيرة نانا أي على النيل الأزرق، وهو احتياطي الماء الضروري لخصب مصر، فإنّ وضع مصر من الوجهة الاقتصاديّة يمكن أن يكون خطراً جدّاً.

وهذا التهديد هو الذي حدا بالوطنيّين المصريّين إلى البحث عن تسوية مع بريطانيا. ولقد تقرّر في اتّفاق ٢٦ آب ١٩٣٦م أن تعترف بريطانيا باستقلال مصر، وبالمقابل أن تعقد مع بريطانيا حلفاً «دائماً» وهذه المعاهدة تضمن لبريطانيا الحقّ ـ خلال عشرين سنة على الأقلّ ـ في إبقاء قوى مسلّحة لحماية قناة السويس، كما يحقّ للإنكليز خلال ثماني سنوات إبقاء أُسطول حربي في خليج الإسكندريّة. ووعدت مصر أن تضع ـ في حالة ضرورة عاجلة ـ جميع موانيها وجميع مطاراتها وجميع خطوطها الحديديّة تحت تصرّف بريطانيا.

وهكذا بقي الاحتلال الإنكليزي قائماً في منطقة أساسيّة لمصالح إنكلترا.

وأمام خطورة التوتّر الدولي هذه وخطر التهديد بالحرب، التهديد الذي لا يستطيع أحد إخفاءه منذ آخر ١٩٣٦م، هل بالإمكان أن يرى علاج للحالة؟ لقد ظنّ بعضهم أنّ الدواء يمكن أن يبحث عنه في الحقل الاقتصادي.

ففي عام ١٩٣٦م هيّأ رئيس وزراء بلجيكا مشروعاً في «نزع السلاح الاقتصادي» وقال: إذا توصّلنا إلى تحقيق نزع السلاح الاقتصادي أمكننا الوصول فيما بعد إلى نزع السلاح العسكري، ولذا تجب إزالة العوائق التي تضايق التجارة الدوليّة، حتّى أنّه يجب فتح اعتمادات لألمانيا وإيطاليا لتساعدهما على حلّ مشاكلهما الاقتصاديّة، ولكن شريطة أن تخفّضا بالمقابل من تسلّحهما.

غير أنّ هذه القضايا لم تكن في العام ١٩٣٦م المصدر العميق في التنافسات الدوليّة؛ لأنّ مصدر هذه التنافسات كان في تنازع العقائد السياسيّة وفي تنازع «المصالح السياسيّة»[1].

---

١. تاريخ القرن العشرين: ٤١٩ ـ ٤٤١.

الفصل الرابع

مواقف وأحداث قبيل الحرب العالميّة الثانية

١ ـ علماء الإسلام ومناهضة قانون الأحوال الشخصيّة (١٣٥٥ هـ / ١٩٣٧ م)

من أنشطة الإمام شرف الدين الاجتماعيّة والدينيّة على الصعيد العام هي مناهضته لقانون الأحوال الشخصيّة سنة ١٣٥٥ هـ في لبنان.

إنّ محاولة التلاعب بالأحكام الإسلاميّة ومحاولة المسخ الثقافي والديني قد طالت قانون الأحوال الشخصيّة في البلاد الإسلاميّة التي كانت قد تشبّعت بالثقافة الإسلاميّة، وبالرغم من أنّ كلّ إنسان مسلم حرّ في ما يختاره من مذهب أو دين وبالتالي فهو تابع لقوانين المذهب الذي يختاره ويتديّن به، وليس للحكّام الذين ينادون بالحرّيّة والديمقراطيّة أن يمسّوا عقيدة الشعب المسلم ودينه، ولكنّ التدخّل السافر والتلاعب بهذا القانون هو تجاوز واضح للحدود التي تقرّرها الديمقراطيّة وفرض لقوانين لا يرتضيها الإسلام، وانتهاك لأُصول الديمقراطيّة التي كانوا ينادون بها، وبالتالي هي مجاهرة للتلاعب بأحكام الإسلام في هذه الدائرة الخاصّة بكلّ إنسان، وهي اختراق لكلّ الحدود المتّفق عليها دينيّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً، وهي تمهيد لانخراط الدول الإسلاميّة في ضمن الدول العلمانيّة، ومحاولة لإبعاد المسلمين عن أحكام دينهم وضعضعة لبناء الأُسرة المسلمة التي هي العنصر الأهمّ في تكاتف وتضامن المجتمع الإسلامي.

ولم تقتصر هذه المناهضة لتغيير هذا القانون على لبنان بل تعدّت لبنان إلى دول إسلاميّة أُخرى، حيث اعترض علماء المسلمين على هذا القانون في شتّى بلاد المسلمين.

٢ ـ التشرّف بزيارة العتبات (١٣٥٥ ـ ١٣٥٦ هـ)

لقد كان الإمام شرف الدين مترقّباً بريد الظفر بالتشرّف بأعتاب البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه! ليفوز بنصيبه من تسبيحه فيها بالغدوّ والآصال، وليجدّد عهداً بمعاهدها العلميّة وعلمائها الأبرار، فمنّ الله عليه بالخروج من صور إليها.

ظرف الزيارة

بعد ستّ عشرة سنة، وبعد كفاح ثقافي دائب في بوّابة العالم الإسلامي وفي الخطّ الأمامي للمستعمر الكافر ذي المخطّط الماروني الصهيوني للسيطرة على هذا المدخل المهمّ للعالم الإسلامي، وبعد أن بدأت جهود الإمام شرف الدين الإصلاحيّة التغييريّة تثمر ثمرها، وبدأت مشاريعه تخرّج طلّابها مسرعة لتقطف ثمارها اليانعة... طاب له أن يجدّد عهداً بمسقط رأسه في العراق، وبالجامعة العلميّة العظيمة التي أيقظت عنده الهمم العالية وزرعت في نفسه هموم التغيير والإصلاح، وصنعت منه قائداً مقداماً وإماماً ثائراً على صرح الفساد المستشري في أرجاء العالم الإسلامي، والذي كان قد اتّخذ من أرض الشام بشكلٍ عامّ ومنطقة لبنان بشكلٍ خاصّ ثكنة حقيقيّة لتجييش الجيوش وصنع القادة العلمانيّين أو الشخصيّات المسلمة بالاسم والمتكثلكة بالهويّة؛ لتقتحم بلاد الإسلام وتحفظ للصهاينة والمسيحيّين مصالحهم وترعاها باسم الحرّيّة والوطنيّة والتقدّم والتحرّر من كلّ قيود الدين والإنسانيّة.

وكان ابن خاله الزعيم السيّد محمّد الصدر حينها رئيس مجلس الأعيان في العراق بانتظار قدومه، إذ أبرق له برقيّة يستحثّه فيها لزيارة مراقد أهل البيت عليهم السلام وزيارة العراق الذي كان قد تركه منذ أكثر من ثلاثين سنة، وكان الصدر قد أعدّ بعض أجهزة الإعلام للتغطية الخبريّة والإعلاميّة لهذه الزيارة المباركة التي اتّخذت طابعاً رسميّاً وجماهيريّاً أيضاً.

وكان الملك غازي يحكم العراق حينذاك، والمرجعيّة الدينيّة كانت للسيّد أبي الحسن الموسوي الإصفهاني، والحوزة العلميّة في النجف الأشرف عامرة ببعض أساتذة وزملاء الإمام شرف الدين في أيّام دراسته فيها.

وكان الظرف السياسي العامّ في أواخر الفترة الفاصلة بين الحرب العالميّة الأُولى والثانية، حيث الشعوب الإسلاميّة تحت ركام من الضغوط العسكريّة والسياسيّة للدول الأوربيّة، وكانت تنزع إلى التحرّر من هذه الضغوط الجاثمة على صدور الأحرار من علماء ونبهاء وفضلاء وقادة النضال في شرق العالم الإسلامي وغربه. وإيران المسلمة كانت ترزح تحت نير الاستبداد البهلوي الذي لم يتلكّأ في هدم الدين وتنقيص أهله وفتح باب السفور والتهتّك؛ ليدخل المستعمرون إلى بلاد الإسلام من أيّ باب شاؤوا.

أهداف الزيارة

قال الإمام شرف الدين عن أهدافه في هذه الزيارة:

كنت منذ غادرت العراق في شوق وحنين وهيام أهفو نزوعاً على الدوام إلى مشاهده القدسيّة ومعاهده العلميّة .. لآخذ حظّي من ذكر الله تعالى .. لكنّ صوارف الحياة ومشاغلها الثقيلة كانت تحول دون الأُمنية، فكنت أترصّد سوانح الفرص .. حتّى منّ الله عليّ بذلك سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م[١].

ويبدو أنّ هذه الزيارة كانت تعتبر استجماماً له بعد كثرة الشواغل وثقلها عليه خلال فترة الانتداب، التي طالت أكثر من عقد بل طالت أكثر من عقدين، إن لاحظناها منذ هبوب رياح الحرب العالميّة الأُولى سنة ١٣٣٢ إلى ١٣٥٥هـ، أي حوالي ثلاث وعشرين سنة، وهي تناهز الثلاث والثلاثين سنة، أي منذ رجوعه من العراق إلى جبل عامل، وكانت قد تخلّلت إقامته في صور في هذه الفترة سفرتان إلى مصر، وسفرتان إلى المدينة المنوّرة، وسفرة إلى بيت الله الحرام.

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٥٥.

وقد كان يرغب في تجديد عهده بالحوزات العلميّة والعلماء في العراق وإيران ممّن تركهم في أيّام جهاده وكفاحه؛ ليطّلع على التطوّرات العلميّة والسياسيّة عن كثب في أرض الرافدين وبلاد إيران التي كان يقول عنها: حفظ الله الإيمان بحفظ إيران، باعتبارها معقلاً حريزاً للتشيّع ولمذهب أهل البيت عليهم السلام وهو يرى المسلمين تتناوشهم الذئاب العاتية في أرض الشام ومصر وفلسطين ولبنان «بوّابة العالم الإسلامي المهمّة».

مائة يوم من صور إلى صور

كانت الجولة التي قطعها الإمام شرف الدين منذ أن ترك صور وإلى أن عاد إليها مائة يوم ـ من ٢٦ / ١١ / ١٣٥٥ إلى ٧ / ٣ / ١٣٥٦هـ = ٦ شباط ١٩٣٧ إلى ١٦ / ٥ / ١٩٣٧م ـ حيث ترك بغداد إلى دمشق في صبيحة الاثنين ٧ ربيع الأوّل.

وقد قضى من هذه الفترة خمسة وسبعين يوماً في العراق ما بين الكاظميّة وكربلاء والنجف وبغداد، وخمسة وعشرين يوماً منها كانت نصيبه في زيارة الإمام الرضا عليه السلام والسيّدة المعصومة والسيّد عبد العظيم الحسني ـ رضوان الله عليهما ـ في قم والري.

وقد وقف السيّد على معالم التطوّر العلمي والسياسي والاجتماعي في كلّ من العراق وإيران، ولم تسنح له الظروف ليزداد معرفة بما كان يصبو إليه حين سافر إلى إيران، لما سيأتي بيانه حين نقف عند معطيات جولته هذه إن شاء الله تعالى.

مع الإمام شرف الدين من صور إلى صور

١ ـ خرج من صور صباح يوم السبت ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٥٥هـ الموافق ٦ شباط ١٩٣٧م إلى بيروت مع ابن اخيه العلّامة السيّد نور الدين وابن عمّه أبي هاشم السيّد علي وجماعة من خاصّة المؤمنين. ولم يتوقّف في بيروت إلّا قليلاً حتّى بلغ دمشق مساء السبت.

٢ ـ لبث في دمشق حتّى صباح الثلاثاء ٢٩ / ١١ / ١٣٥٥هـ = ٩ / ٢ / ١٩٣٧م وزار فيها السيّدة عقيلة أمير المؤمنين في الراوية، والسيّدة رقيّة في دمشق، ومشاهد أهل البيت في مقبرة باب الصغير من الشام، والمقام الحسيني قرب الجامع الأُموي بدمشق.

٣ ـ سار من دمشق صباح الثلاثاء وورد الرطبة ـ وهي أوّل دار عراقيّة على الحدود ـ مساءً، وكان ينتظره مدير الحدود بأمر من متصرّف الرمادي الذي كان قد أوعز إليه سفر الإمام شرف الدين إلى العراق، فاستراح فيها نحواً من ساعتين، وبعد تناول العشاء تابع السير إلى الرمادي.

٤ ـ وفي الرمادي كان المتصرّف مع مدير الشرطة وبعض رؤساء العشائر، ووفد من بغداد كان قد خفّ لاستقبال السيّد وفيهم العلّامة السيّد محمّد صادق الصدر عضو التمييز الشرعي، والسيّد محمّد هادي الصدر، والسيّد محمّد رضا شرف الدين، والسيّد صدر الدين شرف الدين.

وكان وصول السيّد إلى الرمادي صباح الأربعاء، ثمّ واصل سيره منها بعد استراحة قصيرة، تناول فيها طعام الصباح، فوصل الفلّوجة في الساعة التاسعة صباحاً.

وكان قد خرج من بغداد لاستقباله في الفلّوجة رتل من السيّارات تنوف على الأربعين، يتقدّمهم سماحة السيّد محمّد الصدر ومعه عدد كبير من العلماء والزعماء والأعيان والوجهاء كآل الصدر وآل ياسين وشيوخ العشائر وأعضاء مجلس الأعيان وغيرهم من الكتّاب والأُدباء والمجاهدين.

٥ ـ اتّجه الركب المستقبل ـ وهو يحمل معه السيّد شرف الدين ـ نحو بغداد ووصل دار سماحة السيّد الصدر ظهراً. وبعد استراحة قليلة تفرّق المستقبلون، وبقي عند السيّد الصدر مع جماعة من العلماء للاستراحة ظهراً، ثمّ توجّهوا عصراً جميعاً إلى الكاظميّة لزيارة الإمامين الكاظمين عليهما السلام وكانت تنتظرهم جموع المستقبلين عند جسر الأعظميّة.

يقول الإمام شرف الدين عن اللحظات التي مرّت عليه وهو يشرف على حرم الإمامين الكاظمين:

ما لاح لي أُفق الكاظميّة يتلألأ بأشعّة منائره وقببه الذهبيّة حتّى تلألأت أحلام صباي وشبابي البعيدة ريّقة تسعى إليّ على مهل، وتتهادى في بشر وإيناس، فإذا أنا منها في مهرجان ضجّت أجراسه في نفسي أعياداً وأعراساً، وطبّق عرفه تلك الآفاق طيباً وعطراً، والتقى عمري بطرفيه فاغرورقت عيناي بعبرة، وافترّ ثغري بابتسامة، ومشت في جسمي عواطف متناقضة، حيث أسمع صباي ينادي مشيبي يتعرّفان ويتعفّران بالعنبر الداري من ثرى تلك الأرض التي نما في أعماقها غرسي وأفرع على أديمها غصني[١].

وحين وصل الإمام شرف الدين الصحن الكاظمي الشريف والجماهير تحفّه دخل الحرم فزار وصلّى، ثمّ خرج منها إلى مقبرة المقدّس الإمام السيّد حسن الصدر لقراءة الفاتحة على روحه الطاهرة حيث كان قد توفّي ﷺ في ١١ / ٣ / ١٣٥٤هـ في بغداد ودفن في جوار جدّه الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام.

٦ـ ثمّ استقرّ في بغداد في دار السيّد الصدر عدّة أيّام والناس يفدون عليه من علية القوم وكبار رجال العاصمة والعلماء للسلام عليه والترحيب به. وقد دعا السيّد الصدر العلماء في مأدبة أقامها على شرف الإمام شرف الدين ثمّ الوزراء ثمّ الأعيان والنوّاب، ثمّ شيوخ العشائر العراقيّة في يوم رابع، ثمّ الأهل والأرحام من آل الصدر وآل ياسين في أيّام متعدّدة.

وزاره مؤتمن بلاط الملك غازي، كما زاره وفد من النجف باسم آية الله العظمى السيّد أبي الحسن الإصفهاني، واختلف إليه علماء بغداد والكاظميّة ووجوه البلدين من مختلف الطبقات، وفاضت الصحف العراقيّة بذلك.

وعقدت له الحفلات وعمرت بقرائح الخطباء والشعراء، وكان منها كلمة رائعة

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٦٦.

للدكتور العبقري عزّ الدين آل ياسين، وقد نشرتها جريدة البلاد البغداديّة في العدد ٨٠٢ يوم الخميس ٧ ذي الحجّة ١٣٥٥هـ و ١٨ شباط ١٩٣٧م، وإليك بعض ما اخترناه منها:

لأمرٍ مّا اصطفى الله آل إبراهيم، وختم النبوّة بمحمّد ﷺ وجعل منه شجرة ممتدّة الأغصان، وارفة الأفياء، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

والله أرأف بهذه الأُمّة ـ التي ربّبها على يد نبيّه وهذّبها على هدي آله وخلفائه ـ أن يلقي حبلها على غاربها، دون أن يلقي الحجّة عليها بالنفر الغرّ الميامين من جنده المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الإنسانيّة من قرن إلى قرن، يقفون للدين حين يستهدف للأزمات، وينفحون عنه حين تتهدّده الغارات.

هؤلاء العلماء هم الذين يقودون سفينة الدين إذا ارتطم الموج وعزّ السفين، فيشقّون بها عباب اليمّ يلطمون وجه الحباب بخدّيها، ويصارعون أواذي الموج بمجذافيها، حتّى يفلتوا بها من مظانّ الخطر ويأووا بها إلى ركن وثيق، فيظفرون من الضمير بالرضا والطمأنينة، ومن الناس بالزعامة والإمامة، ومن الله بالهدى والتوفيق.

ولا يكاد يعدم عصر من عَلَم من هؤلاء الأعلام يمتاز عن سواه بمتانة الخلق وصلابة الرجولة، وشدّة الأسر، وقوّة الحيويّة، وصفاء الذهن، ورسوخ اليقين، فيقيمه الله بين الناس حجّة عليهم إذا ضلّوا، ونوراً لهم إذا أدلجوا.

ونحن نريد أن نتحدّث اليوم عن أحد أعلام هذا العصر الذين طبّقوا العالَم الإسلامي كلّه شذىً وعبيراً، وأتعبوا ألسنة المسلمين تهليلاً وتكبيراً، ذلك هو سماحة السيّد عبد الحسين شرف الدين كبير علماء سوريا، وأحد أقطاب الزعامة الدينيّة القويمة في العالم الإسلامي، ولعلّك تقرأ عن ملامح رسمه آيات فضله وعلمه، وأنت إذا عددت قادة العلم والدين والقلم في العصر الحاضر فأنت مضطرّ أن تعدّه في رأس القامة منهم.

برّز على أترابه وزملائه، وبرع على كثرة فضلاء النجف وعلمائها بالذهن الغوّاص، والدرس العميق، والتوجّه الخالص، والاستدلال الصحيح، والاستنباط الموفّق. فكان بشخصيّته الخلّابة، وحججه الصارمة، وبديهته الحاسمة، ومواقفه الحازمة، مثال العالم الصابر الواثق المتفائل المتكامل، الذي يزداد على الأيّام همّة في عزمه، ونشاطاً في

تفكيره، وسداداً في تحصيله، واتّساعاً في كفايته، وغزارة في معارفه.

قفل إلى أهله مجازاً بشهادة الاجتهاد. وفي نفسه آمال المصلح المتحفّز، وفي قلبه همّة الهاشمي الطامح.

ثمّ ما لبث صوته أن دوّى في أرجاء سوريا، وما لبثت مكانته أن أخذت تسمو وتسمو حتّى أصبح مختلف المسلمين هناك على اختلاف أجناسهم ومشاربهم يلجأون إليه، ويأخذون عنه، ويستفيدون منه، ويقتدون به.

تزعّم الركب الديني بمحرابه ومنبره وقلمه، متأثّراً في خططه الإصلاحيّة آثار السلف الصالح، مستشعراً بمسؤوليّته الكبيرة إزاء العصر الجديد وتطوّراته، والجيل الجديد واتّجاهاته. فتجهّز لكلّ ذلك بسلاح من علمه وخلقه وأدبه وهديه وحنكته وحكمته ونشاطه، فارتفع بمستوى الحياة الدينيّة ارتفاعاً لامعاً، وخلق من الشباب المنوّر مدرسة تفهم الدين وترفع شأنه وتقدّر وزنه.

وله في سبيل الله جهاد أبلى فيه، حتّى انجلى عن وطنه محكوماً عليه بالنفي المؤبّد، فكان أوّلاً في دمشق أمنع من جبهة الأسد، ثمّ انجلى عنها إلى فلسطين ومصر فكان فيهما محلّ التقدير والإكبار.

وأُذِن للسيّد بالعودة إلى وطنه، فعاد هذه المرّة زعيماً سياسيّاً ودينيّاً في وقت معاً.

وهو اليوم يستقبل عهد الشيخوخة، ولكنّه لم يستسلم بعد لسلطانها، فإذا أنت رأيته رأيت شيخاً في إهاب شابّ. قويّ الهمّة، ماضي العزيمة، خشن في ذات الله في غير فظاظة ولا جفاء، لا تأخذه في الله لومة لائم، صريح في قوله وعمله، متساوق في ظاهره وباطنه، لا يستحبّ في واحدٍ منهما رئاءً ولا نفاقاً ولا تلبيساً ولا تدليساً، هشّ واسع الصدر، يسع كلّ جليس خُلقه وفضله وكرمه، مهيب هيبة متواضعة رقيقة حبيبة إلى النفس، مفوّه وُهب لسانه وبيانه ذرابة قويّة محكمة يمدّها تفكير جبّار وقريحة ملهمة.

تقرأ في أيّ كتاب من بنات يراعته فتستلهم وحي البلاغة، وروعة الحقّ، وتستمعه يتحدّث إلى مستمعيه فتراه يفرض عليهم الإصغاء بحلاوة منطقه، ورصانة أدائه، فهم لا يملكون معه إلّا أن يعوا فينتفعوا.

ملكة وهبها سيّدنا ـ أدام الله ظلّه ـ فجعلته في مقدّمة القافلة من العلماء الأعلام. وجعلته واحد الناس ذرابة لسان، وقوّة بيان، ومتانة أُسلوب، وبُعد غور. يخرج إلى الناس غير مبيّت للقول، ولا مقيّد للرأي، فما هي إلّا أن يستقلّ صهوة المنبر حتّى تشرئبّ الأعناق إليه، وتتّجه الآذان صوبه، مقبلة عليه، مصغية إليه، منتظرة كلمته، فما هي إلّا أن يداعب خاتمه حتّى تنثال عليه الألفاظ انثيالاً، وتتوارد المعاني وحداناً وإرسالاً، فإذا جلجل صوته في الحاضرين ملأ أسماعهم وعقولهم بما ينتظمه بيانه، من سحرٍ وفتنةٍ، وقوّةٍ وصرامةٍ، وجمالٍ وجلال، ومتاعٍ وإبداع.

تَنشقُ من بيانه نفحة من نفحات جدّه المرتضى، ولا غرو فإنّما هو غصن من غصون سرحته، وفرع من فروع دوحته، وإنّما براهين قضاياه من قواعده، وبيّنات دعاواه من شواهده، ومضامين عبقريّاته من هديه، وأفانين بلاغاته من وحيه[1].

٧ـ انطباعات الإمام شرف الدين عن أيّام إقامته في الكاظميّة:

قال السيّد ﷺ عن هذه الأيّام الحافلة بالخير:

أولتني الكاظميّة بعواطفها الشريفة نِعماً لا ينقضي شكرها، ولا يستوفى ثناؤها. كان استقبالها حافلاً بأعلامها وأعيانها فمن دونهم من سائر الطبقات، وعقدت حفلات غبطة وحبور أنستني هموم الدهر وفواقره، وألقيت فيها الزمام إلى القادة الأعلام آل الصدر وآل ياسين الذين تُكشف بهم الغماء، ويُستدفع بهم البلاء، ولو أقسم واحدٌ بهم على الله تعالى لأبرّ قسمه، فكان لهم نِعَم ليس في وسعي أداء حقّها، وأنّى لي بالقيام ببعض ما يجب من شكرها[2].

٨ـ السيّد شرف الدين في كربلاء:

ولعلّه في السابع من ذي الحجّة كان قد توجّه موكب الإمام شرف الدين إلى كربلاء حيث كان موسم عرفة يتأذّن موعده ويدنو وقته ـ على حدّ تعبيره هو ـ وكان السيّد ممّن يحرص على حضور هذا الموسم العبادي المشهود للمسلمين وشيعة أهل البيت

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٦١ـ ٦٦٦.

٢. المصدر: ٦٦٧.

في كلّ عام، حيث تحتشد فيه مئات الألوف من العراقيّين وسائر المسلمين من الأقطار الإسلاميّة الإماميّة.

وساهمت كربلاء باستقبال رائع للسيّد يومذاك حيث نشرت جريدة البلاد البغداديّة خبر ورود السيّد إلى كربلاء قائلةً:

وأبت كربلاء إلّا أن تسهم بحظٍّ من تقدير سماحة العلّامة شرف الدين، فتُبرز أفذاذها، وتخرج كبارها من الأعلام والأعيان سَفَرةً إلى أبوابها. تستهلّ مطلع البدر في غرّة «شرف الدين» ذلك أنّها تسامعت بمقدمه إلى العراق، وعلمت أنّه زائرها، وهي مصهورة بشخصيّته الإسلاميّة العظيمة، فكان عليها أن تبرهن على إخلاصها وإعجابها به، فاحتشد رجالاتها وفداً كبيراً ضخماً تشرق فيه البشاشة ويضيء له الاستبشار [1].

وقد استقبله فيها كبار علمائها وأعيانها، ثمّ نزل فيها ضيفاً على الشيخ محمّد علي كمّونة.

وقد زاره في كربلاء الإمام الأكبر السيّد أبو الحسن الإصفهاني، وآية الله الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء، والإمام الحاجّ السيّد حسين القمّي، وآية الله الشيخ محمّد رضا آل ياسين، وصنوه آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين.

وقد تلا الأُستاذ الشاعر الكبير الشيخ عبد الحسين الحويزي قصيدة عصماء رحّب فيها بمقدم السيّد وذكر بعض خدماته الجليلة المشهورة المذكورة، فصادفت استحساناً وإقبالاً وأُعيدت كلّ أبياتها مراراً عديدة، وممّا جاء فيها:

عبد الحسين الذي في شأنه اجتمعت ... مناقب بصنوف العلم مختلفَهْ
قدمت في يوم يُمن أنت تعرفه ... والدهر قبلك في أيّامه «عرفَهْ»
وأنت من دوحة العلياء نبعتها ... على جميع الورى بالفضل منعطفَهْ
له الفصول لشرع الحقّ محكمة ... «مهمّة» ليتيم الدهر «مؤتلفَهْ»
أُنظر تجد في معانيه مراجعة ... تهدي أُناساً عن الإرشاد منحرفَهْ

---

١. المصدر: ٦٦٩.

فاسلك بنهج سبيل المؤمنين تجد شكل الهدى قد تجلّى لابساً شنفَهْ
يا ابن الذين سما البيت العتيق بهم والدين أظهر فيهم للورى «شرفَهْ»
أسلافكم للعلى حلّوا سوالفها فجئتم اليوم من نسل العُلى خَلَفَهْ

٩ ـ مع الإمام السيّد حسين الطباطبائي القمّي:

كان الإمام القمّي في الطليعة من أعلام العصر يتقدّم علماء إيران قاطبة، وهو من أتراب السيّد أبي الحسن الإصفهاني، كان قد ترك إيران اعتراضاً على سياسة رضا البهلوي حين فرض السفور على كرائم المؤمنين في إيران، وقد كوّن السيّد القمّي بعد هجرته حوزة علميّة نشيطة في كربلاء.

وقد زار الإمام القمّي السيّد عبد الحسين شرف الدين أكثر من مرّة في كربلاء، وأدب له مأدبة جمعت فحول العلم من طلّاب النجف وكربلاء، وقد وقف السيّد الإمام شرف الدين على علمه وبُعد نظره وما امتاز به من خصائص القدّيسين.

١٠ ـ مع الإمام آل ياسين إلى النجف:

ذكر الإمام شرف الدين أنّ آية الله الشيخ محمّد رضا آل ياسين وصنوه قد أولياه من كرم أخلاقهما ما هو جدير بهما، إذ استقبلاه بلطفهما إلى كربلاء ورجعا به إلى النجف الأشرف محبورين به وهو محبور بهما.

ويبدو أنّ توجّهه من كربلاء إلى النجف الأشرف كان بعد موسم عيد الأضحى المبارك.

١١ ـ النجف وما أدراك ما النجف:

للنجف موقع متميّز بشكلٍ عام، ولها عند السيّد عبد الحسين شرف الدين موقع خاصّ تبدّى من خلال ما كتبه عنها، قال ﷺ وهو يذكر النجف وموقعها ورؤيته لها في هذه الجولة المباركة:

النجف عاصمة العلم والدين، شمخت بهما على هامة المجد شموخاً انحنت له المدارس والمدن والعواصم باخعة مذعنة، وحملت طوال الفترة مشعل النهضة، فكانت وحدها

الصلة التي تسلسلت بها حلقات الدين من جهة، وحلقات العلم والآداب واللغة من جهة أُخرى، فكان لها الفضل في ما نجده اليوم من ازدهار الآداب، وحياة العلوم الإسلاميّة التي حَفِظت ذماء الفكر على نحو لو لم تكن النجف الأشرف لتغلّبت هذه الرطانة الغاشية فطمست على العقول والألسنة، وقطعت تلك السلسلة المباركة [١].

وكان السيّد شرف الدين يرى في النجف أنّها تستطيع أن تجاري الجامعات المتطوّرة بما ينبغي أن يجري عليها من تطوّر في المناهج والموادّ التي يحتاجها طالب العلم من دون أن يؤثّر ذلك على جوهرها.

وكان يتوقّع أن يلمس هذا التطوّر بعد ثلاثة عقود من تركه للنجف، حيث تطوّرت الحياة وازدادت الحاجة إلى العلماء الأكفاء المنفتحين على حاجات العصر المتطوّرة بسرعة وباستمرار.

ولكنّه وجد فتوراً في الحماس والتطوّع للعلم، بحيث كان يخشى منه سوء العاقبة لمثل النجف التي هي كالطود الشامخ على مرّ العصور. فإنّ النجف التي طاولت الأيّام بشموخها وجلالتها ما كان لها أن تشيخ ـ حسب تعبيره ـ بل كان عليها أن تأخذ بالحزم والحكمة في تجدّد نهضتها بما يعيد إليها النشاط.

وقد أخذ هذا الهاجس يقضّ مضجعه، فبدأ يطرحه على العلماء وأصحاب الحلّ والعقد في حوزة النجف الأشرف خلال تواجده فيها، والذي دام حوالي أربعين يوماً، منذ تركه كربلاء بعد عيد الأضحى، وحتّى خروجه إلى خراسان في الواحد والعشرين من المحرّم سنة ١٣٥٦هـ.

لقد كانت المرحلة التي تمرّ بها النجف شديدة التعقيد، وما كانت لتتحمّل الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة طرح مثل هذه الهواجس، غير أنّ السيّد عبد الحسين قد دعا العلماء في بعض مجالسه الخاصّة إلى ضرورة معالجة ما تعانيه حوزة النجف من عدم احتوائها في برامجها لمتطلّبات العصر، فالمبتدئون قلّة وأكثرهم غير محصّلين، وهذا

---

١. الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٧٣ ـ ٦٧٤.

نذير سوء لحوزة شامخة أكثر طلّابها من الشيوخ وفيها قلّة من الشباب؛ لأنّ حضور الشباب فيها علامة النشاط وكثرة النبت وكثرة البذور، تنبئ عن مستقبل تورق فيه هذه الأغصان اليافعة.

وهو حين يقارن النجف سنة ١٣٥٥هـ بالنجف سنة ١٣٢٩هـ يجد فاصلاً كبيراً بينهما من حيث الحيويّة والنشاط، حتّى قال عن الفترة التي كان فيها:

وقد كانت النجف حين تركناها تمتلئ بطلّاب محصّلين من مختلف الصنوف والدراسات، ذوي حيويّة وحرارة يندفعون للعلم وللفهم اندفاعاً تسمع له هديراً يعلو في الصحن الحيدري الشريف والمساجد والمدارس حتّى يبلغ السماء[1].

ويبدو أنّ الإمام شرف الدين كان يعتصر الأسى قلبه وحين يرى النجف بشكل لم يتوقّعه، كان يرى في مؤسّسي منتدى النشر الطموح والجدّ في تطوير المناهج ويرى حركتهم تساير الزمن، ولهذا كان ممّن يشجّعهم ويحترم خطواتهم ويحضر أنديتهم، دعماً وترويجاً لمشروعهم التطويري الذي كان يبدأ من الجذور ليصل إلى أعلى المستويات في النجف[2].

وقد أشاد الإمام شرف الدين بمواقف الإمام السيّد أبي الحسن الإصفهاني، والثلّة النشطة من العلماء الذين احتفّوا حوله في ذلك الظرف العصيب، لحفظ الحوزة العلميّة النجفيّة التي كانت تتعرّض لأقوى موجات التحوّل ولأعنتِ الجهاد وأشقّه، في وقت لم تتسلّح لمواجهته بوسائلها التي تمتلكها فتحفظ توازنها في مهبّ هذه الرياح العاتية.

وبعد هذا فهو لا ينسى تأثير النجف على تكوين شخصيّته التي انطبعت بماء النجف وثقافته، غير أنّ حضوره الفاعل في الساحة السياسيّة والثقافيّة في أرض الشام وجبل عامل، وانفتاحه على الثقافة المعادية وشعوره بالخطر الداهم عن كثب، هو الذي جعله

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٧٤.

٢. كما سوف تلاحظ ذلك من خلال الرسالة الآتية التي كان قد أرسلها الإمام شرف الدين إلى الشيخ محمّد رضا المظفّر.

يلمس الأخطار الكبيرة التي تحفّ بالعالم الإسلامي، بينما كانت النجف تغور في أعماق العلم وأفكار الأُصوليّين والفقهاء.

١٢ ـ لقد عاد الإمام شرف الدين إلى النجف وهو يستعيد ذكرياته يوم كان طالباً فيها، وقد أفصح عن هذه الذكريات بقوله:

ها هي النجف التي شببت في رياضها الغنّ، تزحف بأهلها على الجبل، وينحدر أهلها إلى وادي السلام، ثمّ يوغل كثير من أهلها الأعلام في الصحراء في أرتال من السيّارات تحمل الكواكب والنجوم، ثمّ تعود النجف رويداً رويداً وأعود فيها كما كنت في غمرٍ من هذا الجحفل العلمي المظفّر، ثمّ نكون جميعاً في ضيافة الإمام السيّد أبي الحسن.

ثمّ انتقلنا إلى ضيافة آية الله الشيخ محمّد رضا آل ياسين السخيّة الحفيّة، فانعقدت داره العامرة على حفلاتها ثلاثة أيام تستقبل الوفود والزوّار فيستقبلهم هو بأخلاقه النبويّة، وإلى جنبه أخوه علم الهدى يوطئ لنا ولزوّارنا من أكنافه أعطافاً ولا أعطاف الحرير ... وأقمنا في رحابه أُسبوعاً كانت آناؤه مزدانة بالسحر والمناظرة والفائدة والإمتاع.

وكان من أمتع تلك الحفلات الأدبيّة الحفلة التي أقامتها الرابطة العلميّة الأدبيّة في رحابها الفارهة ـ وذلك يوم الغدير ـ وقد حضرها النخب من حملة العلم والصفوة الممتازة من الفضلاء والأُدباء. وأنشد فيها الخطيب الكبير الشيخ محمّد علي اليعقوبي والأديب الفاضل السيّد محمود الحسين الحبّوبي فريدتين من فرائدهما العبقريّات[1].

ونتبرّك ببعض أبيات القصيدتين، قال الشيخ اليعقوبي:

أأهديك في عيد الغدير التهانيا ... وفيك نرى الأعياد أضحت زواهيا
ومن وجهك العيد استعار سعوده ... فأشرق عن نور يضيء اللياليا
إذا ضلّ عن نهج الهداية معشر ... فما زلت مهديّاً إليها وهاديا

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٨٣ ـ ٦٨٤.

يـحيّيك شـعب قـد نشأت بـظلّه		زمـاناً ومـا فـارقت أهـليه قـاليا
إذامـا دعـا التـوحيد يـوماً أجبته		لتـدرأ عـنه الشـرك: لبّـيك داعـيا
فكـم شُبَهٍ فـي الديـن لفّقها العـدى		تـجرّ عـلى الديـن الحـنيف الدواهـيا
رمت يـدك البـيضا عـصاً «مـوسويّةً»		قـد التـقفت «مـوسى» بـها والأفـاعيا

وممّا قاله السيّد الحبّوبي في قصيدته:

كم صُنتَ شرع «محمّد» من أذؤبٍ		ثـارت عـليه فـثرت ليـثاً مغضبا
وبك اسـتجار الديـن حـين حـميته		بشـبا اليـراع الحُـرّ لا بشـبا الظُّبا
قـلمٌ عـلى القـرطاس يـوماً إن جـرى		عـادت بـه أعـمال أقـوام هـبا
يـا ابـن النـبيّ وتـلك أشـرف نسـبةٍ		مـن للـنجوم لمـثلها أن تـنسبا
قـد جـلّلتك مـن النـبوّة هـيبةٌ		تُـغضي الأنـامُ لهـا العـيونَ تـهيّبا

وأمّا الأديب الفاضل السيّد محمّد نجل العلّامة السيّد رضا الهندي فقد أجاد بقصيدة بليغة، نختار بعض أبياتها:

بك أم بـالعلم هـذا الاحـتفاءُ		وعلى مـن قـام يـثني الخـطباءُ
لك يـا عـمّ عـلى العـلم يـدٌ		بـخع العـلم لهـا والعـلماءُ
شكـر الديـن مسـاعيك التـي		أبـطلت مـا يـدّعيه الأشـقياءُ
يـا عـميد الديـن لولاك لَـمَا		قـام للـدين دعـام وبـناءُ
أنت فـي أُفـق المـعالي كـوكب		شـعّ مـنه للـمضلّين ضـياءُ
عـمٌّ لولاك ولولا قـلم		فـيه للإسـلام والديـن ارتـقاءُ
لمـحا الأعـداء آثـاراً لنـا		شغلوا في درس معناها وشاؤوا
لم نـطق شكـرك حـقّاً إنّـما		لك عـند الله شكـر وجـزاءُ
أنـجح الرحـمن مسـعاك ولا		زلت حـرزاً لك يـرنو الأتـقياءُ
ولتعش يـا شـرف الديـن فـفيـ		ـك عـن الديـن يـردّ الافـتراءُ

وهكذا احتفلت النجف بهذا الإمام المصلح الذي تخرّج منها، وعاد إليها وهو

الجندي المجاهد المرابط على الثغر الكبير في جبل عامل بوّابة العالم الإسلامي الكبيرة، لما لاحظناه من تركيز المستعمرين كلّ جهودهم وأهمّ قواهم لتنصير وكثلكة هذه المنطقة ومصادرتها مع الصهاينة؛ ليتسنّى لهم الاستبداد بالعالم الإسلامي كلّه.

وهذا ما كان يلمسه الإمام شرف الدين وقد أثبتته الأيّام، ولكنّ النجف كانت بلدة محصّنة بين جبلين شاهقين: جبال إيران الشاهقة وجبال الشام، وكأنّ النفوذ الغربي في هاتين الحاضرتين ما كاد يمسّ النجف، لولا أنّ بعض العقول النشيطة والقلوب المستنيرة التي كانت النجف عامرة بها، وكانت ترى الأُفق البعيد وتستشرف المستقبل، هو الذي كان يحفظ للنجف مكانتها وموقعها الريادي في ذلك الحين وفيما بعده إلى أن احتضنت قادةً واعين حريصين على الإسلام والمسلمين كالإمام السيّد محسن الحكيم، ومن حذا حذوه في إيجاد التطوير في الحوزة العلميّة، ولا سيّما الإمام روح الله الموسوي الخميني الذي نفث الروح الأمين في روعه ليتصدّى للمعسكر الغربي في أوج عتوّه وقدرته، وليقضّ مضاجع المستعمرين بثورة عارمة أدخلت العالم الإسلامي بل العالم أجمع في عهدٍ جديد أرجع للإسلام مكانته وقدرته وحيويّته ونشاطه، فكانت الثورة الإسلاميّة الهادرة التي التقت فيها جهود كلّ المصلحين من علماء الإسلام في شرق العالم الإسلامي وغربه، ولا سيّما جهود المصلحين في حوزتي قم والنجف، التي تراكمت وتزامنت فكانت تيّاراً كاسحاً لمخطّطات المعسكر الغربي الذي كان يحلم بالسيطرة التامّة والتحكّم في رقاب المسلمين.

١٣ ـ الإمام شرف الدين ومنتدى النشر:

من خلال الرسالة التي بعثها لمؤسّس الجمعيّة الشيخ محمّد رضا المظفّر ﵀ بمناسبة إهدائه كتاب السقيفة له، ورسالته الجوابيّة للشيخ نلمس تطلّعات السيّد شرف الدين لهذه الجمعيّة وتوقّعه للدور الفاعل لها ولمشاريعها الإصلاحيّة في حوزة النجف الأشرف.

كما نلمس موقفه من الشيخ المظفّر وكتابه الرائع السقيفة، وإليك نصّ الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

السلام على أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين ورحمة الله وبركاته.

أيّد الله شيخنا العلّامة البحّاثة المجاهد الشيخ محمّد رضا المظفّر، وأعزّ أقطاب مجمعه الثقافي الديني لمنتدى النشر، وسلام الله عليه وعليهم وحيّى الله منهم أرواحاً طيّبة طاهرة تصدع بالحقّ في منتداه الكريم.

وبعد: فقد أخذت هديّتكم القيّمة كتاب السقيفة بعين الشكر، ثمّ استشففت فيه أثر الجهد النبيل الجدير بالمؤسّسة العلميّة الطالعة، بما انتظمه من سلامة البحث وسموّ التفكير وحسن الأداء على وجه سدّ فراغاً في المطبعة النجفيّة.

وكنّا فيمن عقد الأمل بـ«المنتدى» يوم تأسيسه وناط به الرجاء أن يكون له الأثر المحمود في توجيه الناشئة الدينيّة وبناء الجيل الطالع وتجديد ميراث النجف في بعث يلائم التطوّر الحاضر ويماشيه في مداه الطويل ووسائله المنوّعة، وذلك أنّي رأيت من قديم أنّ الهدى لا ينتشر إلّا من حيث ينتشر الضلال، وعلى هذا رجوت أن تكون المطبعة وتنويع المنهج الدراسي وإحياء العلوم الإسلاميّة المذخورة كلّ هذا من رسالة منتداكم المرجوّ.

ولم تخلفوا الظنّ ـ ولله الحمد ـ فإنّ الذي يبلغنا من أخباركم السارّة وآثاركم النافعة يثلج الصدر وينعش الأمل، وليس شيء كمأثركم الأخير هذا السفر الجليل داعياً إلى الاطمئنان والاستبشار بمستقبل نيّر يضع النجف الأشرف في مكانه الأسمى ومحلّه الأرفع، والسلام عليكم ورحمة الله.

عبد الحسين شرف الدين[1]

١٤ ـ في سبيل الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام

ونقتطف بعض ما كتبه الإمام شرف الدين عن هذا المقطع من جولته بقلمه:

عشيّة السبت ٢١ المحرّم سنة ١٣٥٦ هـ[2] حملتنا نحو المشهد الرضوي سيّارة خاصّة، ومعي ولداي أبو علي الرضا وأبو الشريف النور وأبو هاشم ابن عمّي.

---

١. أنظر مقدّمة السقيفة للشيخ محمّد رضا المظفّر، الطبعة الرابعة ١٣٩٢هـ. وقد كان تأليفه للسقيفة سنة ١٣٥٣هـ.

٢. الموافق ٣ نيسان سنة ١٩٣٧.

تجاوزنا على عجل إلى خانقين ، وكانت خانقين في منهجنا محطّة للمبيت ، وهي مدينة تقع على الحدود العراقيّة الإيرانيّة .

غادرنا خانقين صباح الأحد منطلقين نحو كرمنشاه ، وحين أتينا قصر شيرين أشعرنا بالانتقال من حكم إلى حكم ، وخضعت حقائبنا للتفتيش وكان سهلاً يسيراً ، فاندفعنا ـ بعد أن أُمضي مرورنا ـ نحو كرند ، نمرّ بين هضابٍ بعضها فوق بعض نهبط مرّة ونعلو أُخرى في طريق جبليّة أعادت إلينا ذكريات من عاملة .

أرحنا فيها ريثما أدّينا فريضتي الظهر والعصر وتناولنا الغذاء هنيئاً مريئاً .

ثمّ أزمعنا نطوي الطريق سراعاً إلى كرمنشاه ، فأتيناها مدينة جميلة المباني عريضة الشوارع طلقة المحيّا .

ساءنا مظاهر السفور فيها بغير احتشام ، وكان ذلك أوّل ما أزعجنا من بدع رضا شاه التي نقمها عليه أُولو العلم والحفائظ والدين ، فكنّا بسبب ذلك في شرّ ليلة .

ثمّ تجاوزناها مصبحين نحو « سلطان آباد » ، فقطعنا مفاوز وقفاراً تنعى على بهلوي إيران عنايته المنصرفة إلى السفور وأمثاله من الشرور أو القشور وترك تلك المروج موماة مجدبة .

وقد بلغناها مساءً .

تمتاز هذه المدينة بقوّة العقيدة ، ورسوخ مبادئ الحقّ ، وصلابة العود في الدين الإسلامي والمذهب الإمامي ، ولها في ذلك مواقف يتحدّث بها الرواة ، وقد أبلت في الإنكار على خلاعة رضا شاه وبدعه . نعرف من قدّيسيها شيخنا الشيخ فتح علي ـ أبا ذر الثاني ـ أعلى الله مقامه . بتنافيها ليلة متنكّرين إيثاراً للعزلة في تلك الظروف الحرجة .

نحو قم

واستأنفنا صبح الثلاثاء سيرنا نحو قم للتشرّف بزيارة ما فيها من الضرائح المقدّسة ، وأشهرها ضريح السيّدة فاطمة بضعة الإمام الكاظم عليه‌السلام ، وكنت دائم الشوق والحنين إلى أخي العلّامة السيّد صدر الدين الصدر وكان في قم ، فأردت علاج لواعجي بنظرة إلى وجهه المبارك ووجوه شبوله الميامين الثلاثة وكان بي إليهم طرب نازع .

هي مدينة العلم الثانية في وجودنا الإسلامي الحاضر ، برعاية إمام كالشيخ عبد الكريم

اليزدي المقدّس، حامي تراثها ومنشئها غضّة زاهية الأعطاف بأعلام هدى كالسيّد صدر الدين الصدر وأنداده في العلم والإخلاص واليقظة والزهد.

وروح المدينة متأثّرة بروحانيّة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام يمثّلها صدوقهم الثاني الشيخ عبد الكريم اليزدي بسمته وهديه، وبمدرسته الجامعة التي تعوّض بمعناها السمين عمّا هزل من هيكل المدينة العمراني.

تضمّ مدرسته نحو ألف من طلّاب العلوم كانوا بأجمعهم عيالاً عليه، ينفق عليهم من صندوق المال المجتمع من أنحاء المملكة، المودع لهذه الغاية لدى جمعيّة من عدول التجّار، يقتفون في إنفاقه خطط الشيخ الخاضعة لسجلّات اقتصاديّة دقيقة جرت على وفق الأُصول الماليّة المعروفة في المؤسّسات المنظّمة.

ولهذا الشيخ في هديه سيرة مشتقّة من سيرة أمير المؤمنين ـ ولا سيّما في الأموال ـ استمرّ عليها منذ ولي الزعامة حتّى لحق بربّه مبروراً مشكوراً، وذلك سنة ١٣٥٥ هـ.

كان يرشّح السيّد صدر الدين الصدر للقيام بالأمر من بعده، ولهذه الغاية استدعاه من خراسان وعزم عليه أن يتوطّن قم، واجتمع الناس بعد الشيخ حوله.

نزلنا ضيوفاً عليه فإذا هوكما عهدناه نجعة المكارم، يرتاح للقرى، ويخفّ للندى، فيّاحاً نفّاحاً، ملكته بنا هزّة الأريحيّة، فمدّت باعه في حسن الضيافة إلى أبعد الغايات، لكنّ الشاه البهلوي بتنمّره وتنكّره وشدّة وطأته على أهل العلم ـ كما ستسمعه ـ أحال السيّد إلى رجل هيّابة ترعابة منقبض على نفسه موحش البسمات، كما أحال غيره من رجال العلم والدين في إيران، ولكنّه على الظاهر كان أشدّ خوفاً من غيره، ولا غرو فإنّ جوّ إيران يومئذٍ كان جوّاً عبوساً قمطريراً، وكان جوّ قم يمتاز في ذلك على غيره لامتيازها بكثرة العلماء وأهل الدين. وهذا ما دعانا إلى الإسراع في المسير وإن عزّ ذلك عليهم وعلينا.

نحو السيّد عبد العظيم

غادرنا قم بعد خمسة أيّام من دخولنا إليها قاصدين مشهد أبي القاسم عبد العظيم ابن عبد الله بن عليّ بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، ومشهده في ضاحية من ضواحي طهران.

وهو من علماء أهل البيت الذين تصرّفت بمصائرهم الأقدار القاسية في عهد الإرهاب العبّاسي .

وقد نزلنا من هذه الضاحية في بستانٍ أغنّ ، يدعى باغ سراج الملك ، فبتنا فيه ليلتين مستجمّين نختلف إلى زيارة تلك المراقد والصلاة فيها ليلاً نهاراً .

وفي ضحى يوم الاثنين مستهلّ صفر ودّعنا عبد العظيم متّجهين إلى خراسان ، فمررنا بالعاصمة الإيرانيّة عابري سبيل ، لم نعرج فيها ولم نقف أثناءها لحظة .

في خراسان

في نحو الساعة الثالثة والنصف عربيّة من ليلة الأربعاء ٣ صفر ندخل طوس عاصمة خراسان مملكة الإمام الثامن الضامن عليه سلام الله ، ونذهب رأساً إلى مشهده الكريم نتمسّح بأعتابه في خشوع وحنين وتبتّل .

وما شاع في أوساط المدينة العلميّة نبأ ورودنا حتّى أعدّت لنزولنا دار الإمام السيّد حسين القمّي كبير علماء إيران يومئذٍ ـ وكان غائباً عن خراسان آنذاك ـ واحتفل بنا أهل العلم والوجوه من أعيان المدينة احتفالاً بالغاً بالرغم من رهبة السلطان المشتدّ ، وعنفه في الأخذ بهذه الاجتماعات والزيارات أخذاً لا هوادة فيه .

وقد أُقيمت لنا مآدب عدّة ، وأنسنا بكثير من أعيان المدينة .

أقمنا في خراسان أيّاماً كنّا جديرين أن نضاعفها زمناً وإفادة من الاطّلاع على ما في المكتبات والآثار ، ولكنّ شبح الشاه المسيطر ردّنا عن ذلك دون أن نروي ظمأنا ونبرّد غليلنا .

العودة

فعدنا وفي أنفسنا نيّة الرجوع إلى هذه الربوع في فرصة تتّسع للاستقصاء .

إنّ علماء طهران أحسّوا بمرورنا في الذهاب ، فحرصوا على أن لا نفلت من أيديهم في الإياب .

ولم يمضِ على ذلك غير وقت قصير حتّى زارنا ثلّة من أعيان العاصمة الإيرانيّة وعلمائها الأعلام .

أمضينا في طهران أيّاماً حافلة بالطرف والأحاديث والمحاضرات ، وأُقيمت لنا مآدب

عدّة حضرها جمهور من أهل العلم والوجاهة في العاصمة الإيرانيّة.

عدنا من طهران رأساً إلى بغداد.

السبب في إسراعنا

كانت مدّة غيابنا عن بغداد في هذا الوجه لا تتجاوز خمسة وعشرين يوماً، على أنّا كنّا نرغب في أن نقف على ما في تلك الربوع من مظاهر الحضارة قديمها وحديثها، وأن نتشوّف ألوان حياة طالما عُني التاريخ بأخبارها الخيّرة، وقد رأينا آثارها في العلم والدين نيّرة وهّاجة ترفع أهلها إلى منازل الصدق والإيمان.

ولكن منعنا عن ذلك أنّ إيران في هذه الفترة كانت تنوء تحت كابوس رضا شاه بشرّ عظيم، وترزح منه تحت حذر باهظ يجهدها بخوف يتّقي فيه كلّ امرئٍ نفسه. وكنّا نسمع من المتحدّثين عن عهود الظلم الفاحش أنّ «للحيطان» آذاناً، مبالغةً في الخوف من جواسيس الإرهاب، ولكنّا رأينا هذه الآذان حقّاً لا ريب فيه في إيران، ووجدنا الممتحنين بحكم هذا ـ الدكتاتور ـ الجبّار يقيمون على أنفسهم من هذا الحذر البالغ رقباء يحصون عليهم الأنفاس، فلا يتردّد منها في رئاتهم إلّا بمقدار.

وكان الجوّ الإيراني في هذا العهد مصاباً بهستيريا عجيبة، فهي في الأهلين خوف يخرس الألسنة، ويحجّر على الأفكار، وهي في الملك ـ الدكتاتور ـ حمّى مسلّحة عنيفة صارمة، توحي إليه أوهاماً ـ في الإصلاح ـ فيمضي لأمرها في غير تردّد ولا استشارة، ويقضيها فرضاً وإملاءً لا يقبلان تلكّؤاً ولا مراجعة، وويل لمن يجعله القدر في طريقه بخبر يسيئه أو يناقشه في أمر مّا.

وكان من أثر هذه الغلظة أن تحاشاه حتّى المقرّبون إليه من الساسة، واجتنبوا أن يخبروه بما يحدث من المكاره الخطرة التي كانت تمسّ سياسة البلاد العليا في الشؤون الخارجيّة والداخليّة على السواء، حتّى بات آخر أيّامه في شبه عزلة، والأُمور تمعن في الفساد دون قائد.

وكان هذا وما إليه عذرنا لأنفسنا في انصرافنا مسرعين، ولا سيّما وهذا الملك يختصّ رجال العلم بعداوة حاقدة، يصوّرها ما قد بلغنا عنه من أنّه كان يكفي في إثارة أعصابه

إثارة ضارية مخيفة أن يرى من النافذة عمامة تمرّ في الشارع، فإذا لمحها كان القصر ـ إذاً ـ معرّضاً لشرّ عظيم، وبلاء منكر.

والذي نعلمه من أسباب هذه العداوة المتأثّرة بنار الحقد أنّ العلماء ـ وهم في إيران ذوو نفوذ كبير ـ عارضوه في كثير من تصرّفاته الخارجة على سنن الدين والعرف، وأنكروا عليه أخذه نساء إيران بالتبرّج والسفور، وحدَّد مآتم ذكرى الطفّ كمّاً وكيفاً بأن حصر زمنها في عاشوراء، وفرض لهم صوراً معيّنة يتلوها الخطيب.

وهذا ما أذكى غضب الشاه فورم أنفه واشتدّ على العلماء متجاوزاً بشدّته كلّ حدّ، ومدّ يده إلى العمائم ينزعها عن الرؤوس، ويربطها بنظام يفرض لكلّ عمامة وثيقة رسميّة لا يحلّ لإنسان أن يلبس العمامة بدونها.

لذلك آثروا أن يتجرّعوا غصص الصبر على جفائه وخشونته هذه، فانكمشوا يمارسون حياتهم بسكينة، وفي ضمائرهم نار يطبقون على وهجها شفافهم طباقاً محكماً.

أمّا نحن فقد أحسسنا ذلك منذ وطأت أقدامنا أرض إيران، وكان واضحاً أنّ العيون والرقباء تتعقّب أثرنا في مراحل الطريق التي حملتنا إلى خراسان ذهاباً وإياباً.

هذه صورة ملخّصة من حياة إيران في الفترة التي قدّر لنا فيها أن نزور إيران، وهي فترة كما ترى لم يواتنا فيها الحظّ للبثٍ طويل يتيح لنا الإفادة في بحث أو تحقيق كما كنّا نتمنّى.

من بغداد إلى صور

أشرفنا على سواد بغداد مساء الخميس ١٨ صفر عائدين من إيران، وكان سماحة الزعيم السيّد محمّد الصدر ينتظر عودتنا في ظاهر بغداد معه نفر من أهلنا.

وتزوّدنا في نحو تسعة عشر يوماً من منازل القدس في مناجع الرضوان، وأغذية الأُنس بين أجنحة الأهل والإخوان، وأقبلنا مدّة هذه الأيّام نعبّ من ذلك عبّاً حتّى أذن السفر بأوبة المسافر، بدت لنا المدّة التي قضيناها. نعمة تفرّ، ولحظة سعادة تمرّ.

وما يغني الأسف والواقع بحكم القضاء والقدر ممّا لا بدّ منه، وبرغمي أنزل على حكم هذا الواقع فأركب السيّارة خفّاق الجوانح يوم الاثنين ٧ ربيع الأوّل، وتمضي بنا فلا تقف إلّا في دمشق، لتُلْقينا إلى جمع ممّن أخبرتهم برقيّة سماحة الزعيم الصدر بحركتنا، ثمّ

لتحملنا جميعاً سيّارات كثر إلى منزلنا من هذا الشاطئ الساجي من شواطئ البحر الأبيض المتوسّط[١].

وهكذا وصل الإمام شرف الدين إلى مركز زعامته وإمامته من الجبل، وإلى مدينة صور التي ألقت بأثقالها على شاطئ البحر الأبيض.

٣ ـ الاحتفال بتأسيس الكلّيّة الجعفريّة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م

ذكرنا في الفصل الخاصّ بمؤسّسات الإمام شرف الدين ومشاريعه التربويّة والثقافيّة، أنّ تأسيس هذه المدرسة في ظرف الهجوم الثقافي الاستعماري يعتبر من أهمّ النشاطات التي كانت تتطلّبها المرحلة الراهنة للعالم الإسلامي بشكل عامّ، وكان يتطلّبها وضع لبنان الثقافي والاجتماعي بشكلٍ خاصّ.

وبعد التمهيدات الكبيرة والمستمرّة التي كان قد بدأها الإمام شرف الدين منذ وروده إلى مدينة صور، وبعد التطوّرات التي حصلت في لبنان طيلة ثلاثة عقود ١٣٢٥ ـ ١٣٥٧هـ من الهيمنة الثقافيّة الاستعماريّة، والاحتلال الغاشم تحت عنوان الانتداب العسكري والسياسي ـ والذي قرأنا خطوطه ولاحظنا تطوّراته في المشروع الماروني والصهيوني ـ وببركة الجهاد المستمرّ والجهود الجبّارة، تكلّلت مساعي الإمام شرف الدين بالنجاح لزرع أوّل نبتة تربويّة تثقيفيّة تعليميّة، تتبارى مع سائر المؤسّسات الثقافيّة لتربية النشء الصاعد في لبنان المسلمة.

وكان يوم افتتاح الكلّيّة الجعفريّة يوماً مباركاً للمسلمين إذ يرون فيه النصر المؤزّر لرسم معالم النصر في المستقبل الذي ينتظر هذه الأجيال الصاعدة.

وقد كانت الجعفريّة حقّاً بذرة مباركة لمجموعة من المؤسّسات التربويّة والمشاريع الخيريّة التي نراها اليوم في وضع متطوّر في أرض لبنان المسلمة.

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٦٩٠ ـ ٧٠٥.

٤ ـ الحرب العالميّة الثانية وتداعياتها في المنطقة ١٣٥٨ ـ ١٣٦٤هـ / ١٩٣٥ ـ ١٩٤٥م

إنّ تركة الحرب العالميّة الأُولى على الدول المتحاربة كانت ثقيلة للغاية، وقد حاولت هذه الدول المنتصرة أن تعوّض خسائرها من خلال استعمار شعوب العالم الإسلامي تحت عنوان الانتداب الخادع، غير أنّها قد حاولت أن تسير باتّجاه تحقيق أمنٍ جماعي عالمي فكانت عصبة الأُمم حصيلة هذا الاتّجاه.

غير أنّ التطوّر الصناعي الذي انهمكت به الدول الأوربيّة، والتنافس فيما بينها للسيطرة على مصادر الطاقة وامتلاك عناصر القوّة، قد جرّها بالتدريج لتخطّط للهيمنة على ما تستطيع الهيمنة عليه.

وقد تصدّت ألمانيا للهيمنة القارّيّة، وبذلك تسبّبت في تحالف الدول الأوربيّة ضدّها، وتمخّض هذا النزوع إلى السيطرة عن حرب عالميّة مدمّرة للمرّة الثانية في حياة الشعوب الأوربيّة. ولم تقتصر آثارها وتداعياتها على شعوبها وإنّما انسحبت إلى دائرة أوسع من البيئة التي استعرت الحرب فيها.

فكان من الضروري أن نقف عند أسباب هذه الحرب وعند تطوّراتها ونتائجها وتركتها الثقيلة على العالم الإنساني والإسلامي معاً.

الباب السابع

الإمام شرف الدين

في أيّام الحرب العالميّة الثانية

الفصل الأوّل

الحرب العالميّة الثانية
ومحاولة ألمانيا للهيمنة القارّيّة
(١٣٥٨ ـ ١٣٦٤هـ/ ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م)

إنّ مشروع الهيمنة القارّيّة الذي أنبأ به هتلر قد تحقّق في قسم عظيم منه بين أيلول ١٩٣٩ ونيسان ١٩٤١م ـ أي في عشرين شهراً ـ. إذ حصل الجيش الألماني في هذه الحقبة على نجاح عجيب نتيجة لتفوّقه فنّيّاً في الطيران ودبّابات الهجوم واتّباع أساليب جديدة في الحرب. وتمّ هذا النجاح ضمن مراحل أربع: أوّلها سحق بولونيا، وثانيها استسلام الدانمارك والنرويج، وثالثها تراجع فلول الجيش الفرنسي أمام الهجوم العظيم الألماني، ورابعها محاولة تركيع بريطانيا العظمى. غير أنّ الطيران الإنكليزي بتميّزه أنزل خسائر فادحة بالطيران الألماني، وبفضل مقاومة الشعب الإنكليزي عدلت ألمانيا عن معركة إنكلترا، بعد أن وضعت إنكلترا نظاماً للكشف عن الغوّاصات الألمانيّة التي استخدمت لضرب القوافل البحريّة التجاريّة لإنكلترا.

لقد كانت ألمانيا في ربيع ١٩٤١م تسيطر إجمالاً على كلّ أوربا إلّا الاتّحاد السوفياتي الذي ظلّ محايداً. وربحت ألمانيا في استثمار البلاد المحتلّة، وأعلنت عن إرادتها لإيجاد نظام جديد لأوربا وهو اتّحاد أوربي تحت إدارتها، غير أنّ البلاد المحتلّة ظهرت فيها قرائن المقاومة لهذا النظام الجديد، لا سيّما والألمان مكروهون في جميع البلاد التي احتلّوها.

ورغم الفوائد العظيمة التي حصلت عليها ألمانيا ووصول الحرب إلى نقطة ميّتة في ربيع ١٩٤١م، عاد توازن القوى بدخول روسيا في النزاع في حزيران ١٩٤١م والولايات المتّحدة في كانون الأوّل ١٩٤١م.

فقد صرّح روزفلت بأنّ هتلر يهدف إلى الهيمنة العالميّة وفي هذا تهديد لأمن الولايات المتّحدة، وبريطانيا هي العقبة ضدّ هذا التهديد، ومن هنا لزمت مساعدتها. فجمّدت الولايات المتّحدة الاعتمادات الألمانيّة والإيطاليّة، وقرّرت إطلاق النار على الغوّاصات الألمانيّة المهاجمة لقوافل السفن الأميركيّة الحامية للعتاد الحربي المرسل إلى بريطانيا.

وهكذا بدأت أميركا بالتدخّل التدريجي رغم سياسة الحياد المعلنة، ثمّ دخلت الولايات المتّحدة الحرب دون تردّد بعد المشاريع التوسّعيّة لليابان في الشرق الأقصى، والتي كان يعتبرها روزفلت بإيحاء ألماني.

وبعد دخول روسيا والولايات المتّحدة في الحرب الأوربيّة تبدّلت وجوه الأشياء تماماً، إذ لم تعد تؤمّل ألمانيا بالنصر في عام ١٩٤٢م، وكان كلّ أملها إنهاك الخصم والحفاظ على ما كسبته بشكل جزئي. ففي آخر تشرين الأوّل ١٩٤٢م تجمّعت وسائل النجاح الضروريّة، مثل نجاح المقاومة الروسيّة مع القدرة الصناعيّة الهائلة للولايات المتّحدة إذ ساعدت على كسب التفوّق الجوّي وشلّ المراكز الصناعيّة الألمانيّة ضمن المقاومة المنظّمة في البلاد المحتلّة، والأهمّ من ذلك دخول روسيا وأميركا الحرب في وقت واحد واستمرار اتّفاقهما إلى نهاية الحرب.

ولقد كان إخفاق ألمانيا في هذه المرّة بشكل كلّي بحيث احتلّت ألمانيا وزال نظامها السياسي نهائيّاً.

قضايا وهموم الإمام شرف الدين في أيّام الحرب

وفي الفترة التي اشتعلت نيران الحرب بين الدول المتحاربة كانت للإمام السيّد

عبدالحسين شرف الدين مواقف ونشاطات جديرة بالوقوف عندها، نشير إلى جملةٍ منها حسب ما تسعفنا بها المصادر المتوفّرة لدينا.

١. كان قد بدأ بكتاب عن تاريخ أبي هريرة استهدف منه ضرورة إعادة النظر في الصحاح التي جمعت الغثّ والسمين من الأحاديث الصحيحة والموضوعة على لسان رواة وشخصيّات اتّخذت من صحبة الرسولﷺ ستاراً لعبثها بأحكام الدين. وجاء تصريحه بالاشتغال بهذا الهمّ في رسالة كان قد بعثها إلى آية الله النجفي المرعشي في قم المقدّسة سنة ١٣٥٩هـ.

٢. صدر له نداء للحلفاء في سنة ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م.

٣. كما قدّم مذكّرة لملك بريطانيا بمناسبة استقلال لبنان في نفس السنة.

٤. كانت له محاولة ناجحة في تجديد المنبر الحسيني وإصلاح هذه الوسيلة التربويّة الإعلاميّة الخطيرة.

٥. كما وجّه رسالة مهمّة إلى كامل بك الأسعد يذكر فيها الوضع المأساوي لجبل عامل، ويحثّه فيها على الإصلاح الشامل لهذه المنطقة المهمّة في تاريخ لبنان والمنطقة بشكل عامّ.

٦. وفي سنة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م كان قد فرغ من تأليف كتاب أبي هريرة.

٧. وفي هذه السنة ـ ١٣٦٢هـ ـ صودرت مدرسة الزهراء التي كان يأمل أن تكون شجرة باسقة في دنيا التربية والتعليم.

٨. وفي هذه السنة أيضاً أُجري التعديل الأوّل على الدستور اللبناني.

٩. وفيها أيضاً نلاحظ عزمه على الهجرة إلى العراق وترك صور تماماً.

ولنأخذ جولة سريعة في هذه الآفاق التي أشرنا إليها في هذا المجال:

١ ـ شرف الدين والمحقّق البحّاثة النجفي المرعشي

مقتطفات من رسالته إلى آية الله النجفي المرعشي سنة ١٣٥٩هـ حيث يشير فيها

إلى همومه ومشاريعه وبعض تأليفاته:

بسم الله تعالى

جعلت فداءك شهاب الدين على من اعتدى عليه، ونوره الساطع لمن اهتدى إليه، حجّة الإسلام وحسنة الليالي والأيّام، يا ابن خيرة الله من خلقه وسلالة الأكرمين عليه والأقربين إليه، والتحيّات المباركات الناميات الزاكيات، تغدو منك وتروح على علم الهدى ومنار التقى وكنه العفو عمّن قصّر في الخدمة، أو قَصُر عن أداء الواجب في شكر النعمة، تلك شنشنة نعرفها من عوارف الهاشميّين، وسجيّة اختصّ الله بها الفاطميّين ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾[١].

تشرّفنا بكتابكم الأخير، حافلاً بعطفكم ولطفكم، أهلاً بما أنتم أهله من الإحسان والحنان وقد شكرت عتبكم الرقيق وأُسلوبكم الأنيق؛ نعم لك العتبى حتّى ترضى، لكنّي أرجو أن لا يسنح في الخاطر العاطر أنّي أنساك، وهيهات هيهات أن يتعلّق القلب بسواك.

فلو أنّي نسيتك بعض يومٍ لتبت مكفّراً بصيام دهري

وإنّما هي الشواغل والبلابل، تحول بين المرء وواجباته.

أمّا بغية الراغبين، فلم يتيسّر لنا طبعها لغلاء الورق في بلادنا بسبب هذه الحروب، وسنرسل إن شاء الله للخدمة من المراجعات و أجوبة جار الله و الفصول المهمّة، ما طلبتم عند أوّل أزمنة التمكّن، حيث أنّ البريد في هذه الأيام لا يتقبّل الكتب.

وفّقنا الله تعالى لإنشاء مدرسة تضمن تعليم أربعمائة ناشئ من أيتام آل محمّد ﷺ مجّاناً فها هي كصرح عظيم بغرفها الواسعة وجامعها الرحب وناديها الفخم، الذي يسع ألف نسمة، نجتمع فيه يوم الغدير ويوم عاشوراء ويوم مولد النبيّ ﷺ ومواليد الأئمّة عليهم السلام وفي كلّ يوم جمعة وعند كلّ مقتضٍ للاجتماع وقد وسمنا المدرسة بـ(الجعفريّة) وأضفنا النادي والجامع إلى الإمام الصادق عليه السلام وتمكنّا ولله الحمد، من أخذ قطعة أرض من الحكومة أمام هذا الصرح المشيّد، لا تقلّ مساحتها عن عشرة

---

١. الحديد (٥٧): ٢١؛ الجمعة (٦٢): ٤.

آلاف متر مربّع، استولينا عليها بمعونة الله تعالى، بعد محاكمات كانت بيني وبين ماليّة الحكومة، كتب فيها النصر بعد سنتين من المحاكمة والحمد لله.

بين يدي الآن مؤلّف قد أمدّنا الله فيه بالتوفيق والتأييد. وقد رأينا أنّ من الحكمة أن يكون هذا التأليف، كترجمة لأبي هريرة وأن يكون اسمه: تاريخ أبي هريرة. وجعلناه ذا فصول: الأوّل في اسمه ونسبه؛ الثاني في حاله قبل أن يسلم؛ الثالث في زمن إسلامه ومدّة صحبته؛ الرابع في حاله على عهد النبيّ ﷺ؛ الخامس في حاله على عهد الخليفتين؛ السادس في حاله على عهد عثمان؛ السابع في حاله على عهد أميرالمؤمنين عليه السلام؛ الثامن في حاله على عهد معاوية؛ التاسع في نوادره؛ العاشر فيما ترويه العامّة من فضائله؛ الحادي عشر في كمّيّة حديثه، الثاني عشر في كيفيّة حديثه، فأوردنا في هذا الفصل أربعين حديثاً ممّن رواه عنه البخاري ومسلم؛ لا تبرك الإبل على مثلها فظاعةً وشناعةً، وتكلّمنا في كلّ حديث بما يوجبه العلم والتدقيق بكلّ اعتدال يقنع الخصم مهما كان عنيداً. واستطردنا في هذا الفصل أحاديث أخرجها البخاري ومسلم من هذا القبيل عن غير أبي هريرة، ثمّ عاتبنا البخاري ومسلماً على إسفافهما إلى هذا الحضيض مع ترفّعهما عن أحاديث في فضل أهل البيت، هي جامعة لشرائط الصحّة عندهما كحديث الغدير ونحوه ممّا أجمع المسلمون على صحّته؛ الفصل الثالث عشر ـ من فصول الكتاب ـ في ذكر الناقمين على أبي هريرة في إكثاره على رسول الله من الصحابة والتابعين، الرابع عشر في اعتذار أبي هريرة عن كمّيّة حديثه وعن كيفيّته بأنّ النبيّ قال لأصحابه: أيّكم يبسط ردائه ليحثو له العلم حثواً؟ فلم يبسط رداءه إلّا أبو هريرة فحثا له من العلم ما يشاء، ثمّ قال له: ضمّه إليك، فضمّه فلم ينسَ شيئاً بعدها أبداً. وقد علّقنا على هذا العذر ما يناسبه، والحمد لله وهو المسؤول أن يوفّقنا لما يرضيه من الأعمال الخالصة لوجهه الكريم إنّه أرحم الراحمين.

إنّ كتبكم في الغالب تكون خالية من التاريخ وهذا ممّا يوجب الانتباه إليه، والمؤمن مرآة أخيه.

سيّد عبد الحسين شرف الدين الموسوي
١٤ شعبان ١٣٥٩

٢ ـ نداء الإمام شرف الدين للحلفاء ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م

كان للعرب خلال الحرب العالميّة الأُولى صوت بعيد المدى، متجاوب الصدى، وجهاد صدق بذلوا فيه أنفسهم وأموالهم، مؤثرين فيه موت الكرام، على حياة اللئام، يريدون ليحطّموا الأغلال، طلباً للحرّيّة والاستقلال.

وكان ساسة العرب يعلّقون كبير آمالهم على الحلفاء، وينيطون بهم الثقة البلهاء، في ظروفهم السوداء، حتّى إذا وضعت الحرب أوزارها، تكشّف للعرب أنّهم وضعوا آمالهم في معسلة من الكذاب، ومشربة من السراب، فإذا بتلك الوعود هراء، وتلك العهود هباء، وإذا بهم يعانون على يد حلفائهم من الإحن، ما يعاني المفاجأ بقلب ظهر المجن، وقد خبّأ الدهر له عجباً.

ولم يكن أشرس من المخبآت ضروب العدوان، ولا أمضّها ألوان الهوان، ودع عنك تقطيع البلاد دويلاتٍ أشتاتاً، وتمزيق الأديان طوائف أنداداً، وتفريق الصفوف طرائق آحاداً.

وهذه سورية مختزلة التخوم، مجتزأة الأطراف، وقد بيع لواء الاسكندرونة ومقاطعة عموريتها، حتّى إذا ثارت حفيظة رجالاتها، رموهم بالعصيان، وأخمدوا ثائرتهم بنار الطغيان.

بيد أنّ العربي مرهف الحسّ، كبير النفس، تتّقد وطنيّته فلا تطفأ، وتثور حميّته فلا تهدأ، وهو اليوم وقد عركت الحرب الحاضرة عينيه، يتحرّك لاستنجاح قضيّته على صهوات العراب، وأسلات الجهاد المستطاب.

ولكنّ حلفاء اليوم غير حلفاء الأمس، وإذا كانوا أمس قد استخفّوا بصداقة العرب، فإنّهم اليوم يسعون إلى كسب ودّهم على طريق الوفاء بعهدهم، وهذا رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيّتها يبرمان وعد الحلفاء بالدفاع عن الشعوب المتطلّعة إلى الاستقلال ومؤازرتها في العمل على تقرير مصائرها.

وإنّ الشعب العاملي، وهو سهم في كنانة العرب وسيف في قرابهم، يدلي بدلوه مع دلائهم، بمطالبه المصيريّة التالية:

أوّلاً: الاستقلال التام الناجز لسورية بحدودها الطبيعيّة التي عرفت بها في مختلف حقب التاريخ، والتي كانت عليها قبل الحرب العالميّة الماضية.

ثانياً: إنّ سورية بحدودها هذه وحدة لا تتجزّأ، وإعادة أجزائها المقتطعة التي كانت تعرف ببرّ الشام ـ في العهد التركي وما قبله ـ شرط حياتي لا نتنازل عنه.

ثالثاً: إنّ الدولة العربيّة السوريّة ترى نفسها ـ بحكم العوامل الجغرافيّة والتاريخيّة والاقتصاديّة واللغويّة والقوميّة ـ مضطرّة مصيريّاً إلى المساهمة في اتّحاد مع الدول العربيّة الشقيقة المجاورة، يكون مبنيّاً على إلغاء الحواجز الجمركيّة، وتوحيد برامج التعليم والسياسة الخارجيّة والدفاع.

رابعاً: إنّ فلسطين من سورية بمنزلة العينين من الوجه، ومن العرب بمنزلة القلب من الجسد، ولا قرار واستقرار بانفصالها عنها، والرفض حتّى الموت لوعد بلفور.

خامساً: لا يرضى السوريّون والعرب إلّا باسترجاع لواء الإسكندرونة ومقاطعة عمورية إلى سورية الوطن الأُمّ.

سادساً: العفو العام عن جميع المعتقلين والمبعدين من جميع الأنحاء السوريّة.

إنّنا إذ نتوجّه بهذا النداء إليكم، فلأنّنا نعلم أنّ النظرة إلى العرب اليوم ليست كالبارحة، وأنّ حلفاء اليوم يريدون ليكفّروا عن الخلف بالوعد ونقض العهد بعد الحرب العالميّة الأُولى بالوفاء للعرب في الحرب الراهنة، وأن يكون العرب حلفاء الحلفاء خير من أن يكونوا أصدقاء الأعداء، وهذا ما تقرّرونه أنتم سلباً أو إيجاباً، فاختاروا ما هو أحمد للعقبى، وإنّنا لمنتظرون![1].

٣ ـ مذكّرة الإمام شرف الدين لملك بريطانيا بمناسبة يوم استقلال لبنان ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م

أتوجّه بمذكّرتي هذه إلى مقام صاحب الجلالة، أفزع بها برجاء العرب عامّة، والمسلمين خاصّة، ولا سيّما مسلمو لبنان وسورية، متوسّلاً بأسباب آمالهم التالية:

---

١. الموسوعة ج ٩.

أوّلاً: يودّ العرب لو يتناسون الذكريات الأليمة، ويرفعون الجرح الثخينة، وقد منّاهم بهذه وتلك خفر بريطانيا العظمى وحلفائها عهدهم، ونقضهم ودّهم، آمل أن يكون الحاضر غير الماضي، والغائب غير الآتي.

ثانياً: الاستقلال الذي أُعلن في لبنان في هذا اليوم ٢٦ / ١١ / ٤١ م مهزلة من المهازل التي كانت تمثّلها حكومة فرنسا الغابرة في ليل طويل مقداره عشرون سنة، ومثل هذا الاستقلال يتناقض مع مفهوم العهد الجديد، الذي أعلنت فيه بريطانيا بزوغه، وأبرز قواعده حرّيّة كلّ بلد في تقرير مصيره، على ضوء الحقّ والعدالة والحرّيّة. وربط الاستقلال بدولة أجنبيّة هو تسلّط صارخ يجتاح الاستقلال نصّاً وجوهراً.

ثالثاً: أُمنيتنا الكبرى توحيد العراق وسورية بحدودها الطبيعيّة المعروفة في حقب التاريخ المختلفة، لأنّ هذين القطرين الشقيقين تجمعهما وحدة طبيعيّة وعوامل تاريخيّة وجغرافيّة واقتصاديّة ولغويّة وقوميّة.

رابعاً: إذا مني العرب باستحالة وحدة القطرين لتناقضات عربيّة أو عاطفيّة، فإنّ سورية بحدودها الطبيعيّة وحدة لا تتجزّأ، وإنّ أشلاءها التي اقتطعت منها، كانت تعرف ببرّ الشام، نُجمع مع العرب على أنّ إعادتها مطلب مصيري غير قابل للمساومة.

خامساً: إنّ فلسطين ليست جزء سورية الجنوبي، بقدر ما هي قلبها النابض المتّصل بقلوب العرب جميعاً، والعرب يستميتون دون وعد بلفور.

سادساً: إنّ الدولة السوريّة العربيّة المرتجاة بحكم عوامل الزمان والمكان واللغة ووحدة الهدف والمصير ترى نفسها صاحبة الحقّ في الدعوة إلى اتّحاد عربي مع الشقيقات المتجاورات، يقوم على إلغاء الحواجز الجمركيّة وتوحيد برامج التعليم والسياسة الخارجيّة والدفاع[1].

---

١. الموسوعة ج ٩.

٤ ـ تجديد المنبر الحسيني

قال السيّد جعفر شرف الدين نجل الإمام شرف الدين عن هذه الظاهرة المهمّة في حياة والده ما نصّه:

في سنة ١٩٤١م ألمّ في صور الفتى الطالع آنذاك الشيخ محمّد نجيب زهر الدين، صعد المنبر الحسيني فكان عرضه لثورة الحسين جديداً على خطباء الثورة الحسينيّة لذلك العهد المعتمد على سفائن مخطوطة فيها من المبالغات ما لا مزيد عليه، ومن السخف ما لا يقبل به الذوق والعقل. وهذا ما كان يرفضه أبي ويعمل على تغييره، حتّى أنّه رضوان الله عليه كان يقوم في كثير من الأحيان مقام المقرئ الحسيني معتمداً على استخراج العِبرة من هذه الثورة النوعيّة لا على استدرار العَبرة حزناً وأسفاً. فالحسين لا يبكى عليه بل يقتدى به، ومقولة: «يا ليتنا كنّا معكم» تعني أن نكون مع مبادئه في أيّامنا وتاريخنا فالتمنّي باطل إذا لم توضع الأُمنية موضع التنفيذ، رفضاً للظلم وثورةً عليه. حتّى إذا كان الشيخ محمّد نجيب زهر الدين في صور وقع أبي على ضالّته فيه فاستبقاه عنده يعبّئه بهذه المعطيات ويضع له كتابات فيها، ويطلعه على أبحاث كبار العلماء والأُدباء من القدامى والمحدثين التي تدور حول ثورة الحسين على ضوء هذه الأفكار. وهكذا تجدّد فكر المنبر الحسيني في تلك الحقبة من تاريخ جبل عامل. ورائدها اليوم الشيخ محمّد نجيب زهر الدين والسيّد علي الحكيم.

الحداثة في مشاريع شرف الدين

وكان من مشاريع أبي أن ينشئ في الكلّيّة الجعفريّة فرعين إسلاميّين يمنحان شهادة ثانويّة، يؤهّل خرّيجي الفرع الأوّل للدراسة الإسلاميّة العالية بالنجف وقم فقهاً وأُصولاً وما إليهما. ويؤهّلهم الفرع الثاني للدراسات الإسلاميّة العالية إعلاماً وخطابةً وتاريخاً مقارناً بالثورات الإسلاميّة والعالميّة.

رعاية شرف الدين لحَمَلة العلم

وكان ﷺ يعطي الأولويّة في اهتماماته لهذه العلوم وحامليها، ذلك أنّ العالم الحقّ هو معلّم الناس وهاديهم إلى الصواب وقائدهم في مسيرتهم الخلقيّة والاجتماعيّة

والوطنيّة، وكان يحرص على أن ينفر من كلّ فرقة طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم. وكان يتسقّط أخبار الذين نفروا إلى النجف الأشرف حتّى إذا أنس في أحدهم استيعاباً لما أخذ، وقدرةً على عطاء ما أخذ توجّه إلى بلدته في جبل عامل وبشّر أهلها بنضوج عالمهم في النجف وحضّهم على دعوته للعودة، ثمّ تفقّد جامع البلدة والبيت المعدّ لسكناه. حتّى إذا شعر بموعد قدومه استقبله إلى بيروت في ثلّة من أهله وقومه ورافقه إلى بلدته وصلّى بصلاته تشجيعاً على احترامه وحملاً لمواطنيه على طاعته[١].

٥ ـ رسالة الإمام شرف الدين لأحمد بك الأسعد

٢٠ / ١١ / ١٣٦٠هـ ـ ٩ / ١٢ / ١٩٤١م

لقد تضمّنت هذه الرسالة شرح الوضع المأساوي لمنطقة جبل عامل، وقد جاء فيها:

... وقد جاء دورك في هذا الدور بإجماع الكلمة عليك، وحانت فرصتك بتوجّه الشعب إليك.

فانهض ببلادك ولا ترض لها بالدون، ولا تقنع بالهون، بعد أن ضربت عليها الذلّة عشرين سنة، يسيطها الاستعمار، وتقودها يد الاستثمار، حتّى أصبحت ترى أنّ الحتف أولى بها من الذلّ والخسف.

وقد احتشد بالأمس عندنا جمعها، واحتفل لدينا حشدها، تعهد إليكم بانتزاع حقّها الصراح، ونصيبها المستباح، وإذا كان لا بدّ من تسمية المطالب التي أناطوا استنجازها بكم، فهي هذه:

أوّلاً: الحقوق المشروعة في الوظائف بمختلف الدرجات، في مختلف الدوائر والمؤسّسات. والظلامة أوضح من الشمس، إذ لم ينل جبل عامل عشر حقّه، بينما تتمتّع بعض المناطق والفئات بحقوقها كاملة، ويتمتّع بعضها الآخر بحقوقه وحقوق غيره.

ثانياً: إرواء جبل عامل أرضاً وبشراً من الليطاني الذي تهدر مياهه في البحر، بينما

---

١. السيرة الذاتيّة للسيّد جعفر شرف الدين: ٦١ ـ ٦٢.

يتحرّق الناس عطشاً، وتبور أرضهم سغباً، وربما ورد الناس والسائمة معاً «برك» المياه الآسنة.

ثالثاً: تعميم المدارس الرسميّة، فإنّ سائر القرى العامليّة محرومة منها، أمّا القصبات فإنّ فيها مسمّى مدارس، ولا تزال الكتاتيب تقوم مقام الحكومة بتعليم الناشئة، كأنّنا في القرون الغابرة.

رابعاً: تعبيد الطرقات، فإنّ القرى كانت معزولة عن الطرق العامّة، فضلاً عن الطرق الرئيسيّة بحيث أنّ المريض يموت قبل أن يصل إلى المدينة، والحامل تسقط حملها، فضلاً عن العزلة التامّة التي يعانيها سكّان القرى.

خامساً: اعتماد أطبّاء يسدّون الفراغ الصحّي الفتّاك، ويتلافون ما يمكن فيه من الأمراض المستوطنة كالملاريا والتيفوئيد والتراخوما.

سادساً: إصلاح المحاكم الشرعيّة، وإسناد القضاء إلى عدول العلماء، ليلوا الحكم بما أنزل الله.

هذا ما عمد به السواد الأعظم إليكم من مطالب البلاد الملحّة، ولا شكّ أنّكم عهدتم به لأنفسكم من قبل.

وأنت أعزّك الله أولى من ينهض بهذا الأمر، ولا نرضى لك إلّا الصدوع به إلى المسؤولين.

وإذا رأيتم أن أكون ظهيركم فيه، فإنّني ذلك الذي عرفتم شكيمته، وبلوتم عزيمته، ثمّ لا أرجع حتّى أعقد آمالكم بالفوز، وأُذيّل مسعاكم بالنجح.

وها إنّني صدقتكم رأيي، ومحضتكم رجائي، وأنتم أهل ومحلّ للأهل والمحل ...[١].

٦ـ مقتطفات من رسالة أُخرى إلى آية الله المرعشي النجفي

سنة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م، وفيها إخبار بالانتهاء من تأليفه لكتابه القيّم حول الصحابي أبي هريرة:

بسم الله تعالى

السلام على أهل بيت النبوّة وموضع الرسالة ورحمة الله وبركاته.

حجّة الإسلام وملاذ الأنام وعلم الأعلام وحسنة الأيام، لا زلت شهاب الدين

---

١. الموسوعة ج ٩.

على من يعتدي، ونجمة المشرق لمن اهتدى، وعلمه لمن التجا، وعيلمه لمن ارتجى. والسلام عليك وعلى من لديك في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى ورحمة الله وبركاته.

إنّ طوارق الأيّام العصيبة وأحوالها العجيبة لم تدعني آخذ بحظّي من مراسلتكم، وأفوز بنصيبي من مواصلتكم، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. عسى أن تكونوا في سلامة وعافية ونعمة ضافية، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

الكتب التي أمرتم بها لم نجدها في بيروت والشام ولا سبيل لنا اليوم إلى مصر لنبحث عنها، ومتى تمكّنّا نقدّمها إن شاء الله تعالى، والله المسؤول أن يرفع الغمّة عن الأُمّة ويعيد مياه السلم إلى مجاريها.

فرغنا من كتاب أبي هريرة، فخرج كتاباً فيه ما شئت من علوم زاخرة وحجج قاطعة، وأُسلوب في نصرة الحقّ جديد، والحمد لله على إكماله وهو المسؤول في التوفيق لنشره، ولا يكون ذلك في بلادنا إلّا بعد انتهاء الحرب لنفاذ الكاغذ فيها.

والآن مشغول في مراجعة بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين، وكنتم ذكرتم أنّ في قزوين جماعة من أرحامنا يتّصلون بصاحب المدارك، فأرجو أن تفيدونا عنهم على سبيل التفصيل، وليكن ذلك كشجرة نعرف منها الأصل بجميع فروعه لندرج ذلك في البغية، وستخرج بعون الله على ما تبتغون.

ولي مسألة أرجو أن تمعنوا النظر فيها، ومجملها أن لجدّنا شرف الدين عمّاً ذكره شيخنا الحرّ في أمل الآمل، فقال: السيّد حيدر بن السيّد نور الدين علي بن علي بن أبي الحسن الموسوي العاملي الجبعي، عالم فاضل صالح، جليل القدر، سكن إصفهان إلى الآن. انتهى[1].

والذي أُكلّفكم به أن تبحثوا لي عن هؤلاء السادة وذراريهم، وتعرّفوني بما تستفيدونه من البحث عنهم على سبيل التفصيل، وأنا في انتظار الجواب، وأسأل الله الهداية للصواب، وأن يعظّم لكم الأجر ويجزل لكم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

١. أمل الآمل ١: ٨١.

فأنتم اليوم المرجع والمفزع في هذا الفنّ الشريف، وقد نُطنا بكم الأمل في تحقيق هذه المهمّة.

عبد الحسين شرف الدين الموسوي
صور، ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٦٢

٧ ـ تعطيل مشروع مدرسة الزهراء

قد أشرنا في البحث عن مؤسّسات الإمام شرف الدين لمدرسة الزهراء، وما عمله هذا الإمام الواعي للظروف ومتطلّباتها، وما قام به من جهود لحفظها، وما ناله من الأسى عند تعطيلها ومصادرتها[١].

٨ ـ تعديل الدستور

وأمّا التعديلات التي أُجريت على الدستور، فقد أشرنا إلى أنّ هذه التعديلات كانت باتّجاه حفظ مصالح الحكّام الموارنة من أجل ضمان بقاء الحكم في أيديهم.

٩ ـ العزم على الهجرة إلى العراق ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م

وقبيل انتهاء الحرب العالميّة الثانية، وبعد هبوب رياح الفوضى العاتية في أعقاب الحرب العالميّة الأُولى، وسيطرة المستعمر الكافر على بلاد المسلمين، وما كان يكيده أعداء الإسلام للمسلمين ضمن شعارات أخّاذة كالتقدّم والحرّيّة والديمقراطيّة وما إليها من مفاهيم تودي بالأخلاق، وتبعث على عصيان أوامر الدين وانتشار الفسق والفساد، وعزل علماء الدين عن الموقع التغييري في مجتمعاتهم، وتفكّك عرى الإصلاح الديني والأخلاقي، وبثّ روح اليأس والخنوع للواقع الفاسد، وإذا بهذا الأسد الشهم يزأر في ميدان الإصلاح من جديد، ويحاول تحريك السواكن بإظهاره العزم على

١. تقدّم في ص ٣٣٣.

الهجرة وترك البلاد إلى حاضرة العلم والتقوى النجف الأشرف التي كان قد زارها قبل سبع أو ثمان سنوات.

وينتشر هذا النبأ المؤلم لعلماء المنطقة وكبار أهاليها، ويقفون صفّاً واحداً ليكتشفوا السبب، وليتكاتفوا معه لإصلاح ما فسد، وليدافعوا عن كيان المسلمين في أحرج الظروف. وينثني الإمام عن عزمه بعد أن تتوحّد الكلمة ويقضي على الفرقة ويُشعل مصباح الإصلاح والأمل بالنصر في النفوس، فيقف العلماء وقفة رجل واحد ضدّ الجهلاء وأصحاب النفوذ من طبقة الإقطاع الذين كان لهم دور في محاربة رائد الإصلاح ومشاريعه التي تتقاطع مع أهداف الاستعمار وذيوله.

الأسباب ومجرى الأحداث

وهكذا يتّضح أنّ عزمه على الهجرة لم يكن إلّا تخطيطاً جديداً للنهضة، وشدّ العزم على الاستمرار في طريق الإصلاح.

ويتّضح ذلك جليّاً بمطالعة خطابه التاريخي الذي توجّه به إلى العلماء يومذاك، وموقف العلماء التأييدي لخطواته وأهدافه ومشاريعه. وإليك نصّ خطابه:

السلام على حضنة الإسلام، وسدنة شرائع الله عزّ وجلّ، وحفظة الآثار النبويّة، وحملة علوم آل محمّد صلى الله عليه وآله وسفرائهم، ورحمة الله وبركاته.

جاء في صحيح الأثر عن سيّد البشر صلى الله عليه وآله: إنّ العلماء ورثة الأنبياء[1]، فبخ بخ للعلماء ما استنّوا بسنن الأنبياء، وجروا على سننهم يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويجتهدون بالمشورة لأنفسهم ولأُمّتهم، ويخلصون لله عزّ وجلّ في العبادة، وللعباد في الإرشاد والإفادة، وهذا هو النصح لله تعالى ولنبيّه ولأئمّة المسلمين ولعامّتهم، وعليه كانت سيرة السلف من علماء الإماميّة في جميع الأقطار.

كانوا قدّس الله أسرارهم لا يضيعون في شيء ممّا قلناه فرصة، ولا يستوطئون في سبيله

---

١. بحار الأنوار ١: ١٦٤، ح ٢.

راحة، تواترت بذلك أخبارهم، وشهدت به آثارهم الخالدة.

ولنكتفِ الآن بذكر العامليّين منهم خاصّة: كانوا ـ وهم في بلاد أُميّة ـ ينفذون الهمم في سبيل الحقّ المسلوب ـ حقّ آل محمّد ﷺ ـ ويشحذون العزائم في سبيل الإرث المغصوب ـ إرثهم ﷺ ـ لا تروعهم في ذلك سلطة أُولئك الغاشمين، ولا تنال من عزائمهم ملمّات تلك الأوقات، ضاربين على مبادئهم الحقّة أطناب صبرهم، يتلقّون المحن في سبيلها برباطة جأشهم، حتّى سلكوا بأُمّتهم أعدل المسالك، فأدركت بجهودهم أفضل المدارك، محكمين لها قواعد الإيمان، ووسائل الهدى والرضوان، فإذا معالم الدين ظاهرة ودروس الحقّ زاهرة، وإذا بيان الطائفة ناصع، وجامع مقاصدها برهان قاطع، وروضتها جنّات النعيم، وسبيلها الصراط المستقيم، فذكرى أُولئك الأعلام خالدة بخلود آثارهم الشريفة إلى يوم يبعثون.

كانوا ـ شكر الله جهودهم ـ لا يتعظّمهم أمر في سبيل ما يبتغون من الخير لأنفسهم ولأُمّتهم، فإذا تعذّر أو تعاصى عليهم ذلك في بلادهم هجروها في سبيل ما يبتغون، وارتحلوا إلى غيرها وهم على جمام من أنفسهم ونشاط من عزائمهم، كما فعله شيخنا البهائي، والمحقّق الكركي، وشيخ الأحرار الأبرار والفقيه الوحيد الشيخ علي بن الشيخ محمّد الحفيد، وجدّنا السيّد علي نور الدين الموسوي ـ أخو صاحب المدارك ـ وأولاده الأعلام الخمسة، وحفيده السيّد صالح ابن السيّد محمّد بن السيّد شرف الدين، وكثير من أعلام الهدى ومصابيح الدجى أمثالهم، ذلّلوا العقاب ووضعوا الصعاب بهجرتهم، اضطلاعاً بالأعباء من مهمّات الدين، قصداً إلى خطيرات الأُمور من شؤون المؤمنين.

ولمّا علم الله تعالى منهم الإخلاص في هجرتهم إلى دار الغربة، وبعدهم عن الأهل والأحبّة، آواهم من عزّته وقوّته إلى ركن منيع، وأحلّهم من فضله ونعمته في جناب مريع، عاقداً بالفوز آمالهم، مذيّلاً بالنجح مسعاهم.

وحين ارتفعت منازلهم، ووقرت مهابتهم، أوسعوا مهاجرهم علماً وهدياً، وطبّقوها استقامة وكرامة، على أنّ بعضهم إنّما هاجر إلى دار التقيّة والخوف من الهلكة، ومع ذلك فقد عادت هجرته على الطائفة بنفع جزيل وفوائد عظيمة، كما فعله السيّد علي نور الدين الموسوي إذ هاجر أوّلاً إلى دمشق فأحيا فيها روح الهدى وكانت قد بلغت

التراقي، وأفاض من سائغ العلوم ما أثلج به غلل أهل الحقّ، ونشر من أدلّة الشريعة ما شدّ به قلوب الشيعة.

ثمّ ارتحل سنة ١٠٤٠ هـ إلى مكّة المعظّمة أعزّها الله تعالى، مهاجراً إلى الله سبحانه ومجاوراً بيته الحرام، ثمانياً وعشرين سنة، فكان له فيها جاه ومنزلة أنفقهما في خدمة الدين والمذهب، بالرغم من ظلم ذلك العصر وظلماته المتراكمة.

وكم له في سبيل الدعوة إلى الحقّ مواقف تطيش بها حلوم الرجال، وترجف من هولها أطواد الجبال، ثبّته الله فيها بالقول الثابت، وأظهره فيها بالحجج البالغة، ولم يزل ثمّة يدعو بحكمته وأساليبه إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم، حتّى أجاب داعي ربّه أواخر سنة ١٠٦٨ هـ.

هذه لمعة من سيرة سلفكم ورثة الأنبياء عليهم السلام رفعتها ولعلّكم بها أعرف، رجاء أن تقبلوا عليها بانبساطكم، وتسترسلوا إليها بأُنسكم، فإنّ فيكم والحمد لله من يرجع إلى رأيهم، ويستصبح بنور هديهم، وعندهم فصل الخطاب، ومفصل الحقّ والصواب، فهم خلف ذلك السلف لو شمّروا للصالحات كما شمّروا، وحسروا لها عن سوقهم كما حسروا، وكان حبل أهل العلم اليوم متّصلاً كحبلهم، وشملهم مجتمعاً كشملهم، وكنّا كما كانوا يداً واحدة، ترمي عن قوس واحد، إلى غرض واحد، جماعه النصح لله ولعباده ـ وهذا أمرٌ له ما بعده ـ ولَهو أفضل عمل يعمله العاملون.

فهل يا تُرى تجتمع عليه كلمتكم، وتتّحد فيه وجهتكم؟ فيكون أمركم فيه شورى بينكم، لا سبيل فيه لأحد عليكم كائناً من كان، على شرط أن لا نكون من السياسة في شيء ما، وأن لا نكون من أهلها في سلب أو إيجاب، وأن لا نعنى إلّا بما عُني به سلفنا الأعلام من شؤونهم الخاصّة، وشؤون طائفتهم الدينيّة: دعوة إلى الخير، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وإصلاحاً لذات البين، وإرشاداً للضالّ بالحكمة والموعظة الحسنة، وإعانة للضعيف، وإغاثة للهيف، وعطفاً على اليتامى، ولطفاً بالأيامى، وشفقة على الفقراء، ورفقاً بأبناء السبيل، ورعاية للناشئة تعود عليها بالتأديب والتهذيب والتربية الإسلاميّة، وعناية عظيمة تختصّ بنا نحن أهل العلم نتبادلها فيما بيننا تعود علينا بشرف لا يقع عليه للدنس ظلّ، ونزاهة تذود المروءةُ عنها طير المتطيّرين.

وحقّ على من ناطت الأُمّة بهم ثقتها، وألقت إليهم مقاليد دينها، أن يكونوا نقيّي الصدور، مأموني الضمائر، ناصحي الدخائل، تتواطأ على الخير قلوبهم وألسنتهم، ويستوي في الإخلاص لله ولعباده غائبهم وشاهدهم، فلا يستوحش أحد من ناحيتهم، ولا تحاك الوساوس منهم في صدر أحد.

وهذه صفقتي أعطيها لمن بايعني منكم على ذلك، شاكراً لبعض الأعلام منكم بما أرهفوه من طبعي لهذه النهضة، وشرحوا صدري لدعوتكم إليها، وبما جلوا عنّي من صدى الفتور بنشاطهم وأريحيّتهم في هذه المهمّة، وإنّ الأُمّة ستتلقّاها منكم بنفوس طيّبة، ووجوه متهلّلة، فإنّ نهضتكم هذه لوجهة آماليها، وقبلة رجائها، ولهي مراد أماني المؤمنين، وحديث أحلام العاملين. ولكم في المهاجر أبطال يرتاحون للندى، ويخفّون للمعروف، قد بسطوا في المشاريع الخيريّة أعنّة مكارمهم، وفجّروا فيها ينابيع تبرّعاتهم، وسترون بعون الله تعالى منهم ما يستأنف نشاطكم، ويعود عليكم بالغبطة والحبور في مشروعكم، تذييلاً لمساعيكم بالنجح، وعقداً لآمالكم بالفوز في ما يبتغون.

ومتى تبايعتم وتعاقدتم على هذه النهضة، وقمتم بأعبائها، أدخلتم أُمّتكم في حياة جديدة سعيدة، وآويتموها منكم إلى ركنٍ شديد، لا يهتضم فيه جانب، ولا تلين فيه قناه، فتسنّموا ـ لله آباؤكم ـ هذه الذروة المنيعة، وتوقّلوا بأُمّتكم هذا الأوج الرفيع، وخِطّوا لها خطط العزّ، وابنوا لها مجداً مؤثّلاً. فقد امتلأت خمولاً في الحسّ، وضعفاً في النفس، وضعةً في الهمّة، ورضاً بالهوان، وقناعةً بالحرمان، وإخلاداً إلى الصَغار، واسترسالاً في الانحطاط عن الأمم كلّها. ولعلّكم من المسؤولين عن ذلك يوم ينادى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ ﴾[1].

لا تأخذوا عليّ إذا ألفتكم إلى الحال التي انتهى إليه كثير من صنفنا خمولاً وضِعة، وازدراءً بهم وبآرائهم وأفهامهم وعقولهم، واستخفافاً بعلومهم وشيوخهم ومدارسهم التي تخرّجوا منها، حتّى اقتحمتم العيون، ونبت عنهم الأبصار فلا يوازنون خرّيجي

١. الصافّات (٣٧): ٢٤.

مدارس الأجانب، ولا حاملي البكالوريا منها في أنظار كثير من الناس.

وهذا ما يلحق بالمذهب والدين والإيمان والمؤمنين ما نعوذ بالله منه، فمن المسؤول عن هذا سواكم؟

وما الوسيلة إلى تداركه سوى اتّحاد عزائمكم، وترادف قلوبكم على إصلاح شؤونكم، وشؤون أُمّتكم؟

ورجائي إليكم أن نكون جميعاً إخوان صدقٍ ووفاء، نتساهم الإخلاص والصفاء، ونتقاسم ضرعي الخير والرخاء، مناصحين لله، متوازرين على ما يوجب الزلفى لديه عزّ وجلّ، فعسى أن يعود حملة العلوم الإلهيّة بكم إلى سيرتهم الأُولى، حيث كانت لهم الجلالة تعنو لها الجباه، وتتصاغر عندها الهمم.

وبذلك يعلو شأن الدين والمسلمين، وإلّا فعلى الإسلام السلام.

وهذه نصيحتي أرجو قبولها، فإنّها ـ كما ترون ـ أحمد في العقبى، وأبعد عن مظانّ الندم، وأنأى عن مواقف اللوم، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم[1].

النتائج

وقد أشاد العلماء به وبمواقفه وتكلّموا عن نتائج هذا العزم والهجرة على المنطقة وعلى مشاريعه، وأبرموا الأمر في معاضدته والوقوف إلى جانبه والامتثال لأوامره ونواهيه. قال المرحوم الشيخ محمّد جواد مغنية ـ وهو ممّن حضر في هذا الحشد ـ:

لم تشتدّ الحاجة في وقتٍ من الأوقات لاجتماع علماء البلاد ورؤساء الملّة والدين اشتدادها في مثل هذا الوقت الذي أُطلقت فيه أعنّة الغرائز المجرمة، وانتهكت فيه حقوق الطائفة انتهاك الوليد لحرمة الإسلام والمسلمين، ونيلَ فيه من كرامة الشخصيّات البارزة التي تناط كرامة الدين والأُمّة بكرامتهم حيث منهم حياته وقوّته وأداته.

وأيّ قوّة للدين وعدّة للعلم تفوق قوّة حجّة الإسلام العظمى وآيته الكبرى السيّد عبد

---

١. الموسوعة ج ٩.

الحسين شرف الدين الذي أحكم رأيه السنّ والتجارب، وقدّس شخصيّته العلم والنزاهة، ورفع شأنه الكرم والمروءة، وملأ الآفاق بنور فضله وهدايته.

أمثل هذا القطب الأعظم الذي بقيت البلاد ما يقرب من نصف قرن تنهل من ينبوع علمه الغزير وتقطف من ثمار عقله السليم، وتنتعش بعبير إيمانه وإخلاصه، وتهتدي بنور عظمته الكاملة، تجازيه أهلها وأبناؤها بعدم إجابة طلب الذي يعود عليها بالحياة والنموّ، ولا ذنب إلّا الإصلاح وعمل الخير؟!

أيّها السيّد الجليل: إنّ هجرتك لم تكن زيارة وكفى، بل هي احتجاج بليغ على ذلّ أُمّتك التي أصبحت جماداً ومن شدّة الضغط رماداً، لا تؤلمها الفضاضة، ولا تحرّكها الخصاصة، وهي بعدُ استشهاد معنوي في سبيل الحقّ والفضيلة.

أيّها العظيم: إنّ علماء البلاد قاطبة من حضر منهم ومن لم يحضر لا يَدَعونك تستشهد وحدك فإنّهم يرفعون أصواتهم مع صوتك النزيه، ويهاجرون قبل أن يُهجّروا بهجرتك.

أيّها الربّان: أعندما يضطرب البحر وتشتدّ العواصف الهوجاء تترك المركب يحطّمه اصطدام الأمواج؟

أيّها القائد الحكيم: أعندما يتمّ عدد العدد وعدّته ويتوثّب للهجوم تتركنا فريسة المفترسين، وأكلة الآكلين؟ «ما هكذا الظنّ بك ولا أُخبرنا بفضلك عنك يا كريم».

هوّن عليك أيّها المولى فإنّ من سنن الحياة والأقدار أن يلاقي المصلح في طريقه العقبات الطوال، فقد عانى أجدادك أشدّ ممّا عانيت، ولكن صبروا فظفروا.

أيقوم رجل بما قمت به من تشييد المعاهد الدينيّة، والمعاهد العلميّة، والمشاريع التربويّة، ثمّ يلاقي أضعاف ما لاقيت، ولولا الشدائد لكان الناس كلّهم مصلحين، ولم يكن للعظمة بهاؤها وجلالها. وإذا كان هناك من يرون النور ظلاماً، ولا يحيون إلّا بالخبيث كالجعل، ولا يحومون إلّا على الجيف كالكلاب، فإنّ فينا ولله الحمد من يقدّر العظمة حقّ قدرها، ويقدّسون ذوي الفضائل والكمال. فقد هزّ نبأ هجرتك البلاد، وألهب نفوس أهلها، وهرعوا إليكم وعلى رأسهم السادة العلماء الأعلام متوسّلين إليكم أن تعدلوا عن تلك الفكرة، لا خوفاً عليكم بل على الأُمّة التي تتركونها من بعدكم، فإنّ

بقاءكم في البلاد هو الجزء الأخير المتمّم لأعمالكم الجليلة في السنين الطوال، وإذا لم تلبّوا دعوة الأُمّة فبأيّ شيء نكافئ هذه النفوس الملأى بالإحساس الحيّ والشعور الفيّاض؟

أمّا غضبكم لحقّ الطائفة المهضوم فقد بدأ الشعب يشعر بواجبه، وأخذ يجمع كلمته على الاحتجاج والمطالبة وعلى تصفية الحساب مع النوّاب المسؤولين، وكرّر علماء الأُمّة اجتماعاتهم لهذه الغاية واعتبروها من صالح الأعمال.

اللهمّ أيّد الحقّ واجعلنا من أعوانه وأنصاره، واحفظ مولانا الحجّة وثبّته في بلاده واصرفه عن نيّة الهجرة.

«اللهمّ إنّا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذلّ بها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة»[1].

وأمّا السيّد محمّد حسن فضل الله فقد أدلى بخطاب أشاد فيه ببركات حضور السيّد عبد الحسين شرف الدين بين ظهرانيهم، وأنّ عظمة السيّد ستسجّل لهم تاريخاً مجيداً، وأنّ هجرته سوف تعكس الحال وتدمّر المآل.

وقال عن السيّد ما نصّه:

ورجل عصرنا الوحيد اليوم سيادة السيّد دام ظلّه، فإنّه أخذ بجميع أطراف العظمة وتوفّرت لديه سائر معدّاتها، فهو عظيم بعلمه ومصنّفاته، وعظيم بجرأته وشجاعته، وعظيم بحبّه للخير والعمل به.

ثمّ ذكر سبب الهجرة التي قرّرها السيّد الإمام شرف الدين بقوله:

ونحن العلماء لا سبب لما نشكو منه إلّا الضعف، لا أقول ضعف في الدين أو في العلم، كلّا وألف كلّا، بل هو الضعف والجبن عن عدم الجهر بنقص السفهاء وتقبيح سيرة المجرمين الجهلاء[2].

---

١. الموسوعة ج ٩.

٢. المصدر.

وقال الشاعر العاملي معروف أبو خليل في ذلك الحفل:

قم فحيّ صوراً ومن بفناها مـن كـرامٍ رضى الإله رضاها
عترة هاشميّة وسع الأر ض علاها والراسيات حجاها
أورثتها العليا كرام جدود بهمُ كلّ أُمّةٍ تتباهى
زيّن الله فيهم الأرض في الد نيا كما بالنجوم حلّى سماها
سادة قادة أئمّة صدق علّة للوجود دون سواها
وبـ«عبد الحسين» عزّت ولا بد ع ففي جدّه المهيمن باهى
....
يا مقيل العثار في كلّ آنٍ ومليك العليا وقطب رحاها
لا تبارح صوراً ففيك هداها يا ابن موسى وفي رضاك رضاها
....
أنت لا غيرك المرجّى إذا ما حادثات الردى ادلهمّ دجاها
وبآرائك الثواقب في الخطـ ب تجلّى عن الأنام مناها
لم تجد كفأها سواك فبشرى لك فيها وفيك يا بشراها
إن تكن رمتها ففيك استهامت وهي تهواك مثلما تهواها[1]

---

١. المصدر.

الفصل الثاني

نهاية الحرب العالميّة الثانية وآثارها على الشرق الأوسط

باستسلام الألمان، في ٧ أيار ١٩٤٥، واليابان في ٢ أيلول ١٩٤٥م، انتهت الحرب العالميّة الثانية بعد أكثر من ستّ سنوات كانت البشريّة فيها فريسة الأهوال والمعارك والضغائن السياسيّة والعرقيّة. ووقّع الظافرون، في ١٠ شباط ١٩٤٧م، معاهدات السلام في باريس مع الحلفاء الأوربيّين لألمانيا الهتلريّة دون أيّ تعبير ينمّ عن الرضى والارتياح بانتهاء الحرب وعودة السلام، وبأنّ أبناءهم لن يكونوا عرضةً للهلاك مرّة أُخرى في حرب ثالثة مدمّرة مبيدة.

الدول الظافرة ومبدأ تقرير المصير

إنّ دول الحلفاء قد اعترفت أثناء الحرب العالميّة الأُولى مكرهة بحقّ الشعوب في تقرير مصيرها لتجرّها إلى صفّها وتفيد من مساعدتها ضدّ دولتي الوسط: ألمانيا والنمسا، وحلفائهما. ولكن ما أن وضعت الحرب العالميّة الأُولى أوزارها وعاد السلام، إلّا وتنكّرت هذه الدول لمن كانت تستدرّ عطفهم بالأمس.

وهكذا كان وضع العرب بعد هذه الحرب، لأنّ الدول الكبرى لم تحترم وعودها لهم، وأقسى من ذلك أنّها قسّمت بلادهم إلى أجزاء واختصّت كلّ واحدة منها بجزء، بل وقسّمت الجزء الواحد إلى عدّة أجزاء. فأين هذه السياسة من احترام

حقّ الشعوب في تقرير مصيرها؟

وفي الحقيقة، إنّ الدول الظافرة طبّقت مبدأ تقرير المصير حيث طاب لها تطبيقه، ومنعته عن شعوب أُخرى لأنّ مصالحها الحيويّة تغلّبت على احترام حقّ الأمم. وهذا ما أثار مشاكل جديدة تجمّعت فوق المشاكل القديمة المعلّقة، وظلّت تقلق بال الدول طوال فترة ما بين الحربين، ولا سيّما بعد أن وعت مقدّراتها وحقّها في الحرّيّة والسيادة القوميّة.

إحداث منظّمة الأُمم المتّحدة

في الحرب العالميّة الثانية، بعد أن شنّ هتلر هجومه على الاتّحاد السوفيّاتي، قابل الرئيس روزفلت البريطاني الأوّل ونستون تشرشل في ١٤ آب ١٩٤١م، ووقّعا معاً ميثاق الأطلسي الذي يعتبر أوّل معلم لتشكيل تضامن شعوب الأطلسي.

وقد أكّدت الدولتان في هذا الميثاق بأنّهما لا تبغيان أيّ توسّع أرضي أو خلافه، وتتعهّدان بألّا تحدثا أيّ تغيير أرضي مضادّ لأماني الشعوب، وتعترفان بأنّ لكلّ شعب الحقّ في انتخاب شكل الحكم بحرّيّة، وتعلنان رغبتهما في إعادة السيادة والاستقلال للدول التي تمتّعت بهما من قبل ثمّ سلبا منها.

كما نصّ الميثاق على تأسيس نظام للأمن قائم على قواعد أوسع ممّا في عصبة الأُمم. واتّجه التفكير لإحداث منظّمة جديدة كلّ الجدّة هي منظّمة الأُمم المتّحدة.

وبعد الحرب العالميّة الثانية انعقد ـ من ٢٥ نيسان إلى ٢٥ حزيران ١٩٤٥م ـ مؤتمر دولي في سان فرنسيسكو ووضع دستور المنظّمة الجديدة أو شرطة الأمم المتّحدة. وأصبح هذا الميثاق ساري المفعول بتاريخ ٢٤ تشرين الأوّل ١٩٤٥م، هذا التاريخ الذي يعتبر ميلاد الأُمم المتّحدة.

ولقد أعلن موقّعو شرعة الأُمم المتّحدة عن إيمانهم «بحقوق الإنسان الأساسيّة في الكرامة، وقيمة الشخص البشري، ومساواة حقوق الرجال والنساء والأُمم الكبرى

والصغرى، وبأنّهم أنصار الحرّيات الأساسيّة للجميع دون تمييز عنصر أو جنس أو لغة أو دين، وبأنّهم يؤكّدون حقّ الشعوب في تقرير مصيرها».

وعلى أثر التوصيات التي قدّمتها الجمعيّة العامّة تبنّت هيئة حقوق الإنسان مبدأ تقرير المصير القومي لتضمّه إلى ميثاق حقوق الإنسان كما يأتي:

أوّلاً: يجب أن يكون لجميع الشعوب والأُمم حقّ تقرير المصير، أي أن يكون لها الحقّ في أن تقرّر بحرّيّة وضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

ثانياً: يجب على جميع الدول، بما فيها الدول المسؤولة عن إدارة الأقاليم غير المتمتّعة بالحكم الذاتي والأقاليم الخاضعة للوصاية، وكذلك الدول التي تتولّى بأيّ صورة ممارسة هذا الحقّ نيابة عن شعب آخر، أن تعزّز تنفيذ هذا الحقّ في مناطقها، وأن تلتزم بالمحافظة على حسن سير تنفيذه من قبل الدول الأُخرى وفقاً لشروط ميثاق الأُمم المتّحدة.

وبناءً على اقتراح تقدّمت به حكومة تشيلي أُضيف إلى هاتين الفقرتين من المادّة ٤٨ من الميثاق الدولي لحقوق الإنسان السياسيّة والمدنيّة فقرة ثالثة وهي:

ثالثاً: يجب أن يتضمّن حقّ الشعوب في تقرير مصيرها السيادة التامّة على ثروتها ومواردها الطبيعيّة. ولا يجوز بحال من الأحوال أن يحرم شعب من وسائله الخاصّة بالعيش على أساس أيّ حقوق قد تزعمها الدول الأُخرى.

ووافقت الجمعيّة العامّة على هذه البنود الثلاثة جميعها. وبهذا أصبح حقّ تقرير المصير جزءاً من ميثاق منظّمة الأُمم المتّحدة ومن حقوق الإنسان.

وما من شكّ في أنّ إدخال حقّ تقرير المصير في ميثاق الأُمم المتّحدة كان خطوة موفّقة في سبيل إعطاء هذا الحقّ الصفة الحقوقيّة اللازمة. ومنذ ذلك الحين وحقّ تقرير المصير يلقى التأييد والاعتراف تلو الاعتراف في المؤتمرات الدوليّة والشعبيّة، حتّى أصبح حجّة قويّة تتمسّك بها الشعوب غير المستقلّة لتقرير مصيرها.

ونذكر على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر، المقرّرات التي اتّخذها مؤتمر

الحقوقيّين الآسيويّين الأفريقيّين، في دمشق بين ٧ ـ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧، بحقّ الشعوب في تقرير مصيرها.

لقد كان تطبيق حقّ الشعوب في تقرير مصيرها، واحترام هذا الحقّ، من شأنهما تأمين الطمأنينة العالميّة وتوطيد السلام؛ ولمّا كانت بلاد كثيرة لا تستطيع حتّى الآن أن تمارس حقّها في تقرير مصيرها بنفسها؛ وكان حقّ الشعوب في تقرير مصيرها حقّاً أساسيّاً من حيث طبيعته، وكان لجوء الشعوب إلى استخدام القوّة في الدفاع عنه أمراً مشروعاً؛ لذلك كلّه، فإنّ مؤتمر الحقوقيّين الأفريقيّين والآسيويّين أخذ يؤكّد من جديد إيمانه بحقّ الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها وبأنّه حقّ ذو شمول عامّ دائم، ويطلب تطبيقه فوراً ودونما أيّ تحديد أو تقييد، على جميع الشعوب المحرومة منه، ويشجب النظام الاستعماري بوصفه جريمة واعتداءً دائماً على الشعوب والأفراد، ويطلب من منظّمة الأُمم المتّحدة، بوصفها حارساً يقظاً لميثاقها ولحقّ الشعوب في تقرير مصيرها، أن تسهر باستمرار على تطبيق هذا الحقّ واحترامه في كلّ أرجاء العالم، ويناشد الدول الأعضاء في مؤتمر باندونغ بوجه خاصّ أن تدعم هذا الحقّ وتفرض احترامه.

والجدير بالذكر أنّ محرّري ميثاق الأُمم المتّحدة قد استنتجوا أنّ مبدأ «حقّ تقرير المصير» هو مبدأ مطلق ويجب أن يبقى هكذا دون أن يعلّق بأيّ شرط أو قيد مهما كان نوعه. ولكنّ الدول التي ما زالت مستعمرة وتدير أقاليم غير متمتّعة بالحكم الذاتي وجدت أنّ مبدأ حقّ تقرير المصير يقف عقبة في طريق استعمارها واستغلالها للشعوب التي تتحكّم بمصيرها، فحاولت تقييده بالشروط التي ترضاها، يضاف إلى ذلك أنّ الدول الكبرى والمنظّمات العسكريّة والأحلاف الكبرى حاولت التهرّب من هذا الحقّ أو اللعب به في كلّ فرصة مواتية[١].

---

١. أُنظر قضايا عصرنا: ٦٦٤ ـ ٦٦٩.

إعادة تنظيم العالم

حاولت الدول الظافرة إعادة تنظيم العالم من جديد فأسّست منظّمة الأُمم المتّحدة، ولكن ما لبثت أن ظهرت الاختلافات الهامّة فيما بينها على مستوى المصالح وعلى مستوى المفاهيم السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. لقد زالت الأنظمة الفاشيّة، وقوى النظام الروسي، وأصبح العالم أمام مفهومين مختلفين في الحياة والعالم يمثّل أحدهما الاتّحاد السوفيّاتي والآخر الولايات المتّحدة.

ومن ناحية اقتصاديّة بقيت أميركا مخلصة لنظام الاقتصاد الحرّ، والاتّحاد السوفياتي للنظام الاقتصادي الشيوعي. أمّا فرنسا وبريطانيا فبقيتا تعيشان نظام الاقتصاد الموجّه. وكلّ منهما بحاجة إلى مساعدة خارجيّة، ولا تتأتّى إلّا من الولايات المتّحدة.

وهكذا أصبح التنافس بين الاتّحاد السوفياتي والولايات المتّحدة هو الصفة الغالبة بعد الحرب العالميّة الثانية.

فالولايات المتّحدة ذات القوّة الاقتصاديّة والتفوّق العسكري الذي أحرزته بامتلاك القنبلة الذرّيّة كانت تريد تحديد التوسّع الروسي في أوربا والشرق الأقصى. وأمّا الإتّحاد السوفياتي فكان يريد الاحتفاظ بالأوضاع المكتسبة ويخشى أن تتشكّل في أوربا كتلة غربيّة يسيطر فيها النفوذ الأميركي ويحاول أن يستفيد من مساندة الأحزاب الشيوعيّة القوميّة.

الحرب العالميّة الثانية وأُفول الاستعمار

كانت المستعمرات تمتدّ قبيل الحرب العالميّة الثانية على خارطة الكرة الأرضيّة على أكثر من نصف القارّات. وما من مكان ـ حتّى على أطراف القارّة المنجمدة الجنوبيّة ـ إلّا وأرادت الدول احتلاله.

وسجّلت الحرب العالميّة الثانية خراب أوربا الغربيّة، وظهرت بين الغالبين دولتان في الصفّ الأوّل: الولايات المتّحدة والإتّحاد السوفياتي، وكانتا مناوئتين للاستعمار بمعنى السيطرة المباشرة على الشعوب، وتشجّعان حركات التحرير.

وتحمّلت الدول الاستعماريّة الكبرى خسائر ماديّة ومعنويّة فادحة، وخرجت إنكلترا من كفاحها الطويل منهكة القوى وغير قادرة على توطيد سيطرة عالميّة. وغُلبت فرنسا عسكريّاً واحتلّها العدوّ النازي الذي كان انهياره عظيماً أيضاً.

فظهرت بين قصف القنابل والخرائب بعض أمارات العالم الجديد، وشهدت العودة إلى السلام في سان فرانسيسكو في حزيران ١٩٤٥م إعداد ميثاق الأُمم المتّحدة.

وكسبت الدول المنتدبة في الشرق استقلالها بفضل التنافس الفرنسي الإنكليزي، وأخذ مجلس الوصاية في منظّمة الأُمم المتّحدة يستقبل تقارير الأوصياء وملتمسات الشعوب، ويقوم بزيارات دوريّة لهذه الشعوب.

وما فتئت منظّمة الأُمم المتّحدة تدفع إلى التحرير وتسهّله عندما تتوفّر الظروف، وتستقبل الأُمم المستقلّة الجديدة مهما كانت رقيقة الحال[1].

كيف مارست الشعوب حقّ تقرير المصير؟

إنّ الشعوب ليست حرّة التصرّف في أن تنفصل عن دولة كانت منضمّة لها ومرتبطة بها، أو أن تنضمّ إلى دول كانت منفصلة عنها، دون التحقّق من أنّ هذا الانفصال أو هذا الانضمام يعبّر عن رغبة أكيدة، ويتمشّى مع قدرتها على مواجهة كافّة النتائج المترتّبة على ذلك وتحمّل مسؤوليّاتها، ودون النظر إلى النتائج الاقتصاديّة لهذا العمل بالنسبة للطرفين، وبالنسبة لاستقرارهما الداخلي وأمنهما العامّ، وكذلك بالنسبة لمصالح الدول الأُخرى أو المجموعة الدوليّة عامّة.

---

١. أُنظر قضايا عصرنا: ٧ـ١٦.

ولا مرية في أنّ ممارسة حقّ الشعوب في تقرير مصيرها كثيراً ما تصطدم في الواقع بصعوبات ماديّة سياسيّة أو اقتصاديّة أو إداريّة أو استراتيجيّة قد تتعارض مع رغباتها وتحول دون إحقاق هذا الحقّ. فكيف تحدّد أُمّة من الأمم؟ وما هي الضوابط التي يجب الاعتماد عليها في هذا السبيل؟

لقد قيل إنّ هنالك ضوابط إقليميّة وقوميّة. ولكن من العسير جدّاً إيجاد ضابط يمكن أن يكون مقبولاً دون منازع.

هذا بالإضافة إلى أنّنا كثيراً ما نجد قوميّات متباينة تعيش مختلطة بعضها ببعض، بحيث يتعذّر تكوين دول كبرى دون أن تشمل هذه الدول أقلّيّات كثيرة تخلق بدورها ظروفاً عسيرة، أو إنشاء دولة في إقليم صغير تحيط به دول تناصبه العداء، أو إقامة دولة على حساب دولة أو دول أُخرى، كما هي حال إسرائيل التي أوجدها الاستعمار الامبريالي على حساب العرب.

إنّ مثل هذه الدول أو الدويلات أو الكيانات على درجة عظيمة من الخطورة، لأنّها تظلّ بؤرة اضطراب وموئل قلق ومصدر خطر على الأمن الدولي والسلام العالمي.

وتقتضي ممارسة حقّ تقرير المصير ـ قبل كلّ شيء ـ استقرار الشعب على رأي موحّد. وإذا تيسّر له ذلك فكيف يمكنه أن يعبّر عن إرادته؟

لقد جرى التعامل أن يكون ذلك بالاستفتاء الشعبي، شريطة أن يحاط هذا الاستفتاء بالضمانات الكفيلة التي توفّر حرّيّته وسلامته، كأن يكون التصويت سرّيّاً وتحت إشراف لجنة دوليّة تتوافر فيها كلّ ضمانات الحياد، وأن توضع تحت تصرّفها قوّات دوليّة لتساعدها على أداء مهمّتها، بغية ضمان حرّيّة التصويت والحفاظ على الأمن العامّ.

والثابت أنّ الاستفتاء، إذا لم يكن نزيهاً ومحاطاً بالضمانات الجدّيّة الدوليّة يكون عرضة للتلاعب، وتؤدّي إساءة استعماله إلى تشويهه وإلى نتائج مغايرة لما يراد منه.

والشواهد التاريخيّة على ذلك عديدة، فكثيراً ما استغلّ الطغاة والمستبدّون عمليّات الاستفتاء ووجّهوها لصالحهم، وليست الاستفتاءات التي أجراها نابليون في عصره والاستفتاءات التي تجري في عصرنا إلّا شاهداً على ذلك.

وكذلك تتطلّب ممارسة حقّ تقرير المصير من الشعب إعداداً للتعبير عن إرادته بحرّيّة، وقد يبلغ الشعب هذه المرحلة، ولكنّ المصالح الحيويّة لتبرير سياسة الدول الكبرى والتسلّط الاستعماري وبقاء الاستعمار، كثيراً ما تحول دون نموّ الشعوب المستعمرة والمغلوبة على أمرها، كما هي الحال في دولة اتّحاد جنوبي أفريقية، وفي المستعمرات البرتغاليّة في الوقت الحاضر.

ولهذه الأسباب كلّها رأت لجنة حقوق الإنسان أن تضيف المادّة ٤٨ إلى مشروع الميثاق الدولي لحقوق الإنسان السياسيّة والمدنيّة، التي تتضمّن وسائل تنفيذ هذا الحقّ ومباشرته.

ما هي وسائل تنفيذ حقّ تقرير المصير؟

إنّ الميثاق الدولي لحقوق الإنسان السياسيّة والمدنيّة يتضمّن بنوداً تبيّن طريقة تطبيق حقّ تقرير المصير للأُمم الواقعة تحت الوصاية، ولكافّة الشعوب الأُخرى التي لا تحكم نفسها بنفسها سواء أكانت محميّة أم مستعمرة، وذلك بتنمية الإمكانيّات الداخليّة ورفع الأُمّة الواقعة تحت سلطتها أو وصايتها إلى المستوى اللائق لحكم نفسها بنفسها.

وفي المادّة ٤٨ الآنفة الذكر ما ينصّ على التزام الدول المتعاقدة، بما فيها الدول المسؤولة عن إدارة الأقاليم غير المتمتّعة بالحكم الذاتي والأقاليم الخاضعة للوصاية، بتقديم تقارير سنويّة إلى لجنة حقوق الإنسان عن الإجراءات التي اتّخذتها تنفيذاً للالتزامات المفروضة عليها والتي تنصّ على حقّ تقرير المصير، وكذلك التزام الدول الوصيّة بإجراء انتخابات واستفتاءات وغيرها من الطرق الديموقراطيّة مع التفضيل بأن

يكون كلّ هذا تحت إشراف منظّمة الأُمم المتّحدة، بقصد تحديد الوضع السياسي لأيّ إقليم تحت إدارتها أو وصايتها. وتتمّ هذه الإجراءات بعد أن تقترحها لجنة حقوق الإنسان، وتوافق عليها الجمعيّة العامّة للأُمم المتّحدة.

وهكذا نرى أنّ حقّ تقرير المصير قد انتقل من مرحلة المبدأ إلى مرحلة الحقّ الذي تطالب به الأُمم في حركاتها التحرّريّة، وأنّ هذه المطالبة تأخذ بعين الاعتبار إرادة كافّة أفراد الأُمّة وليس جزءاً منها. وبعد أن تعتبر هذه الإرادة العامّة المشتركة يكون قرار الأكثريّة هو القرار الشرعي الذي يبنى عليه حقّ تقرير المصير.

ولئن كان هذا الحقّ ما يزال محور نزاع ومساومة بين الأُمم الضعيفة والأُمم القويّة، بين الشعوب المستعمَرة المتطلّعة إلى الحرّيّة والسيادة القوميّة والشعوب المستعمِرة التي تريد الإبقاء على احتلالها والحفاظ على استغلالها، فإنّ خطّ السير في المطالبة مستقيم بالرغم من العقبات التي تحاول كسره أو عطفه أو تحويله. وستصل هذه الشعوب المكافحة إلى الحياة الحرّة والعيش الكريم وإلى تقرير مصيرها بيدها من الدول الحرّة المخلصة لمبادئ ميثاق الأُمم المتّحدة ومقاصدها، ومن أحرار العالم، وهم في تكاثر، لحسن الحظّ، يوماً بعد يوم.

ونتساءل أخيراً: هل تقرير المصير سياسة أو موقف تتّخذه الدول الكبرى في ظرف من الظروف وتوافق فيه على منح الاستقلال لشعب من الشعوب؟ أو هو حقّ تنادي به الشعوب المطالبة بحرّيّتها واستقلالها وتجاهد في سبيله لتحصل عليه ويعترف لها به؟

الحقيقة أنّ وجهتي النظر مختلفتان. إنّ الدول الكبرى والدول الاستعماريّة تجعل من تقرير المصير سياسة هبة أو منحة تمنحها عند ضغط الظروف لمن تشاء، وتلمّح بها حين تشاء، وتريد أن تكون صاحبة القول الفصل بها لأنّها تملكها.

أمّا الشعوب غير المستقلّة فتعتبره حقّاً طبيعيّاً، لأنّ الشعوب ـ في الأصل ـ نشأت حرّة مستقلّة كما خلقها الله وكما أرادها أن تكون، ولكنّ المطامع البشريّة

اغتصبت هذا الحقّ الطبيعي عندما اعتدت الدول الكبرى على الشعوب الحرّة وضمّتها إليها أو استعمرتها. وما تبنّي الشعوب لحقّ تقرير المصير والكفاح الذي تبذله إلّا في سبيل إحقاق هذا الحقّ ووصولها إلى الحياة الحرّة المستقلّة كما ولدت حرّة. وما حصولها على الاستقلال إلّا إعادة هذا الحقّ إلى نصابه والحرّيّة إلى أهلها.

وما من شكّ في أنّ انتقال تقرير المصير، من مرحلة المبدأ إلى مرحلة الحقّ المكتوب في شرعة الأمم المتّحدة، يعتبر خطوة تقدّميّة كبرى في حياة الأُمم والشعوب[١].

---

١. قضايا عصرنا: ٦٧٠ ـ ٦٧٣.

الفصل الثالث

الإمام شرف الدين وكارثة فلسطين

فلسطين قلب العالم الإسلامي النابض، احتلّتها بريطانيا وقدّمتها بكلّ سخاء للصهاينة الذين امتطوا الدول الكبرى لبلوغ أهدافهم الاستعماريّة التوسّعيّة.

فإسرائيل هي وليدة الاستعمار، وصمّام مفتاحه للتلاعب بمصير شعوب الشرق الأوسط والعالم الإسلامي.

وفي سنة ١٩٤٨م أعلنت إسرائيل عن ولادتها كدولة، بعد تمهيدات كبيرة ومخاضات صعبة مرّ بها الشعب الفلسطيني وسائر الشعوب الإسلاميّة.

وللإمام شرف الدين موقف حازم ومشرّف وواضح تجاه قضيّة فلسطين بشكلٍ عامّ، وتجاه هذا القرار الدولي باستيلاء إسرائيل عليها، وتجاه الكارثة التي حلّت بها في هذه السنة.

وقبل حلول سنة ١٩٤٨م وجّه الإمام شرف الدين نداءً للمسلمين وللعرب بمناسبة شهر العقيدة والتضحية والفداء، شهر محرّم الحرام سنة ١٣٦٧هـ / ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٧م.

وإليك نصّ هذا النداء:

أيّها المسلمون، أيّها العرب: هذا شهر محرّم الدامي الذي انتصرت فيه عقيدة، وبعث منه مبدأ.

ألا وإنّ قتلة الحسين ﷺ بكر في القتلات فلتكن قدوتنا به بكراً في القدوات، ولنكن نحن من فلسطين مكان الحسين ﷺ من قضيّته، ليكون لنا ولفلسطين ما كان له ولقضيّته من حياة ومجد وخلود.

أيّها العرب ... . أيّها المسلمون : لقد حمّ الأجل، وموعدنا فلسطين، على أرضها نحيا وفيها نموت.

والسلام عليكم يوم تموتون شهداء، ويوم تبعثون أحياءً[١].

وفي نيسان ١٩٤٨م الموافق لجمادى الأُولى سنة ١٣٦٧هـ وجّه نداءً إلى الملك عبد الله، وذلك قبل كارثة فلسطين بشهرين تقريباً، وقد جاء فيه :

الآن، وقد أظهر الله أمركم، وجلا للعرب أنّكم القادة أخيراً، كما كنتم القادة أوّلاً، وأنّ أسباب الرسالة العربيّة لا تتّصل بعد أن يبهظها المطاف إلّا بهاشمي أخلصت جوهره المواريث العبقريّة.

الآن، وقد أسفر الصبح لكلّ ذي عين، وأعلن الطائرون إلى الظلّ والماء تردّدهم في خوض المحنة ودفع الكارثة، أروا الأمّة ما عوّدتموها عليه ـ بني هاشم ـ من هبوبكم للأخذ بكظمها كلّما أرجحنّت الخطوب، وابتسموا لها في ثنايا ليلها الفاجع على مفترق الدروب.

وليس ذهاب فلسطين فاجعاً، لولا أنّه ذهاب لريح العرب وعزّ الإسلام، وكرامة الإنسان المسترق في غد هذا الشرق القريب[٢].

ثارت الشعوب الأوربيّة المقهورة على الدول المتحكّمة بمصيرها، وأسّست دولها القوميّة على أرضها التي تسكنها وتقيم عليها منذ عشرات القرون، لكنّ الصهاينة أرادوا بناء دولتهم على أرض غير أوربيّة، حيث لا أرض لهم فيها أو في غيرها، لأنّهم كانوا شعباً مشتّتاً في الأرض وغير مؤتلف ومنسجم ومندمج مع الشعوب الأُخرى، ومدّعياً بأنّه شعب الله «المختار». وقد جرّت عليه انعزاليّته واعماله التهديميّة وأنانيّته المتعصّبة وسلوكه الشاذّ كره البشر له حيث كان، وزادت في عزلته.

وقد نسج الصهاينة ـ من فكرة «العودة» ونظريّة «الحقوق التاريخيّة» واضطهاد الشعوب الأُخرى لهم ـ أُسطورة لاستعادة مجد «إسرائيل» في فلسطين.

---

١ و٢. راجع الموسوعة ج ٩.

وما كان للصهاينة أن يحقّقوا هدفهم السياسي لولا أنّ الظروف الدوليّة ساعدتهم إلى أبعد ممّا كانوا يتصوّرون. وقد استغلّوا هذه الظروف خير استغلال. بل ومكّنتهم المصالح الدوليّة والتنافس الدولي وضعف الدولة العثمانيّة وتقطيع أوصالها[١]، وظروف الحرب العالميّة الأُولى، وبخاصّة اعتراف بريطانيا العظمى لهم في فلسطين بوعد بلفور وفي صكّ الانتداب على فلسطين، مع مراوغتها للعرب في الحرب وبعد الحرب، وحرمانهم أخيراً من الاستقلال الذي أرادوه وحاربوا في سبيله إلى جانب الحلفاء.

وما احتلّت بريطانيا ـ بعد الحرب العالميّة الأُولى ـ أرض فلسطين رسميّاً بانتداب من عصبة الأُمم، إلّا وأخذت تفسح المجال رحباً لهجرة الصهاينة، واستيطانهم في فلسطين.

ومن هنا بدأت المأساة الفلسطينيّة ولمّا تنتهِ بعد.

بدأت المأساة بتشجيع الهجرة الصهيونيّة إلى فلسطين.

وفي كلّ مشادّة تقع بين الصهاينة والعرب كانت السلطات البريطانيّة تنحاز إلى جانب الصهاينة.

ومنذ ١٩١٧م، كانت حكومة الولايات المتّحدة تموّل الهجرة الصهيونيّة أو معظمها إلى فلسطين، حتّى أنّها ضغطت على بريطانيا في سبيل إصدار «وعد بلفور» المشؤوم.

ووافقت المنظّمة الصهيونيّة الأمريكيّة على «برنامج بولتيمور» الذي طالب بإقامة دولة يهوديّة في فلسطين كلّها، وإنشاء جيش صهيوني، ورفض «الكتاب الأبيض» البريطاني لعام ١٩٣٩م، الذي يسلّم بقيام دولة فلسطينيّة عربيّة في المستقبل، ويتخلّى عن فكرة إقامة «موطن قومي يهودي»، وتسهيل أسباب الهجرة الصهيونيّة دون حدود تحت الإشراف الوحيد للوكالة اليهوديّة، وبعد قليل أصبح هذا البرنامج برنامج

---

١. وقد أشرنا إلى عوامل تقطيعها ودور اليهود في ذلك.

الصهيونيّة العالميّة. وهكذا تزايد عدد الصهاينة في فلسطين، وأصبح لهم جيش قوي يقوم بالتحرّشات اليوميّة ضدّ العرب، بل وضدّ الإدارة البريطانيّة.

وكانت الولايات المتّحدة تعتبر ـ منذ سنوات الثلاثين ـ أنّ منطقة الشرق الأوسط «منطقة حيويّة» لأسباب اقتصاديّة وستراتيجيّة، وذلك بالتركيز والاعتماد على نظم ينبغي أن تخضع خضوعاً تامّاً ـ ولا سيّما اقتصاديّاً ـ للامبرياليّة الاستعماريّة، وأن يكون باستطاعتها أن تلعب دور «الكلب الحارس» لهذه الامبرياليّة الاستعماريّة على الصعيد المحلّي.

وضمن برنامج التخلّي عن المستعمرات الذي اضطرّت إليه بريطانيا العظمى بعد الحرب العالميّة الثانية، وتحت الضغط الأمريكي، استسلمت بريطانيا في عام ١٩٤٧م، وأحالت القضيّة إلى منظّمة الأمم المتّحدة. وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه اجتمعت الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، واتّخذت قراراً بقيام الدولة «العميلة» مخالفة بذلك أبسط الحقوق البشريّة وقواعد العدل الإنسانيّة.

وفي ١٤ أيّار ١٩٤٨م، أُعلن في فلسطين مولد «دولة إسرائيل». وكان أوّل أعمال هذه الدولة، التي خلقتها الامبرياليّة الاستعماريّة والصهيونيّة العالميّة، عمليّة حربيّة ترمي إلى التوسّع فيما وراء الحدود التي رسمتها الأُمم المتّحدة، متّخذة شتّى الوسائل التي تجعل فلسطين دولة صهيونيّة بكلّ ما تتضمّنه هذه الكلمة من معنى تامّ.

وفي الحقيقة إنّ الاستعمار الصهيوني لفلسطين بدأ منذ أواخر القرن الماضي عندما خصّصت أموال ضخمة لما أسمته الصهيونيّة العالميّة «شراء» الأراضي.

وكان «الروّاد» الصهاينة الأوائل يحصلون على الأموال والوسائل الفنّيّة اللازمة التي تمكّنهم من استغلال هذه الأراضي على الوجه الأكمل. أمّا المزارعون العرب ـ ضحايا الإقطاع أوّلاً والاستعمار ثانياً ـ فلم يكونوا ليملكوا من هذه الوسائل إلّا قليلاً، أو أنّ هذه الوسائل لم تكن إلّا في يد القلّة القليلة الغنيّة من أبناء العرب.

وفي ظلّ الانتداب البريطاني كانت بعض الأراضي تصادر بعمليّات عسكريّة تحت

اسم «عمليّات دفاعيّة» ولا تلبث أن تحاط بالأسلاك الشائكة وتقام حولها الحصون وتصبح وحدة دفاعيّة، وتحميها السلطات العسكريّة البريطانيّة.

وكانت هذه المستعمرات اليهوديّة أداة للغزو والاستيلاء والنهب والسلب، لأنّ كلّ واحدة منها كانت تشكّل موقعاً حربيّاً تنطلق منه عناصر جيش العصابات الإسرائيليّة «الهاغانا» وتتحرّش بالعرب، وتهاجم وسائل النقل، وتطرد المزارعين العرب من قراهم تمهيداً لارتكاب أعمال السلب والنهب والدمار والإبادة.

وهكذا كان عدوان الصهاينة على العرب من الخارج ومن الداخل منذ وطأت أقدامهم فلسطين، لبثّ الرعب في قلوب سكّانها العرب وحملهم على مغادرة البلاد أو طردهم منها بأيّ ثمن، والقضاء على البقيّة الباقية منهم وتصفيتهم نهائيّاً بشتّى الطرق الإرهابيّة.

وقد استعمل الصهاينة قبل قيام إسرائيل هذه الوسائل في مذابح حيّ القطمون في القدس، وقرية دير ياسين، وعين الزيتون، وصلاح الدين.

ومنذ قيام الدولة الإسرائيليّة والصهاينة يمارسون العنف والإرهاب في الداخل لإخراج العرب والقضاء على «الأقلّيّة العربيّة» المتبقية في فلسطين؛ وفي الخارج ضدّ الدول العربيّة المجاورة لفلسطين للحصول على أرض جديدة ومكاسب جديدة أو كما يقول الصهاينة «حدود آمنة» لا تقف عند حدّ أو قيد، وإلى المزيد من المذابح في الأرض المحتلّة ونسف العديد من القرى والمدن كما في أبو غوش في أيلول ١٩٥٣م، وفي كفر قاسم في تشرين الأوّل ١٩٥٦م، وفي عكّا في حزيران ١٩٦٥م، وإلى ما هنالك من أعمال رهيبة وحشيّة ارتكبت في قطاع غزّة ومدينة خان يونس.

وبعيد الحرب العالميّة الأُولى كان وايزمن يتنبّأ بإقامة دولة يهوديّة محضة متجانسة في فلسطين لا شأن لغير اليهود فيها «بقدر ما تكون الأُمّة الفرنسيّة فرنسيّة» و «الأُمّة الإنكليزيّة بريطانيّة».

وقد حافظ الصهاينة على هذا المبدأ كشرط أساسي لصهينة فلسطين وطبعها بالطابع

الصهيوني وإزالة الطابع العربي عنها، بكلّ ما استطاعوا من قوّة واغتصاب وشراسة.

وفي الأرقام التالية ما يوضح ذلك:

في ١٩١٨م كان سكّان فلسطين ٧٠٠,٠٠٠ نسمة. منهم ٦٤٤,٠٠٠ عربي و ٥٦,٠٠٠ يهودي. وكان العرب يملكون ٩٨ ٪ من مجموع مساحة الأراضي، واليهود ٢ ٪ منها.

وفي أيّار ١٩٤٨م، بلغ عدد سكّان فلسطين ٢,٦٥٠,٠٠٠ نسمة، منهم ١,٤١٥,٠٠٠ عربي، و ٦٥٠,٠٠٠ يهودي.

وهذه الزيادة الملحوظة في عدد اليهود كانت بسبب تدفّق الهجرة الصهيونيّة أيّام الانتداب البريطاني على فلسطين.

وفي آخر أيام الانتداب البريطاني على فلسطين نجد النسب التالية:

الأراضي التي يملكها العرب تؤلّف ٤٧,٧٧ ٪ من المجموع الكلّي.

الأراضي التي يملكها اليهود تؤلّف ٥,٦٧ ٪ من المجموع الكلّي.

الأراضي التي تملكها الدولة تؤلّف ٤٦,٠٢ ٪ من المجموع الكلّي.

الأراضي التي يملكها الآخرون ٠,٥٤ ٪ من المجموع الكلّي.

وعليه تكون نسبة اليهود عام ١٩٤٨ حوالي ٣١ ٪ من مجموع السكّان ونسبة ما يملكون من أراضي في العام نفسه ٥,٦ ٪ من مجموع مساحة الأراضي.

وعندما انتهت الحرب بين العرب واليهود، في خريف ١٩٤٨م، بقي في فلسطين المحتلّة ١٧٠,٠٠٠ عربي.

وتعيش «الأقلّيّة العربيّة» في الأرض المحتلّة في حالة تشبه حالة السكّان الأصليّين في دولة اتّحاد جنوبي أفريقيا. والمناطق التي يسكنونها يطلق عليها الصهاينة اسم «مناطق الأمن»، ويخضع العرب فيها وحدهم للأحكام العرفيّة، لأنّ المشرفين على هذه المناطق من الضبّاط العسكريّين الإسرائيليّين.

وتجري ملاحقة المتّهمين العرب، في ظلّ هذه الأحكام العرفيّة، بموجب «قوانين

الطوارئ» والدفاع أمام المحاكم العسكريّة التي تكون قراراتها قطعيّة وغير قابلة للنقض بأيّ طريق من طرق المراجعة. وكثيراً ما يكون تنفيذ عقوبة النفي أو الإقامة الجبريّة بأمر من الحاكم العسكري.

ويخضع العرب وحدهم، دون غيرهم، إلى نظام الرقابة ومنع الانتقال الذي يحدّ من حرّيّتهم في الحركة والتنقّل. وهم محرومون من حرّيّاتهم الأساسيّة، ولا يسمح لهم بإصدار الصحف أو إنشاء المنظّمات السياسيّة أو المنظّمات العمّاليّة. وإذا ما انتسبوا إلى مثل هذه المنظّمات كان شأنهم فيها تافهاً وكمّيّة مهملة، وستاراً لتظاهر الصهاينة أمام الرأي العامّ بأنّ العرب ينعمون بالمساواة في إسرائيل أُسوة بجميع السكّان.

وفرص الثقافة محدودة إن لم تكن مغلقة في وجه العرب.

وكلّما ارتفع التعليم تحدّد روّاده واقتصر على قلّة قليلة لا تتجاوز عدد الإصابع، حتّى أنّ الأخبار التي تبثّها إذاعة إسرائيل تعطي صورة مشوّهة عن أوضاع البلاد العربيّة، فلا يعرف العرب الباقون في فلسطين حقيقة ما يجري في البلاد العربيّة الأُخرى وتنقطع الصلة بينهم وبين ذوي قرباهم[1].

وفي ١٥ أيار ١٩٤٨م / ٥ رجب ١٣٦٧هـ أي بعد يوم واحد من إعلان ولادة «دولة إسرائيل» الغاصبة أبرق الإمام شرف الدين إلى الملك عبد الله لدى انعقاد مؤتمر عمّان لإنقاذ فلسطين برقيّة، جاء فيها:

كرامة العرب الجريحة تنظر إلى مؤتمركم من مأساة لا موضع فيها للصبر.

تنمّر الصهاينة يتحدّى رسالة القرآن.

انبعثوا على بركة الله بذات محمّد.

الشعب العربي يجيش بثورة ضارية، فكونوا من وراء تضحيته، يكفكم الله عدوان شذّاذ الآفاق ...[2].

---

١. أُنظر قضايا عصرنا: ٥٩٦ ـ ٦٠٩.

٢. راجع الموسوعة ج ٩.

وقد جاءت نكبة فلسطين في هذا العام لتساعد على إعطاء الأقلّيّة المارونيّة قدرة على الحركة، وانتهز الموارنة هذه المحنة ليتّخذوها سلّماً إلى قهر المسلمين، وقد كانت نشوتهم عظيمة بتلك المحنة.

جبل عامل وفلسطين

وكان دافع الثمن المباشر لهزيمة ١٩٤٨م هو جبل عامل صاحب العلاقة الحيويّة والعريقة بفلسطين، والذي تحوّل فيما بعد إلى هدف دائم للاعتداءات الإسرائيليّة.

وقد نجح الموارنة في تهريب الكثير من اليهود من العراق وسوريا إلى داخل فلسطين[١].

وفي ١٣ أيار ١٩٤٩م نشرت وثيقة مرسلة من عكّا إلى بيروت، أثبتت تعامل الكتائب والمطران أغناطيوس مبارك مع إسرائيل لقلب نظام الحكم في لبنان وإنشاء الوطن القومي الماروني.

وقد اتّهم رئيس الوزراء سامي الصلح بشارة الخوري رئيس الجمهوريّة وعائلته بالتعامل مع إسرائيل.

ولم تنحسر هذه العلاقة التاريخيّة بين الموارنة والصهاينة أبداً[٢].

وعلى إثر اعتداء الصهاينة على جنوب لبنان وارتكاب مجزرة رهيبة في قرية «حولا» الحدوديّة، وجّه الإمام شرف الدين كتاباً لرئيس الجمهوريّة بشارة الخوري في شعبان ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م كتاباً جاء فيه:

وحين حقّقت له أسمى الآمال، وعرجت به إلى بدء ذروة الاستقلال، فنادى به قائداً حكيماً، ورئيساً زعيماً، وقد ظنّ أنّ الدهر أسعفه بمراده، ومالأه على تحقيق أبعاده، لكنّه ـ ولا سيّما الجنوب منه ـ زعم في غير مزعم وكدم في غير مكدم، إذ كانت أحوال

---

١. أُنظر المشروع الماروني: ٥٧٧.

٢. المصدر: ٥٧٨.

حول الوزارات وما إليها من تافه السياسات، تستخفّ الحكيم عن رشده، وتستنزل الحليم عن صبره، وكم زيّنت له من محال، وموهّت من ضلال.

وحسبنا الآن نكبة جبل عامل في حدوده المتاحة ودمائه المباحة، وقراه وقد صيح فيها نهباً، وأطفله وقد تأوّدت رعباً، وقد استحرّ به الفتك، إلى ما هنالك من هلاك الحرث والزرع.

هذا الجبل المرابط يدفع جزية الدم لشذّاذ الآفاق، من كلّ من لفظته الأرجاء، ونبذته الأرض والسماء.

هذا الجبل العريق، تضرب عليه الذلّة والمسكنة، ممّن ضربت عليهم الذلّة والمسكنة في سحق التاريخ.

هذا الجبل الذي يقوم بما عليه من واجبات، ولا يُعطى ما له من حقوق، كأنّه الشريك الخاسر، يدفع الغرم، ومن الغنم يحرم.

ألم تسمع يا رئيس لبنان «شاعر الجبل» يصف هذه المأساة فيقول:

لهفي على (صلحتـ) ـها وليتني عليك يا «حولة» أقضي أسفا
شبابك الفوّاح زهراً فتقت أكمامه الدهر بهم قد عصفا
ومن نجا من أسرهم يفترش الـ أرض وبالسماء التحفا
لولا الإبا لقلت غير ظالم سقا عهاد المزن عهداً سلفا

فإن لم يكن من قدرة على الحماية، أفليس من طاقةٍ على الرعاية؟

وإذا لم تؤدّ الحقوق .. فلماذا يستمرّ العقوق؟

وإذا قرأتم السلام على جبل عامل، فقيل: السلام عليك وعلى لبنان[١].

وفي أيلول ١٩٤٩م الموافق لذي الحجّة ١٣٦٨ وجّه الإمام شرف الدين كتاباً آخر لبشارة الخوري وذلك على أثر تجريد حملة عسكريّة على عشائر الهرمل، جاء فيه:

وبعد ...

فإنّ عشائر الهرمل، لم يخرجوا على طاعة، ولا فارقوا جماعة. فلمن إذن تسرج الخيل

---

١. الموسوعة ج ٩.

العراب، وتشرع الأسنّة والحراب؟

ألهؤلاء ... وهم أُباة ضيم، لا يبيتون على خسف ولا يقيمون على هوان، في عصر تفتّحت على نوره العقول والأبصار، واغترف منه لبنان حتّى غدا قبلة الأنظار، دون أن يصيبهم صيّب من ديمته، أو فاضل من نعمته، بل تركوا للتخلّف يحبس عليهم في مكانهم، يتأكلهم الثأر، ويغتالهم الجهل والمرض والفقر، حتّى أصبحوا بين نارين، نار الحكومة الموقدة، ونار أوضاعهم الموصدة.

وإنّ أخشى ما أخشاه، أن تدخل النائحة إلى كلّ بيت في لبنان إذا التقى الجمعان والتحم الصفّان، فالحملة العسكريّة لا يستهان بها عدّة وعدداً، والمعتصمون في الجرود لهم من المواقع ما يسلّطهم على الوقائع، والدم ينادي الدم!...

ألا أعدتم النظر يا صاحب الفخامة في أُسلوب تأديب الجامحين وغزو المتمرّدين؟

ألا ترون أن تغزوهم بجيش من التسامح تريشون به جناح الوطن المهيض، وتشفون جنبه المريض؟

ألا ترون أنّ تؤدّبوهم بنقلهم من البداوة إلى الحضارة، ومن البطالة إلى العمل، ومن اليأس إلى الأمل؟...

ألا ترون أنّ إعمار المدارس والمستشفيات، يغني عن إعمار السجون والقبور؟ وشقّ الشوارع والطرقات يغني عن شقّ الجيوب والصدور؟

أجل: إنّ لنا من سموّ خلقك وفكرك وسعة أُفقك وصدرك، ما يكفل تحقيق ذلك، ويضمن للبنان التقدّم والازدهار، ولأبنائه السعادة والخير والاستقرار.

والسلام عليك تفشي السلام، وترعى الذمام ...[١].

---

١. الموسوعة ج ٩.

الباب الثامن

العقد الأخير من حياة الإمام شرف الدين

الفصل الأوّل : الإمام شرف الدين في العقد الأخير من حياته

الفصل الثاني : تراث الإمام شرف الدين

الفصل الأوّل

الإمام شرف الدين في العقد الأخير من حياته

إذا كان العقد الثالث من حياة الإمام شرف الدين عقد تكوين الشخصيّة العلميّة وإشادة البناء الفكري في حاضرة النجف الأشرف، فإنّ العقد الرابع من حياته قد تألّق بمشروعه في تأليف الأُمّة من خلال كتابه الذي ألّفه باسم الفصول المهمّة، وبمباحثاته الأزهريّة التي كان لها الدور الكبير في تأليف الأُمّة من خلال التفاهم والانفتاح العلمي بين شخصيّتين إسلاميّتين لامعتين.

وقد تألّق نجمه بعد زيارته الثانية لمصر التي أعقبت الثورة الإسلاميّة في جبل عامل ضدّ الفرنسيّين، وقد أعاد تحرير المراجعات التي سرقت أو أُحرقت حين كان في المنفى على ما فصّلناه.

فالعقد الخامس من حياته قد جمع بين الجهاد المتميّز والتأليف المتميّز والحجج المتميّزة، إذ تولّى إمامة المسلمين والمصلّين في المسجد الحرام سنة ١٣٤٠هـ.

وتألّق العقد السادس من حياته بتشرّفه لزيارة العتبات المقدّسة في العراق وإيران، ومشروعه التأسيسي الذي تولّى دراسة تاريخ أبي هريرة من خلال حضوره الفاعل في الصحاح والمسانيد ودوره المتميّز في تكوين ثقافة هجينة ذات أبعاد خطيرة، لا بدّ للمسلمين من إعادة النظر في مصادر ثقافتهم التي تتقاطع مع محكمات القرآن الكريم والسنّة النبويّة الصحيحة. وفي هذا العقد كانت إشادته لصرح الجعفريّة وما تبعها من مشاريع ومؤسّسات تربويّة جعلته في قمّة المصلحين.

وأمّا العقد السابع من حياته المباركة فهو عقد الانهماك بقضايا وشؤون العالم

الإسلامي، حيث أصبحت قضيّة فلسطين الشغل الشاغل للمصلحين والمجاهدين.

وقد عرفت تفاصيل مواقفه وإنجازاته في البحث السابق.

ولا تغيب هذه القضيّة عن اهتمام الإمام شرف الدين طيلة حياته، لا سيّما وهو العالم العامل والمرجع المرابط على الثغر الإسلامي والخطّ الأمامي الذي يواجه إسرائيل والصهيونيّة طيلة فترة جهاده المتنامي في أعقاب الحرب العالميّة الأُولى، وحتّى ما بعد الانتكاسة التي كانت مصدر قلق ورعب وشعور حادّ بالمسؤوليّة تجاه الأرض الإسلاميّة السليبة.

علاقة الإمام شرف الدين بالعلّامة الأميني صاحب موسوعة الغدير

يعتبر الإمام شرف الدين من الروّاد الذين تأثّر بهم الشيخ عبد الحسين الأميني في الطريق الذي انتهجه للبحث والتحقيق عن موضوع الإمامة في الإسلام.

فإنّ الغدير يعتبر لبنة أُخرى في الطريق الذي سلكه كتاب المراجعات. وهو خطوة متطوّرة في هذا السبيل.

وفي الرسالة التي بعثها شرف الدين للأميني سنة ١٣٦٨هـ نلمس عمق العلاقة بين هذين البطلين، وإليك نصّ الرسالة:

حجّة الإسلام العلّامة الثبت المجاهد الأميني أعزّه الله وأعزّ به.

تحيّة طيّبة وسلاماً كريماً.

أشعر أنّ لك عليّ واجباً يتجاوز حدود القول في تقريظ الغدير موسوعتك النادرة، والثناء عليها بوصفها مجهوداً ثقافياً منقطع النظير.

فالقول في هذا ونحوه أدنى ما يُستقبل به جهادك، وأقلّ ما يوزن به تتبّعك واستيعابك. أمّا الذي يعطيك كفاء حقّك في هذه الموسوعة الفاضلة فتقدير يبلّغ الأُمّة أنّك من أبطالها الأقلّين، ويدعوها من أجل هذا إلى شدّ أزرك وإرهافك في سبيلك النيّر الخيّر هذا، إنصافاً للقيم التي توشك أن تضيع فتُضيع؛ ومتى ضاعت وأضاعت فقد خسرت الحياة مثلها الأعلى وعادت بعده تافهة؛ لأنّها تخلو آنذاك من حقٍّ وخيرٍ وجمال، أي

تخلو ممّا يحبّب الحياة ويرفعها، ويدلّ على أقدارها.

موسوعتك الغدير في ميزان النقد وحكم الأدب عمل ضخم دون ريب، فهي موسوعة لو اصطلح على إبداعها عدّة من العلماء وتوافروا على إتقانها بمثل هذه الإجادة لكان عملهم مجتمعين فيها كبيراً حقّاً.

ولكنّي ما سقت كلمتي لأقول هذا، وإنّما سقتها لأُشير إلى هذه الناحية الخطيرة من حياتنا المفكّكة داعياً إلى التشدّد، والالتفاف حول الحفنة الباقية من رجال الفكر الإسلامي ممّن يجيلون أقلامهم في علومنا وآثارنا بفقه وحبّ.

فليس شيء عندي أخطر على هذا الفكر الولود من التفرّق عن رجاله؛ لأنّ التفرّق عنهم نذير بعقم نتاجه وقطع حلقاته، فالتفرّق عنهم بمعناه تفريق للحواضر والبواعث التي تتّصل بها حياة الحقّ في طبائع الأشياء وظواهر السنن.

وليس أفجع لحضارة الشرق بل لحضارة الإنسان من عقم هذا النتاج وقطع هذه الحلقات.

فإذا دعونا إلى مؤازرتك والوقوف إلى جانبك في شقّ الطريق بين يدي «غديرك» فإنّنا ندعو في واقع الأمر إلى خدمة فكرةٍ كلّيّة ترتفع بها شخصيّة الأُمّة كاملة، آملين أن يرى المفكّرون بك مثلاً يشجّعهم بحياة الأُمّة حولك، وحسن تقديرها لك، أن يخدموا الحقّ الذي خدمته لوجه الحقّ خالص النيّة.

أقف هنا لأقول: إنّ قمّة «الهرم» في عملك الجاهد القيّم إنّما هي حبّك له حبّاً يدفعك فيه إلى الأمام في زحمة من العوائق والمثبّطات، وهي خصلة في هذا العمل الكبير تعيد إلى الذهن دأب أبطالنا من خدّام أهل البيت وناشري علومهم وآثارهم، ذلك الدأب الذي أمتع الحياة بأفضل مبادئ الإنسانيّة من معارفهم النيّرة.

أمّا الجوانب الفنّيّة فقد نسجتها نسج صناع، وهيّأت لقلمك القويّ فيها عناصر التجويد والإبداع في مادّة الكتاب وصورته، وفي أدواتهما المتوفّرة على سعة باع، وكثرة اطّلاع، وسلامة ذوق، وقوّة محاكمة أمامك، حفظك الله وأعانك.

عبد الحسين شرف الدين الموسوي

١٤ ذي الحجّة ١٣٦٨

نشاطه العلمي

وفي نهاية العقد السابع نلاحظ صدور كتابه إلى المجمع العلمي العربي بدمشق تأكيداً لمشروعه الوحدوي، وردّاً على مزاعم رموز التفرقة والتشتيت بدل الوحدة والتقريب. وقد تضمّن كتابه هذا النصح بإشفاق والدعوة إلى الوحدة، والعتاب بحفيظة، والاحتجاج على العدوان، والتنبيه إلى السخافات، والإعذار في إنذار.

وصدرت للإمام شرف الدين مسائل فقهيّة كان قد كتبها ونشرها بشكل تدريجي في العرفان وغيرها من المجلّات، وهي مجموعة بحوث علميّة فقهيّة خلافيّة تألّقت في منهجها العلمي وأدبها الرفيع وأُسلوبها البديع. وهي بحقّ واحدة من مآثره الخالدة إلى يومنا هذا، ولا شكّ في خلودها حتّى بعد يومنا هذا، لأنّها لم تخرج على مبدأ الوحدة الإسلاميّة بحالٍ من الأحوال.

ونقرأ له في نهاية هذا العقد رسالة وجّهها للإمام السيّد صدر الدين الصدر في قم المقدّسة، مشيراً فيها إلى أمله في أن يطبع بغية الراغبين في إيران، كما يشير فيها إلى أنّه ينوي زيارة مشهد الإمام الرضا عليه السلام مرّةً أُخرى.

وقد ألحقها بإجازة روائيّة مختصرة للإمام السيّد صدر الدين الصدر قد كتبها في نفس التاريخ.

وإليك صورتي الرسالتين:

١ ـ رسالة السيّد شرف الدين إلى السيّد صدر الدين الصدر يعزّيه بوفاة والده:

بسم الله تعالى

سندي وكهفي والبقيّة من أهلي، لك البقاء وبك العزاء، وأنت الأُسوة وبك القدوة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

ألا أيّها الموت الذي ليس تاركي أرِحني فقد أفنيت كلّ خليلِ

أراك بـــصيراً بـــالذين أُحـــبّهم كأنّك تـــنحو نـــحوهم بـــدليلِ

لا غرو أن سئمتُ الحياة الدنيا، وعزَفَت نفسي عنها، فإنّ فقدان الأحبّة، وثكلان الأعزّة، يوجب ذلك بحكم الفطرة والجبلّة، وما علَيَّ من معرّةٍ إذا ما مللت عـمري، وسئمت حياتي، وتفطرّت حرقاً، وتفجّرت علقاً، فمن لي بالجلد، وأين لا أين يوجد، وأحبابي سَفر، وأترابي ظعن، والدار قفر، والجناب صفر.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنـيسٌ ولم يسـمر بـمكّة سـامرُ

فآهٍ وأوّاه، على إخواني مصابيح دجى العالم، ومقابيس هدى بني آدم، أعلام الدين من آل الصدر وياسين:

ســبقوا هــواي وأعـنقوا لهـواهـمُ فـتُخِرّموا ولكــلّ جنبٍ مـصرعُ

فللعين القذى، وللحلق بعدهم الشجى، والليل مسهّد، والحزن سرمد، أو يختار الله لي دارهم التي ظعنوا إليها.

أيجيب منّي القـلب داعـي سلوة وهـو الأصـمّ الوقـر عـن نـغماتها
أيـقاد سلس القـود نـحو نـديّها فـيعوج شـامسه عـلى أبـياتها
هـيهات يـقعده السـلو وغـدوة عند الأحـبّة هـجهجت جسراتـها

هيهات هيهات، وقد أومـض بـرق العـراق، بـصاعقة اقشـعرّت لهـولها الآفـاق، فاضطربت لها الحواسّ، وانخلعت بها قلوب الناس، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قضى إمام الأمّة، ومفزعها في كلّ ملمّة، وطريقها الفاصل، بين الحـقّ والبـاطل، قضى والله فصل خطابها، ومفصِل صوابـها، قـضى شـخص العـلم والعـمل، ومـناط الرجاء والأمل.

مـصابٌ عــظيمٌ هــوله بـلغ السـما وخطبٌ جسيمٌ صيّر الدهر في عـمى

اندكّ الطود الذي يُمسك الله به الأرض أن تميد، وبه يُغيث الناس فيمطرهم رحمةً وفضلاً، فإذا صبري قتيل، وأمري عويل، وحياتي شقاء، وكلّ ما حولي ثكل وبكاء.

ويا لهف أرضي وسمائي على بقيّة سلفنا الهاشمي، وتليّة شرفنا الفاطمي المفدّاة،

تأخذها القارعة تلو القارعة، وقد بلغت من الكِبر عِتيّاً، رحماك اللّهمّ ربّنا وحنانيك في أمَتك هذه الضعيفة وابنة عبديك، وأنت أعلم بها وأرحم، ولك عليها سوابق النعم، أشبلتها الضراغم لتكون بينهم أعزّ من جبهة الأسد، اللّهمّ فافرغ عليها من الصبر ما تستوجب به أعظم الأجر، وأورف عليها من ظلال علميها ما تتقلّب فيه على مهاد الدعة، وتستظلّ فيه تحت سماء العزّ، على ما لها من الباقيات الصالحات، فإنّها خيرٌ عندك ثواباً وخيرٌ أملاً.

أمْتِعْ ربّنا عبادك بآيتك فيهم وحجّتك عليهم «صدر الدين» وإمام المسلمين، واجعله ثمال الباقين؛ كما جعلته مثال الماضين، إنّك ذو الفضل العظيم، والمنّ الجسيم، وأنت أرحم الراحمين.

عبد الحسين شرف الدين الموسوي
صور ١٥ شعبان المعظّم سنة ١٣٧٠

إلى الآن لم تصل هديّتكم المشكورة ـ كتاب المهدي عجّل الله فرجه ـ ومتى وصلت سنأثر بها جماعة (حول حلب) قد استبصروا ولاية وبراءة، فهم بهذه الهديّة أولى.

أمّا بغية الراغبين، فربما نطبعها في إيران حين التشرّف بزيارة المشهد المقدّس وبخدمتكم، ولعلّ ذلك يكون قريباً إن شاء الله تعالى.

٢ ـ إجازته للسيّد صدر الدين الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك إمام الأُمّة، والنائب بالحقّ عن الأوصياء المعصومين من الأئمّة، فيصل أحكامهم، والمجتهد المطلق فيما شرّعه الله عزّ وجلّ من حلالهم وحرامهم، الخبير بطريقهم، الفاصل بين الحقّ والباطل، المخلص في النصح لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين ولعامّتهم، ممثّل وليّ الأمر في هذا العصر، السيّد الشريف صدر الدين الصدر بقيّة آية الله تعالى في العالمين الإمام المقدّس الجليل السيّد الشريف إسماعيل صدر الدين الموسوي أعلى الله مقامه.

تواضعت وتنازلت (رفع الله قدرك وذكرك) فطلبت منّي الإجازة، وحيث لم يكن لي بدّ من إجابتك، أجزت لك أن تروي عنّي مؤلّفاتي كلّها، ومرويّاتي بأجمعها، وجميع ما تصحّ لي وعنّي روايته، إجازةً عامّة بالشرط المعتبر عند أهل الأثر بحقّ روايتي لذلك ما بين قراءة وسماع وإجازة خاصّة وعامّة عن مشائخي كلّهم من أعلام الإماميّة وغيرهم بطرقهم كلّها المتّصلة بأرباب جميع الكتب والمصنّفات من الخاصّة والعامّة والزيديّة في جميع العلوم، كما هو مفصّل في هذا الثبت ـ ثبت الأثبات في سلسلة الرواة ـ وقد اشتمل على ما فيه بلاغ للاتّصال بالكتب الإسلاميّة عامّة وبمصنّفيها كافّة من شيعةٍ إماميّة وزيديّة وغيرهم من جمهور المسلمين، وأُوصي سيّدنا ـ متّعنا الله بعلمه وعمله ـ بما أوصاني به مشائخي من سلوك سبيل الاحتياط، الذي لا يزلّ سالكه عن الصراط، والله وليّ التوفيق ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وصلّى الله على محمّد وآله، وسلّم كثيراً.

١٥ شعبان المعظّم سنة ١٣٧٠

عبد الحسين شرف الدين الموسوي

بسم الله تعالى

سيدي وكهفي والبقية من أهلي من البتاء فبك العزاء وأنت الأسوة ومنك المدد ولك الأمور والقوة بعظيم ...

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي	أرحني فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيراً بالذين أحبهم	كأنك تنحو نحوهم بدليل

لا عجب أن سئمتُ الحياة الدنيا، وعزفت نفسي عنها، فإن فقدان الأحبة، وثكلان الأعزة، يوجب ذلك بحكم الفطرة والجبلة، وما عليّ من معرّة إذا ما مللت عمري، وسئمت حياتي، وتفطرت حزناً، وتفجرت عيناً. فلا لي بالجلد، ولا بي لأسى يوجد، وأحبابي سفر، وأترابي ظعن، والدار قفر، والجناب صفر.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فآهٍ وأوّاه على أخوي مصابيح دجى العالم، ومقابيس هدى بني آدم، أعلام الدين من آل الصدر وياسين

سبقوا هواي وأعنقوا لهواهم	فتخرّموا ولكل جنب مصرع

فللعين القذى، وللحلق بعدهم الشجى، وللّيل سهد، والحزن سرمد، أو يختار الثرى دارهم التي طمحوا إليها.

أيجيب مني القلب داعي سلوة	وهل الأصم الوقر عن نعمانها
أيقاد سلس القود نحو نديّها	فيعوج شامسه على أبياتها
هيهات يقعده السلو وغدوة	عنه الأحبة أججت حسراتها

هيهات هيهات، وقد أومض برق العراق، بصاعقة اقشعرت لهولها الآفاق، فاضطربت الحواس، وانخلعت له قلوب الناس فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قضى إمام الأمة، ومفزعها في كل ملمة، وطريقها الفاصل، بين الحق والباطل. قضى والله فصل خطابها، ومفصل صوابها، قضى شخص العلم والعمل، ومناط الرجاء والأمل.

مصاب عظيم هوله بلغ السما	وخطب جسيم صيّر الدهر في عمى

انهدّ الطود الذي يمسك الله به الأرض أن تميد، وبه يغيث الناس فيمطرهم رحمة وفضلاً. فما أصبري فتيل، وأمري عويل، وحياتي شقاء، وكل ما حولي ثكل وبكاء.

وبالهف أرضي وسمائي على بقية سلفنا الهاشمي. ولبنية شرفنا الفاطمي المفداة، تأخذها القارعة تلو القارعة وقد طلعت من الكربة أيا، رحماك اللهم ربنا وحنانيك في أمتك هذه الضعيفة وابنة عبديك وأنت أعلم بها وأرحم ومن عليها سوابغ النعم، اشملتها الخزن لتكون بينهم أعزّ من جبهة الأسد، اللهم فأفرغ عليها من الصبر ما تستوجب به أعظم الأجر، وأورف عليها من ظلال عليها ما تتقلب فيه على مهاد الدعة، وتستظل فيه تحت سماء العز على ما لها من الباقيات الصالحات فإنها خير عند ربك ثواباً وخير أملاً.

اللهم ربنا حباك بما تبقى فيهم وحنّنت عليهم «صدر الدين» وإمام المسلمين واجعله ثمال الباقين، كما جعلته ثمال الماضين إنك ذو الفضل العظيم والمن الجسيم وأنت أرحم الراحمين.

صور ١٥ شعبان المعظم سنة ١٣٧٠

عبد الحسين شرف الدين الموسوي

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك إمام الأمة، والنائب بالحق عن الأوصياء المعصومين من الأئمة، فيصل أحكامهم، والمجتهد المطلق فيما شرعه الله عز وجل من حلالهم وحرامهم، الخبير بطريقهم الفاصل بين الحق والباطل، المخلص في النصح لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم، ممثل ولي الأمر في هذا العصر. السيد الشريف صدر الدين الصدر بقية آية الله تعالى في العالمين الإمام المقدس الجليل السيد الشريف إسماعيل صدر الدين الموسوي أعلى الله مقامه تواضعت وتنازلت (رفع الله قدرك وذكرك) فطلبت مني الإجازة وحيث لم يكن لي بدّ من إجابتك أجزت لك أن تروي عني مؤلفاتي كلها ومروياتي بأجمعها وجميع ما تصح لي وعني روايته إجازة عامة بالشرط المعتبر عند أهل الأثر بحق روايتي لذلك ما بين قراءة وسماع وإجازة خاصة وعامة عن مشايخي كلهم من أعلام الإمامية وغيرهم بطرقهم كلها المتصلة بأرباب جميع الكتب والمصنفات من الخاصة والعامة والزيدية في جميع العلوم كما هو مفصل في هذا الثبت - ثبت الأثبات في سلسلة الرواة - وقد اشتمل على ما فيه بلاغ للاتصال بالكتب الإسلامية عامة وبمصنفيها كافة من شيعة امامية وزيدية وغيرهم من جمهور المسلمين وأوصي سيدنا [متعنا الله بعلمه وحلمه] بما أوصاني به مشايخي من سلوك سبيل الاحتياط، الذي لا يزل سالكه عن الصراط والله ولي التوفيق ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وصلى الله على محمد وآله وسلم كثيرا

١٥ شعبان المعظم سنة ١٣٧٠

عبد الحسين شرف الدين الموسوي

حوادث العقد الثامن

١ ـ وفي بداية العقد الثامن من حياته المباركة نجد له رسالتين بعث بهما إلى السيّد الشهيد القاضي الطباطبائي ﵀ بتأريخ ١٣٧١ و ١٣٧٣هـ.

وإليك نصّ الرسالتين:

الرسالة الأُولى:

بسم الله تعالى

السلام على سادة الخلق والأئمّة بالحقّ ورحمة الله وبركاته. فرع الدوحة الهاشميّة وثمرة السرحة الفاطميّة، دوحة الهدى والإيمان وسرحة التقوى والرضوان، ولدنا الأبرّ الأعزّ العيلم العلّامة ومفخرة كلّ متوّج بعمامة، أدام الله أيّامه ورفع في الدارين مقامه. وسلام هو من كلّ أمر سلام محفوفاً بكلّ تجلّة واحترام لك منّا ولسائر من إليك ورحمة الله وبركاته. كتابك وكتاب ... الكريمان أمامي أسرح فيهما نظري وأعمل فيهما رويّتي، فأجد بهما قرّة عيني وبرد السرور في كبدي، وجدتكما تحيطاني فيهما من العوارف والعواطف ما تتجلّى بخلق عظيم وعنصر كريم وحلم بعيد الغور، فشكر الله لكما هذه العاطفة، ولعمري إنّها عاطفة مقتدرة أنتما أهلها.

يصلكم إن شاء الله تعالى ثبت الأثبات في سلسلة الرواة فلك ما طلبت في الرواية عنّي جميع ما تصحّ لي وعنّي روايته في هذا الثبت، إجابة لما طلبت. وفّقني الله وإيّاكم لسلوك جادّة السلف الصالح في العلم والعمل، واقتفاء آثارهم والاستضاءة بسواطع أنوارهم، والسلام عليكم وعلى من إليكم ورحمة الله وبركاته.

صور ـ ٢٥ جمادى الأُولى سنة ١٣٧١
عبد الحسين شرف الدين الموسوي

الرسالة الثانية:

بسم الله تعالى

أخي في الله تعالى ووليّي فيه عزّ وجلّ، أعزّك الله وأعزّ بك الدين وأهله، ولا زلت وجهة الآمال في صالح الأعمال.

والسلام عليك يا ابن رسول الله وعلى من إليك من الأُسرة المباركة والعترة الطـاهرة.

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد.

كتابك الكريم أمامي أدير فيه نظري وأُقلّب فيه خواطري، فأحمد الله عزّ وجلّ على ما أولانا من عواطفكم ويا لها عواطف وعوارف مثّلتم بها الحنان الفاطمي بأجلى مظاهره، فحزتم بها رهان السبق جرياً على سننكم في الحلبات، فشكراً لحنانكم ولكم الفضل بالسبق إليه، فللّه أنتم ولله ما أتحفتمونا به من الفردوس وقد حظينا بها الساعة وإنّما تأخّرنا في الجواب لتأخّر وصولها. وسيصلكم إن شاء الله تعالى مع البريد مطلوبكم النصف الثاني من إظهار الحقّ لتقفوا به على ضالّتكم المنشودة من كلام أعلام الإماميّة رضوان الله عليهم.

أمّا نسب سيّدنا عبد العظيم عليه السلام فكما ذكرتم وما كان ذلك ليخفى عليَّ، ولكن شاء القدر أن يكون هذا الغلط الفاحش في كتابي، والآفة فيه من مصحّح الملزمة في المطبعة حيث إنّه لا يعرف زيد بن الحسن وإنّما يعرف زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام وعلى كلّ فلكم الشكر. وقد أصبحنا ننتظر منكم التنبيه إلى كلّ ما تجدونه محلاًّ للنظر من كتيباتنا المتواضعة لكلّ من ينتقدها مع الشكر والسلام.

صور ـ ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٣
عبد الحسين شرف الدين الموسوي

٢ ـ وللإمام شرف الدين بحث حول الرؤية قد كتبه في هذا العام الذي كان قد رزئ فيه العالم الإسلامي برحيل الإمام المصلح السيّد محسن الأمين العاملي قدس سره.

لقد شاطر السيّد محسن الأمين الإمام شرف الدين في جملة من مشاريعه وهمومه حتّى تشابها في جملة من المؤلّفات في المضمون والمنهج.

ولئن كانت بعض مؤلّفات الإمام شرف الدين قد غابت عنّا فإنّ ما ضاهاها من مؤلّفات الإمام السيّد محسن الأمين العاملي قد بقيت خالدة تقوم بنفس الدور الذي أراده الإمام شرف الدين، وأخصّ منها بالذكر:

١ ـ المجالس السنيّة (خمسة أجزاء).

٢ ـ أعيان الشيعة، ولا سيّما القسم الأوّل الذي اهتمّ فيه بحياة وسيرة الرسول وأهل بيت الرسالة عليهم السلام، فقد عوّض هذا التأليف عن المجالس الفاخرة التي قد فُقِد القسم الكبير منها كما عوّض عن كتابه سبيل المؤمنين، فللّه درّهما وعليه أجرهما[1].

وقد ردّ الإمام شرف الدين على قضيّة التجسيم والتشبيه التي قصّرت فيها بعض المذاهب الكلاميّة، بمقدار ابتعادها عن قضيّة تنشيط العقل وتصعيد قدرته في الاستيعاب والفهم، كما حثّت على ذلك الشريعة الإسلاميّة وأكّد عليه القرآن الكريم.

٣ ـ وللإمام شرف الدين كلمة قيّمة صدّر بها الكتاب الفذّ عن صلح الحسن عليه السلام للإمام المقدّس آية الله الشيخ راضي آل ياسين طاب ثراه، وقد كتبها في ١٥ رجب ١٣٧٢ هـ، وقد ركّز فيها على الثورة المتكاملة لأهل البيت عليهم السلام من خلال صلح الحسن واستشهاده وثورة الحسين واستشهاده، مصرّحاً بأنّ يوم ساباط ـ الذي خطّط فيه الإمام الحسن عليه السلام لإظهار زيف معاوية وكشف الغطاء عن الوجه الأُموي المموّه ـ كان أعرق بمعاني التضحية من يوم الطفّ لدى أُولي الألباب ممّن تعمّق واعتدل وأنصف، على أنّ الإمام الحسن عليه السلام هو الذي مهّد لثورة الطفّ أسبابها وأنضج نتائجها.

وهكذا تألّفت من الصابر الحكيم والثائر الكريم خطّة كاملة ذات غرض واحد. رأى الناس من خلالها أنّ الأُمويّين قردة ينزون على منبر رسول الله، ويكشّرون للأُمّة عن أنياب الغول ويصافحونها بأيد تمتدّ إلى مخالب ذئب في نفوس تدبّ بروح عقرب[2].

---

١. وسيصدر محقّقاً عن المجمع العالمي لأهل البيت إن شاء الله تعالى.

٢. أُنظر مقدّمته على كتاب صلح الحسن عليه السلام للإمام الشيخ راضي آل ياسين.

٤ ـ وفي سنة ١٣٧٣ هـ رزئ الإمام شرف الدين والعالم الإسلامي بأحد أعزّته ألا وهو المرجع الكبير والإمام المصلح الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء، فكان وقع فقده عليه عظيماً، فقد تبادلا الودّ والحبّ في الله خلال العقود السالفة، كما يظهر ذلك جليّاً من قصائد الإمام كاشف الغطاء التي نظمها للإمام شرف الدين.

٥ ـ وفي سنة ١٣٧٤ هـ نقرأ برقيّة للإمام شرف الدين كان قد وجّهها لشاه إيران إثر محادثاته لدخول الحلف التركي العراقي، وذلك في ٣ رمضان ١٣٧٤ الموافق ٢٥ نيسان ١٩٥٤ م، وإليك نصّ البرقيّة:

«حفظ الله الإيمان بحفظ إيران، دخولكم الحلف التركي العراقي ينذر بالقارعة، موقعكم بين فكّي التنّين يلزمكم بالحياد. الدين النصيحة، وقد نصحت»[١].

وهذه البرقيّة تشير إلى اهتمامه البليغ بشؤون إيران المسلمة وموقع إيران الإسلاميّة عند الإمام شرف الدين. وقد أبى الإمام شرف الدين أن يستقبل شاه إيران حينما جاء إلى لبنان مستميلاً له ومستفيداً من نفوذه وشخصيّته، وذهبت هذه الحادثة مثلاً في الإباء وقوّة الشخصيّة والحكمة في النظر والدقّة في السلوك.

٦ ـ وقد تألّق هذا العقد بآخر مؤلّفات الإمام شرف الدين ألا وهو الكتاب الثمين الذي سمّاه بـ النصّ والاجتهاد، وهو إكمال لمشروعه الإصلاحي الذي كان قد بدأه في الفصول المهمّة و المراجعات و أبي هريرة؛ لما قلناه من أنّه كان يرى ضرورة التحقيق في مناشئ الخلاف وأسبابه التاريخيّة برؤية علميّة موضوعيّة، كي يتسنّى للمسلمين أن يقضوا على الداء بالقضاء على علله وأسبابه.

---

١. الموسوعة ج ٩.

٧ ـ وفي سنة ١٣٧٦هـ وجّه الإمام شرف الدين إلى علماء الدين في العالم نداءً مهمّاً، وذلك في عشيّة الاعتداء الثلاثي على مصر في الخامس والعشرين من ربيع الأوّل الموافق ٣٠ تشرين الأوّل ١٩٥٦م، وإليك نصّ النداء:

في هذه الفترة الحاسمة التي يمتحن فيها الاستعمار مناعة الإنسان في الحرّيّة وتقرير المصير.

في هذه الفترة التي يغزو بها الاستعمار مصر المجاهدة، أبتهل إلى الله عزّ وعلا أن ينصر الحق ويزهق الباطل، وأُناشد إخواني في الله تعالى علماء الدين في كلّ مكان أن يقولوا كلمتهم، فتدوّي صارخة توقظ النائمين وتدفع الواقفين إلى الدفاع عن معقل هو أعزّ معاقلنا، تحت راية الحقّ يحملها جمال عبد الناصر الذي أصبح فكرةً في العقول وخفقة في الصدور وإنساناً في العيون.

وأُهيب بجميع أبنائنا في الله في المشرق والمغرب إلى الاشتراك في معركة المصير هذه، وإعلان الحرب على الاستعمار الذي جعل من شرعة حقوق الإنسان شريعة قراصنة وذؤبان، يغدر بالوطن المؤمن الآمن فيتسوّر عليه جوّه وأرضه ومياهه ويلتحم معه: ناباً مسموماً، وظفراً لئيماً، في حرب إبادة. فيرى فيه الموطن العظيم: جيشاً وشعباً ورئيساً.

ألا وإنّ الاستعمار الغربي يغزونا في عقر دارنا، معتدياً غاشماً.

ألا ومن مات دون حفنة من تراب وطنه مات شهيداً ...[1].

٨ ـ كما وجّه برقيّة إلى الملك فيصل الثاني على أثر اعتداء السلطة العراقيّة على المقامات المقدّسة وعلى الشعب العراقي، حين رفض سياسة حكومته الضالعة مع الأحلاف الاستعماريّة.

---

١. الموسوعة ج ٩.

وإليك نصّها:

وقوف العرب في صفّ والعراق في صفّ، تناقض صارخ مع رسالة الحسين وفيصل وغازي التي مضوا في سبيلها تقتيلاً وتشريداً.

وإنّني والله لأسمع عتبهم الأبوي المفجوع ترسله أرواحهم الزكيّة، وألمح خيبة الأمل ترتسم على وجوههم النبويّة، محتجّة مع الملايين، على رئيس سفّاحي العراق، واعتدائه على جدّك ومجدك في النجف الأشرف، وإذلاله لشعبك الأبيّ في شتّى أنحاء مملكتك.

شعبك العظيم يدعوك للمجد العظيم، فكن لشعبك يا ولدي كما كان لشعبه أخوك عبد الناصر، وابن عمّك الحسين، وأخرج السفّاح من دار الحكم دارك، تنفرج الأزمة التي تأخذ بخناق شعبك السجين، ويتنفّس المسلمون والعرب الصعداء!...

أُحيّيك بانتظار الفرج، وأُحيّي إخواني المجاهدين علماء حكماء، وزعماء شرفاء، وشعباً كريماً، وجيشاً باسلاً ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

وهكذا تستمرّ مسيرة الجهاد بالقول والعمل والصبر والمقاومة حتّى تؤدّي هذه النفس المؤمنة بالله واجبها تجاه الحقّ والخلق، لتعرج باتّجاه الحقّ صابرة محتسبة مطمئنّة برحمة الله ورضوانه.

١. راجع الموسوعة ج ٩، والآية في سورة آل عمران (٣): ١٦٩.

الفصل الثاني

تراث الإمام شرف الدين

لمحة عامّة عن تراث الإمام شرف الدين

الكلام عن تراث الإمام شرف الدين حديث ذو شجون، وهو يستحقّ كتاباً خاصّاً ينفرد به، لأنّ ما أنتجه يراع هذا المفكّر العبقري هو مشروع كامل ومشعل وضّاء، استطاع أن يرفع الحجب ويدفع الغيوم التي طالما سترت شمس الحقائق عن الإشراق المباشر على القلوب والنفوس.

إنّ أهمّ مصدر للإلمام بتراث الإمام شرف الدين هي كتبه التي ضمّنها قائمة كتبه المطبوعة والمفقودة. وأجمعها وأحسنها من حيث إيضاح الموضوع لكلّ كتاب أو لمنهج كلّ كتاب بشكل يعطي صورة ولو مجملة عن الكتاب، هو ما سطّره بقلمه في كتابه بغية الراغبين.

وقد كرّر ذكر كتبه وأبدى بشدّة أسفه على ما أُضيع ونهب منها أو أُحرق وفي ذيل كتابه الكلمة الغرّاء ناشد من عثر على شيء منها بإرجاعه إليه.

غير أنّ المتبقّي من كتبه كان ولا يزال فيه كلّ الخير والبركة والعطاء المستمرّ للأجيال التي عاصرته وتلته حتّى يومنا هذا.

إنّ نفائس الإمام شرف الدين المفقودة هي التي كان قد ألّفها أيّام تحصيله العلمي في النجف الأشرف، وبعضها كان ممّا قد أتعب نفسه الشريفة على جمعه وتبويبه وتهذيبه أيّام إقامته في صور، لكن فيما تبقّى من كتبه الكفاية. وفي كلّ من كتبه المهمّة مشروع فكري كامل الأبعاد، وإنجاز رسالي جدير بالاهتمام.

ولو أردنا أن نقف عند أهمّ هذه الآثار الموجودة التي طبعت عامّتها في حياته أو بعيد وفاته، لقلنا بأنّ هذه الفرائد التي تميّز بها الإمام شرف الدين تبدأ بـالفصول المهمّة وتنتهي بـالنصّ والاجتهاد. وتتوسّطها المراجعات[1] و الكلمة الغرّاء و المسائل الخلافيّة و أبو هريرة و بغية الراغبين.

وقد حاولنا ذكر كلّ كتاب في ظرفه التاريخي الذي صدر فيه قدر الإمكان وبالإمكان أن نسلسلها حسب تواريخ صدورها كما يلي:

١. الفصول المهمّة = ١٣٢٧ هـ.

٢. المراجعات = ١٣٢٩ ـ ١٣٣٠ هـ / وإعادة تحريرها في ١٣٣٨ هـ والطبعة الأُولى للمراجعات في سنة ١٣٥٥ هـ.

٣. مقدّمة المجالس الفاخرة = ١٣٣٢ هـ.

٤. الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء عليها السلام = ١٣٤٦ هـ.

٥. أجوبة مسائل موسى جار الله = ١٣٥٤ هـ.

٦. بغية الراغبين = ١٣٥٩ هـ، وكانت مراجعته في ١٣٦٢ هـ، وطبع بعد وفاته.

٧. أبو هريرة = ١٣٦٢ هـ.

٨. ثبت الأثبات = ١٣٥٥ هـ.

٩. إلى المجمع العلمي العربي بدمشق = ١٣٦٩ هـ.

١٠. مسائل خلافيّة أو مسائل فقهيّة، كانت قد طبعت في مجلّة العرفان وجمعت في كتاب واحد سنة ١٣٧٠ هـ.

١١. كلمة حول الرؤية = ١٣٧١ هـ.

١٢. النصّ والاجتهاد = ١٣٧٥، ولم يطبع إلّا بعد وفاته.

---

١. وما أكثر المستبصرين ببركة كتابه الرائع (المراجعات). وهو الكتاب النموذجي في الكشف عمّا جرى على أهل بيت الرسالة من تآمر وتغييب للدور السياسي والعلمي في مجتمع المسلمين ومصادرهم.

وهناك مقالات قد نشرت له في مجلّة العرفان، وقد جدّد طبع بعضها في كتاب مثل:

١٣. مختصر الكلام في مؤلّفي الشيعة من صدر الإسلام.

وبعضها لم يجدّد طبعه مثل:

١٤. زكاة الأخلاق.

١٥. بغية الفائز في جواز نقل الجنائز. وهو ما نشر في العرفان من مناقشته للشهرستاني حول نقل الأموات[١].

وهناك كتب مفقودة أُشير إلى بعضها، مثل: محمّد وآل محمّد، و من هم آل محمّد؟

وهناك كتاب ذكره لنا العلّامة السيّد مرتضى العسكري دام ظلّه كان قد أرسله إليه الإمام شرف الدين حول صلح الإمام الحسن، وكان كتاباً جيّداً لكنّه فُقِد ولم يُطبع.

وقد أتحفنا فضيلة العلّامة السيّد عبد الله شرف الدين نجل الإمام شرف الدين بمخطوطتين من مخطوطاته، إحداهما باسم الفضائل الملفّقة والأُخرى حول أجوبة صدرت منه في مسائل كانت قد وجّهت إليه[٢]، مع بعض الإجازات التي صدرت له من أساتذته، فللّه درّه وعليه أجره.

وذكر لنا أيضاً أنّ للإمام شرف الدين تعليقات على الصحاح، كان ينبغي تصويرها لأنّها تعبّر عن ملاحظاته على ما روي في الصحاح. وقد جمع قسماً منها في كتابه المعروف عن الصحابي أبي هريرة.

مميّزات كتب شرف الدين

وتمتاز عامّة كتب الإمام شرف الدين بالمنهجيّة والاستدلال بالكتاب والسنّة والعقل.

وتعتمد مصادر الحديث والتاريخ المقبولة لدى الفريقين.

---

١. وهناك مقالات عثرنا على أسمائها ولم نرها، وذكر أنّها نشرت في مجلّة العرفان، أو مجلّات أُخرى.

٢. قمنا بزيارة له في صور في جمادى الآخرة سنة ١٤٢٤هـ فأتحفنا بهاتين المخطوطتين.

كما تمتاز بالجودة والدقّة والأناقة إلى جانب الأدب الرفيع والأُسلوب الهادئ والنصّ البليغ.

وقد كتب نجله السيّد صدر الدين في مقدّمته على آخر كتب والده الإمام شرف الدين الذي سمّاه بـ\النصّ و\الاجتهاد ما نصّه:

تابعت هذا الكتاب الجليل في تنزّلاته، وشاهدت بناءه المحكم وهو ينمو ويتكامل رويداً رويداً في أناة الإبداع، ومهل التجويد، وإعادة النظر. كنت أدخل على مؤلّفه الخالد في ساعات المخاض، فأجده مندمجاً بالموضوع، يحيى الفكرة تأمّلاً، ويفرغها همهمةً، فإذا استقام له القالب فنهض في فنّه الذوّاق بالمحتوى أملاه على كاتبه تخطيطاً يعود إليه غير مرّة قبل وضعه بصيغة نهائيّة، ولا يفرغ منه إلّا إذا تناغم في سمعه أداءً وإيقاعاً، وتماسك في يده نسجاً وتحابكاً، وانسجم في عينه خطّاً ولوناً. كانت الكلمة عند أبي حاسّة سادسة لا يرضيه منها إلّا أن تجمع إلى شروط الصحّة مقاييس الجمال، وفضيلة الوضوح[1].

وقد ذكر الإمام شرف الدين خصائص بعض مؤلّفاته مثل شرح \التبصرة وهو واحد من نفائسه المفقودة فجعلها كما يلي:

١ ـ الاعتدال في مفاد الأدلّة، وعدم التطرّف.

٢ ـ الاعتدال في البيان ما بين الإيجاز المخلّ والإطناب المملّ.

٣ ـ الاهتمام باللباب.

٤ ـ حسن الأُسلوب.

٥ ـ تمحيص الحقائق.

٦ ـ استقراء الدقائق واستخراج المخبآت.

وتكاد تكون هي خصائص كلّ مؤلّفاته المطبوعة، ويمكن أن نضيف إليها صفتي المنهجيّة العلميّة والموضوعيّة في البحث، ولعلّه أشار إليهما بتمحيص الحقائق.

---

١. أُنظر مقدّمة النصّ والاجتهاد، بقلم صدر الدين شرف الدين، ص ٧٤ (الطبعة الثالثة).

غير أنّ منهج البحث هو شيء وراء تمحيص الحقائق، ما دام المنهج العلمي ينتهي بالإنسان إلى تمحيص الحقائق، ويعتمد المنهج العلمي طبعاً على التوثيق الصحيح للأقوال والآراء والأدلّة التي يختارها.

كما أنّ الأدب الرفيع والحوار الهادئ هما الصفتان المميّزتان لسائر آثاره، ولا سيّما التي تكون ردّاً على الشبهات أو افتراءات الخصوم.

وصرّحت مجلّة رسالة الإسلام القاهريّة في العدد الأوّل من السنة العاشرة، ص ١٠٨. بخصائص ومنهج الإمام شرف الدين بما نصّه:

لقد كان ـ أجزل الله مثوبته ـ يسبح وحده في الإحاطة بمختلف أنواع العلم والمعرفة، وكان له فكر منظّم واعٍ، وقدرة عجيبة على التتبّع والاستقصاء والتأمّل والاستنباط، في أدب العالِم، وغيرة المؤمن، وأمانة الباحث المنصف، وصبر الفاحص المتثبّت، تشهد بذلك كتبه ورسائله، وكلّ ما خطّه قلمه من مقال أو فتوى أو مكاتبة، وكلّ ما نطق به لسانه من توجيه، أو نصح، أو خطبة، بل كذلك كان حتّى في أحاديثه العابرة، ومجالسه الكثيرة. وقد اختمرت في رأسه فكرة التقريب بين المسلمين منذ شبابه، حتّى إذا سمع بدعوتها أوّل نشأتها خفّ إليها يؤيّدها وينصرها ويدعو لها، ويزكّيها ويفخر بالانتساب إليها. وظلّ على عهده ذاك إلى أن رفعه الله إليه.

تراث الإمام شرف الدين والمشروع الإصلاحي الوحدوي

بالرغم من تناول الإمام شرف الدين لمسائل الخلاف الفقهيّة والعقائديّة، فإنّه لم يتجاوز مشروعه الإصلاحي الوحدوي لا في الأُسلوب ولا في المنهج.

إنّ الإصلاح الجذري والنهج الوحدوي، هما المبدآن الأساسيّان اللذان أشاد عليهما الإمام شرف الدين صرح مؤلّفاته، وسار عليهما في حياته المباركة.

ومن هنا كان واقعيّاً وكان صريحاً وكان مقبولاً لدى عامّة قرّائه من العلماء والأساتذة والمثقّفين.

وهاتان ميزتان تضافان إلى سائر الخصائص التي ذكرناها في البحث السابق:

الإصلاح الجذري هدف أساس، والوحدة الإسلاميّة مبدأ لا يمكن التنازل عنه بحالٍ من الأحوال.

والإصلاح الجذري إنّما يكون بنهج علمي صادق لتحرّي الحقائق، وعدم الخوف من انكشاف الحقائق والإصحار بها على حقيقتها كما هي، دون زيادة أو نقصان ودون تمويه أو مبالغة بأيّ شكلٍ من الأشكال.

إنّ هذا المشروع الإصلاحي الوحدوي للإمام شرف الدين هو مشروع أهل البيت عليهم السلام على مدى القرون، وهو مشروع مدرستهم مدرسة الرسالة ومدرسة القرآن الكريم. إنّها مدرسة ذات منطلق رسالي، يقوده العقل والمنطق ويسيطر على الأهواء والعواطف والنزعات الجاهليّة والغريزيّة، ويحدث النقلة الكبرى للإنسان في هذه الحياة باتّجاه الحقّ والحقيقة ليكون وقفاً على الحقيقة، ولا يكون اُلعوبة بيد الشيطان الغويّ وأباليسه وزخارفه التي تتجدّد في كلّ عصر ومصر.

لقد أسّس الإمام شرف الدين بهذا المنهج ـ الذي حرص على الالتزام به في سيرته وكتاباته ـ لمدرسة إسلاميّة مُثلى، فربّى على هذا المنهج طلّاباً تخرّجوا من هذه المدرسة النموذجيّة، فأصبحوا قدوة في تحرّي الحقائق وكتبوا وألّفوا بقدر وسعهم ما أفاض الخير على المكتبة الإسلاميّة، فأثمرت الصحوة الكبرى التي نراها اليوم إذ تقدّم ثمارها اليانعة بما تستعدّ له النفوس الخيّرة التي تنشد الحقّ لطلوع فجر الإمامة الراشدة وظهور نور الإسلام الأبلج على الدين كلّه ولو كره المشركون.

فقه الوفاق وأدب الخلاف

لقد أسّس القرآن الكريم مبدأ التفقّه في الدين بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

---

١. التوبة (٩): ١٢٢.

وبيّن للمسلمين جميعاً المنهج الواجب مراعاته للتفقّه في الدين بعد أن هيّأ لهم مصادر التشريع وهي مصادر التفقّه في الدين، فاعتبر القرآن الكريم أوّل المصادر، وثنّاها بسنّة الرسول الأعظمﷺ، كلّ ذلك على ضوء العقل والمنطق القويم والبرهان البيّن والدليل العلمي الذي يطالب به العقل وخالق العقل ربّ العالمين.

وقد أرسى القرآن الكريم للإنسان محكمات الكتاب المبين، وأرشده إلى ضرورة الاسترشاد بها حين تشتبه عليه الرؤى والمفاهيم، فقال مرشداً له وناصحاً:

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾[1].

وقد قال قبل ذلك في سورة الزمر:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الألْبَابِ﴾[2].

وبهذا حدّ للإنسان الذي ينشد الحقّ بالعقل حدوده التي لا يتعدّاها ولا يزيغ عنها، فبشّره بالعاقبة المحمودة التي تنتظر الإنسان حين يتّبع المنهج الصحيح. منهج اختيار الأحسن وعدم القناعة بالحسن بعد استماع الأقوال وتمييزها وتقييمها ثمّ اختيار الحقّ من بينها وانتقاء الأحسن منها.

وكما أرسى القرآن الكريم قواعد التعايش الاجتماعي على أساس العقيدة الصحيحة التي تعتمد العقل القويم الذي ينتهج النهج الصحيح في البحث والتنقيب.

ومن هنا كانت دعوة القرآن الإنسانَ المسلمَ إلى تكوين الأُمّة المسلمة الواحدة، والالتزام بلوازم هذا الصرح الاجتماعي العظيم، الذي يمثّل القاعدة الأساسيّة لانطلاق الرسالة في هذه الحياة دعوة جادّة لا تقبل المساومة وتفوق كلّ مبدأ آخر بعد الإيمان

---

١. آل عمران (٣): ٧.

٢. الزمر (٣٩): ١٧ ـ ١٨.

بالله تعالى وبرسوله وكتابه واليوم الآخر.

ولهذه الدعوة أُسسها وأهدافها ومسوّغاتها الرساليّة التي تجعلها في مقدّمة المبادئ الإسلاميّة التي لا يمكن تجاوزها أو غضّ الطرف عنها.

وقد علّمنا الرسول الأمين وأهل بيته الأطهار أهمّيّة هذا المبدأ وقيمته الرساليّة، حتّى أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب لم يساوم عليه بل قدّمه على الخلافة المشروعة له، والتي كانت عند غيره مسوّغاً لنقض مبدأ الوحدة في أحرج الظروف وأقسى اللحظات التي كانت تمرّ بها الأُمّة الإسلاميّة بعد وفاة الرسول ﷺ.

وهكذا تجلّت للمسلمين في سيرة أهل بيت نبيّهم رساليّتهم ومبدئيّتهم، كما تجلّت لهم حقيقة كلّ الشخصيّات التي تستّرت بأقنعة قد تخلّت عنها حين أمسكت بزمام الحكم، بينما لم يتخلّ الإمام عليّ بن أبي طالب عن مبادئه وشعاراته التي رفعها في مختلف الظروف والأحوال حاكماً كان أو محكوماً، وعلى نهجه سار أبناؤه وأتباعهم وشيعتهم في مختلف الظروف.

وللإمام شرف الدين دور الريادة في العصر الحاضر في تأسيس قواعد فقه الوفاق، وتدوينها بشكلٍ منهجي في مؤلّفه القيّم الفصول المهمّة في تأليف الأمّة وفي سائر مؤلّفاته التي تعرّض فيها لهذه الفصول بشكل وآخر ضمن الردود على الشبهات والافتراءات مثل أجوبته على مسائل موسى جار الله ومثل كتابه إلى المجمع العلمي العربي بدمشق و مسائل خلافيّة أو مسائل فقهيّة وإن كانت الأخيرة قد تعرّضت لفقه الخلاف لكنّها في إطار فقه الوفاق، وليست بخارجة عن دائرة محكمات هذا الفقه الأصيل.

لقد أكّد الإمام شرف الدين ضرورة البحث عن مسائل الخلاف، ولكن في دائرة مبدأ الوحدة الإسلاميّة بين الفرق والمذاهب الكلاميّة والفقهيّة على السواء. وإنّ وحدة المسلمين هي أهمّ وأكبر مبدأ على المسلمين الاهتمام به وعدم تجاوزه ـ وهم يختلفون في الفروع أو في الأُصول ـ ما داموا يتّحدون في أُصول العقيدة التي تجمع

شملهم، وتجعلهم يداً واحدة على مَن ظلمهم واستعمرهم أو قهرهم.

والبحث عن الإمامة وإن كان بحثاً عقائديّاً في الصميم غير أنّه لا يتقاطع مع مبدأ الوحدة، كما لم تنفصم وحدة المسلمين وجيل الصحابة بالرغم من تنازعهم على الخلافة، وإن كان الفضل في ذلك عائداً إلى الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام صاحب الحقّ الشرعي الذي لم يسمح للانتهازيّين باستغلال حراجة الظرف لضرب الأُمّة الإسلاميّة بعصا الاختلاف على ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيادة الأُمّة من بعده.

وهكذا فوّت الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام الفرصة الذهبيّة للأعداء المتربّصين بالمسلمين فترة غياب الرسول من الساحة وانشغال المسلمين بأمر الخلافة، فكان موقفه تلك العصا الحديديّة التي ضربت على أيدي المعتدين وسحبت بساط الضعف والانهيار وأبدلته بتماسك القوى أمام الأعداء، رغم الاعتقاد بعدم شرعيّة المصاديق المتصدية للحكم وعدم كفاءتها في الوقت الذي كان الإسلام بحاجة ماسّة إلى وحدة الصفّ وتكاتف القوى المتخالفة في ما بينها في المفاهيم والمنهج والاتّجاه.

وهكذا أثبت مبدأ الوفاق جدارته وقدرته على تحدّي الظروف الحرجة، وقدرته على اجتياز المرحلة الصعبة، وفاعليّته في حفظ الرسالة وإيصالها إلى الأجيال اللاحقة.

وبهذا الصبر العظيم على الالتزام الكامل بالقيم الرساليّة والمبدأ الوحدوي بلغ الدين الحقّ إلى الأجيال التي لم ترَ شخص الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ولم تنعم بصحبته، لكنّها نعمت بقيمه وتعاليمه وتشبّعت بثقافته وتشرّبت بروحه الذي جسّده أهل بيته المعصومون عليهم السلام في مواقفهم وسلوكهم عبر القرون الثلاثة التي أعقبت وفاته ورحيله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمّا أدب الخلاف فقد بقي الإمام شرف الدين إلى آخر عمره ملتزماً به، وأصبح قدوة لغيره في مجال البحث والحوار، وهو يبحث عن أهمّ القضايا الخلافيّة من دون أن يساوم على قضيّة عقائديّة أو فقهيّة أو يتظاهر بما لا يعتقده ولم يرتضه علميّاً. وإنّما كان جريئاً في إظهار ما يعتقد ويؤمن به على أساس أدلّة علميّة رصينة.

وتبقى قضيّة المنهج في فقهي الوفاق والخلاف قضيّة أساسيّة له فيها تأصيل وتأسيس وإبداع وهي بحاجة إلى البحث والمدارسة لتبيين معالم المنهج وأسسه وعناصره ونتائجه وآثاره[1].

مؤلّفاته التي نصّ عليها

لقد نصّ السيّد عبد الحسين شرف الدين بقلمه في أكثر من كتابٍ من كتبه على ما كتبه وألّفه من آثار علميّة بالغة الأهميّة، وأهمّ مصدر وأوسع مؤلّف نصّ فيه على بيان مؤلّفاته هو بغية الراغبين.

وقد نصّ على ٣٣ مؤلّفاً من مؤلّفاته الموجودة والمفقودة، وشرح محتوى كلٍّ منها، كما أشار إلى المطبوع منها، وقد مرّ ذكر قائمة مؤلّفاته في كتبه التالية:

١. بغية الراغبين، وهي أطول قائمة حيث ذكر فيها ٣٣ عنواناً من عناوين كتبه المطبوعة وغير المطبوعة، وتوسّع فيه في وصف ما ألّفه.

٢. وقد أعاد ذكر مؤلّفاته في نهاية كتابه الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء عليها السلام وذلك في الهامش، ولكنّه قد ذكر ١٩ عنواناً من عناوين مؤلّفاته، ويبدو أنّه قد اقتصر فيها على ذكر نفائسه التي أُحرقت ونُهبت وأُبيدت، ولم يُشر إلى المطبوع منها. وبذلك فلا تهافت بين القائمتين.

وقد ذكر آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين في مقدّمته على مراجعات السيّد شرف الدين تسعة عناوين من كتبه المطبوعة، وثمانية عشر عنواناً من ما لم يُطبع، فيكون المجموع سبعة وعشرين عنواناً. وسمّى المطبوع منها بـ«ذخائره الخالدة»، وغير المطبوع منها بـ«نفائسه البائدة».

وصاحب البيت أدرى بما في البيت.

---

١. أُنظر أيضاً البعد الفقهي في شخصيّة الإمام شرف الدين العلميّة.

ورغم أنّ بغية الراغبين ليس آخر كتاب ألّفه، لكنّه كان يضيف إليه بالتدريج معلومات حسب ما كانت تستجدّ له.

وقد ذكر فيه النصّ والاجتهاد وهو آخر كتاب كان قد خرج من يراعه المبارك، وقد ذكر فيه أنّه ممّا طبع مراراً في حياة المؤلّف، وكان قد فرغ من تأليفه سنة ١٣٧٥هـ. بينما لم يطبع بغية الراغبين في حياة المؤلّف رحمه الله تعالى. ولعلّ بعض الإضافات هي من نجل المؤلّف كما أشار إلى ذلك وجعل علامة فارقة للإضافات.

إذن فالنصّ المعوّل عليه في مؤلّفاته هو ما جاء في بغية الراغبين.

وهناك أكثر من كاتب وباحث تكلّموا عن مؤلّفاته ودرسوا شخصيّته من خلالها، منهم:

١ ـ حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ رضا أُستادي، في مقال له حول شخصيّة الإمام شرف الدين كتبه لمؤتمر تكريم الإمام شرف الدين سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٣م.

٢ ـ الدكتور هادي فضل الله في كتابه عنه ومقال كتبه للمؤتمر.

٣ ـ الأُستاذ محمّد رضا حكيمي، في كتابه عن شرف الدين.

وإليك نصّ ما ذكره الإمام شرف الدين في بغية الراغبين:

[١]: شرح التبصرة مزجاً على سبيل الاستدلال، خرج منه كتاب الطهارة، وكتاب القضاء والشهادات، وكتاب المواريث في ثلاث مجلّدات. وفيه من تمحيص الحقائق، واستقراء الدقائق، واستخراج المخبّآت، ما يروق كلّ معتدل في مفاد الأدلّة ومجاري الأُصول، جانبت فيه الإيجاز المخلّ، والإطناب المملّ، مقتصراً على اللباب في أحسن أُسلوب، وأنصع بيان.

[٢]: تعليقة على استصحاب رسائل الشيخ تكفّلت بالكشف عن دقائق أغراضه، وخفيّ مقاصده، ولطيف إشاراته، ومكنون أسراره، ومقفل رسائله أعلى الله مقامه.

[٣]: رسالة في منجزات المريض استدلاليّة، هي الغاية في موضوعها.

[٤]: كتاب الفوائد والفرائد، يعرف موضوعه من اسمه، وهو مجلّد واحد يشتمل على مسائل، بعضها من مشكلات الفقه، وبعضها من مشكلات الأُصول، وبعضها من متشابه

الكتاب والسنّة ، وفيه ما شئت من رفع إشكال ، ودفع شبهة ، وإماطة حجاب ، وإيضاح معمّى ، وإفصاحٍ عن مضمون ، وإظهارٍ لمكنون ، وإبداء سرّ ، وإبراز دخلة .

[٥]: تحفة الأصحاب في حكم أهل البيت .

[٦]: سبيل المؤمنين ثلاثة مجلّدات في الإمامة العامّة بعد رسول الله ﷺ وقصرها على الأئمّة الاثني عشر ـ أئمّة العترة الطاهرة ـ بحكم الأدلّة القاطعة ، والنصوص التي لا يجحد الجمهور صحّة أسانيدها ، أثبتنا فيه عصمتهم بالعقل والنقل ، توسّعنا في الكلام على هديهم، فإذا سيرتهم بمجرّدها تستوجب العصمة، وتقتضي النيابة عن رسول‌الله ﷺ إذ هي على منهاج سيرته حذو القذّة بالقذّة .

[٧]: النصوص الجليّة في إمامة العترة الزكيّة . كتاب يشتمل على ثمانين نصّاً : أربعين منها من طريق الجمهور ، وأربعين ممّا انفردت به الإماميّة ، وتوسّعنا فيه بحثاً عمّا حول كلّ نصّ ، فلم ندع آبدة ولا شاردة بسهولة أُسلوب وعذوبة مور .

[٨]: تنزيل الآيات الباهرة في فضل العترة الطاهرة . مجلّد واحد يشتمل على مائة آية من آياتهم عليهم السلام ، تكلّمنا في كلّ آية منها بما يقتضيه التحقيق والاعتدال والإنصاف ، فأثبتنا أوّلاً نزولها فيهم من طريق الجمهور ، ثمّ أوضحنا معناها ومرماها ، وما جاء في تفسيرها وتأويلها ، وما إلى ذلك من أسرار ودقائق ومخبّآت من الحقائق ، مع التجافي عن كلّ حشو ولغو ، فلم نألُ في سطوع البرهان ، ونصوع البيان ، حتّى تجلّت تلك الحقائق ، على وجه تلمسها الخلائق .

وهذا الكتاب والذي قبله مقتبسان من سبيل المؤمنين [1] .

[٩]: المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة ، أفردنا الأوّل منها للسيرة النبويّة فكانت بمجرّدها من الأدلّة على نبوّته ﷺ .

توسّعنا في بيان حكمته في هديه بما لا مزيد عليه ، فإذا آيات الحكمة ، وبيّنات النبوّة تتجلّى في كلٍّ من أنظمته وقوانينه ، وسائر شؤونه في سياسته وأخلاقه ، وأقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، ونطقه وصمته ، ويقظته ونومه ، وأكله وشربه ، وتنعّله ومشيه وجلوسه ، وحربه وسلمه وهدنته ، وصحّته ومرضه ، وعبادته لله عزّ وجلّ ،

---

١ . وكذلك المجلّد الثاني والثالث والرابع من الكتاب التالي المجالس الفاخرة .

ومعاملته للناس من أوليائه وأعدائه على اختلاف طبقاتهم وتباين شؤونهم، وضع كلاً من أُموره موضعه على ما تقتضيه الحكمة، فصلّنا ذلك في سيرته من مبدأ أمره إلى منتهى عمره، وبه عرفنا الكنه من قوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ وإنّك لعلى خلق عظيم ﴾.

المجلّد الثاني في هدي كلّ من أمير المؤمنين، وسيّدة نساء العالمين، وولدهما الحسن السبط المجتبى إمام الأُمّة، وسيّد شباب أهل الجنّة.

المجلّد الثالث خاصّ بسيّد الشهداء، وخامس أصحاب الكساء[1].

والرابع في هدي التسعة المعصومين، نسجنا في المجلّدات الثلاثة المختصّة بالأوصياء على منوال المجلّد الأوّل المختصّ بسيّد الأنبياء، فتوسّعنا فيها بما توسّعنا فيه من بيان الحكمة الدالّة بمجرّدها على العصمة، فلا غرو إن كانت سيرتهم بمجرّدها دالّة على إمامتهم عليهم السلام. وقد طبعت مقدّمة هذا الكتاب[2] فكانت رسالة لها السبق في رجحان مآتم العترة الطاهرة شرعاً وعقلاً[3].

---

١. قال رحمه الله: بسطنا فيه جميل بلائه وجليل عنائه في النصح لله تعالى ولعباده، ومثّلنا اندفاعه عليه السلام في سبيل الحقّ إلى تلك التضحية العظيمة بكلّ معاني العظمة التي ما سبقه إليه سابق، ولن يلحق فيها لاحق، وشرحنا أسرار شهادته والأغراض التي كان يرمي إليها في نهضته، وفصّلنا أسرار مآتمه الشريفة وآثارها في الإسلام.

٢. قال رحمه الله: كنّا شرعنا في طبعه سنة ١٣٣٢هـ الموافقة لسنة ١٩١٤م فما فرغنا من طبع مقدّمته حتّى نشبت الحرب العالميّة، فاشتغل الناس يومئذٍ بفجائعها عن كلّ شيء، ثمّ نكبنا بعدها فكان كتاب المجالس وسائر مؤلّفاتنا وكتبنا ممّا انتهب في تلك النكبة.

٣. وقد وجد بعد ذلك شذرات من هذا الكتاب ورتّبها المرحوم السيّد علي شرف الدين وطبعت في النجف الأشرف في جزء واحد يقع في ١٨٤ صفحة وطبعت معها مقدّمة، بقلم فضيلة السيّد محمّد بحر العلوم حفظه الله فقد ذكر عن إحراق الكتاب مع غيره من المؤلّفات وقال:

وبعد هذه الكارثة بزمن طويل، يحاول أحد أولاد عمّ المؤلّف، وهو السيّد الجليل السيّد علي بن إسماعيل أن يجمع من أفواه قرّاء المآتم بعض المجالس المحفوظة وهي غير مرتّبة، ولا واقعة في مواقعها التي أوقعها فيها المؤلّف أعلى الله مقامه.

وتهيّأ لديه مجموعة من تلك الموسوعة، فيعرضها على سماحة السيّد ويقرأها من أوّلها حتّى نهايتها، فأقرّها وحبّذا هذا العمل.

كما ألقى نظرة على المقدّمة، ورتّبها بعض الترتيب وحوّرها، وبعدها أتحف المكتبة الإسلاميّة، فشكر الله مسعاه، وجزاه عن أهل بيت نبيّه خير جزاء المحسنين.

[١٠]: الذريعة في نقض البديعة بديعة الشيخ يوسف النبهاني البيروتي المعاصر، لفّقها ردّاً على الشيعة، أو إقناعاً لهم برأيه في معاوية وفئته الباغية، وقد أوضحنا سفه رأيه بما لا مزيد عليه، فإذا هو هباء، وإذا بديعته ـ أو بدعته ـ تأطة مدّت بماء ﴿وقل جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً﴾.

[١١]: تحفة المحدّثين في من أخرج عنه السنّة من المضعّفين، مجلّد واحد هو الأوّل في بابه، رتّبناه ترتيب الحروف كسائر معاجم الرجال.

[١٢]: مختصر الكلام في مؤلّفي الشيعة من صدر الإسلام، كتاب رتّبناه على الطبقات، خرج منه مجلّد واحد، نشرت عنه مجلّة العرفان تراجم عدّة من التابعين وتابعيهم، في مجلّديها الأوّل والثاني.

[١٣]: بغية الفائز في جواز نقل الجنائز، رسالة حافلة في الردّ على من شنّع علينا بجواز نقلها إلى المشاهد المشرّفة، وقد نشرتها مجلّة العرفان في أواخر الثالث وأوائل الرابع من مجلّداتها.

[١٤]: بغية السائل عن تقبيل الأيدي ولثم الأنامل. رسالة أنيقة ألّفناها ردّاً على من زعم بجهله تحريم ذلك، فشنّع به على العلماء الأعلام، ما اكتفينا فيها بأصالة الإباحة حتّى أوردنا ثمانين حديثاً: أربعين من طريقنا، وأربعين من طريق الجمهور، أدلّة قاطعة. وبحثنا فيها عمّا حول كلّ من تلك الأحاديث بما يقتضيه التمحيص، وتكلّمنا فيها بهذه المناسبة في أنواع التقبيل، فكانت رسالة فقهيّة أخلاقيّة أدبيّة فكاهيّة.

[١٥]: زكاة الأخلاق رسالة شريفة يعرف موضوعها من اسمها، نشرت مجلّة العرفان في مجلّديها الأوّل والثاني لُمعاً منها.

[١٦]: تعليقة على صحيح البخاري مجلّد واحد.

[١٧]: تعليقة على صحيح مسلم مجلّد واحد.

وهاتان التعليقتان من أنفس ما أخرجه قلمي، بحثنا فيهما عن أسانيد الكتابين ومتنيهما، وهناك الفوائد والعوائد.

[١٨]: كتاب الأساليب البديعة في رجحان مآتم الشيعة. قد لا تغني عنه مقدّمة المجالس الفاخرة.

[١٩]: كتاب المراجعات أو المناظرات الأزهرية والمباحثات المصرية، مجلّد واحد، يُثبت رأي الإماميّة في الإمامة والخلافة بعد رسول الله ﷺ ألّفناه في مصر إذ أتيناها سنة ١٣٢٩ هـ، فجمعنا الحظّ السعيد بإمامها الوحيد الشيخ سليم البشري المالكي شيخ الجامع الأزهر في ذلك العهد، حضرت درسه، وأخذت عنه علماً جمّاً، وكان عيلم علم، وعلَم حلم، وكنت أختلف إلى منزله أخلو به في البحث عمّا لا يسعنا البحث عنه إلّا في الخلوات، وكان جلّ بحثنا هذا في الإمامة، التي ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينيّة مثل ما سُلّ عليها، وقد فرضنا على أنفسنا أن نمعن النظر في البحث عن أدلّتها، متجرّدين من كلّ عاطفة سوى انتجاع الحقيقة، والوصول إليه من طريقها المجمع على صحّته.

وعلى هذا جرت مناظراتنا ومراجعاتنا، وكانت خطّيّة تبادلنا بها المراسلة إبراماً ونقضاً، فجئته بالحجج الساطعة لا تترك خليجة ولا تدع وليجة، فقابلها بالذود عن حياضها، لا يألو في ذلك جهداً، ولا يدّخر وسعاً، لكنّ الله عزّ وجلّ بهدايته وتوفيقه يسّر لي وله الحمد درء كلّ شبهة، ودحض كلّ إشكال حتّى ظهر الصبح لذي عينين، وكنت أردت يومئذٍ طبع تلك المراجعات، وهي ١١٢ مراجعة.

لكنّ الأقدار الغالبة أرجأت ذلك، فلمّا نكبنا في حوادث سنة ١٣٣٨ هـ ـ كما سنفصّله في محلّه ـ انتهبت مع سائر مؤلّفاتي[1] يوم صيح نهباً في دورنا.

وما إن فرّج الله تعالى عنّا بفضله وكرمه حتّى استأنفتُ مضامينها بجميع مباحثاتها التي دارت بيننا، فإذا هي بحذافيرها مدوّنة بين دفّتي الكتاب مع زيادات لا تخلّ بما كان بيننا من المحاكمات على ما أوضحناه في مقدّمة الكتاب. والحمد لله باعث من في القبور على بعث هذا السفر النافع ونشره[2].

---

١. فعظمت المصيبة. وجلت بها المصيبة إذ لم يكن شيء منها مطبوعاً وإنّما كانت مخرجة إلى التبييض بذلك الخطّ الجميل، والله حسبنا ونعم الوكيل.

٢. وقد طبع لحدّ الآن أكثر من ٣٠ طبعة.

وقد ترجم كتاب المراجعات إلى الفارسيّة وطبع، ترجمه العلّامة الكبير سردار كابلي، وترجم ثانياً إلى الفارسيّة وطبع أيضاً، بقلم الشيخ مصطفى زماني رحمه الله تعالى، وترجم إلى اللغة الإنكليزيّة وطبع، ترجمه مهراج كمار.

[٢٠]: الفصول المهمّة في تأليف الأمّة، طبعت سنة ١٣٣٠ هـ، ثمّ طبعت سنة ١٣٤٧ مع زيادة فصلين فيها كاملين، وهما الفصل ٧ والفصل ١١، وزدنا في غضون بقيّة الفصول مطالب جمّة وفوائد مهمّة، ولا سيّما في فصل المتأوّلين، وقد طبعت الطبعة الثالثة في النجف الأشرف سنة ١٣٧٥ هـ.

[٢١]: الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء عليها السلام، طبعت ملحقة بـالفصول المهمّة، ونشرتها العرفان في مجلّدها السابع عشر.

والكتاب تضمّن أربعة فصول حول أربعة آيات قرآنيّة تكفّلت ببيان فضائل الزهراء أمّ الأئمّة الأطهار وفلذّة كبد المصطفى المختار وزوجة الإمام المرتضى وأمّ الحسن والحسين عليهما السلام، كما تضمّن اثني عشر حديثاً من الأحاديث الصحيحة الدالّة على فضل الزهراء فاطمة وتفضيلها على سائر الأمّة ومن مصادر أهل السنّة. فالكتاب قد اعتمد على آيات القرآن الكريم وصحاح السنّة الشريفة عند أهل السنّة.

[٢٢]: أجوبة مسائل موسى جار الله، وهي عشرون مسألة رفعها إلى علماء الإماميّة في الهند، ثمّ في إيران، ثمّ في العراق، فلم يأبهوا به، فظنّ أنّه أحرجهم ولا سيّما بعد أن ألحّ بطلب الجواب، فطرق كلّ باب، وعندها شمخ بأنفه يرعف لؤماً، ونظر إلى عطفه وعصارة الحمق تفور في دماغه، فقال فيهم ما قال، ونال منهم ما نال.

وقد تجلّى في أجوبتنا شططه في مسائله، وإنّها ليست إلّا ضرباً من التخرّص، ونوعاً من الخبط والخلط، أراد بها شَعَثَ الأمّة، وشقّ عصاها، فخصمناه وخطمناه، وردّه الله بغيظه صاغراً قميئاً[1].

[٢٣]: فلسفة الميثاق والولاية[2] رسالة صغيرة نزلنا في تأليفها على رغبة الأخ الأغرّ الأبرّ الشيخ الجليل الحاج عبّاس قلي الواعظ التبريزي الجرنداني إذ كلّفنا بثلاثة مطالب:

أوّلها: توجيه الاستدلال على الوحدانيّة والنبوّة والإمامة بآية أخذ الميثاق وهو قوله

---

١. وقد انتشرت أجوبته بطبعها سنة ١٣٥٥هـ في صيدا، وطبعت أيضاً في صيدا سنة ١٣٧٣هـ، وترجمت إلى اللغة الفارسيّة وطبعت.

٢. طبعت سنة ١٣٦٠هـ في صيدا، وطبعت أيضاً ملحقة بكتاب حول الرؤية سنة ١٣٧١هـ.

تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم ﴾[١]، الآية.

ثانيها: توجيه الاستدلال على إمامة أمير المؤمنين بقوله عزّ من قائل: ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[٢] مع منافاة أوّل الآية وآخرها لذلك، لأنّ أوّلها وآخرها مسوقان لتحريم الخبائث ...

ثالثها: بيان السبب في عدم تصريح القرآن العظيم بإمامة أمير المؤمنين مع كونها من أُصول الدين، كالتوحيد والعدل والنبوّة والمعاد التي نصّ القرآن عليها في آياته المحكمة. وقد نزلنا على مقترح الشيخ فأوضحنا الأُمور الثلاثة بأساليب تألفها شبيبتنا العصريّة أُلفةً لا تخالطهم معها شبهة، ولا تلابسهم غمّة والحمد لله على التوفيق.

[٢٤]: أبو هريرة، كتاب يصوّر هذا الصحابي المشهور من جميع نواحيه بأجلى مظاهر التمثيل مطبوع مراراً.

وقد ترجم كتاب أبو هريرة وطبع باللغة الأورديّة، ترجمه السيّد محمّد باقر النقوي الفاضل المولوي، الملقّب بصدر الأفاضل، وهو من أفاضل علماء الهند وأعلامهم.

[٢٥]: الفضائل الملفّقة وأحاديثها المختلقة، رسالة يعرف موضوعها من اسمها، وهي الوحيدة في بابها.

[٢٦]: إمارة الحجّ أو نبذ العهد سنة تسع، تثبت إسناد الأمرين كليهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأنّ أبا بكر لم يحضر الموسم في تلك السنة، أقمنا على ذلك الأدلّة الناطقة، والشواهد الصادقة، فأسفر وجه الحقّ، وأشرق نور اليقين.

[٢٧]: خرافة الغرانقة أو سخافة الزنادقة، رسالة شريفة تثبت أنّ حديث: تلك الغرانيق العلى، وأنّ شفاعتهنّ لترجى، من أباطيل الزنادقة، كمحمّد بن كعب القرظي وأمثاله ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ بافترائهم على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ * فَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾[٣].

---

١. الأعراف (٧): ١٧٢.

٢. المائدة (٥): ٣.

٣. إبراهيم (١٤): ٤٦ و ٤٧.

[٢٨]: طبقات الرواة أو مشايخ الإجازات، رسالة فصّلنا فيها طرقنا في أسانيدها المتّصلة بالنبيّ ﷺ وبأوصيائه وبالمؤلّفين في الإسلام ومؤلّفاتهم في العلوم العقليّة والنقليّة، وهو أوسع ممّا يليه.

[٢٩]: ثبت الأثبات في سلسلة الرواة، مطبوع.

[٣٠]: بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين، وهو هذا الكتاب.

[٣١]: إلى المجمع العلمي العربي، رسالة في الردّ على محمّد كرد علي وما افتراه على الشيعة في مجلّة المجمع المذكور، وهي مطبوعة.

[٣٢]: النصّ والاجتهاد، في موضوع اجتهاد الخلفاء مقابل النصّ، وقد طبع مراراً.

[٣٣]: حول الرؤية، رسالة تدور حول البحث في إمكان رؤية الله عزّ وجلّ يوم القيامة أو امتناعها، فتثبت امتناعها خلافاً لرأي الأشاعرة في ذلك، وهي مطبوعة [١].

وهناك بحوث ومقالات علميّة متناثرة تستحقّ أن تكون كتاباً يجمع كلّ ما صدر من بنانه الشريف لأنّها تعبّر عن فكره وتراثه مثل مقدّمته لكتاب صلح الحسن للإمام المقدّس آية الله الشيخ راضي آل ياسين ﷺ.

ومراسلاته مع الذين ارتووا من نمير كتبه ولا سيّما المراجعات الأزهريّة التي تركت أثراً محموداً في العالم الإسلامي. ويكشف عن جميل أثرها ردود الفعل التي قام بها الوهابيّون ومن تأثّر بهم من المتطرّفين، في تصوير الإسلام تصويراً يزعج الأُمم التي بدأت تتّجه نحو الإسلام بعد يأسها وانزعاجها من تطرّفات اليمين الامبريالي واليسار الاشتراكي.

وهكذا استغلّت الامبرياليّة العالميّة هذه الفئة لتضرب شوكة المسلمين بعد انتصار الثورة الإسلاميّة المباركة في إيران الإسلام، ولتوحي للأُمم المتطلّعة إلى الإسلام بتفرّق كلمة المسلمين، ولتقف أمام صوت الإسلام الهادر، وأمام انتشار القيم الإسلاميّة الرفيعة.

---

١. راجع الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٢٨ ـ ٥٣٩، مؤلّفاته.

الباب التاسع

الإمام شرف الدين في ذمّة الخلود

الفصل الأوّل : رحيل الإمام شرف الدين وتآبينه

الفصل الثاني : عقب الإمام شرف الدين

الفصل الأوّل

رحيل الإمام شرف الدين وتآبينه

في صباح يوم الاثنين ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧هـ الموافق ٣٠ كانون الأوّل سنة ١٩٥٧م، وفي الساعة الخامسة والنصف صباحاً غربت هذه الروح الكبيرة عن عالم الدنيا وأشرقت على عالم الآخرة، وذهبت إلى ربّها لتستقرّ عند مليكٍ مقتدر.

ونعى العالم الإسلامي والعربي هذا المصلح الكبير الذي جاهد وصابر وصبر في ذات الله، وقدّم ما قدّم من تراث عظيم إلى العالم الإسلامي والإنساني، عن عمرٍ ناهز التسعين ناهضاً بأعباء الدعوة إلى الله تعالى وداعياً إلى وحدة الكلمة وساعياً في إصلاح الأُمّة.

وكان قد أوصى بأن يُدفن في النجف الأشرف بجوار جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، فنقل جثمانه الشريف إلى المطار يتقدّمه العلماء والوزراء وكبار القوم، وشيّع في بغداد والكاظميّة وكربلاء والنجف الأشرف حيث خرجت الوفود النجفيّة والأعلام المراجع: السيّد محسن الحكيم، والسيّد حسين الحمّامي، والسيّد أبوالقاسم الخوئي، والشيخ مرتضى آل ياسين، وفضلاء الحوزة العلميّة وطلبتها، فشيّعت هذه الشخصيّة العظيمة التي قدّمت كلّ ما لديها للعقيدة الإسلاميّة والأُمّة المسلمة، ودفن بعد الصلاة عليه في غرفة من غرف الحضرة العلويّة المباركة وذلك في ليلة الأربعاء، أي عشيّة العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧هـ.

وأُقيمت الفواتح على روحه المقدّسة في أرجاء العالم الإسلامي، واستمرّت إلى

ذكرى الأربعين، وكان لنبأ رحيله صدىً يجلجل في الأوساط الشيعيّة والإسلاميّة[١].

ونعته مجلّة رسالة الإسلام التي تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة بالقاهرة في عددها الأوّل من السنة العاشرة بما نصّه:

في صباح يوم الاثنين، الثامن من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ اختار الله إلى جواره الأكرم، علماً من أعلام الأُمّة الإسلاميّة، كانت شخصيّته القويّة في العلم والخلق والجهاد والغيرة على الدين والدعوة إلى الله، مثلاً حيّاً يذكّرنا بالسلف الصالح من علماء الإسلام، ذلك هو المغفور له العلّامة الأكبر السيّد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، طيّب الله ثراه، وأكرم مثواه في جنّة الخلد، مع ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾[٢].

ونحن نثبت هنا فقرات من آخر كتاب أرسله قبيل إصدار هذا العدد، إلى العلّامة صاحب السماحة، السيّد محمّد التقي القمّي، السكرتير العامّ لجماعة التقريب.

قال رحمه الله تعالى:

«نصحتم ـ شهد الله ـ لله، ولكتابه عزّ وجلّ، ولرسوله ﷺ ولأئمّة المسلمين ولعامّتهم، مخلصين بنهضتكم هذه، هاجرتم في سبيل الله، وجاهدتم في تحقيق وحدة المسلمين، فكان لكم أجر المهاجرين المجاهدين ثمّ كان لكم هذا الفوز المبين.

فهذه رسالة الإسلام تشرفون على تحريرها وإصدارها مع بطل من أبطال الفكر والعلم والجهاد وحسن البلاء، هو العلّامة الدرّاكة الشيخ محمّد محمّد المدني، في نفر من قادة الرأي في اُمّتنا الناهضة.

نعم هي خير رسالة لخير حملة، ترسل من نورها فيتبلّغها المسلمون ويبلّغونها رافعة الصوت، ثاقبة الفكر، بعيدة الغور، وهؤلاء السادة القادة علماء الأزهر الأنور، ومن إليهم من حكماء الأُمّة وزعمائها، يحملون هذا اللواء بأيدٍ أمينة قويّة، يدفعهم للهدف الأسمى، النصح لله ولرسوله ﷺ.

---

١. اُنظر الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ١٧ ـ ٩٧، تأبينه ومراثيه.

٢. النساء (٤): ٦٩.

ثمّ هذا هو المختصر النافع لتفاصيل رسالة التقريب، هذا هو يتهادى بين صفوف المؤمنين، يشير بأفصح بيان إلى الثروة الفكريّة التي استقى منها مؤلّفه ـ أعلى الله مقامه ـ مادّته وأحكامه.

وقد كتبت لفضيلة العلّامة المجاهد الشيخ أحمد حسن الباقوري، أشكر له ولكم تقديم هذه الخطوة العمليّة إلى المسلمين بتينك المقدّمتين، تتفجّر البلاغة من بين سطورهما، وينطق الإخلاص في كلّ كلمة من كلماتها، وحقّاً إنّ لرجال التقريب عامّة ـ وللشيخ الباقوري خاصّة ـ الشكر لمساعيهم كلّها عامّة، ولطبعهم فقه الإماميّة خاصّة.

حقّق الله آمالنا، وسهّل لكم ما تبذلونه في سبيل الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، وإلى رسوله ﷺ والسلام عليكم أيّها الناصحون لله تعالى في ذلك، ورحمة الله وبركاته».

هذه فقرات أثبتناها من كتاب العلّامة الأكبر، رضي الله عنه، وما كنّا لنثبتها لولا أنّه لقي ربّه...

فسلام عليه يوم وُلد، ويوم جاهد وصابر، ويوم لقي ربّه صابراً محتسباً، ويوم يُبعث حيّاً[1].

١. اُنظر الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ١٤ـ١٦.

الفصل الثاني

عقب الإمام شرف الدين

أعقب الإمام شرف الدين سبعة من الذكور من زوجتين كريمتين إحداهما ابنة عمّه المبرور السيّد محمّد وهي أُمّ أفلاذه الكبار الستّة، والثانية هي فاطمة الزين شقيقة المرحوم الفاضل صاحب العرفان الشيخ أحمد عارف الزين رحمه الله تعالى.

وهم حسب تسلسل ولادتهم كما يلي:

أوّلهم العلّامة السيّد محمّد علي شرف الدين

المولود ليلة ١٧ رجب سنة ١٣١٧ في النجف الأشرف حين كان والده فيها، والمتوفّى في ١٥ شعبان ١٣٧٣هـ. له كتاب مطبوع هو شيخ الأبطح الذي أجمع ناقدوه على أنّه من خيرة ما كتب في الدراسات التاريخيّة، معتمداً على تحليل نفسيّة شيخ الأبطح أبي طالب رضوان الله عليه، وقد بيّن فضائله وإنجازاته في جميع أدوار حياته، بأُسلوب بديع جذّاب أثبت فيه إيمانه وإسلامه بأدلّة تقطع الخصام.

وكانت له شخصيّة علميّة واجتماعيّة مرموقة لدى قادة الرأي وأعلام الأُمّة في النجف الأشرف. وقد أعقب أربعة ذكور هم: السيّد عبد الرؤوف والسيّد حسن والسيّد حسين والسيّد محسن[1].

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ٩٨ ـ ١١٢.

ثانيهم السيّد محمّد جواد شرف الدين

ولد في شوّال سنة ١٣٢٤ وتوفّي في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٩٧هوكان من أجلّاء السادة وأعيان الأشراف ذا مكانة وعزّة.

درس في النجف ثمّ ساءت صحّته فتركها إلى صور وعيّن مفتياً لصور. وخلّف ذكراً واحداً هو السيّد جعفر شرف الدين، وهو سميّ عمّه السيّد جعفر نجل الإمام شرف الدين[1].

ثالثهم السيّد محمّد رضا شرف الدين

ولد في صور ليلة النصف من المحرّم سنة ١٣٢٧ وتوفّي في ٩ ذي الحجّة سنة ١٣٨٩هـ ودفن عند جدّته الزهراء في صور.

درس في النجف عند أخيه السيّد محمّد علي وتربّى على يديه، وكانت له في مواسم الأدب النجفي قدم ثابتة وشموخ في شاعريّته الخصبة، أنشأ مجلّة الديوان في بغداد وكان الساعد الأيمن لأخيه السيّد صدر الدين. وكانت آخر وظيفة له معاونيّة الملحق الثقافي في السفارة العراقيّة ببيروت.

من آثاره الشعريّة: رواية الحسين والسبيكة. وله كتاب أربعة عشر يوماً بالمغرب، وله ترجمة مفصّلة صوّرت حياة المرحوم السيّد محمّد الصدر أحسن تصوير.

وكان أُسبوعه وأربعين أخيه صدر الدين في يوم واحد. وأعقب من الذكور أربعة: السيّد علي والسيّد حيدر والسيّد غالب والسيّد محمّد[2].

رابعهم السيّد صدر الدين شرف الدين

ولد في ليلة الرابع من شهر محرّم الحرام سنة ١٣٣٠هـ في صور حين كان والده في

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ١١٢ ـ ١١٣.

٢. المصدر: ١١٣ ـ ١٤٠.

القاهرة، وتوفّي في الرابع من ذي القعدة سنة ١٣٨٩هـ في بيروت.

درس في النجف مع أخيه السيّد محمّد رضا عند أخيه الأكبر السيّد محمّد علي، وحضر الدراسات العليا في الفقه والأُصول. وكان أبرع من حمل القلم في حسن تعبير ودقّة تصوير، كتب عن المرأة العربيّة قبل الإسلام، فكان محلّ إعجاب وتقدير، وألّف في حياة الزهراء. ودخل عالم الصحافة مع أخيه السيّد محمّد رضا فأصدر مجلّة الديوان التي كانت من أهمّ المجلّات الأدبيّة في العراق.

ودخل في المعارف أُستاذاً يوجّه الطلّاب فدرّس في ثانويّات وإعداديّات العراق، وتخرّج على يديه كثير من الأساتذة والوزراء والسفراء.

صدر له كتاب هاشم وأُميّة، قلّما عرفت المكتبة العربيّة مثيلاً له في دقّته وتحليله وحسن تحريره. استقال من التدريس وأصدر جريدة الساعة التي كانت لا تخلو كلّ يوم من التوجيه والنقد الاجتماعي النزيه، وكانت تشغل القادة والسياسيّين في مختلف الأقطار العربيّة. وله كتاب سحابة بورتسموث كشف فيه كلّ ما دار وراء الكواليس من أسرار ترتبط بمعاهدة بورتسموث. وقد منع الكتاب وجمعت نسخه من المكتبات، واضطرّت وزارة صالح جبر إلى الاستقالة، وخلفه فضيلة السيّد محمّد الصدر وعاد الكتاب إلى أيدي القرّاء. ونقم الحاقدون على السيّد صدر الدين بعد عودة الحكم إلى نوري السعيد فسعوا لإبعاده وسحب الجنسيّة منه. وصدر كتابه الجديد صورة العراق الحاضرة منتقداً فيه سياسة الحاكمين. وهنا أمر نوري السعيد بإخراجه بعد توقيفه. وهكذا اضطرّ إلى الانتقال إلى صور سنة ١٣٦٨هـ فأقام فيها في كنف والده بعيداً عن السياسة والسياسيّين.

وأصدر مجلّة الألواح لسنة واحدة في بيروت، ثمّ انصرف إلى التأليف وإكمال مشاريع والده الذي رزئ العالم الإسلامي بفقده سنة ١٣٧٧هـ. وهكذا أسّس مجلّة النهج ومدرسة النجاح وجمعيّة الإنماء الثقافي، ودار النهج لنشر الكتب الصالحة فنشر النصّ والاجتهاد وزيارة الأربعين وكلمة مناسبة وشيخ المضيرة للشيخ محمود أبوريّة،

وحليف مخزوم وهو خير ما خرج من قلم صدر الدين بلاغةً وتحليلاً ونضوجاً في الفكرة وفهماً واقعيّاً للتاريخ.

وإليك نصّ تقريظ الإمام شرف الدين لكتاب حليف مخزوم:

إذا كان الحديث على صعيد الحقّ، فلن أُعاب بشهادة أُدلي بها إلى الناس في فضل ولد من أولادي وقفت منه على فضل لو رأيته ـ شهد الله ـ لِعدوّ من أعدائي لَما تمالكت دون الإعجاب به، ولما ملكت إلّا إعلان ما أعجبني منه.

وقد قرأت ولدي صدر الدين فيما يقدّمه من قصّة عمّار بن ياسر، أو قصّة الإسلام في هذا الكتاب، وقرأته مئات المرّات قبل ذلك، ومن مارس كاتباً وكرّر قراءته ووقف من حبّه والإعجاب به عند حدّ؛ فإنّي أشهد أنّني مارست صدر الدين وكرّرت قراءته ولم يقف حبّي له وإعجابي به عند حدّ؛ بل كنت ـ باطّراد ـ أجده نامياً صاعداً كلّ سطر منه يفتح عليَّ حبّاً جديداً، ويأخذني منه بإعجاب جديد شديد، بما ينشئ من آفاق ويولّد من أبكار.

ولا أُحبّ أن أُطلق هذه الشهادة إطلاقاً، وأُرسلها في غير تحديد ولا كشف عمّا أخذني منه كما أخذ غيري فيما أُقدّر. أخذني منه في جانب الفكرة عمقه، وبُعد غوره وعدم اكتفائه بالميسور ممّا يعرض للأذهان التي تؤثر العافية على التعب، وتقدّم الظاهر السهل من الأُمور على بواطنها الصعبة، تعرض له معانٍ ممّا يعالج فيطرح المنحرف منها والساذج والسطحي، ويبسط المستقيم الغني العميق، ويطلع به جديداً من هذا الجديد الذي تعرفه وتعجب لنفسك أنّك لم تعرفه قبل أن يعرّفك هو به.

ثمّ أخذني منه في جانب الصورة وضوحه، وعذوبته، وتسلسله، وشمول استيعابه، في صفاء ديباجة، وجلاء عبارة، ورقّة حاشية، وإشراق عرض، فما يكاد يتناول أخفى الأفكار، وأشقّ المسائل، حتّى يسيلها رقراقة، ويدير منها على قرّائه كؤوساً لذّة للشاربين. فما أدري والله أيّهما أطوع له: الفكر، أو اللفظ؛ ولكنّي لا أشكّ أنّهما جميعاً طيّعان له، ما رأيتهما جمحا عليه مرّة قطّ، وإنّي أعرف أنّ المواءمة بين اللفظة ومعناها أصعب من قلع الضرس على يد حلّاق قديم.

ولا يقف إعجابي به عند هذا الحدّ الأدبي، فأنا أعلم ـ لو لم أعرفه ولم أبل أخلاقه ـ أنّ

هذا الصفاء في تفكيره وتعبيره مع جموحه على المبتذل منهما، أمر يتّصل أوثق اتّصال بنفسه وخلقه، وأنا أعلم أنّ أثر أديب ما إنّما هو صورة لنفسه وخلقه، فلو لم يكن الصفاء والجموح على الابتذال من شمائله لما وجدناهما في أدبه.

وأكاد أكون فخوراً بأدبه من حيث يدلّ على نفسه أكثر ممّا يدلّ على فنّه، وأوضح ما يدلّ عليه منه الصفاء والاعتدال والصلابة والإنصاف، وصدق الإيمان، وحرارة الحياة، وهي صفات لو لم يثبتها جهاده السياسي والاجتماعي، لأثبتتها آثاره المتفجّرة صفاء واعتدالاً وصلابة وإنصافاً وصدق إيمان وحرارة حياة.

يتناول الموضوع كتب فيه عشرات قبله، ويتناول الموضوع تناوله عشرات بعده، وتقرأه وتقرأ غيره، فتجده ينبض من ذاته الغنيّة السمحة في هذا الموضوع الذي حاوله غيره معاني تمتاز به.. بعمقه وصفائه، واعتداله وصلابته وبصدق إيمانه وحرارة حياته، وبجموحه على الابتذال: كلّ ابتذال، فلو عاشرته دهراً لم تسمع له شيئاً ثمّ قرأت بعد دهر أثراً من آثاره بعيداً عنه وجدت بآثاره نفسه وإن تلفتّ فلم تجد توقيعه.

صدر الدين صاحب مدرسة، ولعلّها في طليعة المدارس الأدبيّة الحرّة المعاصرة. وإذا لقي بسبب صلابته عنتاً من اضطهاد وحرمان، وأكاد أقول: وعقوق، فإنّه في أُمّة من معناه وتصوّنه وأدبه، لا يضرّه في حقّه من تحيّف عليه وإنّما يضرّ المتحيّف نفسه، ثمّ أُريد أن أعترف أنّ صدر الدين أبقى ما انحسرت عنه الثمانون من عمري. فهو كنز من قيم شتّى كلّ قيمة منها ترجع بصاحبها على أمثاله في علم ودين ومروءة ونجدة ونضال وفنّ، فإن كان لي أن أتمنّى على الله فأرجوه ـ عزّ اسمه ـ أن يثيب شيخوختي بتوفيق ولدي هذا لإتمام أشواطه صاعدة بعزائمه الإيمانيّة التي لا تحتاج الأُمّة شيئاً كما تحتاج إليها، والله وليّ التوفيق.

وماذا أقول في عمّار موضوع هذا الكتاب غير أن أُحوّلك بالقول فيه على ما ستقرؤه بقلم صدر الدين، وحسب القول أن يرسمه هذا القلم الرسالي الباعث. نعم أنا أُشدّد على القول: إنّ الأُمّة في مرحلتها الحاضرة لفي أشدّ الحاجة إلى الانتفاع بهذه الموضوعات التي يبعثها قلم صدر الدين من الحياة مجنّداً قلمه لخير المجموع.

ومرّةً ثانية: أسأل الله تعالى أن يثيب شيخوختي بإرهافها شابّة تجدّد خدمة الله والأُمّة،

بخدمة صدر الدين لله والأُمّة. وما التوفيق إلّا من عند الله، وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين.

عبد الحسين شرف الدين الموسوي
صور ١ ذي القعدة ١٣٧٣ [١]

وأعقب من الذكور ستّة: السيّد مصطفى والسيّد أحمد والسيّد محمود والسيّد محمّد والسيّد نصر والسيّد عمّار[٢].

خامسهم السيّد جعفر شرف الدين

ولد في جمادى الأُولى سنة ١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م في قرية شحور عشيّة كان والده مشرّداً من وطنه، وتوفّي يوم الأربعاء ٤ جمادى الأُولى سنة ١٤٢٢.

والدته شقيقة الشيخ أحمد عارف الزين التي تزوّجها الإمام شرف الدين بعد ارتحال زوجها وهو شقيقه السيّد شريف شرف الدين ﷺ.

درس في صور ثمّ في بيروت ونال إجازة الكليّة الشرعيّة، ثمّ درس في كلّيّة الآداب الشرقيّة سنة ١٣٦١ ـ ١٣٦٢هـ وكانت أُطروحته دراسة رائعة في أدب الطفّ.

وأصبحت الكلّيّة الجعفريّة المسرح الكبير لنشاطه المميّز. وكان في علمه صاحب مدرسة ونهج. وكان طلّابه نماذج رائعة في فنّ التعبير واتّساع المعرفة.

لقد كان السيّد جعفر في خطوط التصميم العريضة للجعفريّة وكان الرسول الأمين من قبل أبيه إليها، فكان المدير والمعلّم والحاجب والجابي وكان كلّ شيء فيها.

وانطلق منها إلى جبل عامل فزرع فيها الجعفريّات، سائراً في درب رسالة والده العظيم.

له في دنيا الأدب مدرسة ونهج. وكتب في الأدب والتربية والسياسة والمجتمع.

---

١. أُنظر مقدّمة حليف مخزوم، للسيّد صدر الدين شرف الدين.

٢. أُنظر الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ١٤٠ ـ ١٧١.

وكان يخطب مرتجلاً في الجعفريّة والنوادي الحسينيّة والاجتماعيّة ومنبر البرلمان والمولد النبوي الشريف والغدير وعاشوراء.

كان له نضال اجتماعي مشهود، بيته مكتب خدمة ومحجّة طلّاب الحاجة، مساعداته للمعذّبين، وهي كمساعداته للمثقّفين.

صلابته واستقامته وأمانته ووفاؤه جعله قطعة نادرة في البورصة السياسيّة، وتجاوز صور والجنوب في أحداث سنة ١٩٥٨م مناضلاً صلباً في القيادة الشعبيّة والسياسيّة، إذ انتخب نائباً لثلاث دورات متتالية، وتميّز بتبنّي قضايا العمّال والمزارعين وبالإصلاح التربوي وخدمة العلم وأهله. شارك في إنشاء جبهة وطنيّة لعبت دورها في التوعية ومحاربة الانحراف السياسي والمشاريع الاستعماريّة المشبوهة.

له أدب الطف وأبحاث ومقالات في مجلّتي العرفان والمعهد. وله دائرة معارف التراث وهي ثلاثة موسوعات بدأ بها سنة ١٩٧٢م وانتهى منها سنة ١٩٩٢م وهي تلخيص لثلاثة آلاف كتاب: قرآني وإسلامي وعربي[١].

وصدر عنه للسنة الثانية من تأبينه كتاب: السيّد جعفر شرف الدين، سيرة رجل في سيرة مجتمع.

وقد التقيتُ بنجله المهندس السيّد محمّد شرف الدين في جمادى الثانية سنة ١٤٢٤هـ، وأفادني بمعلومات وبتقرير عن الكلّيّة الجعفريّة، وهذا الكتاب الثمين الخاصّ بتأبين والده، فللّه درّه وعلى الله أجره.

سادسهم السيّد يوسف شرف الدين

ولد في جمادى الأُولى سنة ١٣٤١هـ، وهو معروف بطيب معشره وعذوبة محضره.

له من الذكور أربعة: السيّد عدنان والسيّد هاشم والسيّد هادي والسيّد عبد الحسين.

---

١. أُنظر الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ١٧١ ـ ١٨٥.

سابعهم السيّد عبد الله شرف الدين

المولود في شحور ليلة ١٤ رمضان المبارك سنة ١٣٤٥هـ.

وقد زرته في داره في صور في جمادى الآخرة سنة ١٤٢٤هـ وأتحفني بجملة من مخطوطات الإمام شرف الدين، وهو متمّم كتاب بغية الراغبين حيث ألحق به معلومات جمّة ازدان بها كتاب والده الإمام شرف الدين، وجعل لها علامة مميّزة لتميّز ما كتبه الإمام عمّا أُضيف إليه.

درس عند والده في صور وهاجر إلى قم لطلب العلم إبّان مرجعيّة الإمام السيّد حسين البروجردي سنة ١٣٧٣هـ، وله رحلات علميّة زار فيها المكتبات الإسلاميّة في الشرقين الأقصى والأوسط، يعيش مع الكتب منقّباً وباحثاً.

وقد أنجب من الذكور السيّد محمّد والسيّد علي، وعاد إلى لبنان سنة ١٣٨٨هـ، واختير قاضياً في المحاكم الشرعيّة.

وله عدّة إنجازات:

١ ـ مع موسوعات رجال الشيعة في أربعة مجلّدات، استدرك فيها ثلاث على موسوعات وثمانية من كتب التراجم.

٢ ـ معجم رجال الشيعة، في أكثر من ثلاثين مجلّداً.

٣ ـ تتميم بغية الراغبين. وقد ترجم فيها للأعلام من غير شرف الدين[1].

وهكذا استمرّت مشاريع ومؤسّسات وجهود الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين: تراث ثرّ، وذرّيّة مباركة، ومؤسّسات طافحة بالخير والعطاء.

١. أُنظر الموسوعة ج ٨، ملحقات بغية الراغبين: ١٩٠ ـ ١٩٢.

الباب العاشر

مدرسة الإمام شرف الدين

الفصل الأوّل : مدرسة الإصلاح الشامل

الفصل الثاني : حصاد مدرسة الإمام شرف الدين

الفصل الأوّل

مدرسة الإصلاح الشامل

لقد حمل الأنبياء وأوصياؤهم والمخلصون من أتباعهم مشعل الهداية الربّانيّة والإصلاح الشامل في الحياة البشريّة لمجتمعاتهم منذ فجر التاريخ وعلى مدى الأجيال والعصور، إذ لم يترك الله عباده هملاً حيث لم يخلقهم عبثاً، فاصطفى لهم أنبياء من أنفسهم أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، ليخرجوهم عمّا جهلوه من حقّ الله ومن حقّ أنفسهم حين اجتالتهم الشياطين عن معرفة الله واقتطعتهم عن طاعته وعبادته، فبعث فيهم رسُلَه وواتر إليهم الأنبياء والأوصياء ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويثيروا لهم دفائن العقول ويُروهم آيات المقدرة.

ولم يُخلِ الله سبحانه خلقه من نبيٍّ مُرسَل أو كتابٍ مُنزَل أو حجّة لازمة أو محجّة قائمة. رسل لا تقصّر بهم قلّة عددهم ولا كثرة المكذّبين لهم، حيث يتحمّلون مهمّة الإصلاح الشامل ومشاقّ التربية الشاملة، وعبء التعليم والتثقيف الرسالي الهادف إلى إصلاح كلّ مرافق الحياة، مقدّمين لهذا الهدف الكبير كلّ ما يمكن للإنسان المتفاني في عقيدته الحقّة أن يقدّمه من نفسٍ ونفيس لمبدئه الحقّ.

وعلى ذلك نسلت القرون ومضت الدهور وسلفت الآباء وخلفت الأبناء، إلى أن بعث الله محمّداً رسول الله وخاتماً للأنبياء لإنجاز عِدته وإتمام نبوّته، فحمل مشعل الهداية الخالد، ورفع شعار الإصلاح الشامل والتغيير الجذري للمجتمع البشري عامّة عبر منهج تثقيفي تربوي متكامل ومتطوّر ومتناسق مع تطوّر العصور وتغيّر الظروف وتكاملها حتّى يرث الله الأرضَ ومن عليها.

وباعتراف عامّة المؤرّخين ـ من مسلمين وغير مسلمين ـ قد سار الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في هذا الطريق الصعب بجدّ وقطع خطوات مدهشة، حيث حقّق في أقصر مدّة أكبر إنتاج معرفي وثقافي وتربوي، وأشاد بُنى أساسيّة وأحكم دعائم الحضارة الإسلاميّة الكبرى، تلك الحضارة التي فاقت الحضارات التي سبقتها على الإطلاق، ولم تستغنِ عنها ما لحقتها من حضارات.

ولم يترك أُمّته والإنسانيّة إلّا بعد أن زوّدها بعناصر تصونها من الضياع والانهيار الشامل، في الوقت الذي كان قد أسّس كياناً سياسيّاً نموذجيّاً عبر قفزة نوعيّة جمع لهم فيها أُصول النظام الاجتماعي المتكامل، وضرب لمن بعده المثل الأعلى في منهج الإصلاح الشامل والقيم العظيمة التي تحتاجها الإنسانيّة على طول الخطّ، والأُطر السليمة التي تؤطّر تلك القيم وتحافظ عليها من الذبول والاضمحلال.

غير أنّ ما حقّقه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في هذه البرهة القصيرة لم يكن كافياً لاجتثاث كلّ الجذور والرواسب الجاهليّة التي تعيق حركة الإصلاح الشامل من التقدّم والتطوّر عند عامّة أبناء الجيل الأوّل، بحيث تؤهّله للقيمومة على خطّ هذه الرسالة الخالدة.

ولهذا كان منطق العمل التغييري الشامل يفرض على الرسول الخاتم لمسيرة الأنبياء المصلحين أن يصون تجربته الرائدة ـ التي كان يريد لها الخلود والاستمرار ـ من كلّ ما يؤدّي إلى انهيارها واضمحلالها، وذلك بتربية قيادة كفوءة معصومة من الانحراف والزلل؛ لتقوم بمهمّة القيمومة والوصاية على تجربته الرساليّة ورسالته التي بدأ بتطبيقها في مجتمع جاهلي يريد له التحرّر من كلّ رواسب الماضي القريب والبعيد.

وهذه الوصاية والقيمومة بطبيعة الحال سوف تستغرق فترة زمنيّة تتناسب مع عظمة الأهداف، كما تتناسب مع كون التغيير شموليّاً وعميقاً، فضلاً عن ضرورة تناسبه مع اتّساع رقعته.

ولم يكن الإسلام نظريّة بشريّة تتحدّد فكريّاً من خلال ممارسة تجارب الخطأ

والصواب في التطبيق، وإنّما هو رسالة الله الخالدة التي حُدّدت فيها المفاهيم والقيم والأحكام، وزوّدت ربّانيّاً بكلّ التشريعات العامّة واللازمة للبشريّة على مدى الأجيال والعصور.

ومن هنا كان على زعامة هذه التجربة ـ التي تحمّلت مسؤوليّة القيمومة والوصاية الحقيقيّة على «الرسالة» التي جاء بها الرسول الأعظمﷺ وعلى «الأُمّة الشاهدة» وعلى «الدولة الفتيّة» التي أسّسها وأشاد بناءها بكلّ إخلاص ـ أن تكون مستوعبة للرسالة بكلّ تفاصيلها وواعية لكلّ أحكامها وحدودها ومجسّدة لكلّ مفاهيمها وقيمها، وإلّا كانت مضطرّة لاستلهام المسبَقات الجاهليّة والمرتكزات البشريّة الخاطئة التي تؤدّي إلى نكسةٍ كبرى في مسيرة التجربة الرساليّة، في الوقت الذي يطرح الإسلام نفسه ـ بكلّ صراحة ـ بأنّه خاتم رسالات السماء، وأنّه الذي يمتدّ مع الزمن ويتجاوز كلّ الحدود الإقليميّة والقوميّة، فلا يصحّ له أن تمارس زعامته تجارب الخطأ والصواب التي تتراكم فيها الأخطاء تراكماً يشكّل ثغرة تهدّد تجربة الرسول الخاتم بالسقوط والانهيار.

ومن هذا المنطلق، وتحقيقاً لأهداف الرسالة الكبرى والأهداف البعيدة المدى قد حصّن الرسول الأعظمﷺ أُمّته ودولته ورسالته بقيادة بشريّة ربّانيّة كفوءة؛ لتتولّى تطبيق الرسالة وتصونها من أيدي العابثين، ولتستمرّ الرسالة في العمليّة التغييريّة الشاملة والتربية النموذجيّة التي كان قد بدأها هذا الرسول الأعظم.

وهذه القيادة الكفوءة التي تمثّل شخصيّة الرسول الأعظم في كلّ جوانبها، وتستوعب كلّ أهدافه ومعالم رسالته، وتجسّد كلّ قيمه وكمالاته، قد تمثّلت في الصفوة المختارة من أهل بيته الميامين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً[١].

---

١. سورة الأحزاب (٣٣): ٣٣.

وقد تولّى الرسول الأعظمﷺ بنفسه إعداد هذه الصفوة إعداداً يتناسب والمهامّ الرساليّة الكبرى التي كان قد ألقاها على عاتقها، ويتلاءم مع العمليّة الإصلاحيّة الشاملة والتي لم يكن طريق تحقيقها قصيراً، بل كان ممتدّاً بامتداد الفواصل المعنويّة الضخمة بين الإسلام والجاهليّة الضاربة بأطنابها في كلّ جوانب المجتمع البشري آنذاك.

غير أنّ مصادرة الخلافة من قبل رموز الجيل الأوّل من الصحابة والاستئثار بها دون أهل البيت الذين كان الرسولﷺ قد أعدّهم للقيمومة على تجربته ودولته وأُمّته، هو خير مؤشّر على أنّ الرواسب الجاهليّة المستحكمة في جيل الصحابة ـ وهو الجيل الذي يعدّ أفضل الأجيال التي عاصرت الرسولﷺ وعايشته وعرفته من كثب ـ لم تُجتثّ هذه الرواسب بالرغم من كلّ الجهود التي كان قد بذلها هذا النبيّﷺ في طريق الإصلاح الشامل والتغيير الجذري المطلوب.

إنّ مصادرة الخلافة كان حدثاً كبيراً؛ لأنّه كان قد أسّس لانحراف يتسرّب إلى جوهر الرسالة خلال مسيرة الدعوة الإسلاميّة والتجربة القياديّة غير المعصومة.

وقد ظهرت آثارها ومعطياتها السلبيّة بشكل سريع جدّاً، فلم يمضِ نصف قرن على تاريخ الرسالة، بل لم يمضِ سوى عقدين من تاريخ الخلافة، حتّى بدأت الخلافة تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجّهها إليها أعداءِ الإسلام القدامى تحت راية الإسلام نفسه، وذلك لأنّهم استطاعوا أن يستلّلوا إلى مراكز النفوذ في قيادة التجربة بالتدريج حتّى صادروها بكلّ عنف ووقاحة، وأخذوا يحكمون باسم الرسول وخلافته، ويتحكّمون في رقاب المسلمين ودمائهم، ويتلاعبون بمقدّرات الأُمّة بكلّ صلف، مستهترين بقيم الرسالة وأحكامها ونظم الإسلام وحدوده، حتّى أجبروا الأُمّة المسلمة على التنازل عن شخصيّتها والتنكّر لقيادة أهل بيت الرسالة.

وهكذا تحوّلت الزعامة الإسلاميّة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات، ويقتل الأبرياء، ويبعثر الأموال، ويعطّل الحدود، ويجمّد الأحكام، وأصبح الفيء والسواد

بُستاناً لقريش، والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أُميّة. وهذه هي القيم الجاهليّة التي ظهرت في حاضرة الإسلام الذي جاء لمحاربتها واجتثاثها.

وقد حاول أهل البيت عليهم‌السلام تسلّم زمام الدولة وقيادة الأُمّة بنحوٍ شامل كما كان يريده الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وكما خطّطه الإسلام لقيادة الأُمّة قيادةً ربّانيّة شاملة بتطبيق دين الله الخاتم على كلّ جوانب حياة الأمّة رغم كلّ هذه الظروف المعاكسة.

ولكنّ هذه المحاولة كانت بحاجة أوّلاً إلى جيش عقائدي، وإلى توفّر ظروف موضوعيّة تضمن استقرار الحكم الإسلامي، وقدرته على الدفاع عن نفسه أمام القوى المعادية له بما يمتلكه من رصيد اجتماعي وقدرة سياسيّة ونظاميّة تكفيه لصيانته ثانياً.

وهذه المحاولة استلزمت التصدّي للقيادة المنحرفة وتعريتها من تحصيناتها السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة التي حاكتها وكوّنتها لنفسها بالتدريج، وكان منها إيجاد خطوط ثوريّة تقوم بزعزعة الحاكمين المنحرفين وإيقافهم عن المزيد من الانحراف... حتّى خشي الحكّام الأُمويّون والعبّاسيّون على عرشهم من تنامي التوجّه الاجتماعي والسياسي لقيادة أهل البيت عليهم‌السلام بالرغم من إبعادهم وعزلهم عن الساحة سياسيّاً واجتماعيّاً منذ يوم السقيفة.

إنّ اضطرار القيادة الإلهيّة المعصومة للغيبة الطويلة الأمد، هو إفراز طبيعي للانحراف الذي سلّط أناساً يعدّون أهل بيت الرسالة تهديداً حقيقيّاً لمصالحهم التي يحقّقها تسلّطهم على الخلافة، فإنّ الظاهرة التي سجّلها التاريخ عن اغتيال أحد عشر إماماً من العترة النبويّة الإثني عشر، بشكل مباشر أو غير مباشر على يد من سمّوا أنفسهم بخلفاء الرسول، لهي ظاهرة تستحقّ الدراسة والتأمّل الكبير على مستويات شتّى.

فهي من جهة تكشف عن انحراف عميق للغاية، حين يصبح الأُمناء على الرسالة مطاردين في دولة صاحب الرسالة، على يد أدعياء الخلافة وأصحاب السلطة التي أسّسها صاحب الرسالة.

إنّ انقلاب المعايير والقيم في مجتمع ديني يعبّر عن مسخ كبير في المعرفة،

حين يشتبه الأمر على الأُمّة فيضيع فيها الأُمناء، ويطفو فيها على السطح سائر الأدعياء.

ومن هنا يبدو أنّ تدنّي الوعي عند الأُمّة هو الداء العضال الذي كان ينبغي اجتثاثه. وهذه التوعية كما قد تحصل عبر التجارب كذلك قد تحصل بالتثقيف والتعليم الصحيح وتنميته كيفاً وكمّاً باستمرار.

وقد تربّى علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام على خطّ أهل البيت عليهم السلام في الالتزام بالمبادئ الرساليّة رغم محاربة الأدعياء لهم، ورغم اعتبارهم على هامش الأُمّة الإسلاميّة لا من صميمها، ورغم العقبات التي كان يزرعها أعداء الرسالة في طريق التوعية والتثقيف الرسالي للأُمّة، ورغم التهم التي كانوا يوصمون بها لزعزعة إيمان الأُمّة بهم، لأنّهم كانوا قد نذروا للرسالة أنفسهم أوّلاً. ولأنّهم قد اكتشفوا هويّتهم وأصالتهم، فلا يضرّ هدايتهم من ضلّ عنها، هذا ثانياً. ولأنّهم قد جاهدوا للوصول إلى حقائق الثقافة الرساليّة من ينابيعها الأُولى ثالثاً. ولأنّهم لم يغفلوا عن دراسة الأحداث وملابساتها وأسبابها رابعاً. ولأنّهم لم يتركوا الأهمّ لأجل المهمّ خامساً. أي أنّهم قد عرفوا الأولويّات وجعلوا كلّ شيء في محلّه اللائق به، وأعطوه من الأهمّيّة ما يستحقّ حسب قيم الرسالة وأهدافها. وبهذا لم يُصادر مبدأ الوحدة الإسلاميّة لمجرّد انحراف القيادة، كما لم تصادر القيم من أجل الحصول على القيادة والحكم، ولم تهمل قضيّة القيادة العُليا التي لها آثارها الكبيرة على المجتمع وعلى الرسالة لمجرّد ضرورة حفظ الوحدة وتراصّ الصفوف.

إنّ الحركة على أساس القيم والمبادئ الرساليّة مع تعيين الأولويّات وشموليّة الرؤية وأصالة النظرة وعمق الحلول وسلامة المنهج ورفعة الأُسلوب وصراحة القول بالحقّ والتضحية الواقعيّة من أجل المبدأ، لهي الملامح والخصائص التي تميّز مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومن سار على دربهم من أصحابهم وأتباعهم على مدى القرون والأجيال.

إنّ الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين هو النموذج الصادق لهذه المدرسة الرساليّة التي امتدّت مع الزمن، وحقّقت أهدافها الرساليّة باستمرار. وبذلك حصلت على انتصارات رائعة ذات نموٍّ كمّي وكيفي، قد تجلّى في سلوك ومواقف أكثر علماء الطائفة، مَن سبق الإمام شرف الدين منهم ومن لحقه مثل: العلّامة الشيخ محمّد رضا المظفّر والشيخ محمّد حسن المظفّر والشيخ عبد الحسين الأميني والسيّد محمّد تقي الحكيم والشيخ أسد حيدر والسيّد مرتضى العسكري والسيّد محمّد باقر الصدر والسيّد محمّد باقر الحكيم ـ قدّس الله أسرار الماضين وحفظ لنا دوام عمر الباقين منهم ـ ومن سار على هذا الدرب الربّاني في التوعية والإصلاح الرسالي الشامل، وهي مدرسة متوازنة معتدلة بعيدة عن التطرّف، وهي لا تقدّم المصالح العاجلة على الأهداف العليا والقيم الرساليّة المُثلى، لأنّهم قد لمسوا بكلّ وجودهم، ووعوا بكنه عقولهم وقلوبهم مغزى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا ما لَكُمْ إذا قيلَ لَكُمُ انْفِروا في سَبيلِ اللهِ اثّاقَلْتُمْ إلى الأرْضِ أرَضيتُمْ بِالحَيوٰةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الحَيوٰةِ الدُّنْيا فِي الآخِرَةِ إلّا قَليلٌ * إلّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أليماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾[1].

---

١. التوبة (٩): ٣٨ ـ ٣٩.

الفصل الثاني

حصاد مدرسة الإمام شرف الدين

لقد تحمّل الإمام شرف الدين نصيبه من مسؤوليّة التجديد والإصلاح، إنّه سار في قافلة التجديد. وكان فكر مصلحنا يتمحور باستمرار حول الدين، يعزو إليه كلّ سرّ من أسرار التقدّم وكلّ عمليّة من عمليّات التطوّر، كانت عنده مسائل الإصلاح قد شملت الدعوة إلى الوحدة الإسلاميّة، والعمل على محاربة البدع، وإرساء قواعد الأخلاق، ومقارعة الاستعمار الخارجي والإقطاع الداخلي، وحثّ المسلمين والعرب على التضحية من أجل قضيّة فلسطين.

وقد اهتمّ بالقضايا الاجتماعيّة الأساسيّة، كالتعليم والثقافة ومحاربة الأُمّيّة ومحاربة الفقر، وإرساء قواعد الإخاء والمحبّة بين أبناء المجتمع الإسلامي.

إصلاح الفهم الديني أوّلاً

الإسلام دين للإنسان وقانونه للحياة، وهو الدواء الناجع للبشريّة جمعاء، غير أنّ فهم الناس للدين قد تشوبه الشكوك والبدع والأضاليل، كما قد تدخله أنواع التأويل والتفسير الذي يتطوّر بمرور الزمن، فيتحوّل إلى نقطة مضادّة للإسلام باسم الإسلام. وهنا يقف المسلم أمام هذا الفهم الخاطئ الذي ينسب إلى الدين وليس من الدين في شيء، وهو لا يستطيع أن يتقاطع مع الدين كما لا يستطيع أن يتعامل مع هذا النوع من الفهم للدين.

وهنا ينبغي للعلماء والباحثين المتخصّصين ممّن ترتضيهم الأُمّة وتقرّ لهم بالعلم

والمعرفة والتخصّص أن يظهروا علمهم، ويحاربوا البدع، ويزيلوا هذه الأوهام والشكوك عن الفهم الصحيح للدين.

وقد كانت إنجازات الإمام شرف الدين في هذا الميدان جديرة بالشكر والتقدير، فقد حاول أن يعرض الإسلام نقيّاً ممّا علق بأفهام الناس عنه خلال العصور.

رفض السيّد شرف الدين الأحاديث المتناقضة، التي لا تتّفق ومنطق العقل؛ إذ الواجب عنده «تطهير الصحاح والمسانيد من كلّ ما لا يحتمله العقل من حديث»[١].

كما رفض كلّ الأحاديث التي مسّت العقيدة في شكلها أو معناها، وتركت أثراً سلبيّاً على جوهر الدين، واعتبر أنّها بعيدة عن الصدق والصواب.

وحدّد شرف الدين نوعيّة الأحاديث التي تخلّف البدع والخرافات فقال:

> بعضها يمسّ العقيدة في صورتها ومعناها، وبعضها يمسّ الطبائع في نواميسها ونظرتها، وبعضها متناقض متداحض، وبعضها خارج على قواعد العلم المشتقّة من صلب الدين، وكثير منها تزلّف ... وبعضها خبال أو خيال، وهي بجملتها خروج على أُصول الصحّة في كلّ معانيها[٢].

ولم يتوقّف السيّد عبد الحسين شرف الدين في حملته ضدّ البدع والأوهام عند مذهب محدّد، بطريقة هائدة ورزينة.

لقد فرض شرف الدين على الخطباء في عاشوراء رقابة عسيرة تولّاها بنفسه، منعتهم من أن يسترسلوا في التهويش والتهويل، وسرد الروايات الكاذبة المضرّة. وكثيراً ما كان يتدخّل فيبادر بإعطاء الملاحظات عند اللزوم، أو التنبيه إلى أمر ذكر عن غير قصد.

عمد إلى بناء جيل جديد من الخطباء انتقاهم من الشباب المثقّف، والضليع في اللغة العربيّة، ثمّ أخضعهم لرقابته، ووجّههم إلى كيفيّة القراءة ونوعيّتها وكمّيّتها. وكان قد

---

١. راجع الموسوعة ج ٣، أبو هريرة: ٥، المقدّمة.

٢. المصدر: ٨.

وضع مؤلّفاً خاصّاً هو المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة الذي يمكن اعتباره إحدى محاولاته الإصلاحيّة، متكفّلاً «بيان أسرار النهضة الحسينيّة، وفضل هذه النهضة على الإسلام والمسلمين، عظمة الإسلام عن طريق أبي الشهداء في ثورته الخالدة على الظلم والظالمين»[١].

وسواء أنعتنا إصلاح شرف الدين هذا بأنّه اجتماعيّ الطابع، أو فقهيّ المغزى، أو أنّه يجمع بين الطابع الاجتماعي والمغزى الفقهي، فإنّه أدّى بالنتيجة إلى إظهار الدين نقيّاً من البدع، خالصاً من الشوائب، وأنّه بالتالي ليس إلّا رعاية المجتمعات، والمحافظة عليها، والعمل على ما ينفع الناس في الأرض.

إنّ من أعظم المنكرات اتّخاذ البدعة سنّة، والسنّة بدعة، والدعاية إليها وترويجها.

دعا المسلمين إلى الوقوف ضدّها، حتّى ولو كان ذلك «منشأ لفرقة أو مثاراً لخلاف»[٢].

فإنّه حين تسلم العقائد من الأوهام والشوائب، فسوف تسلم ـ بلا شكّ ـ الأعمال من الخلل والاضطراب.

شرف الدين وعلم الأخلاق ثانياً

إنّ من الأسباب التي تؤدّي إلى تدهور الدين ترك تعليم الأخلاق وإهمال التربية الخلقيّة، فإنّ النبيّ محمّداً ﷺ قد بعث ليتمّم مكارم الأخلاق. وعلم الأخلاق هو العلم الذي يتكفّل بيان صحّة الروح وسلامتها، فموضوعه النفس الإنسانيّة.

فالأخلاق علم يتعهّد صحّة الروح وسلامتها، وأنّه علم مرتبط بالنفس وبعلم النفس ارتباطاً وثيقاً، فعلم الأخلاق من أشرف العلوم؛ لأنّ موضوعه النفس الناطقة، التي هي أشرف الكائنات.

---

١. النصّ والاجتهاد: ٢٩، مقدّمة السيّد محمّدصادق الصدر (ط ٤، ١٣٨٦هـ).

٢. راجع الموسوعة ج ٣، أبو هريرة: ١٧، المقدّمة.

أمّا عن طبيعة الأخلاق عند شرف الدين، فهو يرى أنّها «ملكات في النفس» أي صفات ترسّخت في النفس بفعل التكرار؛ لذا فهي مكتسبة. ومن هنا صحّ أن يقال: إنّ الأخلاق يمكن تغييرها.

فلو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير، لبطلت الوصايا والمواعظ والإرشادات، ولأصبحت الشرائع لا لزوم لوجودها، ولما قال النبيّ محمّد ﷺ: «حسّنوا أخلاقكم»[1] و«بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[2].

إنّ التربية الصحيحة هي التي تنشئ في الإنسان الأخلاق الفاضلة. أمّا المعاشرة فلها دور أساسي أيضاً في تغيير الأخلاق إن سلباً أو إيجاباً.

والغاية من الأخلاق هي الابتعاد عن الخطأ، بحيث يكون سلوك الإنسان سليماً في قصده وغرضه، وهذا يؤدّي إلى إصلاح الإنسان والمجتمع.

فمحور علم الأخلاق سلوك الإنسان، والهدف من الأخلاق أن يكون الإنسان أحسن ما يمكن وأن يفعل الإنسان أحسن ما يستطيع، وهذا ما يرمي إليه الدين والعقل معاً. فدعوة كلّ منهما إنسانيّة عالميّة، لا تتقيّد بزمان ولا ترتبط بمكان.

فبالأخلاق الحسنة يستقيم عمل الإنسان، ويعمل مخلصاً للدين والمجتمع، فالضمير الأخلاقي كالضمير الديني يضبط النفس عن الهوى. إنّ ذوي الأخلاق الحسنة يعودون دائماً إلى الدين والضمير؛ لأنّ الدين رأس الأخلاق، فقد ورد أنّ التقى رئيس الأخلاق.

لقد كان أخلاقيّاً يميل إلى العمل أكثر من ميله إلى النظر، يريد دائماً أن يتّصل بالناس فيؤثّر في نفوسهم ويخاطب ضمائرهم. وما من شكّ عنده في أنّ الأخلاق تتّصل بالإصلاح الديني، فحين تسلم العقائد من الشوائب والأوهام تسلم الملكات والأعمال من الخلل والاضطراب.

---

١. إحياء علوم الدين ٣: ٦١.

٢. بحار الأنوار ١٦: ٢١٠؛ كنز العمّال ١١: ٤٢٠، ح ٣١٩٦٩.

فالإسلام عقيدة معنويّة وخلقيّة، وكلاهما يمثّل دعوة إنسانيّة عامّة.

إنّ عمل شرف الدين في مجال الإصلاح الديني قد ارتكز على العودة إلى جوهر الدين، والتمشّي مع المفهوم الصحيح للعقيدة، والعمل بوحي الأخلاق الفاضلة، فضلاً عن دعوته المسلمين إلى الأُلفة والمحبّة والوحدة.

الوحدة الإسلاميّة ثالثاً

لا شكّ في أنّ لرجال الدين من المسلمين اليد الطولى في بعث روح الوحدة الإسلاميّة.

لقد ساهم شرف الدين في هذا المشروع الكبير رغم أنّه أدرك صعوبة تحقيقه، فالمسلمون مختلفو اللغات والأجناس والمذاهب، وهم متباعدو الأوطان، ويخضع بعضهم لسطوة الأجنبي. وتلك كلّها أسباب تشكّل عقبات في طريق الوحدة الإسلاميّة السياسيّة العامّة التي تراود أحلام المصلحين.

من أجل هذا دعا شرف الدين المسلمين أوّلاً إلى وحدة روحيّة تعمل على تحكيم القرآن، مؤكّداً أنّ من شأن هذه الوحدة أن توجّه الفكر، وتجمع القلوب، وتشيع بين المسلمين روح المحبّة والإخاء، وتؤدّي بالتالي إلى دولة تلمّ شعثهم، وترأب صدعهم، وتحافظ عليهم.

وبحث السيّد شرف الدين في طبيعة الوحدة الإسلاميّة، فعرض أوّلاً لأسباب التفكّك والانحلال بين المسلمين، وثانياً وضع الحلول التي تؤدّي إلى تلك الوحدة.

أسباب التفكك والانحلال

يرجع السيّد عبد الحسين شرف الدين الخلاف بين الفرق الإسلاميّة إلى أسباب دينيّة، ونفسيّة، وسياسيّة.

ـ أمّا الأسباب الدينيّة فتدور ـ في مجملها ـ حول الإمامة أو الخلافة، التي كانت

بنظره المصدر الأوّل للخلاف بين المسلمين.

ولكي يقطع دابر الخلاف حول هذه المسألة، درسها شرف الدين بعمق ورويّة، في كتابه \المر\اجعات، وكانت نتيجة دراسته إيجابيّة في تقريب وجهات النظر بين مختلف المذاهب الإسلاميّة.

ـ وتعود الأسباب النفسيّة إلى أنّ نفوس بعض الشيوخ والكهول، تأبى الانقياد للشباب والأحداث. من ذلك استنتج شرف الدين العلّة التي رفض العرب من أجلها خلافة عليّ بن أبي طالب، الذي كان ما يزال شابّاً.

ـ ويحلّل شرف الدين الأسباب السياسيّة فيصنّفها نوعين: بعيدة وقريبة.

أمّا الأسباب السياسيّة البعيدة، فتعود إلى انّ القبائل العربيّة التي رفضت الدخول في طاعة النبيّ محمّدﷺ إلّا عندما أصبح الإسلام أمراً واقعاً، أبت حصر الخلافة في عليّ وذرّيّته، فجعلت الأمر بالاتّفاق، وأن تنال كلّ قبيلة حظّها من الحكم. يقول شرف الدين في هذا الصدد:

عدل ... ساسة الأمّة وأولياء أُمورها ... بالخلافة فجعلوها بالاختيار ... إذ رأوا أنّ العرب لا تصبر على أن تكون في بيت مخصوص ... فجعلوها بالانتخاب، ليكون لكلّ حيّ من أحيائهم أملٌ بها ولو بعد حين، فكانت مرّة هنا، وأُخرى هناك، وتارةً هنالك، وهبّوا بكلّ ما لديهم من قوّة ونشاط إلى تأييد هذا المبدأ والقضاء على كلّ ما يخالفه [١].

وتبقى الأسباب السياسيّة القريبة وهي وثيقة الصلة بالاستعمار والأيدي الخبيثة التي تريد ضرب الإسلام، فمن يحمل الشعار الخفي «فرّق تسد» هو الاستعمار، الذي يبثّ روح الطائفيّة ويغذّيها، فيؤصّل الخلاف، ويوسّع التفرقة، لكي يصل إلى أهدافه الرامية إلى القضاء على الإسلام والمسلمين.

---

١. راجع الموسوعة ج ١، المراجعات: ١٨٧، المراجعة ١٨.

أُسس الوحدة الإسلاميّة

كانت الدعوة إلى الوحدة الإسلاميّة تنبعث من سائر تعاليم شرف الدين ومؤلّفاته، فهو يحذّر المسلمين من الخطر المحدق بهم والمهدّد لمصالحهم، إنّه يؤكّد أوّلاً على عدم استغراق مذهب إسلامي في مذهب إسلامي آخر. كما يدعو المسلمين ثانياً إلى تناسي الماضي وعدم نبش الخلافات السابقة، مشيراً إلى الاعتماد على النقد الموضوعي في هذا الصدد، لما له من دورٍ في الدفاع عن وحدة المسلمين. ويحثّ المسلمين ثالثاً إلى نبذ خلافاتهم الوهميّة التي زاد المستعمر في إشعالها. ويوصي رابعاً بتشجيع مواقف المخلصين الداعين إلى الوحدة الإسلاميّة، أيّاً كانوا، رجال دين أو سياسة. ويركّز خامساً على ترسيخ الروح الدينيّة في نفوس الشباب، وبناء جيل مؤمن بالنهج الإسلامي الصحيح.

يقول شرف الدين في هذا الصدد:

إنّ الطريق الوحيد إلى الوحدة الإسلاميّة بين طوائف المسلمين إنّما هو تحرير مذاهبهم، والاكتفاء من الجميع بالمحافظة على الشهادتين والإيمان باليوم الآخر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ... هذا هو الطريق الوحيد إلى توحيد كلمة الإسلام اليوم [١].

لقد خاف شرف الدين على الوحدة الإسلاميّة، فراح يردّ على مسائل موسى جار الله بأُسلوب موضوعي مرن وواضح. يقول في بداية ردوده على المسائل المذكورة:

فما وقفت عليها حتّى أوجست من مغازيها خيفة على الوحدة الإسلاميّة أن تنفصم عروتها، وتتفرّق جماعتها، إذ وجدت فيها من نبش الدفائن وإثارة الضغائن ما يشقّ عصا المسلمين ويمزّقهم تمزيقاً، والدور عصيب والظروف حرجة، لا تسع النقض والإبرام ولا المشادّة والمناقشة، فضلاً عن هذه المحاربة التي ليس بعدها مصاحبة، وكان من الواجب ترك هذه الغارات، ولا سيّما بعد أن تركتنا فرائس الحشرات، فحتّى مَ

---

١. راجع الموسوعة ج ٤، أجوبة مسائل موسى جار الله: ١٢٠.

هذا الإرجاف ؟ وفيما هذا الإجحاف ؟ أليس الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له ربّنا جميعاً والإسلام ديننا ؟ والقرآن الكريم كتابنا ؟ وسيّد النبيّين وخاتم المرسلين محمّد بن عبدالله نبيّنا ؟[1].

قال السيّد شرف الدين: «الشيعة والسنّة جدولان من نهر واحد، فرّقتهما السياسة فلتجمعهما السياسة»[2].

يقول شرف الدين في هذا الصدد:

إنّ الأُمّة الإسلاميّة لا مجد لها إلّا بدولة تلمّ شعثها، وترأب صدعها، وتحفظ ثغورها، وتراقب أُمورها. وهذه الدولة لا تقوم إلّا برعايا تؤازرها بأنفسها وأموالها ... ولا يجوز شقّ عصا المسلمين، وتفريق جماعتهم[3].

شجّع شرف الدين مواقف المخلصين الداعين إلى الوحدة الإسلاميّة، سواء أكانوا رجال دين أو سياسة، وذلك عن طريق مساعدتهم، ودعم مواقفهم والإشادة بها. ومثل هذا التشجيع نراه موجّهاً برسالة من الإمام شرف الدين إلى الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف المصريّة سابقاً، لنشره كتاباً في فقه الإماميّة هدف من خلاله إلى التقريب بين المذاهب الإسلاميّة كافّة يقول له فيه:

أخي في الله ووليّي فيه عزّ وجلّ الأُستاذ المجاهد الشيخ أحمد حسن الباقوري، أيّدك الله في مساعيك، وسدّدك في مراميك، والسلام عليك وعلى المتخلّقين بأخلاقك المقتفين أثرك، وعلى من حملتهم على جادّتك المثلى ونهجت لهم سبيلك المستقيم، وعلى من قاموا معك أو قمت معهم في مهمّة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، تتسوّرون شرفات الشرف وتتوغّلون في معارج العزّ فتبنون في الإسلام خطط الدعة والسلام على أُسس سيّد الأنام وخاتم الرسل الكرام ... أشهد أنّكم نصحتهم بهذا لله تعالى ولكتابه عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ ولأئمّة المسلمين ولعامّتهم، وأنّ الدين بكنهه وحقيقته يتمثّل في

---

١. الموسوعة ج ٤، أجوبة مسائل موسى جار الله: ٣ ـ ٤، الخطبة.

٢. النصّ والاجتهاد: ١٤، مقدّمة السيّد محمّدصادق الصدر.

٣. الموسوعة ج ١، المراجعات: ٣٨٦، المراجعة ٨٢.

هذا النصح، فيا له نصحاً تخشع أمامه العيون ... فلتهنّئكم الخصيصة وليهنّئكم الفتح المبين والخلود إلى يوم يبعثون. لم تفتكم الحكمة في أساليب التقريب والحمد لله، وكان من أنجعها نشركم ذلكم السفر القيّم في فقه الإماميّة المختصر النافع ... وما أجمل كلمتكم في قضيّة السنّة والشيعة صدّرتم بها كتاب المختصر فكانت في موضوعها الحدّ الفاصل بين الحقّ والباطل [1].

لاحظ شرف الدين أنّ المستعمر يعمل على جعل شبابنا متفكّكاً منحلّاً، عن طريق إرساليّاته ومدارسه التي تغرس في النفوس أفكاراً مشوّهة وأخلاقاً فاسدة، فيتخلّى شبابنا عن ارتباطاتهم الدينيّة والعقائديّة، ويصبحون حقلاً مثمراً لغاياته المشبوهة، بذلك يصل المستعمر إلى ما يهدف ويريد. لهذا أقام شرف الدين الكلّيّة الجعفريّة صرحاً شامخاً، تدرس إلى جانب العلوم العصريّة المفيدة، مناهج الدين الإسلامي؛ لترسيخ الروح الدينيّة في نفوس الشباب، وبناء جيل مؤمن بالنهج الإسلامي الصحيح، وعبارة شرف الدين في هذا الصدد مشهورة «لا ينشر الهدى إلّا من حيث انتشر الضلال»[2].

يبدو أنّ دعوة السيّد عبد الحسين شرف الدين للوحدة الإسلاميّة كانت على أساس بناء الوحدة الإسلاميّة بناءً موضوعيّاً، لا على أساس تناسي الماضي بشكل عاطفي. ولعلّ موافقة شرف الدين على اليوم الثاني عشر من ربيع الأوّل كذكرى لمولد النبيّ محمّد ﷺ كما يرى المسلمون السنّة[3]، خير دليل على غاية شرف الدين في سبيل تحقيق الوحدة الإسلاميّة؛ إذ ممّا لا شكّ فيه أنّ توحيد أيّام الأعياد عند المسلمين تساعد على توحيد صفوفهم ووحدة كلمتهم. هذا فضلاً عن أنّ رحلات السيّد شرف الدين العلميّة إلى مصر، وما نتج عنها من اتّصال فكري بينه وبين أعلام الأزهر،

---

١. مجلّة العرفان، م ٤٥، ص ٣٩١.

٢. المراجعات: ٢٠، مقدّمة الشيخ مرتضى آل ياسين؛ النصّ والاجتهاد: ٣٣، مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر، و ٥٩، مقدّمة السيّد محمّد تقي الحكيم.

٣. ويتّجه عموم علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام إلى أنّه السابع عشر من ربيع الأوّل.

ليست إلّا ترجمة عمليّة لغايته في سبيل وحدة المسلمين.

ومواقف شرف الدين إزاء مسألة الوحدة الإسلاميّة، والتي أظهرت اندفاعه وتضحيته في سبيل تحقيقها، من خلال عمله المتواصل على إزالة الخلافات والصراعات بين المسلمين، وسعيه في سبيل توحيد كلمتهم، وردّه على المغرضين المشوّهين لحقيقة مفهوم الإسلام عند المسلمين، كانت تلاقي التأييد والاستحسان من مختلف رجالات المذاهب الإسلاميّة.

مثل هذا التأييد والإشادة بمواقفه المختلفة إزاء الدين نقرؤه على لسان عبد العزيز سيّد الأهل، حيث يصف شرف الدين بقوله:

الإمام يدافع عن روح الإسلام وتعاليمه، وعن عامّة المسلمين وأئمّتهم ... تراه كالراعي الشفيق الذي يجمع إبله من هذا الجانب وذلك الجانب بزجرة لا تفزع أو ضربة لا تدمي، مخافة الهلكة ومضلّة الطريق ... ويعمل جاهداً على التقريب بين المسلمين ومذاهب المسلمين، كما اجتمع على ذلك المخلصون في كلّ الأقطار والأمصار[١].

كما نلمس مثل هذا التأييد من المفكّر الإسلامي الشيخ محمّد رشيد رضا، الذي أشاد بالروح الإسلاميّة العالية التي كان يتمتّع بها شرف الدين[٢].

لقد تخطّى المسلمون بعضاً من خلافاتهم السطحيّة، التي لا تمسّ جوهر الدين، وأخذوا يلملمون صفوفهم بغية توحيد كلمتهم، كان ذلك بعد وفاة شرف الدين بسنة واحدة وأيّام معدودة. آنذاك أطلق الأزهر اعترافه بالمذهب الجعفري مذهباً إسلاميّاً خامساً، وبذلك كُسر الطوق المنيع بين مذاهب المسلمين على تعدادها، ونفذت إرادة الأُمّة الإسلاميّة، وأصبح المذهب الإمامي يُدرّس في جامعة الأزهر ويقدّم إلى جمهور الناس، كما يُقدّم أيّ مذهب إسلامي آخر. وقد جاء اعتراف الأزهر الرسمي بالمذهب الشيعي، على لسان الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر بقوله:

---

١. مجلّة العرفان، م ٣٧، ص ٨٤٨ ـ ٨٥١.

٢. النصّ والاجتهاد: ١٤، مقدّمة السيّد محمّدصادق الصدر.

وجد المستعمر ثقوباً نفذ منها وأخذ يعمل على توسيع تلك الثقوب، حتّى استطاع أن يلج منها إلى وحدة المسلمين يمزّقها ويفرّق شملها، وبذلك دبّت فيما بينهم عقارب العصبيّة المذهبيّة، وكان من آثارها السيّئة ما حفظه التاريخ ... درستُ فيما مضى المقارنة بين المذاهب بكلّيّة الشريعة بالأزهر ... لقد قرّ رأيي إن شاء الله على أن أعمل على تدريس الفقه الإسلامي في كلّيّة الشريعة بجميع المذاهب الفقهيّة المعروفة الأُصول البيّنة المعالم، والتي من بينها من دون شكّ مذهب الشيعة إماميّة وزيديّة[١].

لقد ولّى منذ الآن عهد العصبيّة والتفرقة المذهبيّة، لقد أصبحنا في عصر العلم والعمل والذرّة والفضاء، ومن العار أن يبقى المسلمون شيعاً متفرّقين متنابذين. فالإسلام نشأ واحداً، ثورة على التفرقة والدعة والظلم والاستسلام، وذوداً عن الحرّيّة والكرامة، وهو اليوم يجب أن يكون كذلك، وهذا ما يقع، إلى حدٍّ بعيد، على عاتق رجال الدين.

إنّ دعوة شرف الدين في مجال الإصلاح الديني لا تُعدّ أكثر من طلب العودة إلى النهج الإسلامي الصحيح، إذ بواسطته يتخلّى المسلمون عن أساليب التفرقة المثيرة للحسّاسيّات.

الإصلاح السياسي رابعاً

من مواقف شرف الدين الهادفة إلى تحقيق الوحدة الوطنيّة، نذكر موقفه عندما أخذ اليمين من المؤتمرين في وادي الحجير، على حماية المسيحيّين وأملاكهم، وضبط النفس لتفويت الفرصة على المستعمرين الذين حاولوا إذكاء نار الفتنة الطائفيّة، كما نذكر أيضاً موقفه عندما آوى في منزله مسيحيّي دردغيا، الذين هربوا في أثناء الاعتداء على مزرعتهم، في خلال الأحداث الطائفيّة التي عصفت بالمنطقة العامليّة.

ونذكر في ما يلي بعض ما قاله شرف الدين في وادي الحجير، حول هذا الموضوع:

---

١. مجلّة العرفان، م ٤٦، ص ٦٠٨ ـ ٦١٠.

إنّ النصارى إخوانكم في الله وفي الوطن وفي المصير، فأحبّوا لهم ما تحبّون لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخمدون الفتنة وتطبّقون تعاليم دينكم وسنّة نبيّكم[1].

لقد أكّد شرف الدين، من خلال مواقفه الوطنيّة، أنّ وحدة الوطن هي أفضل أنواع الوحدة التي تقف في وجه الأحداث وأعاصير الخطوب؛ فرأى أنّ للأوطان منزلة خاصّة في نفوس أبنائها، وهذا ما يقتضي البذل والسخاء في سبيل حرّيّة الأرض وحماية الاستقلال، وبخاصّة ضدّ المستعمر الذي يماطل في إعادة الحقّ إلى اللبنانيّين.

إنّ مواقف شرف الدين الوطنيّة هدفت في جوهرها إلى زعزعة الحكم الاستعماري في لبنان وسوريا.

وما يمكن أن نقوله بحقّ شرف الدين في حقل الوطنيّة، أنّه كان رجل الدين والوطنيّة، فمثّل في عصره روح الدين خير تمثيل، كما عمل على تنبيه الشعب من خطر المستعمر ومساوئه، فسار مع أبناء وطنه في الطريق السليم، وفق نهج إسلامي صحيح، بعيداً عن السياسة الكاذبة، فالتّف العامليّون حوله في وثبته الإصلاحيّة الوطنيّة، عاملين معاً على طرد المستعمر بكلّ نضال وتضحية.

لم تكن مواقف شرف الدين في مجال السياسة الوطنيّة بأكثر أهمّيّة من مواقفه في مجال السياسة القوميّة، فهو لم ينسَ أبناء أُمّته العربيّة، ولم يتجاهل المشاكل التي تعرّضوا لها. ومن هنا فإنّ اهتمامه في هذا المجال يدور حول قضيّتين مهمّتين هما: قضيّة فلسطين، وقضيّة الوحدة العربيّة.

لقد عاش شرف الدين مأساة فلسطين، فما كتب شيء عنها إلّا وقرأه وباركه وشجّعه. أشاد ـ مثلاً ـ بالشيخ سليمان ظاهر وامتدحه؛ لما تضمّنه كتابه حول الفلسطينيّات من دفاع عن قضيّة فلسطين.

---

١. الموسوعة، ج ٩، خطابه في مؤتمر وادي الحجير، يوم السبت ٥ شعبان ١٣٣٨هـ/ ٢٤ نيسان ١٩٢٠م.

داعياً إلى الجهاد، عبر نداء وجّهه إلى العرب والمسلمين على حدٍّ سواء، تحدّث فيه عن وجوب تضحية العرب والمسلمين في سبيل قضيّة فلسطين، كما ضحّى الحسين بن عليّ في كربلاء من أجل قضيّته. فيجب علينا أن نقتدي به وننزع العار الذي لحقنا؛ لتكون شهادتنا في فلسطين حياة لأبنائنا من بعدنا.

إنّ كلّ من يتتبّع خطى شرف الدين ومواقفه على صعيد العمل السياسي القومي يلاحظ وفرة المشاعر القوميّة عنده، وذلك من خلال المواقف والمناسبات الكثيرة التي تحدّث فيها. كانت أُمنية شرف الدين مثلاً أن يقوم جيش عربي قوي؛ ولذا أسرع إلى التبرّع بالمبلغ الذي قدّمه إليه الملك فيصل إلى صندوق الجيش العربي السوري قائلاً: «تمنّيت أن أكون درهماً لأضع نفسي في صندوق الجيش العربي لأُدافع عن الإسلام والعرب»[1].

تلك المشاعر القوميّة التي تحدّثنا عنها، هي التي دفعت السيّد عبد الحسين شرف الدين إلى موقف عملي إزاء وحدة العرب، فقد كانت أوّل خطوة عمليّة لدعوة مفكّرنا إلى الوحدة العربيّة، في مؤتمر وادي الحجير، حيث ألقى بالمؤتمرين خطاباً ندّد فيه بكلّ أشكال الاستعمار، ورفض كلّ حماية ووصاية، وطالب بالاستقلال التامّ، ودمج جبل عامل بسوريا، وسوريا بالوطن العربي الكبير، على أُسس ثابتة، وبطرائق متدرّجة وعقلانيّة.

فالوحدة السوريّة التي نشدها شرف الدين وطالب بها، وسعى إلى تحقيقها، ليست إلّا نواة أو طريقاً إلى الوحدة العربيّة الشاملة، التي تزول معها كلّ العوائق، بما فيها الحواجز الجمركيّة.

وشرف الدين إذ يدعو إلى قيام الوحدة العربيّة الشاملة، يرى أنّ من الضروري تحقيقها؛ لما يجمع بين العرب من عوامل تاريخيّة وجغرافيّة واقتصاديّة ولغويّة

١. راجع الموسوعة ج ٢، النصّ والاجتهاد.

وقوميّة. لهذا فهو يؤكّد أن تقوم تلك الوحدة على الأُسس الآتية:

١. توحيد البرامج التعليميّة والتربويّة.

٢. توحيد السياسة الخارجيّة.

٣. توحيد الجيش العربي والدفاع.

٤. إزالة الحواجز الجمركيّة.

إنّ شرف الدين قد سعى، عن طريق الإصلاح السياسي، إلى تحرير وطنه، وعمل على تحقيق الوحدة العربيّة أيضاً.

الإصلاح الاجتماعي خامساً

حرص شرف الدين في مجال الإصلاح الاجتماعي على العمل على تطوير وطنه والنهوض به، وركّز على تحقيق العدالة الاجتماعيّة ونشر المساواة بين أفراد مجتمعه فبرزت نتيجة لذلك، موضوعات العلم، وتحقيق المصلحة العامّة، وموضوع الفقر وكيفيّة القضاء على هذه الآفة.

أ ـ دور العلم في بناء وتطوير المجتمع

إنّ اهتمام شرف الدين بالعلم، غايته تربية جيل وطني اجتماعي صالح، قادر على اللحاق بالركب الحضاري، وإعداد مجتمع متطوّر.

لقد رأى شرف الدين أنّ المستعمر كان مختبئاً وراء معاهده وإرساليّاته بتوجيه خبيث، وتربية سيّئة، وفكر مسموم. وتنبّه إلى المخطّط الاستعماري التعليمي الذي يهدف إلى خلق جيل عربي منحلّ، عن طريق إبعاد شبابنا عن المفاهيم الدينيّة الصحيحة، وبثّ سموم الخرافات، التي ما زلنا نعانيها حتّى يومنا هذا.

لم يدع شرف الدين الجهل يسيطر على أبناء مجتمعه، لقد سعى مندفعاً إلى تأسيس مدرسة تخفّف من جهل الأبناء من جهة، وتبعد عنهم خطر الأعداء وسمومهم من جهة ثانية، فكانت الكلّيّة الجعفريّة في صور.

إنّ شرف الدين قد ركّز على أهمّيّة العلوم الدينيّة والعصريّة ؛ لإعداد مجتمع مؤهّل لمواكبة الركب الحضاري.

ب ـ المنجزات الاجتماعيّة العامّة

١. العمل على إزالة الحيف اللاحق بأبناء جبل عامل، فيما يختصّ بالوظائف عامّة في الدوائر الحكوميّة وغيرها، وإنصافهم عن طريق مساواتهم بغيرهم من الذين نالوا حقوقهم كاملةً.

٢. إنشاء مشروع الليطاني؛ ليروي الأرض ويسقي السكّان، إذ لا يجوز أن تهدر مياهه في البحر وسكّان جبل عامل لا يشربون وأرضهم لا تُروى.

٣. الاهتمام بالمدارس الرسميّة وتطويرها وتعميمها على قرى جبل عامل.

٤. شقّ الطرقات وتعبيدها؛ لما لذلك من أهمّيّة تعود بالخير على أبناء المنطقة.

٥. إرسال أطبّاء يعملون في المنطقة العامليّة بشكل مستمرّ، لتقديم بعض الخدمات الصحّيّة.

٦. إعادة النظر في المحاكم الشرعيّة بغية إصلاحها، وإسناد القضاء إلى عدول العلماء.

٧. بناء النوادي الحسينيّة والمساجد في صور والقرى المجاورة لها.

لقد اتّخذ شرف الدين من النادي الحسيني والمسجد منبراً استخدمه لنشر الدعوة للتجديد ولنبذ الجمود، وإزالة القشور العالقة بالدين، وللاهتمام بالجوهر في الدين والحياة؛ كما اتّخذ منهما مكاناً ومنطلقاً للدعوة للفكر المستنير، وللإصلاح وتطوير أحوال المجتمع.

فالإسلام من خلال رؤى شرف الدين الاجتماعيّة، يعمل على تحقيق المساواة بين الناس، كما يحذّر من مساوئ الانقسامات والاختلافات بين أبناء المجتمع الواحد، ويدعو إلى التعاون الاجتماعي فيما بينهم. هذا فضلاً عن تأكيده على دور العلم،

وأهمّيّته في تطوير المجتمع، وحربه للبدع والأوهام، وعمله على تطوير المجتمع بمختلف الوسائل.

لقد وقف شرف الدين حياته لخدمة مجتمعه فكان مثالاً للخدمات الاجتماعيّة العامّة، وقدوة للتضامن الوطني المنتج.

ج ـ مشكلة الفقر وكيفيّة القضاء عليها

لقد عمل شرف الدين ما في وسعه للحدّ من انتشار آفة الفقر، وما رافقها من جوع، عن طريق التعاون بين الناس، حيث كان يأخذ من الأغنياء ما يتوجّب عليهم من حقوق شرعيّة فيوزّعها بدوره على الفقراء، بواسطة أشخاص انتدبهم لهذه الغاية. وقد نجح شرف الدين في هذا العمل خير نجاح، فاستطاع أن يحدّ من انتشار تلك الآفة وامتدادها، وأن يخفّف بالتالي من جوع الناس، عن طريق تلك الحقوق التي حرص على توزيعها بالتساوي على الفقراء.

فكر الإمام شرف الدين

إنّ شرف الدين لم يحصر نفسه بين أسوار مدرسة فكريّة على وجه التحديد، ولكنّه انطلق بفكره نحو تحصيل العلوم ومواكبة روح العصر، لذلك نرى أنّه ليس من الإنصاف أن نأخذ بروحانيّته المشرقة فنعتبره تلميذ الغزالي مثلاً، أو بعقلانيّته الحاسمة فنقطع أنّه تلميذ ابن رشد دون سواه، أو نرى في ثورته على البدع الدينيّة تقرّباً من خطّ الأفغاني وعبده، فإنّه رجل مدرسة أهل البيت الشاملة.

وإن كان لا بدّ أن يتفاعل شرف الدين مع بعض المفكّرين من معاصريه على وجه التحديد، فهم كثيرون.

فإذا ثار على البدع الدينيّة ودعا إلى تخليص الفهم للدين من شوائب القصور، فلأنّه تفاعل مع الأفغاني ومن حذا حذوه.

أمّا متاهات المذاهب فقد ضرب في مناكبها ليعرف كيف يسير.

وكانت واجهات العصر وذخائر التراث موائد حافلة تنقّل بينها، ليصيب أطايبها.

ولو عدنا إلى تنظيراته في المسائل السياسيّة والاجتماعيّة، لقلنا إنّه لم يكن مرتبطاً بمذهب فلسفي معيّن؛ لأنّ استعداده الذاتي وقدرته على الفهم والانتقاء عن قناعة واجتهاد قد أبت عليه التبعيّة والتقليد.

إنّ شرف الدين صاحب اتّجاه فكري متميّز، انتفع بسائر الاتّجاهات واحتفظ لصاحبه بخطّ من الأصالة والابتكار. وإذا أردنا أن نجمل أبرز الخصائص العامّة لهذا الاتّجاه، استطعنا عرضها على النحو الآتي:

١. آمن بالدين واستخدمه في غايات عمليّة.

٢. حاول أن يقرّب فهم الناس للدين إلى روح العصر عن طريق تقديم التفسير الصحيح للنصوص، ومن هنا يمكن أن نلمس عنده تآلفاً وانسجاماً بين ناحيتين هامّتين:

ـ تمسّكه بالإسلام كشريعة تحدّد سلوك الفرد.

ـ مناداته بضرورة التطوّر العصري الذي عمل من أجله.

٣. استقطب الآراء المختلفة نقداً وتحليلاً وفحصاً وترجيحاً.

٤. قرن القول بالفعل والفكر بالإصلاح العملي والسلوكي منطلقاً من ذاته باتّجاه مجتمعه وعالمه.

فشرف الدين يدعو إلى أصالة تعود بنا إلى ينابيع الدين الإسلامي النقيّة ونصوصه البكر وحقائقه الجوهريّة.

وأخيراً، كان السيّد شرف الدين أحد أبرز رجال الدين من المسلمين، الذين عاشوا حياتهم مؤثّرين ومتأثّرين ببيئتهم، متفاعلين وفاعلين فيها، حتّى برزت مواقفه الإصلاحيّة في مختلف المجالات الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة.

لقد فهم شرف الدين الإسلام على حقيقته، فنهج وفق تعاليمه وراح يعلي من مبادئه

بسلوكه العملي، فواصل بذلك تاريخ الفكر الإسلامي النقي على مدار التاريخ الإسلامي، في وقفته إزاء الانحراف الديني، والاستبداد السياسي، والطغيان الاجتماعي، الأمر الذي يذكّرنا بأبي ذرّ الغفاري، أوّل ثائر في الإسلام، الذي دافع عن المظلومين، وحارب التقاليد الجائرة، والنظم المنحرفة، مبيّناً بذلك النهج الإسلامي الصحيح.

وأنّى كانت اتّجاهات شرف الدين العمليّة ومناحيه الفكريّة، فيمكن القول بأنّها قد تحوّلت إلى مدرسة فكريّة إصلاحيّة أخذت على عاتقها عبء الإصلاح ولا تزال. هكذا ظلّ شرف الدين موصولاً بدنيا الفكر والإصلاح معاً[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

تمّت مراجعته عصر الجمعة
ذكرى مولد خاتم الأوصياء
الإمام المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه
١٥ شعبان المعظّم سنة ١٤٢٥

---

١. الجانب الإصلاحي عند السيّد عبد الحسين شرف الدين، للدكتور هادي فضل الله في مؤتمر تكريم المفكّر الإسلامي الكبير السيّد عبد الحسين شرف الدين، بيروت ١٨ ـ ١٩ شباط ١٩٩٢م، المستشاريّة الثقافيّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة.

فهرس مصادر التحقيق

١ . *أبو هريرة*. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). النجف الأشرف، المطبعة الحيدريّة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

٢ . *أجوبة مسائل موسى جار الله*. السيّد عبدالحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). تحقيق السيّد عبد الزهراء إلياس. الطبعة الأُولى، قم، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

٣ . *إحياء علوم الدين*. محمّد بن محمّد الغزّالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥). ٤ مجلّدات، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٤ . *أديب في السوق*. عمر فاخوري. بيروت، ١٩٤٢م.

٥ . *استراتيجيّة الصهيونيّة وإسرائيل تجاه المنطقة العربيّة والحزام المحيط بها*. مشرف حبيب قهوجي. دمشق، مؤسّسة الأرض للدراسات الفلسطينيّة، ١٩٨٢م.

٦ . *أصل الشيعة وأُصولها*. محمّد حسين آل كاشف الغطاء. تحقيق علاء آل جعفر. الطبعة الأُولى، قم، مؤسّسة الإمام علي عليه السلام، ١٤١٥هـ.

٧ . *الأعاصير*. رشيد سليم الخوري.

٨ . *الأعلام*. خيرالدين الزِرِكْلي (١٣١٠ ـ ١٣٩٦). الطبعة الثامنة، ٨ مجلّدات، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٩م.

٩ . *الأعمال الكاملة للأُستاذ محمّد عبده*. دار الشروق، ١٩٩٣م.

١٠ . *الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني* . جمع وتحقيق: محمّد عمارة، القاهرة، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والنشر، ١٩٦٨م.

١١ . *أعيان الشيعة*. السيّد محسن الأمين العاملي (١٢٨٤ ـ ١٣٧١). ١٠ مجلّدات، دار التعارف، ١٩٨٧ ـ ١٩٩٦م.

١٢ . *الأقلّيات بين العروبة والإسلام*. محمّد السمّاك. الطبعة الأُولى، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م.

١٣ . *أكثر أبو هريرة*. دراسة تحليليّة نقديّة. مصطفى بوهندي. الطبعة الثانية، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م.

١٤ . *الإلهام*. أمين ناصر الدين.

١٥ . *إلى المجمع العلمي العربي بدمشق*. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). كربلاء المقدّسة، دار المحيط للمطبوعات، ١٩٦٧م.

١٦ . *الأمالي*. الشيخ الصدوق (م ٣٨١). الطبعة الخامسة، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

١٧ . *الإمام الحكيم*. أحمد الحسيني.

١٨ . *الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين قائد فكر وعلم ونضال*. عبد الحميد الحرّ. بيروت، دار الصادق.

١٩ . *الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين مصلحاً ومفكّراً وأديباً*. لعدّة من الفضلاء. الطبعة الأُولى، بيروت، مؤتمر تكريم المفكّر الإسلامي الكبير السيّد عبد الحسين شرف الدين، ١٩٩٣م.

٢٠ . *الإمام السيّد موسى الصدر*. منبر و محراب. ١٩٦٠ ـ ١٩٦٩. دار الأرقم، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٢١ . *الإمام شرف الدين حزمة ضوء على طريق الفكر الإمامي*. عبّاس علي (الكاظمي). النجف الأشرف، مطبعة النعمان، ١٩٦٨م.

٢٢ . *الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة*. أسد حيدر. بيروت، دار التعارف.

٢٣ . *الإمامة وأهل البيت*. شهيد المحراب السيّد محمّد باقر الحكيم. الطبعة الأُولى، بيروت، المركز الإسلامي المعاصر، ١٤٢٥هـ.

٢٤ . *أمل الآمِل*. الشيخ الحرّ العاملي (١٠٣٣ ـ ١١٠٤). تحقيق أحمد الحسيني. مجلّدان، بغداد، مكتبة الأندلس، ١٩٦٥م.

٢٥ . *إيران والعراق خلال خمسة قرون*. حسن مجيد الدجيلي. الطبعة الأُولى، بيروت، دار الأضواء، ١٩٩٩م.

٢٦ . *بحار الأنوار*. العلّامة محمّد باقر المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١٠). الطبعة الثانية، ١١٠ مجلّد، طهران، المكتبة الإسلاميّة.

٢٧ . *بُغية الراغبين* (في سلسلة آل شرف الدين). الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). تحقيق السيّد عبد الله شرف الدين. الطبعة الأُولى، مجلّدان، بيروت، الدار الإسلاميّة، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٢٨ . *بين الدروز والموارنة*. تشارلز هنري تشرشل. ترجمة: قندي الشعّار. دار العروج، ١٩٨٤م.

٢٩ . *تاريخ الأُستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده*. محمّد رشيد رضا. القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٣١م.

٣٠ . *تاريخ جبل عامل*. محمّد جابر آل صفا. الطبعة الثانية، بيروت، دار النهار، ١٩٨١م.

٣١ . *التاريخ الحديث للشعوب الإسلاميّة*. عبدالعزيز سليمان نوّار. بيروت، دار النهضة، ١٩٧٣م.

٣٢ . *تاريخ الحركة الإسلاميّة في العراق*. عبد الحليم الرهيمي. بيروت، الدار العالميّة، ١٩٨٥م.

٣٣ . *تاريخ الشيعة*. الشيخ محمّد حسين المظفّر.

٣٤ . *تاريخ العراق السياسي المعاصر*. السيّد حسن شبّر. الطبعة الأُولى، بيروت، ١٩٩٠م.

٣٥ . *تاريخ لبنان الحديث*. كمال الصليبي. بيروت، دار النهار، ١٩٧٨م.

٣٦ . *تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام*. السيّد حسن الصدر (١٢٧٢ ـ ١٣٥٤). شركة النشر والطباعة العراقيّة المحدودة [بالأوفست عن طبعة منشورات الأعلمي، طهران].

٣٧ . *التبشير والاستعمار*. الدكتور عمر فرّوخ والدكتور مصطفى خالدي. الطبعة الرابعة، بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٧٠م.

٣٨ . *تحرير المرأة*. قاسم أمين. القاهرة، محمّد محمّد زكي الدين.

٣٩ . *تقريرات آية الله المجدّد الشيرازي*. علي الروزدري. الطبعة الأُولى، قم، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٩هـ.

٤٠ . *تكملة أمل الآمل*. السيّد حسن الصدر (١٢٧٢ ـ ١٣٥٤). بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٦م.

٤١ . *تنبيه الأُمّة وتنزيه الملّة*. محمّد حسين النائيني (١٢٣٩ ـ ١٣١٥). الطبعة الأُولى، قم، بوستان كتاب، ١٣٨٢ش.

٤٢ . *ثبت الأثبات*. الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧).

٤٣ . *ثورة إيران في جذورها الإسلاميّة الشيعيّة*. السيّد حسن الأمين. بيروت، دار النهار، ١٩٧٩م.

٤٤ . *الثورة العراقيّة الكبرى (سنة ١٩٢٠)*. عبد الله الفيّاض. الطبعة الثانية، بغداد، مطبعة دار السلام، ١٩٧٥م.

٤٥ . *ثورة النجف*. حسن الأسدي.

٤٦ . *جبل عامل في التاريخ*. محمّد تقي الغيثة. بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٦م.

٤٧ . *جبل لبنان*. عشر سنوات. تشارلز تشرشل. دار العروج، ١٩٨٥م.

٤٨ . *الجذور السياسيّة والفكريّة للحركة القوميّة في العراق*. وميض جمال نظمي.

٤٩ . *جمال الدين الأفغاني*. حسن حنفي. القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

٥٠ . *جمال الدين الأفغاني والاتّجاهات الإسلاميّة في أدبه*. علي عبد الحليم محمود. جدّة، دار عكاظ، ١٩٨٠م.

٥١ . *حركة الإصلاح الشيعي علماء جبل عامل وأُدباؤه*. صابر نياميرفان. ترجمه عن الفرنسيّة هيثم الأمين.

٥٢ . *الحقائق الناصعة في الثورة العراقيّة ١٩٢٠ ونتائجها*. فريق المزهر آل فرعون، الطبعة الأُولى، بغداد، مطبعة النجاح، ١٣٧١هـ.

٥٣ . *حليف مخزوم*. السيّد صدر الدين شرف الدين. الطبعة الأُولى، النجف الأشرف، مطبعة النعمان، ١٣٨٣هـ.

٥٤ . *حياة الإمام شرف الدين في سطور*. أحمد قبيسي. بيروت، دار التوحيد الإسلامي، ١٩٨٠م.

٥٥ . *خطط جبل عامل*. السيّد محسن الأمين العاملي (١٢٨٤ ـ ١٣٧١). بيروت، مطبعة الإنصاف، ١٩٦١م.

٥٦ . *دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة*. حسن الأمين. الطبعة الثالثة، بيروت، دار التعارف، ١٩٨١م.

٥٧ . *الدستور والبرلمان في الفكر السياسي الشيعي*. جعفر عبد الرزّاق. ٢٠٠٠ م.

٥٨ . *دور الشيعة في تطوّر العراق السياسي الحديث* . عبد الله فهد النفيسي. بيروت، دار النهار، ١٩٧٣م.

٥٩ . *ديوان الخليل*.

٦٠ . *ديوان السيّد محمّد سعيد الحبّوبي*. عبد الغفّار الحبّوبي.

٦١ . *رائد الفكر الإصلاحي السيّد عبد الحسين شرف الدين*. هادي فضل الله. مع مقدّمة محمّد حسن الأمين. مؤسّسة عزّ الدين، ١٩٨٧م.

٦٢ . *رسالة التنزيه لأعمال الشبيه*. السيّد محسن الأمين. العرفان، ١٩٢٨م.

٦٣ . *روّاد النهضة الحديثة*. مارون عبّود. بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٧م.

٦٤ . زعماء *الإصلاح في العصر الحديث*. أحمد أمين. مكتبة النهضة المصريّة، ١٩٧٠م.

٦٥ . *الساق على الساق*. أحمد فارس الشدياق. بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٦٦م.

٦٦ . *سفينة البحار*. الشيخ عبّاس القمّي (١٢٩٤ ـ ١٣٥١). تحقيق مركز الدراسات والتحقيقات الإسلاميّة. الطبعة الأُولى، ٨ مجلّدات، دار الأُسوة، ١٤١٤هـ.

٦٧ . *السقيفة*. الشيخ محمّد رضا المظفّر. الطبعة الثالثة، النجف الأشرف، المطبعة الحيدريّة، ١٣٨٤هـ.

٦٨ . *سلافة النديم*. عبد الله النديم. القاهرة، المطبعة الهنديّة، ١٩٠١م.

٦٩ . *سنن ابن ماجة*. محمّد بن يزيد بن ماجة القزويني (٢٠٧ / ٢٠٩ ـ ٢٧٣ / ٢٧٥). مجلّدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٧٠ . *سنن الترمذي (الجامع الصحيح)*. محمّد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩). ٥ مجلّدات، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٧١ . *سنن النسائي*. بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٧٢ . *السيّد جعفر شرف الدين* (سيرة مجتمع في سيرة رجل. سيرة رجل في سيرة مـجتمع). إعداد حسين شرف الدين. الطبعة الأُولى، صور، مؤسّسات الكلّيّة الجعفريّة، ٢٠٠٢ م.

٧٣ . *السيّد محسن الأمين المناحي الفكريّة والمواقف الإصلاحيّة*. هادي فضل الله. الطبعة الأُولى، بيروت، دار البلاغة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٧٤ . *السيّد محسن الأمين سيرته ونتاجه*. علي مرتضى الأمين. بيروت، دار الهادي، ١٩٩٢م.

٧٥ . *السيّد محمّد باقر الصدر دراسة في المنهج*. نزيه الحسن. بيروت، دار التعارف، ١٩٩٢م.

٧٦ . *شرف الدين*. محمّد رضا الحكيمي. تعريب السيّد علي السيّد عبد الله شرف الدين. الطبعة الأُولى، بيروت، دار الأرقم، ٢٠٠١ م.

٧٧ . *الشريط اللبناني المحتلّ*. منذر محمود جابر. مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

٧٨ . *شعراء الغري*. علي الخاقاني. قم، مكتبة آية الله المرعشي، ١٤٠٨هـ [بالأُوفست عن طبعة النجف الأشرف].

٧٩ . *شيخ المضيرة*. محمود أبو ريّة. الطبعة الثالثة، مصر، دار المعارف.

٨٠ . *الشيعة بين الحقائق والأوهام* (نقض الوشيعة). السيّد محسن الأمين العـاملي (١٢٨٤ ـ ١٣٧١). الطبعه الثانية، المطبعة العامليّة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٨١ . *الشيعة على المفترق ـ أو ـ موسى الصدر*. نجيب جمال الدين. الطبعة الأُولى، ١٩٦٧م.

٨٢ . *الشيعة في التاريخ*. محمّد حسين الزين. صيدار، مطبعة العرفان، ١٩٣٨م.

٨٣ . *صحيح مسلم*. مسلم بن الحجّاج النيسابوري (٢٠٦ ـ ٢٦١). الطبعة الثانية، ٥ مجلّدات، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٨هـ.

٨٤ . *صفحات من تاريخ جبل عامل في العهدين العثماني والفرنسي*. نوال فيّاض. الطبعة الأُولى، ١٩٩٨م.

٨٥ . *صلح الحسن* عليه السلام. الشيخ راضي آل ياسين. الطبعة الثانية، بغداد، منشورات دار الكتب العراقيّة في الكاظميّة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م.

٨٦ . *الصواعق المحرقة*. ابن حجر الهيثمي (٨٩٩ ـ ٩٧٤). الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤١٤هـ.

٨٧ . *الضاحية الجنوبيّة أيّام زمان*. محمّد كزما. الطبعة الأُولى، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ١٩٨٤م.

٨٨ . *طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد*. عبدالرحمن الكواكبي. القاهرة، المطبعة الرحمانيّة، ١٩٣١م.

٨٩ . *العروة الوثقى*. مجلّة كان يصدرها جمال الدين الأفغاني مع الشيخ محمّد عبدة في باريس.

٩٠ . *عصر الإمام شرف الدين* . السيّد منذر الحكيم.

٩١ . *الغدير*. العلّامة عبد الحسين الأميني (١٣٢٠ ـ ١٣٩٠). تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة.

٩٢ . *الفصول المهمّة في تأليف الأمّة*. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). الطبعة السابعة، بيروت، دار الزهراء، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

٩٣ . *الفكر الاستشراقي تأريخه وتقويمه*. محمّد الدسوقي. إشراف محمّد علي التسخيري. الطبعة الأُولى، ١٩٩٦م.

٩٤ . *الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي*. محمّد البهي. الطبعة السادسة، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٣م.

٩٥ . *قراءة موجزة لمسيرة الصحيفة العامليّة الأُولى (العرفان)*. فؤاد الزين. elshof.com.

٩٦ . *القوميّة العربيّة*. مصطفى الشهابي. (معهد الدراسات العربيّة العليا، جامعة الدول العربيّة). الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦١م.

٩٧ . *الكتاب الثالث مجلّة الحياة الطيّبة*. بيروت، معهد الرسول الأعظم.

٩٨ . *كشف الارتياب*. السيّد محسن الأمين العاملي (١٢٨٤ ـ ١٣٧١). دمشق، مطبعة ابن زيدون، ١٩٢٨م.

٩٩ . *كلمة حول الرؤية*. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). النجف الأشرف، دار النعمان، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

١٠٠ . *الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء* عليها السلام. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). النجف الأشرف، دار النعمان.

١٠١ . *كنز العمّال*. المتّقي الهندي (٨٨٨ ـ ٩٧٥). ١٨ مجلّداً، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٩٨٥م.

١٠٢ . *لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني*. محمّد علي مكّي. الطبعة الثانية، دار النهار للنشر، ١٩٧٩م.

١٠٣ . *لبنان والنهضة العربيّة الحديثة*. جبران مسعود. بيروت، بيت الحكمة، ١٩٦٧م.

١٠٤ . *لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث*. علي الوردي. الطبعة الثانية، لندن، دار كوخان، ١٩٩١م.

١٠٥ . *ماضي النجف وحاضرها*. الشيخ جعفر آل محبوبة (حوالي ١٣١٤ ـ ١٣٧٧). الطبعة الثانية، ٣ مجلّدات، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٠٦ . *مباحث الأُصول*. تقرير بحث الشهيد الصدر. آية الله السيّد كاظم الحائري. ج ١ من القسم ٢، الطبعة الأُولى، ١٤٠٧هـ.

١٠٧ . *المجالس السنيّة*. السيّد محسن الأمين العاملي (١٢٨٤ ـ ١٣٧١). بيروت، دار التعارف.

١٠٨ . *المجالس الفاخرة*. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). تحقيق محمّد جواد فخر الدين. الطبعة الأُولى، مؤسّسة العارف للمطبوعات، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م.

١٠٩ . *مجلّة التوحيد*. الأعداد: ٧٥ ـ ١٠٥.

١١٠ . *مجلّة العرفان ونظرتها إلى التاريخ ١٩٠٩ ـ ١٩٦٠*. رسالة ماجستير أعدّها علي راغب حيدر أحمد. جامعة القدّيس يوسف.

١١١ . *المجلس الثقافي للبنان الجنوبي*. (عشرون عاماً للجنوب والثقافة الوطنيّة). إعداد فوزيّة فوّاز. تقديم حبيب صادق. بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١ ـ ١٩٨٥م.

١١٢ . *مجمع البيان في تفسير القرآن*. أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (٤٧٠ ـ ٥٤٨). بيروت، المكتبة العلميّة الإسلاميّة.

١١٣ . *محاضرات في نشوء الفكرة القوميّة*. ساطع الحصري. الطبعة الرابعة. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٩م.

١١٤ . *مختصر تاريخ الشيعة*. أحمد عارف الزين. صيدا، مطبعة العرفان، ١٩١٤م.

١١٥ . *مختصر الكلام في مؤلّفي الشيعة من صدر الإسلام*. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧).

١١٦ . *مدرسة النجف وتطوّر الحركة الإصلاحيّة فيها*. محمّد مهدي الآصفي. النجف الأشرف.

١١٧ . *مذكّرات ماروني*. الدكتور منشال الغريب. الطبعة الأُولى، ١٩٨٤م.

١١٨ . *المذهب المحمّدي*. جب Gibb (المستشرق الإنكليزي).

١١٩ . *المراجعات*. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). تحقيق محمّد جميل حمّود. الطبعة الأُولى، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م. والطبعة الخامس عشر، بيروت، دار الأندلس، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م.

١٢٠ . *مسائل فقهيّة*. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). تحقيق ونشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام. الطبعة الأُولى، قم، ١٤٢٠هـ.

١٢١ . *مسند أحمد*. أحمد بن حنبل الشيباني (١٦٤ ـ ٢٤١). بيروت، دار صادر.

١٢٢ . *المشروع الماروني في لبنان*. محمّد زعيتر. الوكالة العالميّة للتوزيع، ١٩٨٦م.

١٢٣ . *معارف الرجال*. الشيخ محمّد حرز الدين (١٢٧٣ ـ ١٣٦٥). ٣ مجلّدات، قم، مكتبة آية الله المرعشي، ١٤٠٥هـ.

١٢٤ . *معالم المدرستين*. السيّد مرتضى العسكري. الطبعة الثانية، طهران، قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، ١٤٠٦هـ.

١٢٥ . *مع علماء النجف الأشرف*. الشيخ محمّد جواد مغنية. بيروت، المكتبة الأهليّة، ١٩٦٢م.

١٢٦ . *من أعلام الفكر والقيادة والمرجعيّة*. عبد الكريم آل نجف.

١٢٧ . *مناهج الألباب المصريّة في مناهج الآداب العصريّة*. رفاعة الطهطاوي. الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة شركة الرغائب، ١٩١٢م.

١٢٨ . *الموسوعة التاريخيّة الحديثة* (تاريخ القرن العشرين). پيير رونوفق. تعريب الدكتور نور الدين حاطوم. الطبعة الثانية، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠م.

١٢٩ . *الموسوعة التاريخيّة الحديثة* (قضايا عصرنا منذ ١٩٤٥). تأليف جماعة من المؤلّفين الغربيّين. تعريب الدكتور نور الدين حاطوم، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٢م.

١٣٠ . *موسوعة العتبات المقدّسة*. جعفر الخليلي. الطبعة الثانية، ١٢مجلّداً، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٣١ . *الموسوعة العربيّة الميسّرة*. محمّد شفيق غربال. مجلّدان، بيروت، دار نهضة لبنان للطبع والنشر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٣٢ . *الميزان في تفسير القرآن*. السيّد محمّد حسين الطباطبائي. ٢٠ مجلّداً، بيروت، مؤسّسة الأعلمي.

١٣٣ . *النصّ والاجتهاد*. السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧). تحقيق وتعليق: أبو مجتبى. الطبعة الأولى. و تقديم السيّد محمّد صادق الصدر. الطبعة الثالثة، النجف الأشرف، دار النعمان، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

١٣٤ . *نقباء البشر* (طبقات أعلام الشيعة). الشيخ أقا بزرك الطهراني (١٢٩٣ ـ ١٣٨٩). الطبعة الثانية، مشهد، دار المرتضى للنشر، ١٤٠٤هـ.

١٣٥ . *الوقائع الحقيقيّة في الثورة العراقيّة*. علي البازركان. بغداد، ١٩٥٤م.

١٣٦ . *هديّة الرازي إلى الإمام المجدّد الشيرازي*. الشيخ أقا بزرك الطهراني (١٢٩٣ ـ ١٣٨٩). النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ١٣٨٦هـ.

فهرس الموضوعات

الباب الأوّل: حركة الإصلاح في عصر شرف الدين

الباب الثاني: من هو شرف الدين؟

الباب الثالث: تاريخ الإمام شرف الدين (مرحلة النشأة)

الباب الرابع: الإمام شرف الدين في جبل عامل

الباب الخامس: الإمام شرف الدين والنهضة الثقافيّة

الباب السادس: قضايا العالم والبحر المتوسّط ما بين الحربين العالميّتين

الباب السابع: الإمام شرف الدين في أيّام الحرب العالميّة الثانية

الباب الثامن: العقد الأخير من حياة الإمام شرف الدين

الباب التاسع: الإمام شرف الدين في ذمّة الخلود

الباب العاشر: مدرسة الإمام شرف الدين